

السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

الجزء الثاني

العصر العباسي الأول
في الشرق ومصر والمغرب والأندلس
(١٣٢-٢٣٢هـ/٧٤٩-٨٤٧م)

تأليف
الدكتور حسن ابراهيم حسن

مدير جامعة أسيوط، وأستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة القاهرة
وأستاذ الدراسات الإسلامية وتاريخ الشرق الأدنى بجامعات
بنسلفينيا وكاليفورنيا والرباط سابقاً
وأستاذ التاريخ الإسلامي بمعهد الدراسات الإسلامية العالية
جامعة بغداد

مكتبة النهضة المصرية
القاهرة

دار الجيل
بيروت


تاريخ الإسلام
السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

تاريخ الإسلام

السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

الجزء الثاني

العصر العباسي الأول
في الشرق ومصر والمغرب والأندلس
(١٣٢ - ٢٣٢هـ/ ٧٤٩ - ٨٤٧م)

تأليف

الدكتور حسن إبراهيم حسن

مدير جامعة أسيوط، وأستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة القاهرة
وأستاذ الدراسات الإسلامية وتاريخ الشرق الأدنى بجامعات
بنسلفينيا وكاليفورنيا والرباط سابقاً
وأستاذ التاريخ الإسلامي بمعهد الدراسات الإسلامية العالية
جامعة بغداد

دار الجيل
بيروت

مكتبة النهضة المصرية
القاهرة

الطبعة الثالثة عشرة

١٤١١هـ - ١٩٩١م

دار الجيل
بيروت

مكتبة النهضة المصرية
القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

ظهرت الطبعة الأولى من الجزء الثاني من هذا الكتاب من شهر فبراير سنة ١٩٤٥، والطبعة الثانية في شهر مايو سنة ١٩٤٨، والثالثة في شهر سبتمبر سنة ١٩٥٢، والرابعة في شهر يناير سنة ١٩٥٨، والخامسة في شهر نوفمبر سنة ١٩٥٩. ولما نفدت الطبعة الأخيرة من هذا الكتاب، حرصت على إعادة طبعه للمرة السابعة، فأدخلت عليه مادة جديدة في نواحي متعددة من الكتاب، ورجعت إلى مصادر عربية وإفرنجية أخرى، يجدها القارىء في الهوامش، وفي ثبت المصادر، وفي الفهارس.

وقد أصبحت أبواب هذا الجزء تسعة أبواب، بحثت في الباب الأول منها حالة الأحزاب في آخر العصر الأموي وما كان لها من أثر في قيام الدولة العباسية؛ وترجمت في الباب الثاني لخلفاء العصر العباسي الأول، مبيناً أهم الأحداث التاريخية التي وقعت في عهد كل منهم. وعالجت في الباب الثالث الحركات السياسية والدينية واتجاهاتها وما كان لها أثر في السياسة والدين والأدب والاجتماع وغير ذلك. وبحثت في الباب الرابع العلاقات الخارجية للدولة العباسية مع بلاد المغرب، ومع بلاد الأندلس والفرنجة، ومع البيزنطيين والهند. وتكلمت في الباب الخامس على نظم الحكم السياسية والإدارية والمالية والحربية والقضائية، لأبين كيف كانت تدار الحكومة الإسلامية في ذلك العصر. وعرضت في الباب السادس للحالة الاقتصادية وما بلغه المسلمون من تقدم ورقي في ميدان الزراعة والتجارة. ثم ألممت في الباب السابع بحالة الثقافة، فبحثت أنواع العلوم النقلية، كعلم القراءات، والتفسير، والحديث، والفقه، وعلم الكلام، والنحو والأدب، وأنواع العلوم العقلية، وما كان لتشجيع الخلفاء والأمراء ورجال الدولة من أثر في ترجمة الكتب الأجنبية إلى العربية. كما تكلمت على معاهد الدرس والثقافة، واهتمام المسلمين بالتاريخ والجغرافية وعلم النجوم والرياضيات والكيمياء والطب، وأفردت للفن باباً خاصاً هو الباب الثامن، فألممت فيه بتاريخ الفنون، وخاصة فن العمارة الذي يعتبر بحق مقياساً

لحضارة الأمم ونهضتها في كل عصر. ثم تناولت في الباب التاسع الحالة الاجتماعية، فبحثت في طبقات المجتمع العباسي. ومجالس الغناء والطرب، وقصور الخلفاء والأمراء والوزراء وغيرهم، وألوان الطعام واللباس، والأعياد والمواسم والحفلات وأنواع التسلية، وما كان للمرأة من أثر في هذا المجتمع.

وقد سرت في هذا الجزء على المنهج الذي سرت عليه في الجزأين الأول والثالث من هذا الكتاب، فبحثت في هذا العصر من نواحيه المختلفة: سياسية ودينية وثقافية واجتماعية. كما يرى القارىء في الهوامش وفي ذيل الكتاب تنبيهاً على المصادر لمن أراد التوسع في مسألة من المسائل التي لم يسمح المجال بالتوسع فيها، وذيلت الكتاب بثبت ذكرت فيه المصادر مرتبة بحسب أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين، كما ذيلته بفهرس عام يشمل أسماء الأعلام من الرجال والنساء والأماكن والحوادث التاريخية الهامة.

ومن دواعي الفخر أن أنوه في هذا المقام أن هذا الكتاب الذي ظهرت الأجزاء الثلاثة الأولى منه قد ترجم إلى اللغة الأردية بحكومة الباكستان، كما طلب إليَّ الموافقة على ترجمته إلى اللغة الأندونيسية، وإلى اللغة الإنكليزية.

كما يسرني أن أقدم الطبعة الأولى من الجزء الرابع الذي طال انتظاره، بعد أن أعددته للطبع، وأرجو أن أقدمه إلى قرائي الكرام بعد قليل. والله أسأل أن يوفقني إلى إتمام الجزء الخامس تحقيقاً لفائدة طلاب الثقافة الإسلامية.

الجيزة في شهر سبتمبر سنة ١٩٦٤

حسن إبراهيم حسن

الباب الأول
حالة الأحزاب في آخر العصر الأموي
ـ الجماعية ـ الشيعة ـ الخوارج ـ المرجئة ـ المعتزلة

(أ) **الجماعية**: لما انتقل الرسول إلى جوار ربه، وترك الأمر شورى للعرب ليختاروا من بينهم من يلي أمورهم، اختلف المهاجرون والأنصار فيمن يولونه الخلافة، وانتهى الأمر بتولية أبي بكر. ولكن كثيراً من العرب، كالعباس عم النبي وطلحة والزبير، انضموا إلى علي، وأدى ذلك إلى انقسام الأمة العربية إلى فريقين جماعية وشيعة.

فأما الجماعية فهم الجمهرة الكبرى من أهل الإسلام، وهم الذين رضوا خلافة الشيخين أبي بكر وعمر وعثمان من بعدهما. ولما استقر الأمر لبني أمية دخلوا في طاعتهم. ومن تاريخ هذه الجماعة الكبيرة يتألف تاريخ الدولة الإسلامية على الحقيقة؛ فأما من عداها فأحزاب ثائرة أو طوائف خارجة، لم تجتمع على واحدة منها كلمة المسلمين، ولا كانت لها دولة جامعة، وإن ملك بعضها ملكاً واسعاً في حقب من التاريخ.

(ب) **الشيعة**: وأما الشيعة فهم الذين يرون أن الخلافة يجب أن تكون في بيت النبي، وقد قرروا أنها حق لعلي بن أبي طالب ثم لأولاده بالوراثة من بعده. وقال الغلاة منهم إن الأئمة معصومون، وإن صفات الله سبحانه قد حلت فيهم وتقمصت أجسامهم، وإن من قال بغير ذلك من الفرق الإسلامية ـ حتى بعض فرق الشيعة ـ خارجون على الدين ودللوا على صحة هذا الرأي بأن علياً كان أول من اعتنق الإسلام من الرجال، وأن ما قام به في سبيل رفع منار هذا الدين لا يستطيع أن يبذه فيه أحد من المسلمين بعد النبي[1] ونسب الغلاة أيضاً إلى النبي أحاديث تشهد بما لآل علي من حرمة، وبما لعلي من حق في الإمامة بعد الرسول عليه السلام.

نشرَ ابن سبأ مذهب الوصاية الذي أخذه عن اليهودية دينه القديم، بمعنى أن علياً وصي محمد، وأنه خاتم الأنبياء بعد محمد خاتم النبيين، وأنهم من ناوءوا علياً وتعدوا على حقه في الإمامة كما أخذ عن الفرس ـ الذين كانوا يحتلون في صدر الإسلام بلاد اليمن موطنه الأصلي ـ

(١) انظر كتاب تاريخ الدولة الفاطمية للمؤلف (الطبعة الثالثة ١٩٦٤) ص ١.

نظرية الحق الإلهي، بمعنى أن علياً هو الخليفة بعد النبي، وأنه يستمد الحكم من الله. وبذلك هيأ العقول إلى الاعتقاد بأن عثمان أخذ الخلافة بغير حق من علي وصي رسول الله[١].

وإن الباحث في تاريخ الشيعة في العصر الأموي، ليرى أن موقعة كربلاء (سنة ٦١هـ) قد وحّدت صفوف الشيعة، وأثارت في نفوسهم الحماسة للأخذ بثأر الحسين بن علي. كما أذكت مأساة كربلاء روح التشيع بعد أن كان رأياً سياسياً نظرياً لم يصل إلى قلوب الشيعة. ولكن التشيع امتزج بعد مقتل الحسين بدمائهم، وأصبح عقيدة راسخة في نفوسهم، وانتشر التشيع بين الفرس الذين تربطهم بالحسين رابطة المصاهرة، إذ كانوا يرونه أحق بالخلافة هو وأولاده من بعده، لأنهم يجمعون بين أشرف دم عربي وأنقى دم فارسي.

وقد وجد عبد الله بن الزبير في موقعة كربلاء فرصة سانحة لتحقيق أغراضه السياسية تحت ستار الأخذ بثأر الحسين بن علي، كما تهيأت الفرصة للمختار بن أبي عبيد الثقفي الذي ادعى إمامة محمد بن الحنفيـة بن أبي طالب. وكان من أثر ذلك أن انضم إليه التوابون الذين ندموا على ما فرطوا في حق الحسين وعدم إغاثتهم له حتى قتل بينهم؛ وتابوا عما فعلوا، ثم تحالفوا على بذل نفوسهم وأموالهم في الأخذ بثأره، وانضموا إلى المختار بن أبي عبيد وحاربوا عبيد الله بن زياد والي العراق الذي قتل الحسين بن علي وقتلوه. وأتاحت هذه الحروب التي دارت بين جند الأمويين وبين جيوش المختار، الفرصة لعبد الله بن الزبير وأخيه مصعب للقضاء على المختار والاستيلاء على بلاد العراق والحجاز ومصر.

ومع أن الأمويين قد تغلبوا على ابن الزبير، فقد فت في عضدهم مقتل الحسين في موقعة كربلاء وجعلهم يعضون بنان الندم.

(جـ) **الخوارج**: من الأحزاب التي خرجت على الأمويين، حزب الخوارج الذين كانوا بالأمس من أشياع علي بن أبي طالب ثم خرجوا عليه بعد التحكيم. وكانوا يقولون بصحة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان في سنيه الأولى، وعليّ إلى أن حكم الحكمين. ويمثل هؤلاء الخوارج أو «الديمقراطيون»، كما يسميهم فان فلوتن[٢]: المبادىء الديمقراطية المتطرفة، ويعتقدون أن الخلافة حق لكل عربي حر. على أن منهم من أدخل على نظريتهم بعض التعديل، فشرطوا الإسلام والعدل بدل العروبة والحرية، ولا سيما حين انضم إلى صفوفهم كثير من المسلمين من غير العرب، حيث جعلوا حق الخلافة شائعاً بين جميع المسلمين الأحرار والأرقاء على سواء، وخالفوا بذلك نظرية الشيعة التي تقول بحصر الخلافة في آل بيت النبي.

---

(١) المصدر نفسه ص ٧ ـ ١٢.

(٢) السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية. ترجمة المؤلف ص ٦٩.

وكان لسخط المسلمين على سوء تصرف بعض الخلفاء الأمويين أثر كبير في إثارة الشيعة والخوارج والموالي من الفرس، وأتيحت الفرصة للخوارج لنصب أنفسهم لحماية هؤلاء من نير الأمويين. وإن الناظر إلى مبادئهم ليجد أنهم غلوا جميعاً في الحكم على مخالفيهم، حتى ساووا بينهم وبين الكفار عبدة الأوثان. فلا عجب إذا اشتطوا في حربهم، وبذلوا نفوسهم في سبيل الذود عن مبادئهم وقد ضربوا المثل في الشجاعة النادرة والبطولة الفذة، وشغلوا كما رأينا الحزب الأموي وغيره مدة طويلة، حتى كلفوا الأمة الإسلامية ثمناً غالياً من الأموال والأرواح. وقد تفانوا في آرائهم الدينية تفانيهم في حروبهم، حتى قيل إن أربعين رجلاً من الخوارج استطاعوا أن يهزموا جيش عبيد الله بن زياد، وكانت عدته ألفي رجل.

وفي عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية (١٢٧ ـ ١٣٢هـ) تفاقم خطر الخوارج الذين انتهزوا فرصة انقسام حزب بني أمية على نفسه، وثاروا بزعامة الضحاك بن قيس الشيباني وهددوا العراق. ولكن قتل الضحاك لم يضع حداً لثورات الخوارج في بلاد العراق، فقد ظهر فيهم زعيم جديد، هو أبو حمزة الخارجي، الذي ثار في الحجاز وحضرموت، ولكن مروان بن محمد هزمه وقتله. وكانت ثورة أبي حمزة آخر ثورات الخوارج في عهد بني أمية.

(د) **المرجئة**: ونستطرد الآن إلى الكلام على طائفة من الطوائف الإسلامية لا يقل أثرها خطراً في اتجاه السياسة الإسلامية عن الشيعة أو الملكيين والخوارج أو الجمهوريين، وهو حزب المرجئة الذي ظهر في دمشق بتأثير بعض العوامل المسيحية خلال النصف الثاني من القرن الأول الهجري.

تخالف المرجئة الخوارج في تكفيرهم الخلفاء الثلاثة: عثمان وعليا ومعاوية وأنصارهم، ذاهبين إلى القول بأن كل من آمن بوحدانية الله لا يمكن الحكم عليه بالكفر، وأن ذلك موكول إلى الله وحده يوم القيامة، مهما كانت الذنوب التي اقترفها والمبادىء السياسية التي يدين بها. فهم يرجئون الحكم على إخوانهم في الدين إلى الله وحده الذي ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾[1].

وكانت مسألة المسائل في ذلك الحين هي موقف حديثي العهد بالإسلام. وقد قامت المرجئة بدورها في التوفيق بين المصالح المتعارضة بين العرب وغيرهم من المسلمين، حين تطور النزاع بين الأحزاب والطوائف، وحلت تلك المشكلة الاجتماعية الجديدة محل الخلاف على الإمامة. وقد ذهبت المرجئة إلى القول بأنه لا يحل للحكومة أن تعامل هؤلاء كما لو كانوا

---

(١) سورة غافر ٤٠: ١٩.

لا يزالون على كفرهم، بعد أن أصبحوا مسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم. وعلى هذا كانوا لا يتحرجون عن قتال أية حكومة تقر مثل تلك المظالم. ومن ثم لا ندهش بعد أن وقفنا على حوادث الشدة والعسف في بلاد ما وراء النهر، أن نرى هؤلاء يحرمون سفك الدماء البريئة، ويجهرون بأن جميع المسلمين إخوة في الدين. وصفوة القول ان كل ما كان ينشده هؤلاء، إنما هو العودة إلى مبدأ المساواة بين الشعوب الذي أقره الإسلام[1].

وكان ذلك بلا ريب شعور الجمهور الأعظم من أتباع الحارث بن سُرَيج، الذي قام على رأس المرجئة بثورة على الأمويين في بلاد ما وراء النهر. وطالما حارب الحكومة الأموية لاشتطاطها في جمع الضرائب من الأهلين، وكان يزعم أنه المهدي الذي بعثه الله لتخليص المضطهدين والأخذ بناصر المظلومين. لذلك أشعل نار الثورة على بني أمية. وكل ما كان يرمي إليه الحارث، الرجوع إلى القرآن والسنة، وانتخاب حكومة ترضى عنها الأغلبية. وسرعان ما استولى على المدن الواقعة على شواطىء نهر سيحون. ثم اضطر أمام ضغط جيوش أسد بن عبدالله القسري الذي ولي خراسان، إلى التخلي عما فتحه من البلاد والانسحاب إلى بلاد ما وراء النهر (١١٨هـ). ثم عفا عنه الخليفة الوليد الثاني بتدخل نصر بن سيار والي خراسان، ولكن الحارث عاد إلى التمرد، فانضم إلى اليمانية، فطرد نصر بن سيار من مرو حاضرة خراسان، ثم دب بينه وبين اليمانية ذلك الشقاق الذي لم ينته إلا بموته في سنة ١٢٨هـ. ولم تكن ثورة الحارث إلا نتيجة لتذمر الموالي وعلى رأسهم المرجئة.

(هـ) المعتزلة: أما القدرية أو المعتزلة فإنها لا تقل أثراً عن تلك الطوائف الثلاث في اتجاه السياسة الإسلامية. ويظهر أن نشأة المعتزلة كانت في بلاد العراق التي كانت مهداً للحضارتين الفارسية والسامية، والتي أصبحت كعبة العلم ومقر الحكومة في عهد العباسيين. وقد سموا القدرية أيضاً لأنهم يقولون بحرية إرادة الإنسان. وتتكون عقيدة القدرية من خمسة أصول: التوحيد، والعدل، والوعيد، والقول بالمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد ابتدأت المعتزلة منذ نشأتها طائفة دينية لا دخل لها في السياسة، على عكس ما كان عليه الخوارج والشيعة والمرجئة. إلا أنها لم تلبث أن خاضت غمار السياسة، فتكلمت في الإمامة وشرط الإمام. وقد تأثرت المعتزلة بالشيعة في قولهم بحرية الإرادة، تلك العقيدة التي وضع أساسها الأئمة من بيت علي، كما يطلق المعتزلة على فقهائهم لقب الأئمة الذي كانت تطلقه الشيعة على فقهائهم.

---

(١) راجع كتاب: السيادة العربية، ترجمة المؤلف ص ٦٤ - ٦٥.

ويبين لنا بشكل أوضح الرابطة بين عقيدة الشيعة الرئيسية ومذهب الاعتزال ما نلاحظه من تأثر الشيعة بمبادىء المعتزلة في عقيدتهم: إن الإمام المنتظر سوف يظهر لنشر العدل والتوحيد، وهذا هو بعينه عقيدة المعتزلة. والزيدية أكثر شبهاً بالمعتزلة في ذلك من الإمامية، إذ تتفق مع المعتزلة فضلاً عن ذلك في كثير من النقط والتفاصيل. كما تتفق المعتزلة مع الخوارج في القول بأن الإمامة تجوز في قريش وفي غيرهم من الناس، وفي القول بعدم ضرورة نصب إمام للمسلمين، كما يفهم ذلك من قول الخوارج «لا حكم إلا لله». ولا غرو فطالما اتخذ الخوارج مبادىء الاعتزال ذريعة للخروج على بني أمية وإثارة الفتن والاضطرابات، ولا سيما في إفريقية وبلاد المغرب، تلك المبادىء التي كانت تتفق في كثير من المسائل ـ وبخاصة فيما يتعلق منها بالعقيدة الأساسية ـ مع ميول الخوارج[١].

من ذلك نرى أن هذه الأحزاب كان لها أثر كبير في زوال الدولة الأموية، وأنهم كانوا يعتقدون أن جهاد الأمويين جهاد ديني. وكانوا يستندون في ذلك إلى سوء سيرة يزيد الأول ويزيد الثاني والوليد الثاني من الخلفاء الأمويين، ولا سيما ما كان من هتك حرمة المدينة المنورة في عهد يزيد واتخاذهم المقاصير لتحجب الخليفة عن الناس.

٢ ـ حزب بني أمية وانقسامه على نفسه

أولاً: بتأثير المنافسة بين أفراد البيت الأموي: كانت الإمامة (وهي القيادة العليا للمسلمين) أولى المسائل التي فرقت المسلمين ومزقتهم شيعاً وأحزاباً. أما بنو أمية (ومقرهم بلاد الشام) فهم أهل الدولة الإسلامية لذلك الحين، لاجتماع أكثر المسلمين عليهم، وخاصة بعد نزول الحسن عن الخلافة لمعاوية وكانوا يزعمون أنهم أحق الناس بالخلافة بعد الخلفاء الراشدين (أبي بكر وعمر وعثمان)، وأنهم أصحاب الحق في الأخذ بثأر عثمان والمطالبة بدمه لما كان يربطهم من أواصر القرابة. وكان يناوىء حكومة الأمويين:

١ ـ أهل المدينة، وهم أنصار النبي، الذين كانوا لارتباطهم باليمانيين من العرب في نسبهم، يكرهون بني أمية ويعتبرونهم مغتصبين للحكم، وخاصة بعد موقعة الحرة التي وقعت في أيام يزيد بن معاوية.

٢ ـ حزب الشيعة، وهم أنصار أهل البيت المتحمسون للدفاع عن حقوقهم في الخلافة ولا سيما حق علي.

---

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ١٩١.

٣ ـ حزب الخوارج، وهم الجمهوريون الذين يقولون باختيار الخلفاء من بين الأكفاء أنى كانت الطبقة التي ينتمون إليها، كما كانوا يرون أيضاً عزل الخليفة منذ اللحظة التي يفقد فيها ثقة الأغلبية.

وقد أثارت السياسة التي جرى عليها الأمويون في تولية العهد اثنين يلي أحدهما الآخر عوامل المنافسة، وبذرت بذور الشقاق بين أفراد البيت الأموي، حتى قيل إن الخلافة في عهد بني أمية استحالت إلى ملك استبدادي يعتمد على نظام التوريث. وبذلك خرج الأمويون في حكم الدولة الإسلامية عن نظام الشورى الذي ساد في حكم الخلفاء الراشدين.

وكان لهذه السياسة أثرها في ضعف الأمويين، فإنه لم يكد يتم الأمر لأحد أبناء الخليفة المتوفى. حتى يعمل على إقصاء الآخر من ولاية العهد وإحلال أحد أولاده مكانه. ومما زاد هذه الحالة سوءاً، أن هذا النزاع لم يقتصر على أفراد البيت الأموي، بل تعداهم إلى القواد والعمال، حتى إذا ولي الثاني الخلافة انتقم من أنصار الخليفة الذي قبله وأقصاهم عن مناصب الدولة.

وكان معاوية أول من سن سنة التوريث من الخلفاء الأمويين، كما كان مروان بن الحكم أول من عمل على أخذ البيعة لاثنين من أولاده. واتبع عبد الملك بن مروان سنة أبيه، فعمل على خلع أخيه عبد العزيز من ولاية العهد، وتولية ابنيه الوليد وسليمان، لولا أن حالت وفاة عبد العزيز دون تحقيق هذه السياسة. وسار الوليد سيرة أبيه في هذه السياسة التي أثارت الحقد والمنافسة بين أفراد هذا البيت، فقد عمل على خلع أخيه سليمان والبيعة بولاية العهد لابنه عبد العزيز. فلما ولي سليمان الخلافة انتقم ممن ساعدوا الوليد على خلعه، فانتقم من محمد بن القاسم الذي يرجع إليه الفضل في فتح بلاد السند. وكذلك فعل مع قتيبة بن مسلم الذي فتح بلاد ما وراء النهر. ومات الحجاج بن يوسف قبل أن يلي الخلافة فانتقم من آل الحجاج شر انتقام.

ثانياً: بالعصبية في الأمصار والجيش: عمل الرسول على إزالة العصبية والشعور القبلي، وإحلال الوحدة الدينية والقومية الإسلامية محلها، وسهل ذلك على القبائل العربية المختلفة أن تنضوي تحت لوائه وتدين له بالزعامة. فلما انتقل الرسول إلى جوار ربه تسابقت القبائل والبطون العربية على أن يكون هذا الأمر لها دون غيرها. وبذلك تجلت النفس العربية والطبيعة القبلية، مما أدى إلى ارتداد أكثر القبائل العربية وتمردها على حكومة قريش حتى تزعزع مركز الإسلام، لولا ما أوتيه أبو بكر الصديق من صدق العزيمة، وما عرف عنه من حزم وغيرة على الدين، فكانت الغلبة للجيوش الإسلامية، وعلت كلمة الإسلام من جديد.

وإن روح العصبية التي حاول الإسلام أن يقضي عليها قد بعثت بين القبائل العربية على

أثر وفاة يزيد بن معاوية. غير أنها لم تكن من القوة والشدة بحيث تؤثر في انحلال دولة الأمويين، الذين ظلوا حافظين لكيانهم كفريق سياسي يناضل خصومه من الأحزاب الأخرى، إلى أن كانت خلافة عمر بن عبد العزيز. التي تعتبر فترة انتقال بين حالة القوة والتماسك وحالة الضعف والتفكك الذي اعترى بني أمية. فقد كان عمر صالحاً عادلاً، قضى فترة خلافته في إصلاح ما أفسده من سبقه من خلفاء بني أمية حتى نال رضاء جميع العناصر الثورية، فلم يتعصب لقبيلة دون أخرى، ولم يول والياً إلا لكفايته وعدالته سواء أكان من كلب أو قيس، فسكنت في عهده العواصف التي كانت تنتاب الدولة وتكاد تذهب بريحها.

ولما مات معاوية بن أبي سفيان تفككت الوحدة العربية في بلاد الشام، فمال الكلبيون إلى بني أمية، وانضم القيسيون بزعامة الضحاك بن قيس إلى عبد الله بن الزبير الذي عمل على سلب الخلافة من الأمويين. وتعتبر موقعة مرج راهط (سنة ٦٥ هـ) صراعاً بين عرب الشمال المضريين وبين عرب الجنوب اليمنيين. وكان لهذه الموقعة أثرها في إذكاء نار العصبية بين المضرية واليمنية في سائر البلاد العربية، وخاصة في خراسان.

ولما توفي عمر بن عبد العزيز وولي الخلافة يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ)، اشتعلت نيران العصبية من جديد بين عرب الشام وعرب الجنوب، أو بين مضر واليمن. ولم يتورع هذا الخليفة عن خوض غمار هذه الفتنة بانحيازه إلى المضريين على اليمنيين، ذلك الصراع الذي انتهى بقتل يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، وقتل أهل بيته اليمنيين الذين كانوا غرة في جبين الدولة الأموية كما كان البرامكة فيما بعد غرة في جبين الدولة العباسية. وقد أشعل قتل آل المهلب نار العصبية في قلوب ذلك العنصر وأثار حقده على البيت الأموي، وصار العنصر اليمني منذ ذلك الحين خطراً يهدد كيان بني أمية.

كذلك أثار مقتل خالد بن عبد الله القسري والي العراق في عهد هشام بن عبد الملك كراهة اليمنيين، حتى لقد عد المؤرخون ذلك من أقوى الأسباب التي عجلت بسقوط الدولة الأموية. ذلك أن اليمنيين الذين لم ينسوا قتل آل المهلب، والذين فوجئوا بقتل زعيمهم خالد بن عبد الله القسري، انضووا تحت لواء ابنه يزيد بن خالد القسري وأشعلوا نار الثورة في دمشق. وتبعهم اليمنيون في فلسطين، فثاروا في وجه الحكم الأموي، ثم انضموا إلى سليمان بن هشام بن عبد االملك ونادوا بخلع مروان بن محمد.

هذه هي حال العصبية في الشام. وقد ساعد على قيام الثورة فيها أن أكثر أهلها كانوا من العنصر اليمني، وربما كان ذلك هو السبب في أن مروان لم يتخذها مقراً لملكه وانتقل إلى الجزيرة، لأن أكثر من فيها كانوا من القيسية عماد دولته.

وهكذا أضعفت العصبية في الأمصار والجيش بني أمية وآذنت بزوال سلطانهم، ولا غرو فقد كان ذلك العصر عصراً محزناً ملأ قلوب التقاة من المسلمين تشاؤماً بالمستقبل.

٣ ـ حزب بني هاشم واتحاد كلمته للقضاء على بني أمية:

(١) انتقال حق الإمامة من العلويين إلى العباسيين:

أثار قتل الحسين ـ كما تقدم ـ حماسة المسلمين، فترحدت صفوف الشيعة، وزادت الدعوة لآل علي قوة، واشتد العداء بين الأمويين والعلويين الذين أثاروا الفتن والثورات في الولايات الإسلامية. ثم حدثت هذه الحادثة الهامة في تاريخ الشيعة، وهي انتقال حق الإمامة من بيت علي إلى بيت العباس على يد أبي هاشم بن محمد بن الحنفية زعيم الشيعة الكيسانية، وهو ما يمكن أن يطلق عليه «ميراث الكيسانية».

ذلك أنه في سنة ٩٨ للهجرة استدعى الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك أبا هاشم وأكرم وفادته، وأظهر التودد له، ولكنه دبر أمر قتله خشية أن يدعو إلى نفسه، فدس له من سمه وهو في طريقه إلى الحميمة، وهي قرية صغيرة في أرض الشراة بين الشام والحجاز، حيث كان يقيم محمد بن علي بن عبد الله بن العباس. وقد قيل إن أبا هاشم لما شعر بدنو أجله، قصد محمداً هذا، وأفضى إليه بأسرار الدعوة الهاشمية، ونزل له عن حقه في الإمامة، وأمده بأسماء داعي دعاته في الكوفة، ومن يليه من الدعاة، كما سلمه رسائل يقدمها إليهم[١].

بذلك تحول حق الإمامة من العلويين إلى العباسيين. وهنا يحسن بنا أن نسأل: لماذا عدل أبو هاشم عن أهل بيته من العلويين وحول حقه إلى بني عمه من العباسيين؟ ولكي نجيب عن هذا السؤال نرجع قليلاً إلى الوراء فنقول: إنه منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، لم يرشح المسلمون للخلافة أحداً من بني هاشم إلا علي بن أبي طالب وأولاده، ولم تتجه الأنظار إلى العباس عم النبي بعد وفاته لأنه لم يكن من السابقين إلى الإسلام. ومن ثم لم يرشح للخلافة هو ولا أولاده من بعده. وقد قيل إن أبا سفيان جاء العباس بعد بيعة أبي بكر فقال له: أبسط يدك أبايعك، فأبى العباس.

وكانت العلاقة بين بني هاشم، علويين وعباسيين، تقوم على الود والصفاء. وكان البيتان متحدين على العدو المشترك وهو بنو أمية، إلى أن انتقل حق الإمامة من العلويين إلى العباسيين بنزول أبي هاشم بن محمد بن الحنفية.

---

(١) أنظر تاريخ الدولة الفاطمية للمؤلف ص ٢٠ ـ ٢١.

ويظهر أن العباسيين كانوا في أواخر القرن الأول الهجري، أكثر كفاية ونشاطاً في الناحية السياسية من العلويين، وأكثر تطلعاً منهم إلى النفوذ والسلطان. وقد قيل إن أبا هاشم إنما فعل ذلك لأنه لم يجد بين أفراد البيت العلوي من يستطيع النهوض بأعباء إمامة المسلمين أضف إلى ذلك اختلاف اعتقاد الشيعة الكيسانية أنصار أبي هاشم عن اعتقاد الشيعة الإمامية أنصار أولاد فاطمة. على أن هناك مسألة جديرة بالملاحظة وهي أن نزول أبي هاشم بن محمد بن الحنفية لا يمكن أن يعتبر نزولاً من العلويين جميعاً، لأن فريقاً كبيراً منهم ظل متمسكاً بعقائد الشيعة الإمامية، بدليل قيامهم في وجه العباسيين بعد قيام دولتهم.

وقد صور المسعودي[١] الأسباب التي ساعدت على زوال ملك بني أمية في هذه العبارة فقال: «سئل بعض شيوخ بني أمية ومحصليها[٢] عقب زوال الملك عنهم إلى بني العباس: ما كان سبب زوال ملككم؟ قال: إنا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا، فظلمنا رعيتنا فيئسوا من إنصافنا وتمنوا الراحة منا؛ وتحومل على أهل خراجنا فتخلوا عنا وخربت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا، ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا وأمضوا أموراً دوننا أخفوا علمها عنا؛ وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم أعادينا فتظاهروا معهم على حربنا، وطلبنا أعداءنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا».

(ب) تنظيم الدعوة العباسية:

رأى الإمام محمد بن علي العباسي أن نقل السلطان من بيت إلى بيت لا بد أن يسبقه إعداد الأفكار وتهيئة النفوس لهذا التغيير، وأن كل محاولة فجائية قد تكون عاقبتها الإخفاق، فرأى بعد نظره أن الأمر يحتاج إلى شدة الحيطة؛ فطلب من شيعته أن يدعو الناس إلى ولاية آل البيت دون تسمية أحد خوفاً عليه من بني أمية. ووجد أن كلا من الكوفة وخراسان يصح أن يكون مركزاً لنشر الدعوة، لأن الكوفة مهد التشيع لآل البيت منذ زمن طويل، ولأن أهل خراسان يفهمون فكرة التشيع بسهولة، ويعتقدون في نظرية الحق الملكي المقدس التي كانت سائدة في بلاد الفرس منذ أيام آل ساسان. هذا إلى ما كان يقاسيه الفرس تحت نير الأمويين، مما سهل على العباسيين نشر دعوتهم. وقد وصف الإمام محمد بن علي العباسي الأهواء والميول التي كانت سائدة بين أهالي الولايات الإسلامية في هذه العبارة.

«أما الكوفة وسواها فشيعة علي، وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف، وأما الجزيرة

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٤.
(٢) أي العارفين بتاريخ هذه الدولة وأخبارها.

فحرورية[١] وأعراب كأعلاج[٢]، ومسلمون في أخلاق النصارى؛ وأما أهل الشام فلا يعرفون غير معاوية وطاعة بني أمية، وعداوة راسخة وجهل متراكم؛ وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهم أبوبكر وعمر. «ولكن عليكم بخراسان، فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر، وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة، لم تتقسمها الأهواء، ولم تتوزعها النحل، ولم يقدح فيها فساد، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل، وهامات وشوارب وأصوات هائلة، ولغات فخمة تخرج من أجسام منكرة. وبعد فإني أتطلع إلى المشرق، وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق»[٣].

نهض محمد بن علي العباسي بالدعوة نهضة قوية، وعين النقباء والدعاة وأوصاهم ببث الدعوة سراً، كما أوصاهم أن يتظاهروا بنشرها لآل البيت عامة تسكيناً للعلويين.

وقد بدأت هذه الدعوة السرية في أوائل القرن الثاني للهجرة من الحميمة التي اتخذها العباسيون مركزاً لنشر دعوتهم، وذلك في عهد عمر بن عبد العزيز. ووجه محمد بن علي العباسي الدعاة إلى الولايات الإسلامية، فوجه ميسرة إلى العراق، كما وجه ثلاثة من الدعاة أحدهم أبو عكرمة السراج، وعهد إليهم في نشر الدعوة في خراسان. وهناك أخذ هؤلاء الدعاة ينشرون الدعوة العباسية في الخفاء، وظاهر أمرهم التجارة أو الحج إلى مكة. واختار أبو عكرمة من الدعاة سبعين داعية من بينهم إثنا عشر نقيباً. وشمر الكل عن ساعد الجد في بث الدعوة لبني العباس، ولم يبالوا بما لاقوه من ضرب وصلب وقتل وتشريد، وكتب إليهم محمد بن علي دستوراً يسيرون عليه في نشر الدعوة، على أن تكون «للرضا من آل محمد»، ذلك اللفظ الذي يشمل أبناء علي وأبناء العباس؛ إذ أن تعيين شخص المدعو إليه يثير الأمويين كما يثير العلويين على الدعوة العباسية[٤].

ويمكن تقسيم الدعوة العباسية قسمين:

الأول: ويبدأ في مستهل القرن الأول للهجرة؛ وينتهي بانضمام أبي مسلم الخراساني. وكانت الدعوة في هذا الدور خالية من أساليب العنف والشدة، إذ كان الدعاة يجوبون البلاد الإسلامية، متظاهرين بالتجارة أو أداء فريضة الحج كما تقدم.

---

(١) هذا اللفظ مشتق من حروراء وهي قرية بظاهر الكوفة تبعد عنها بميلين، نزل بها الخوارج الذين اعتزلوا علي بن أبي طالب، فنسبوا إليها وسموا حرورية.

(٢) العلج حمار الوحش

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ج ٣ ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

(٤) Nicholson, Lit. Hist. of the Arabs, p. 250.

ويبدأ الدور الثاني بانضمام أبي مسلم الخراساني إلى الدعوة العباسية. وهنا يدخل النزاع بين الأمويين والعباسيين في دور العمل، وهو دور الحروب التي انتهت بزوال الدولة الأموية.

٤ ـ قيام الدولة العباسية

(١) ميل الموالي إلى بني هاشم:

تاقت نفوس الموالي من الفرس إلى التخلص من حكم الأمويين، لما ارتكبوه من وسائل العنف في قمع ثورات العلويين، ومالوا إلى نصرة بني هاشم، ولا سيما بعد مقتل زيد بن علي وابنه يحيى: فإن هؤلاء الموالي ـ إذا استثنينا طبقة الدهاقين، وهم ملاك الأراضي من الفرس الذين أسند الأمويون إليهم المناصب الإدارية الهامة، واستأثروا بجباية الخراج فتمتعوا بنفوذ كبير، والذين أطلق عليهم العرب اسم العلوج ـ اعتقدوا أن اعتناقهم الإسلام لم يسو بينهم وبين العرب. ولا غرو فإن المسلمين من غير العرب قد ألحقوا بعد اعتناقهم الإسلام ببعض القبائل العربية ليكونوا موالي لتلك القبائل. ونظر العرب الذين كانوا لا يحترمون سوى مهنة الحرب إلى هؤلاء الموالي نظرة الاحتقار، لامتهانهم طبقات العمال الذين نشأ منهم هؤلاء الموالي.

وهذا يفسر لنا أسباب تعلق الفرس بالعلويين وميلهم إليهم. وقد أوضح لنا براون[١] السبب الذي استمالهم إلى ذلك، معتمداً على ما ذكره جوبينو في هذا الصدد حيث يقول: «إنني أعتقد أن جوبينو قد أصاب فيما قاله، إن نظرية الحق الإلهي وحصرها في البيت الساساني كان لها تأثير عظيم في تاريخ الفرس في العصور التي تلتها. وقد جاءت فكرة انتخاب الخليفة متمشية بطبيعتها مع ديمقراطية العرب؛ غير أنها لا يمكن أن تظهر في نظر الفرس إلا بمظهر ثوري غير مطابق لطبائع الأشياء. أضف إلى ذلك ما كان من نزعة السخط والكراهية التي أضمرها هؤلاء الفرس لعمر، ثاني الخلفاء الراشدين ومقوض دعائم الإمبراطورية الفارسية. وإن هذه النزعة، وإن تسترت بستار الدين، فلن يفوت الباحث تفهم سرها ومراميها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن الحسين، وهو أصغر ولد فاطمة بنت النبي وعلي ابن عمه. قد قالوا إنه تزوج من شهر بانوه ابنة يزدجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان. ومن هنا أصبح الأئمة من حزب الشيعة بقسميه (طائفة الاثني عشرية الشائعة الآن في بلاد فارس، وطائفة السبعية أو الإسماعيلية لا يمثلون حق النبوة فقط بل يمثلون الملك أيضاً، لأنهم من سلالة النبي محمد وآل ساسان معاً).

(١) Lit. Hist. of Persia, vol. I. p. 130.

ومن ذلك تولدت هذه النظرية السياسية التي يشير إليها جوبينو في العبارة الآتية حيث يقول: «كانت هذه النظرية عقيدة سياسية غير متنازع فيها عند الفرس، وهي أن العلويين وحدهم يملكون حق حمل التاج، وذلك بصفتهم المزدوجة، لكونهم وارثي آل ساسان من جهة أمهم بيبي شهر بانوه ابنة يزدجرد آخر ملوك الفرس والأئمة رؤساء هذا الدين حقاً».

وذلك يعلل كثرة الثورات والفتن التي أثارها هؤلاء الموالي من الفرس الذين ساعدوا آل البيت ضد الأمويين. ومن أحسن الأمثلة التي تؤيد هذا الرأي تلك الثورة التي أشعل نيرانها الحارث بن سُريج الذي انضوى تحت لوائه الموالي في خراسان وبلاد ما وراء النهر. ولم تخمد حركة الموالي بموت الحارث سنة ١٢٨ هـ فلم يكد يمضي على وفاته سنة واحدة حتى اشعل أبو مسلم على بني أمية تلك الثورة التي قلبت عرشهم وانتهت بزوال دولتهم.

(ب) زوال الدولة الأموية:

في أثناء وقوع هذه الحوادث مات الإمام محمد بن علي العباسي سنة ١٢٥ هـ (٧٤٢)، وكانت الدعوة العباسية قد قطعت شوطاً بعيداً. وقد أوصى محمد بالإمامة من بعده لابنه إبراهيم. وفي عهده دخل النزاع بين الأمويين والعباسيين في طور جديد هو طور العمل، وهو ما يمكن أن نطلق عليه العصر الثاني للدعوة العباسية، ويبتدىء من سنة ١٢٧ هـ.

اتصل بإبراهيم الإمام شاب اتصف بالشجاعة والإقدام، واضطلع بأعباء الدعوة العباسية في خراسان، وقضى على سلطان الأمويين فيها. وإليه يرجع الفضل في قيام الدولة العباسية. ذلك الشاب هو أبو مسلم الخراساني. ولا بأس أن نذكر طرفا من سيرته قبل أن ينضم إلى الدعوة العباسية.

إختلف المؤرخون في نسب أبي مسلم. فقيل إنه كان حراً يسمى إبراهيم بن عثمان، ويكنى أبا إسحاق، وإنه ينتسب إلى بزرجمهر. وقد ولد بأصبهان ثم رحل إلى الكوفة وهو في السابعة من عمره. ولما اتصل بابراهيم الإمام أمره بتغيير اسمه وقال له: «لا يتم الأمر إلا بذلك كما وجدته في الكتب». فسماه عبد الرحمن بن مسلم وكناه أبا مسلم، وزوجه امرأة من طيِّء، كانت تقيم مع أبيها بخراسان.

وقيل في سبب اتصال أبي مسلم بإبراهيم الإمام أن سليمان بن كثير أحد النقباء وغيره من النقباء تركوا خراسان في سنة ١٢٤هـ متظاهرين بالحج إلى مكة. فلما دخلوا الكوفة أتوا إلى عاصم ين يونس العجلي، وكان قد اتهم بالدعوة للعباسيين، فحبسوه هو وعيسى وإدريس ابني معقل العجلي، وكان يوسف بن عمر والي العراق قد حبسهم مع من حبس من عمال خالد

القسري. وكان أبو مسلم يقوم بخدمة ابني العجلي. ولما رأى سليمان بن كثير ومن معه أبا مسلم، توسموا فيه مخايل الذكاء، ودعوه إلى الانضمام إلى الدعوة العباسية.

وقد قيل إن أبا مسلم لما قوي أمره ادعى أنه ولد سليط بن عبد الله بن العباس. وكانت لسليط هذا جارية ادعى ابنها أنه من ولد عبد الله بن العباس. ولما مات سليط نازع ورثته في ميراثه، فسر بنو أمية، ليتخذوا من ذلك سبباً للحط من شأن علي بن عبد الله بن العباس، فأعانوه، وقضى له القاضي في دمشق بالميراث ولما قويت شوكة أبي مسلم ادعى أنه من ولد سليط.

وقيل إن أبا مسلم كان من الرقيق، وإن اتصاله ببني العباس يرجع إلى بُكير بن ماهان داعي العباسيين الذي قدم الكوفة حيث حبس. فدعا أبا مسلم إلى الانضمام للدعوة واشتراه من ابني معقل العجلي بأربعمائة درهم، ولما خرجوا من السجن بعث بكير بن ماهان بأبي مسلم إلى إبراهيم الإمام، فأنفذه إلى أبي موسى السراج.

في سنة ١٢٨هـ تسلم أبو مسلم الخراساني مقاليد الأمور في خراسان. وكان من أسباب سقوط الأمويين شبوب نار العصبية بين المضرية واليمانية في خراسان وضعف قوة أمير هذه البلاد، وخروج الخوارج في اليمن وحضرموت.

وقد ظل أبو مسلم في خراسان إلى أن كتب إبراهيم الإمام إلى أبي سلمة الخلال داعية العباسيين في الكوفة، يعلمه أنه أرسل أبا مسلم إلى خراسان، وأنه أمر أهلها بالسمع والطاعة له، وكتب الإمام إلى أبي مسلم كتاباً يقول فيه: «إنك رجل منا أهل البيت، احفظ وصيتي: أنظر إلى هذا الحي من اليمن، فالزمهم ولكن بين أظهرهم، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم. واتهم ربيعة في أمرهم، وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار. واقتل من شككت فيه، وإن استطعت ألا تبقي بخراسان من يتكلم العربية فافعل. وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله، ولا تخالف هذا الشيخ (يعني سليمان بن كثير)، ولا تعصه، وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني».

وقد ساعدت الاضطرابات التي انتشرت في خراسان في ذلك الحين أبا مسلم الخراساني على تحقيق سياسته.

وفي عهد هشام بن عبد الملك اشتعلت نيران العصبية بين القبائل العربية في خراسان في عهد ولاية أسد بن عبدالله القسري، وكان يمانياً ضلعه مع اليمانيين، الذين آثرهم على غيرهم من العرب وأسند إليهم مناصب الدولة. ثم ولي هذه البلاد نصر بن سيار، وكان مضرياً،

فأقصى اليمانيين، وأثار بذلك عوامل الشقاق بين هذين العنصرين. وكانت الحرب بين نصر بن سيار والي خراسان، وجديع بن شبيب المعروف بالكرماني زعيم اليمانية الذين تمت الغلبة لهم، وطردوا والي خراسان، وناوئوا الحكومة الأموية، وناصروا الدعوة العباسية بعد انضمام أبي مسلم إليها. واستطاع أبو مسلم بحسن دهائه أن يضرب كل فريق بالآخر، وتم له النصر على العرب جميعاً.

وعرف أبو مسلم، بما أوتيه من الحذق والمهارة الحربية، كيف يستفيد من ذلك الانقسام الذي فرق كلمة العرب في خراسان. كما استطاع أن يرابط بجنده سبعة أشهر في ظاهر مدينة مرو قاعدة خراسان، استمال خلالها اليمانيين وضمهم إلى صفوفه وبذلك تمكن من الاستيلاء على تلك البلاد دون أن يعرض جيشه الصغير للهزيمة. ولم يكد يتم له النفوذ هناك، حتى عمد إلى التخلص من شيوخ القبائل الذين كانوا ينازعونه السيادة؛ فقتلهم عن آخرهم.

وقد أدرك نصر بن سيار والي خراسان مدى خطر دعاة العباسيين في هذه البلاد، فأرسل إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية كتاباً يكشف له فيه عن قوة أبي مسلم وضعف الجند الأموي في خراسان، وختم كتابه بهذه الأبيات:

أرى بين الرماد وميض جمر ... فأحْرص أن يكونَ له ضِرامُ
فإن النار بالعودَيْن تذْكى ... وإن الحرب أولُها الكلام
فقلت من التعجب: ليت شعري ... أأيقاظٌ أمية أم نيام؟

فعندئذ عمت الثورة التي انتهت بزوال الدولة الأموية. وإلى القارىء ما ذكره أبو حنيفة الدينوري[1]، لعله يبيِّن حال الأمة العربية في ذلك الحين. قال: «وانجفل الناس على أبي مسلم: من هراة وجوشنج ومرو الروذ والطالقان ومرو ونسا وأبيورد وطوس وسرخس وبلخ والصغانيان وطخارستان وختلان وكش ونسف، فتوافوا جميعاً مسودي الثياب[2]. وقد سودوا أنصاف الخشب التي كانت معهم، وسموها «كافر كوبات» وأقبلوا فرساناً وحمارة يسوقون حميرهم ويزجرونها «هر مروان»، يسمونها لمروان بن محمد، وكانوا زهاء مائة ألف رجل».

ظل أمر العباسيين سراً لا يعلمه إلا النقباء من شيعتهم، حتى وقع في يد مروان بن محمد

(١) الأخبار الطوال ص ٣٦٠.

(٢) راجع ما ذكره فان فلوتن (السيادة العربية ص ١٢٤ ـ ١٢٦) عن اتخاذ الخلفاء العباسيين السواد شعاراً لهم.

آخر خلفاء بني أمية، كتاب إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم يأمره فيه بقتل كل من يتكلم العربية بخراسان، فأدى هذا الحادث إلى القبض على إبراهيم وسجنه في حران وقتله، فتولى الدعوة العباسية أبو سلمة الخلال. ولما علم إبراهيم الإمام أنه لا نجاة له، ولى عهده أخاه أبا العباس عبدالله بن محمد، وأوصاه بمواصلة الدعوة والمسير إلى الكوفة. ولما قتل إبراهيم الإمام سار رسوله إلى الحميمة، وسلم وصيته إلى أبي العباس، فتوجه هذا إلى الكوفة، ومعه كبار بني هاشم من ولد العباس، وفيهم أخوه أبو جعفر المنصور، وابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد، وعمه عبدالله بن علي.

بعد ذلك حلت الهزيمة بيزيد بن عمر بن هبيرة قائد الأمويين بظاهر الكوفة، وأرغم على السير إلى واسط؛ فجاء أبو سلمة، ونزل بجنده بمدينة الكوفة في أوائل سنة ١٣٢هـ من غير أن يلقى مقاومة تذكر.

وفي أواخر هذه السنة خفق العلم الأسود شعار العباسيين فوق حصون دمشق، بعد أن دالت فيها دولة الأمويين، ولما آلت الخلافة إلى أبي العباس عهد إلى عمه عبد الله بن علي بقتال مروان بن محمد، فتبعه إلى نهر الزاب الأصغر بالعراق، وقتل وأغرق كثيراً من أصحابه، من بينهم نحو ثلثمائة من بني أمية، منهم إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك المخلوع أخو يزيد الناقص (١١ جمادى الآخرة سنة ١٣٢هـ). ثم مضى مروان إلى الموصل حيث هزم وفر إلى حران واتخذها داراً لإقامته، ثم عبر الفرات، فنزل عبد الله بن علي بابها، واستولى على خزائن مروان، وكان قد رحل إلى فلسطين والأردن، فأحل به عبد الله الهزيمة ثم سار إلى دمشق فحاصرها، وهزم الوليد بن معاوية بن عبد الملك في خمسين ألفاً، وقتل عدداً كبيراً من بني أمية وأنصارهم.

بعد ذلك لحق مروان بن محمد بمصر، ونزل عبد الله بن عليّ على نهر أبي فطرس بفلسطين (١٥ ذو القعدة سنة ١٣٢هـ). ثم رحل مروان إلى الفسطاط، فكتب أبو العباس إلى عمه عبد الله بن علي ليولي صالح بن علي العباسي قتال مروان، فسار حتى لحق به في قرية بوصير من أعمال الفيوم، وهجم جند العباسيين على عسكره. وضربوا الطبول وكبروا ونادوا. يا لثارات إبراهيم! يعنون إبراهيم الإمام الذي سمه الأميون في حران. وقتل مروان ليلة الأحد لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ١٣٢هـ وأخذ رأسه وأرسل إلى السفاح في الكوفة، وانتهت بذلك الدولة الأموية، وقامت الدولة العباسية على يد أبي العباس السفاح.

خلفاء العصر العباسي الأول

هجرية		ميلادية
١٣٢	السفاح	٧٥٠
١٣٦	المنصور	٧٥٤
١٥٨	المهدي	٧٧٥
١٥٩	الهادي	٧٨٥
١٧٠	الرشيد	٧٨٦
١٩٣	الأمين	٨٠٩
١٩٨	المأمون	٨١٣
٢١٨	المعتصم	٨٣٣
٢٢٧	الواثق	٨٤٢
٢٣٢	المتوكل	٨٤٧

العباس

عبد الله

علي

سليمان موسى عبد الله محمد

٢ ـ المنصور ١ ـ السفاح إبراهيم

٣ ـ المهدي

إبراهيم المنصور ٥ ـ الرشيد ٤ ـ الهادي

٨ المعتصم ٧ المأمون ٦ الأمين

١٠ المتوكل ٩ الواثق محمد

الباب الثاني

خلفاء العصر العباسي الأول

نتكلم في هذا الباب على خلفاء العصر العباسي الأول (١٣٢ ــ ٢٣٢هـ) فنقصر كلامنا على ترجمة كل من هؤلاء الخلفاء وعلى أهم الأحداث التي وقعت في عهده.

حكمت الدولة العباسية زهاء خمسة قرون، من سنة ١٣٢هـ، وهي السنة التي ولي فيها أبو العباس السفاح الخلافة، إلى أن زالت هذه الدولة من بغداد على أيدي التتار سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨ م). وفي ذلك يقول صاحب الفخري[1]: «واعلم ـ علمت الخير ـ أن هذه الدولة من كبار الدول، ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك؛ فكان أخيار الناس وصلحاؤهم يطيعونها تديناً، والباقون يطيعونها رهبة أو رغبة، ثم مكثت فيها الخلافة والملك حدود ستمائة سنة».

وقال في موضع آخر[2]: «إلا أنها كانت دولة كثيرة المحاسن جمة المكارم، أسواق العلوم فيها قائمة، وبضائع الآداب فيها نافقة، وشعائر الدين فيها معظمة، والخيرات فيها دارّة، والدنيا عامرة، والحرمات مرعية، والثغور محصنة وما زالت على ذلك حتى كانت أواخرها، فانتشر الجبر، واضطرب الأمر وانتقلت الدولة».

أبو العباس السفاح
(١٣٢ ـ ١٣٦/ ٧٥٠ ـ ٧٥٤)

كان أول من جلس على عرش الدولة العباسية أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم. وكان أبوه محمد أول من اضطلع بنشر الدعوة العباسية في أواخر العصر الأموي حتى مات سنة ١٢٥هـ. وكان قد أوصى بالإمامة من بعده لابنه إبراهيم: وفي عهد إبراهيم دخل النزاع بين بني أمية وبني العباس في طور جديد هو دور العمل (١٢٧هـ) كما تقدم.

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية ص ١٢٥. (٢) المصدر نفسه ص ١٣٤.

ولما قبض على إبراهيم الإمام وحبس في حران ثم قتل، انتقلت أسرته إلى الكوفة (صفر سنة ١٣٢هـ) واستتروا بضعة أسابيع، حتى أخرجهم أتباعهم، وسلموا على أبي العباس بالخلافة، لأن أمه كانت عربية، وعدلوا عن أخيه أبي جعفر مع أنه كان أكبر منه لأن أمه كانت أم ولد، وكان ذلك في اليوم الثالث من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

وفي يوم الجمعة أقام السفاح الخطبة فخطب على المنبر قائماً، وكان بنو أمية يخطبون قعوداً فحياه الناس وقالوا: أحييت السنة يـابن عم رسول الله ﷺ. وقد نوه أبو العباس في خطبته بفضل آل محمد، وندد بالأمويين لاغتصابهم الخلافة ولما اقترفوه من آثام وذنوب ضد أهل البيت، وأنحى باللائمة على جند الشام، وأطنب في مدح أهل الكوفة، وزاد في أعطياتهم لإخلاصهم وولائهم لبيت العباس، وأفاض في مدح أهل خراسان الذين ساعدوه على إقامة دولته، وختم خطبته بقوله: «أنا السفاح[1] المبيح، والثائر المبير»، مما يشعر في بادىء الرأي أنه عول على سفك دماء كل من يقف في سبيله[2].

ثم نزل أبو العباس، وداود بن علي أمامه حتى دخل القصر وأجلس أبا جعفر ليأخذ البيعة على الناس في المسجد. فلم يزل يأخذها عليهم حتى صلى بهم العصر ثم صلى بهم المغرب وجنهم الليل فدخل.

ولما تمت البيعة لأبي العباس السفاح، تحول إلى الأنبار، غربي نهر الفرات، وبينها وبين بغداد عشرة فراسخ: وقد أسسها سابق بن هرمز أحد ملوك الفرس، فجاء السفاح فجددها وأقام بها القصور. ثم بنى المنصور في جوارها قصراً فخماً اتخذه دار ملكه، فسميت هذه المدينة «الهاشمية» نسبة إلى هاشم جد هذه الأسرة.

---

(١) ناقش الأستاذ نيكلسون (p. 253, note 1.) لفظ السفاح فقال: «لقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن السفاح معناه الرجل الكثير العطايا أو المناح. ومع كل فإنه مما يهمنا ملاحظته أن هذا الاسم قد أطلق على بعض شيوخ القبائل في الجاهلية. ويقال إن سلمة بن خالد الذي قاد بني تغلب في موقعة يوم الكلاب الأولى سمي السفاح، لأنه أفرغ مزاد جيشه قبل الموقعة. والذي أميل إليه أنه سمي بهذا الاسم لقوله في أول خطاب له: «فأنا السفاح المبيح والثائر المبير».

ونحن نميل إلى الأخذ بأن لفظ السفاح إنما أطلق وشاع عن أبي العباس بعد هذه الخطبة، لما قام به من سفك دماء الأمويون وغيرهم من الخارجين على الدولة. ولا يبعد أن يكون قصده من عبارة السفاح المناح، أنه يتوعد أهل الكوفة لما أظهروه في ماضي أيامهم من تغير في الأهواء والميول وأن يتوعد غيرهم من أعدائه، ولا سيما الأمويين الذين صمم على التنكيل بهم لما اقترفوه من الآثام والذنوب، وتبشيره من يقوم بنصرته بإدرار العطايا والأموال لهم. وقد ذكر السيوطي (تاريخ الخلفاء ص ١٨٠) أن النبي ﷺ قال: يخرج رجل من أهل بيتي عند انقطاع من الزمان وظهوره من الفتن يقال له السفاح، فيكون إعطاؤه المال حثياً.

(٢) انظر الملحق الأول.

وقد قضى السفاح معظم عهده في محاربة قواد العرب الذين ناصروا بني أمية، وقضى على أعقاب الأمويين، حتى إنه لم يفلت منهم إلا عبد الرحمن الداخل، الذي أسس الدولة الأموية ببلاد الأندلس. وكذلك وجه السفاح همته إلى الفتك بمن والوه وساعدوه على تأسيس دولته؛ فقتل أبا سلمة الخلال، وهم بقتل أبي مسلم لولا أن عاجلته منيته، كما قتل ابن هبيرة أحد قواد مروان بن محمد الأموي بعد أن أعطاه الأمان.

أخلاق السفاح وصفاته:

يقول المسعودي[١] عن أبي العباس السفاح: «إنه كان جميلاً وسيماً»؛ ويقول صاحب الفخري (ص ١٣٤): «إنه كان كريماً حليماً وقوراً، عاقلاً كاملاً، كبير الحياء، حسن الأخلاق». ويقول السيوطي[٢]: «وكان السفاح أسخى الناس، ما وعد عدة فأخرها عن وقتها، ولا قام من مجلسه حتى يقضيها. وقال عبدالله بن الحسن العلوي مرة: سمعت بألف ألف درهم وما رأيتها قط. فأمر بها فأحضرت، وأمر بحملها معه إلى منزله. وكان نقش خاتمه: «الله ثقة عبد الله وبه يؤمن» ويؤثر عنه قوله: إن من أدنياء الناس ووضائعهم من عد البخل حزماً والحلم ذلاً، وقوله: إذا كان الحلم مفسدة كان العفو معجزة والصبر حسناً، إلا على ما أوقع الدين وأوهن السلطان، والأناة محمودة إلا عند إمكان الفرصة.

ويقول الطبري[٣]: كان السفاح مجعد الشعر، طويلاً أبيض، أقنى الأنف، حسن الوجه واللحية.

وقال المسعودي[٤]: «ولم يكن أحد من الخلفاء يحب مسامرة الرجال مثل أبي العباس السفاح. وكان كثيراً ما يقول: إنما العجب ممن يترك أن يزداد علماً، ويختار أن يزداد جهلاً، فقال له أبو بكر الهذلي: ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين؟

قال: يترك مجالسة مثلك وأمثال أصحابك، ويدخل إلى امرأة أو جارية، فلا يزال يسمع سخفاً ويروي نقصاً، فقال له الهذلي: لذلك فضلكم الله على العالمين وجعل منكم خاتم النبيين.

وكان السفاح يشجع الأدب والغناء، ويجزل العطاء على الشعراء والمغنين فقد دخل عليه أبو بجيلة الشاعر، فسلم عليه وقال: عبدك يا أمير المؤمنين وشاعرك، أفتأذن لي في إنشادك؟ فقال له السفاح: لعنك الله! ألست القائل في مسلمة بن عبد الملك بن مروان:

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢١٥.
(٢) تاريخ الخلفاء ص ١٧١.
(٣) جـ ٩ ص ١٥٤.
(٤) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢١٧.

أمسلم إني يابن كل خليفة ويا فارس الهيجا ويا جبل الأرض؟

فقال الشاعر: أنا يا أمير المؤمنين الذي أقول:

فكما قد قلتُ في سواكا زورٌ وقد كفَّرَ هذا ذاكا
إنا انتظرنا قبلها أباكا ثم انتظرنا بعدها أخاكا
ثم انتظرناك لها إياك فكنتَ أنت للرجاء ذاكا

فرضي السفاح عنه وأجزل له العطاء.

وكان السفاح يطرب من وراء الستر ويصيح بالمطرب له من المغنين: أحسنت والله فأعد هذا الصوت. وكان لا ينصرف عنه أحد من ندمائه ولا مطربيه إلا بصلة من مال أو كسوة، ويقول: لا يكون سرورنا معجلاً ومكافأة من سرنا وأطربنا مؤجلاً، على أنه سرعان ما احتجب عن ندمائه.

وكان السفاح إذا أحضر طعامه أبسط ما يكون وجهاً، فكان إبراهيم بن مخرمة الكندي إذا أراد أن يسأله حاجة أخرها حتى يحضر طعامه ثم يسأله، فقال له السفاح يوماً: يا إبراهيم ما دعاك إلى أن تشغلني عن طعامي بحوائجك؟ قال: يدعوني إلى ذلك التماس النجح لما أسأل. قال أبو العباس: إنك لحقيق بالسؤدد لحسن هذه الفطنة[1].

ويحدثنا المسعودي[2] عن زواج السفاح قبل توليته الخلافة من أم سلمة. وكانت قد تزوجت من عبدالله بن الوليد بن المغيرة المخزومي. فمات وتزوجت بعده من عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك الأموي فمات. فبينا هي ذات يوم، إذ مر بها أبو العباس السفاح، وكان جميلاً وسيماً، فسألت عنه، وأرسلت له مولاة لها تعرض عليه أن يتزوجها، وقالت لمولاتها: قولي له: هذه سبعمائة دينار أوجه بها إليك. وكانت تمتلك كثيراً من المال والحشم والجواهر. فأتته المولاة وعرضت عليه ذلك، فقال السفاح: أنا مملق لا مال عندي، فدفعت إليه المال، وأقبل إلى أخيها وطلب إليه أن يزوجه منها، فزوجه إياها، فأصدقها خمسمائة دينار، وأهدى من يلوذ بها مائتي دينار، وزفت إليه في ثياب موشاة بالجواهر، وحظيت عنده حتى أصبح لا يقطع أمراً إلا بمشورتها حتى أفضت الخلافة إليه.

فلما كان ذات يوم في خلافته، خلا به خالد بن صفوان فقال له: يا أمير المؤمنين! إني فكرت في أمرك وسعة ملكك، وقد ملكت نفسك امرأة واحدة، فإن مرضت مرضت وإن

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٢١٨.
(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢١٥ ـ ٢١٧.

غابت غبت وحرمت نفسك التلذذ باستظراف الجواري ومعرفة أخبار حالتهن والتمتع بما تشتهي منهن. فإن منهن يا أمير المؤمنين الطويلة الغيداء، وإن منهن البضة البيضاء، والدقيقة السمراء، والبربرية العجزاء من مولدات المدينة تفتن بمحادثتها. وجعل خالد يجيد في الوصف ويجد في الإطناب بحلاوة لفظه وجودة وصفه. فلما فرغ كلامه، قال أبو العباس: ويحك يا خالد! ما صك مسامعي والله كلام أحسن مما سمعته منك. فأعد علي كلامك. فقد وقع مني موقعاً. فأعاد عليه خالد أحسن مما ابتدأه، ثم انصرف.

وبقي السفاح مفكراً فيما سمع منه، فدخلت عليه زوجته أم سلمة، فلما رأته مفكراً مغموماً قالت: إني لأنكرك يا أمير المؤمنين، فهل حدث أمر تكرهه أو أتاك خبر فارتعت له؟ قال: لم يكن من ذلك شيء، قالت: فما قصتك؟ فجعل ينزوي عنها، فلم تزل به حتى أخبرها بحديث خالد، فقالت: فما قلت لابن الفاعلة؟ قال لها: سبحان الله ينصحني وتشتمينه؟ وخرجت من عنده مغضبة وأرسلت إلى خالد جماعة من النجارية وأمرتهم ألا يتركوا منه عضواً صحيحاً. قال خالد: فانصرفت إلى منزلي وأنا على السرور بما رأيت من أمير المؤمنين وإعجابه بما ألقيت إليه، ولم أشك أن صلته ستأتيني. فلم ألبث حتى سار إلي أولئك النجارية وأنا قاعد على باب داري، فلما رأيتهم قد أقبلوا نحوي، أيقنت بالجائزة واصلة، حتى وقفوا علي فسألوا عني، فقلت: هاأنذا خالد، فسبق إلي أحدهم بهراوة كانت معه. فلما أهوى بها علي وثبت فدخلت منزلي وأغلقت الباب علي واستترت، ومكثت أياماً على تلك الحال لا أخرج من منزلي، ووقع في خلدي أني أتيت من قبل أم سلمة، وطلبني السفاح طلباً شديداً، فلم أشعر ذات يوم إلا بقوم هجموا علي وقالوا: أجب أمير المؤمنين فأيقنت بالموت، فركبت وليس علي لحم ولا دم.

فلما وصلت إلى الدار أومأ إلي بالجلوس، ونظرت فإذا خلف ظهري باب عليه ستور قد أرخيت، وحركة خلفها، فقال: يا خالد! لم أرك منذ ثلاث، قلت: كنت عليلاً يا أمير المؤمنين قال: ويحك! إنك وصفت لي في آخر دخلة من أمر النساء والجواري ما لم يخرق مسامعي قط كلام أحسن منه، فأعده علي، قلت: نعم يا أمير المؤمنين، أعلمتك أن العرب اشتقت اسم الضرة من الضر، وأن أحدهم ما تزوج من النساء أكثر من واحدة إلا كان في جهد، فقال: ويحك! لم يكن هذا في الحديث. فقلت: بلى والله يا أمير المؤمنين، وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأنهن القدر يغلي عليهن. قال أبو العباس: برئت من قرابتي من رسول الله ﷺ إن كنت سمعت هذا الكلام منك في حديثك. قال: وأخبرتك أن الأربع من النساء شر صحيح لصاحبهن، يشيبنه ويهرمنه ويسقمنه. قال: ويلك! ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبل هذا الوقت.

قال خالد: بلى والله، قال: ويلك! وتكذبني؟ قال: وتريد أن تقتلني يا أمير المؤمنين؟ قال: مر في حديثك، قال: وأخبرتك أن أبكار الجواري رجال، ولكن لا خصي لهن، قال خالد: فسمعت الضحك من وراء الستر، فقلت: نعم وأخبرتك أيضاً أن بني مخزوم ريحانة قريش، وأنت عندك ريحانة من الرياحين، وأنت تطمح نفسك إلى حرائر النساء وغيرها من الإماء. قال خالد: فقيل لي من وراء الستر: صدقت والله يا عماه وبررت، بهذا حدثت أمير المؤمنين، ولكنه بدل وغير ونطق عن لسانك، فقال له أبو العباس، ما لك قاتلك الله وأخزاك وفعل بك وفعل! فتركته وخرجت وقد أيقنت بالحياة، فما شعرت إلا برسل أم سلمة قد ساروا إليّ ومعهم عشرة آلاف درهم وتخت وبرذون وغلام.

بقي السفاح في الخلافة أربع سنين وتسعة أشهر، ومات بالجدري في مدينة الأنبار التي اتخذها قاعدة لخلافته، وذلك يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ذي الحجة سنة ١٣٦هـ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وقيل ابن تسع وعشرين.

أبو جعفر المنصور
(١٣٦ - ١٥٨/٧٥٤ - ٧٧٥)

ولد أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي العباسي سنة ١٠١هـ في الحميمة من أرض الشراة على مقربة من العقبة، وذلك في أواخر خلافة عمر بن عبد العزيز. وأمه سلامة البربرية[١]. وقد تربى وسط كبار الرجال من جلة بني هاشم. وصحب أباه وجده فنشأ أديباً فصيحاً، ملماً بسير الملوك والأمراء[٢]. واستعان السفاح بأبي جعفر في التخلص من أبي سلمة الخلال لأنه كان يعمل على تحويل الخلافة إلى العلويين، وأرسله إلى خراسان لاستطلاع رأي أبي مسلم في قتل أبي سلمة، فتم له ما أراد. ثم وجه أبو العباس أخاه أبا جعفر إلى خراسان لأخذ البيعة له وتوليته العهد من بعده؛ ولكن قتل أبي مسلم سليمان بن كثير، على الرغم من وجود أبي جعفر بخراسان، قد أثار حفيظته وحنقه، حتى إنه أشار على الخليفة بقتل أبي مسلم قبل أن يستفحل خطره في الدولة ولكن أبا العباس خاف أن يؤدي هذا القتل إلى إثارة غضب الخراسانيين على الأخذ بثأره.

كذلك استعان أبو العباس السفاح بأخيه أبي جعفر في مقاتلة يزيد بن عمر بن هبيرة قائد

---

(١) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٢٦. وقيل إن أمه سلامة بنت بشير من مولدات البصرة (المسعودي التنبيه والإشراف ص ٣٤٠) وقيل أيضاً ريطة الحارثية أم السفاح، وهذا غير صحيح.

(٢) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ١٨١.

مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وزعيم العرب في ذلك الوقت. وعلى الرغم من إعطاء أبي العباس الأمان له قتله قبل أن يجف مداد ذاك الأمان، وقد قيل إن أبا مسلم الخراساني أرسل إلى السفاح كتاباً يشير فيه بقتل ابن هبيرة، وختم كلامه بقوله: «إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد؛ لا والله لا يصلح أمر فيه ابن هبيرة»، وكان أبو جعفر يرى عدم قتله.

وفي سنة ١٣٢هـ ولى السفاح أبا جعفر الجزيرة وأذربيجان وأرمينية[١]، وفي سنة ١٣٦هـ ولاه السفاح إمارة الحج. ثم توفي السفاح، وكان قد عهد بالخلافة من بعده إلى أخيه أبي جعفر، ثم إلى عيسى بن موسى بن محمد بن علي، وكتب بذلك العهد، وختم عليه بخاتمه، وشهد بذلك أهل بيته، وسلمه إلى عيسى بن موسى بن محمد العباس[٢].

أرسل عيسى بن موسى إلى أبي جعفر يعلمه بموت أبي العباس السفاح وأخذ البيعة له، فلقيه الرسول بمكان يقال له زكية. فلما جاءه الكتاب دعا الناس فبايعوه، وبايعه أبو مسلم وقال أبو جعفر: «أين موضعنا هذا؟ قالوا: زكية، فقال أمر يزكي لنا إن شاء الله تعالى»[٣].

وفي أيام المنصور حدثت أحداث خطيرة: من ذلك حرج مركز العباسيين بين الساخطين من العرب وعلى رأسهم عمه عبدالله بن علي والساخطين من الفرس وعلى رأسهم أبو مسلم الخراساني مؤسس الدولة العباسية نفسه. ولكن المنصور استطاع بحزمه وكيده أن يقهر العرب ويأسر عمه ثم يقتله، وأن يقهر الفرس ويقتل أبا مسلم، كما استطاع المنصور أن يقهر العلويين، ويقتل محمداً (النفس الزكية) بن عبدالله بن الحسن في الحجاز، وأخاه إبراهيم في العراق.

خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد ـ البيعة للمهدي:

ومن الأحداث الخطيرة التي وقعت في عهد أبي جعفر المنصور، خلع عيسى بن موسى بن محمد العباسي من ولاية العهد، وأخذ البيعة للمهدي بن المنصور.

وقد ذكر صاحب الفخري[٤] كيفية خلع عيسى فقال: «اختلف أرباب السير في كيفية خلعه، فقيل إن المنصور التمس منه ذلك، وكان يكرمه ويجلسه عن يمينه، ويجلس المهدي عن

(١) الطبري جـ ٩ ص ١٤٧.
(٢) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١٥٤.
(٣) ذكر الطبري في رواية أخرى أن البيعة قد وردت على أبي جعفر بعد الحج في منزل من منازل طريق مكة يقال له «صفية» فتفاءل باسمه، وقال: صفت لنا إن شاء الله تعالى.
(٤) ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

يساره، فلما فاوضه المنصور في خلع نفسه قال: يا أمير المؤمنين! كيف أصنع بالأيمان التي في رقبتي وفي رقاب الناس، بالعتاق والطلاق والحج والصدقة؟ ليس إلى الخلع سبيل. فتغير المنصور عليه وباعده بعض المباعدة، وصار يأذن للمهدي قبله، ويجلسه دون المهدي. وصار يتقصد أذاه. فكان يكون عيسى بن موسى جالساً، فيحفر الحائط الذي يليه وينتثر التراب على رأسه، فيقول لبنيه تنحوا. ثم يقوم هو فيصلي والتراب ينثر عليه؛ ثم يؤذن له فيدخل على المنصور والتراب عليه لا ينفضه؛ فيقول له المنصور: يا عيسى! ما يدخل علي أحد بمثل ما تدخل أنت به من الغبار والتراب، أفكل هذا من الشارع؟ فيقول عيسى: أحب ذلك يا أمير المؤمنين، ولا يشكو.

وقيل إنه سقاه بعض ما يتلفه. فمرض مدة، ثم أفاق منه. فلم يزل هذا الأذى يتكرر عليه حتى خلع نفسه وبايع، وقيل بل وضع المنصور الجند فساروا يشتمون عيسى بن موسى إذا رأوه وينالون منه. فلما شكا ذلك إلى المنصور قال له: يا بن أخي! إني والله أخافهم عليك وعلى نفسي، فإني قد أشربت قلوبهم حب ذلك الفتى، يعني المهدي، فلو قدمته بين يديك. فخلع عيسى نفسه، وبايع المهدي. ولما رآه بعض أهل الكوفة وقد جعل المهدي قدامه في الخلافة، وصار هو بعده، قال هذا الذي كان غداً فصار بعد غد. وقيل بل اشتراها المنصور منه بمال مبلغه أحد عشر ألف ألف درهم، وقيل بل أرسل إليه خالد بن برمك فأخذ معه جماعة من أهل المنصور، نحو ثلاثين رجلاً، ومضى إلى عيسى. فخاطبه في أن يخلع نفسه فأبى. فلما أبى قال خالد للجماعة: نشهد عليه في أنه قد خلع نفسه، ونحقن بذلك دمه، وتسكن هذه الفتنة، فشهدوا عليه بذلك، فقامت البينة به، وأنكر عيسى فلم يلتفت إليه، وتم خلعه وبويع للمهدي.

وبعد أن أخذت البيعة للمهدي، أوصاه أبوه المنصور بوصية تكشف عن السياسة التي وضعها لابنه، ليسير عليها في سياسة رعيته، ومسلمهم وذميهم. فحثه على الرأفة بهم، والسهر على راحتهم، وبسط العدل بينهم، والتقرب إلى الله بحسن السيرة، وإجلال أهل العلم والدين، وعمارة الأرض لتخفيف الخراج، ونشر الإسلام، والجهاد في سبيل إعلاء كلمته[1].

وقد ذكر المسعودي[2] أن عمرو بن عبيد دخل على المنصور بعد أن بايع لابنه المهدي فقال له: يا أبا عثمان! هذا ابن أمير المؤمنين ولي عهد المسلمين قال له عمر: يا أمير المؤمنين! أراك قد وطدت له الأمور، وهي تصير إليه، وأنت عنه مسئول فاستعبر المنصور وقال له: عظني

---

(١) انظر الملحق الثالث.

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٤٣.

يا عمرو، قال: يا أمير المؤمنين! إن الله أعطاك الدنيا بأسرها، فاشتر نفسك منها ببعضها، وإن هذا الذي في يديك لو بقي في يد غيرك لم يصل إليك، فاحذر ليلة تمخضُ بيوم لا ليلة بعده.

أخلاق المنصور وصفاته ـ وفاته:

ذهب بعض المؤرخين إلى القول إن المنصور، كان أعظم الخلفاء العباسيين شدة وبأساً ويقظة وحزماً وصلاحاً واهتماماً بمصالح الرعية وجداً في بلاطه. وهو يعتبر بحق المؤسس الثاني للدولة العباسية كما كان عبد الملك بن مروان بالنسبة للدولة الأموية. ولا غرو فإن كلا الرجلين استطاع بما أوتيه من حزم وعزم أن ينتشل بلاده من عبث العابثين وخطر الخوارج، وأن يوطد دعائم ملكه على أسس قوية من النظام.

قال الطبري[1]: «كان المنصور أسمر طويلاً نحيفاً خفيف العارضين»، وكان ميالاً بطبيعته إلى النظام الذي هو أساس نجاح الأعمال. فكان ينظر في صدر النهار في أمور الدولة وما يعود على الرعية من خير. فإذا صلى العصر جلس مع أهل بيته، فإذا صلى العشاء نظر فيما يرد عليه من كتب الولايات والثغور وشاور وزيره ومن حضر من رجالات دولته فيما أراد من ذلك، فإذا مضى ثلث الليل انصرف سماره، وقام إلى فراشه. فنام الثلث الثاني، ثم يقوم من فراشه فيتوضأ. ويجلس في محرابه حتى مطلع الفجر، ثم يخرج فيصلي بالناس، ثم يدخل فيجلس في ديوانه ويبدأ عمله كعادته في كل يوم.

اشتهر المنصور بالجد في بلاطه، فلم يعرف عنه ميل إلى اللهو والعبث. روى الطبري عن حماد التركي أن المنصور سمع يوماً في داره جلبة، فقال: ما هذا يا حماد؟ أنظر! فذهب فإذا خادم له قد جلس بين الجواري وهو يضرب لهن بالآلة الموسيقية المعروفة بالطنبور، وهن يضحكن؛ فمشى رويداً رويداً حتى أشرف عليهن. فلما رأينه تفرقن، فأمر المنصور مولاه بأن يضرب رأس الخادم بالطنبور، فلم يزل يضرب به رأسه حتى كسره، ثم أخرجه المنصور من قصره.

ويحدثنا المسعودي[2] أن المنصور بينما كان جالساً في مجلسه، سقط بين يديه سهم فذعر ذعراً شديداً، ثم أخذه فجعل يقلبه، فإذا مكتوب عليه بين الريشتين:

أتطمعُ في الحياة إلى التناد[3] ... وتحسب أن ما لك من نفاد؟
ستسأل عن ذنوبك والخطايا ... وتسأل بعد ذاك عن العباد

---

(١) جـ ٩ ص ٢٩٩. (٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٣٣. (٣) يريد يوم التناد وهو يوم القيامة.

ثم قرأ عند الريشة الأولى:

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وساعفتك الليالي فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدر

ثم قرأ عند الريشة الأخرى:

هي المقادير تجري في أعنتها ... فاصبر فليس لها صبر على حال
يوماً تريك خسيس القوم ترفعه ... إلى السماء ويوماً تخفض العالي

وإذا على باب السهم مكتوب: همذان فيها رجل مظلوم في حبسك، فبعث المنصور من فوره بعض خاصته ليفتشوا السجون، فوجدوا شيخاً موثقاً بالحديد، متوجهاً نحو القبلة يردد هذه الآية: ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾[1]، فسأله عن بلده، فقال: همذان، فحمل ووضع بين يدي المنصور فسأله عن قصته، فأخبره أنه من أبناء مدينة همذان، ومن أهل اليسار فيها، وأن الوالي أراد أن يأخذ منه ضيعته التي تقوم بألف ألف درهم؛ فامتنع عن القبول فكبله بالحديد وحمله. وكتب إليه أنه عاص؛ فكان من أمره ما كان، وظل على ذلك أربع سنين. فأمر المنصور ففك الحديد عن هذا الرجل وأطلق من حبسه، وردت إليه ضيعته وولاه همذان. فشكره الرجل، وقال: يا أمير المؤمنين! أما الضيعة فقد قبلتها، وأما الولاية فلا أصلح لها، وأما واليك فقد عفوت عنه. وعاد هذا الرجل معززاً مكرماً، وصرف المنصور الوالي عن ولايته وعاقبه على فعلته.

وكان المنصور يكره سفك الدماء إلا بالحق فقد بلغه أن عيسى بن موسى قتل رجلاً من ولد نصر بن سيار والي مروان بن محمد الأموي، كان مستخفياً في الكوفة. فأنكر ذلك على عيسى وهمّ بقتله. ثم عدل عن هذا العمل، بعد أن بلغه أنه لم يقم بذلك عن سوء نية أو عن موجدة لهذا الرجل. فكتب إليه أبو جعفر هذا الكتاب يؤنبه فيه على فعلته، ويأمره ألا يعاقب أحداً عن ريبة أو ظنة. وإنما لثبوت التهمة عليه وتوافر الأدلة على جرمه. وهاك هذا الكتاب بنصه عن الطبري[2]:

«أما بعد فإنه لولا نظر أمير المؤمنين واستبقاؤه، لم يؤخرك قتل ابن نصر بن سيار، واستبدادك به بما يقطع أطماع العمال في مثله. فأمسك عمن ولاك أمير المؤمنين أمره من عربي وأعجمي وأحمر وأسود. ولا تستبدن على أمير المؤمنين بإمضاء عقوبة في أحد قبله تباعة (ظلامة)، فإنه لا يرى أن يأخذ أحداً بظنة قد وضعها الله عنه بالتوبة، ولا بحدث كان منه في

(١) سورة الشعراء: ٢٦: ٢٢٧.
(٢) جـ ٩ ص ٢٩٤.

حرب أعقبه الله منها سلماً، ستر به عن ذي غلة، وحجز به عن محنة ما في الصدور. وليس ييأس أمير المؤمنين لأحد ولا لنفسه من الله من إقبال مدبر، كما أنه لا يأمن من إدبار مقبل إن شاء الله والسلام».

وقد عرف المنصور بالثبات عند الشدائد. ولا شك أن هذه الصفة كانت من أبرز الصفات التي كفلت له النجاح إذا صادفته إحدى الصعوبات، وكانت كثيرة في عهده كما نعلم. ومما يسجل للمنصور بالفخر والإعجاب، قيامه في وجه من خرجوا عليه من أهل بيته وبين أبناء عمه من العلويين؛ فقد تغلب عليهم بفضل هذا الثبات، ووطد دعائم ملكه بعد أن أصبح قاب قوسين أو أدنى من الوهن والانحلال.

وروى الطبري(١) عن الوضين بن عطاء قال: استزارني أبو جعفر، وكان بيني وبينه خلالة قبل الخلافة. فصرت إلى مدينة السلام، فجلونا يوماً. فقال لي: يا أبا عبد الله! ما لك؟ قلت: الخير الذي يعرفه أمير المؤمنين، قال: وما عليك؟ قلت: ثلاث بنات والمرأة وخادم لهن، فقال لي: أربع في بيتك؟ قلت: نعم! قال: فوالله لردد ذلك علي حتى ظننت أنه سيمولني، ثم رفع رأسه إلي، فقال: أنت أيسر العرب، أربع مغازل في بيتك!».

ومما يدل على حرص المنصور في النفقات ما رواه الطبري(٢) عن الفضل بن الربيع، قال: «وذكر عن علي بن محمد بن الفضل بن الربيع، حدثه أن المنصور لما فرغ من بناء قصره بالمدينة دخله فطاف فيه واستحسنه واستنظفه، وأعجبه ما رأى فيه، غير أنه استكثر ما أنفق عليه، ونظر إلى موضع فيه استحسنه جداً، فقال لي: اخرج إلى الربيع فقل له: اخرج إلى المسيب فقل له يحضرني الساعة بناء فارها. فخرجت إلى المسيب، فأخبرته، فبعث إلى رئيس البنائين فدعاه، فأدخله على أبي جعفر، فلما وقف بين يديه قال له: كيف عملت لأصحابنا في هذا القصر؟ وكم أخذت من الأجرة لكل ألف آجرة ولبنة؟ فبقي البناء لا يقدر على أن يرد عليه شيئاً، فخافه المسيب، فقال له المنصور: ما لك لا تتكلم؟ فقال: لا علم لي يا أمير المؤمنين، قال: ويحك! قل وأنت آمن من كل ما تخاف، قال: يا أمير المؤمنين لا والله ما أقف عليه ولا أعلمه، فأخذ بيده وقال له: تعال لا علمك الله خيراً، وأدخله الحجرة التي استحسنها، فأراه مجلساً كان فيها، فقال له: انظر إلى هذا المجلس وابن لي بإزائه طاقاً يكون شبيهاً بالبيت، لا تدخل فيه خشباً. قال: نعم يا أمير المؤمنين. فأقبل البناء، وكل من معه يتعجبون من فهمه بالبناء والهندسة، فقال له البناء: ما أحسن أن جيء به على هذا ولا أقوم به على الذي تريد، فقال له: فأنا أعينك عليه، قال: فأمر بالآجر والجص فجيء به ثم أقبل

(١) جـ ٩ ص ٢١٢.
(٢) جـ ٩ ص ٢٦٣.

يحصي جميع ما دخل في بناء الطاق من الآجر والجص. ولم يزل كذلك حتى فرغ منه في يومه وبعض اليوم الثاني، فدعا المسيب فقال له: ادفع أجره على حسب ما عمل معك. فحاسبه المسيب فأصابه خمسة دراهم، فاستكثر ذلك المنصور وقال: لا أرضى إليه بذلك، فلم يزل به حتى نقصه درهماً، ثم أخذ المقادير، ونظر مقدار الطاق من الحجرة حتى عرفه. ثم أخذ الوكلاء والمسيب يحملان النفقات، وأخذ معه الأمناء من البنائين والمهندسين حتى عرفوه قيمة ذلك،فلم يزل يحسبه شيئاً فشيئاً، وحملهم على ما رفع في أجرة بناء الطاق، فخرج على المسيب مما في يده ستة آلاف درهم ونيف. فأخذه بها واعتقله، فما برح من القصر حتى أداها إليه».

وكان المنصور حريصاً على جمع المال كما كان أحرص منه على إنفاقه. وكان يغلب عليه الشح حتى ضرب المثل بشحه وحرصه، فسمي أبا الدوانيق، والمنصور الدوانيقي، لتشدده في محاسبة العمال والصناع على الحبة والدانق، وهو مقدار لا يزيد على سدس درهم. فإنه لما بنى في مدينة بغداد كان ينظر في العمارة بنفسه، فيحاسب الصناع والأجراء فيقول لهذا: أنت نمت القائلة، ولهذا أنت لم تبكر إلى عملك، ولغيره: أنت انصرفت ولم تكمل اليوم، فيعطي كل واحد منهم بحسب ما عمل في يومه، فلا يكاد يعطي أجرة يوم واحد.

وقال المسعودي[1]: وكان المنصور من الحزم وصواب الرأي وحسن السياسة على ما تجاوز كل وصف. وكان يعطي الجزيل والخطير ما كان إعطاؤه حزماً، ويمنع الحقير اليسير ما كان إعطاؤه تضييعاً وكان كما قال زياد لو أن عندي ألف بعير وعندي بعير أجرب، لقمت عليه قيام من لا يملك غيره. وخلف ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار. وكان مع هذا يضن بماله وينظر فيما لا ينظر فيه العوام. ووافق صاحب مطبخه على أن له الرؤوس والأكارع والجلود وعليه الحطب والتوابل.

وقد وصف صاحب الفخري[2] المنصور في هذه العبارة فقال: كان المنصور من عظماء الملوك وحزمائهم، وعقلائهم وعلمائهم، وذوي الآراء الصائبة منهم، والتدبيرات السديدة، وقوراً شديد الوقار، حسن الخلق في الخلوة، من أشد الناس احتمالاً لما يكون من عبث أو مزاح. فإذا لبس ثيابه وخرج إلى المجلس العام، تغير لونه، واحمرت عيناه، وانقلبت جميع أوصافه. قال يوماً لبنيه: يا بني! إذا رأيتموني قد لبست ثيابي وخرجت إلى المجلس، فلا يدنو أحد مني مخافة أن أعره بشيء. قالوا: وكان المنصور يلبس الخشن، وربما رقع قميصه. وقيل ذلك لجعفر بن محمد الصادق عليهما السلام، فقال: الحمد لله الذي ابتلاه بفقر نفسه في ملكه قالوا: ولم يكن يرى في دار المنصور لهو ولعب أو ما يشبه اللهو واللعب.

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٤٥ ـ ٣٤٦. (٢) ص ١٤١ ـ ١٤٢.

ولى المنصور رجلاً من العرب حضر موت، فكتب إليه صاحب البريد يخبره أنه يكثر الخروج في طلب الصيد ببزاة وكلاب قد أعدها، فعزله وكتب إليه: ثكلتك أمك وعدمتك عشيرتك، ما هذه العدة التي أعددتها للنكاية في الوحش؟ إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحش. سلم ما كنت تلي من عملنا إلى فلان بن فلان والحق بأهلك ملوماً مدحوراً[١].

وقد عرف المنصور بالفصاحة في القول والإبانة عن مقصده. فقد روى الطبري[٢] في حوادث سنة ١٥٠هـ أنه خطب ببغداد في يوم عرفات، فقال: أيها الناس! إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده؛ وأنا خازنه على فيئه، أعمل بمشيئته، وأقسمه بإرادته، وأعطيه بإذنه. فقد جعلني الله عليه قفلاً، إذا شاء أن يفتحني لأعطياتكم وقسم فيئكم وأرزاقكم فتحني، وإذا شاء أن يقفله أقفلني. فارغبوا إلى الله أيها الناس، وسلوه في هذا اليوم الشريف، الذي وهب لكم فيه من فضله ما أعلمكم به في كتابه إذ يقول تبارك وتعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ أن يوفقني للصواب، ويسددني للرشاد، ويلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم، ويفتحني لأعطياتكم وقسم أرزاقكم بالعدل عليكم إنه سميع قريب!.

وقد خطب المنصور الناس بعد قتل أبي مسلم فقال: أيها الناس! لا تخرجوا عن أنس الطاعة إلى وحشية المعصية، ولا تسروا غش الأئمة؛ فإن من أسر غش إمامه أظهر الله سريرته في فلتات لسانه وسقطات أفعاله، وأبداها الله لإمامه، الذي بادر بإعزاز دينه به وإعلاء حقه بفلجه. إنا لم نبخسكم حقوقكم ولم نبخس الذي حقه عليكم. إنه من نازعنا هذا القميص أوطأناه ما في هذا الغمد. وإن أبا مسلم بايعنا وبايع لنا أنه من نكث بيعتنا فقد أباح دمه لنا، ثم نكث بنا هو فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا، ولم تمنعنا رعاية الحق من إقامة الحق عليه[٣].

إلا أنه يؤخذ على المنصور ميله لسفك الدماء وإن لم يكن قد بلغ في ذلك ما بلغه أخوه أبو العباس من قبله. ومما يؤخذ عليه أيضاً غدره بمن أمنه، الأمر الذي يحط شأنه في نظر التاريخ. فقد غدر غدرات ثلاثاً: غدر بابن هبيرة وقد أعطاه الأمان، ولم يبد منه ما يدعو إلى الفتك به، وغدر بعمه عبد الله بن علي بعد أن أمنه، وغدر بأبي مسلم بعد أن طمأنه.

ومما يدل على ميله إلى انتهاك حرمة العهود، معاملته لزوجته، وكان قد تعهد لها ألا

---

(١) الطبري جـ ٩ ص ٢٩٧.

(٢) جـ ٩ ص ٣١٠ - ٣١١.

(٣) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٣٦.

يتزوج عليها، وشهد الشهود بذلك. فلما ولي الخلافة، أخذ يستفتي الفقهاء والقضاة من الأمصار الإسلامية في فسخ ذلك العقد. لولا أن وافاها الأجل بعد عشرين سنة من خلافته. ولا يخفى ما ينطوي تحت هذا العمل من محاولة تعريض فقهائه لمخالفة ضمائرهم وعدم رعاية ذممهم[١].

روى الطبري[٢] في سبب وفاة المنصور، أنه خرج سنة ١٥٨هـ مشيعاً ابنه المهدي حين وجهه إلى الرقة، فشج فيما بين حاجبيه وصرع من يومه. وكان المنصور يكثر من الطعام ولا يعمل بنصيحة الأطباء، حتى أدى ذلك إلى اشتداد علته وأودى بحياته. وقد روى علي بن محمد بن سليمان النوفلي عن أبيه قال: كان المنصور لا يستمرىء طعامه ويشكو ذلك إلى المتطببين، ويسألهم أن يتخذوا له الجوارشنات. فكانوا يكرهون ذلك ويأمرونه أن يقل من الطعام، ويخبرونه أن الجوارشنات تهضم في الحال، وتحدث من العلة ما هو أشد منه عليه، حتى قدم عليه طبيب من أطباء الهند، فقال له كما قال له غيره. فكان يتخذ له سفوفاً جوارشناً يابساً، فيه الأفاوية والأدوية الحارة. فكان يأخذه فيهضم طعامه. قال النوفلي: قال لي كثير من متطببي العراق: لا يموت والله أبو جعفر أبداً إلا بالبطن، قال: قلت له: وما علمك؟ قال: هو يأخذ الجوارشن فيهضم طعامه، ويخلق من زِئْبر معدته كل يوم شيئاً وشحم مصارينه، فيموت ببطنه. قال لي: اضرب لذلك مثلاً: أرأيت لو أنك وضعت حجراً على مَرفع، ووضعت تحتها آجرة جديدة فقطرت، أما كان قطرها يثقب الآجرة على طول الدهر؟ أو ما علمت أن لكل قطرة حداً؟ قال كثير: فمات والله أبو جعفر كما قال (يعني النوفلي) بالبطن.

وروى الطبري[٣] في سبب موت أبي جعفر المنصور أيضاً، قال بعضهم: كان بدء وجعه الذي مات فيه، حر أصابه من ركوبه في الهواجر، وكان رجلاً محروراً على سنه، يغلب عليه المرار الأحمر. ثم هاض بطنه، فلم يزل كذلك حتى نزل بستان ابن عامر، فاشتد به (أي وجعه) فرحل عنه فقصر عن مكة، ونزل بئر ابن المرتفع، فأقام بها يوماً وليلة، ثم سار منها إلى بئر ميمون. وهي على بعد ستة أيام من مكة، وهو يسأل عن دخول الحرم يوصي الربيع بما يريد أن يوصيه به. وتوفي به في السحر أو مع طلوع الفجر ليلة السبت لست خلون من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة. واختلف المؤرخون في مبلغ سنه حين توفي. فقال بعض إنه كان في الثالثة والستين، وقال بعض إنه كان في الرابعة والستين، وقال بعض آخر إنه بلغ الخامسة والستين، وذهب بعض إلى أنه بلغ الثامنة والستين[٤].

---

(١) الطبري جـ ٩ ص ٣٠٩.
(٢) جـ ٩ ص ٢٩٠ - ٢٩٢.
(٣) جـ ٩ ص ٢٩٢.
(٤) المصدر نفسه جـ ٩ ص ٢٩٢ - ٢٩٣.

وقد ذكر صاحب مختصر تاريخ الخلفاء[١] (ورقة ٣٠ ب) أن المنصور لما قرب من مكة؛ رأى على جدار حائط هذين البيتين وهما:

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت ... سنوك وأمر الله لا بد واقع
أبا جعفر هل كاهن أو منجم ... لك اليوم من ريب المنية نافع[٢]

ولما قرأ المنصور هذين البيتين، أيقن بانقضاء أجله، فمات بعد ثلاثة أيام.

ولم يحضر عند وفاة المنصور إلا خدمه ومولاه الربيع بن يونس. فكتم الربيع خبر موته، ومنع النساء وغيرهن من البكاء والصراخ عليه ولما أصبح الصباح وشاع نبأ موته، حضر أهل بيته وجلسوا مجالسهم. وجاء بعض العلويين وغيرهم، وملئوا السرادق الذي ضرب له، ثم خرج الربيع إليهم، وفي يده قرطاس ففضه وقرأ ما فيه فإذا به: «بسم الله الرحمن الرحيم! من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى من خلف من بني هاشم وشيعته من أهل خراسان وعامة المسلمين»، ثم رمى القرطاس من يده وبكى، فأبكى الناس، ثم تناول القرطاس، وقال: قد أمكنكم البكاء، ولكن هذا عهد عهده أمير المؤمنين. ولا بد من أن نقرأه عليكم فأنصتوا رحمكم الله، فسكت الناس، ثم قرأ: أما بعد، فإني كتبت كتابي هذا وأنا حي في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة. وأنا أقرأ عليكم السلام، وأسأل الله ألا يفتنكم بعدي ولا يلبسكم شيعاً، ولا يذيق بعضكم بأس بعض. يا بني هاشم ويا أهل خراسان! ثم أخذ في وصيتهم بالمهدي وإذكارهم البيعة له، وحضهم على القيام بدولته والوفاء له إلى آخر الكتاب[٣].

عند ذلك أذن للأكابر والمسنين من أهل البيت، ثم لعامتهم؛ فأخذ الربيع منهم البيعة للمهدي بن المنصور، ولعيسى بن موسى من بعده. ثم دعا بالقواد فبايعوا، وخرج موسى بن المهدي إلى مجلس العامة فبايع من بقي من القواد والوجوه. ثم توجه العباس بن محمد ومحمد بن سليمان إلى مكة، فبايع كثير من أهل مكة والمدينة الذين حضروا موسم الحج.

من ذلك نرى أن المهدي قد بويع البيعة الخاصة بمكة، ثم بايعه ببغداد أفراد البيت العباسي وقواد الجيش وغيرهم من رجال الدولة البيعة العامة، وذلك في ١٨ ذي الحجة سنة ١٥٨ هـ.

---

(١) ألف هذا الكتاب حول أواخر القرن الثامن الهجري ولا يعرف مؤلفه إلى الآن.

(٢) ورد الشطر الثاني من هذا البيت في مروج الذهب للمسعودي (ج ٢ ص ٢٤٥). يرد قضاء الله أم أنت جاهل.

(٣) الطبري ج ٩ ص ٣٢٣ - ٣٢٤.

المهدي
(١٥٨ ـ ١٦٩ / ٧٧٥ ـ ٧٨٥)

١ ـ المهدي منذ ولد إلى أن ولي الخلافة:

ولد محمد بن عبد الله المنصور بالحميمة سنة ١٢٦ هـ وأمه أروى بنت منصور بن عبد الله الحميري، من حمير التي ملكت اليمن زمناً طويلاً. ونشأ في بيت الخلافة، وعني أبوه المنصور بتثقيفه. وعهد به إلى المفضل الضبي، فعلمه تعليماً عربياً، وجمع له أمثال العرب ومختار شعرهم، فمال إلى العلم والأدب، وعكف على حفظ أيام العرب ومكارم الأخلاق، ودراسة الأخبار والأشعار. فنشأ فصيحاً يقول الشعر ويجيده ويحفظ كثيراً منه ومن أمثال العرب[١].

وكان المهدي ـ على ما وصفه ابن طباطبا[٢] شهماً كريماً، شديداً على أهل الإلحاد والزندقة، لا تأخذه في إهلاكهم لومة لائم. وكانت أيامه شبيهة بأيام أبيه في الحوادث. وكان يجلس في كل وقت للمظالم، كما كان ذكياً فصيحاً بعيد الهمة سديد الرأي، ثاقب الفكر، قوي البيان، فصيح اللسان، عالماً بضروب السياسة وفنونها، مما أهله لأن يلي أمور المسلمين. وكان أبوه يعرف فيه هذه الصفات، فكان إذا دخل عليه في مجلسه أتبعه ببصره، لحبه له وإعجابه به، وزوده بنصائحه.

كان المهدي في العاشرة من عمره حين آلت الخلافة إلى أبيه المنصور. ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره أرسله أبوه على رأس جيش كبير للقضاء على فتنة عبد الرحمن بن عبد الجبار الأزدي والي خراسان، وجعل في مقدمة الجيش قائداً من أمهر قواده هو خازم بن خزيمة. ثم أرسل المهدي خازم على رأس جيش من أهل خراسان، فقضى على ثورة الإصبهبذ والي طبرستان، وأسر ابنته، كما استعان أبو جعفر المنصور بابنه المهدي في القضاء على فتنة أستاذ سيس الذي ادعى النبوة بخراسان، وحاصره خازم في عشرين ألف مقاتل، وأسره وقتل سبعين ألفاً من رجاله. وفي سنة ١٥٣ هـ ولى المنصور ابنه المهدي إمارة الحج[٣].

ولما بويع المهدي البيعة العامة وتقبل عزاء الناس بوفاة أبيه، وتهنئتهم له باعتلائه العرش، كان أبو دُلامة الشاعر أول من هنأه بالخلافة، وعزاه بوفاة أبيه في قصيدة رائعة. وكأن لسان حاله

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٥ ص ٣٩١.
(٢) الفخري في الآداب السلطانية ص ٦١.
(٣) الطبري ج ٩ ص ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٨٤.

يقول: مات الخليفة يحيا الخليفة، كما يقولون الآن، مات الملك يحيا الملك. وإليك بعض أبيات من هذه القصيدة.

عينـاي واحـدة تُرى مسرورة	بأميرها جَذْلَى، وأخرى تذرف
تبكي وتضحك تارةً ويسوؤها	ما أنكرت ويسرها ما تعرف
فيسوؤها موت الخليفة محرماً	ويسرها أن قام هذا الأراف
هلك الخليفة يا لأُمَّةَ أحمد	وأتاكم من بعده من يخلف
أهدى لهذا الله فضل خلافة	ولذلك جنات النعيم تزخرف

ولما تمت البيعة العامة نادى المنادي: الصلاة جامعة! وخطب المهدي خطبة عبر فيها عن عظم المسؤولية التي ألقاها موت أبيه على عاتقه، ونعى أباه في هذهُ الكلمات القصيرة. فقال: إن أمير المؤمنين عبد دعي فأجاب. وأمر فأطاع. واغرورقت عيناه فقال: إن رسول الله ﷺ قد بكى عند فراق الأحبة. ولقد فارقت عظيماً وقلدت جسيماً. وعند الله احتسب أمير المؤمنين. وبه عز وجل استعين على خلافة المسلمين[١]. ثم ترقرق الدمع في عين المهدي. ولم يتمكن من إطالة الخطبة لما كان يشعر به من شدة الحزن على وفاة أبيه.

٢ ـ إصلاحات المهدي:

قضى المهدي في الخلافة زهاء عشر سنين، تعتبر فترة انتقال بين عهد الشدة والقمع الذي ساد عهد من سبقه من خلفاء بني العباس، وعهد الاعتدال واللين الذي امتازت به أيامه وأيام من أتى بعده. وقد ذكر المؤرخون أنه رد الأموال التي صادرها أبوه إلى أهلها، وأطلق العلويين الذين حبسهم أبوه، وعفا عنهم، وأدار عليهم الأرزاق، وبادر إلى رد نسب أبي بكرة[٢] وآل زياد (بن أبيه).

وقد بدأ المهدي عهده بسلسلة من ضروب الإصلاح، واستعان في ذلك بما تركه له أبوه من

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٥ ص ٣٩٢.

(٢) هو أخو زياد بن أبيه لأمه. وكني أبا بكرة لأنه ممن نزل يوم الطائف إلى الرسول من حصن الطائف في بكرة، فأسلم وكني أبا بكرة، وأعتقه الرسول، واتخذه مولى له. وكان أبو بكرة يقول: أنا من إخوانكم في الدين وأنا مولى رسول الله ﷺ، وإن أبى للناس أن ينسبوني فأنا نفيع بن مسرح (ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٥ ص ١٥١).

انظر أيضاً نسخة كتاب المهدي إلى والي البصرة في رد آل زياد إلى نسبهم في الطبري (ج ٩ ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦).

بيت مال عامر يكفي الدولة عشر سنين كاملة؛ كما وفق إلى القضاء على الزنادقة وغيرهم من الخوارج عليه وعلى الدين.

فمن أعماله أنه أمر بالإفراج عن المسجونين إلا أكثرهم شراً وفساداً، وبنى الأبنية في طريق مكة، وزاد على ما كان قد بناه أبوه في الجهات الأخرى؛ كما بنى الأحواض التي تملأ من الآبار لسقاية القوافل، وأجرى على أهل السجون وعلى المجذمين حتى يمتنعوا عن السؤال ويحولوا دون انتشار الأمراض. وزاد في المسجد الحرام، غير أنه محا اسم الوليد بن عبد الملك من حائط الحرم، وكتب اسمه بدله وجدد الأميال وأقام البريد بين مكة والمدينة واليمن، وأدخل عليها ضروباً من التحسين، وعيَّن الأمناء في الولايات ليوافوه بأخبار الولاة، فساد العدل وعم الرخاء جميع أرجاء الدولة.

وقد حصن المهدي المدن، وخاصة مدينة الرصافة. وصارت بغداد في عهده مركزاً لتجارة العالم، وغدت الموسيقى والشعر والحكمة والأدب من مميزات هذا العصر. وسن المهدي سنة كسوة الكعبة بكسوة جديدة في كل عام، بعد أن كانت توضع الكسوات بعضها فوق بعض، وسار على ذلك من جاء بعده من الخلفاء. وكان المهدي يميل إلى السنة، فنزع المقاصير في صلاة الجماعة، وصير المنبر على القدر الذي كان عليه منبر الرسول.

٣ ـ الفتن والثورات:

وفي عهد المهدي خرج عبد الله بن مروان بن محمد الأموي ببلاد الشام سنة ١٦١ هـ، وحلت به الهزيمة وحبس، ثم عفا المهدي عنه ووسع عليه الأرزاق. ثم خرج في السنة التالية عبد السلام بن هشام اليشكري في الجزيرة، واشتدت شوكته، وكثر أتباعه، وعاث في الأرض. ولكنه هزم وقتل في قنسرين. كما خرج بالموصل رجل من بني تميم يدعى ياسين، واستولى على أكثر ديار ربيعة ومضر، فحلت به الهزيمة. وثار أهل الحوف في مصر (بالقرب من بلبيس) سنة ١٥٨ هـ، وقتلوا عامل المهدي، الذي ندب لقتالهم الفضل بن صالح بن علي العباسي، ولكنه وصل إلى مصر بعد وفاة المهدي، وأحل بهم الهزيمة.

وكانت أشد الثورات بأساً وأكثرها خطراً، هذه الثورات التي أذكى نيرانها الزنادقة، الذين تبعد تعاليمهم عن الإسلام وعقائده وتقوم على نوع من الديمقراطية الفاسدة، التي تبيح المحرمات وتعبث بالآداب الاجتماعية والزوجية المرعية، وتعرض الحياة السياسية والدينية للخطر.

٤ ـ صفات المهدي ـ وفاته:

قال المسعودي[١]: وكان المهدي محبباً إلى الخاص والعام، لأنه افتتح عهده بالنظر إلى

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

المظالم، والكف عن القتل، وأمن الخائف، وإنصاف المظلوم، وبسط يده في الإعطاء فأذهب جميع ما خلفه المنصور، وهو ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار، سوى ما جباه في أيامه.

وكان من خلق المهدي الحياء والعفو والجود والحلم، ولم يكن يشرب النبيذ، وإنما أجازه لجلسائه وسماره. وكان يتأثر بالقرآن. كما اتصف بالعدل، وجلس للمظالم بنفسه وبين يديه القضاة. وقد بلغ من حبه للعدل وميله إلى رد المظالم لأصحابها، أنه كان يقول إذا جلس: أدخلوا علي القضاة فلو لم يكن ردي المظالم إلا للحياء منهم لكفى.

وما يدل على عدل المهدي ما قاله مسعود بن مساور، وقد ظلمه وكيل المهدي وغصبه ضيعته، فأتى صاحب المظالم، وأعطاه رقعة أوصلها إلى المهدي وعنده القاضي. فأمر المهدي بإدخاله وسأله عن مظلمته، فأخبره فقال للقاضي: إن هذا ظلمني في ضيعتي، مشيراً إلى المهدي. فقال القاضي: ما تقول يا أمير المؤمنين قال: ضيعتي في يدي، فقال ابن مساور: أصلح الله القاضي سله؛ صارت إليه الضيعة قبل الخلافة أم بعدها؟ فقال المهدي: بعد الخلافة، فقضى القاضي للمدعي، فخضع المهدي لحكم القضاء[1].

قال صاحب الفخري (ص ١٦٣): فقيل إنه طرد ظبياً في بعض متصيداته، فدخل الظبي إلى باب خربة؛ فدخل فرس المهدي خلفه، فدقه باب الخربة فقطع ظهره؛ فمات من ساعته. وقيل إن بعض جواريه جعلت سماً في بعض المآكل لجارية أخرى؛ فأكل المهدي منه وهو لا يعلم فمات. وذلك في سنة تسع وستين ومائة.

الهادي
(١٦٩ - ١٧٠/ ٧٨٥-٧٨٦)

كان موسى الهادي أكبر من أخيه هارون؛ وقد ولاه أبوه عهده. وعهد لهارون بالخلافة من بعده. ثم فكر في تقديمه عليه، بسبب إيثاره إياه، ومشاركة أمه الخيزران له في محبته، لولا أن عاجلته المنية. وكان هارون من العقل بحيث لم يتردد في البيعة لأخيه حين سمع بوفاة أبيه. وقد قضى الهادي قبل أن يعتلي عرش الخلافة أكثر أيامه في بلاد المشرق، وأتته البيعة وهو يحارب في طبرستان وجرجان.

---

(١) الطبري ج ٩ ص ١٢ - ١٤.

وقد وصف المسعودي الهادي فقال إنه كان قاسي القلب شرس الأخلاق صعب المرام، كثير الأدب محباً له. وكان شديداً شجاعاً جواداً سخياً، ولسنا نشك في أن تربيته العربية وقضاءه أكثر أيامه في الحرب والغزو، كان ذا أثر كبير في أخلاقه وآدابه. ومما يؤخذ عليه تنكيله بالعلويين، وتمثيله بالأمويين والخوراج والزنادقة، وأخذه أكثرهم على الظنة والريبة، وعزمه على خلع أخيه هارون من ولاية العهد وإسرافه في العطاء[1].

١ ـ تنكيل الهادي بالخوارج والزنادقة:

ورث الهادي عن أبيه كراهيته للزنادقة وعمل على استئصال شأفتهم. وقد قام بوصية أبيه له بألا يفتر عن التنكيل بهذه الطائفة وتطهير البلاد من رجسهم وفسادهم، فلم يأل جهداً في الضرب على أيدي الزنادقة والخوارج الذين ثاروا في بلاد الجزيرة، وقتل من ظفر به منهم.

ويحدثنا المسعودي أن الهادي كان في بستانه يوماً راكباً حماراً. وقد بلغه أن رجاله ظفروا برجل من الخوارج، فأمر بإدخاله. فلما قرب الخارجي منه، أخذ من أحد حراسه سيفاً وأقبل عليه يريد قتله، وتنحى عنه من كان معه من رجاله بيد أن الهادي ظل في مكانه رابط الجأش ثابت الجنان حتى قرب منه الرجل فصاح: «اضرب عنقه». ولم يكن خلف هذا الخارجي أحد، وإنما أوهمه الهادي ليشغله عنه، فالتفت الخارجي وراءه ليدرأ عن نفسه الخطر، فانقض عليه الهادي، ورمى به إلى الأرض، وأخذ السيف من يده، وضرب به عنقه. وقد أثر عن الهادي أنه لم يركب بعد ذلك حماراً ولم يفارق حسامه.

ولم تكن كراهة الهادي للزنادقة والخوارج بأقل منها للأمويين، ولم يكن يهدأ له بال لاعتقاده بأن أهل بيته لم يثأروا من الأمويين بما يشفي غليلهم ويثلج صدورهم[2].

٢ ـ عزم الهادي على خلع أخيه هارون:

اقتدى الهادي بما فعله جده المنصور مع عيسى بن موسى، وعزم على خلع أخيه هارون والبيعة لابنه جعفر، وشجعه على ذلك رجال بلاطه. بيد أن يحيى بن خالد بن برمك نصح له بأن يعدل عن هذا الأمر لصغر سن ابنه جعفر، واحتراماً للعهد الذي أخذه على نفسه حين ولاه أبوه عهده، ودرءاً لما عسى أن يقوم به أهل بيته من انتزاع الخلافة من ابنه إذا آلت إليه قبل بلوغه سن الرشد، وأشار عليه بأن يتريث في هذا الأمر حتى يكبر ابنه ويطلب من أخيه هارون النزول له عن الولاية، فاستمع إلى ما قاله يحيى البرمكي للخليفة الهادي. يا أمير المؤمنين! إن فعلت حملت

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٥٥.

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦، ٢٥٨.

الناس على نكث الإيمان ونقض العهود، وتجرأ الناس على مثل ذلك. ولو تركت أخاك هارون على ولاية العهد، ثم بايعت لجعفر بعده، كان ذلك أوكد في بيعته. وكان من أثر هذه النصيحة أن عدل الهادي عن رأيه مدة، ثم غلب عليه حبه لولده وإيثاره على أخيه، فأحضر يحيى وفاوضه في خلع أخيه، فقال له: يا أمير المؤمنين! لو حدث بك حادث الموت، وقد خلعت أخاك وبايعت لابنك جعفر وهو صغير دون البلوغ، أفترى خلافته تصح؟ وكان مشايخ بني هاشم يرضون ذلك ويسلمون الخلافة إليه، قال: لا، فقال يحيى: فدع هذا الأمر حتى تأتيه عفواً. ولو لم يكن المهدي بايع لهارون لوجب أن تبايع أنت له لئلا تخرج الخلافة من بني أبيك[1] إلا أن الهادي لم يحفل بهذه النصيحة، وزج بالبرمكي في غيابة السجن ردحاً من الزمن وهم بقتله.

أما هارون فكان يميل إلى إجابة أخيه بعد أن ضيق عليه واضطهده، وحط رجال بلاطه من شأنه. فأشار عليه يحيى البرمكي أن يستأذن أخاه في السفر طلباً للصيد، فأذن له وطال غيابه حتى أخذ الهادي يلح عليه في العودة ويبالغ في تحقيره وإهانته، وهو ينتحل من الأعذار ما يطيل بقاءه، حتى أتاه نعيه والبيعة له. وقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن عزم الهادي على إخراج هارون من ولاية العهد دفع بأمه الخيزران إلى السعي في موته، وإن كنا نشك في ذلك.

على أنه مما يسترعي النظر أن العداء كان مستحكماً بين الهادي وأمه، وأن هذا العداء ظل على شدته إلى يوم وفاته، حتى ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن أمه دست بعض جواريها لقتله. ذلك أن الخيزران (بفتح الخاء وسكون الياء وضم الزاي) كانت لها الكلمة النافذة في عهد المهدي: فكانت تأمر وتنهى، حتى كان الناس يتوافدون على دارها ويلجئون إليها لقضاء حاجاتهم.

فلما ولي الهادي الخلافة، وكان شديد الغيرة على النساء كره ذلك،ونهى أمه عن فعله. هذا ما ذكره لنا ابن طباطبا[2]. ويزيد المسعودي[3] هذه المسألة بياناً فيقول: «إن الهادي كان كثير الطاعة لأمه. وكان يجيبها إلى ما تسأله من قضاء الحاجات، فسألته يوماً قضاء مسألة رجل لم يجد إلى قضائها سبيلاً. فألحت في الطلب وقامت مغضبة، فقال لها متهدداً متوعداً: لئن بلغني أنه وفد ببابك أحد من قوادي أو من خاصتي أو من خدمي، لأضربن عنقه ولأقبضن ماله. فمن شاء فليلزم ذلك. ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك كل يوم؟ أما لك مغزل يشغلك، أو مصحف يذكرك، أو بيت يصونك؟ إياك أن تفتحي فاك في حاجة لمسلم ولا ذمي[4]. ثم قال لأصحابه: أيما خير، أنا وأمي ،أم أنتم وأمهاتكم؟ قالوا: بل أنت وأمك، قال: فأيكم يحب

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية ص ١٨٠.
(٢) الفخري في الآداب السلطانية ص ١٧٢.
(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٦١.
(٤) الطبري جـ ١٠ ص ٢٣.

أن يتحدث الرجال بخبر أمه، فيقال فعلت أم فلان وضعت أم فلان؟ قالوا: لا نحب ذلك قال: فما بالكم تأتون أمي فتتحدثوا بحديثها؟ فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها[١] لهذا لا نعجب إذا أثار هذا القول حفيظة الخيزران وكراهتها لابنها الهادي، فأضمرت له السوء. وكان لهذه الإهانة نتائجها، فانقطع الناس عن سؤالها والتردد على دارها، مما حدا ببعض المؤرخين إلى القول، إن الهادي بعث لأمه بطعام مسموم، فلم تأكل منه وأطعمته هرة فماتت، وإن صح ذلك جاز أن تأخذ بما ذهب إليه المؤرخون من أن موت الهادي كان بتدبير أمه، وإن كنا نشك في ذلك كما تقدم.

وفي رأينا أن الهادي قد أحسن فيما فعل، صيانة لأمه، وحفظاً لكرامتها وحسن سمعتها. وهذا بين من قوله لها حين حضرته الوفاة، وقد بعث في طلبها لما اشتد عليه المرض: «وقد كنت أمرتك بأشياء ونهيتك عن أخرى، مما أوجبته سياسة الملك لا موجبات الشرع من برك. ولم أكن بك عاقاً، بل كنت لك صائناً وباراً واصلاً[٢]».

٣ ـ أخلاق الهادي وصفاته ـ وفاته:

اشتهر الهادي بالإسراف في العطاء، فقد ذكر المسعودي[٣] أنه قال يوماً: كأني بك قد تحدث نفسك بتمام الرؤيا[٤]، وتؤمل ما أنت عنه بعيد، ومن دون ذلك خرط القتاد. فقال له هارون: يا أمير المؤمنين! من تكبر وضع، ومن تواضع رفع، ومن ظلم خذل، وإن وصل الأمر إلي وصلت من قطعت، وبررت من حرمت، وصيرت أولادك أعلى من أولادي، وزوجتهم بناتي، وقضيت بذلك حق الإمام المهدي. وقد أثر هذا الكلام العذب في نفس الهادي وأطفأ ثائرة غضبه، فبرقت أسارير وجهه سروراً، وقال لأخيه: ذلك الظن بك يا أبا جعفر، أدن مني! فقام هارون فقبل يده ثم ذهب ليعود إلى مجلسه، فقال الهادي: والشيخ الجليل والملك النبيل لا جلست إلا معي في صدر المجلس، ثم أمر خازن بيت المال أن يحمل إلى هارون ألف ألف دينار وخمسمائة ألف إذا وفى زمن الخراج. ولما أراد هارون الخروج، قدمت دابته حتى وصلت إلى بساط الخليفة.

ومما يدل على إسراف الهادي في العطاء هذه الحكاية التي يقصها علينا المسعودي، وهي أنه

---

(١) الفخري ص ١٧٣.

(٢) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٦١.

(٣) مروج الذهب: جـ ٢ ص ٢٦١ ـ ٢٦٢.

(٤) قيل إن المهدي رأى في منامه كأنه دفع إلى الهادي قضيباً وإلى الرشيد قضيباً: فأما قضيب الهادي فأورق إعلاه قليلاً، وأما قضيب الرشيد فأورق من أوله إلى آخره. فلما قص الرؤيا قيل له إنهما يملكان، فأما الهادي فتقل أيامه، وأما الرشيد فتطول، وتكون أحسن الأيام ودهره أزهر الدهور.

أمر بسيف عمرو بن معد يكرب الصمصامة، فوضع بين يديه، وأتى بمكتل[١]، وأمر حاجبه أن يأذن للشعراء في الدخول عليه فلما دخلوا أمرهم أن يقولوا في هذا السيف شعراً، فبدأ ابن يامين البصري وقال أبياتاً، فقال له الهادي: لك السيف والمكتل، فأخذهما، وفرق المكتل على الشعراء، ثم بعث إليه الهادي واشترى منه السيف بخمسين ألفاً.

ولما تطل خلافة الهادي، فقد توفي ببغداد لإثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ، بعد أن ظل في الخلافة سنة وشهراً وإثنين وعشرين يوماً. ويقول ابن طباطبا[٢]: «والليلة التي مات فيها، هي ليلة مات فيها خليفة، وجلس خليفة، وولد خليفة، وقد كانوا يحدثون أنه سيكون ليلة كذلك. فالخليفة الذي مات هو الهادي، والذي جلس فيها على سرير الخلافة هو الرشيد، والذي ولد هو المأمون».

وقد ذكر المسعودي [٣] في موت الهادي: وسنح للهادي الخروج نحو بلاد الحديثة[٤]. فمرض هناك وانصرف، وقد ثقل في العلة، فلم يجرؤ أحد من الناس على الدخول عليه إلا صغار الخدم... ويقال إنه أوقف بين يديه رجلاً من أولياء الدولة ذا أجرام كثيرة، فجعل الهادي يذكره ذنوبه، فقال له الرجل: يا أمير المؤمنين! اعتذاري بما تقر عيني به رد عليك، وإقراري بما ذكرت يوجب ذنباً، ولكني أقول:

فإن كنت ترجو في العقوبة راحة ... فلا تزهدن عند المعافاة في الأجر

هارون الرشيد

(١٧٠ - ١٩٣/ ٧٨٦ - ٨٠٩)

يعتبر هارون الرشيد أشهر خلفاء بني العباس: بلغت بغداد في عهده درجة لم تصل إليها من قبل، فأصبحت مركز التجارة، وكعبة رجال العلم والأدب. واشتهر اسم الرشيد في بلاد الغرب، لما كان بينه وبين شرلمان ملك الفرنجة من العلاقات السياسية وأواصر الود والصفاء ومما

---

(١) المكتل شبه الزنبيل خمسة عشر صاعاً والصاع أربعة أمداد، والمد مكيال، وهو رطل وثلث عند أهل الحجاز، ورطلان عند أهل العراق.

(٢) الفخري ص ١٧٤.

(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٦١.

(٤) ذكر ياقوت في معجمه أنها سميت بذلك لما أحدث بناؤها، وهي في عدة مواضع. فمنها حديثة الموصل وحديثة الفرات. والحديثة أيضاً من قرى غوطة دمشق ويقال لها حديثة جرش.

زاد في ذيوع شهرته بين أمم الغرب كتاب «ألف ليلة وليلة» الذي ترجم إلى معظم اللغات الأوروبية، حتى إنه لا تكاد تخلو منه مكتبة من مكتبات الأفراد في أوروبا وأمريكا.

ولد هارون بالري لثلاث بقين من شهر ذي الحجة سنة ١٤٥ هـ، وأمه أم ولد يمانية جرشية يقال لها الخيزران، وهي أم الهادي، وفيها يقول مروان بن أبي حفصة.

يا خيزران هناك ثم هناك   أمسى يسوس العالمين ابناك

وقد ولد الفضل بن يحيى البرمكي قبله بسبعة أيام، فأرضعت أم الفضل الرشيد وأرضعت الخيزران الفضل بلبان الرشيد.

وقد ولى المهدي ابنه هارون العهد بعد أخيه الهادي. وكان يعرف فيه الذكاء والكفاية، ففكر في العدول عن عهده السابق، وهم أن يرشحه للخلافة بعده مباشرة. وساعدته على ذلك أمه الخيزران، لأنها كانت تحبه وتؤثره على أخيه الهادي، لولا أن حالت منية المهدي دون ذلك. وقد ولاه أبوه الصائفة في سنتي ١٦٣ هـ و ١٦٥ هـ، فأرغم ايريني ـ وكانت وصية على ابنها قسطنطين السادس ـ على طلب الصلح، الذي انتهى بعقد هدنة بين العباسيين والبيزنطيين أمدها ثلاث سنين، وولاه أبوه بلاد المغرب سنة ١٦٤هـ.

ولي هارون الرشيد الخلافة في الليلة التي توفي فيها أخوه الهادي، وهي ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة بقين من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة[١]. ومن المسائل التي يجب دراستها في عهد الرشيد: قيام الفتن الداخلية وخاصة في الموصل وإفريقية وأرمينية، وأثر البرامكة في الدولة ونكبتهم على يد الرشيد، على الرغم من عملهم على تقدم الحضارة الإسلامية.

١ ـ الفتن والثورات:

خرج الوليد بن طريف الشاري الشيباني على هارون الرشيد سنة ١٧٨ هـ. وانتصر على جيوشه أكثر من مرة. فقتل والي نصيبين. ثم مضى إلى أرمينية وأذربيجان وعاث فيهما فساداً ثم عاد الى الجزيرة (١٧٩ هـ) وعبر نهر دجلة حتى وصل الى حلوان. واشتدت شوكته وكثر أتباعه، فبعث الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني، ابن أخي معن بن زائدة الشيباني بطل موقعة الراوندية، كما سيأتي في الباب الثالث. وقد رمى الوليد هارون الرشيد بالجور والظلم، وعول على التخلص من هذا الجور والظلم حين برز لقتال يزيد بن مزيد الشيباني وارتجز:

أنا الوليد بن طريف الشاري   قسورة لا يصطلي بناري

جوركم أخرجني من داري

---

(١) الطبري جـ ١٠ ص ٤٧ ـ ٤٨. السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٨٨.

وسرعان ما حلت الهزيمة بجند الوليد بن طريف الشيباني وقتل.

وفي إفريقية استمرت قبائل البربر تنازع العباسيين بين سنتي ١٧٨ و ١٨١ هـ، كما أخذت في التقلص عن الحكم الإسلامي، وغدت كفة النصر ترجح في جانبهم حيناً، وفي جانب العباسيين حيناً آخر، حتى بعث إليهم الرشيد هرثمة بن أعين على رأس جيش كثيف استطاع أن يقضي عليهم ويطفىء جذوة ثورتهم. على أن هرثمة رأى بثاقب نظره وطول خبرته أن فوز العباسيين على البربر لا سبيل إلى تحقيقه، لتفاقم نار العداء التي أضرمها هؤلاء البربر، فعول على النزول عن القيادة وعاد إلى المشرق حيث البذخ والرفاهية ثم قامت في هذه البلاد دولة الأغالبة على يد إبراهيم بن الأغلب، الذي ولي هذه البلاد من قبل الرشيد لتأديب البربر، والوقوف في وجه الأدارسة إذا أرادوا الإغارة على أراضي الدولة العباسية. ولكن هذه الدولة ما لبثت أن استقلت عن الخلافة العباسية في بغداد، وزال عنها سلطان العباسيين، اللهم إلا في الاسم فقط؛ واتخذت مدينة القيروان الواقعة في الجنوب الغربي من مدينة تونس الحالية، حاضرة لها، وظلت على ذلك إلى أن استولى عليها الفاطميون سنة ٢٩٦ هـ.

وفي سنة ١٧٦ هـ تحولت المنازعات القديمة بين اليمانيين والعدنانيين في سورية إلى حرب مستمرة، وبقيت دمشق زهاء سنتين مسرحاً للانقسامات والحروب الداخلية. ولكن هذه الحالة لم تكن مما يهتم له الخليفة، بل كان يرى على العكس من ذلك أنه قد أفاد منها، لأنها أضعفت قوة أهالي هذه البلاد الذين ثبت عنده عدم إخلاصهم وولائهم للعباسيين[١]. على أن الحرب التي دارت بين الفريقين قد اشتعلت نارها من جديد بعد عشرة أعوام، فرأى الرشيد ضرورة التدخل بينهم وقضى عليهم.

ويقول الطبري[٢] إن الرشيد ولى موسى بن يحيى بن خالد البرمكي بلاد الشام فأصلح بين أهلها وسكنت هذه الفتنة الجامحة.

وكانت بلاد خراسان، التي وليها علي بن عيسى بن ماهان، مصدر الفتن والقلاقل في عهد هارون الرشيد. فقد سار هذا الوالي على سياسة تنطوي على الظلم والعسف واغتصاب الأموال من الأهالي، فكان يرسل الى الخليفة كثيراً من الهدايا والطرف التي بهرته، واستفز بعمله كبراء خراسان، فكتبوا إلى الرشيد يستغيثون به، فعزم على الخروج لمحاربة علي بن عيسى، وعسكر في الري.

فلما بلغ ذلك علياً قابل الرشيد بهدايا أنفس من الهدايا الأولى، ووزع مثلها على رجال

---

(١) Muir, The Caliphate, p. 479

(٢) جـ ١٠ ص ٦٠.

بلاطه، فاطمأن الرشيد من جانبه، ثم عاد هذا الوالي إلى سيرته الأولى في ظلمه واستبداده، وغلا في نكايته بمن استغاثوا بالخليفة.

واتفق أن حدث في ذلك الوقت أن رجلاً من أهالي سمرقند، يدعى رافع بن ليث بن نصر بن سيار، قاد امرأة من ذوي اليسار إلى الكفر، تخلصاً من زوجها الذي طالت غيبته، ورغبة في التزوج بها. فلما بلغ الرشيد ذلك أرسل من فوره إلى علي بن عيسى يأمره أن يفرق بين رافع وزوجته وأن يعاتبه على فعلته. فقام كل من والي خراسان وعامل سمرقند بتنفيذ أوامر الرشيد، وحبس رافع. ولكنه فر من سجنه، واستغاث بولد علي بن عيسى، فتوسط له عند أبيه، فأمنه ورده إلى بلده، فثأر لنفسه من عامل هذه المدينة وقتله، واتبعه كثير من أهالي سمرقند وبلاد ما وراء النهر، فأرسل إليه علي بن عيسى ابنه عيسى، فقتله رافع في بلخ.

وقد قيل إن علي بن عيسى جمع في قصره أموالاً ضخمة، وأن الناس هجموا على هذا القصر واستولوا على ما فيه. فلما بلغ الرشيد ذلك تحقق من استبداد علي، لما كان من استفزازه شعور الأهلين، فقرر عزله، وأرسل إليه هرثمة بن أعين يحمل إليه كتاباً بخطه؛ فقبض هرثمة على علي وأتباعه، وصادر أموالهم. وبعث بهم إلى الرشيد، وأخذ الفرح من الناس كل مأخذ بلقائهم هرثمة وتخليصهم من عسف هذا الوالي وظلمه. غير أن رافعاً لم يكن قد هدأ أمره، فخرج الرشيد بنفسه لحربه. إلا أن المنية أدركته وهو في طريقه. وظل رافع على حاله حتى أيام المأمون(١).

٢ ـ البرامكة:

كان برمك جد الأسرة البرمكية سادن بيت النار ببلخ: فكان يقوم بالإشراف على هذا البيت. كما كان يقوم قصي وأولاده من بعده بسدانة الكعبة في الجاهلية وكان برمك وأسرته يدينون بالمجوسية دين الفرس القديم. ولما ظهر الإسلام. أسلم بعضهم. وظهر منهم في أوائل الدولة العباسية خالد بن برمك. الذي تقلد الوزارة في عهد السفاح والمنصور. واتخذ هارون الرشيد يحيى بن خالد قبل أن يلي الخلافة كاتباً له يرجع إلى رأيه وتدبيره. كما يرجع الخليفة إلى رأي الوزير وتدبيره. ولما ولي الرشيد الخلافة استوزر يحيى. فعلا شأنه وبعد صيته. وأصبح هو وأولاده كعبة الآمال وغدت تشد إليهم الرحال. وفي ذلك يقول ابن طباطبا(٢):

«اعلم أن هذه الدولة كانت غرة في جبهة الدهر. وتاجاً على مفرق العصر. ضربت

---

(١) أنظر ما كتبه الطبري عن علي بن عيسى (جـ ١٠ ص ١٠٠ ـ ١٠٨).
(٢) الفخري ١٧٣.

بمكارمها الأمثال. وشدت إليها الرحال. ونيطت بها الآمال. وبذلت لها الدنيا أفلاذ أكبادها. ومنحتها أوفر إسعادها. فكان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرة. والبحور زاخرة. والسيول دافعة. والغيوث ماطرة: أسواق الآداب عندهم نافقة، ومراتب ذوي الحرمات عندهم عالية. والدنيا في أيامهم عامرة. وأبهة المملكة ظاهر: وهم ملجأ اللهف. ومعتصم الطريد. ولهم يقول أبو نواس:

سلامٌ على الدنيا إذا ما فقدتم بني برمك من رائحين وغاد»

كان خالد بن برمك فاضلاً جليلًا كريماً حازماً يقظاً. قربه السفاح إليه وأولاه ثقته. وأحله من نفسه محل التعظيم والتكريم. ولكنه لم يغتر بهذا التعظيم والتكريم. وأبى إلا أن يظهر أمام مولاه بمظهر الإخلاص والتواضع. وتجنب أن يسمى وزيراً على رغم أنه كان يعمل عمل الوزراء. خشية أن يحل به ما حل بأبي سلمة الخلال وزير آل محمد الذي قتله أبو العباس السفاح. وقد قيل إن كل من استوزر بعد أبي سلمة كان يتجنب أن يسمى وزيراً، تطيراً مما جرى على أبي سلمة. حتى قال أحد الشعراء:

إن الوزير وزير آل محمد أودى، فمن يشناك كان وزيرا

نعم! كان خالد عظيم المنزلة قليل القدر عند الخلفاء. قيل إن السفاح قال له يوماً: يا خالد! ما رضيت حتى استخدمتني! ففزع خالد. وقال: كيف يا أمير المؤمنين وأنا عبدك وخادمك؟ فضحك السفاح وقال إن ريطة ابنتي تنام مع ابنتك في مكان واحد. فأقوم بالليل. فأجدهما قد سرح الغطاء عنهما. فأرده عليهما فقبل خالد يده وقال: مولى يكتسب الأجر في عبده وأمته.

اشتهر خالد بن برمك برجاحة العقل وبعد النظر. يدل على صحة هذا الرأي، أن المنصور لما شرع في بناء مدينة بغداد. ورأى أن مواد البناء تكلفه كثيراً من النفقات. أشار عليه بعضهم بهدم إيوان كسرى واستعمال أنقاضه. فاستشار المنصور خالد بن برمك في ذلك. فقال: لا تفعل يا أمير المؤمنين. فإنه آية الإسلام. فإذا رآه الناس علموا أن مثل هذا البناء لا يزيله إلا أمر سماوي. وهو مع ذلك مصلى علي بن أبي طالب عليه السلام. والمئونة في نقضه أكثر من نفعه. فقال له المنصور: أبيت يا خالد إلا ميلاً إلى العجمية ثم أمر بهدمه. فهدمت منه ثلمة. فبلغت النفقة عليها أكثر مما حصل منها. فأمسك المنصور عن هدمه وقال: يا خالد! قد صرنا إلى رأيك وتركنا هدم الإيوان. فقال: يا أمير المؤمنين! أنا الآن أشير بهدمه لئلا يتحدث الناس أنك عجزت عن هدم ما بناه غيرك.

وكان يحيى بن خالد البرمكي أشهر رجال عصره علماً وأدباً وفضلاً وجوداً ونبلاً. وكان في الثانية عشرة من عمره حين قامت الدولة العباسية. فتربى في كنفها وشمله الخليفة المنصور بعطفه. فولاه أذربيجان سنة ١٥٨ هـ. واختاره المهدي كاتباً ونائباً لابنه هارون. فخرج معه في الصائفة لغزو البيزنطيين. ولما تولى هارون بلاد المغرب، ساعده يحيى على النهوض بأعبائها. وأخلص له الإخلاص كله. ولما أراد الهادي أن يخلع أخاه هارون من ولاية العهد، نصح له بالعدول عن هذا الرأي كما تقدم.

ولهذا قلد هارون كاتبه الوفي المخلص الوزارة بعد اعتلائه العرش. وفوض إليه أمور دولته واستعان بأولاده الأربعة وهم جعفر والفضل ومحمد وموسى. ونهض يحيى، كما يقول صاحب الفخري (ص ١٧٩ ـ ١٨٠). بأعباء الدولة أتم نهوض وسد الثغور، وتدارك الخلل، وجبى الأموال، وعمر الأطراف، وأظهر رونق الخلافة، وتصدى لمهمات المملكة. وكان كاتباً بليغاً لبيباً، أديباً سديداً، صائب الآراء وحسن التدبير، ضابطاً لما تحت يده، قوياً على الأمور، جواداً يباري الريح كرماً وجوداً، ممدحاً بكل لسان، حليماً عفيفاً، وقوراً مهيباً.

وكان الفضل أكبر أولاد يحيى من كرام أهل عصره، وكان عضد أبيه، ينوب عنه في جلائل أعماله. وقد أرضعته أم الرشيد، كما أرضعت أم يحيى الرشيد كما تقدم.

ولما ولد الأمين عهد الرشيد إلى الفضل بتربيته. وفي سنة ١٧٦ هـ ندبه لحرب يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي الذي ثار في بلاد الديلم. وفي سنة ١٧٨ هـ ولاه هارون الرشيد بلاد خراسان، فقضى على الفتنة التي قامت بها، وأحسن معاملة أهلها، وبنى بها المساجد، ثم عاد الى بغداد بعد سنة.

قيل إن محمد بن ابراهيم الإمام (بن محمـد بن علي بن عبد الله بن العباس)، حضر يوماً عند الفضل بن يحيى ومعه سفط فيه جوهر، وقال له: إن حاصلي قد قصر مما احتاج إليه وقد علاني دين مبلغه ألف ألف درهم. وإني استحيي أن اعلم أحداً بذلك، وآنف أن أسأل أحداً من التجار أن يقرضني ذلك، وإن كان معي رهن يفي بالقيمة. وأنت ـ أبقاك الله! ـ لك تجار يعاملونك، وأنا أسأل أن تقترض لي من أحدهم هذا المبلغ وتعطيه هذا الرهن، فقال له الفضل: السمع والطاعة. ولكن نجح هذه الحاجة أن تقيم عندي هذا اليوم، فأقام عنده ثم أخذ الفضل السفـط منه وهو مختوم بختمه، وأرسل معه ألف ألف درهم. وأنفذ الدراهم والسفط إلى منزله، وأخذ خط وكيله بقبضه. وأقام محمد في دار الفضل إلى آخر النهار، ثم انصرف إلى داره، فوجد السفط ومعه ألف ألف درهم، فسر بذلك سروراً عظيماً. فلما جاء الغد بكر محمد إلى الفضل ليشكره على ذلك، فوجده قد بكر إلى دار الرشيد، فمضى محمد إليها.

فلما علم الفضل بذلك، خرج من باب آخر ومضى إلى دار أبيه فمضى محمد إليه. فلما علم بذلك خرج من باب آخر، ومضى إلى داره، فمضى محمد إليه واجتمع به. وشكره وقال له: إني بكرت إليك لأشكرك على إحسانك؛ فقال الفضل: إني فكرت في أمرك فرأيت أن هذه الألف ألف التي حملتها أمس إليك، تقضي بها دينك، ثم تحتاج فتقترض، فبعد قليل يعلوك مثلها. فبكرت اليوم إلى أمير المؤمنين وعرضت عليه حالك، وأخذت لك مائة ألف ألف درهم أخرى، ولما حضرت إلى أمير المؤمنين، خرجت أنا من باب آخر، وكذلك فعلت لما حضرت إلى باب أبي، لأني ما كنت أؤثر أن ألقاك حتى يحمل المال إلى منزلك، وقد حمل، فقال له محمد: أي شيء أجازيك على هذا الاحسان؟ ما عندي شيء أجازيك به، إلا أني ألتزم بالايمان المؤكدة وبالطلاق والعتاق، انـي ما أقف على باب غيرك ولا أسأل سواك. فلما ذهبت دولة البرامكة، وتولى الفضل بن الربيع الوزارة بعدهم، احتاج محمد، فقالوا له: لو ركبت إلى الفضل بن الربيع، فلم يقبل، والتزم باليمين، فلم يركب إلى أحد، ولم يقف على باب أحد حتى مات[1].

أما جعفر بن يحيى فقد اشتهر بالفصاحة والفطنة والحلم والكرم، وكان الرشيد يأنس به لسهولة أخلاقه، ويؤثره على أخيه الفضل لشراسة أخلاقه، ولذلك عمل على التخلص منه حتى قيل إن الرشيد قال يوماً ليحيى: يا أبي! ما بال الناس يسمون الفضل الوزير الصغير ولا يسمون جعفراً بذلك؟ فقال يحيى: لأن الفضل يخلفني. فقال: فضم إلى جعفر أعمالاً كأعمال الفضل، فقال يحيى: إن خدمتك ومنادمتك يشغلانه عن ذلك؛ فجعل إليه أمر دار الرشيد، فسمي بالوزير الصغير أيضاً.

ولكن الرشيد كان يؤثر جعفـراً على أخيه الفضل، لعلو منزلته عنده ومحبته إياه، وأبى إلا أن ينقل ديوان الخاتم من الفضل إلى جعفر، وطلب من يحيى أن يكتب إلى ابنه الفضل بذلك، فكتب إليه: «قد أمر أمير المؤمنين ـ أعلـى الله أمره! ـ أن تحول الخاتم من يمينك إلى شمالك» فأجابه الفضل: «قد سمعت لما أمر به أمير المؤمنين في أخي، وما انتقلت مني نعمة صارت إليه ولا غربت عني رتبة طلعت عليه»، فقال جعفر: «لله در أخي، ما أكيس نفسه وأظهر دلائل الفضل عليه، وأقوى منه العقل عنده، وأوضع في البلاغة ذرعه!».

ولم يقتصر إيثار الرشيد وحبه جعفر بن يحيى على ما ذكرنا، فقد ولاه مصر في سنة ١٧٦هـ. وفي سنة ١٨٦ أرسله إلى بلاد الشام حين أثار أهلها الفتن والقلاقل، فأزال أسباب التذمر واطمأنت خواطر الأهلين، فعلت منزلته عند الرشيد، فأسند إليه في هذه السنة ولاية خراسان، ثم ولاه حراسة الجيش.

---

(١) الفخري ص ١٨٥ ـ ١٨٦. أنظر أيضاً. الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب ص ٢١٢ وما يليها.

ومما يدل على علو مكانة جعفر عند الرشيد وخطر مركزه في الدولة العباسية أن جعفر بن يحيى البرمكي جلس يوماً للشرب، وأحب الخلوة، فأحضر ندماءه الذين يأنس إليهم، وجلس معهم، وقد هيىء المجلس ولبسوا الثياب المصبغة. وكانوا إذا جلسوا في مجلس الشراب واللهو، لبسوا الثياب الحمر والصفر والخضر. وقد أمر جعفر بن يحيى الحاجب ألا يأذن لأحد بالدخول عليه سوى رجل من الندماء كان قد تأخر عنهم، يدعى عبد الملك بن صالح. ثم أخذوا يشربون، ودارت الكاسات وخفقت العيدان. وكان أحد أقارب الخليفة يدعى عبد الملك بن صالح بن عبد علي بن عبد الله بن العباس، وكان شديد الوقار والدين والحشمة. وكان الرشيد قد طلب منه أن ينادمه؛ فلم يفعل. فاتفق أن حضر عبد الملك بن صالح المذكور إلى باب يحيى ابن جعفر البرمكي ليخاطبه في حوائج له، فظن الحاجب أنه عبد الملك بن صالح الذي آثره جعفر بن يحيى البرمكي وأمر بألا يدخل عليه أحد سواه. فأذن الحاجب له، فدخل على جعفر بن يحيى. فلما رآه كاد عقله يذهب حياء، وفطن أن المسألة اشتبهت على الحاجب لاشتباه الاسم. وفطن عبد الملك بن صالح للقصة، وظهر الخجل على وجه جعفر بن يحيى، ولكن عبد الملك بدا على وجهه السرور والانشراح وقال: لا بأس عليكم، أحضروا لنا من هذه الثياب المصبغة. فأحضر له قميص مصبوغ فلبسه، وجلس يباسط جعفر بن يحيى ويمازحه، وقال: أسقونا من شرابكم، فسقوه، فقال: أرفقوا بنا فليس من عادتنا الإكثار من الشراب. ثم أخذ يمازحهم حتى زال انقباض جعفر بن يحيى وخجله وفرح جعفر بذلك فرحاً شديداً وقال لعبد الملك: ما حاجتك؟ قال: جئت أصلحك الله! - في ثلاث حوائج، أريد أن تخاطب الخليفة فيها: أولها أن علي ديناً مبلغه ألف ألف درهم أريد قضاءه، وثانيها أريد ولاية لابني يشرف بها قدره، وثالثها أريد أن تزوج ولدي بابنة الخليفة، فإنها بنت عمه وهو كفء لها. فقال له جعفر بن يحيى: قد قضى الله هذه الحوائج الثلاث: أما المال ففي هذه الساعة يحمل إلى منزلك، وأما الولاية فقد وليت ابنك مصر، أما الزواج فقد زوجته فلانة ابنة مولانا أمير المؤمنين، على صداق مبلغه كذا وكذا، فانصرف في أمان الله[1].

وإنما فعل جعفر ما فعل لشدة ثقته بنفسه عند الرشيد؛ فإن عبد الملك لما عاد إلى منزله وجد أن المال قد سبقه. ولما كان من الغد حضر جعفر عند الرشيد وأعلمه بما جرى، فأقره الرشيد على تصرفه، ولم يخرج جعفر حتى كتب لابن عبد الملك تقليد بولاية مصر، وعقد عقده على ابنة الرشيد.

أما موسى فكان أشد أبناء يحيى البرمكي بأساً، كما كان كاملاً سرياً وقائداً محنكاً. ولاه

(١) ابن طباطبا ص ١٨٧ - ١٨٨.

الرشيد بلاد الشام سنة ١٧٦هـ، فأصلح أمورها وهدأت على يديه أحوالها. وقد أوقع به علي بن عيسى والي خراسان عند الرشيد، ورماه بتهمة إثارة الاضطرابات فيها والخروج على الخلافة. واتفق أن اختفى موسى بسبب دين عليه، فازداد الرشيد اعتقاداً بصدق هذه الوشايات، وأمر به فحبس في الكوفة. ولم يطلق سراحه إلا بوساطة أمه وضمان أبيه له، ثم عفا الرشيد عنه وخلع عليه. أما محمد بن يحيى فكان سرياً بعيد الهمة، ولم يكن له من الشهرة ما كان لإخوته.

ومن ذلك نستطيع أن نقف على مبلغ خطر مركز الأسرة البرمكية في أيام هارون الرشيد الذي وثق بهم، وفوض إليهم أمور دولته. ولا نعجب إذا انصرف الناس إليهم ونظموا القصائد الرائعة في مدحهم والتغني بكرمهم وجودهم الذي كان مضرب الأمثال.

وقد قيل إن الرشيد حج ومعه يحيى بن خالد بن برمك وابناه الفضل وجعفر. فلما وصلوا إلى المدينة المنورة، جلس الرشيد ومعه يحيى فأعطيا الناس، وجلس الأمين ومعه الفضل بن يحيى فأعطيا الناس، وجلس المأمون ومعه جعفر فأعطيا الناس. وقد ضربت الأمثال بكثرة هذه الأعطيات الثلاث، حتى كانوا يسمون هذا العام عام الأعطيات الثلاث.

وقد بلغ من جود يحيى وكرمه، أنه كان إذا ركب أعد صرراً في كل منها مائتا درهم يدفعها إلى الذين يقفون في طريقه ويلتمسون معونته. لهذا لا نعجب إذا تلمس الوشاة وعمال السوء أسباب الإيقاع بالبرامكة، الذين بلغوا أوج عظمتهم وذروة عزهم، وقصدهم الرائح والغادي والحقير والنبيل.

٣ ـ صفات الرشيد وأخلاقه ـ وفاته:

«كان هارون أبيض طويلاً مسمناً جميلاً»(١). «وكانت دولة الرشيد» كما يقول ابن طباطبا(٢): «من أحسن الدول وأكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً، وأوسعها رقعة مملكة. جبى الرشيد معظم الدنيا... ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب والندماء والمغنين ما اجتمع على باب الرشيد. وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة ويرفعه إلى أعلى درجة. وكان فاضلاً شاعراً راوية للأخبار والآثار والأشعار، صحيح الذوق والتمييز، مهيباً عند الخاصة والعامة».

كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم. كان يحج سنة ويغزو

---

(١) الخطيب البغدادي: كتاب تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ٥.
(٢) الفخري ص ١٧٧ ـ ١٧٨.

سنة مدة خلافته إلا سنين قليلة. وكان يصلي كل يوم مائة ركعة؛ وحج ماشياً. ولم يحج خليفة ماشياً غيره. وكان إذا حج حج معه مائة ألف من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج أحج ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الظاهرة. وكان يتشبه في أفعاله بالمنصور إلا في بذل المال، فإنه لم ير خليفة أسمح منه بالمال، وكان لا يضيع عنده إحسان محسن ولا يؤخر. وكان يحب الشعر والشعراء ويميل إلى أهل الأدب والفقه، ويكره المراء في الدين.

قال الأصمعي: صنع الرشيد طعاماً، وزخرف مجلسه، وأحضر أبا العتاهية وقال له: صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا، فقال أبو العتاهية:

عش ما بدا لك سالماً ... في ظل شاهقة القصور

فقال الرشيد: أحسنت، ثم ماذا؟ فقال:

فإذا النفوس تقعقعت ... في ظل حشرجة الصدور

فهناك تعلم موقناً ... ما كنت إلا في غرور

فبكى الرشيد، فقال الفضل بن يحيى: بعث إليك أمير المؤمنين لتسره فحزنته، فقال الرشيد: دعه، فإنه رآنا في عمى فكره أن يزيدنا منه.

اشتهر الرشيد بحسن معاملة العلماء. قال أبو معاوية الضرير أحد علماء عصره: أكلت مع الرشيد يوماً، فصب على يدي الماء رجل، فقال لي: يا أبا معاوية! أتدري من صب الماء على يدك؟ فقلت: لا يا أمير المؤمنين، فقال: أنا، فقلت: يا أمير المؤمنين! أنت تفعل هذا إجلالاً للعلم، قال: نعم[1].

قال الخطيب البغدادي[2]: «اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لأحد من جد وهزل: وزراؤه البرامكة، لم ير مثلهم سخاء وسروراً، وقاضيه أبو يوسف، وشاعره مروان بن أبي حفصة، كان في عصره كجرير في عصره، ونديمه عم أبيه العباس بن محمد صاحب العباسية، وحاجبه الفضل بن الربيع، أتيْه الناس وأشدهم تعاظماً، ومغنيه إبراهيم الموصلي واحد عصره في صناعته، وضاربه زلزل، وزامره بر سوءاً وزوجته أم جعفر، أرغب الناس في خير، وأسرعهم إلى كل بر، وهي أسرع الناس في معروف. أدخلت الماء الحرم بعد امتناعه من ذلك إلى أشياء من المعروف».

وفي عهد الرشيد مات من أعلام الإسلام الإمام مالك بن أنس، والليث بن سعد الفقيه

(١) الفخري ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

(٢) تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ١١.

المصري، والفقيه أبو يوسف صاحب كتاب الخراج، وسيبويه إمام العربية، ومروان بن أبي حفصة الشاعر، والمفضل بن فضالة قاضي مصر، وموسى الكاظم، وهو الإمام السابع عند طائفة الإمامية الاثني عشرية، والعباس بن الأحنف الشاعر(١).

بلغت بغداد في عهد الرشيد درجة عالية من الحضارة والعمران، فبنيت فيها القصور الشاهقة، وزادت موارد ثروتها، وكانت تصل إليها التجارة من أقصى البلدان. ذكر المؤرخون أن الرشيد أراد أن يوصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر مما يلي الفرما، فقال له يحيى بن خالد البرمكي: كان يختطف الروم الناس من المسجد الحرام وتدخل مراكبهم إلى الحجاز، فعدل عن هذا الرأي(٢).

وكانت خزائن الرشيد تفيض بالأموال التي كانت تجبى من الضرائب، حتى بلغت في عهده ما يقرب من اثنين وسبعين مليون دينار، عدا الضريبة العينية التي كانت تؤخذ مما تنتجه الأرض من الحبوب، حتى إن الرشيد كان يستلقي على ظهره وينظر إلى السحابة المارة ويقول: اذهبي حيث شئت يأتني خراجك(٣). وصفوة القول أن «أيام الرشيد كانت ـ كما يقول السيوطي(٤) ـ كلها أيام خير كأنها في حسنها أعراس».

اشتدت علة الرشيد وهو بطوس في ضيعة تعرف بسناباذ، فدعا من كان بعسكره من بني هاشم، وأوصاهم بثلاث: الحفظ لامامتكم، والنصيحة لأئمتكم، واجتماع كلمتكم؛ وانظروا محمداً (الأمين) وعبد الله (المأمون)، فمن بغى منهما على صاحبه فردوه عن بغيه وقبحوا له بغيه ونكثه.

ولما اشتدت علة الرشيد هون عليه الأطباء علته. فأرسل إلى طبيب فارسي كان هناك، فأراه ماءه مع قوارير شتى. فلما انتهى قارورته قال: عرفوا صاحب هذا الماء أنه هالك، فليوص، فإنه لا برء له من هذه العلة، فبكى الرشيد، وجعل يردد هذين البيتين:

إن الطبيب بطبه ودوائه ... لا يستطيع دفاع محذور أتى
ما للطبيب يموت بالداء الذي ... قد كان يبرىء نفسه فيما مضى؟(٥)

عهد الرشيد بالخلافة لأبنائه الأمين ثم المأمون ثم المؤتمن، وكتب بذلك صحيفة أشهد فيها القضاة والفقهاء وأكابر بني هاشم، وعلقت في الكعبة، ثم مات يوم السبت لأربع ليال خلون

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٩٠.
(٢) المصدر نفسه ص ١٨٩.
(٣) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٢ ص ٢٧٠.
(٤) تاريخ الخلفاء ص ١٨٩.
(٥) مروج الذهب جـ ٢ ص ١٨١.

من شهر جمادى الآخرة سنة ١٩٣هـ، فكانت ولايته ثلاثاً وعشرين سنة وستة أشهر، ومات وهو ابن أربع وأربعين سنة وأربعة أشهر[١].

الأمين
(١٩٣ - ١٩٨/٨٠٨ - ٨١٣)

ولد أبو عبد الله محمد الأمين سنة ١٧٠هـ، وهي السنة التي ولي فيها أبوه الرشيد الخلافة، وذلك بعد مولد أخيه عبد الله المأمون بستة أشهر. وأمه أم جعفر زبيدة ابنة جعفر بن المنصور، وليس في خلفاء بني لعباس من أبوه وأمه هاشميان سواه. ولما مات الرشيد بطوس، أحضر إليه رجاء الخادم وهو ببغداد البردة والقضيب والخاتم، وهي شارات الخلافة.

وقد وصف الطبري[٢] محمد الأمين في هذه العبارة فقال: «وكان سبطاً أبزع أبيض، صغير العينين أقنى جميلاً عظيم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين»، ووصفه السيوطي[٣] بقوله: «وكان من أحسن الشباب صورة، أبيض طويلاً، ذا قوة مفرطة وبطش وشجاعة معروفة؛ يقال إنه قتل مرة أسداً بيده. وله فصاحة وبلاغة وأدب وفضيلة، لكن كان سيىء التدبير كثير التبذير ضعيف الرأي أرعن، لا يصلح للإمارة».

كان عهد الأمين مليئاً بالفتن والاضطرابات؛ وفي الوقت الذي قامت هذه الفتنة بينه وبين أخيه المأمون، اشتعلت نار الثورة في بلاد الشام على يد علي بن عبدالله بن خالد بن يزيد ابن معاوية، المعروف بالسفياني، الذي دعا إلى نفسه، واحتل دمشق وما يليها بعد أن طرد عامل الأمين، وكاد يتم له الاستقلال بهذه البلاد، لولا أن قام بين اليمنيين والمضريين نزاع خطير حال دون تحقيق أمانيه. وقد أرسل الأمين الجيوش لقمع هذه الفتن بقيادة الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان، ثم عبدالله بن صالح بن علي العباسي. ولكن سوء الحالة في بغداد حال دون القيام بعمل جدي ضد هذا السفياني. وهكذا أصبحت بلاد الشام مسرحاً للفوضى سنتين أو أكثر. هذا إلى أن الحسين بن علي بن عيسى قد أثار عداء جنوده الشآميين بتحيزه لجنده الخراسانيين، ومن ثم عاد هذا القائد فجأة إلى بغداد[٤].

روى السيوطي[٥] عن إسحاق الموصلي قال: «اجتمعت في الأمين خصائل لم تكن في

---

(١) الطبري جـ ١٠ ص ١١٢.
(٢) جـ ١ ص ٢٠٩.
(٣) تاريخ الخلفاء ص ١٩٧.
(٤) الطبري جـ ١٠ ص ١٥٥.
(٥) تاريخ الخلفاء ص ٢٠٢.

غيره: كان أحسن الناس وجهاً وأسخاهم، وأشرف الخلفاء أباً وأماً، حسن الأدب عالماً بالشعر؛ لكن غلب عليه الهوى واللعب. وكان مع سخائه بالمال بخيلاً بالطعام جداً. وقال أبو الحسن الأحمر: كنت ربما أنسيت البيت الذي يستشهد به في النحو، فينشدنيه الأمين. وما رأيت في أولاد الملوك أذكى منه ومن المأمون. «وكان الأمين يجيد الشعر»[1]. ويميل إلى اللهو واللعب والتبذير، وبنى مجالس للتنزه، وفي ذلك يقول الطبري[2]:

«ولما ملك محمد، وجه إلى جميع البلدان في طلب الملهين، وضمهم إليه، وأجرى لهم الأرزاق، ونافس في ابتياع فره الدواب، وأخذ الوحوش والسباع والطير وغير ذلك، واحتجب على إخوته وأهل بيته وقواده، واستخف بهم، وقسم ما في بيوت الأموال وما بحضرته من الجواهر في خصيانه وجلسائه ومحدثيه. وحمل إليهم ما كان في الرقة من الجوهر والخزائن والسلاح. وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته، ومواضع خلوته ولهوه ولعبه، بقصر الخلد والخيزرانية وبستان موسى وقصر عبدويه وقصر المعلى ورقة كلواذي وباب الأنبار ونباري والهوب. وأمر بعمل حراقات في دجلة على خلقة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس، وأنفق في عملها مالاً عظيماً».

ولم يعمر الأمين طويلاً، فقد قتل بعد أن جلس على عرش الخلافة أربع سنين وثمانية أشهر وخمسة أيام، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ١٩٨هـ، وكان في الثامنة والعشرين من عمره. وقد ذهب الأمير ضحية هذه الفتنة التي قامت بينه وبين أخيه المأمون، بسبب خلعه أخاه، وتوليته ابنه موسى العهد من بعده، ونكث العهد والميثاق الذي أخذه عليه أبوه الرشيد وعلقه في الكعبة. وقد ساد عهده في الفتنة الهوجاء التي فرقت المسلمين وأضعفت قوتهم وقوضت كثيراً من معالم مدينة بغداد حاضرة العباسيين، وكعبة العلوم والآداب، ومركز التجارة، وحاضرة الإسلام.

ولما قتل الأمين أرسل عبد الله بن طاهر رأسه إلى المأمون، الذي صفا له الجو واستقرت له الأمور، وكتب إلى الأمصار الإسلامية كتاباً جاء فيه: «أما بعد فإن المخلوع كان قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة، وقد فرق الله بينه وبينه في الولاية والحرمة، بمفارقته عصم الدين، وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين. يقول الله عز وجل حين اقتص علينا نبأ نوح ﴿إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح﴾، فلا طاعة لأحد في معصية الله، ولا قطيعة إذا كانت القطيعة في جنب الله. وكتابي إلى أمير المؤمنين وقد قتل الله المخلوع ورداه رداء نكسه وأحصد لأمير

---

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٢٠٢. (٢) ج ١٠ ص ٢١٥، ٢١٦.

المؤمنين أمره وأنجز له وعده. وما ينتظر من صادق وعده حين رد به الالفة بعد فرقتها، وجمع الأمة بعد شتاتها، وأحيا به أعلام الإسلام بعد دروسها»[١].

وقد أصاب ابن الأثير في وصف الأمين بقوله: «لم نجد للأمين من سيرته ما نستحسنه فنذكره».

المأمون

(١٩٨ - ٨١٣/٢١٨ - ٨٣٣)

ولد عبد الله أبو العباس المأمون بن الرشيد سنة ١٧٠هـ، في الليلة التي مات فيها عمه الخليفة الهادي. وأمه أم ولد تسمى مراجل، وقد ولاه أبوه العهد وهو في الثالثة عشرة من عمره بعد أخيه الأمين، وأسند إليه ولاية خراسان وما يتصل بها إلى همذان. ولما توفي أبوه لم يف له أخوه الأمين بعهده، كما تقدم، بل عول على أن يقدم عليه ابنه موسى في ولاية العهد، فأبى المأمون ذلك، ونشبت بينهما تلك الحروب التي انتهت بقتل الأمين في ٢٥ من المحرم سنة ١٩٨هـ.

بويع المأمون بالخلافة وهو في الري، وظل بخراسان حتى قدم بغداد في منتصف شهر صفر سنة ٢٠٤. وقد وصفه ابن طباطبا[٢] فقال: واعلم أن المأمون كان من عظماء الخلفاء ومن عقلاء الرجال. وله اختراعات كثيرة في مملكته. منها أنه أول من فحص منهم علوم الحكمة وحصل كتبها وأمر بنقلها إلى العربية وشهرها، وحل إقليدس ونظر في علوم الأوائل، وتكلم في الطب وقرب أهل الحكمة. ومن اختراعاته مقاسمة أهل السواد بالخمسين. وكانت المقاسمة المعهودة النصف. ومن اختراعاته إلزام الناس أن يقولوا بخلق القرآن. وفي أيامه نشأت هذه المقالة، ونوظر فيها أحمد بن حنبل وغيره. ولما مات المأمون أوصى أخاه المعتصم بها. فلما ولي المعتصم تكلم فيها، وضرب أحمد بن حنبل. ومن اختراعاته أيضاً نقل الدولة من بني العباس إلى علي عليه السلام، وتغيير الناس السواد بلباس الخضرة، وقالوا هو لباس أهل الجنة.

١ - الأحوال الداخلية:

مال المأمون أول الأمر إلى العلويين، واتخذ الخضرة شعارهم، وصاهر علياً الرضا وولاه عهده، وأنزل العلويين منازل العز والكرم، وظل على ذلك حتى عزم على السير إلى بغداد. ومات علي الرضا وهو في طريقه إليها على ما سيأتي. ومع ذلك لم يغير المأمون سياسته نحو

---

(١) الطبري: جـ ١٠ ص ٢١٤ - ٢١٥.

(٢) الفخري ص ١٩٧ - ١٩٨.

العلويين بعد أن رجع إلى السواد شعار العباسيين، إلى أن قام باليمن عبد الرحمن بن عبدالله العلوي سنة ٢٠٧ هـ، فبعث إليه المأمون أحد رجاله، فأمنه وألبسه السواد.

وفي سنة ٢٠٣هـ، ولى المأمون محمداً الزيادي بلاد تهامة ليقضي على المتشيعين فيها، فاختط مدينة زبيد، وأصبح أشبه بملك مستقل. إلا أنه كان يخطب للعباسيين ويؤدي لهم الخراج، وظل الملك في أعقابه إلى سنة ٥٥٣هـ. وبذلك انسلخت هذه البلاد عن الدولة العباسية. وكانت الدولة الزيادية أول دولة استقلت باليمن، كما كانت الحال بالنسبة إلى دولة الأغالبة التي أسسها الرشيد سنة ١٨٤هـ، لتكون حاجزاً بين بلاده وبلاد الأدارسة، فاعتز ملكهم وقويت شوكتهم إلى أن أزال الفاطميون دولتهم. وقد انسلخت هاتان الدولتان عن الدولة العباسية. وكان السبب في تكوينها خوف العباسيين من أن يمتد نفوذ العلويين إلى بلادهم.

وقد ثار أهل بغداد وولوا إبراهيم بن المهدي الخلافة حين كان المأمون بمرو. فلما أحس الناس بقدوم المأمون خلعوا إبراهيم، فاختفى ثم قبض عليه، فعفا عنه المأمون، وقربه إليه. وقد قبض على إبراهيم في سنة ٢١٠هـ، عقب اكتشاف مؤامرة بزعامة إبراهيم بن محمد بن عبدالوهاب بن إبراهيم الإمام المعروف بابن عائشة، ترمي إلى اغتيال المأمون وتولية إبراهيم بن المهدي الخلافة. أما ابن عائشة فقد أمر المأمون بأن يقام ثلاثة أيام في الشمس، ثم ضرب بالسياط وحبس ثم قتل وصلب وأعقب ذلك القبض على إبراهيم بن المهدي وهو متزي بزي امرأة. يقول الطبري[1]: أخذ إبراهيم... وهو متنقب مع امرأتين في زي امرأة، أخذه حارس أسود ليلاً، فقال: من أنتن، وأين تردن في هذا الوقت؟ فأعطاه إبراهيم فيما ذكر خاتم ياقوت كان في يده؛ له قدر عظيم ليخليهن ولا يسألهن. فلما نظر الحارس إلى الخاتم استراب بهن وقال: هذا خاتم رجل له شأن فرفعهن إلى صاحب المسلحة، فأمرهن أن يسفرن، فتمنع إبراهيم. فجذبه صاحب المسلحة. فبدت لحيته، فرفعه إلى صاحب الجسر فعرفه. فذهب به إلى باب المأمون، فأعلم به، فأمر بالاحتفاظ به في الدار. فلما كان غداة الأحد أقعد في دارالمأمون، لينظر إليه بنو هاشم والقواد والجند، وصيروا المقنعة التي كان متنقباً بها في عنقه، والملحفة التي كان ملتحفاً بها في صدره، ليراه الناس ويعلموا كيف أخذ. فلما كان يوم الخميس حوله المأمون إلى منزل أحمد بن أبي خالد فحبسه عنده، ثم أخرجه المأمون معه، حيث خرج إلى الحسن بن سهل بواسط، فقال الناس إن الحسن كلمه فيه، فرضي عنه وخلى سبيله، وسيره عند أحمد بن أبي خالد وسير معه خالد بن يحيى بن معاذ، وخالد بن يزيد بن مزيد يحفظانه. إلا أنه موسع عليه

---

(١) جـ ١٠ ص ٢٧٠ ـ ٢٧١.

عند أمه وعياله، ويركب إلى دار المأمون وهؤلاء معه يحفظونه. فلما أدخل على المأمون قال له: هيه يا إبراهيم! فقال: يا أمير المؤمنين! ولي الثأر يحكم في القصاص، والعفو أقرب للتقوى، ومن تناوله الاغترار بما مد له من أسباب الشقاء، أمكن عادية الدهر من نفسه. وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب، كما جعل كل ذي ذنب دونك. فإن تعاقب فبحقك، وإن تعف فبفضلك، قال: بل أعفو يا إبراهيم، فكبر ثم خر ساجداً. وقيل إن إبراهيم كتب بهذا الكلام إلى المأمون وهو مختف، فوقع المأمون في حاشية رقعته: القدرة تذهب الحفيظة، والندم توبة، وبينهما عفو الله، وهو أكبر ما نسأله».

وفي عهد المأمون شق نصر بن شَبَثْ عصا الطاعة. وكان عربياً يتعصب للأمين لأنه يمثل العنصر العربي وينقم على المأمون لاتخاذه الخراسانيين دون العرب أنصاراً له. وقد تغلب نصر على ما جاوره من البلاد، وشايعه كثير من العرب. ولما انتصر طاهر بن الحسين على الأمين واستولى على العراق، ندبه المأمون لمحاربة نصر، وولى الحسن بن سهل العراق، وطلب من طاهر بن الحسين أن يسير لمحاربة نصر، وأن يتخذ الرقة مركزاً لأعماله الحربية. ولكن طاهراً لم يجد في حرب نصر، لأنه كان يحقد على المأمون ووزيره الفضل بن سهل، لانتزاعه بلاد العراق منه، وأحرزت جيوش نصربن شبث النصر على جيوش طاهر بن الحسين. وأراد بعض العلويين أن يقيموا خليفة منهم، فأبى نصر ذلك عليهم وقال: إنما هواي في بني العباس، وإنما حاربتهم محاماة عن العرب، لأنهم يقدمون عليهم العجم. ولما قدم المأمون بغداد، استدعى طاهراً وولى ابنه عبدالله بن طاهر خراسان، وكتب له كتاباً مشهوراً يوصيه فيه بمحاربة نصر، فجد في حربه وحاصره حتى طلب الأمان. وكان المأمون قد ندب إليه من يؤمنه، فأجاب على ألا يطأ بساط المأمون فأبى الخليفة، واستمرت الحرب سجالاً بين الفريقين، حتى أرغم نصر على طلب الأمان، وسيق إلى بغداد في شهر صفر سنة ٢١٠هـ، بعد أن حارب جيوش المأمون نحواً من خمس سنين[١].

كذلك عكر الزط صفو المأمون. وهم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة وعاثوا فيها، وأفسدوا البلاد، وهم المعروفون بالنور. وأصلهم من هنود آسيا، وكانوا يقيمون على سواحل الخليج الفارسي، وانتهزوا قيام الفتنة بين الأمين والمأمون، فاستولوا على طريق البصرة. ولما عاد المأمون إلى بغداد ندب عيسى بن يزيد الجلودي لمحاربتهم (سنة ٢٠٥هـ). وفي سنة ٢٠٦هـ ولى المأمون داود بن ماسجور البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين، وندبه لمحاربة الزط. فلم يكن لحربه هو ومن سبقه من القواد أثر ظاهر، بدليل قول نصر بن شبث

(١) الطبري جـ ١٠ ص ٢٥٨ وما يليها في حوادث سنة ٢٠٥هـ إلى سنة ٢١٠هـ.

عن المأمون حين ألح في أن يطأ نصر بساطه: إنه لم يقو على أربعمائة ضفدع تحت جناحه. واستمر الزط يقاتلون العباسيين إلى أيام المعتصم حيث قضى عليهم في سنة ٢١٩هـ.

وفي عهد المأمون ثار المصريون سنة ٢١٠هـ، فبعث عبدالله بن طاهر لإخماد هذه الثورة، فاستولى على الفسطاط وأقر الأمن. ثم تفرغ لإصلاح البلاد، وزاد في جامع عمرو بن العاص، ولكن ولايته لم يطل أمدها، فعاد إلى العراق، وعادت الثورات في مصر سيرتها الأولى، وانتقض القبط، وخرج فريق من عرب مصر الذين كانوا يناصرون الأمين؛ فندب المأمون قائده الأفشين، ثم جاء إلى هذه البلاد بنفسه وأعاد الأمن إلى نصابه[1].

على أن الحسن بن سهل لم يتمكن من سياسة أهل العراق بالحزم. كما شاع في تلك البلاد بعد خروج طاهر بن الحسين منها، أن الفضل بن سهل قد استبد بالأمور دون المأمون، وأنه أنزله قصراً حجبه فيه عن أهل بيته وقواده، مما أثار، استياء بني هاشم ووجوه الناس في بلاد العراق. وثارت القلاقل في الأمصار، فقامت بضواحي الكوفة (سنة ١٩٩هـ) فتنة بزعامة أبي السرايا، الذي كان يدعو لأحد العلويين، وأوقع الهزيمة بجيوش الحسن بن سهل، مما اضطر أخاه الفضل ـ برغم شدة حقده على هرثمة ـ إلى أن يرسله على رأس جيش كبير لقمع حركة أبي السرايا الذي حلت به الهزيمة.

ولما قضى هرثمة على ثورة أبي السرايا، ولاه الخليفة بلاد الشام والحجاز؛ لكنه اعتذر عن قبول هذا المنصب قبل أن يطلع المأمون بنفسه على حقيقة الحال في العراق وما يليه غرباً ويوجه نظره إلى الخطر المحدق به. فلما بلغ هرثمة مرو حاضرة خراسان، خشي أن يخفي الفضل بن سهل خبر قدومه عن الخليفة؛ فضرب الطبول، وما لبث أن مثل بين يديه، وأفضى إليه بحقيقة الحال في الدولة الإسلامية. فجازاه على عمله هذا بحبسه، ولم يزل في سجنه حتى قتل.

على أن قتل هرثمة أثار غضب رجال الجيش في بغداد، وانتشرت الفوضى من جديد. فتألب أهلها على الحسن بن سهل، وأقاموا المنصور بن المهدي أميراً عليهم. بعد أن تنحى عن قبول الخلافة.

وقد أثار مبايعة علي الرضا بولاية العهد غضب العباسيين، فنادوا بخلع المأمون، وبايعوا إبراهيم بن المهدي بالخلافة كما تقدم، ولقبوه المبارك. فتصدى لهم الحسن بن سهل واليه على العراق؛ غير أنه عجز عن إخماد هذه الفتنة، وظل إبراهيم بن المهدي خليفة ببغداد مدة سنتين.

---

(١) المقريزي: خطط ج ٢ ص ٤٩٢.

ولما علم المأمون بما وصلت إليه الحال في بغداد من الاضطراب، عول على الرحيل إليها. وبينما كان في طريقه إلى تلك المدينة، دس لوزيره الفضل بن سهل من قتله، فتفرق عنه أنصاره، ولما وصل الى طوس حدثت حادثة أخرى، هي وفاة علي الرضا، وقد اتهم المأمون بقتله تقريباً إلى العباسيين.

قدم المأمون بغداد، فازدحمت جموع أهلها في الطرقات، وتهللت وجوههم فرحاً واستبشاراً بعودة الخليفة إلى حاضرة ملكه. وبعد أن استقر الأمر للمأمون في بغداد، أسند الوزارة إلى الحسن بن سهل وطلب الزواج من ابنته بوران، فرحب الوزير بهذه المصاهرة، وبذل على زفافها كثيراً من الأموال، حتى لقد قدر بعض المؤرخين نفقات الزواج بخمسين مليون درهم.

ولما عرضت للحسن بن سهل علته التي أودت بحياته، انقطع بداره، واحتجب عن الناس؛ فاستوزر المأمون أحمد بن أبي خالد، وكان على جانب كبير من رجاحة العقل، كما كان كاتباً فصيحاً بصيراً بعواقب الأمور. وقد استشاره المأمون في تولية طاهر بن الحسين على خراسان، فصوب هذا الرأي، على أن طاهراً لم يلبث أن قطع الخطبة للخليفة، ووضع نواة الدولة الطاهرية. فهدد المأمون وزيره؛ وصمم على قتله إذا لم يعمل على التخلص من هذا الخارج؛ فأرسل الوزير الى طاهر هدية فيها كوامخ مسمومة، فأكل منها ومات لساعته.

استشار المأمون الحسن بن سهل فيمن يوليه الوزارة بعد أحمد بن خالد، فأشار عليه بتولية أحمد بن يوسف وأبي عباد بن يحيى وقال: هما أعرف الناس بطبع أمير المؤمنين؛ فقال له: اختر لي أحدهما، فاختار أحمد بن يوسف فاستوزره.

وكان أحمد بن يوسف كاتباً أديباً وشاعراً، عالماً بأمور الدولة وآداب الملوك. استشاره المأمون في رجل كان يكرهه أحمد، فوصفه وذكر محاسنه، فقال له المأمون: يا أحمد! لقد مدحته على سوء رأيك فيه ومعاداته لك، فقال: لأني لك كما قال الشاعر:

كفى ثمناً بما أسديت أني صدقتك في الصديق وفي عدائي
وأني حين تندبني لأمر يكون هداك أغلب من هوائي

٢ ـ صفات المأمون وأخلاقه ـ وفاته:

وكان المأمون يتحلى بكثير من الصفات التي امتاز بها عن سائر الخلفاء العباسيين. من ذلك ميله إلى العفو وكراهته للانتقام. وليس أدل على ظهور هذه الصفة فيه من عفوه عن إبراهيم بن المهدي الذي تربع في كرسي الخلافة نحواً من سنتين، وعن الفضل بن الربيع الذي

حرمه من السلاح والعتاد الذي كان أبوه الرشيد قد أوصى بتسليمه إليه بعد وفاته، فإنه مع ذلك لم يعمل على التخلص منه وقال: أما القتل فلا أقتله. ولكن أجعله بحيث اذا قال لم يطع وإذا دعا لم يجب. وهذا أقل ما كان ينتظر من المأمون، ولا سيما بعد أن بلغه ما كان من تنازع الفضل بن الربيع مع علي بن عيسى، وتوجيهه معه قيداً من الفضة، بعد أن تنازعا في الفضة والحديد ليقيده بها.

وقد تحلى المأمون بكثير من الصفات التي ترجح كفة الحكم له في نظر المؤرخ، على الرغم مما ظهر به من القسوة في إخماد الثورة التي قامت في مصر في سنتي ٢١٢، ٢١٦ هـ، وكذلك في معاملة يحيى بن أكثم وأبي دلف حين غضب عليهما.

وقد فاق المأمون الخلفاء العباسيين قاطبة في كرمه. يدل على ذلك ما أنفقه على زواجه من بوران بنت الحسن بن سهل؛ فقد أمر عند انصراف الحسن من فم الصلح[١] بعشرة آلاف ألف درهم، كما أقطعه فم الصلح، وأطلق له خراج فارس وكور الأهواز مدة سنة. ويحدثنا ابن طباطبا[٢] أنه لما وصل إلى دمشق قل المال عنده، فشكا ذلك إلى أخيه المعتصم (وكان يلي بعض أعمال الدولة). فلم يمض أسبوع واحد حتى وافاه من المال ثلاثون ألف ألف ألف درهم (الألف مكررة ثلاث مرات)، فقال المأمون لقاضيه يحيى بن أكثم: أخرج بنا للنظر إلى هذا المال؛ فخرج وخرج الناس معه، وقد زين الحمل وزخرف، فقال المأمون: إن انصرافنا إلى منازلنا بهذا المال وانصراف الناس خائبين لؤم، ثم أمر كاتبه أن يعطي بعض خاصته ألف ألف، والبعض الآخر أكثر من ذلك، حتى فرق أربعة وعشرين ألف ألف ألف، ثم أمر فحول الباقي على الجيش ومصالحه.

وكان المأمون حاضر البديهة سريع الجواب. روي أن امرأة جاءته وهو في مجلس من العلماء وقالت له: يا أمير المؤمنين! مات أخي وخلف ستمائة دينار، أعطوني ديناراً. فأخذ المأمون يحسب ثم قال لها: هذا نصيبك، فقال له العلماء: كيف علمت يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذا الرجل خلف ابنتين، قالت: نعم، قال: فلهن الثلثان أربعمائة، وخلف والدة، فلها السدس مائة، وخلف زوجة فلها الثمن خمسة وسبعون، وبالله ألك اثنا عشر أخاً؟ قالت: نعم! قال: أصابهم ديناران وأصابك دينار.

---

(١) هو إقليم على قناة كبيرة تعرف بهذا الاسم، تأخذ من دجلة فوق واسط، وتقع بين هذه المدينة وتل تقع عليه عدة مدن صغيرة، زوج في أحدها الوزير الحسن بن سهل ابنته بوران للمأمون. انظر لفظ فم الصلح في معجم البلدان لياقوت.

(٢) الفخري ص ١٧٩.

وقد أثر عن المأمون كثير من الأحاديث التي أصبحت أقرب الى الحكم، من ذلك قوله: الناس ثلاثة: فمنهم مثل الغذاء لا بد منه على كل حال، ومنهم كالدواء يحتاج اليه في حال المرض، ومنهم كالداء مكروه على كل حال.

وكان المأمون يقرب منه الشعراء، كما حذق هو نفسه الشعر، حتى نفقت سوقه، وكثر الشعراء والمغنون وعلماء الكلام في عهده.

وكان المأمون يميل إلى الإقناع في الجدل والمناقشة «واحتمال آراء المتناظرين إذا لم تتفق مع آرائه وميوله، والعمل على قطع دابر الرياء والنفاق وغيرهما من الرذائل التي كانت متفشية بين قواده وجنده.

وتوفي المأمون في آخر غزواته ببلاد الدولة البيزنطية، فقد أصابته الحمى وهو في شمال مدينة طوس، وتوفي في الثامنة والأربعين من عمره، وكان قد عهد بالخلافة من بعده إلى أخيه أبي إسحاق بن الرشيد، وأحسن بذلك إلى أسرته وإلى نفسه.

المعتصم
(٢١٨ - ٢٢٧/٨٣٣ - ٨٤٢)

ولد أبو اسحاق محمد المعتصم سنة ١٧٨ هـ. وأمه أم ولد تسمى ماردة[١]، وأبوه الرشيد. وكان يلي بلاد الشام ومصر في عهد أخيه المأمون. ولما مرض المأمون عهد إليه بالخلافة وعدل عن تولية ابنه العباس الذي كان يتمتع بشهرة واسعة بين جند العرب. ولعل السبب الذي حمله على ذلك هو أنه رأى في شكيمة المعتصم ومتانة خلقه ما يضمن له تنفيذ السياسة التي رسمها لدولته.

وقد أوصى المأمون أخاه المعتصم وصية جاء فيها: «يا أبا إسحاق! أدن مني، واتعظ بما ترى، وخذ بسيرة أخيك في القرآن، واعمل في الخلافة إذا طوقكها الله عمل المريد لله، الخائف من عقابه وعذابه. ولا تغتر بالله ومهلته، فكان قد نزل بك الموت، ولا تغفل أمر الرعية، الرعية الرعية، العوام العوام، فإن الملك بهم، وبتعهدك المسلمين والمنفعة لهم، الله الله فيهم وفي غيرهم من المسلمين. ولا ينهين إليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة لهم إلا قدمته وآثرته على غيره من هواك. وخذ من أقويائهم لضعفائهم، ولا تحمل عليهم في شيء، وانصف

---

(١) ذكرها المسعودي (مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٤٥) ماربة، وذكرها الطبري (جـ ١١ ص ٩) والسيوطي (ص ٢٢٢ ماردة).

بعضهم من بعض بالحق بينهم، وقربهم وتأمنهم، وعجل الرحلة عني والقدوم إلى دار ملكك بالعراق، وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم، ولا تغفل عنهم في كل وقت. والخرمية فاغزهم ذا حزامة وصرامة واكنفه بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة. فإن طالت مدتهم، فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك، واعمل في ذلك مقدم النية فيه، راجياً ثواب الله عليه»[١].

بويع المعتصم يوم وفاة أخيه المأمون في التاسع عشر من شهر رجب سنة ٢١٨ هـ، ورفض الجند أن يدخلوا في طاعته في مبدأ الأمر، وأرادوا تولية العباس بن المأمون، ولكنه أسرع إلى مبايعة عمه بالخلافة احتراماً لوصية أبيه، فحذا الجيش حذوه[٢].

وقد وصف ابن طباطبا[٣] المعتصم وقال إنه كان سديد الرأي، شديد المنة، يحمل ألف رطل ويمشي بها خطوات. وكان موصوفاً بالشجاعة، وسُمِّي المثمن من أحد عشر وجهاً: هو الثامن ولد العباس، والثامن من الخلفاء، وتولى الخلافة وعمره ثماني عشر سنة، وكانت خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر، وتوفي وله ثماني وأربعون سنة، وولد في شعبان وهو الشهر الثامن. وخلف ثمانية ذكور، وثمانية بنات، وغزا ثماني غزوات، وخلف ثمانية ألف ألف درهم.

١ ـ الفتن والثورات:

اتبع المعتصم وصية أخيه المأمون في حمل الناس على القول بخلق القرآن، مع أنه لم يكن له حظ من العلم يجعله ذا رأي في مثل هذه المسألة، وإنما كان ينفذ وصية المأمون، وزاد عليه في إلحاق الأذى بكل من يعرف بذلك من العلماء وأهل الرأي: فأهان أحمد بن حنبل إهانة بالغة وسجنه، وأصبح كل عالم أو قاض هدفاً لخطر الضرب بالسياط والتعذيب إذا لم يأخذ برأي المعتزلة في القول بخلق القرآن.

ولم تكن سياسة المعتصم نحو العلويين أقل شدة من سياسة الخلفاء العباسيين قبله، إلا إذا استثنينا المأمون. فقد ذكر المسعودي[٤] أن المعتصم تخلص من محمد الجواد بن علي الرضا، الذي كان المأمون قد زوجه ابنته أم الفضل، ولكنه مات بعد وصوله إلى بغداد في سنة ٢١٩ هـ، فاتهمت زوجته بدس السم له. وقد يكون ذلك بإيعاز المعتصم نفسه خشية أن تحدثه نفسه بالمطالبة بالخلافة، لأن أولاده من سلالة المأمون، ولأن أباه علياً الرضا قد ولاه المأمون العهد قبل وفاته، حتى تؤول الخلافة إلى أبيه ثم إليه من بعده.

---

(١) الطبري جـ ١٠ ص ٢٩٤.
(٢) المصدر نفسه جـ ١٠ ص ٣٠٤.
(٣) الفخري ص ٢٠٩ ـ ٢١٠.
(٤) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

وكذلك خرج على المعتصم محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي. فقد أثار في نفس المعتصم المخاوف التي أثارها محمد بن علي الرضا من قبل، ولكنه رحل عن الكوفة إلى خراسان فراراً من بطش المعتصم به، وانضم إليه كثير من أهلها وحارب جيوش الخليفة العباسي في كثير من المواقع، حتى حمله عبد الله بن طاهر إلى المعتصم، فحبسه بسامرا. وقد اختلف الناس في وفاته: فمنهم من قال إنه مات مسموماً، ومنهم من قال إن بعض شيعته أخرجوه من مكانه وذهبوا به إلى مكان ما، ومنهم من زعم أنه حي لم يمت وأنه المهدي المنتظر، وأكثرهم بناحية الكوفة وبلاد طبرستان وجبال الديلم.

ومن المصاعب التي واجهت المعتصم في خلافته وهددت مرافق دولته، فتنة الهنود المعروفين بالزط، الذين استولوا على طريق البصرة، وفرضوا المكوس الجائرة على السفن، ثم حالوا دون وصول المؤن والأقوات إلى بغداد.

وقد ندب المعتصم لقتالهم عجيف بن عنبسة أحد القواد من العرب، فعسكر بالقرب من واسط، وسد الأنهار عليهم وأحاط بهم من كل جانب، وقاتلهم تسعة أشهر، ثم أرغمهم على طلب الأمان. وكان عددهم سبعة وعشرين ألفاً بين رجال ونساء وأطفال. فحملهم عجيف في السفن، ودخل بهم بغداد يوم عاشوراء من سنة ٢٢٠ هـ، فشاهدهم المعتصم ورجال دولته، ثم أمر بهم فنفوا إلى آسيا الصغرى، وظلوا هناك إلى أن أسرهم البيزنطيون سنة ٢٤١ هـ، ومن ثم وجدوا طريقاً إلى أوروبا، وعرفوا هناك باسم Gypsies أو النور، ويقيمون عادة في خارج المدن[1].

وكان من أثر السياسة التي سار عليها المعتصم في الاستعانة بالأتراك، وإجزاله الهبات والعطايا لهم دون غيرهم، أن دب في نفوس العرب دبيب الغيرة والحسد لهؤلاء الأتراك. وقام عجيف، وذلك القائد العربي الذي أبلى بلاء حسناً في محاربة الزط، بثورة على قواد الترك الذين أساءوا معاملة العرب، بل عزم على التخلص من المعتصم نفسه، فأغرى العباس بن المأمون بالخروج على عمه والمطالبة بعرشه. ودخل قواد العرب في حلبة هذه المؤامرة، واتفقوا على قتل المعتصم والأفشين وآشناس إذا تم توزيع الغنائم التي استولى عليها المسلمون من البيزنطيين في موقعة عمورية المشهورة.

على أن خبر هذه المؤامرة قد تسرب إلى المعتصم؛ فقد لعبت الخمر يوماً بلب العباس وبلب بعض المتآمرين، فأفضوا بسر المؤامرة إلى المعتصم، فمنع الماء عن العباس حتى مات ولحق به عجيف.

(١) الطبري جـ ١٠ ص ٢٥٦. —Muir' The Capliphate, p. 514

وبذلك قضى المعتصم على هذه المحاولة في مهدها، ولكنه لم يتخلص من سوء أثرها؛ فقد أوقعته في أيدي قواده الأتراك، وأدت إلى إقصاء قواد العرب والفرس تدريجياً وإسقاطهم من ديوان العطاء. يقول ميور[١]: «ومما زاد هذه الحالة سوءاً أن الأتراك أنفسهم لم يكونوا جادين في إخلاصهم للخليفة. فقد تغلب على نفوسهم عوامل الرغبة في انتزاع السلطة، وغدا الخلفاء في أثناء وجود البلاط العباسي في سامرا ألاعيب في أيدي القواد الأتراك».

ومن الحوادث الهامة التي وقعت في عهد المعتصم، فتح عمورية وهدمها، والثورات التي أشعلها بابك الخرمي ومازيار والأفشين ـ على ما سيأتي في الباب الثالث ـ وتأسيس مدينة سامرا التي اتخذها حاضرة لدولته (انظر الباب الثامن).

وكان لاعتماد المعتصم على الأتراك أثر سيىء في نفوس العرب كما رأينا، فثاروا في بلاد الشام تحت زعامة أبي حرب المبرقع اليماني، الذي أشعل نار الفتنة في فلسطين قبل موت المعتصم بقليل، بسبب دخول أحد الجند في داره وهو غائب. فلما عاد وعلم بالخبر قتل هذا الجندي، وخاف على نفسه، فلبس برقعاً وهرب إلى بلاد الأردن، حيث أخذ يحرض الناس على الخليفة المعتصم. وكان يزعم أنه أموي، فقال الذين استجابوا له: هذا هو السفياني. فالتف حوله كثير من أهالي هذه البلاد، وخاصة اليمانية؛ فأرسل إليه المعتصم جيشاً يزيد على مائة ألف من الجند. فلما سار هذا القائد إليه وجد أنه في زهاء مائة ألف. فكره حربه وعسكر بحذائه، وطاوله حتى كان أول حراثة الناس للأرض، وانصرف الحراثون إلى الحراثة، وأرباب الأرض إلى أرضهم، وبقي هذا القائد في نفر قليل، فأحل به قائد المعتصم الهزيمة وأسره وجاء به إلى سامرا[٢].

كذلك أثار الأكراد الفتنة في بلاد الموصل على يد جعفر الكردي؛ فبعث إليهم المعتصم إيتاخ أحد قواد الأتراك فقاتله (المحرم سنة ٢٢٧ هـ)، ثم وثب أحد أصحاب جعفر به فقتله، وذلك في أوائل خلافة الواثق.

٢ ـ صفات المعتصم:

حكم المعتصم الدولة العباسية حكماً استبدادياً مقرناً بشيء من العطف وحسن التدبير، حتى وصفه المسعودي[٣] بحسن السيرة واستقامة الطريقة.

وكان المعتصم شفيقاً بالفقراء، والضعفاء محباً للبذل. رأى شيخاً ضعيفاً في يوم مطير قد غاص حماره في الوحل وسقط ما عليه من الشوك الذي يستعمله أهل العراق في التدفئة،

---

(١) Ibid p. 517.
(٢) الطبري جـ ١١ ص ٦.
(٣) مروج الذهب جـ٢ ص ٣٥٦.

فأخرج الحمار من الطين وحمل الشوك فوضعه عليه، ثم غسل يديه في غدير، واستوى على دابته ولحق به حرسه بخيولهم، بعد أن أمر بعض خاصته أن يعطي هذا الشيخ أربعة آلاف درهم.

وقد علق ميور[1] على هذه الحكاية، موازناً بين ما فعله المعتصم في هذه الحادثة، وما فعله في مدينة عمورية التي انتصر فيها على البيزنطيين، فقال: «ولقد رأى المعتصم من الشرف أن يضحي بمدينة زاهرة يبلغ سكانها مائتي ألف نسمة، وتقدر ثروتها بالملايين. ومع ذلك فقد نزل هذا الخليفة عن صهوة جواده، ولوث رداءه، ليخلص شيخاً ضعيفاً وقع حماره في حفرة من الطين، وأي هذه الأفعال قد ذكرها بالسرور والغبطة حين ناداه ملك الموت؟».

أصيب المعتصم في آخر أيامه بمرض قضى عليه لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ، فرثاه وزيره محمد بن عبد الملك الزيات بقوله:

قد قلت: إذ غيبوك واصطفت عليك أيد بالتُّرْبِ والطين
اذهب، فنعم الحفيظ كنت على الدنيا ونعم الظهير للدين

الواثق

(٢٢٧ - ٢٣٢/ ٧٤٢ - ٧٤٧)

ولد هارون الواثق بالله بن المعتصم في شهر شعبان سنة ١٨٦ هـ، وأمه أم ولد رومية يقال لها قراطيس. وكان الواثق منذ حداثته راجح العقل، بصيراً بتصريف الأمور، سياسياً ماهراً، موصوفاً بكثير من الخلال التي جعلت أباه يعتمد عليه في أثناء غيابه حتى مقر خلافته، فتركه في بغداد سنة ٢٢٠ هـ حين سار لبناء مدينة سامرا التي اتخذها قاعدة لخلافته، كما أنابه عنه سنة ٢٢٣ هـ في استقبال الأفشين بعد رجوعه منتصراً في حرب بابك الخرمي، وعهد إليه بفتح عمورية.

ولى المعتصم ابنه الواثق عهده، فولي الخلافة في شهر ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ واقتدى بأبيه في الاعتماد على الأتراك الذين كثر عددهم وشغلوا المناصب العالية في الدولة. فولى آشناس التركي السلطة، وتوجه بتاج مرصع بالجواهر. وقد علق السيوطي[2] على ذلك بقوله: «وأظن أنه أول خليفة استخلف سلطاناً، فإن الترك إنما كثروا في عهد أبيه».

١ - الأحوال الداخلية:

وفي أوائل عهد الواثق ثارت القيسية بدمشق وحاصروا إليها، فأرسل إليهم جيشاً بقيادة

---

(١) The Caliphate, p. 519.

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٦.

رجاء بن أيوب، فانتصر عليهم في مرج راهط وقتل منهم نحو ألف وخمسمائة، وانهزم الباقون وعاد الأمن إلى نصابه.

ذكر الطبري أن بني سليم وغيرهم من البدو عاثوا في بلاد الحجاز، فنهبوا الأسواق، وامتد أذاهم إلى كثير من الناس، وقطعوا الطرق، وأوقعوا بجند والي المدينة المنورة. فأرسل إليهم الواثق في شهر شعبان سنة ٢٣٠ هـ جيشاً بقيادة بغا الكبير أحد قواد الأتراك، فقتل منهم نحو خمسين رجلاً وأسر مثلهم، وقبض على نحو ألف رجل منهم ممن عرفوا بالشر والفساد وحبسهم بالمدينة. ثم سار لإخضاع بني مرة بعدن، فحاول هؤلاء الخروج من حبسهم وثاروا في المدينة، فأحاط بهم أهلها وقتلوهم عن آخرهم. ثم عاد بغا إلى سامرا بعد أن أقر الأمن في جزيرة العرب الشمالية، واشتبك على غير جدوى في عدة حروب مع القبائل المناوئة للخلافة في أواسط هذه البلاد وجنوبها.

وقد سار الواثق على سياسة أبيه المعتصم في الانتصار للمعتزلة، وتشدد في فرض آرائه الدينية على الناس، مما أدى إلى إثارة خواطر أهل بغداد فتآمروا عليه، وكان أحمد بن نصر رأس هؤلاء الساخطين الذين أنكروا القول بخلق القرآن، وحملوا على الواثق حملة شعواء، ودعوا إلى عزله؛ فالتف حوله كثير من أنصاره، وعينوا يوماً ينفذون فيه مؤامراتهم على أن يضربوا الطبول في الليلة السابقة لذلك اليوم بيد أن الرجلين اللذين عهد إليهما تنفيذ ذلك الأمر أكثرا من شرب الخمر في تلك الليلة، وأخذ الفريق الذي رابط على الجانب الشرقي يدق الطبول، فلم يجبهم أصحابهم الذين رابطوا في الجانب الغربي. وكشفت المؤامرة قبل أن يستفحل خطرها، وقبض على أحمد بن نصر وأعوانه، وسيقوا إلى الخليفة الواثق بسامرا قاعدة خلافته، فعقد لهم مجلساً للمناظرة، وطرحت مسألة الشغب والخروج على الخلافة جانباً، وناظر الخليفة أحمد بن نصر في مسألة خلق القرآن فقال له:

«يا أحمد ما تقول في القرآن؟ قال: كلام الله، قال: أمخلوق هو؟ قال: هو كلام الله، قال: فما تقول في ربك أتراه يوم القيامة؟ قال: يا أمير المؤمنين جاءت الآثار عن رسول الله ﷺ أنه قال: ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته، فنحن على الخبر. فقال الواثق لمن حوله: ما تقولون فيه؟ فقال القاضي عبد الرحمن بن اسحاق: هو حلال الدم، وقال غيره: اسقني دمه يا أمير المؤمنين، ووافقه الحاضرون إلا ابن أبي دؤاد قاضي القضاة، فإنه قال: يا أمير المؤمنين! كافر يستتاب لعل به عاهة أو تغير عقل، فقال الواثق: إذا رأيتموني قد قمت إليه، فلا يقومن أحد معي فإني أحتسب خطاي إليه. ودعا بالصمصامة، سيف عمرو بن معديكرب الزبيدي، ذلك الفارس العربي الذي ذاع صيت سيفه، وكان قد أهدي إلى الخليفة

الهادي العباسي وورثه خلفاؤه، وضربه على عنقه ورأسه، وضربه أحد خاصته فقطع عنقه وجز رأسه. وحمل إلى بغداد وصلب في الجانب الغربي أياماً، وفي الشرق أخرى، ووضع في أذنه رقعة فيها: هذا رأس الكافر المشرك الضال أحمد بن نصر بن مالك، ممن قتله الله تعالى على يدي عبد الله مروان، الإمام الواثق بالله أمير المؤمنين، بعد أن أقام عليه الحجة في خلق القرآن ونفي التشبيه وعرض عليه التوبة، ومكنه من الرجوع إلى الحق، فأبى إلا المعاندة والتصريح، والحمد لله الذي عجل به إلى ناره وأليم عقابه»[1].

وقد تمتع ولاة الأقاليم في عهد الواثق بنفوذ كبير: فكان عبد الله بن طاهر بن الحسين يدير شؤون ولاية خراسان وطبرستان وكرمان. وأسند هذا الخليفة لأشناس التركي أعمال الجزيرة والشام ومصر والمغرب، فولى عليها ولاة من قبله وأقاموا بسامرا مركز الخلافة.

وكان الضعف والتحكم يشوب إدارة الواثق، فقد سأل أحد جلسائه ليلة أن يقص عليه قصة نكبة البرامكة على يد جده الرشيد، فلما سمع القصة وعرف كيف انتزع الرشيد منهم الأموال قال: صدق والله جدي، إنما العاجز من لا يستبد. ولم يمض أسبوع واحد، حتى أوقع بكتابه، وأخذ من كل منهم مبلغاً يتراوح بين أربعة عشر ألفاً وألف ألف دينار. ومن هنا نقف على مبلغ تفشي الرشوة والفساد بين رجال الدولة في ذلك العهد[2].

وقد ذكر المسعودي[3] أن أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي ومحمد بن عبد الملك الزيات الوزير غلبا على الواثق حتى كان لا يصدر إلا عن رأيهما، «وقلدهما الأمر وفوض إليهما ملكه». كذلك ذكر المسعودي وصف أحد الأعراب رجال الدولة في عهد الواثق فقال: «ذكر أبو تمام حبيب بن أوس الطائي الجاسمي (نسبة إلى جاسم وهي قرية من أعمال دمشق بين بلاد الأردن ودمشق بموضع يعرف بجاسم على أميال من الجابية) قال: خرجت في أيام الواثق إلى سر من رأى، فلما قربت منها لقيني أعرابي، فأردت أن أعلم خبر العسكر منه فقلت: يا أعرابي! ممن أنت؟ قال من بني عامر. قلت: كيف علمك بعسكر أمير المؤمنين؟ قال: قتل أرضاً عالمها، قلت: ما تقول في أمير المؤمنين؟ قال: وثق بالله فكفاه، أشجى القاصية وقصم العادية ورغب عن كل ذي جناية، فقلت: فما تقول في أحمد بن أبي دؤاد؟ قال: هضبة لا ترام وجبل لا يضام، تشحذ له المدى وتنصب له الحبائل، حتى إذا أقبل كان قد وثب وثبة الذئب وختل ختلة الضب. قلت: فما تقول في محمد بن عبد الملك الزيات؟ قال: وسع الداني شره ووصل الى البعيد ضره، له في كل يوم صريع لا يرى فيه أثر ناب ولا مخلب، قلت: فما تقول في عمرو بن فرج؟ قال ضخم نهم،

---

(١) الطبري جـ ١٢ ص ١٧ ـ ١٨.
(٢) المصدر نفسه جـ ١١ ص ١٠ ـ ١٢.
(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧.

استعذب الذم بنصبه اللوم ترساً للدعاء. قلت: فما تقول في الفضل بن مروان؟ قال: رجل نبش بعد ما قبر، ليس تعد له حياة في الأحياء، وعليه خفة الموتى. قلت: فما تقول في الوزير؟ قال: تخاله كبش الزنادقة، أما تراه إذا أحمله الخليفة سمن ورتع؟ وإذا هزه أمطر فأمرع؟ قلت: فما تقول في أحمد بن الخصيب؟ قال: ذاك أكل أكلة نهم فزرق زرقة بشم. قلت: فما تقول في إبراهيم أخيه؟ قال: أموات غير أحياء وما يشعرون يبعثون. قلت: فما تقول في أحمد بن إسرائيل؟ قال: لله دره، أي فاعل هو؟ وأي صابر هو؟ أعد الصبر دثاراً أو الجود شعاراً، وأهون عليه بهم. قلت: فما تقول في المعلى بن أيوب؟ قال: ذاك رجل خير، نصيح السلطان، عفيف اللسان سلم من القوم وسلموا منه. قلت: فما تقول في ابراهيم بن رباح؟ قال: ذاك رجل أوثقه كرمه، وأسلمه فصله، وله دعاء لا يسلمه ورب لا يخذله، وفوقه خليفة لا يظلمه، قلت: فما تقول في الحسن ابنه؟ قال: ذاك عود نضار غرس في منابت الكرم، حتى إذا اهتز حصدوه. قلت: فما تقول في نجاح بن سلمة؟ قال: لله دره، أي طالب وتر ومدرك ثأر يلتهب كأنه شعلة نار. له من الخليفة في الأحيان جلسة تزيل نعماً، وتحل نقماً. قلت: يا أعرابي؛ أين منزلك حتى آتيك؟ قال: اللهم عفواً ما لي منزل، أنا أشتغل النهار وألتف الليل، فحينما أدركني الرقاد رقدت، قلت: فكيف رضاك عن أهل العسكر؟ قال: إن أعطوني لم أحمدهم، وإن ضيعوني لم أذممهم، وإني كما قال هذا الغلام الطائي:

ومـا أبـالي وخـيرُ الـقـول أصـدقـه حقنتَ لي مـاء وجهي أو حقنت دمي

قلت: فأنا قائل هذا الشعر، قال إنك أنت الطائي؟ قلت: نعم قال لله أبـوك، وأنت القائل:

مـا جـودُ كفـك إن جـادت وإن بخلت من مـاء وجهي وقـد أخلقتـه عـرض»

٢ ـ صفات الواثق:

كان الواثق لا يبارى في علمه وأدبه حتى سمي المأمون الأصغر لأدبه وفضله. وقد شغف بالوقوف على آراء العلماء والحكماء، فطلب من حنين بن إسحاق أن يؤلف كتاباً يذكر فيه الفرق بين الغذاء والدواء، والمسهل وآلات الجسد، فألفه وسماه «كتاب المسائل الطبيعية».

وقد أفرد الواثق مجلساً للمناظرة في قصره، مقتفياً في ذلك أثر عمه المأمون. سأل الواثق العلماء مرة في الزهد، فأفاضوا القول فيه. ثم طلب إليهم أن يخبره كل منهم عن أحسن ما سمع من أقوال الحكماء الذين حضروا وفاة الإسكندر. فقال أحدهم: يا أمير المؤمنين! كل ما ذكروه حسن، وأحسن ما نطق به من حضر ذلك المشهد من الحكماء «دوجانس»، فقال: إن

الإسكندر أمس أنطق منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس. وقد نظم أبو العتاهية شعراً تتمثل فيه هذه الحكمة فقال:

كفى حزناً بدفنك ثم أني نفضتُ تراب قَبرك من يديا
وكانتْ في حياتك لي عظاتٌ وأنت اليوم أوعظ منك حيّا

وكان الواثق شاعراً يقول الشعر، ويجذل العطاء للشعراء الذين زخر عصره بكثير منهم. ومن هؤلاء أبو تمام الذي مهد طريق الحكم والأمثال لأبي الطيب المتنبي وأبي العلاء المعري.

حكم الواثق الدولة العباسية أقل من ست سنين، ولم يول عهده أحداً. وسئل في مرض الموت أن يوصي بالخلافة لولده، فلم يقبل وقال: «لا أتحمل أمركم حياً وميتاً». وتوفي الواثق في شهر ذي الحجة سنة ٢٣٢ هـ. وبموته انتهى العصر الذهبي للدولة العباسية، وذلك نتيجة طبيعية لهذه السياسة التي سار عليها أبوه المعتصم، الذي اعتمد على الأتراك، وأحلهم محل العرب، وما جره هؤلاء من إثارة خواطر الأهلين بسبب تمسكهم بالبدع الدينية.

الباب الثالث

الحركات السياسية والدينية

١ ـ حالة الأحزاب السياسية عقب قيام الدولة العباسية

(أ) تمثيل العباسيين ببني أمية:

تتبع السفاح البقية الباقية من بني أمية وأنصارهم. ويخيل إلينا أنه إنما لجأ إلى هذه السياسة، لما كان يضمره بنو هاشم لبني أمية من عداء منذ أيام الجاهلية، والعداء بين بني أمية وبني هاشم باقي الأثر، لم يزده الإسلام إلا تفاقماً وازدياداً. أضف إلى ذلك ما كان من تأثير الشعراء ورجال البلاط في إذكاء نيران هذا العداء، وما قام به بنو أمية من سفك دماء أهل البيت حين كان لهم السلطان.

وذكر المؤرخون أن العباسيين أخذوا بثأر إبراهيم الإمام، قتيل حران في عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية؛ فقتل عبد الله بن علي عم السفاح نحو ثلثمائة من بني أمية، منهم إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك أخو يزيد الناقص، وذلك في شهر جمادى الآخر سنة ١٣٢هـ. ثم قبض على يزيد بن معاوية بن عبد الملك، وعبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك وبعث بهما إلى أبي العباس، فقتلهما وصلبهما؛ ثم قتل، وهو على نهر أبي فطرس بفلسطين خلقاً كثيراً من بني أمية، وقتل سليمان بن يزيد بن عبد الملك بالبقاء، وحمل رأسه إلى عبد الله بن علي، كما قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية[١].

ولما أتي لأبي العباس برأس مروان ووضع بين يديه، سجد فأطال ثم رفع رأسه فقال: الحمد لله الذي لم يبق ثأري قبلك وقبل رهطك، الحمد لله الذي أظفرني بك وأظهرني عليك، ثم قال: ما أبالي متى طرقني الموت، فقد قتلت بالحسين وبني أبيه من بني أمية مائتين، وأحرقت شلو[٢] هشام بابن عمي زيد بن علي، وقتلت مروان بأخي إبراهيم، وتمثل بقول الشاعر:

---

(١) انظر الملحق الرابع.

(٢) الشلو من كل شيء: الجسد وهو المراد هنا، والشلو العضو جمعه أشلاء.

لـو يشربـونَ دمي لم يـرو شـاربهم ... ولا دمـاؤهـم لـلغـيظ تـرويـني

ثم حول وجهه إلى القبلة فأطال السجود، ثم جلس وقد أسفر وجهه، وتمثل بقول العباس بن عبد المطلب من أبيات له:

أبى قـومنا أن ينصفـونا فـأنصفت ... قـواطـع في أيمـاننا تقـطر الـدمـا
تـورثن من أشيـاخ صـدق تقربـوا ... بهـنَّ إلى يـوم الـوغى فـتقـدمـا
إذا خـالـطت هـام الـرجال تـركتها ... كبيض نعـامٍ في الـوغى متحـطما[1]

نعم! كان للشعراء ورجال البلاط أثر كبير في إشعال نيران العداء ضد بني أمية فإن السفاح كان جالساً في مجلس الخلافة، وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك، وقد أكرمه السفاح، فدخل عليه سديف الشاعر فأنشده:

لا يـغـرنـكَ مـا تـرى مـن رجـال ... إنَّ تحـتَ الـضـلوع داءً دويـا
فـضـع السيف وارفـع الـسـوط حتى ... لا تـرى فـوق ظـهـرهـا أمـويـا

فالتفت سليمان وقال: قتلتني يا شيخ! ثم دخل السفاح وأخذ سليمان فقتل. ودخل على أبي العباس شاعر آخر، وقد قدم الطعام، وعنده نحو سبعين رجلاً من بني أمية فأنشده:

أصبـح الملكُ ثـابتَ الآسـاس ... بـالبهـاليـل من بـني العبـاسِ
طلبـوا وِتـر هـاشمٍ فشفـوهـا ... بعـد مِيل من الـزمـان ويـاس
لا تُـقيـلنْ عبـد شـمسٍ عِثـارا ... واقـطعن كـل رَقلة[2] وغـراس[3]
ذلهـا أظـهـر الـتـودد مـنهـا ... وبهـا مـنكـم كـحـز المـواسي
ولـقـد غاظنـي وغـاظ سـوائـي ... قـربهـم مـن نمـارقٍ وكـراسي
أنـزلـوهـا بحيثُ أنـزلهـا الله ... بـدار الهـوان والإتـعـاس
واذكـروا مصرع الحسـين وزيـد ... وقـتيـلاً بجـانـب المهـراس[4]
والقتيـل الـذي بحـران أضحى[5] ... ثـاويـاً بـين غـربة وتنـاسي[6]

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢١٣ :

(٢) الرقل: جمع رقلة وهي النخلة التي فانت اليد سموقاً.

(٣) ما يغرس من صغار النخل.

(٤) (١) ماء بجبل أحد قتل عنده حمزة بن عبد المطلب ودفن.

(٥) هو إبراهيم الإمام بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس.

(٦) ابن الأثير جـ ٥ ص ١٧٤.

أجل! لقد أعاد إنشاد هذين الشاعرين ذكرى الماضي، وما جره الأمويون على أنفسهم من سخط الناس لتمثيلهم بأهل البيت. ولا زالت مأساة إبراهيم الإمام عالقة ببال الخليفة العباسي. فماذا كان من أمر هؤلاء الأمويين بعد هذه الذكريات المؤلمة التي أعادها إلى ذاكرة السفاح شعراء دولته؟ أمر السفاح بسليمان بن هشام فقتل، ثم أمر بمن كان في داره من بني أمية فضربوا بالسياط، وبسط النطوع عليهم، وجلس فوقهم، فأكل الطعام وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً.

وقد بالغ العباسيون في التنكيل ببني أمية وعولوا على استئصال شأفتهم، فتعقبهم أخوه وأعمامه في البصرة والكوفة والشام، ونبشوا قبر معاوية بن أبي سفيان، فلم يجدوا فيه إلا خيطاً مثل الهباء، ونبشوا قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه حطاماً كأنه الرماد.

على أن روح الانتقام الذي أضمره العباسيون لبني أمية لم ينته بوفاة السفاح، بل استمر طوال العصر العباسي الأول. يقول ابن دأب، وكان من خواص الخليفة الهادي: «دعاني في وقت من الليل لم تجر العادة أنه يدعوني في مثله. فدخلت إليه، فإذا هو جالس في بيت صغير شتوي وقدامه جزء ينظر فيه، فقال لي: يا عيسى! قلت: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: إني أرقت في هذه الليلة وتداعت إلي الخواطر واشتملت عليَّ الهموم، وهاج لي ما جرت إليه بني أمية من بني حرب وبني مروان في سفك دمائنا. فقلت! يا أمير المؤمنين! هذا عبدالله بن علي قد قتل منهم على نهر أبي فطرس فلاناً وفلاناً، حتى أتيت على تسمية من قتل منهم؛ وهذا عبد الصمد بن علي قد قتل منهم بالحجاز في وقت واحد نحو ما قتل عبد الله بن علي. . . » قال ابن دأب: فسرَّ والله الهادي[1].

وهكذا اشتد العداء بين بني أمية وبني هاشم جاهلية وإسلاماً. وقد نهج المأمون نهج من سبقه من الخلفاء في الحط من شأن الأمويين، حتى إنه أمر بلعن معاوية على المنابر في كافة الأمصار الإسلامية.

من ذلك نرى أن العباسيين لم يقفوا في معاملة بني أمية وأنصارهم عند حد التمثيل بالموتى ولعن بعض خلفائهم على المنابر، بل إنهم قتلوا الأحياء واستصفوا أموالهم، وأثاروا كراهة العرب بتقريب الفرس إليهم. فلا عجب إذا انصرف العرب عن العباسيين، ودب في نفوسهم دبيب الكراهية لهم وللفرس الذين استأثروا بالسلطة دونهم، لممالأة العباسيين لهم واعتمادهم على ولائهم، فقامت الفتن والثورات في البلاد الإسلامية.

---

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ١٥٨.

(ب) ميل العباسيين إلى الفرس وإيثارهم بالمناصب المدنية والعسكرية ـ طمع الفرس في السلطان واستئنافهم الدعوة لآل علي:

قام الدين الإسلامي على أساس المساواة بين المسلمين كافة، عربهم وعجمهم؛ وأيد هذه النظرية بعض أحاديث أثرت عن النبي ﷺ، وآيات وردت في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[1] ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم﴾[2]، ومثل قوله عليه الصلاة والسلام: «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى». على أن الحكم ظل في حقيقة الأمر في يد العرب دون غيرهم من المسلمين، وذلك في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين، حتى إذا قامت هذه الثورة التي انتقل بها الحكم إلى العباسيين على أيدي الفرس، وخاصة الخراسانيين، سنحت الفرصة لهؤلاء بالاستئثار بالسلطة وتولي الحكم، وساعد على ذلك شدة ميل العباسيين إلى الفرس، وإيثارهم بالمناصب المدنية والعسكرية. كما أن إسراف العباسيين في التمثيل ببني أمية صرف عنهم العرب كما تقدم.

قامت الدولة العباسية باسم الدين، وعمل العباسيون على التأثير في عقول الناس عن طريق إعادة الأمر إلى آل محمد وإزالة سلطان بني أمية المغتصبين هذا الأمر منهم وهو الخلافة. وقد اختار الأئمة من ولد عباس لنشر دعوتهم في الكوفة وخراسان اللتين كانتا مهد التشيع من قديم، لأن الفرس الذين دخلوا في الإسلام كانوا أقرب إلى غيرهم من التأثر بآراء الشيعة، لأنهم لا يفرقون بين الخلافة والملك، ومن ثم ناصروا العلويين. هذا إلى أن الفرس الذين كانت بلادهم ذات تاريخ عظيم من أقدم العصور، والذين فرضوا سيادتهم على بعض بلاد العرب، قد وجدوا في نشر الدعوة لآل محمد فرصة يتخلصون بها من نير الأمويين، ويستردون شيئاً مما كان لهم من نفوذ وسلطان. لذلك رأوا أنهم بمساعدتهم هذه الدولة الجديدة يصبحون أصحاب الكلمة المسموعة فيها. ومن ثم غدا هذا النزاع في حقيقة الأمر نزاعاً بين العرب والفرس، بعد أن كان نزاعاً بين بني أمية وبني العباس.

على أن نفوذ العرب قد تقلص تدريجياً، حتى إن الفتنة التي قامت بين الأمين والمأمون لم تكن في حقيقة الأمر إلا جهاداً حزبياً بين العلويين والعباسيين من ناحية، وبين العرب والفرس من ناحية أخرى. ولم يكن انتصار المأمون على الأمين إلا انتصاراً للفرس على العرب وزوال حكم العرب زوالاً لا رجعة بعده.

وكان من أثر ذلك الميل الذي أبداه العباسيون نحو الفرس وتلك الرعاية التي حاطوهم

---

(١) سورة الحجرات ٤٩: ١٣. (٢) سورة الحجرات ٤٩: ١٠.

بها، أن أصبح نظام الحكم عند العباسيين مماثلاً لما كان عليه في بلاد الفرس أيام آل ساسان. قال بالمر في كتابه هارون الرشيد[1]: «ولما كان العباسيون يدينون بقيام دولتهم للنفوذ الفارسي، كان طبيعياً أن تسيطر الآراء الفارسية. ولهذا نجد وزيراً من أصل فارسي على رأس الحكومة، كما نجد أيضاً أن الخلافة تدار بنفس النظام الذي كانت تدار به إمبراطورية آل ساسان».

أجل! لقد اتخذ الخلفاء الموالي من الخراسانيين حرساً لهم، لاعتمادهم على ولائهم وإخلاصهم؛ واستبد هؤلاء الخلفاء بالسلطة وتسلطوا على أرواح الرعية كما كان يفعل ملوك آل ساسان من قبل. وظهرت الأزياء الفارسية في البلاط العباسي، واحتجب الخليفة عن رعيته، واتخذوا الوزير والحاجب والكاتب، ودخلت مظاهر السلطان الفارسية قبل ظهور الإسلام بوقت طويل في بلاد الروم، وقضت باحتجاب أباطرة الروم عن الشعب وإحاطتهم برجال البلاط.

وطبيعي أن يميل العباسيون إلى الفرس، الذين ساعدوهم على تأسيس دولتهم، وقاموا في وجه أعدائهم الأمويين وإن مثل هذا الميل إلى الفرس، وتلك الكراهة التي أضمرها العباسيون للأمويين، لتتمثل في تلك الخطب التي ألقاها داود بن علي وأبو جعفر المنصور وغيرهما، يشيدون فيها بمآثر الفرس وما بذلوه من جهود في سبيل قيام الدولة العباسية، ويتوعدون الأمويين لما اقترفوه من ذنوب، ويمنون الفرس، وبخاصة الخراسانيين، بإجزال العطاء وإدرار الأموال. من ذلك قول داود بن علي: «يا أهل الكوفة! إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا، حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان، فأحيا بهم حقنا وأفلج بهم حجتنا وأظهر بهم دولتنا»[2]. وقول أبي جعفر المنصور: «يا أهل خراسان! أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا»[3]، كما أوصى المنصور ابنه المهدي بالخراسانيين خيراً فقال: «وأوصيك بأهل خراسان خيراً، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم في دولتك ودماءهم دونك، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم، وأن تحسن إليهم وتتجاوز عن مسيئهم، وتكافئهم على ما كان منهم، وتخلف من مات منهم في أهله وولده»[4].

كذلك يتمثل ميل العباسيين إلى الفرس في تلك الخطبة التي ألقاها أبو جعفر المنصور في أهل خراسان، بعد أن قبض على عبدالله بن الحسن العلوي. وهي تبين لنا مبلغ عداء العباسيين للعلويين وأشياعهم ولأنصار الأمويين، وكيف أثاروا الفرس عليهم واعتمدوا عليهم في تأسيس دولتهم، وكيف عولوا على إسناد مناصب الدولة إلى الفرس.

---

(١) Palmer: Haroun al.Rashid. pp. 37 ` 38.

(٢) الطبري جـ ٩ ص ١٢٧.

(٣) المسعودي: مروج الذهب: جـ ٢ ص ٢٤١.

(٤) الطبري جـ ٩ ص ٣١٩.

ولما أخذ المنصور عبد الله بن الحسن وآل بيته، صعد المنبر بالهاشمية، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على محمد ﷺ، ثم قال: «يا أهل خراسان! أنتم أنصارنا وأهل دعوتنا؛ ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا خيراً منا. إن ولد ابن أبي طالب تركناهم، والذي لا إله إلا هو والخلافة، لم تعرض لهم بقليل ولا بكثير، فقام فيها علي بن أبي طالب فما أفلح وحكم الحكمين، فاختلفت عليه الأمة وافترقت الكلمة. ثم وثب عليه شيعته وأنصاره وثقاته فقتلوه. ثم قام بعده الحسن بن علي رضي الله عنه، فوالله ما كان برجل، عرضت عليه الأموال فقبلها، ودس إليه معاوية إني أجعلك ولي عهدي فخلعه، وانسلخ له مما كان فيه وسلمه إليه... فلم يزل كذلك حتى مات على فراشه. ثم قام من بعده الحسين بن علي رضي الله عنه، فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة... فأسلموه حتى قتل. ثم قام بعده زين بن علي فخدعه أهل الكوفة وغروه، فلما أظهروه وأخرجوه أسلموه. وقد كان أبي محمد بن علي ناشده الله في الخروج، وقال له: لا تقبل أقاويل أهل الكوفة، فإنا نجد في علمنا أن بعض أهل بيتنا يصلب بالكناسة، وأخشى أن تكون ذلك المصلوب، وناشده الله بذلك عمي داود وتحذره رحمه الله عن زاهد الكوفة فلم يقبل... وقتل وصلب بالكناسة. ثم وثب بنو أمية علينا، فأماتوا شرفنا وأذهبوا عزنا والله ما كان لهم عندنا ترة (ثأر) يطلبونها، وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم، فنفونا عن البلاد، فصرنا مرة بالطائف ـ ومرة بالشام ـ ومرة بالشراء، حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصاراً، فأحيا الله شرفنا وأعزنا بكم، وأظهر لنا حقنا، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا ﷺ، فقر الحق في قراره، وأظهر الله مناره وأعز أنصاره وقطع دابر القوم الذين ظلموا»(١).

على أن الفرس، على الرغم مما أظهره العباسيون من ميل ظاهر نحوهم حتى آثروهم على العرب فأسندوا إليهم مناصب الدولة مدنية كانت أو عسكرية، وعلى الرغم من تأثر العباسيين بهم في اقتباس نظم الحكم عنهم، والاقتداء بهم في مظاهر البلاط، وفي اللباس، وفي الاحتفال بالأعياد والمواسم ـ على الرغم من هذا كله كانوا لا يقنعون بما نالوه من عطف وميل، وما وصلوا إليه من نفوذ وسلطان فعملوا على التخلص من العباسيين وتحويل الخلافة إلى العلويين. وإن ميل الفرس إلى العلويين قديم، كما تعلم، يرجع إلى أيام الحسين بن علي.

ولا غرو فقد شايع الفرس العلويين، لما كانوا يعتقدونه من أنهم وحدهم يملكون حق حمل التاج، لكونهم وارثي آل ساسان من جهة أمهم شهر بانوه ابنة يزدجرد الثالث آخر ملوك هذه الأسرة؛ ولأنهم الأئمة رؤساء الدين حقاً. وذلك يتفق مع معتقداتهم الدينية: إذ كانوا ينظرون إلى ملوكهم نظرة تقديس وإكبار. ويعتقدون أنهم ظل الله في الأرض. كما كانوا يعتقدون أن

---

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٤١ ـ ٢٤٢.

العلويين، وبخاصة أبناء الحسين بن علي، يمثلون حق النبوة والملك، لأنهم من سلالة النبي وآل ساسان. وهذا يفسر لنا سبب ميل الفرس إلى العلويين وعملهم على تحويل الخلافة إليهم. وقد اضطلع بهذا الأمر أحد زعماء الفرس. وهو أبو سلمة الخلال.

كان حفص بن سليمان. «ويكنى أبا سلمة الخلال»[١] مولى لبني الحارث بن كعب، من أهل اليسار في الكوفة: اشتهر بالكرم وكثرة البذل لرجال الدعوة العباسية. كما كان فصيحاً عالماً بالأشعار والسير والجدل والتفسير. وقد اتصل بالعباسيين عن طريق صهره بكير بن ماهان كاتب إبراهيم الإمام. فلما حانت وفاة بكير، أوصى الإمام بأن يعهد إلى أبي سلمة بالقيام بأمر الدعوة مكانه. فكتب إليه الإمام بذلك. فأخلص أبو سلمة للدعوة العباسية وبذل جهده للقيام بنصرتها. وقد اتفق المؤرخون على أنه لما سبر أحوال بني العباس، عزم على العدول عنهم إلى أولاد علي بن أبي طالب. ولما عزم على تنفيذ رغبته في نقل الخلافة إلى العلويين أرسل مع رجل من شيعة العلويين كتاباً، وأمره أن يقصد جعفراً الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي، فإن أجاب أبطل الكتابين الآخرين، وإن لم يجب لقي عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن علي؛ فإن أجاب أبطل كتاب عمر الأشرف بن علي زين العابدين، وإن لم يجب قصد عمر. فذهب الرسول إلى جعفر الصادق ودفع إليه كتاب أبي سلمة، فلم يقم له وزناً ولم يحفل بما قدمه رجل الشيعة بخراسان للعلويين حيث قال: «ما لي ولأبي سلمة وهو شيعة لغيري؟» ثم وضع الكتاب على السراج فاحترق، فسأله الرسول عن رد كتاب أبي سلمة فقال له: قد رأيتَ الجواب.

مضى الرسول بعد ذلك إلى عبد الله المحض، فسر بالكتاب، وركب غداة ذلك اليوم إلى جعفر الصادق وقال له: «هذا كتاب أبي سلمة يدعوني فيه إلى الخلافة، وقد وصل على يد بعض شيعتنا من أهل خراسان». فقال له جعفر الصادق كلاماً يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الفرس، أو الكثيرين منهم على الأقل، لم يكونوا في ذلك الوقت شيعة للعلويين خاصة: «ومتى صار أهل خراسان شيعتك؟ أأنت وجهت إليهم أبا مسلم؟ هل تعرف أحداً منهم باسمه أو بصورته؟ كيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك؟» وهذا كلام رجل من كبار

---

(١) قيل في تلقيبه بالخلال ثلاثة أوجه:
(ا) لأن منزله كان قريباً من محلة الخلالين ـ وكان يجالسهم ـ فنسب إليهم، كما نسب الغزالي إلى الغزالين لأنه كان يجالسهم كثيراً.
(ب) أو لأنه كانت له حوانيت يعمل فيها الخل فنسب إلى ذلك.
(ج) وقيل أيضاً إنه نسب إلى خلل السيوف وهي أغمادها.

العلويين وأعيانهم في ذلك الزمان، وقف على مبلغ الثقة من رجال الشيعة، وإن لم يكن عبد الله المحض قد وثق منه، بل شك في نصحه، ولم يحفل بما سمع عن الكتاب الذي جاءه قبله. وأما عمر بن علي زين العابدين فلم يكن منه إلا أن رد الكتاب وقال: «أنا لا أعرف صاحبه فأجيبه»[1].

من هذا كله نرى أن العلويين لم يكن لهم من القوة وكثرة أنصار ما يعبد لهم سبيل الوصول إلى الخلافة، فلم يروا بداً من الاستكانة حتى تتهيأ لهم الأحوال فيمتشقون الحسام ويقومون بطلبها. ومن هذا لا نعجب إذا فتَّ رفض هؤلاء العلويين في عضد أبي سلمة، وأدى إلى قتله على يد السفاح بعد أن وقف على ما دبره له ولأسرته.

ويحكي لنا التاريخ أن السفاح لما بويع بالخلافة، استوزر أبا سلمة على كره منه لمكانته من الخراسانيين، وهم عصب الدولة ومصدر قوتها، ولقبه وزير آل محمد. إلا أن هذا كله لم يكن مصدره حسن النية من جانب السفاح؛ إذ خاف على نفسه إن هو قتله، قام أهل خراسان يثأرون له، فعمل على أن يتم هذا الأمر على يد أبي مسلم، وكتب إليه مع أخيه المنصور كتاباً يخبره فيه: أن أبا سلمة يعمل على تحويل الخلافة إلى العلويين، وعهد له بمعاقبته، وباطن الكتاب يشعر بتصويب قتله. فأرسل أبو مسلم رجالاً من أهل خراسان فقتلوه، وتخلص منه السفاح وأبو مسلم الذي كان يكرهه ويحقد عليه مقامه. وبذلك هيأ أبو مسلم سبيل قتله بنفسه، فقد عول السفاح على التخلص منه، إلا أن منيته حالت دون ذلك.

ولكن ميل الفرس إلى العلويين لم يخمد بقتل أبي سلمة الخلال، فقد كانوا يناصرون كل علوي يعمل على الخروج على العباسيين. ومن أحسن الأمثلة التي تؤيد هذا الرأي محاولة جعفر بن يحيى البرمكي تخليص يحيى بن عبدالله العلوي في عهد هارون الرشيد، وما قام به الفضل بن سهل وزير المأمون في خراسان من تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين، حيث حمل المأمون على أن يولي عهده علي الرضا، وأن يتخذ الخضرة شعار العلويين بدل السواد شعار العباسيين شعاراً رسمياً لدولته.

(جـ) حرج مركز العباسيين أيام المنصور بين الساخطين من العرب وعلى رأسهم عم المنصور عبد الله بن علي والساخطين من الفرس وعلى رأسهم أبو مسلم الخراساني:

عمل العباسيون في مستهل دولتهم على التخلص من بني أمية، فأسرفوا في قتلهم والتمثيل بهم، مدفوعين في ذلك بما أضمروه للأمويين من ذلك العداء القديم الذي بقيت آثاره

---

(١) الفخري ص ١٣٧ ـ ١٣٩.

بعد ظهور الإسلام. ومال العباسيون إلى الفرس ميلاً شديداً، فقربوهم إليهم وآثروهم على العرب بالمناصب المدنية والعسكرية، مما أوغر صدور العرب من ناحية العباسيين. على أن الفرس لم يقنعوا بما نالوه من أثرة، (بفتح الألف والثاء والراء) وما تمتعوا به من نفوذ وسلطان في ظل العباسيين الذين أنقذوهم من نير الأمويين ومالوا إلى آل علي، لأنهم يجمعون، كما تعلم، بين أشرف دم عربي وأشرف دم فارسي. هذا إلى مناوأة عبد الله بن علي عم المنصور الذي بدأ يناوئه السلطان، ويؤلب الناس عليه، ويعمل على اغتصاب الخلافة منه.

لذلك ساء موقف المنصور بين الساخطين من العرب وعلى رأسهم عمه عبدالله بن علي، والساخطين من الفرس وعلى رأسهم أبو مسلم الخراساني. أضف إلى ذلك خروج العلويين وعلى رأسهم محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم في الحجاز والعراق كما سيأتي.

ذلك أنه لما مات أبو العباس السفاح ولي الخلافة أبو جعفر المنصور. ولما اتصل بعمه عبد الله بن علي خبر وفاة أبي العباس، أمر منادياً فنادى في الجند: الصلاة جامعة. فاجتمع إليه القواد والجند، وقرأ عليهم كتاب عيسى بن موسى الذي ولاه السفاح عهده بعد أبي جعفر، ودعا إلى نفسه، وادعى أن أبا العباس لما أراد توجيه الجند لقتال مروان بن محمد قال لهم: «من انتدب منكم للمسير إليه فهو ولي عهدي، وأنه لم ينتدب لهذا الأمر أحد غيري». ويقال إن القواد بايعوا عبد الله، وكان بموضع يقال له دلوك بنواحي حلب، وأنه رحل إلى حران على طريق الموصل والشام، وطلب إلى واليها مبايعته فأبى، فهزمه وقتله.

ولما بلغ أبا جعفر أن عبد الله شق عصا الطاعة، ندب أبا مسلم لقتاله فقال له: لا تخفه فأنا أكفيكه إن شاء الله؛ إنما عامة جنده من أهل خراسان وهم لا يعصونني. وقد ضم أبو جعفر إلى أبي مسلم نخبة من مشهوري قواد العرب كالحسن وحميد ابني قحطبة. ويقول اليعقوبي[1]؛ إن حميد بن قُحْطبة كان مع عبدالله بن علي، وإن هذا تخوف منه واحتال في التخلص منه، فأرسل معه إلى والي حلب كتاباً أمره فيه بقتله. ولما قطع ابن قحطبة نحو نصف الطريق، ارتاب في أمر هذا الكتاب، وتوجس خيفة من ناحية عبدالله بن علي. ولما فك الطومار وقرأ الكتاب، جمع خاصته وأعلمهم بما فيه، وسار إلى الرصافة وانضم بجنده إلى أبي مسلم، فقوي بانضمامه إليه وضعف جند عبدالله بن علي.

وهناك حادثة أخرى جعلت موقف عبد الله أشد حرجاً، هي أنه هم بقتل مَنْ في جنده من الخراسانيين، وكانوا زهاء سبعة عشر ألفاً، خشية انضمامهم إلى أبي مسلم. وقد كتب أبو

---

(١) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٣٩.

مسلم إلى عبد الله كتاباً يقول فيه: «إني لم أؤمر بقتالك ولم أوجه إليك. ولكن أمير المؤمنين ولاني الشام، فأنا أريدها». وبذلك خدع أبو مسلم جند عبد الله من أهل الشام الذين خافوا على بلادهم وذراريهم وأبوا إلا المسير نحو بلادهم. فلـم يـر عبد الله بداً من التوجه نحو بلاد الشام وحارب خمسة أشهر حلت بعدها الهزيمة بجنده، وذلك في شهر جمادى الثانية سنة ١٣٦، وفر من ميدان القتال حتى وصل إلى البصرة، واختفى عند أخيه سليمان بن علي، وكان قد وليها من قبل المنصور، واستولى أبو مسلم على ما في معسكر عبد الله من مال وعتاد[١].

من ذلك نرى أن عبد الله بن علي قد أخطأ بعمله على التخلص من حميد بن قحطبة الذي كان يعد من أعظم قواد الدولة العباسية في ذلك الحين، ثم بقتله من كان في جيشه من الخراسانيين، مما أضعف قوته وأثار حفيظة من بقي معه من الجند، فلم يخلصوا له ولدعوته.

ويقول الطبري[٢]: إن عبد الله بن علي بايع أبا جعفر المنصور سنة ١٣٨هـ، حين كان أخوه سليمان لا يزال على ولاية البصرة، وأن سليمان لما عزل اختفى عبد الله خوفاً على حياته، ثم ألح المنصور على سليمان بن علي وعيسى بن موسى بإحضار عبد الله، وأعطاهما الأمان على ألا يسيء إليه. ولكنه أمر بحبسه، وقتل بعض أصحابه، ثم قتله سنة ١٤٩هـ بعد أن حبسه تسع سنين[٣]، وأمن بذلك شر أبي مسلم ومحمد النفس الزكية وإبراهيم بن عبدالله بن الحسن العلوي وعمه عبدالله بن علي، كما عمل أبو جعفر على التخلص من عيسى بن موسى ليصفو الجو لابنه المهدي كما تقدم.

تفاقم العداء بين أبي مسلم وأبي جعفر المنصور منذ أيام السفاح، الذي بعث أخاه أبا جعفر إلى أبي مسلم، وكان بنيسابور، ومعه كتاب بتوليته على خراسان، وطلب منه أن يبايع أخاه أبا جعفر من بعده. وعلى الرغم من أن أبا مسلم أجاب الخليفة إلى ما طلب وأخذ له ولأخيه البيعة من أهل خراسان، حنق عليه أبو جعفر لاستخفافه به وأوغر صدر الخليفة عليه وحثه على قتله وخوفه من خروجه عليه، وقال له: «أطعني واقتل أبا مسلم فوالله إن في رأسه لغدرة». ولكن أبا العباس لم يجب أخاه إلى ما طلب، لما قام به أبو مسلم من جهود في سبيل الدولة العباسية، ولما كان يتمتع به من نفوذ في نفوس أهل خراسان.

ثم حدثت بين أبي جعفر وأبي مسلم أحداث أدت إلى إثارة عوامل الحقد والكراهة بين الرجلين. ذلك أن أبا مسلم أراد أن يحج بيت الله، فولى الخليفة أبا جعفر إمارة الحج فغضب أبو مسلم وقال: «أما وجد أبو جعفر عاماً يحج فيه غير هذا؟» وعمل أبو مسلم على الحط من

---

(١) الطبري جـ ٩ ص ١٥٨ - ١٥٩.

(٢) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١٧٢.

(٣) المسعودي. مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٤٤.

هيبة أبي جعفر، بإنفاقه الأموال الضخمة في الترفيه عن العرب وإصلاح الطرق ثم بتقديمه عليه في الطريق بعد أداء فريضة الحج.

عند ذلك أتى أبا مسلم نعي أبي العباس السفاح، فكتب إلى أبي جعفر يعزيه في وفاة أخيه، ولم يهنئه بالخلافة أو يبعث إليه بالبيعة، أو يقف في طريقه حتى يلحق به الخليفة الجديد؛ ثم بايعه بعد مماطلة قليلة ليدخل في روعه القلق من ناحيته. ولما وصل المنصور إلى الكوفة، ندب أبا مسلم لمحاربة عمه عبدالله بن علي لخروجه عليه. ولما علم المنصور بانتصار أبي مسلم على عمه، أرسل إليه رسولاً من قبله ليحصي الغنائم. فغضب أبو مسلم وهم بقتل الرسول وقال: «أمين على الدماء خائن في الأموال»؟.

ولما عاد رسول أبي جعفر أخبره بما رآه، فخاف أن يعود أبو مسلم إلى خراسان فيؤلب عليه أهلها ويستقل بحكمها، فعمل على إبعاده عنها، وولاه مصر والشام، فغضب أبو مسلم وقال: «هو يوليني الشام ومصر وخراسان لي»، وعول على السير إلى خراسان. عند ذلك أوجس المنصور خيفة من ناحية أبي مسلم وخشي خروجه عليه، وعول على التخلص منه قبل أن يستفحل شره، فكتب إليه كتاباً يأمره فيه بالرجوع إليه، فرد عليه أبو مسلم: «أنه لم يبق لأمير المؤمنين - أكرمه الله! - عدو إلا أمكنه الله منه. وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان، أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء. فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت، حريون بالسمع والطاعة، غير أنها من بعيد، حيث تقارنها السلامة. فإن أرضاك ذاك فأنا كأحسن عبيدك، فإن أبيت إلا أن تعطي النفس إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسي»(١).

وفي هذا الكتاب عبر أبو مسلم عما يجيش في صدره من حقد لأبي جعفر وما يخشاه على حياته إذا هو أطاع أمره. ولكن أبا جعفر أراد أن يسلك مع قائده العظيم سبيل اللين والمسالمة. فكتب إليه كتاباً يقول فيه: «قد فهمت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم، فإنما راحتهم في انتشار نظام الجماعة. فلم سويت نفسك بهم؟ فأنت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به، وليس مع الشريطة الأخرى التي أوجبت منك سماع ولا طاعة، وحمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالة لتسكن إليها إن أصغيت إليها. وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك، فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من طيه من الباب الذي فتحه عليك»(٢).

---

(١) الطبري جـ ٩ ص ١٦١.

(٢) الطبري جـ ٩ ص ١٦٦ - ١٦٧.

أرسل أبو جعفر هذا الكتاب إلى أبي مسلم مع أبي حميد المروروذي، وأمره أن يتلطف معه في القول حتى يلين، وأن يمنيه الأماني؛ فإن أبى هدده بالويل والثبور وعظائم الأمور، وأكد له أن الخليفة قد عول على القضاء عليه، ولو خاض البحر واقتحم النار حتى يقتله أو يموت. فأوجس أبو مسلم خيفة وساورته الظنون وتملكه القلق، ولا سيما بعد أن علم أن أبا جعفر أرسل إلى نائب أبي مسلم بخراسان كتاباً يمنيه فيه بولايتها إذا هو قطع صلته به وحال دون وصوله إليها. كما ازداد قلق أبي مسلم حين بلغه كتاب نائبه في خراسان يقول: «إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه ﷺ، فلا تخالفن إمامك ولا ترجعن إلا بإذنه». وكان تهديد أبي حميد نائب أبي مسلم في خراسان كافياً لعدوله عن رأيه، ولكن بعض نصحائه لم يطمئن إلى وعود أبي جعفر ورسله، وحذروه من الرجوع إليه.

ولما علم أبو جعفر بقرب أبي مسلم من المدائن، دبر أمر اغتياله، وأمر في الوقت نفسه رجالات دولته وأفراد البيت الهاشمي بلقائه. ثم مثل أبو مسلم بين يدي الخليفة، فقال له: انصرف يا عبد الرحمن فأرح نفسك وادخل الحمام، فإن للسفر عناء، إحضر غداً. وأرسل الخليفة إلى عثمان بن نهيك رئيس حرسه، ودبر معه طريقة قتله، وهي أن يحضر أربعة من الحراس الذين يثق بهم، وأن يكونوا خلف الرواق، على أن يخرجوا إذا صفق بيديه ويقتلوا أبا مسلم.

ثم أصبح الصباح وجاء أبو مسلم ومثل بين يدي أبي جعفر الذي أخذ يحدثه ويقول له[1]: أخبرني عن نصلين أصبتهما في متاع عبد الله بن علي، قال: هذا أحدهما الذي عليَّ. قال: أرنيه، فانتضاه، فناوله فهزه أبو جعفر ثم وضعه تحت فراشه؛ وأقبل عليه يعاتبه، فقال: أخبرني عن كتابك إلى العباس تنهاه عن الموات[2] أردت أن تعلمنا الدين؟ قال: ظننت أخذه لا يحل، فكتب إلي، فلما أتاني كتابي علمت أن أمير المؤمنين وأهل بيته معدن العلم. قال: أخبرني عن تقدمك إياي في الطريق، قال: كرهت اجتماعنا على الماء فيضر ذلك بالناس، فتقدمتك التماس المفرق. قال: فقولك حين أتاك الخبر بموت أبي العباس لمن أشار عليك أن تنصرف إلي. تقدم فترى من رأينا، ومضيت، فلا أنت أقمت حتى نلحقك ولا أنت رجعت إلي، قال: منعني من ذلك ما أخبرتك من طلب المرفق بالناس، وقلت نقدم الكوفة فليس عليه مني خلاف. قال: فجارية عبدالله بن علي أردت أن تتخذها، قال: لا، ولكني خفت أن تضيع فحملتها في قبة ووكلت بها من يحفظها، قال فمراغمتك وخروجك إلى خراسان، قال: خفت

---

(١) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١٦٦ ـ ١٦٧.

(٢) الموات. ما لا روح فيه أو هو الأرض التي لا مالك لها.

أن يكون قد دخلك مني شيء، فقلت: آتي خراسان فأكتب إليك بعذري، وإلى ذاك ما قد ذهب ما في نفسك علي. قال: تالله ما رأيت كاليوم قط، والله ما زدتني إلا غضباً. ثم أقبل يعاتبه: ألست الكاتب تبدأ بنفسك، والكاتب إلي تخطب أمينة بنت علي، وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس؟ ما دعاك إلى قتل سليمان بن كثير مع أثره في دعوتنا، وهو أحد نقبائنا قبل أن ندخلك في شيء من هذا الأمر؟ قال: أراد الخلاف وعصاني فقتلته(١). فقال المنصور: وحاله عندنا حاله فقتلته، وتعصيني وأنت مخالف عليّ، قتلني الله إن لم أقتلك. فضربه بعمود وخرج عثمان بن نهيك وشبيب وحرب فقتلوه، وذلك لخمس ليال بقين من شعبان سنة ١٣٧هـ، فقال المنصور:

زعمت أن الدّين لا ينقضي	فاستوف بالكيل أبا مجرم
سُقيت كأساً كنت تسقي بها	أمرّ في الحلق من العلقم

وكان أبو مسلم قد قتل في دولته وحروبه ستمائة ألف صبراً. وقيل إن أبا جعفر لما عاتبه قال: فعلت وفعلت، قال أبو مسلم: ليس يقال هذا إلي بعد بلائي وما كان مني فقال: «يا ابن الخبيثة! والله لو كانت أمة مكانك لأجزت ناصيتها، إنما عملت ما عملت في دولتنا وبريحنا، ولو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلاً».

وقد كان أبو مسلم قال ـ فيما قيل ـ عند أول ضربة أصابته: يا أمير المؤمنين! استبقني لعدوك، فقال: لا أبقاني الله إذاً، وأي عدو لي أعدى منك؟ وقيل إن عيسى بن موسى دخل بعدما قتل أبو مسلم، فقال: يا أمير المؤمنين! أين أبو مسلم؟ فقال: قد كان ههنا آنفاً، فقال عيسى: يا أمير المؤمنين! قد عرفت طاعته ونصيحته ورأي الإمام إبراهيم كان فيه فقال: يا

---

(١) نقل فان فلوتن عن كتاب المقفى الكبير للمقريزي (مخطوط. المكتبة الأهلية بباريس، ورقة ٨٠ ب) شذرات خاصة بمقتل سليمان بن كثير فقال: وكان سليمان بن كثير الخزاعي من النقباء، فلما قدم أبو جعفر أخو أبي العباس على أبي مسلم قال له: إنا كنا نحب تمام أمركم، وقد تم بحمد الله ونعمته، فإذا شئتم قلبناها عليه. وكان محمد بن سليمان بن كثير خداشياً، فكره تسليم أبيه الأمر إلى أبي مسلم. فلما ظهر أبو مسلم وغلب على الأمر قتل محمداً، ثم أتى سليمان الكفية، وهم الذين بايعوا على أن لا يأخذوا مالاً وأن تؤخذ أموالهم إن احتيج إليها ويدخلون الجنة. ويقال إنهم أعطوا كفاً من الحنطة فسموا الكفية، وقال لهم: حفرنا نهراً بأيدينا فجاء غيرنا فأجرى فيه الماء، يعني أبا مسلم، فبلغ قوله أبا مسلم، فاستوحش منه، وشهد عليه أبو تراب الداعية ومحمد بن علوان المروروذي وغيرهما في وجهه، بأنه أخذ عنقود عنب وقال: اللهم سود وجه أبي مسلم كما سودت هذا العنقود واسق دمه. وشهدوا أن ابنه كان خداشياً، وأنه بال على كتاب الإمام، فقال أبو مسلم لبعضهم: خذ به وألحقه بخوارزم، وكذلك كان يقول لمن أراد قتله، فقتل سليمان بن كثير: (السيادة العربية ـ ترجمة المؤلف ص ١٤٦ ـ ١٤٧).

أنوك، والله ما أعلم في الأرض عدواً أعدى لك منه، هاهو ذاك في البساط، فقال عيسى: إنا لله وإنا إليه راجعون. وكان لعيسى رأي في أبي مسلم، فقال له المنصور: خلع الله قلبك، وهل كان لكم ملك أو سلطان أو أمر أو نهي مع أبي مسلم؟ ثم دعا أبو جعفر بجعفر بن حنظلة، فدخل عليه فقال: ما تقول في أبي منسلم؟ فقال: يا أمير المؤمنين! إن كنت أخذت شعرة من رأسه، فاقتل ثم اقتل ثم اقتل، فقال المنصور: وفقك الله، ثم أمره بالقيام والنظر إلى أبي مسلم مقتولاً، فقال: يا أمير المؤمنين: عُدَّ من هذا اليوم لخلافتك»[١].

ثم خطب المنصور في الناس خطبة قال فيها: «أيها الناس! لا تخرجوا عن أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تسروا غش الأئمة، فإنه لم يسر أحد قط منكرة إلا ظهرت في آثار يده أو فلتات لسانه، وأبداها الله لإمامه بإعزاز دينه وإعلاء حقه، إنا لن نبخسكم حقوقكم، ولن نبخس الذي بادر بإعزاز دينه به وإعلاء حقه بفلجه. إنه من نازعنا هذا القميص أجزرناه خبى هذا الغمد. وإن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا، على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه، ثم نكبت بنا فحكمنا عليه حكمه على غيره لنا. ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه». ثم أعطى المنصورالجوائز لقواد أبي مسلم وجنده حتى رضوا، ورجع أصحابه وهم يقولون: «بعنا مولانا بالدراهم»[٢].

ولكن قتل أبي مسلم لم يرض أهل خراسان ولم يرض أنصاره، فخرج رجل منهم اسمه سنباذ يطلب الأخذ بثأره: وكان مجوسياً من بعض قرى نيسابور، وقد كثر أشياعه، وأطاعه كثير من أهل خراسان، وبخاصة أهل الجبال[٣]. فلما بلغ المنصور خبر سنباذ أرسل إليه عشرة آلاف فارس أحلوا به الهزيمة. وخرج غير سنباذ كثيرون طلباً لثأر أبي مسلم، وكان المقنع الخراساني أشدهم خطراً. واعتقد بعضهم أنه حي لم يمت، فزعموا أنه «أو شيدربامي» (بكسر الشين والدال) أو «أو شيدرما» أحد أعقاب زرادشت (بفتح الزاي وضم الدال وسكون الشين) الذي ينتظر المجوس ظهوره كما ينتظر المسلمون ظهور المهدي، حتى إن تلك الطوائف لم تعتقد بموت أبي مسلم، بل كانوا ينتظرون رجعته ليملأ الأرض عدلاً، على حين حول بعض أشياعه الإمامة إلى ابنته فاطمة[٤].

---

(١) الطبري جـ ٩ ص ١٦٧.

(٢) الطبري جـ ٩ ص ٣١٣.

(٣) أي الجبال الواقعة جنوبي بحر قزوين أو بحر طبرستان، وسمي بذلك لأن طبرستان أشهر البلاد الواقعة عليه.

(٤) السيادة العربية، ترجمة المؤلف ص ١٣٤.

ويقول نظام الملك[1]: كان أول ما يتكلمون به في دعواتهم، ترحمهم على أبي مسلم الخراساني والمهدي وفيروز حفيد أبي مسلم وابن بنته فاطمة. وذهب «كازانوفا» إلى القول بأن هؤلاء الأشياع كانوا يسمون الفاطميين نسبة إلى فاطمة بنت أبي مسلم، وهؤلاء هم طائفة الخرمية التي سيأتي الكلام عليها.

وفي رأينا أن المنصور إنما قام بهذا العمل مدفوعاً بما كان بينه وبين أبي مسلم من حزازات شخصية قديمة. وقد زاد أبو مسلم النار اشتعالاً، بتماديه في زهوه وإعجابه بنفسه وإسرافه في قتل النفوس البريئة بغير شفقة أو رحمة. ومما يؤخذ عليه قتله سليمان بن كثير.

أما إخلاص هذا الرجل وتفانيه في نصرة العباسيين، فأمر لم يقم الدليل بعد على إضعافه أو دحضه. وإن أبا جعفر إنما قام بهذا العمل، مدفوعاً بعوامل الغيرة من أبي مسلم، متأثراً بهذه الهواجس التي استولت عليه، فظن به الظنون وخامرته الريب في إخلاصه وولائه. وعندنا أن أبا مسلم إن كان يستحق القتل على يد أحد من الناس، فيصح أن يكون بعيداً عن بيت العباس.

وقد دلت الحوادث على أن من أسس دولة لا يستمتع بها في أغلب الأحيان. قال عليه الصلاة والسلام: «لا تتمنوا الدول فتحرموها». ويقول صاحب الفخري (ص ١٣٨): «وكان المخترع للدولة يكون عنده من الدالة والتبسط ما تأنف من احتماله نفوس الملوك، كلما زاد تبسطه زادت الأنفة عندهم حتى يوقعوا به».

والتاريخ يعيد نفسه كما يقولون، فقد كانت خاتمة أبي عبد الله الشيعي الذي تدين له الدولة الفاطمية بظهورها ووجودها في عالم الدول المستقلة، خاتمة أبي مسلم الخراساني، مع ما عرف من غيرته وانتصاره للدعوة العباسية.

وقد استطاع أبو جعفر المنصور بما أوتيه من دهاء وحزم، أن يقهر أعداءه من العرب ويأسر عمه عبد الله بن علي ثم يقتله، وأن يقهر أعداءه من الفرس ويقتل أبا مسلم الخراساني مؤسس الدولة العباسية.

(١) Siasset Nameh, tome II. p. 290.

(د) حركات الموالي:

(١) الراوندية:

لم يكد المنصور ينتهي من قتل أبي مسلم الخراساني حتى فوجىء بتعاليم جديدة يدعو إليها أهل فارس، وكانوا قبل الفتح الإسلامي يقدسون ملوكهم فيجعلونهم في مصاف الآلهة، وهؤلاء هم الراوندية[١].

كانت الكوفة التي ظهر منها الدعاة العباسيون في مستهل القرن الثاني للهجرة مهداً لتشيع متطرف غير إسلامي. وهكذا لم يلبث الإسلام أن أصبح خليطاً من مذاهب ونحل شتى على أثر اتصاله بالديانات والعقائد التي كانت سائدة في بلاد العراق قبل ظهور الإسلام (كديانة الفرس القدماء) Parsees والمانوية والصابئة وغيرها، وذلك للتوفيق بينه (أي الإسلام) وبين تلك الديانات المختلفة. وكان الدعاة يقومون بنشر الدين الإسلامي بين الناس بحماسة وحمية، برغم هذا التغيير الذي طرأ عليه في ذلك الحين، ويدافعون عنه بإخلاص وغيرة، حتى كان يحكم على الكثيرين من الغلاة والمبتدعين منذ أيام علي بن أبي طالب إلى عهد المنصور العباسي (حين أصبحت بغداد حاضرة الدولة الإسلامية)، وذلك لجرأتهم على الابتداع في الإسلام وإدخالهم فيه ما ليس منه. وإلى القارىء ما ذكره المدائني المؤرخ المتوفى سنة ٢١٤هـ عن عقيدة الراوندية، قال: إن رجلاً من الروندية كان يقال له الأبلق، وكان أبرص، فتكلم بالغلو ودعا بالراوندية، فزعم أن الروح التي كانت في عيسى بن مريم صارت في علي بن أبي طالب، ثم في الأئمة واحداً بعد واحد، إلى إبراهيم بن محمد (سبط العباس عم النبي)، وأنهم آلهة، كما استحلوا الحرمات. فكان كل رجل منهم يدعو الجماعة منهم إلى منزله فيطعمهم ويسقيهم ويبيح لهم الحرمات. فبلغ ذلك أسد بن عبدالله (القسري) فقتلهم وصلبهم، فلم يزل ذلك فيهم إلى اليوم، فعبدوا أبا جعفر المنصور، وصعدوا إلى الخضراء[٢]، فألقوا أنفسهم كأنهم يطيرون[٣]. وخرج جماعتهم على الناس بالسلاح فأقبلوا يصيحون بأبي جعفر: أنت أنت! (يعنون أنت الله!) فخرج إليهم بنفسه فقاتلهم. فأقبلوا يقولون: أنت أنت![٤]».

---

(١) نسبة إلى مدينة راوند (بفتح الواو) القريبة من أصفهان وكانت مهد دعوتهم.

(٢) هي القبة التي بناها المنصور ببغداد.

(٣) لا يزال يعزى إلى طائفة النصيرية من الفرس القدرة على الطير في الهواء حتى اليوم كما يعزى مثل ذلك أيضاً إلى بعض البوذيين.

(٤) راجع الطبري جـ ٩ ص ٣٠٧. فان فلوتن السيادة العربية، ترجمة المؤلف ص ٨٢ و٩٦.

لم ير المنصور بداً من أن يضرب على أيدي هؤلاء، لأنه لم يكن يستطيع أن يوافقهم على قولهم، لخروجهم على الدين والدولة، ولأن ذلك من شأنه أن يثير العرب عامة.

وقد حبس المنصور من زعماء الراوندية مائتي رجل، فأثار هذا نفوس أنصارهم فاجتمعوا وفتحوا السجون وأخرجوا الرؤساء، ثم قصدوا المنصور وحاربوه، فخرج إليهم ماشياً. فتكاثروا عليه وكادوا يقتلونه، لولا أن أغاثه معن بن زائدة الشيباني، أحد قواد الأمويين الذين حاربوا العباسيين تحت إمرة ابن هبيرة والي العراق. وقد ظهر معن، وقاتل دون الخليفة العباسي، فأبلى بلاء حسناً، فظفر بالراوندية وكوفىء بولاية اليمن، وكان قد أخفي بعد واقعة واسط إلى هذه الساعة.

وكان أبو جعفر المنصور ينظر إلى الراوندية كأعداء سياسيين، لأنهم من أتباع عدوه أبي مسلم الخراساني، الذين يعملون على تحويل الخلافة إلى ملك كسروي كما كان ينظر إليهم باعتبارهم زنادقة، يرون أن تعود المجوسية أو شكل من أشكالها، كالزرادشتية أو المانوية أو المزدكية أو غيرها؛ فعاملهم كما عامل أبا مسلم وقتلهم شر قتلة. إلا أنه مع ذلك لم يستطع أن يقضي عليهم قضاء تاماً، فظهروا في صور مختلفة نراها في مثل ثورات المقنع الخراساني وبابك الخرمي وغيرهما.

٢ ـ المقنعية:

وفي عهد الخليفة المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩هـ) ظهر المقنع (بضم الميم وفتح القاف وفتح النون مع التشديد) بخراسان. وكان رجلاً قبيح الخلقة أعور قصيراً، من أهل مرو. عمل وجهاً من ذهب وركبه على وجهه، وادعى الألوهية. وكان يقول: الله خلق آدم فتحول في صورته، ثم في صورة نوح، ثم إلى صورة إبراهيم، ثم إلى صورة واحد فواحد من الأنبياء والحكماء، ثم في صورة محمد، ثم تحول بعده في صورة علي بن أبي طالب، ثم انتقل في صورة أولاده، حتى حصل في صورة أبي مسلم الخراساني. ثم زعم أنه انتقل منه إليه، وقال: إني أنتقل في الصور لأن عبادي لا يطيقون رؤيتي في صورتي التي أنا عليها. ومن رآني احترق بنوري. وأسقط الصلاة والزكاة والصوم والحج، وأباح للناس الأموال والنساء، كما أباح لهم تعاليم مزدك، فعبده الناس وسجدوا له.

وقد أظهر المقنع قمراً يطلع ويراه الناس على مسيرة شهر ثم يأفل. وفي ذلك يقول أبو العلاء المعري[١]:

---

(١) شرح التنوير على كتاب سقط الزند لأبي العلاء المعري (القاهرة سنة ١٢٨٦هـ) جـ ٢ ص ١٠٣.

أفِقْ إنما البدر المقنع[١] ضلالٌ وغي مثل بدر المقنع

وإلى ذلك يشير أبو القاسم هبة الله بن سناء الملك في إحدى قصائده:

إليك فما بدرُ المقنع طالعاً بأسحر من ألفاظ بدر المعمم[٢]

وكان المقنع في مبدأ أمره ينتحل مذهب الرزامية (أتباع رزّام وكانوا كيسانية في الأصل)، الذين ساقوا الإمامة إلى محمد بن الحنفية، ثم إلى ابنه أبي هاشم، ثم إلى علي بن عبدالله بن عباس، ثم إلى ابنه محمد، ثم إلى ابنه إبراهيم الإمام، ثم إلى أخيه أبي العباس السفاح، ثم انتقلت إلى أبي مسلم الخراساني. وقد ظهروا بخراسان واتخذوا مرو مركزاً لنشر دعوتهم، واعتقدوا أن روح الله قد حل في أبي مسلم، وأنه أيده وأعانه على بني أمية فقتلهم عن آخرهم. كما قالوا بتناسخ الأرواح. واعتقدت طائفة منهم أن أبا مسلم صار إلهاً بحلول روح الله فيه، وأنه حي لم يمت. وينتظرون عودته، قالوا إن الذي قتله المنصور كان شيطاناً تصور للناس في صورة أبي مسلم، وهؤلاء بمرو وهراة يعرفون بالبركوكية[٣].

ولما قوي أمر المقنع وكثر أنصاره، انضم إليه أهل بخارى وسمرقند والأتراك الذين كانوا يقيمون حول بحر قزوين. واعتصم بقلعة حصينة بكش، وأرسل إليه الخليفة المهدي سبعين ألف مقاتل بقيادة معاذ بن مسلم، الذي طاوله حتى ضجر هو وأصحابه، فطلب أكثرهم الأمان، وبقي هو في القلعة مع نفر يسير من أصحابه، ولما شعر المقنع بالهزيمة، أشعل النار في القلعة، وأحرق كل ما فيها من دواب وثياب ومتاع، وأذاب النحاس والسكر في تنور، وجمع نساءه وأولاده وطلب ممن أحب من أصحابه أن يلقوا بأنفسهم في النار ليرتفعوا إلى السماء، وقال «أنا صاعد إلى السماء، فمن أراد أن يصحبني فليشرب من هذا الشراب». وسقاهم شراباً مسموماً شرب هو منه، فماتوا جميعاً، وألقى نساءه وأولاده في النار، ثم ألقى بنفسه فيها خوفاً من أن يظفر أعداؤه بجثته أو جثث نسائه، وذلك سنة ١٦٩هـ. واطمأن المهدي من ناحية المقنع وأمن الناس من شر مبادئه.

---

(١) يريد بالبدر المقنع رأس امرأة مقنعة تشبه بحسنها البدر. والمراد بالمقنع رجل من الممخرقين تنبأ ببلاد ما وراء النهر في ناحية كش (بضم الكاف) وأغوى بمخرقته كثيراً من الناس وادعى «أنه يطلع بدراً في السماء» فأنبط بئراً واسعة في بعض جبال تلك الناحية، فطرح فيها الزئبق الكثير فوق الماء، فكان شعاعه يظهر في الجو كأنه بدر. وأقام بذلك مدة يغري الناس ويضلهم بأباطيله ويقول : أفق من سكرة الهوى ودعوى محبة النساء، فإن المرأة المقنعة التي تحسبها بدراً مقنعاً حسناً وبهاء، حبها والاغترار بها غواية وضلالة كالاغترار ببدر المقنع الذي أظهره تمويهاً وتغريراً.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٥٣.

(٣) النوبختي: فرق الشيعة ص ٤٢ ـ ٤٣. الشهرستاني: الملل والنحل جـ ١ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧

ولكن موت المقنع لم يضع حداً لتعاليمه التي اعتنقها نفر من بلاد ما وراء النهر، أصبحوا يعرفون باسم «المقنعية المبيضة». وقد زعموا أن المقنع كان إلهاً، وأنه تصور في كل زمان بصورة خاصة[١]، وأصبح له أشياع في بلاد ما وراء النهر وفي تركستان، حيث اتخذوا في كل قرية مسجداً يصلون فيه ويستحلون الميتة والخنزير، ويبيحون النساء، وإن ظفروا بمسلم لم يره مؤذن مسجدهم قتلوه وأخفوا جثته.

٣ ـ الخرمية:

(ا) بابك الخرمي:

كانت بلاد الفرس التي نشأ فيها بابك الخرمي كثيرة المعتقدات والبدع، سواء أكان ذلك قبل الإسلام أم بعده. ولهذا ظهرت فيها الطوائف الدينية على اختلافها ومنها طائفة الخرمية[٢] (بضم الخاء وفتح الراء مع التشديد وكسر الميم) التي أسسها مزدك (بفتح الميم والدال وسكون الراء) في أيام قباذ(بضم القاف) أبي كسرى الأول المعروف بأنو شروان. وقد نشأت من طائفة الخرمية المزدكية[٣] طائفة الخرمية البابكية التي تنسب إلى بابك (بفتح البائين)، الذي ادعى الألوهية، وعكر صفو الدولة العباسية في أيام المأمون، وأخذ أمره يتفاقم إلى أيام المعتصم.

ويرى بعض المؤرخين أن بابك الخرمي من سلالة أبي مسلم الخراساني، وأنه ثار في وجه العباسيين لينتقم لأبي مسلم، وأن حركته استمرار لحركة المقنع الخراساني والراوندية وغيرهم. ويقول أبو حنيفة الدينوري[٤]: «والذي صح عندنا وثبت، أنه كان من ولد مطهر بن فاطمة بنت أبي مسلم هذه، التي تنسب إليها الفاطمية من الخرمية، لا إلى فاطمة بنت رسول الله ﷺ».

وكان بابك يقوم بخدمة جاويدان أحد رؤساء الخرمية. ولما توفي جاويدان أقامت امرأته بابك مكانه، وادعت أن روحه حلت في جسده، وأوعزت إلى رجاله بوجوب طاعته. ثم تزوجت منه، فأخذ بابك في إفساد عقول الناس حتى كان المأمون بمرو.

وفي عهد المعتصم تفاقم قلق أهل بغداد من بابك الخرمي، ودخلت أذربيجان تحت حوزته، وأعانه ملك أرمينية وإمبراطور الدولة البيزنطية. وانتشرت جيوشه، وأدخل الرعب في

---

(١) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٢١٥.

(٢) قيل إنهم سموا خرمية نسبة إلى خرما امرأة مزدك التي اضطلعت بنشر عقائد هذا المذهب بعد قتل زوجها.

(٣) وهؤلاء يسمون الخرمية الأول، لتمييزهم عن الخرمية الثانية الذين نبغ منهم البابكية أتباع بابك الخرمي في عهد المأمون والمعتصم.

(٤) الأخبار الطوال (طبعة ليدن) ص ٢٩٧.

نفوس أهالي البلاد الواقعة بين أذربيجان وإيران التي كانت، ولا تزال، تموج بالمذاهب المختلفة: فهناك الزرادشتية والمانوية والمزدكية والأبو مسلمية (أتباع أبي مسلم الخراساني). وكل هذه العقائد مجتمعة تكون عقائد الخرمية.

ويقول البلخي[١]: «وانضوى إليه القطاع والحراب والذعار وأصحاب الفتن وأرباب النحل الزائفة، وتكاثفت جموعه حتى بلغ فرسان رجاله عشرين ألف فارس سوى الرجالة. واحتوى على مدن وقرى، وأخذ بالتمثيل بالناس والتحريق بالنار والانهماك في الفساد وقلة الرحمة والمبالاة. وهزم جيوشاً كثيرة للسلطان وقتل عدة قواد. وذكر في بعض الكتب أنه قتل فيما حفظ ألف ألف إنسان من بين رجل وامرأة وصبي[٢]».

مبادىء الخرمية:

ومبادىء الخرمية جديرة بالبحث لما كان لها من الأثر في تاريخ العصر العباسي، وبخاصة في علاقة الموالي بالعباسيين. فمن مبادئهم الأساسية تحويل الملك من العرب المسلمين إلى الفرس والمجوس، وهم بذلك قد أثاروا حرباً شعواء على الإسلام والعرب. يؤيد هذا ما ذكره البلخي[٣]: فإن الخرمية احتالوا في إزالة الملك إلى العجم، فموهوا هذه النحلة، وزينوها للجهال، ودعوا إليها في السر. ومحصول أمرهم التعطيل والإلحاد». ومن مبادئهم تأليه البشر، فقد ادعى بابك أن روح جاويدان حلت فيه، حتى جعل الخرمية يقولون: «آمنا بك يا روح بابك كما آمنا بك يا روح جاويدان». كما كان من مبادىء الخرمية مبدأ الرجعة التي قال بها غلاة المتشيعين.

ويقول البلخي[٤] عن مبادئ الخرمية: «هم فرق وأصناف، غير أنهم يجمعهم القول بالرجعة، ويقولون بتغيير الاسم وتبديل الجسم (يعني القول بالتناسخ)، ويزعمون أن الرسل كلهم على اختلاف شرائعهم وأديانهم يحصلون على روح واحدة، وأن الوحي لا ينقطع أبداً. وكل ذي دين مصيب عندهم إذا كان راجي ثواب وخاشي عقاب. ولا يرون تهجينه (أي تحقيره) والتخطي إليه بالمكروه ما لم يرم كيد نحلتهم وخسف مذهبهم... ويعظمون أمر أبي مسلم، ويلعنون أبا جعفر على قتله، ويكثرون الصلاة على فيروز لأنه من ولد فاطمة بنت

---

(١) كتاب البدء والتاريخ جـ ٦ ص ١١٥ ـ ١١٦. انظر ما كتبه نظام الملك عن ثورة بابك (سياسة نامة جـ٢ ص ٢٩٢ ـ ٢٩٨).

(٢) انظر الملحق الخامس حيث أوردنا ما ذكره المسعودي عن نهاية بابك الخرمي.

(٣) كتاب البدء والتاريخ: جـ ٥ ص ١٣٤.

(٤) البدء والتاريخ: جـ ٤ ص ٣٠ ـ ٣١.

أبي مسلم، ولهم أئمة يرجعون إليهم في الأحكام، ورسل يدورون بينهم ويسمونهم «فريشتكان»، ولا يتبركون بشيء مثل تبركهم بالخمور والأشربة. وأصل دينهم القول بالنور والظلمة... ووجدنا منهم من يقول بإباحة النساء... وإباحة كل ما يستلذ النفس وينزع إليه الطبع».

ويؤيد هذا ما ذكره نظام الملك[1] من أنهم رفضوا جميع الفروض الدينية كالصلاة والصوم والحج والزكاة. وأباحوا شرب الخمر، ونادوا بإباحة المحرمات والاشتراكية في النساء. ويعتقد الإنسان أن هذه المبادىء هي مبادىء مزدك. ويبذلون كل ما يستطيعون من جهد للقضاء على الإسلام قضاء مبرماً، كما أنهم لم يشعروا بأي ميل أو عاطفة إزاء أحد من أهل البيت، وإن كانوا قد اتخذوا من أسمائهم سبيلاً إلى جذب الأنصار إليهم، لنشر دعوتهم التي ترمي إلى هدم العقائد الإسلامية. ويقول نظام الملك إن الخرمية والباطنية سواء.

ويرى بعض الباحثين كما يقول فان فلوتن[2] أن هناك صلة بين اسم الخرمية الذي قد يكون مشتقاً من خرم (اسم لمدينة ببلاد ميديا) أو من كلمة خرم ومعناها «لذيذ» فإذا ما تكلمنا عن «خرم دينيا»، فلكي نبين أن هؤلاء كانوا لا يعرفون ديناً غير اللذة. ومن هنا يتبين أن هذه الطوائف، وإن كانت قد جعلت للنساء مكانة أرقى من المكانة التي لهن في البلاد الشرقية وأباحت لهن الظهور في المجتمعات الدينية، فإن ذلك لم يكن إلا بقصد الاستمتاع بظهورهن في تلك المجتمعات.

على أن ما ذهبت إليه هذه الطائفة من الاستمتاع باللذة التي لا حد لها لم يكن العامل الوحيد فيما يكنه أهل السنة من البغض لهذه الطوائف، وإن كنا لا نستطيع في الوقت نفسه أن ننكر أنه كان لغلو بعض المتطرفين من أهل هذه الطوائف أثر كبير في بغض السنيين لطائفة الخرمية.

(ب) الأفشين والمازيار:

ولم يكد المعتصم ينتهي من ثورة بابك التي هددت ملكه وأقلقت باله وأفنت كثيراً من جنده، وأضاعت أمواله وأهلكت الحرث والنسل، حتى فوجىء بثورة الأفشين، أو بمؤامرته التي دبرها بالاشتراك مع المازيار، وكان رئيساً للمحمرة، وهم فرقة من الخرمية أتباع بابك الخرمي، وقد تألق نجم المازيار في أيام المأمون، فوثق به وولاه جبال شروين في أطراف بلاد طبرستان، وسماه محمداً، وسمح له بأن يحتفظ بلقب الإصبهبذ الذي كان يطلق على كل من يلي هذه الجهات.

---

(١) سياسة نامة: ص ٢٩٨ وما يليها.

(٢) السيادة العربية، ترجمة المؤلف ص ٩٩ ـ ١٠٠.

ولما مات المأمون وولي أخوه المعتصم الخلافة كشف المازيار عن ميوله الثورية، ودارت المراسلات بينه وبين بابك الذي كان يدين بمبادىء الخرمية كما ذكرنا، وعرض عليه مساعدته في ثورته على الخليفة العباسي. ويقول الطبري[١] إن المازيار لما عزم على الخلاف دعا الناس إلى البيعة، فبايعوه كرهاً، وأخذ منهم الرهائن، فحبسهم في برج الإصبهبذ، وأمر أكرة الضياع بالوثوب بأرباب الضياع وانتهابهم. ومما يؤيد اتصال المازيار ببابك واتفاقه معه على الشقاق، ما ذكره البغدادي[٢]: «وكانت فتنة مازيار قد عظمت في ناحيته إلى أن أخذ في أيام المعتصم... وصلب بسر من رأى بحذاء بابك الخرمي. وأتباع مازيار اليوم في جبلهم أكرة[٣] يظهرون الإسلام ويضمرون خلافه». كان المازيار من دهاقين الفرس، يخضع مباشرة للخليفة العباسي دون ولاة خراسان من آل طاهر، وانتهز فرصة انشغال الدولة العباسية بحرب بابك الخرمي، فاتصل به وبالأفشين سراً، وعمل ثلاثتهم على محو الإسلام من بلادهم والتخلص من حكم العرب. فهذه الثورة وأمثالها كانت في الواقع ثورة دينية سياسية معاً، يراد بها الاستقلال عن الدولة العباسية، وهي في الوقت نفسه حركة شعوبية تعمل على حط شأن العرب وإزالة دينهم ودولتهم.

وكان الأفشين من بلاد أشروسنة (بسكون الشين وفتح السين) ببلاد ما وراء النهر الواقعة بين أقاليم فرغانة شرقاً وسمرقند غرباً والشاس شمالاً. وكان هو وأبوه في خدمة الخليفة المعتصم، فولاه قيادة إحدى الفرق التي سيرها لغزو عمورية، فاشتهر في حروبه حتى وثق به المعتصم، وقربه إليه، وولاه حرب بابك الخرمي.

لكن الأفشين عرف بالتعصب لبلاده، حتى إنه لم يصله وهو يحارب بابك مال أو هدية إلا أرسلها إليها. وقد قيل إن عبد الله بن طاهر قبض على كثير من هذه الأموال وهي في طريقها إلى أشروسنة[٤]. وكان الأفشين - كما كان بابك والمازيار من قبله - يسعى إلى الاستقلال ببلاده والخروج على الإسلام والدولة العباسية معاً؛ كما كان يعتقد أنه لا سبيل إلى نصرة المجوسية إلا على أيديهم. ويقول براون[٥]: «إن الأفشين لم يكن في ميوله ونشأته الفارسية أقل وطنية وعطفاً على الفرس من هذين الرجلين اللذين صحباه في نهايته المحزنة»، حتى قيل إنهم وجدوا في داره أصناماً زعموا أنها كانت قد حملت إليه[٦]، وأنه كان يعبدها، كما وجدوا عنده كتباً للزنادقة. ومما يدل على أنه كان يكره العرب ويظهر الإسلام ويبطن الكفر قوله: «إني قد دخلت لهؤلاء

---

(١) جـ ١٠ ص ٣٤٩.

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٥٠ - ٢٥٢.

(٣) الأكرة هم عمال الأراضي.

(٤) الطبري جـ ١٠ ص ٢٦٣.

(٥) Lit. Hist. of Persia Vol I p.330

(٦) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٥٤.

القوم (العرب) في كل شيء أكرهه، حتى أكلت منهم الزيت، وركبت الجمل، ولبست النعل، غير أني إلى هذه الغاية»، يعني لم يطل[١] ولم يختتن. وقد عبر أبو تمام عن عقيدة الأفشين في هذه الأبيات:

قد كان بوأه الخليفة جانباً ... من قلبه حرماً على الأقدار
فإذا ابن كافرةٍ يسر بكفره ... وجْداً كوجْد فرزدقٍ بنوار[٢]
ما زال سرُّ الكفر بين ضلوعه ... حتى اصطلى شرَّ الزناد الواري
صلى لها حياً وكان وَقودَها ... مَيْتاً، ويدخلها مع الفجار

كما أباح الأفشين لنفسه أكل المنخنقة من الحيوانات بحجة أن لحمها أرطب من لحم المذبوح. وكان لا يذبح على طريقة المسلمين، فيأتي كل يوم أربعاء وينصف شاة بسيفه، ويمر وسطها، ثم يأكل لحمها جرياً على عادة قومه. وكان، كالمقنع الخراساني، حين يكاتب قومه يبدأ بقوله: «من إله الآلهة إلى عبده فلان».

وقد ذكر المسعودي[٣] أن المازيار بعد أن قبض عليه، «أقر على الأفشين أنه بعثه على الخروج والعصيان، لمذهب كانوا اجتمعوا عليه ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنوية والمجوس».

ومن محاكمة المعتصم للأفشين، يتبين مبلغ تعصب الأفشين لدينه ووطنه، وتنكشف سلسلة التهم التي رمي بها، كما نتبين اهتمام المعتصم بكشف غوامض هذه المؤامرة الخطيرة التي دبرها الأفشين وأنصاره. لذلك نراه يعقد لمحاكمته مجلساً برئاسته، ومعه وزيره محمد بن عبد الملك الزيات وقاضيه أبو دؤاد وكثير من رجالات الدولة[٤].

ولكن خاتمة الأفشين لم تكن كخاتمة بابك؛ فإنه أودع السجن ومات مسموماً، ثم أخرجت جثته فصلبت، وأحرقت مع الأصنام التي وجدت في داره، وذلك في سنة ٢٢٦ هـ.

وقد علق ميور[٥] على محاكمة الأفشين بقوله: «إنها تبين بجلاء كيف كان تمسك أهالي

---

(١) أي لم يزل شعره بالنورة (مادة لإزالة الشعر).
(٢) نوار زوجة الفرزدق كان قد طلقها فندم على ذلك وقال:
ندمت ندامة الكسعي لما ... غدت مني مطلقة نوار
وبت كفاقد عينيه عمداً ... فأصبح ما يضيء له نهار
(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٥٤.
(٤) انظر الملحق السادس الخاص بمحاكمة الأفشين.
(٥) The Caliphate, pp. 518 - 519

ولايات الدولة العباسية الشرقية بدينهم الوثني، وذلك لبعدهم عن مركز هذه الدولة، ولأن الإسلام لم يكن قد وصل إلى قلوبهم، ثم لتحصنهم في بلادهم المنيعة وقربهم من الأتراك الوثنيين. وقد خلص ميور من ذلك بهذا الرأي، وهو أن إسلام بعض أهالي فارس إنما كان إسلاماً ظاهرياً، وأنهم كانوا لا يزالون متمسكين بعقائدهم المجوسية القديمة، وأنهم كانوا ينتهزون الفرصة المواتية ليرتدوا عن الإسلام ويعودوا إلى دينهم القديم. ومصداق ذلك ما رأيناه من ظهور هذه الحركات التي أشعل نيرانها سنباذ المجوسي وأنصار أبي مسلم الخراساني وبابك الخرمي.

٤ـ الزنادقة:

كان أشد الثورات بأساً وأكثرها خطراً في العصر العباسي الأول، تلك الثورات التي أذكى نيرانها الزنادقة، الذين تبعد تعاليمهم عن تعاليم الإسلام وعقائده، وتقوم على أنواع من الديمقراطية الفاسدة التي تبيح المحرمات وتعبث بالآداب الاجتماعية، وتعرض الحياة السياسية والاجتماعية للخطر.

وللزندقة عدة معان تختلف باختلاف العصور: فقد كان العرب يطلقون لفظ «زنديق» على من ينفي وجود الله سبحانه، أو يقول إن له شريكاً(١).

وقيل: إن الزنديق من يبطن الكفر ويظهر الإيمان، وفي ذلك يقول الشاعر:

بغدادُ دارٌ لأهل المال طيبةٌ وللمفاليس دارُ الضنك والضيق
ظللت حَيْرانَ أمشي في أزقتها كأنني مصحفٌ في بيت زنديق(٢)

وكان لفظ زنديق يطلق أول الأمر على كل من يتأثر بالفرس في عاداتهم ويسرف في العبث والمجون، ثم صار يطلق بعد ذلك على كل من يتخذ عقائد المانوية شعاراً له، ويتمسك بعقيدة الثنوية، وعبادة إلهين اثنين، واتباع تعاليم ماني. ثم توسعوا في العصر العباسي في إطلاق لفظ الزندقة، فأصبح يطلق على من ينكر الألوهية، أو يتظاهر بالظرف.

ويرجع تاريخ الزندقة إلى أواخر العصر الأموي: فقد كان عبد الصمد بن عبد الأعلى مربي الخليفة الأموي الوليد بن يزيد بن عبد الملك ومؤدبه زنديقاً(٣) كما كان الجعد بن درهم، الذي ينسب إليه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية فيقال مروان الجعدي، زنديقاً.

---

(١) الغزالي: كتاب فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ص ٣٢.
(٢) انظر لفظ بغداد في معجم البلدان لياقوت.
(٣) الأغاني جـ ٦ ص ١٣٢.

وذكر ابن النديم[1] أن الجعد كان مؤدباً لمروان ولولده وأنه أدخله في الزندقة. وكان خالد بن عبد الله القسري، على الرغم من اتهامه بالزندقة، شديداً على الزنادقة، حتى إنه حبس الجعد بن درهم وقتله يوم عيد الأضحى، وجعله بدلاً من الأضحية بعد أن أعلن ذلك على المنبر في عهد هشام بن عبد الملك الأموي.

ولم تقو الزندقة على الظهور إلا بعد قيام الدولة العباسية، حيث انتشرت في الكوفة. وتكلم الجاحظ الذي عاش في عصر المأمون على كتب الزنادقة فوصفها لنا وصفاً دقيقاً. وإن ما ذكره عن هذه الكتب يطابق ما وصل إلينا عن كتب المانوية. وجاء أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٤٨ هـ) بعده فقال عن الزنادقة[2] إنهم كانوا يعرفون بالثنوية، وعبادة إلهين اثنين، واتباع تعاليم ماني.

ومن الأسباب التي أدت إلى انتشار الزندقة، أنها كانت وسطاً بين النصرانية والزرادشتية أتباع زرادشت أحد أنبياء الفرس (وأشهرهم زرادشت وماني ومزدك)، وأن ذلك كان سبباً في تأثير الزندقة في أهل هذه النحل. كما أن شعائرها كانت قريبة الشبه بشعائر الإسلام؛ فإن المانوي، كالمسلم، له عدد من الصلوات في اليوم والليلة (أربع أو سبع) كما كانت لهم طهارة قبل الصلاة كالوضوء عند المسلمين.

اضطهد بعض الخلفاء العباسيين أشياع هذه التعاليم، فتعقبهم المهدي، وأنشأ ديواناً عهد به إلى رجل أطلق عليه «صاحب الزنادقة»، ومهنته القضاء عليهم وعلى تعاليمهم. وكان المهدي يقتل على الظنة كل من رمي عنده بالزندقة. ولما وصل إلى حلب، تتبع الزنادقة وقتلهم، ومزق أجسادهم شر ممزق.

ويقول صاحب الأغاني[3] إن المهدي لما نزل البصرة، دفع بشاراً إلى حمدويه صاحب الزنادقة وقال له: اضربه ضرب التلف. وقال المسعودي[4] إن هذا الخليفة أسرف في قتل الملحدين، وإنه أنشأ هذا الديوان الذي عهد به إلى صاحب الزنادقة للبحث عن الزنادقة ومحاكمتهم، كما ألف هيئة علمية لمناظرتهم ووضع الكتب للرد عليهم. وليس أدل على اهتمام المهدي بأمر الزنادقة وعمله على التنكيل بهم والقضاء عليهم، من وصيته ابنه الذي اعتلى عرش الخلافة العباسية من بعده وتلقب بالهادي.

فقد ذكر المؤرخون أن المهدي قال لموسى يوماً، وقد قدم إليه زنديق فاستتابه، فأبى أن

---

(١) الفهرست ص ٤٧٢.
(٢) الأغاني جـ ٣ ص ٧٣: ٨٦.
(٣) جـ ٣ ص ٧٣.
(٤) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٠١.

يتوب، فضرب عنقه وأمر بصلبه: يا بني! إن صار لك هذا الأمر، فتجرد لهذه العصابة ـ يعني أصحاب ماني ـ فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن، كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجاً وتجوباً، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين: أحدهما النور والآخر الظلمة، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات، والاغتسال بالبول، وسرقة الأطفال من الطرق، لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور. فارفع فيها الخشب، وجرد فيها السيف، وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له، فإني رأيت جدك العباس في المنام قلدني سيفين وأمرني بقتل أصحاب الإثنين[١].

انتشرت الزندقة حتى سرت إلى بيوت الوزراء والشعراء، فيحدثنا ابن طباطبا[٢] أن الربيع بن يونس حاجب الخليفة المهدي اتهم ابن معاوية بن يسار الذي وزر للخليفة بسبب منافسته للوزير؛ فبعث إليه المهدي، «فسأله عن شيء من القرآن العزيز، فلم يعرف؛ فقال لأبيه، وكان حاضراً: ألم تخبرني أن ابنك يحفظ القرآن؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين، ولكن فارقني منذ مدة فنسيه، فقال له: قم فتقرب إلى الله بدمه، فقام أبو عبيد الله (معاوية بن يسار)، فعثر ووقع وارتعد، فقال العباس بن محمد عم المهدي: يا أمير المؤمنين! إن رأيت أن تعفي الشيخ من قتل ولده ويتولى ذلك غيره، فأمر المهدي بعض من كان حاضراً بقتله، فضرب عنقه»، ثم احتجب الوزير وانقطع بداره حتى مات سنة ١٧٠ هـ.

ولما ولي الهادي الخلافة اشتد على الزنادقة، فقتل منهم جماعة كبيرة. وقد أثر عنه أنه قال: لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها حتى لا أترك منها عيناً تطرف. ويقال إنه أمر أن يهيأ له ألف جذع فقال: هذا في شهر كذا ومات بعد شهر.

وصار القضاء على أتباع هذه الطائفة ديدن المهدي وشغله الشاغل، وجاء ابنه الهادي فسار في ذلك سيرة أبيه. كما عين الرشيد رجلاً عرف بصاحب الزنادقة؛ فكان يمتحن كل من يتهم بالزندقة ويعاقب من تثبت عليه بكل أنواع العقوبة. ولم تقتصر هذه العقوبة على الفرس وحدهم، بل كان هناك كثير من العرب، من أمثال صالح بن عبد القدوس، ومطيع بن إياس الشاعر الذي عاش في عهد المنصور والمهدي. وقد جيء بابنته أمام الرشيد، واعترفت بأن أباها لقنها تعاليم الزنادقة، وأنها قرأت كتاب المانوية[٣]. ويقول ابن النديم[٤] إن أكثر البرامكة كانوا زنادقة، حتى زعم بعض أن ذلك كان من أهم أسباب نكبتهم[٥]. وذكر ابن قتيبة[٦] أن الأصمعي رماهم بالكفر فقال:

---

(١) الطبري جـ ١٠ ص ٤٢.
(٢) الفخري ص ١٦٣ ـ ١٦٦.
(٣) الأغاني جـ ١٢ ص ٨٥.
(٤) الفهرست ص ٤٧٣.
(٥) الطبري جـ ١٠ ص ٣٢٠.
(٦) المعارف ص ١٤٨.

إذا ذُكر الشرك في مجلس أضاءت وجوه بني برمك
وإن تليت عندهم آية أتوا بالأحاديث عن مزدك

وكانت الزندقة في العصر العباسي الأول ضرباً من ضروب الظرف والتثقف؛ يدل على ذلك ما قاله أحد الشعراء المسلمين لصديق له يصفه بالظرف:

يا ابن زياد أبا جعفر أظهرت ديناً غير ما تخفي
مزندق الظاهر باللفظ في باطن إسلام فتى عف
لست بزنديق ولكنما أردتَ أن توسم بالظرف

ويكاد يصور لنا هذه الحالة بأجلى بيان أبو نواس في قوله يذم آبان بن عبد الحميد اللاحقي، وكان زنديقاً:

جالستُ يوماً أبانا لا در در أبان
ونحن حُضر رواق الـ أمير بالنهروان
حتى إذا ما صلاةُ الـ أولى دنتْ لأوان
فقام ثم بها ذو فصاحة وبيان
فكل ما قال قلنا إلى انقضاء الأذان
فقال: كيف شهدتم بذا بغير عيان؟
لا أشهد الدهر حتى تعاين العينان
فقلت سبحان ربي فقال: سبحان ماني
فقلت: موسى نجى المهيمن المنان
فقال ربُك ذو مقلة ولسان
أنفسه خلقته أم مَنْ؟ فقمت مكاني
وقمت أسحب ذيلي عن هازلٍ بالقران
عن كافر يتمارى بالكفر بالرحمن
يريد أن يتساوى بالعصبة المجان
بعجرد وعباد والوالبي الهجان
وابن الإياس الذي نا ح نخلتي حُلوان
وابن الخليل على ريحانة الندمان[١]

(١) الجاحظ: كتاب الحيوان جـ ٤ ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

بقيت الزندقة بعد عصر الرشيد حتى تسربت إلى بلاط المعتصم الذي كان قائده الأفشين يدين بعقائد المانوية. ولا تظن أنها زالت بموته، بل لا بد أنها سارت شوطاً بعيداً بعد تغلب الأتراك على الدولة العباسية.

وللزنادقة أبحاث في العلم والأدب والسياسة، إذ تأثر بها الأدباء والمفكرون، حتى إن طائفة كثيرة من أدباء هذا العصر ومفكريه بذلوا الجهد في مكافحة الزندقة والرد على الزنادقة؛ ومن ثم نشأ علم الكلام. وكان واصل بن عطاء أول من تصدى للرد عليهم وأنكر على بشار بن برد الزندقة والإلحاد لقوله:

إبليس أفضل من أبيكم آدم ... فتبينوا يا معشر الأشرار

النار عنصره وآدم طينة ... والطين لا يسمو سمو النار[1]

الأرض مظلمة والنار مشرقة ... والنار معبودة مذ كانت النار[2]

وبهذا البيت الأخير وجد واصل بن عطاء السبيل إلى زندقة بشار وتكفيره، فقال فيه: «أما لهذا الملحد الأعمى المشنف المكتنى بأبي معاذ من يقتله؟ أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية[3]، لبعثت إليه من يبعج بطنه ويقتله في جوف منزله»[4]. ويقال إن بشاراً كان كثير المدح لواصل بن عطاء قبل أن يدين بالرجعة ويكفر جميع الأئمة، فلما قال فيه واصل ما قال، هجاه بقوله:

ما لي أشايع غزالاً له عنق ... كنقنق الدو[5] إن ولى وإن مثلا

عنق الزرافة ما بالي وبالكم ... تكفرون رجالاً كفروا رجلا

وكان لأبي الهذيل العلاف مناظرات طويلة مع الزنادقة، وقد قيل إنه ناظر يوماً صالح بن عبد القدوس ـ وكان ثنوياً معروفاً ـ فقال: «على أي شيء تعزم يا صالح؟ قال استخير الله وأقول بالإثنين. فقال أبو الهذيل: فأيهما استخرت لا أم لك؟ مات لصالح ابن، فذهب إليه أبو الهذيل ومعه النظام، وهو غلام حدث، فرآه حزيناً فقال: لا أعرف لجزعك وجهاً، فقال:

= ذكر ابن النديم (الفهرست ص ٣٧٣) طائفة من الشعراء الزنادقة: منهم بشار بن برد، إسحاق بن خلف، وسلم الخاسر، وعلي بن الخليل، وعلي بن ثابت.

(١) أبو العلاء المعري: رسالة الغفران جـ ١ ص ١٧٦.

(٢) الأغاني جـ ٣ ص ٢٤.

(٣) هم الزنادقة الخناقون من المغيرية والمنصورية وقد ظهروا في أواخر الدولة الأموية.

(٤) الجاحظ: كتاب البيان والتبيين جـ ١ ص ١٠.

(٥) النقنق: الصوت، والدلو: المفازة.

أجزع لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك، قال: وما كتاب الشكوك؟ قال: كتاب وضعته، من قرأ فيه شك حتى يتوهم أنه لم يكن حتى يظن أنه قد كان؛ قال أبو الهذيل: فشك أنت في موت ابنك واعمل على أنه لم يمت، وإن كان قد مات، فشك أنه قد قرأ ذلك الكتاب وإن لم يقرأه».

وهكذا كانت مناظرات أبي الهذيل الذي حول عدداً كبيراً من المجوس الثنوية إلى الإسلام[١]. كذلك فعل عمرو بن عبيد بجرير بن حازم الأزدي السمني في البصرة[٢]. ثم ظهر النظام[٣]، وهو أحذق من تكلم في الإشراق[٤]، ولم يزل يشن الغارة على الثنوية وغيرهم من الفرق الأخرى.

ولا غرو فقد تصدى المتكلمون للرد على الزنادقة. ولكن كثيراً منهم ظل، على الرغم من إفحامه، متمسكاً بعقائد الزندقة. فقد ذكر ابن النديم[٥] عند كلامه على يزدان بخت، وهو الذي أحضره المأمون من الري بعد أن أمنه، فقطعه المتكلمون، فقال له المأمون: أسلم يا يزدان بخت: فلولا ما أعطيناك إياه من الأمان لكان لنا ولك شأن، فقال له يزدان بخت: نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول، ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم، فقال المأمون: أجل.

٢ ـ ظهور الحزب العلوي في ميدان السياسة واعتماده على السيف

(أ) ثورة محمد وإبراهيم في الحجاز والعراق:

لم ينس العلويين حقهم في الخلافة منذ مقتل الحسين بن علي في كربلاء، بل كان ذلك شغلهم الشاغل. فإنهم ما فتئوا في كل أدوار حياتهم يتذرعون إلى نيل حقهم بكل وسيلة، فإذا وجدوا الفرصة سانحة لأعمال القوة وتجريد السيف، اغتنموها ولم يدعوها تمر، وإذا أنسوا من أنفسهم ضعفاً استكانوا، مكتفين بلقب الإمامة وقرابتهم من النبي، وآثروا المعيشة الهادئة

---

(١) الخياط: الانتصار في الرد على ابن الراوندي ص ٨١.

(٢) طبقات المعتزلة ص ٢٨.

(٣) الأغاني جـ٣ ص ٢٤.

(٤) الانتصار في الرد على ابن الراوندي ص ٤٨ ـ ٥٠. انظر كتاب السيادة العربية (ترجمة المؤلف) ص ٧٥ ـ ٨٦.

(٥) كتاب الفهرست: ص ٤٧٣. وذكر ابن النديم اتهام المأمون بالزندقة فقال: «قرأت بخط بعض أهل المذهب أن المأمون كان منهم (أي من الزنادقة) وكذب في ذلك».

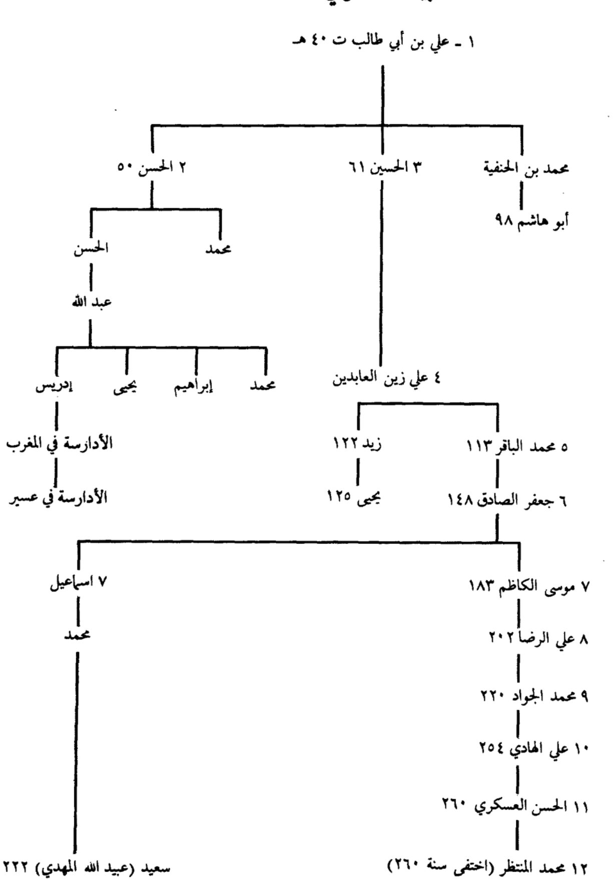
والاشتغال بالتجارة والانصراف إلى الدين على الاشتغال بالسياسة والحرب، اللهم إلا في أواخر أيام الدولة الأموية، حين قام زيد بن علي بن الحسين وابنه يحيى في عهد هشام بن عبد الملك.

نعم! عاش العلويون عيشة هادئة إلى أن ظهرت الدعوة لآل البيت على أيدي العباسيين، فلم يزجوا بأنفسهم فيها،. بل تركوا الأمور تجري في مجراها الطبيعي، حتى كونوا لهم عصبية قوية بالمصاهرة وكسبوا رضاء أهل المدينة، فأولوهم عطفهم واحترامهم وأظهروا استعدادهم الى الانضمام إليهم وإلى دعوتهم.

وكانت الدعوة في ذلك الوقت الى الرضا من آل محمد، وكان الناس لا يبالون كثيراً أن يتولى أمرهم علوي أو عباسي، وربما كان ذلك راجعاً إلى انشغالهم بحرب بني أمية وعملهم على القضاء على دعوتهم. ولما غلب الدعاة على الكوفة، وجدوا أبا العباس بينهم، وقد عهد اليه أخوه ابراهيم الإمام، ولم يجدوا بين آل علي من يستطيع أن يحولهم عن بني العباس، إذ لم يكن للعلويين في ذلك الوقت من القوة وكثرة الأنصار ما يساعدهم على الوصول إلى الخلافة، فلم يروا بداً من الهدوء حتى تتهيأ لهم الأحوال فيقومون بطلبها.

فلما ظفر العباسيون بالخلافة وأقاموا دولتهم على أنقاض دولة بني أمية، لم يرق ذلك في نظر العلويين، ولم تطب بذلك نفوسهم، على الرغم من أن الجميع من أولاد هاشم، وعلى الرغم من كونهم يداً واحدة على بني أمية، واشتراكهم في العمل على إزالة دولتهم، إذ أدركوا أن العباسيين قد خدعوهم واستأثروا بالخلافة دونهم مع أنهم أحق بها منهم، فنابذوهم العداء ونظروا إليهم كما كانوا ينظرون إلى الأمويين من قبل، فظلوا يناضلون ويكافحون ابتغاء الوصول إلى حقهم في الخلافة، وكانوا في هذا الدور يعملون في طي الخفاء بما مهروا فيه من فنون الدعوة والمكايد والخدع.

البيت العلوي



١ ـ ثورة محمد في الحجاز:

وأول الخارجين من العلويين في أيام العباسيين: محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وأخوه إبراهيم. واشتهر من أولاد الحسين في ذلك الوقت جعفر الصادق بن محمد الباقر إمام الشيعة الإمامية، ولكنه لم يحرك ساكناً، وأوصى أصحابه بالخلود إلى السكينة حتى تحين الفرصة للخروج.

وكان محمد النفس الزكية أول المتطلعين إلى الخلافة من العلويين، على الرغم مما بذله العباسيون في سبيل استرضائهم: فمن إجزال للعطايا، إلى لين في القول؛ غير أن ذلك لم يجدهم نفعاً، فقد كان محمد هذا يرى أنه أحق بالخلافة. هذا إلى دعواهم الأساسية من أنهم أولاد علي، وهو الوصي والإمام، كما ذكره محمد إلى أبي جعفر في المكاتبات التي دارت بينهما.

وقد وصف ابن طباطبا[1] مبايعة بني هاشم لمحمد النفس الزكية في أواخر أيام بني أمية. فقال إن بني هاشم من العلويين والعباسيين اجتمعوا في أواخر الدولة الأموية، وتذاكروا حالهم وما تعرضوا له من الاضطهاد، وما قد آل إليه أمر بني أمية من الاضطراب، وميل الناس اليهم ورغبتهم في أن تكون لهم دعوة. واتفقوا على أن يدعوا الناس سراً، ثم قالوا لا بد لنا من رئيس نبايعه، فاتفقوا على مبايعة محمد النفس الزكية بن عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وكان محمد من سادات بني هاشم ورجالهم فضلاً وشرفاً وعلماً. وقد حضر هذا المجلس أعيان بني هاشم علويهم وعباسيهم: فحضره من أعيان الطالبين جعفر الصادق وعبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وأبناه محمد النفس الزكية وإبراهيم قتيل باخمرى؛ ومن أعيان العباسيين السفاح والمنصور وغيرهما. فاتفق الجميع على مبايعة محمد النفس الزكية، إلا جعفر بن محمد الصادق الذي قال لأبيه عبد الله المحض إن ابنك لا ينالها (يعني الخلافة) ولن ينالها إلا صاحب القباء الأصفر (يعني أبا جعفر المنصور)[2]. وكان المنصور حينئذ يرتدي قباء أصفر. قال المنصور: فرتبت العمال في نفسي من تلك الساعة، ثم اتفقوا على مبايعة النفس الزكية فبايعوه.

امتنع محمد عن مبايعة السفاح، وكان أخوه أبو جعفر يأخذ الدعوة له في الحجاز. وكذلك تخلف هو وأخوه إبراهيم عن البيعة للمنصور. فلما ولي المنصور الخلافة، رأى في بقاء محمد وأخيه خطراً يهدد كيان دولته، فعمل على التخلص منهما كما تخلص من منافسيه

---

(١) الفخري ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

(٢) يظهر أن هذا من وضع الشيعة فإنهم ينسبون الى أئمتهم العلم بالغيب مبالغة في احترامهم.

عبد الله بن علي وأبي مسلم الخراساني من قبل. وقد بعث المنصور في طلب بني هاشم وسألهم عن مكان محمد، فهون بعض الأمر عليه بهذه الكلمات: «يا أمير المؤمنين! قد علم أنك قد عرفته يطلب هذا الشأن قبل اليوم، فهو يخافك على نفسه، وهو لا يريد لك خلافاً ولا يحب لك معصية»، وقال بعض آخر: والله ما آمن وثوبه عليك، فإنه الذي لا ينام عنك، فر رأيك(١).

ومهما يكن من شيء، فقد خاف المنصور على نفسه من العلويين، ورأى أنه لن تقوم لخلافته قائمة إلا إذا ظفر بمحمد وأخيه، وأعمل الحيل في سبيل الظفر بهما، «فاشترى أبو جعفر رقيقاً من رقيق الأعراب، ثم أعطى الرجل منهم البعير والرجل البعيرين. والرجل الذود(٢)، وفرقهم في طلب محمد في ظهر المدينة فكان الرجل منهم يرد الماء كالمار والضال فيفرون عنه ويتجسسون»(٣).

تعهد زياد بن عبد الله عامل المنصور على المدينة أن يجد في طلب محمد وأخيه إبراهيم. على أنه ما لبث أن تهاون في طلبهما، واتصل بمحمد سراً وساعده على الهرب من المدينة، فذهب إلى عدن ثم إلى السند فالكوفة، وعاد أخيراً إلى المدينة. وقد قسا المنصور على زياد فعزله وكبله بالحديد، وصادر أمواله وحبسه وولى مكانه محمد بن خالد القسري(٤).

وسرعان ما عزل المنصور محمد بن خالد، لأنه استبطأه في طلب محمد النفس الزكية، واتهمه بالتهاون والتفريط في ذلك، فأرسل رياح بن عثمان بن حيان عم مسلمة بن عقبة المري قائد الحرة في عهد يزيد بن معاوية. وقد قدم عثمان المدينة سنة ١٤١ هـ، واعتلى المنبر، وخطب الناس خطبة لا تختلف في معناها عن خطبة الحجاج بن يوسف في مسجد الكوفة، ننقل منها ما يلي: «يا أهل المدينة! أنا الأفعى بن الأفعى، عثمان بن حيان، وابن عم مسلمة بن عقبة، المبيد خضراءكم المفني رجالكم. والله لأدعنها بلقعاً لا ينبح فيها كلب»(٥).

بيد أن شعور أهل المدينة كان يتدفق حماسة نحو آل علي، فإن هذا الوالي لما فرغ من كلامه، انبرى له قوم منهم، وفاجؤوه بهذه الكلمات المملوءة حنقاً على العباسيين فقالوا: «يا ابن المجلود حدين، لتكفن أو لنكفينك عن أنفسنا». ولم يكن بد من أن يكتب هذا الوالي

---

(١) الطبري جـ ٩ ص ١٨٠.

(٢) الذود من الإبل ما بين الثلاث إلى العاشر، وهي مؤنثة لا واحد لها من لفظها وجمعها أذواد.

(٣) الطبري ج ٩ ص ١٨١.

(٤) الطبري جـ ٩ ص ١٨١ - ١٨٧.

(٥) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٤٦١.

إلى المنصور عن سوء طاعة أهل المدينة، فبعث إليه رسولاً من قبله يحمل كتابه إلى أهلها: «يا أهل المدينة! فإن واليكم كتب إليّ يذكر غشكم وخلافكم وسوء رأيكم واستمالتكم على بيعة أمير المؤمنين. وأمير المؤمنين يقسم بالله، لئن لم تنزعوا، ليبدلنكم بعد أمنكم خوفاً، وليقطعن البر والبحر عنكم، وليبعثن عليكم رجالاً غلاظ الأكباد بعاد الأرحام»[١].

على أن هذا الكتاب لم يكن له أثر في نفوس أهل المدينة، الذين أجمعوا على الخلاف وأبوا إلا خذلان العباسيين وتحويل الخلافة إلى العلويين، وصاحوا بعامل المنصور من كل جانب، ورموه بالحصى، واضطروه إلى الالتجاء إلى المقصورة، وإغلاقها عليه والهرب من شرهم.

ولم يكن رياح بالذي يتراجع عن تنفيذ سياسة المنصور مهما لاقى في سبيل ذلك من محن وخطوب. لذلك نراه يأتي عبد الله بن الحسن أبا محمد النفس الزكية وهو في محبسه، ويأخذه بالتهديد والوعيد إذا لم يأته بابنيه محمد وإبراهيم.

هنا بدأ اضطهاد العلويين الحقيقي، فقد حبس رياح إخوة عبد الله بن الحسن بن الحسن وغيرهم من ذوي قرباه، وأعلن سب ابنيه محمد النفس الزكية وإبراهيم ومن ناصرهما من أهل المدينة، فرماه هؤلاء بالحصى، وأنزلوه من على المنبر قهراً حتى استتر خوفاً على حياته.

وكان محمد في ذلك الوقت مستخفياً في المدينة، فلما سمع بما حل بأبيه وأعمامه وغيرهم من ذوي قرباه أتى أمه هنداً وقال لها: «قد حملت أبي وعمومتي ما لا طاقة لهم به، ولقد هممت أن أضع يدي في أيديهم فعسى أن يخلى عنهم».

ويحدثنا اليعقوبي[٢] والمسعودي[٣] أن هنداً ذهبت إلى السجن في زي رسول، وطلبت مقابلة عبد الله، ونقلت إليه قول ابنه محمد لتستطلع رأيه في هذا الأمر. بيد أن عبد الله لم يكن بالرجل الذي تلين قناته، بل كان يعتقد في أحقية ابنه بالخلافة دون المنصور والسفاح من قبله، وكان يرى مواصلة العمل وعدم التراخي والتهاون فقال لها: إني لأرجو أن يفتح الله به خيراً ويصبر حتى يأتي الله بالفرج، وقولي له فليدع إلى أمره وليجد فيه». ومضى محمد في نشر دعوته وبنو الحسن بن الحسن مسجونين في المدينة، إلى أن حج المنصور في سنة ١٤٤ هـ، فتلقاه رياح عامل المدينة بالربذة، فأمره الخليفة بالعودة إلى المدينة وإشخاص العلويين. فلما مثلوا بين يديه وهم مكبلون بالقيود والأغلال، سألهم عن مقام محمد بن عبد الله، فلم يظفر بشيء. فأخذ

---

(١) اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٥٠.

(٢) المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(٣) مروج الذهب جـ٢ ص ٢٤٠.

يعنفهم ونكل ببعضهم، ثم بعث بهم إلى الكوفة على أقتاب[١] بغير وطاء[٢]، وحبسوا في سرداب تحت الأرض لا يفرقون بين ضياء النهار وسواد الليل»[٣]، وغلا المنصور في التنكيل بهم حتى مات أكثرهم.

وفي سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) لم ير محمد بدأ من الظهور، بعد أن دعا إلى نفسه سراً وعاش في الخفاء دهراً. أخذ فيه أشياعه من أهل بيته وغيرهم يقيمون له الدعوة، حتى اعترف الناس بإمامته في مكة والمدينة وتلقب بأمير المؤمنين. وكان محمد بن عبد الله ـ كما وصفه ابن طباطبا[٤] ـ «من سادات بني هاشم ورجالهم فضلاً وشرفاً وعلماً». وكان متحلياً بالصفات الحميدة والخصال الكريمة، فذاع صيته وعظم احترام الناس له. ولم يكن يميل الى سفك الدماء والظلم، وإنما اشتهر بحبه للعفو، وكان زاهداً وناسكاً، لذلك سمي بالنفس الزكية وبالهدى.

ويبدو أن وقت ظهور محمد النفس الزكية لم يكن قد آن أوانه، وإنما اضطر إلى ذلك اضطراراً. دخل جماعة على محمد وقد اشتد بهم البلاء، فقالوا له: ما تنتظر بالخروج؟ ما نجد في هذه الأمة أحداً أشأم عليها منك. ما الذي يمنعك من أن تخرج وحدك؟ فلم ير بدأ من الخروج، وكان ذلك لليلتين بقيتا من شهر جمادى الآخرة من هذه السنة (١٤٥ هـ)[٥].

وقد ظن محمد أن الناس أجمعوا على نصرته، وأنهم كانوا شديدي الميل إليه. إذ كانوا يعتقدون فيه الفضل والشرف والرياسة. وساعده على ذلك إفتاء الإمام مالك بنقض بيعة المنصور، حيث قال أهل المدينة: «إنما بايعتم مكرهين، وليس على مكره يمين»[٦]، وتلك الكتب التي كانت تأتيه من الولايات الإسلامية بتأييد الناس له وانتظار خروجه. ولم يكن يدري أن هذه حيلة دبرها له المنصور على ألسنة قواده.

أرسل محمد النفس الزكية أخاه إبراهيم إلى البصرة لنشر دعوته. وقد أجمع المؤرخون على أن محمداً خرج في مائتين وخمسين رجلاً، وأنه توجه إلى السجن وأخرج من كان فيه، وأمر بحبس عامل المنصور في المدينة، ثم صعد المنبر وخطب الناس في هذه الخطبة[٧]: «أما بعد أيها

(١) جمع قتب (بفتح القاف) أو قتب (بضم القاف) وهو الإكاف أو الإكاف الصغير على قدر سنام البعير، وإكاف الحمار هو البردعة.

(٢) بالكسر ضد الغطاء أي بغير برادع ولا غطاء.

(٣) الطبري جـ ٩ ص ١٩٨ ـ ٢٠١.

(٤) الفخري ص ١٤٧.

(٥) المسعودي: التنبيه والإشراف ص ٣٤٠.

(٦) الطبري جـ ٩ ص ٢٠٦.

(٧) الطبري جـ ٩ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

الناس! فإنه كان من أمر هذا الطاغية عدو الله أبي جعفر ما لم يخف عليكم، من بنائه القبة الخضراء التي بناها، معانداً الله في ملكه، وتصغيراً للكعبة الحرام. وإنما أخذ الله فرعون حين قال أنا ربكم الأعلى. وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين، اللهم إنهم قد أحلوا حرامك وحرموا حلالك، وآمنوا من أخفت وأخافوا من آمنت. اللهم فأحصهم عدداً واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً. أيها الناس! إني والله ما خرجت من بين أظهركم، وأنتم عندي أهل قوة وشدة ولكن اخترتكم لنفسي، والله ما جئت هذه وفي الأرض مصر يعبد الله فيه إلا قد أخذ لي فيه البيعة».

وإن الناظر في هذه الخطبة ليقف على أن محمداً كان مدفوعاً في خروجه بعدة عوامل: فقد كان ينشد الخلافة ويرى أنه أحق الناس بها، كما كان يحقد على المنصور لاعتلائه عرش الخلافة، وتعذيبه أهل بيته حتى مات أكثرهم في السجن وساعد على ذلك موالاة الناس له، ولا سيما بعد أن أفتى مالك بجواز بيعته، واعتقاده أنه قد أصبح أقوى من المنصور.

٢ ـ ظهور إبراهيم في العراق:

ولما شدد المنصور في طلب إبراهيم بن عبد الله، خرج من المدينة قاصداً الكوفة وأيقن أن أهلها لن يترددوا في الخروج معه. واتصل نبأ قدومه بالمنصور، فوضع الأرصاد والجواسيس للقبض عليه والحيلولة دون هربه. ولم ير إبراهيم بداً من إعمال الحيلة. ويحدثنا اليعقوبي[١] «أن إبراهيم أرسل رجلاً من أشياعه يسمى سفيان بن يزيد إلى المنصور، فقال له: يا أمير المؤمنين! تؤمنني وأدلك على إبراهيم بعد أن أدفعه إليك: فقال: أنت آمن، وأين هو؟ قال بالبصرة، فوجه معي برجل تثق به، واحملني على دواب البريد، واكتب إلى عامل البصرة حتى أدله عليه فيقبض عليه، فوجه معه أبا سويد».

وخرج سفيان بن يزيد ومعه غلام عليه جبة من الصوف وعلى عنقه سفرة فيها طعام، وركب معه على خيل البريد أبو سويد وذلك الغلام. فلما وصل البريد إلى البصرة، قال سفيان لأبي سويد: انتظرني حتى أعرف خبر الرجل، ومضى ولم يعد وكان الغلام الذي عليه الجبة الصوف، هو إبراهيم بن عبدالله بن الحسن. ومن ذلك الوقت أخذ إبراهيم يبث الدعوة لأخيه محمد.

ظهر إبراهيم بن عبد الله في البصرة، واستولى على دار الإمارة[٢]، وهزم قوات الخليفة

(١) جـ ٢ ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤.

(٢) ذكر الطبري (جـ ٩ ص ٢٥٢) أن إبراهيم استولى على دار الإمارة وقبض على سفيان بن معاوية والي البصرة وحبسه. ثم انتقل إلى بيت المال فاستولى على ما فيه فنال كل رجل من جنده خمسين درهماً.

المنصور، وشد أزره فقهاء البصرة وغيرهم من ذوي الرأي والجاه، وانضوت المعتزلة والزيدية تحت لوائه، وعاونه الإمام أبو حنيفة وراسله سراً، كما عاون الإمام مالك أخاه محمداً بالمدينة. وبهذا كله تمكن إبراهيم من إدخال أهالي واسط والأهواز وفارس في دعوته. ولم يزل إبراهيم يوالي انتصاراته، حتى أتاه خبر مقتل أخيه محمد قبل عيد الفطر سنة ١٤٥هـ بثلاثة أيام، فصلى بالناس يوم العيد. وقد علا وجهه الحزن ودب إلى قلبه اليأس، ونعى أخاه للناس، فازدادوا حماسة في نصرة العلويين وبايعوا إبراهيم على إمارتهم.

وفي تلك السنة وضع المنصور أساس مدينة بغداد، وأخذ العمال في العمل حتى بلغ ارتفاع السور قامة. على أن خروج محمد بن عبدالله قد حال دون إتمام بناء قاعدة العباسيين الجديدة، وتحولت بذلك عناية المنصور إلى القضاء على العلويين وأظهر من الحنكة السياسية ما أتاح له النصر والظفر، مستعيناً في ذلك بذوي الرأي من رجالات دولته.

ولما ظهر محمد بن عبد الله بالمدينة، دعا المنصور أبا مسلم العقيلي، وكان شيخاً ذا رأي وتجربة، فقال له: أشر عليّ في خارجي خرج عليّ، قال: صف لي الرجل، قال: رجل من ولد فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ذو علم وزهد وورع، قال: فمن تبعه؟ قال: ولد علي وولد جعفر وعقيل، وولد عمر بن الخطاب، وولد الزبير وسائر قريش وأولاد الأنصار، قال له: صف لي البلد الذي قام به، قال: بلد ليس به زرع ولا ضرع ولا تجارة واسعة. ففكر ساعة ثم قال: اشحن يا أمير المؤمنين البصرة بالرجال، فقال المنصور في نفسه: قد خرف الرجل، أسأله عن خارجي خرج بالمدينة يقول لي اشحن البصرة بالرجال؟ فقال له: انصرف يا شيخ! ولم يمض غير قليل حتى ورد الخبر بأن إبراهيم بن عبدالله العلوي قد ظهر بالبصرة، فقال أبو جعفر المنصور: علي بالعقيلي. فلما دخل عليه أدناه ثم قال له: إني كنت قد شاورتك في خارجي خرج بالمدينة، فأشرت علي أن أشحن البصرة، أو كان عندك من البصرة علم؟ قال: لا، ولكن ذكرت لي خروج رجل إذا خرج مثله لم يتخلف عنه أحد. ثم ذكرت لي البلد الذي هو فيه فإذا هو ضيق لا يحتمل الجيوش، فقلت إنه رجل سيطلب غير موضعه. ففكرت في مصر فوجدتها مضبوطة، والشام والكوفة كذلك، وفكرت في البصرة فخفت عليها منه، فأشرت بشحنها فقال له المنصور: أحسنت، وقد خرج بها أخوه، فما الرأي في صاحب المدينة؟ قال: نرميه، بمثله إذا قال: أنا ابن رسول الله ﷺ، قال هذا. وأما ابن عم رسول الله ﷺ، فقال المنصور لعيسى بن موسى: «إما أن تخرج إليه وأقيم أنا أمدك بالجيوش، وإما أن تكفيني ما أخلف ورائي وأخرج أنا إليه، فقال عيسى: بل أقيك أنا يا أمير المؤمنين وأكون أنا الذي يخرج إليه. فأخرجه إليه من الكوفة في أربعة آلاف فارس وألفي راجل، وتبعه محمد بن قحطبة في جيش كثيف، فقاتلوا

محمداً النفس الزكية بالمدينة حتى قتل وهو ابن خمس وأربعين سنة[١].

تحقق المنصور من صدق نبوءة أبي مسلم العقيلي بعد أن علم بظهور إبراهيم بن عبد الله بالبصرة. ولم يكتف المنصور باستشارة العقيلي، إذ لم يقتنع بوجاهة رأيه أول الأمر، ففكر في استشارة غيره، فلجأ إلى رجل من أهل بيته، هو عمه عبد الله بن علي، وكان في حبسه، فأشار عليه بأن يغدق لجنده، وأن يستحث أهل النجدة والقوة من أهل الشام، ويسد منافذ الكوفة حتى يحول دون قيام الشيعة في وجهه، وأرسل إلى عبد الله: ارتحل الساعة حتى تأتي الكوفة، فاجثم على أكبادهم، فإنهم شيعة أهل هذا البيت وأنصارهم. ثم احففها بالمسالح؛ فمن خرج منها إلى وجه من الوجوه أو أتاها من وجه من الوجوه فاضرب عنقه، وابعث إلى سلم بن قتيبة ينحدر عليك (وكان بالري). واكتب إلى أهل الشام. فمرهم أن يحملوا إليك من أهل البأس والنجدة ما يحمل البريد، فأحسن جوائزهم ووجههم مع سلم، فقبل[٢].

على أن المنصور كان ـ على الرغم من هذا كله ـ متخوفاً من ناحية محمد بن عبد الله أشد الخوف. لذلك نراه يلجأ إلى انتهاج سبيل الحيلة مع محمد، فكتب إليه كتاباً بعث به مع رسول من قبله، رغبة منه في أن تفعل سياسة اللين والمسالمة ما لا تفعله سياسة العداء والحرب، تلك السياسة التي كان المنصور متخوفاً من سوء مغبتها أشد الخوف.

على أن هذا الكتاب لم يكن له أي أثر في نفس محمد بن عبد الله الذي لم يعبأ بهذه الوعود الخلابة، إذ كان يعتقد بأحقيته بالخلافة، وأن المنصور قد سلبه هذه الخلافة. لذلك نراه يرد على المنصور ويلومه، لتنكيله بأهل بيته وخروجه على أصحاب الحق من آل علي وسلبهم الخلافة، ويفخر عليه بانتمائه إلى الرسول وإلى علي وفاطمة، وما أصابوه من البلاء في نصرة الدين، ثم يوازن بينه وبين المنصور من جهة الأم، ويسخر من الأمان الذي أعطاه إياه، إذ لم يكن يثق به بعدما حنث في يمينه مع ابن هبيرة، ومع عمه عبدالله بن علي، ثم مع أبي مسلم الخراساني[٣].

ولما قرأ المنصور كتاب محمد، ثارت ثائرته وأبى إلا أن يجيبه بنفسه، فقد روى الطبري (جـ ٩ ص ٢٠٩) أن أبا أيوب المورياني قال للمنصور: «دعني أجبه عنها»، فقال له: «لا! بل أنا أجيبه عنها إذ تقارعنا على الأحساب، فدعني وإياه»[٤].

---

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.
(٢) انظر كتاب أبي جعفر المنصور إلى محمد النفس الزكية في الملحق السابع.
(٣) انظر رد محمد النفس الزكية على أبي جعفر المنصور في الملحق الثامن.
(٤) انظر رد أبي جعفر المنصور على محمد النفس الزكية في الملحق التاسع.

(ب) إخفاق هذه الثورة وأسبابه ـ تأثير مصر في ذلك:

ومهما يكن من شيء فقد أخطأ محمد بن عبد الله وأخوه إبراهيم في خروجهما على المنصور بعد أن بايعه عامة المسلمين، واعتمدا على العدد القليل من الأنصار، مع أن خصمهما قوي لا يتوانى عن إتيان كل أنواع المكايد والخدع للقضاء عليهما.

وقد ندب المنصور لحربهما عمه وولي عهده **عيسى** بن موسى بن محمد كما تقدم، وأراد أن يضرب عصفورين بحجر واحد كما يقولون. فإن قتل عيسى، حول الخلافة إلى ابنه المهدي. ذكر الطبري[1] أن المنصور قال بعد أن سار عيسى لحرب محمد بن عبدالله: «لا أبالي أيهما قتل صاحبه». ولما أمر أبو جعفر عيسى بن موسى بالشخوص قال: شاور عمومتك، فقال له: امض أيها الرجل. فوالله ما يراد غيري وغيرك، وما هو إلا أن تشخص أو أشخص.

سار عيسى إلى المدينة لحرب محمد، وكان قد تغلب عليها وعلى مكة. ولما وصل الجيش إلى فيد، أرسل عيسى إلى أهل المدينة كتباً يمنيهم فيها الأماني الطيبة، فكف كثير منهم عن مساعدة العلويين.

ويظهر أن النفس الزكية قد هاله عظم جيش عيسى بن موسى، وأحزنه تفرق أكثر رجاله عنه، وشك في قوته وتردد في منازلة خصمه، واستشار أصحابه فيما يصنع: أينازلهم في المدينة كما حارب الرسول الأحزاب؟ أم يخرج إلى بلد آخر تتاح له فيه الفرصة لمحاربتهم؟ وقد أشار عليه بعضهم بالخروج إلى مصر، لأن فيها من الاستعداد والقوة ما لم يكن في المدينة المنورة وقالوا له: «ألست تعلم أنك أقل بلاد الله فرساً وطعاماً وسلاحاً وأضعفها رجالاً؟ ألست تعلم أنك تقاتل أشد بلاد الله رجالاً وأكثرها مالاً وسلاحاً؟... فالرأي أن تسير بمن معك حتى تأتي مصر. فوالله لا يردك راد، فقاتل الرجل بمثل سلاحه وكراعه ورجاله وماله. فصاح حنين بن عبد الله: أعوذ بالله أن تخرج من المدينة، وحدثه أن النبي ﷺ قال: رأيتني في درع حصينة فأولتها المدينة»[2].

لم يـر محمـد بداً من النزول على رأي القائلين بالبقاء في المدينة على كره منه، وأخذ اليأس يدب إلى نفسه، ولا سيما بعد أن تبين له ضعف حماسة ذلك الفريق الذي كان يرى الخروج إلى مصر وتثاقله عن نصرته. فلم يطمئن إليهم، ورأى أن لا فائدة من الاعتماد عليهم، فخطبهم خطبة قال فيها: «يا أيها الناس؟ إنا قد جمعناكم للقتال، وأخذنا عليكم المناقب. وإن هذا العدو منكم قريب، وهو في عدد كثير، والنصر من الله والأمر بيده. وإنه قد بدا لي أن آذن لكم

---

(١) جـ ٩ ص ٢١٦.

(٢) الطبري جـ ٩ ص ٢١٨.

وأفرج عنكم المناقب، فمن أحب أن يقيم أقام، ومن أحب أن يظعن ظعن»(١).

وكانت هذه الخطبة مقياساً لمعرفة عدد المخلصين من أنصار محمد النفس الزكية الذين قاربوا مائة ألف أول الأمر. قد تسلل أكثرهم وبقي هو في شرذمة قليلة، قاتل بها عيسى بن موسى وجنده. وقتل محمد بن عبد الله واحتز رأسه، وأرسل إلى عيسى بن موسى؛ وكان ذلك يوم الاثنين ١٤ رمضان سنة ١٤٥ هـ(٢).

هكذا ختم أول فصول هذه المأساة. ولم يبق أمام المنصور إلا القضاء على منافسه الجديد إبراهيم بن عبد الله في العراق، وكان قد تغلب على البصرة والأهواز وفارس، وتفاقم خطره، وكثر عدد جنده حتى بلغ مائة ألف وعرف ذلك الخليفة المنصور، فاستعد لدرء خطر إبراهيم أتم استعداد، وشمر للذود عن حيض خلافته، وأبى أن يخلع ثيابه حتى يظفر بالعلويين في الحجاز والعراق، على حين تزوج إبراهيم بابنة عمر بن سلمة، «فكانت تأتيه في مصبغاتها وألوان ثيابها»(٣).

وسرعان ما أنفذ أبو جعفر المنصور عيسى بن موسى ـ وقد عجم عوده وخبر مهارته الحربية في حرب محمد بالحجاز ـ لمحاربة أخيه إبراهيم في العراق. ودارت رحى الحرب بين الفريقين في باخمرى بين الكوفة وواسط(٤) وانهزم حميد بن قحطبة أحد قواد عيسى، وكادت الهزيمة تلحق بجيش المنصور، لولا أن ثبت عيسى وأبى أن يتحول عن مكانه حتى يقتل أو يفتح الله عليه(٥) وما زال الفريقان يقتتلان، حتى انهزم جند إبراهيم وولى أكثرهم الإدبار. وثبت هو في عدد قليل من أنصاره، حتى أصيب بسهم في حلقه، فاحتز ابن قحطبة رأسه، وأرسله إلى عيسى بن موسى، فسجد شكراً لله، وذلك يوم الاثنين لخمس بقين من ذي القعدة سنة ١٤٥هـ. ولما رأى المنصور رأس إبراهيم تمثل بقول الشاعر:

فألقتْ عصاها واستقرتْ بها النوى ... كما قرَّ عيناً بالإيابِ المسافرُ(٦)

ولا شك أن هزيمة العلويين قد أحزنت أشياعهم المخلصين، فندبوا حظهم العاثر، وبكوا ما حل بهم من الكروب والويلات ورثاهم شعراؤهم أجمل رثاء.

---

(١) الطبري جـ ٩ ص ٢١٩.
(٢) المصدر نفسه جـ ٩ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.
(٣) المصدر نفسه جـ ٩ ص ٢٥٥.
(٤) أقرب إلى الكوفة منها واسط وتبعد عن الأولى بسبعة عشر فرسخاً.
(٥) الطبري جـ ٢ ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨. المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٣٨.
(٦) اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٥٦. الطبري جـ ٩ ص ٢٥٩.

ولم تقتصر هذه المصائب على محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم، فقد استعان محمد ببعض أهل بيته للدعوة إلى إمامته في الولايات الإسلامية. فبعث ابنه عبد الله إلى خراسان ثم إلى السند فقتل بها، وبعث ابنه الحسن إلى اليمن فحبس ومات في الحبس؛ وسار أخوه موسى إلى الجزيرة، ومضى أخوه يحيى إلى الري وطبرستان، وسار أخوه إدريس إلى بلاد المغرب، وبعث ابنه محمد إلى مصر. وقد ذكر الكندي[1] والمقريزي[2] أن محمداً أرسل ابنه علياً إلى مصر لبث الدعوة له، غير أن والي المنصور فيها استطاع أن يحبط أعماله وأعمال من ناصروه، وظل على ذلك حتى قدمت النعاة إلى مصر بخبر وفاة إبراهيم، فسقط في يد الشيعة، وانطفأت جذوة الثورة في هذه البلاد. ولا يعلم المؤرخون ما آل إليه أمر علي بن محمد.

أما وقد بينا كيف أخفق محمد وإبراهيم في هذه الثورة، وجب أن نبين العوامل التي أدت إلى ذلك.

ذكر المؤرخون أن جيش محمد في المدينة قارب مائة ألف، وكذلك جيش أخيه إبراهيم في العراق، وأن أنصارهما قد انتشروا في طول بلاد الدولة العباسية وعرضها، حتى إننا نسمع عنهم في الحجاز، وفي العراق، وفي خراسان ومصر وغيرها. فما سبب خذلانهم في وقت كانت الدولة العباسية لا تزال في دور إنشائها؟ وفي وقت كانت قلوب المسلمين ـ وخاصة قلوب أهل فارس ـ مع العلويين، حتى لقد ذهب كثير من أهل خراسان، كأبي سلمة الخلال وأبي مسلم الخراساني، ضحية هذه الميول والأهواء؟ لا شك أن هذا الإخفاق يرجع إلى عدة أسباب. ولا شك أيضاً أن المنصور يرجع إليه الفضل الأكبر في إحباط هذه الثورة، على الرغم من أن تنكيله بالعلويين أثار سخط المسلمين، وخاصة أهل خراسان، وعلى الرغم مما لاقته دعوة العلويين من عطف كثير من الشعوب الإسلامية وتأييد فقهاء ذلك العصر وعلى رأسهم الإمامان مالك وأبو حنيفة، وعلى الرغم أيضاً مما اتصف به محمد بن عبدالله من كريم الخصال والسجايا التي رفعته في أعين الناس ـ فإن ذلك كله لم يكن له من أثر أمام قوة شكيمة المنصور وشدة دهائه وعظم جيوشه وكثرة آلاته الحربية.

عرف المنصور ميل الخراسانيين إلى آل علي، فقد كتب إليه عامله على خراسان يخبره أن أهلها طلبوا شخوص محمد بن عبدالله لنصرته والخروج في وجه العباسيين تحت لوائه. ورأى المنصور بدهائه أن يداهن الخراسانيين ويثنيهم عن عزمهم، فأرسل إليهم رأس محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان أخي عبدالله بن الحسن بن الحسن لأمه فاطمة ابنة الحسين ابن علي، وأوهمهم أنها رأس محمد بن عبدالله.

---

(١) كتاب الولاة ص ١١٤.

(٢) خطط ٢ ص ٣٣٨.

ولا شك أن المنصور قد حال بحيلته هذه دون قيام الفتن والاضطرابات في خراسان التي كان أهلها يميلون إلى العلويين لما كان بينهم من صلة النسب، ولم يحمل الدولة أعباء مقاومة هذه الفتن وما يتبعها من فقد النفوس والأرواح.

ظن محمد النفس الزكية أن قلوب الناس معه، وأنه غدا بذلك أقوى من المنصور، وزاد في هذا الظن الكتب التي كانت ترد عليه من الولايات الإسلامية بتأييد أهلها له وانتظار خروجه، ولم يفطن إلى أن أكثر الناس لا يعلمون من أمر الدعوة العلوية شيئاً، وأن أبا جعفر هو الذي دبر هذه الحيلة على ألسنة قواده، وساعده على زهوه بنفسه إفتاء الإمام مالك ببطلان بيعة المنصور.

ولقد أخطأ محمد في اختيار مركزه الحربي، لأن المدينة؛ كما وصفها المسعودي[١]، «بلد ليس به زرع ولا ضرع ولا تجارة واسعة» كما أن مركزه الحربي لم يكن مركزاً طبيعياً للقتال. فلو حوصرت المدينة لما وصلت إليها الميرة ولمات أهلها جوعاً وعطشاً. هذا إلى أن النفس الزكية لم يقف على مبلغ استعداد أهل الحجاز لنصرته، حتى تفرقوا عنه في الساعة الأخيرة وتركوه في هذه الشرذمة القليلة حتى قتل، ولم يدر أن المنصور كان يستشير ذوي الرأي والحجا من رجالات دولته، ولم يدخر وسعاً في تنظيم جنده وإمداده بالسلاح وبالمؤن، وأنه أمر عليهم نخبة من مشهوري قواده مما كفل له النصر. أما جند العلويين، فإنه برغم كثرته، لم ينظم ولم يرتب على أحدث النظم في ذلك العصر. فترى إبراهيم يحارب عدوه بجيشه الذي قسمه إلى كراديس، يقدم منها إلى الحرب كردوساً، فإذا انهزم تقدم الآخر وهكذا. وأبى إبراهيم أن يقاتل جنده صفاً واحداً، فيكونوا كالبنيان المرصوص كقوله تعالى: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾[٢]، مع أنهم كانوا أكثر عدداً من جند عيسى بن موسى.

ثم لعل من أقوى أسباب إخفاق هذه الثورة عدم تنفيذ الخطة التي رسمها محمد وإبراهيم، وكانت تقضي بأن يخرجا في وقت واحد. ويرجع ذلك إلى تأخر خروج إبراهيم لمرضه، أو بسبب تعجل محمد للحرب ولو خرج هذان الأخوان في وقت واحد لما استطاع المنصور الوقوف أمامهما[٣].

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٣٧.

(٢) سورة الصف ٦١: ٤.

(٣) كان خروج محمد بالمدينة أول رجب سنة ١٤٥هـ، وكان ظهور إبراهيم بالبصرة في أول رمضان من هذه السنة ويظهر أن الاتفاق على زمن خروج محمد وإبراهيم كان أمراً متفقاً عليه بينهما، وأن محمداً تعجل الخروج بسبب حث الناس له.

(ج) موقف الحزب العلوي بعد ثورة محمد وإبراهيم

١ ـ ثورة الحسين بن علي:

من ذلك يتبين أن العلويين لم يعولوا في دعواهم في الخلافة على الكيد وحده، بل ظلوا ينازلون أعداءهم في ميدان القتال كلما سنحت لهم الفرص وتهيأت لهم الأحوال. وفي الحق أن أمر العلويين قد ضعف بعد مقتل محمد وإبراهيم ابني عبد الله؛ غير أنهم ما فتئوا يتطلعون للخلافة، على الرغم من أنهم أصبحوا من الضعف بحيث لم يعد الخليفة العباسي بحاجة إلى التخوف من ناحيتهم، وإنما اكتفى بأن وضع كبارهم تحت نظره ببغداد، وبمراقبة عامله على المدينة المنورة لهم. ومن ثم نراهم يلجأون إلى الاستكانة، ويتحينون الفرص لشن الغارة على الخلافة العباسية من جديد.

خرج العلويون في عهد الهادي بمكة والمدينة بزعامة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي، الذي دعا إلى نفسه بالمدينة في ذي القعدة سنة ١٦٩هـ. ويعزو المؤرخون خروج الحسين إلى سوء معاملة عامل الهادي على المدينة لهم، وبخاصة الحسن بن محمد النفس الزكية، واتهامهم بشرب النبيذ، وقبضه عليهم والتشهير بهم بين أهل المدينة، مما أثار سخط الشيعة وحفزهم على الانضمام إلى العلويين. ويظهر أن العلويين قد عزموا على الخروج قبل ذلك بزعامة الحسين، وأنهم اتخذوا من سوء معاملة عامل المدينة لهم، فرصة سانحة لإثارة شعور أهل المدينة نحو العباسيين. فقد سار الحسين بن علي إلى عامل المدينة، واعترض على التشهير بأهل بيته والحط من كرامتهم.

يقول ابن طباطبا[1]: كان الحسين بن علي من رجال بني هاشم وسادتهم وفضلائهم؛ وكان قد عزم على الخروج، واتفق معه جماعة من أعيان أهل بيته. ثم وقع من عامل المدينة تهضم لبعض آل علي عليه السلام، فثار آل أبي طالب بسبب ذلك، واجتمع إليهم ناس كثيرون وقصدوا دار الإمارة، فتحصن عنهم عاملها، فكسروا السجون وأخرجوا من فيها، وبويع الحسين بن علي.

أقام الحسين بعد خروجه من المدينة أحد عشر يوماً؛ ثم قصد مكة، فلقيه جيش العباسيين بفخ، وهو واد في طريق مكة يبعد عنها بستة أميال. وفي هذا المكان تقرر مصير العلويين، حيث قتل الحسين بن علي بعد أن أبلى بلاء شديداً، وقتل معه بعض أهل بيته.

---

(١) الفخري ص ١٧٢ ـ ١٧٣.

وكانت هذه الموقعة من الشدة بحيث قيل: لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ. وقد كثر شعر الشيعة في رثاء قتلاهم، ومن ذلك قول أحدهم:

فلأبكينَّ على الحسين بعَولةٍ وعلى الحسنْ
وعلى ابن عاتكة[1] الذي واروه ليس بذي كفن
تركوا بفخ غُدوة في غير منزلة الوطن
كانوا كِراماً هُيجُوا لا طائشين ولا جُبُن
غسلوا المذلة عنهم غَسْلَ الثياب من الدرن[2]
هُدِيَ العباد بجدهم فلهم على الناس المنن[3]

من ذلك يتضح أن العلويين لم يعدلوا عن اعتقادهم الراسخ أنهم أحق بالخلافة من أبناء عمهم العباسيين، وأنهم كانوا يثورون في وجه الدولة الحاكمة كلما سنحت لهم الفرص وتهيأت لهم الأسباب. ولم يكن العباسيون يتعمدون إساءة العلويين، وإنما كانوا ينكلون بهم لقيامهم في وجه النظام القائم كما يقولون. كما أنهم كانوا يرغبونهم بكل أنواع الترغيب، فلم يثنهم ذلك عن عزمهم في طلب الخلافة. ولم يكن العباسيون ينسون في كل أطوار علاقتهم مع العلويين أنهم أولاد عمهم، وأن لهم عليهم حرمة القرابة القريبة من الرسول، حتى في الوقت الذي كانوا يخرجون فيه عليهم ويعملون على استخلاص الخلافة منهم وتحويلها إليهم. وفي ذلك يقول المسعودي[4]: وأخذ لعبد الله بن الحسن بن علي وللحسين بن علي الأمان، فحبسا عند جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك، وقتلا بعد ذلك، فسخط الهادي على موسى بن عيسى بن محمد بن عبدالله بن العباس. لقتل الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن، وترك المصير به إليه ليحكم فيه بما يرى، وقبض أموال موسى (بن عيسى)، وأظهر الذين أتوا بالرأس الاستبشار، فبكى الهادي وزجرهم وقال: أتيتموني مستبشرين كأنكم أتيتموني برأس رجل من الترك أو الديلم. إنه رأس رجل من عترة رسول الله ﷺ، ألا إن أقل جزائكم عندي ألا أثيبكم شيئاً.

٢ - ثورة يحيى وإدريس إبني عبد الله:

وكانت موقعة فخ بعيدة الأثر؛ فقد هرب منها رجلان كانا شجا في حلق العباسيين: هما يحيى بن عبدالله صاحب الديلم، وأخوه إدريس الذي فر إلى بلاد المغرب.

---

(١) هو الحسين بن علي بن الحسن بن علي قتيل فخ.
(٢) الدرن: القذارة.
(٣) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٥٧.
(٤) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٥٧.

وقد أراد الرشيد أن يستميل إليه العلويين، ففك الحجز عن كثير ممن كان منهم ببغداد. ولكن أفراد البيت العلوي لم يعدلوا عن اعتقادهم الراسخ في استحقاق الخلافة ومناضلتهم في سبيل الوصول إليها. وقد فر يحيى وإدريس ابنا عبدالله بن الحسن العلوي من موقعة فخ، وكان لهما شأن في أيام الرشيد. أما يحيى فقد مضى إلى بلاد الديلم، فاعتقد أهلها أحقيته بالإمامة وبايعوه، وغدا أمره من الخطر بحيث هدد سلامة الدولة العباسية وأقلق بال الرشيد، وحداه على إعمال الحيلة للقضاء عليه وعلى دعوته، فولى الفضل بن يحيى البرمكي بلاد جرجان وطبرستان والري، وسيره في خمسين ألف جندي لمحاربة هذا العلوي.

ولكن الفضل أتى ـ بما عرف عنه من الذكاء ـ يحيى بن عبدالله من ناحية غير ناحية الحرب؛ فأخذ يحذره ويخوفه حيناً ويمنيه ويرعبه حيناً آخر، حتى مال إلى الصلح، على أن يكتب له الرشيد أماناً بخطه، وأن يشهد فيه القضاة والفقهاء وكبار بني هاشم. فأجابه الرشيد إلى ما كتب، وأرسل الأمان إليه مع الهدايا والتحف. ثم قدم يحيى مع الفضل، فقابله الرشيد بالحفاوة والاكرام، ولكنه لم يلبث أن حبسه في داره، واستفتى الفقهاء في نقض الأمان. ويحدثنا ابن طباطبا[١] أن منهم من أفتى بصحته، ومنهم أفتى ببطلانه فأبطله. على أن أموراً دعت الرشيد إلى نقض هذا الأمان والتخلص من يحيى، وذلك لسعاية رجل من أولاد الزبير بن العوام بيحيى بن عبدالله عند الرشيد، واتهامه بأنه أخذ يدعو إلى نفسه بعد إعطائه الأمان.

وأما إدريس بن عبد الله أخو يحيى، فقد فر إلى مصر سنة ١٧٢هـ، ثم توجه إلى بلاد المغرب الأقصى حيث التف حوله البربر. ورأى الرشيد أنه لا طاقة له بإخضاعه بحد السيف، ففكر في بلوغ غايته من طريق المكايد والخدع، فأرسل إليه رجلاً معروفاً بالدهاء، وأمره أن يتقرب إليه، وأن يظهر أمامه بمظهر السخط على العباسيين وعلى حكمهم. ولما وصل هذا الرجل إلى بلاد المغرب، تقرب من إدريس، ثم دس له السم فمات سنة ١٧٧هـ، دون أن يترك ولداً يؤول إليه الأمر من بعده. فانتظر أتباعه أمة له كانت حاملاً، فوضعت ولداً سموه إدريس وبايعوه بالخلافة. وإليه تنسب دولة الأدارسة ببلاد المغرب.

وقد زاد خطر الأدارسة بحيث أصبح الرشيد يخاف العلويين كافة ويعمل على استئصالهم. وكان من أثر ذلك أن أقطع الرشيد إبراهيم بن الأغلب بلاد إفريقية (تونس) ليقف في وجه الأدارسة كما سيأتي.

---

(١) الفخري ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

٣ ـ خروج محمد بن جعفر والقاسم بن إبراهيم:

خلف جعفر الصادق من الأولاد غير موسى وإسماعيل أبناء آخرين نخص بالذكر منهم: عبد الله الأفطح وإسحاق ومحمد الديباج. وقد ذكر أبو الحسن النوبختي(١)، أن فريقاً من الشيعة ذهب إلى الإمام بعد جعفر الصادق ابنه محمد (أخو موسى وإسحاق من أم ولد يقال لها حميدة)، وقالوا إن محمداً «دخل على ابنه جعفر يوماً وهو صبي، فعدا عليه، فكبا في قميصه ووقع لحر وجهه، فقام إليه جعفر وقبله ومسح التراب عن وجهه ووضعه على صدره، وقال: سمعت أبي يقول إذا ولد لك ولد يشبهني، فسمه باسمي، فهو شبيهي وشبيه رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى سنته، فجعل هؤلاء الإمامة في محمد بن جعفر وولده من بعده. وهذه الفرقة تسمى السمطية التي تنسب إلى رئيس لهم يقال له يحيى بن أبي السميط.

من هذا نرى أن الإمامة بعد جعفر الصادق لم تكن في موسى الكاظم ولا إسماعيل أو ابنه محمد، بل ذهب بعض الشيعة إلى أن محمد بن جعفر أحق أولاد جعفر بها، وذهب بعض آخر إلى إمامة أخيه عبد الله الأفطح. على أن إمامة عبد الله هذا لم يطل أمدها، لوفاته دون أن يخلف ولداً ذكراً، فعاد عامة أشياعه وقالوا بإمامة أخيه موسى الكاظم.

خرج محمد الديباج بن جعفر الصادق في خلافة المأمون. ويظهر أن خروجه قد حدث قبل أن يولي المأمون علياً الرضا بن موسى الكاظم عهده، أو أن ذلك كان سبب الاختلاف بين عقائد الشيعة الإمامية أصحاب موسى الكاظم، وبين أشياع أخيه محمد الديباج الذين لم تكن الصلة بينهم وبين أشياع محمد على شيء من الصفاء. ومن ثم كان خروجهم على المأمون خروجاً على من خالفوهم في العقيدة من أشياع موسى الكاظم.

وفي خلافة المأمون خرج محمد بن جعفر الصادق بمكة، وبويع بالخلافة، وتلقب بلقب أمير المؤمنين، وكان بعض أهل بيته قد حسن له ذلك حين رأى كثرة الاختلاف ببغداد وما بها من الفتن وخروج الخوارج. وكان محمد بن جعفر من شيوخ آل أبي طالب يقرأ عليه العلم. وقد روى عن أبيه، فأقام بمكة مدة، وكان الغالب على أمره ابنه وبعض بني عمه، فلم يحمد سيرتها، وأرسل المأمون إليهم عسكراً، فكانت الغلبة للمأمون، وظفر به وعفا عنه(٢).

ولم يكن خروج محمد الديباج كل ما قام به العلويون في وجه المأمون؛ فقد ذكر لنا المؤرخون أن أبا السرايا خرج في أيامه وقويت شوكته ودعا الى بعض أهل البيت، وأن الحسن بن سهل قاتل أشياع العلويين وغلبهم على أمرهم وقتل أبا السرايا. كما خرج على

---

(١) كتاب فرق الشيعة ص ٦٤ ـ ٦٥، ٧٢، ٩٠.

(٢) الفخري ص ٢٠١.

المأمون رجل من العلويين من بيت الحسن بن علي، هو القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل، بعد أن غاب في الخفاء دهراً طويلاً.

ولقد أورد لنا يحيى بن الحسين المتوفى سنة ٣٦٩ هـ (٩٧١) في كتابه «الإفادة في تاريخ الأئمة السادة على مذهب الزيدية»، أن القاسم بن ابراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب استتر في مصر في خلافة المأمون العباسي، وأنه دعا إلى نفسه حين بلغه موت أخيه محمد. وقد بث دعاته وهو على حال استتاره زهاء عشر سنين، فبايعه أهل مكة والمدينة والكوفة والري وقزوين وطبرستان وبلاد الديلم، وكاتبه أهل البصرة والأهواز وحثوه على الظهور؛ فاتصل خبره بمسامع الخليفة، فأمر بالتشدد في طلبه. فلم يطب للقاسم المقام في مصر، فعاد الى الحجاز ومنها الى تهامة، ولحق به جماعة من بني عمه وغيرهم، فبثوا الدعوة باسمه في بلخ[١] والطالقان[٢] ومرو وغيرها؛ فذاع خبره، وبعث الخليفة إلى بلاد اليمن جنداً يطلبونه، فاختفى في حي من البدو. ولما ولي المعتصم الخلافة شدد في طلب القاسم، وبعث بغا الكبير وآشناس في جند كثيف، فانتقض عليه أمره، وذلك سنة ٢٢٠ هـ.

وقد روى هذا المؤرخ عن خادم القاسم بمصر تلك الحكاية قال: «ضاقت بالإمام القاسم المسالك واشتد الطلب، ونحن مختفون معه خلف حانوت إسكاف.. فنودي نداء يبلغنا صوته: برئت الذمة ممن آوى القاسم بن إبراهيم وممن لا يدل عليه؛ ومن دل عليه فله ألف دينار ومن البز كذا وكذا، والإسكاف مطرق يسمع ويعمل ولا يرفع صوته. فلما جاءنا قلنا له: أما ارتعت؟ قال: من لي؟ ما ارتياعي منهم ولو قرضت بالمقاريض بعد إرضاء رسول الله ﷺ حتى في وقايتي لولده بنفسي؟»[٣].

---

(١) مدينة مشهورة بخراسان ومن أجل مدائنها وأكثرها خيراً. افتتحها الأحنف بن قيس من قبل عبد الله بن عامر في خلافة عثمان بن عفان، وإليها ينتسب كثيرون من أهل الأدب وعلماء الكلام والحفاظ.

(٢) الطالقان (بفتح اللام) بلدتان: إحداهما بخراسان بين مروالروذ وبلخ، بينها وبين مروالروذ ثلاث مراحل. ذكر الاصطخري أن طالقان أكبر مدن طخارستان، وتقع في مستوى من الأرض يجري فيها نهر كبير، وتبلغ في الاتساع ثلث ما تبلغه مدينة بلخ، والأخرى بلدة وكورة بين قزوين وأبهر (مدينة مشهورة بين قزوين وزنجان وهمذان من نواحي الجبل، والفرس يسمونها أوهر، فتحت في أيام عثمان بن عفان، وبينها وبين زنجان خمسة عشر فرسخاً، وبينها وبين قزوين اثنا عشر فرسخاً)، وبها عدة قرى تعرف كلها بهذا الاسم.

(٣) ليدن مخطوط رقم ١٩٧٤، ورقة ٣٤ أ - ٣٥ ب. انظر كتاب: تاريخ الدولة الفاطمية للمؤلف ص ٣٤ - ٣٥.

٣ ـ الجهاد النظري بين الحزبين العلوي والعباسي

(أ) في الشعر

١ ـ الشعراء العلويون:

ذكرنا أن العلويين لم ينسوا حقهم في الخلافة منذ مقتل الحسين بن علي، وأنهم عملوا للوصول الى حقهم بكل وسيلة ممكنة. فإذا وجدوا الفرصة سانحة لأعمال القوة اغتنموها ولم يدعوها تمر، وإذا أنسوا من أنفسهم ضعفاً استكانوا مكتفين بلقب الإمامة وقرابتهم من الرسول. ولما ظهرت الدعوة لآل البيت في أواخر الدولة الأموية تركوا الأمور تجري في مجراها الطبيعي. فلما ظفر العباسيون بالخلافة، أدرك العلويون أنهم قد خدعوهم واستأثروا بالخلافة دونهم مع أنهم أحق بها منهم فنابذوا العباسيين العداء، وظلوا يناضلونهم ابتغاء الوصول الى الخلافة بالسيف تارة، وبالمكيدة والدهاء تارة، وبالكلام والشعر تارة أخرى ومن ثم قامت هذه الثورات التي أشعل نيرانها العلويون: كثورات محمد النفس الزكية وأخيه ابراهيم في عهد المنصور، وثورة الحسين بن علي بن الحسن في عهد الهادي، وثورة يحيى وإدريس ابني عبد الله بن الحسن في عهد الرشيد، وثورة محمد بن الديباج بن جعفر الصادق في عهد المأمون.

ولم يكن انتصار هؤلاء الأشياع للعلويين راجعاً إلى السيف وحده، بل عمد كثير من الشعراء الموالين لهم إلى نشر دعوتهم وتأييد حقهم في الخلافة. وكان طبيعياً أن يناصر العباسيين جماعة من الشعراء ينتصرون لهم ويقارعون شعراء أعدائهم العلويين، مدفوعين في ذلك بالعطايا والأموال، أو لاعتقادهم بأحقية العباسيين بهذا الأمر دون أبناء عمهم العلويين. ويمكن أن تعتبر هذه المساجلات الشعرية ناحية من نواحي الجهاد النظري الذي قام بين الحزبين العلوي، والعباسي. وثمة نواح أخرى من هذه المساجلات، نراها تظهر ظهوراً جلياً في العلم والكلام بنوع خاص، كما تظهر في السياسة، حتى إن كثيرين من الوزراء كانوا ينغمسون في هذا الصراع بموالاتهم للعلويين، فيعرضون أنفسهم لسخط العباسيين وكراهتهم.

والآن نعرض الكلام على الجهاد النظري بين العلويين والعباسيين كما يظهر من ثنايا أقوال الشعراء الموالين لكل من هذين الحزبين: فمن شعراء العلويين كُثَيِّر عزة (ت ١٠٥ هـ)، والكميت (ت ١٢٦ هـ) في العصر الأموي، والسيد الحميري (١٧٣ هـ) ودعبل بن علي الخزاعي في العصر العباسي الأول.

كان إسماعيل بن محمد المعروف بالسيد الحميري يعتنق مذهب الكيسانية، الذي يعتقد

أنصاره أن محمد بن الحنفية بن علي ورث الإمامة عن أبيه علي مباشرة، أو عن طريق أخويه الحسن والحسين، كما يعتقد برجعته. ويقول السيد الحميري[1]:

سنينَ وأشهراً ويُرى برضْوى ... بشعبٍ بين أنمارٍ وأُسْد
مقيم بين آرام وعين ... وحَفانٍ تروحُ خلال رُبْد
تراعيها السباع وليس منها ... ملاقيهنَّ مُفترساً بحد
أمِنَّ به الردى فرتعن طوراً ... بلا خوفٍ لدى مرعى وورد

وإن هذه الأبيات لتمثل عقيدة السيد الحميري في محمد بن الحنفية، من أنه قام بشعب من شعاب رضوى سنين وأشهراً كثيرة، ومن حوله الأنمار والآساد والظباء وبقر الوحش وأنواع الشاء، من غير أن يعدو عليها أسد بظفر أو بناب لاحترامها إياه وتقديسها له.

ويظهر أن السيد الحميري قد غلا في ميله إلى العلويين، فكان يعبر عن هذا الميل وذلك الإخلاص بقصائد يبكي فيها ما حل بهم من عنت واضطهاد وقتل. فمن ذلك هذه القصيدة التي نظمها في قبر الحسين بن علي:

أمررْ على جَدَث الحـ ... ـسين فقل لأعْظُمه الزكيه
آأعظماً لا زلتِ من ... وطفاء ساكبة رويه
وإذا مررتَ بقبره ... فأطلْ به وقفِ المطيهْ
وابْكِ المطهر للمطهرِ ... والمطهرة النقيه
كبكاءِ مُعْولةٍ أتتْ ... يوماً لواحدها المنيَّه

على أن إسراف السيد الحميري في مدح العلويين وذم السنيين، وبخاصة كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان، قد حمل الناس على نبذ شعره لما تضمنه من سب أصحاب رسول الله والطعن فيهم. يؤيد ذلك هذه القصيدة التي بعث بها إلى الخليفة المهدي يطلب إليه أن يحرم آل أبي بكر وعمر ما يستحقونه من مال الدولة، ومن هذه القصيدة:

قلْ لابن عباسٍ سَميِّ محمدٍ ... لا تُعطينَّ إلى عَدِيٍّ درهما
إحرم بني تيم بن مرةَ إنهم ... شرُّ البرية آخراً ومقدما
إن تُعْطهم لن يشكروا لك نعمةً ... ويكافئون بأن تُذم وتُشتما

ومما يدل على مبلغ تشيع السيد الحميري وحبه لعلي بن أبي طالب وأولاده من بعده، هذه القصيدة التي نظمها في يوم غدير خم، حيث نزل الرسول وآخى علي بن أبي طالب، وقد أثر

(١) أنظر كتاب تاريخ الدولة الفاطمية للمؤلف ص ١٨ ـ ١٩.

عنه أنه قال: «علي مني بمنزلة هارون من موسى؛ اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله». ومن ذلك أصبح يوم غدير خم عيداً يعنى به الشيعيون عناية عظيمة. ويروي الشيعيون هذا الحديث عن النبي ويقولون انه قال في السنة العاشرة للهجرة، وهو العام المعروف بحجة الوداع[1]. ويعتقد الشيعة أن علي بن أبي طالب أحق بالخلافة بعد الرسول ﷺ، وأن أبا بكر وعمر وعثمان اغتصبوا الخلافة منه. ومن هذه القصيدة:

من كنت مولاه فهذا له   مولى فلم يرضوا ولم يقنعوا
وظلَّ قومٌ غاظهم قولُه   كأنما آنافُهم تجدُع
حتى إذا واروه في لحده   وانصرفوا عن دفنه ضيعوا[2]

وكان السيد الحميري مع إسرافه في حب العلويين لا يتورع عن مدح خصومهم العباسيين، مدفوعاً في ذلك بخوفه من بطش العباسيين ورغبته في الحصول على أموالهم. من ذلك قوله يمدح أبا العباس السفاح:

دونكموها يا بني هاشم   فجددوا من عهدها الدارسا
دونكموها فالبسوا تاجها   لا تعدموا منكم له لابسا
لو خَيَّر المنبر فرسانه   ما اختار إلا منكم فارسا
قد ساسها قبلكم ساسةٌ   لم يتركوا رطباً ولا يابسا

ويعتبر دعبل بن علي الخزاعي من أكثر الشعراء العلويين تعصباً للمذهب الشيعي وتفانياً في حب علي وأولاده، حتى لقد وقف من العباسيين موقفاً عدائياً ظاهراً، فأخذ يهجو خلفاءهم ووزراءهم وولاتهم وكبار رجال دولتهم. فلم يسلم من هجائه الرشيد والمأمون والمعتصم، ومدح العلويين بقصائد رائعة أشاد فيها بمناقبهم. وقد عبر عن حزنه لقتل العلويين وتشتت أشلائهم في مختلف الأقطار الإسلامية، في قصيدة طويلة أنشدها بعد أن حلت الهزيمة بمحمد النفس الزكية وأخيه ابراهيم. ومما جاء في هذه القصيدة:

ذكرتُ محلَّ الربع[3] من عرفات   فأسبلتُ دمع العين بالعبرات
مدارسُ آياتٍ خلتْ من تِلاوة   ومنزل وحي مقفر العرصات[4]
ديارٌ عفاها جور كل منابذ   ولم تعف بالأيام والسنوات

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٣٦.

(٢) الأغاني جـ ٧ ص ٣.

(٣) الربع: بتشديد الراء مطلق مكان.

(٤) عرصة الدار: ساحتها وهي البقعة الواسعة التي ليس فيها بناء.

قبورٌ بكوفان وأخرى بطيبة   وأخرى بفخ ما لها صلوات
وأخرى بأرض الجوزان محلها   وقبر ببا خمرى لدى العربات
هم أهل ميراث النبي إذا اعتزوا   وهم خير قادات وخير حماة[١]

وقد ذكر الطبري[٢] أن دعبل بن علي الخزاعي هجا الخلفاء العباسيين كما تقدم. ولم يسلم من هجائه كبار رجال الدولة وأمراؤها وخواصها، كما هجا الخليفة المعتصم الذي هدده بقتله، فخاف وهرب إلى مصر ثم إلى بلاد المغرب. وهاك تلك الأبيات التي هجاه بها:

ملوك بني العباس في الكتب سبعة   ولم يأتنا في ثامن منهم الكتب
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعةٌ   عداة ثووا فيها وثامنهم كلب
لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم   وصيف وأشناس وقد عظم الخطب
وهمك تركي عليه مهابة   فأنت له أم وأنت له أب[٣]

ولم يسلم الواثق من هجاء دعبل، فقد ذكر الخطيب البغدادي أن[٤] الواثق لما ولي الخلافة كتب دعبل بن علي الخزاعي أبياتاً، ثم أتى بها الحاجب فقال: أبلغ أمير المؤمنين السلام، وقل: مديح لدعبل: فأخذ الحاجب الطومار، فأدخله إلى الواثق ففضه، فإذا فيه:

الحمد لله لا صبرٌ ولا جلدٌ   ولا رقاد إذا أهل الهوى رقدوا
خليفة مات لم يحزن له أحد   وآخر قام لم يفرح به أحد
فمر هذا، ومر الشؤم يتبعه   وقام هذا، وقام الويل والنكد

فطلب فلم يوجد».

٢ ـ الشعراء العباسيون:

وكان مروان بن أبي حفصة يخالف السيد الحميري ودعبلاً في تشيعهما للعلويين. وكان من أنصار الأمويين، حتى قربه إليه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وأصبح من خاصته المقربين إليه، وشهد معه جميع مواقعه السياسية والحربية، كما كان ساعده الأيمن في الأعمال التي تولاها قبل وصوله إلى عرش الخلافة وبعده.

---

(١) محمد بن النعمان: مكتبة الجامعة بليدن، مخطوط رقم ١٦٤٧ ورقة ٢٢٧ ب ـ ٢٢٩ ب.
(٢) جـ ١٠ ص ٣٠١.
(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.
(٤) تاريخ بغداد: جـ ١٤ ص ١٦ ـ ١٧.

على أن مروان كان كثير التلون والتذبذب في ميوله وأهوائه، فلم يستمر على ولائه للأمويين بعد أن دالت دولتهم وقامت على أنقاضها دولة العباسيين، وسرعان ما غدا من شعرائهم البارزين يؤيد أحقيتهم في الخلافة، وناوأ العلويين وشعراءهم في مسألة الخلافة حتى قال:

يا ابن الذي ورث النبي محمداً ... دون الأقارب من ذوي الأرحام
الوحي بين بني البنات وبينكم ... قطع الخصام فلات حين خصام
ما للنساء مع الرجال فريضة ... نزلت بذلك سورة الأنعام
أنى يكون وليس ذاك بكائن ... لبني البنات وراثة الأعمام؟

وقد أثار هذا البيت الأخير حفيظة الشيعة، فلعنوا مروان بن أبي حفصة وردوا على قصيدته بقصيدة أخرى على وزنها ورويها، ثم قتلوه، ومما جاء فيها:

لِمْ لا يكونُ وإن ذاك لكائن ... لبني البنات وراثة الأعمام؟
للبنتِ نصف كامل من ماله ... والعم متروك بغير سهام
ما للطليق وللتراث وإنما ... صلى الطليق مخافة الصمصام[1]

وكان مروان بن أبي حفصة شاعر بني العباس في عهد المهدي والهادي والرشيد، قد أنشد في حضرة المهدي قصيدة أشاد فيها بفضائل العباسيين وأحقيتهم بالخلافة وذم العلويين. فمن ذلك قوله:

هل تطمسون من السما نجومَها ... بأكفكم أو تسترون هلالها؟
أو تجحدون مقالة عن ربكم ... جبريل بلغها النبي فقالها؟
شهدت من الأنفال آخر آية ... بتراثهم فأردتم إبطالها

ولكن مروان بن أبي حفصة كان ـ كما ذكرنا ـ نفعياً يسير في ركاب صاحب السلطان ويشيد بمديحه ويهجو أعداءه في سبيل الحصول على المال. ولا عجب فهو القائل في مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية:

مروان يا ابن محمد أنت الذي ... زيدت به شرفاً بنو مروان

---

(١) يريدون العباس بن عبد المطلب، لقبه الطليق لأنه كان مع المشركين يوم بدر ثم افتدى نفسه بعد أن أسره المسلمون.

(ب) في العلم والكلام بنوع خاص

١ ـ الشيعة:

كان لكل من العلويين والعباسيين وجهة نظر تذرع بها لتأييد دعواه في الخلافة؛ فأما وجهة نظر العلويين فترجع إلى ما كانوا يعتقدون من أنهم أحق بالخلافة من أبناء عمهم العباس، الذي اعترف بأحقية علي بن أبي طالب، وامتنع هو وكثير من علية العرب عن مبايعة أبي بكر واتحدوا مع علي(١)، وحذا أولاد العباس في ذلك حذو أبيهم، حتى جاء أبو هاشم بن محمد بن الحنفية، فنزل عن حقه في الإمامة إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس. أضف إلى ذلك أن محمداً النفس الزكية كان قد بويع في أواخر الدولة الأموية. في ذلك الاجتماع الذي حضره رجالات بني هاشم: فحضره من العلويين جعفر الصادق وعبد الله بن الحسن وأبناه محمد النفس الزكية وإبراهيم، ومن العباسيين السفاح والمنصور وغيرهما، واتفقوا جميعاً على أن يدعوا الناس سراً، وبايعوا النفس الزكية إلا جعفراً الصادق. هذا إلى ما يعتقده العلويون من أنهم وحدهم أحق المسلمين بالخلافة، وأن أبا بكر وعمر وعثمان، وكذا الخلفاء من بني أمية وبني العباس انتزعوا حق الإمامة من علي، الذي يعتقد أشياعه أن الإمامة في بيته، لأنه كان أول من دخل في الإسلام من الصبيان، ولما له من البلاء الحسن في نصرة هذا الدين، ولأنه ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة.

فهل نقض العباسيون هذه البيعة فنازعوا العلويين حقهم في الخلافة؟ أو أنهم كانوا يرون أنهم أصحاب هذا الحق وأولى به من بني عمهم؟ إن كتاب المنصور إلى محمد النفس الزكية لا يترك مجالاً للشك في أن العباسيين قد أصبحوا منذ أواخر الدولة الأموية ـ على الأقل ـ يعتقدون أنهم وحدهم أحق بهذا الأمر دون أبناء أعمامهم العلويين لأنهم أولاد فاطمة بنت الرسول، وهي «لا تحوز الميراث، ولا ترث الولاية، ولا تجوز لها الإمامة»، على حين أن العباسيين أولاد العباس عم رسول الله ﷺ، والوارث له يوم وفاته(٢)، ولأن العباس كانت إليه ولاية زمزم

---

(١) ابن هشام (طبعة أوروبا) جـ ٢ ص ١٠١٣.

(٢) السر في أن الشيعة يورثون البنت كل المال ويجعلونها حاجبة للأعمام أمران: الأول، أن أبا بكر أخذ فدك «قرية بخيبر» من يد فاطمة، وكان رسول الله ﷺ قد أعطاها تلك الضيعة للارتفاق بها، فادعت أنها ترث ذلك، فاحتج أبو بكر بأن الأنبياء لا يورثون، واستدل بحديث سمعه من رسول الله ﷺ في ذلك الثاني، أن بني العباس يدعون أيلولة ميراث الرسول من إمامة المسلمين لهم، لأنه عم رسول الله ﷺ، والوارث له يوم وفاته، لأن ابنته فاطمة لا تحوز كل المال، وعلي أنزل من العباس، فقالوا هم إنها تحوز كل الميراث ليمنعوا بني العباس من دعواهم. وإلى ذلك يشير شاعر بني العباس بقوله:

وسقاية الحجيج في الجاهلية دون إخوته، حتى نازعه فيها علي بن أبي طالب فقضى عمر للعباس، فلم يزل العباسيون يلونها في الجاهلية والإسلام.

ويستند العباسيون في دعواهم إلى مذهب أهل السنة الذي يورث العم دون البنت أو ابن العم، كما يتبين ذلك من قول المنصور في نهاية كتابه إلى محمد بن عبد الله يفخر عليه بشرف العباسيين على العلويين: «ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد النبي ﷺ غيره (أي العباس)؛ فكان وارثه من عمومته. ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بني هاشم، فلم ينله إلا ولده: فالسقاية سقايته، وميراث النبي له، والخلافة في ولده. فلم يبق شرف ولا فضل، ولا إسلام في دنيا ولا آخرة، إلا والعباس وارثه وموّرثه... فكيف تفخر علينا وقد علناكم في الكفر، وفديناكم من الأسر، وحزنا عليكم مكارم الآباء، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء، وطلبنا بثأركم، فأدركنا منه ما عجزتم عنه، ولم تدركوا لأنفسكم؟»[١].

من هذا نرى أن العباسيين إنما تحولوا إلى جانب العلويين، ليطلبوا بثأرهم ويتخذوهم تكأة للوصول إلى الخلافة: فظن العلويون أن العباسيين فضلوا علياً على العباس. هذا إلى ما قرره المنصور من أن العلويين لم يعد لهم حق في الخلافة بعد أن نزل عنها الحسن بن علي لمعاوية بن أبي سفيان على الأقل.

وقد رأى المنصور ضرورة محاربة محمد وأخيه إبراهيم والقضاء عليهما باعتبارهما خارجين على الدولة، لأنه أصبح بحكم البيعة له خليفة المسلمين، فلا ينبغي له أن يفرط في مقاومة العلويين، الذين كانوا يعملون على قلب نظام الدولة العباسية وتحويل الخلافة إليهم بعد أن جاهد العباسيون في سبيل الوصول إليها. وكان العباسيون يرون أنهم أولو الأمر وأحق من بني عمهم بالخلافة. على أن من العدل والإنصاف أن نقول، إن العباسيين كان يجدر بهم أن يجدوا سبيلاً للتوفيق بين وجهة نظرهم ووجهة نظر آل بيت علي، لإزالة أسباب الخلاف، وإعطاء العلويين نصيبهم من هذا الأمر الذي كانوا يرون أنهم أحق به من غيرهم، ولا سيما بعد أن قعد العباسيون عن المطالبة بدعواهم في الخلافة، منذ انتقل الرسول إلى جوار ربه إلى أن أشرفت الدولة الأموية على الزوال[٢].

طائفتا الإمامية:

خرجت بلاد المغرب الأقصى عن سلطان الرشيد على يد إدريس بن عبد الله بن الحسن،

= أنى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الأعمام؟

انظر كتاب «تاريخ الدولة الفاطمية» للمؤلف ص ٣١٦.

(١) الطبري جـ ٩ ص ٢١٢ ـ ٢١٣. (٢) الفخري ص ١٧٨.

كما خرجت بلاد الأندلس على يد عبد الرحمن الداخل الأموي، وأصبح الرشيد يخاف العلويين أشد الخوف ويوقع أشد أنواع العقاب بكل من اتهم بالميل إليهم. ووجد سعاة السوء، حتى من العلويين أنفسهم، سبيلاً للإيقاع بآل بيتهم عند الرشيد. وكان موسى الكاظم بن جعفر الصادق ضحية هؤلاء السعاة؛ فقد وجد حساده والناقمون عليه، السبيل معبدة للإيقاع به عند الرشيد وإثارة مخاوفه من اعتقاد الناس بإمامته حتى أخذوا يحملون إليه خمس أموالهم، ومن اعتزامه الخروج عليه، مما أقلق باله ودفعه إلى العمل على التخلص منه.

وكان بعض حساد موسى بن جعفر من أقاربه قد وشى به إلى الرشيد، وقال له إن الناس يحملون إلى موسى خمس أموالهم، ويعتقدون إمامته، وأنه على عزم الخروج عليك، وكثر في القول. فوقع ذلك عند الرشيد بموقع أهمه وأقلقه، ثم أعطى الواشي مالاً أحاله به على البلاد، فلم يستمتع به، وما إن وصل المال من البلاد حتى مرض مرضاً شديداً ومات.

حج الرشيد سنة ١٧٩ هـ، ولما وصل إلى المدينة قبض على موسى بن جعفر الصادق، وحمله إلى بغداد حيث حبس، ثم قتل، وأدخل عليه جماعة من العدول شهدوا أنه مات حتف أنفه.

على أن الأمر الذي يسترعي النظر في هذه المسألة، هو وشاية بعض آل علي بموسى الكاظم عند الرشيد، مما يدل على أن الخلاف قد دب بين العلويين، فما السبب إذاً؟ يرجع السبب في ذلك إلى معتقدات الإمامية التي تنص على أن الإمام يكتسب الإمامة بطريق الوراثة، وأنه يجب أن يكون أكبر أبناء أبيه سناً.

وإن خروج فريق من هذه الطائفة على هذه القاعدة بعد موت جعفر الصادق في سنة ١٤٨ هـ، قد جر إلى انقسام الإمامية إلى طائفتين: الإمامية، وهم الذين أطلق عليهم فيما بعد الإمامية الاثني عشرية، وقد قالوا بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق، وهو عندهم الإمام السابع؛ والإسماعيلية، وقد قالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر، وكان أكبر أولاد أبيه، على الرغم من أن وفاته كانت في حياة أبيه.

ويقال إن جعفر الصادق حول الإمامة من ابنه إسماعيل إلى ابنه موسى الكاظم بسبب اتهام إسماعيل بشرب الخمر. على أن فريقاً من الشيعة يقول إن شرب إسماعيل الخمر لا يعد دليلاً على عدم تقواه، وأيدوا دعواهم بأن بعض الشيعة في العراق كان يشرب الخمر. وبذلك ظهرت طائفة الإسماعيلية الذين يقولون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق، وهو الإمام السابع عندهم[١].

---

(١) يقول أنصار إسماعيل إنه وإن كان قد أبعد عن الإمامة فقد تحولت إلى ابنه محمد بن إسماعيل، وهو الإمام =

ويحدثنا الحسن النوبختي في كتابه: «فرق الشيعة»[1] أن طائفة الإسماعيلية التي ذهبت إلى أن الإمام بعد جعفر ابنه إسماعيل، لا ابنه موسى الكاظم. وقد أنكرت موت إسماعيل في حياة أبيه، وقالت إنه تغيب «ولا يموت حتى يملك الأرض ويقوم بأمر الناس». كما قالت بعدم جواز تحويل الخلافة إلى موسى بعد وفاة أخيه إسماعيل، «لأنها لا تنتقل من أخ إلى أخ بعد الحسن والحسين عليهما السلام، ولا تكون إلا في الأعقاب. ولم يكن لأخوي إسماعيل، عبد الله وموسى، في الإمامة حق كما لم يكن لمحمد بن الحنفية حق مع علي بن الحسين. وأصحاب هذا القول يسمون «المباركية» نسبة إلى رئيسهم المبارك مولى إسماعيل بن جعفر».

وبديهي أن الخلاف بين العلويين على اختلاف طوائفهم وبين العباسيين لم يكن أقل أثراً منه بين طائفتي الإمامية الاثني عشرية والإمامية الإسماعيلية، مما يحملنا على الظن أن حساد موسى الكاظم كانوا من أهل بيته، وأنهم أوقعوا به عند الرشيد، فقبض عليه وحبسه في بغداد، فظل فيها إلى أن كانت نهايته سنة ١٨٣ هـ وهو في الرابعة والخمسين. ولا يزال قبره يزار إلى الآن في حي «الكاظمية» المشهور بالكرخ، في الجانب الغربي، وهو موطن الشيعة.

ويحدثنا أبو الفدا[2] عن ورع موسى وزهده فيقول: «وتولى خدمته في الحبس أخت السندي. وحكت عن موسى المذكور أنه كان إذا صلى العتمة، حمد الله ومجده، ودعا إلى أن يزول الليل، ثم يقوم يصلي حتى يطلع الصبح، فيصلي الصبح، ثم يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس، ثم يقعد إلى ارتفاع الضحى، ثم يرقد ويستيقظ قبل الزوال، ثم يتوضأ ويصلي العصر، ثم يذكر الله تعالى حتى يصلي المغرب، ثم يصلي ما بين المغرب والعتمة. فكان هذا دأبه إلى أن مات رحمة الله عليه. وكان يلقب الكاظم لأنه كان يحسن إلى من يسيء إليه».

وقد فطن المأمون إلى مغبة هذه السياسة التي سار عليها الخلفاء العباسيون في معاملة العلويين، فولى عهده رجلاً من آل علي الرضا. ولولا موته مسموماً وهو في طريقه إلى بغداد لتحولت الخلافة من العباسيين إلى العلويين.

٢ ـ المعتزلة:

تكلمنا في الباب الأول عن المعتزلة أو القدرية من حيث أثرها في اتجاه السياسة الإسلامية في العصر الأموي، وقلنا ان عقيدتهم الأساسية تتكون من خمسة أصول، وهي القول بالتوحيد، وهو أن الله واحد لا شريك له، والقول بالعدل وهو أن الله لا يحب الشر والفساد،

= السابع عندهم. المقريزي: خطط جـ٢ ص ١٩٠ ـ ٣٩٧.

(١) ص ٥٧ ـ ٥٨، ٧١ ـ ٧٢، ٩٠.

(٢) المختصر في أخبار البشر جـ٢ ص ١٥ ـ ١٦.

والقول بالوعد والوعيد، وهو أن الله صادق في وعده ووعيده لا يغفر لمرتكب الكبيرة إلا بعد التوبة، والقول بالمنزلة بين المنزلتين؛ وهو أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر لكنه فاسق، والقول بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو تكليف المؤمنين بالجهاد وإقامة حكم الله على كل من خالف أمره أو نهيه، سواء أكان كافراً أم فاسقاً[١].

وقد ابتدأت المعتزلة منذ نشأتها طائفة دينية لا علاقة لها بالسياسة، بخلاف ما كان عليه الشيعة والخوارج والمرجئة. إلا أنها سرعان ما تدخلت الأمور السياسية الهامة، فبحثت مسألة الإمامة ووضعت الشروط التي يجب أن تتوافر في الأئمة، كما بينا ما هنالك من علاقة بين مبادىء المعتزلة ومبادىء الشيعة، حتى كانت تسمي نفسها «أهل العدل» كالمعتزلة سواء بسواء. كما قالت المعتزلة بحرية الإرادة، التي وضع أساسها علي بن أبي طالب. كذلك كان المعتزلة يلقبون فقهاءهم بلقب «إمام»، ذلك اللقب الذي يقدسه الشيعة. أضف إلى ذلك تأثر الشيعة بمبادىء المعتزلة في عقيدتهم القائلة إن الإمام المنتظر سوف يظهر لنشر العدل والتوحيد. وهذا نفس ما يقوله المعتزلة. والزيدية أكثر شبهاً في ذلك بالمعتزلة من الإمامية. وهكذا تأثر كل من الشيعة والمعتزلة بعضها ببعض، حتى لقد اختلط الأمر على المؤرخين، فلم يستطيعوا التمييز بين كتب الشيعة وكتب المعتزلة في التوحيد خاصة.

ولا غرو، فقد نسبت المعتزلة عقائدها إلى علي بن أبي طالب. وقلما نجد كتاباً من كتبهم، وعلى الأخص كتب المتأخرين منهم، إلا ادعوا فيه أنه ليس ثمة مؤسس لمذهب الاعتزال وعلم الكلام غير الإمام علي. ويقول ابن أبي الحديد[٢]:

«وأما الحكمة والبحث في الأمور الإلهية فلم يكن من فن أحد من العرب، ولا نقل في جهاز أكابرهم وأصاغرهم شيء من ذلك أصلاً. وهذا فن كانت اليونان وأوائل الحكماء وأساطين الحكمة ينفردون به. وأول من خاض فيه من العرب عليّ عليه السلام. ولهذا نجد المباحث الدقيقة في التوحيد والعدل مبثوثة عنه في فرش كلامه وخطبه، ولا نجد في كلام أحد من الصحابة والتابعين كلمة واحدة من ذلك، ولا يتصورنه، ولو فهموه لم يفهموه، وأنى للعرب ذلك. ولهذا انتسب المتكلمون الذين لججوا في بحار المعقولات إليه خاصة دون غيره، وسموه أستاذهم ورئيسهم، واجتذبته كل فرقة من الفرق إلى نفسها. ألا ترى أن أصحابنا ينتمون إلى

(١) الخياط المعتزلي: كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي: ص ٥٠ ـ ٥١. المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ١٩٠ ـ ١٩١.

(٢) شرح نهج البلاغة: جـ ٢ ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

واصل بن عطاء، وواصل تلميذ أبي هاشم بن الحنفية، وأبو هاشم تلميذ أبيه محمد، ومحمد تلميذ أبيه علي عليه السلام؟».

كذلك ذكر المعتزلة الإمام علي في الطبقة الأولى من طبقاتهم. كما ذكروا قصة الشيخ الذي سأله عند انصرافه من صفين: أكان المسير بقضاء الله وقدره؟ فقال عليه السلام: والله الذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما هبطنا وادياً ولا علونا قلعة إلا بقضاء وقدر. فقال الشيخ: عند الله احتسب عنائي، ما لي من الأجر شيء، فقال: بل أيها الشيخ عظم الله لكم الأجر في مسيركم وأنتم سائرون، وفي منقلبكم وأنتم منقلبون، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ولا إليها مضطرين، فقال الشيخ: فكيف ذلك والقضاء والقدر ساقانا، وعنهما كان مسيرنا؟ فقال عليه السلام: لعلك تظن قضاء واجباً وقدراً حتماً، ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد، ولما كانت تأتي من الله لائمة لمذنب ولا محمدة لمحسن، ولا كان المحسن بثواب الإحسان أولى من المسيء، ولا المسيء بعقوبة المذنب أولى من المحسن. تلك مقالة إخوان الشياطين، وعبدة الأوثان، وخصماء الرحمن، وشهود الزور، وأهل العماء عن الصواب في الأمور. هم قدرية هذه الأمة ومجوسها. إن الله تعالى أمر تخييراً، ونهى تحذيراً. ولم يكلف جبراً ولا بعث الأنبياء عبثاً. ذلك ظن الذين كفروا، فويل للكافرين من النار: فقال الشيخ وما ذلك القضاء والقدر اللذان ساقانا؟ فقال: أمر الله بذلك وإرادته ثم تلا: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾، فنهض الشيخ مسروراً بما سمع وأنشد يقول:

أنتَ الإمامُ الذي نرجو بطاعته ... يومَ النشور من الرحمن رِضوانا
أوضَحْتَ من ديننا ما كان ملتبساً ... جزاك ربك بالإحسان إحسانا[1]

كذلك ذكروا في الطبقة الثانية الحسين، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي. وكان محمد هذا (ابن الحنفية) هو الذي ربى واصل بن عطاء كما تقدم. وكان أبو هاشم إذا سئل عن مبلغ علم محمد بن الحنفية يقول: إذا أردتم معرفة ذلك فانظروا إلى أثره في واصل بن عطاء. وكذلك أخذ واصل عن أبي هاشم الذي كان معه في المكتب، فأخذ عنه وعن أبيه[2]. هذه بعض الصلات التي ظهرت منذ ظهور المعتزلة. ومنها نرى أثر آل البيت في ظهور الاعتزال، ومقدار تأثر رؤساء المعتزلة بالبيت النبوي.

ولما كان الشيعة فيما بعد طوائف مختلفة، لم تكن المعتزلة مع كل هذه الطوائف على علاقة متساوية، فخاصمت بعضها، واتصلت بالبعض الآخر اتصالاً يختلف شدة وضعفاً، وحسبما

---

(١) كتاب طبقات المعتزلة ص ٧. (٢) المصدر نفسه ص ١١.

يذهب إليه كل منها في عقائده. ولبيان هذا نقول إن الشيعة تنقسم بحسب اعتقادها ثلاثة أقسام: غالية ورافضة وزيدية. أما الغالية فهم الذين غلوا في علي وقالوا فيه قولاً عظيماً، وهم فرق كثيرة كالسبئية[١].

لذلك قيل إن المعتزلة وضعت الأصل الأول من أصولها الخمسة وهو التوحيد، للرد على غلاة الشيعة، والرافضة هم الذين قالوا إن الله قدٌّ وصورة، وإنه جسم ذو أعضاء. وإذا نظرنا إلى الرافضة وعلاقتها بالمعتزلة فإننا نرى أن المتقدمين منهم، مثل هشام بن الحكم وهشام بن سالم الجواليقي وشيطان الطاق وغيرهم من متقدمي الرافضة، كانوا كذلك خصوماً للمعتزلة، لقولهم بالتشبيه والرجعة وغير ذلك.

يقول الخياط المعتزلي[٢]: «فهل كان على الأرض رافضي إلا وهو يقول: إن الله صورة، ويروي في ذلك الروايات، ويحتج فيه بالأحاديث عن أئمتهم، إلا من صحب المعتزلة منهم قديماً فقال بالتوحيد، فنفته الرافضة عنها ولم تقربه؟».

أما الزيدية أتباع زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي، فقد كانت صلة المعتزلة بهم أقوى منها بغيرهم من الشيعة. وترجع هذه الصلة إلى أيام زيد بن علي الذي تتلمذ لواصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة واقتبس منه أصول الاعتزال، وأصبح جميع أنصاره معتزلة إلا من خرج عليه منهم. وقد اشترك المعتزلة من بني هاشم في مبايعة محمد النفس الزكية وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن بمكة في أواخر عهد بني أمية، ثم شاركوا الشيعة في سخطهم على العباسيين بعد أن آلت الخلافة إليهم، وانضوى المعتزلة والزيدية بزعامة عيسى بن زيد بن علي تحت لواء إبراهيم بن عبد الله في العراق في محاربة أبي جعفر المنصور، وظلوا على ولائهم لإبراهيم حتى قتل وقتلت المعتزلة بين يديه[٢].

ولم تبلغ تعاليم المعتزلة مبلغها من الانتشار والقوة إلا في العصر العباسي الأول، وخاصة في عهد المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ) الذي عمل على عقد مجالس للمناظرة بقصره، وأباح للمتناظرين الكلام في مختلف الموضوعات: فقد تناظر في مجلسه إثنان في موضوع الإمامة، فانتصر أحدهما لطائفة الإمامية الاثني عشرية، وانتصر الثاني لطائفة الإمامية الزيدية. ولو أخذنا بأحد هذين الرأيين، لأضعف ذلك من حجة العباسيين بأحقيتهم بالخلافة، وولي العلويين.

---

(١) كتاب طبقات المعتزلة ص ٨.
(٢) كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي ص ١٤٤.
(٣) مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ١٧٩.

وكان المأمون يرى أن مجالس المناظرة تساعد على إزالة أسباب الخلاف بين العلماء؛ فقد روي عن القاضي يحيى بن أكثم أنه قال: أمرني المأمون عند دخوله بغداد أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلاً وأحضرتهم. وجلس لهم المأمون، فسأل عن مسائل وأفاض في فنون الحديث والعلم فلما انفض ذلك المجلس الذي جعلناه للنظر في أمر الدين قال المأمون: «يا أبا محمد! إني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا بتوفيق الله وتأييده على إتمامه سبباً لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين: إما شاك فيتبين ويثبت فينقاد طوعاً، وإما معاند فيرد بالفعل كرهاً».

وقد ظهر في عهد المأمون جماعة من كبار العلماء والمتكلمين الذين تأولوا أصول الدين والعقائد وحكموا عقولهم في البحث. ونشأت بسبب ذلك اعتقادات عامة المسلمين وجمهور علمائهم المعروفين بأهل الحديث.

وكان المأمون يميل إلى الأخذ بمذهب المعتزلة، لأنه أكثر حرية واعتماداً على العقل، فقرب أتباع هذا المذهب إليه، ومن ثم أصبحوا ذوي نفوذ كبير في قصر الخلافة ببغداد. يقول الأستاذ براون[١]: «وأما العقيدة القائلة بأن القرآن غير مخلوق، فقد كان المعتزلة يمقتونها أشد المقت. ففي سنة ٢٢١هـ (٨٢٦م) كاد المأمون أن يثير حرباً داخلية، مدفوعاً إلى ذلك بميول الشيعة، وخاصة عندما عهد بالخلافة من بعده لعلي الرضا الإمام الثامن من أئمة الشيعة الاثني عشرية».

وقد وافق المأمون المعتزلة فيما ذهبوا إليه من أن القرآن مخلوق، وعمد إلى تسخير قوة الدولة لحمل الناس على القول بخلق كتاب الله، فأرسل في سنة ٢١٨هـ كتاباً إلى والي بغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، يطلب منه امتحان القضاة والمحدثين في مسألة القرآن، كما أمره أن يأخذ على القضاة عهداً بألا يقبلوا شهادة من لا يقول بخلق القرآن، وأن يعاقب كل من لم يقل بهذا الرأي. ومما جاء في هذا الكتاب: «قد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشوة الرعية وسفلة العامة، ممن لا نظر له ولا روية ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه، أهل جهالة بالله، وعمى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه وقصور، أن يقدروا الله حق قدره ويعرفوه كنه معرفته، ويفرقوا بينه وبين خلقه. ذلك أنها ساووا بين الله وبين خلقه وبين ما أنزل من القرآن، فأطبقوا على أنه قديم لم يخلقه ولم يخترعه. وقد قال تعالى: ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾[٢] فكل ما جعله الله قد خلقه، كما قال تعالى: ﴿وجعل الظلمات

---

(١) lit. hist of persia. vol i. p. 284.

(٢) سورة يوسف ٢ : ٢ .

والنور﴾(١)، وقال ﴿وكُلّاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾(٢)، والله محكم كتابه ومفصله، فهو خالقه ومبتدعه. فاجمع مَنْ بحضرتك من القضاة، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين، وامتحنهم فيما يقولون، واكشفهم عما يعتقدون في خلق الله تعالى القرآن واحداثه، وأعلمهم أني غير مستعين في عملي ولا أثق بمن لا يوثق بدينه»(٣).

وقد سار المعتصم على سياسة أخيه المأمون في حمل الناس على القول بخلق القرآن، مع أنه لم يكن له حظ من العلم يجعله ذا رأي في هذه المسألة؛ وإنما كان ينفذ وصية المأمون، وزاد عليه في إلحاق الأذى بكل من يعترف بذلك من العلماء وأهل الرأي، فأهان أحمد بن حنبل إهانة بالغة وسجنه، وأصبح كل عالم أو قاض هدفاً لخطر الضرب بالسياط والتعذيب إذا لم يأخذ برأي المعتزلة في القول بخلق القرآن.

وكذلك اقتدى الواثق بأبيه المعتصم في انتصاره للمعتزلة. وتشدد في فرض آرائه الدينية على الناس مما أدى إلى إثارة خواطر أهل بغداد. وكان أحمد بن نصر رأس هؤلاء الساخطين الذين أنكروا القول بخلق القرآن، ودعوا إلى عزل الواثق، لكنه ما لبث أن قبض عليه وعلى أعوانه، وسيقوا إلى الخليفة بسامرا قاعدة خلافته، فعقد لهم مجلساً للمناظرة، وناظر الواثق أحمد بن نصر في مسألة خلق القرآن، فقال له: يا أحمد! ما تقول في القرآن؟ قال: كلام الله، قال؛ أمخلوق هو؟ قال: هو كلام الله، قال: فما تقول في ربك؟ أتراه يوم القيامة؟ قال: يا أمير المؤمنين جاءت الآثار عن رسول الله ﷺ أنه قال: ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر، فقال الواثق لمن حوله، ما تقولون فيه؟ فقال القاضي عبد الرحمن بن إسحاق وقال غيره: اسقني دمه يا أمير المؤمنين، فوافقه الحاضرون إلا ابن أبي دؤاد قاضي القضاة، فإنه قال: يا أمير المؤمنين كافر يستتاب لعل به عاهة أو تغير عقل. وما لبث أحمد بن نصر أن لقي حتفه على يد هذا الخليفة.

وقد غلا الواثق في معاملة القائلين بعدم خلق القرآن. وقد طلب عندما تبودلت الأسرى بين المسلمين والبيزنطيين أن يسأل كل أسير من أسرى المسلمين عن رأيه في القرآن، وكان نصيب كل من قال بعدم خلق القرآن أن يرد إلى أسره باعتباره خارجاً على الإسلام(٤).

٣ ـ أهل السنة:

دخل في الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ كثير من الشعوب كالفرس والشاميين

(١) سورة الأنعام: ٦: ١.
(٢) سورة هود ١١: ٢.
(٣) الطبري جـ ١٠ ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥.
(٤) الطبري: جـ ١١ ص ١٩.

والمصريين وغيرهم، واتسعت رقعة الدولة الإسلامية خارج جزيرة العرب، وكان لهذه الشعوب أديان وتقاليد ونظم، ولم يكن في استطاعتهم تطبيق عقائد الإسلام التي ذكرت في القرآن عليها، ومن هنا اتجه نظرهم إلى مصدر آخر من مصادر التشريع الإسلامي هو «السنة»، أي ما أثر عن الرسول من قول أو فعل أي شيء رآه: وكانت المدينة المنورة مركز أهل السنة أو الأمر. وينبغي أن نميز بين أهل الحديث الذين يتمسكون بأقوال الرسول خاصة، وأهل السنة وهم الذين يتمسكون بأقوال الرسول وأفعاله وعاداته وغيرها(١).

ولم يطلق اسم «أهل السنة» إلا في العصر العباسي الأول في الوقت الذي تطور فيه مذهب المعتزلة، حتى أصبح يطلق اسم «أهل السنة» على كل من يتمسك بالكتاب والسنة، واسم «المعتزلة» على كل من يأخذ بالكلام والنظر. أما في صدر الإسلام فكان يطلق على كل من يتمسك بالكتاب والسنة اسم «الصحابة» لأنهم اجتمعوا مع الرسول وناصروه. كما أطلق على من أتى بعدهم الأتباع وأتباع الأتباع. وظلت الحال كذلك إلى أن انتصر أبو الحسن الأشعري وأتباعه على المعتزلة، واضمحلت أكثر الفرق الإسلامية الأخرى، فلم يعد هناك سوى الشيعة وأهل السنة، فيقال هذا شيعي وذاك سني، واستمرت هذه التسمية إلى الوقت الحاضر.

وقد مر مذهب أهل السنة بأدوار مختلفة، وقام الصراع بينهم وبين المعتزلة، واصطدم زعماء أهل السنة مع العباسيين أنفسهم، فكان من مبادىء أهل السنة تمسكهم بنصوص الكتاب والسنة، وذهبوا إلى أن الإيمان ليس بحاجة إلى غيرهما. كما ذهبوا إلى القول بأن الاعتماد على النظر والعقل قد يوصل إلى الإلحاد مخالفين بذلك مبادىء المعتزلة، مما أدى إلى وقوع ذلك النزاع بين أصحاب المذهبين. وآية ذلك ما رأيناه في عهد المأمون من وقوع الصراع العنيف في مسألة خلق القرآن بين أهل «السنة والجماعة» وبين «المعتزلة» الذين سادت مبادئهم في بلاط الخلفاء وأصبحت الكلمة النافذة في ذلك الوقت.

على أن أهل السنة لم يقصروا كلامهم على الأمور النظرية، بل كثيراً ما تعرضوا للمسائل السياسية كمسألة الإمامة. فقد نقم أبو حنيفة على العباسيين سطوتهم وشدتهم، ومال إلى العلويين في الفتنة التي قامت بين أبي جعفر المنصور ومحمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم. وقد روي أن المنصور استقدم أبا حنيفة من الكوفة لاتهامه بمناصرة إبراهيم بن عبدالله العلوي،

(١) قيل عن سفيان الثوري إنه إمام في السنة وليس بإمام في الحديث: وأن الأوزاعي إمام في الحديث وليس بإمام في السنة، وأن مالك بن أنس كان إماماً في السنة والحديث معاً. وقد بقي هذا التمييز طويلاً حتى اصطلح المتأخرون على جعلها شيئاً واحداً.

فظل ببغداد خمسة عشر يوماً. ثم دس له السم فمات. كما كان مالك بن أنس يفتي الناس بأنه «ليس على مكره يمين». ولم تكن هذه الفتوى تعجب العباسيين، لأن هذا معناه أن من بايع العباسيين مكرهاً فله أن يتحلل من بيعته، وله أن يبايع محمداً النفس الزكية. وقد نهى المنصور مالكاً عن التحدث بهذا الحديث ثم ضربه بالسياط لما علم أنه ما زال يحدث به[1].

(جـ) في السياسة

أثر الوزراء العباسيين والبرامكة خاصة في النزاع

اعتنق الفرس الدين الإسلامي ووجدوا فيه المساواة التي كانوا ينشدونها، لأن هذا الدين يقوم على أساس المساواة بين المسلمين كافة، لا فرق في ذلك بين عربي وعجمي. وتمتع الفرس بمبدأ المساواة في عهد الخلفاء الراشدين. فلما انتقل الحكم إلى الأمويين آثروا العرب على الفرس ولم يساووا بين هؤلاء وأولئك في الحقوق المدنية والعسكرية، وأثاروا بذلك كراهة الموالي، الذين، عملوا على التخلص من نيرهم، وانضموا إلى بني هاشم طمعاً في نيل حقوقهم وإعادة مجد بلادهم.

وقد قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس، كما نعلم، ولكن العباسيين، وإن كانوا قد اعترفوا بمساعدة الفرس لهم في تأسيس دولتهم، لم ينسوا عربيتهم وحبهم للملك، فلم يسمحوا لمواليهم وأنصارهم أن يزاحموهم في سلطانهم أو يعملوا على تحويل الأمر إلى أعدائهم العلويين. ومن ثم رأينا الخلفاء العباسيين ينكلون بوزرائهم، الذين مالوا إلى العلويين. فنكل السفاح بأبي سلمة، والمهدي بيعقوب بن داود، والرشيد بالبرامكة، والمأمون بالفضل بن سهل.

اتصل أبو سلمة الخلال الذي كان من أهم العوامل التي ساعدت على تأسيس الدولة العباسية، ببني العباس بتزكية صهره بُكَيْر بن ماهان كاتب إبراهيم الإمام ولما مات إبراهيم وخلفه في الدعوة أخوه أبو العباس، حامت الشكوك حول إخلاص أبي سلمة للدعوة العباسية، واتهم بأنه أخذ يعمل على العدول عنهم وتحويل الخلافة إلى العلويين؛ كما أنه لم يهتم بأبي العباس وأهل بيته بعد أن هاجروا من الحميمة إلى الكوفة، حتى إنه أبى أن يدفع أجرة الحمالين الذين تولوا نقلهم ونقل أمتعتهم، وأخفى أمرهم وأمر بمراقبتهم. ولما قامت الدولة العباسية أرسل أبو سلمة إلى زعماء العلويين بالحجاز، وهم جعفر الصادق، وعبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن علي، وعمر الأشرف بن علي زين العابدين يدعوهم إلى قبول الخلافة كما تقدم.

---

(١) انظر الملحق العاشر.

وقد قيل إن أبا العباس السفاح استوزر أبا سلمة على كره منه، لما كان يتمتع به من مكانة سامية ونفوذ كبير في نفوس الخراسانيين. وهم أعضاد الدولة العباسية ومصدر قوتها، وفوض إليه أمور هذه الدولة، ولقبه وزير آل محمد، وخشي إذا قتله أن يقوم أهل خراسان في وجهه ويثأروا له. وبذلك عمل أبو العباس على أن يتم هذا الأمر على يد أبي مسلم الخراساني، لأنه كان يكرهه ويحقد عليه لعلو منزلته في الدولة.

ولم يكن للوزراء من الفرس أثر في هذا النزاع الذي قام بين العلويين والعباسيين في عهد أبي جعفر المنصور، لضعف هؤلاء الوزراء في عهده، بسبب استبداده بأمور دولته، وشدة حرصه على سلطانه، حتى كانوا معرضين للقتل لأتفه الأسباب فلما ولي المهدي الخلافة وأمر بحجب وزيره أبي عبيد الله معاوية بن يسار بعد أن قتل ابنه الذي اتهم بانتحال مذهب الزنادقة، استوزر أبا عبد الله يعقوب بن داود وكان من الخراسانيين. وكان أبوه وأعمامه يتولون الكتابة لنصر بن سيار والي خراسان في أواخر أيام بني أمية، لنبوغهم في العلم والأدب والشعر والسير. فلما انتقل الحكم إلى العباسيين لم ينتفعوا بمواهب آل داود لاتصالهم ببني أمية من قبل. وقد قيل إن يعقوب بن داود انتحل عقائد الزيدية، ثم مال إلى أولاد عبد الله بن الحسن العلوي وتقرب إليهم. وأخذ هو وأهل بيته ينشرون الدعوة لمحمد النفس الزكية، وانضووا تحت لواء أخيه إبراهيم في العراق. فلما قتل إبراهيم اختفوا حتى ظفر بهم المنصور، فحبسهم إلى أن ولي المهدي الخلافة، فأطلقهم واستوزر يعقوب بن داود وفوض إليه كافة أمور دولته، وانصرف إلى اللهو وسماع الغناء والشراب، فقال بشار بن برد:

بني أميةَ هُبوا طال نومُكُمُ	إنَّ الخليفةَ يعقوبُ بن داود
ضاعتْ خلافتكم يا قوم فالتمسوا	خلافَة الله بين النايِ والعود

وقد ذكر ابن طباطبا[١] أن الخليفة المهدي طلب من وزيره يعقوب بن داود أن يكفيه أحد العلويين لأنه خاف خروجه عليه، واستحلفه على ذلك، ولكن يعقوب رق لحال العلوي وأطلقه، وكانت عند هذا الوزير جارية أهداها له المهدي فدست إليه من أعلمه بحقيقة الحال، فبث العيون والأرصاد حتى أتوه بذلك العلوي وجعله في بيت قريب من مجلسه. ثم استدعى الوزير وسأله عما آل إليه أمر العلوي فقال: قد أراح الله منه أمير المؤمنين. قال: مات؟ قال: نعم؟ قال: بالله؟ إي والله، قال فضع يدك على رأسي وأحلف به، قال يعقوب: فوضعت يدي على رأسه وحلفت به، فقال (المهدي) لبعض الخدم: أخرج إلينا من في هذا البيت، فلما رآه

---
(١) كتاب الفخري ص ١٦٧ ـ ١٦٩.

يعقوب امتنع الكلام عليه وتحير في أمره. فقال المهدي: يا يعقوب! قد حل لي دمك. قال يعقوب: «فدليت بحبل في بئر مظلمة لا أرى فيها الضوء». فظل في حبسه إلى أن أطلقه الرشيد وقد فقد بصره ورقت حاله، وسمح له بأن يقضي البقية الباقية من حياته في مكة، فلم تطل أيامه بعد ذلك ومات سنة ١٦٧ هـ.

ولم يعمر الهادي في الخلافة، وخلفه أخوه هارون الرشيد، فاستوزر البرامكة الذين كان لهم شأن عظيم في الدولة العباسية، ولا سيما في عهد الرشيد الذي أوقع بهم لأسباب كثيرة، أهمها ميلهم إلى العلويين، كما أوقع السفاح بوزيره أبي سلمة الخلال، والمهدي بوزيره يعقوب بن داود كما تقدم. ويحسن بنا أن نفحص عن العوامل التي أدت إلى نكبة البرامكة على يد الرشيد، تلك النكبة التي تعتبر بحق من أمهات الحوادث التي وقعت في عهد الرشيد خاصة وفي العصر العباسي الأول عامة.

اختلفت كلمة المؤرخين وأصحاب السير في السبب الذي دفع هارون الرشيد إلى نكبة البرامكة، مع أنه شب في حجر يحيى بن خالد البرمكي حتى كان يدعوه يا أبت. فبعضهم يرى أن الرشيد غضب عليهم لوجود علاقات بين جعفر بن يحيى وبين أخته العباسة، وبعضهم يقول إن ذلك كان بسبب إطلاق جعفر البرمكي يحيى بن عبد الله العلوي بعد أن أمره الرشيد بحبسه، وبعضهم يقول إن استبداد البرامكة بالملك وجمعهم الأموال استمال الناس إليهم، وأن ذلك أوغر صدر الرشيد عليهم وحمله على الإيقاع بهم.

أضف إلى ذلك ما أظهره البرامكة من الدالة على الرشيد مما لا تحمله نفوس الملوك، وسعاية أعداء البرامكة وبخاصة الفضل بن الربيع بهم عند الرشيد. ومما يدل على تأثير هذه السعايات في نفس الرشيد ما رواه ابن طباطبا[1] عن بَخْتِيشوع الطبيب قال: «دخلت يوماً على الرشيد وهو جالس في قصر الخلد. وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر، وبينهم وبينه عرض دجلة، فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد فقال: جزى الله يحيى خيراً تصدى للأمور وأراحني من الكد ووفر أوقاتي على اللذة؛ ثم دخلت عليه بعد أوقات وقد شرع يتغير عليهم، فنظر فرأى الخيول كما رآها تلك المرة فقال: استبد يحيى بالأمور دوني، فالخلافة على الحقيقة له، وليس لي منها إلا اسمها، فقلت إنه سينكبهم فنكبهم عقيب ذلك».

ذكر بختيشوع الطبيب أنه بينما كان جالساً في مجلس الرشيد إذ دخل يحيى بن خالد،

(١) الفخري ص ١٩٠.

وكان من عادته أن يدخل بلا إذن. فلما دخل وسلم على الرشيد، رد عليه رداً ضعيفاً. فعلم يحيى أن الرشيد قد تغير عليه. ثم عبر الرشيد عن استيائه لدخول يحيى البرمكي عليه دون إذن. فقام يحيى! فقال: يا أمير المؤمنين! قدمني الله إليك، والله ما ابتدأت ذلك الساعة وما هو إلا شيء كان قد خصني به أمير المؤمنين ورفع به ذكري، حتى إني كنت لأدخل وهو في فراشه مجرداً حيناً وحيناً في بعض إزاره. وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب؛ وإذا قد علمت فإني أكون عنده في الطبقة الثانية من أهل الإذن أو الثالثة إن أمرني سيدي بذلك. فاستحيى الرشيد، وكان من أرق الخلفاء وجهاً وقال: ما أردت ما تكره، ولكن الناس يتقولون[١].

كذلك روى الطبري[١] هذه العبارة التي تدلنا على مبلغ حقد الرشيد على البرامكة وعمله على الغض من شأنهم، حتى إنه أمر غلمانه بالإعراض عنهم والاستهتار بهم إذا دخلوا قصره. دخل يحيى بن خالد بعد ذلك على الرشيد فقام الغلمان إليه فقال الرشيد لمسرور الخادم: مر الغلمان ألا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار قال: فدخل فلم يجبه أحد، فاربدَّ لونه، وكان الغلمان والحجاب إذا رأوه أعرضوا عنه.

أضف إلى ذلك ما ذكره ابن عبد ربه في محاورة الأصمعي للرشيد وللفضل بن يحيى وغيرهم، وذلك أن أعداء البرامكة من بطانة الرشيد دسوا للمغنين شعراً يثير عامل المنافسة والحقد في نفسه، وكذلك ما تحيل به أعداؤهم من البطانة فيما دسوه للمغنين من الشعر احتيالاً على سماعه للخليفة وتحريك حفائظه لهم[٢]. فانظر كيف كان حال الرشيد من البرامكة عندما سمع هذين البيتين:

ليتَ هنداً أنجزتْنا ما تَعِدْ	وشفَتْ أنفسَنا مما تجدْ
وأستبدَّت مرةً واحدةً	إنما العاجزُ من لا يستبد

أجل! لقد نجح أعداء البرامكة ومنافسوهم في حيلتهم، فإن الرشيد لما سمع هذين البيتين قال: «إي والله إني عاجز». وسلط عليهم سيف انتقامه.

ويعزو بعض المؤرخين نكبة هذه الأسرة إلى حوادث ليست فجائية كالتي تقدمت، وإنما هي أمور جاءت متتابعة: منها أن الرشيد كان يميل كثيراً إلى تولية الفضل بن الربيع بعض أمور الدولة، فكانت الخيزران أم الرشيد تحول دون ذلك، وكان الفضل يظن أن الذي حملها على ذلك إنما هو جعفر البرمكي فلما ماتت الخيزران، ولى الرشيد الفضل الخاتم وغيره مما كان في يد جعفر (١٨٤ هـ).

---

(١) ج ١٠ ص ٧٩ ـ ٨٠.

(٢) ابن خلدون. مقدمة ص ١٥.

وأعقب ذلك إطلاق يحيى بن عبد الله بن الحسين بن العلوي الذي خرج على الرشيد في بلاد الديلم، فبعث إليه الفضل بن يحيى البرمكي في خمسين ألف مقاتل، فما زال به حتى مال إلى الصلح وطلب أماناً بخط الرشيد، فكتب إليه الأمان بخطه، وشهد عليه فيه القضاة والفقهاء وكبار بني هاشم. ولما قدم يحيى تلقاه الرشيد بالحفاوة والإكرام، ولكنه لم يلبث أن حبسه إذ علم أنه يعمل لخلعه، واستفتى الفقهاء في نقض الأمان الذي أعطاه يحيى، ثم سلمه لجعفر بن يحيى البرمكي فأطلقه[١]. فكان ذلك من أهم أسباب نكبة البرامكة. وفي ذلك يقول الطبري[٢].

«وذلك أن الرشيد دفع يحيى إلى جعفر فحبسه، ثم دعا به ليلة من الليالي، فسأله عن شيء من أمره، فأجابه إلى أن قال: أتق الله في أمري، ولا تتعرض أن يكون خصمك غداً محمد ﷺ، فوالله ما أحدثت حدثاً ولا آويت مُحْدثاً، فرق عليه، وقال له: اذهب حيث شئت من بلاد الله. قال: وكيف أذهب ولا آمن أن أوخذ بعد قليل، فأرد إليك أو إلى غيرك؟ فوجه معه من أداه إلى مأمنه. وبلغ الخبر الفضل بن الربيع من عين كانت له عليه من خاص خدمه، فعلا الأمر فوجده حقاً، وانكشفت عنده، فدخل على الرشيد وأخبره، فأراه أنه لا يعبأ بخبره وقال: وما أنت وهذا لا أم لك، فلعل ذلك عن أمري فانكسر الفضل وجاءه جعفر فدعا بالغداء فأكلا، وجعل يلقمه ويحادثه إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال: ما فعل يحيى بن عبد الله؟ قال: بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس الضيق والأكبال، قال: بحياتي؟ فأحجم جعفر، وكان من أدق الخلق ذهناً وأصفاهم فكراً، فهجس في نفسه أنه قد علم بشيء من أمره، وقال: لا وحياتك يا سيدي، ولكن أطلقته وعلمت أنه لا خيانة به ولا مكروه عنده، قال: نعم ما فعلت، ما عدوت ما كان في نفسي. فلما خرج أتبعه بصره حتى كاد أن يتوارى عن وجهه، ثم قال؛ قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك، فكان من أمره ما كان».

لذلك لا نعجب إذا ساءت العلاقة بين البرامكة وبين الرشيد، وساعد على إشعال هذه النيران سعاية الفضل بن الربيع وغيره، وكراهة زبيدة أم الأمين للبرامكة، إذ كانت تظن أن الرشيد قد عهد إلى ابنه المأمون دون الأمين بتأثير يحيى البرمكي. أضف إلى ذلك ما اتصل بعلم الرشيد من أن عبد الملك بن صالح العباسي كان يدعو إلى نفسه، وأن البرامكة كانوا يساعدونه، فغضب الرشيد عليهم وحبس عبد الملك معهم.

ولم يكن جعفر البرمكي وحده هو الذي اتهم بالتقرب إلى العلويين، بل شاركه في ذلك

---

(١) الجهشياري. كتاب الوزراء والكتاب ص ١٨٩ ـ ١٩٠.

(٢) ج١٠ ص ٨٠ ـ ٨١.

أخوه موسى بن يحيى البرمكي فقد رماه أعداؤه بأنه ينشر الدعوة إلى العلويين ويعمل على تحويل الخلافة إليهم بين أهالي خراسان.

أما قصة العباسة مع جعفر بن يحيى البرمكي، وتتلخص في أن هارون الرشيد لكلفه بمكانة جعفر وأخته العباسة وحرصه على حضورهما مجلسه، أذن لهما في عقد الزواج دون الخلوة، وأن الرشيد غضب على جعفر لعدم تنفيذ هذا الشرط، فأمر نستبعده كل البعد، مع ما نعرفه من نسب العباسة وحسبها ودينها. فهي بنت الخليفة المهدي بن المنصور، وهي كما يقول ابن خلدون[1]: «قريبة عهد ببداوة العروبة وسذاجة الدين، البعيدة عن عوائد الترف وموقع الفواحش. فأين يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها؟ أو أين توجد الطهارة والذكاء إذا فقدوا من بيتها؟ أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولى من موالي العجم؟ . . . وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالي الأعاجم على بعد همته وعظم آبائه؟ ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المنصف، وقاس العباسة بابنة ملك من ملوك زمانه، لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالي دولتها، وفي سلطان قومها، واستنكره ولج في تكذيبه، وأين قدر العباسة والرشيد من الناس؟».

ومما يؤيد بطلان هذا الرأي ما نعلمه من أنفة العباسيين عن مصاهرة الموالي. وليست حكاية أبي مسلم الخراساني مع زوجة عبد الله بن علي العباسي التي زادت حنق المنصور عليه وساعدت على الفتك به بعيدة عن أذهاننا.

ونحن نميل إلى القول بأن الرشيد نكب البرامكة لما كان من استبدادهم بالأمور دونه. وفي ذلك يقول ابن خلدون[2]: «وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة، واحتجابهم أموال الجباية، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه، فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه، فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم، واحتازوها عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم، فتوجه الإيثار من السلطان إليهم وعظمت الدالة منهم، وانبسط الجاه عندهم، وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب، وقصرت عليهم الآمال، ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم وأسنوا لعفاتهم الجوائز والصلات، واستولوا على القرى والضياع، من الضواحي والأمصار في سائر الممالك، حتى آسفوا البطانة وأحقدوا الخاصة، وأغضبوا أهل الولاية، فكشف لهم وجوه المنافسة والحسد، ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية».

(١) مقدمة ص ١٤.
(٢) المصدر نفسه ص ١٤.

عاش البرامكة عيشة قوامها البذخ والإسراف وحب الظهور، وأغدقوا الأموال على الشعراء والعلماء، ولم يردوا قاصداً. قيل إن جعفر بن يحيى البرمكي أنفق على بناء داره عشرين ألف ألف درهم؛ - كما يبدو - مبلغ ضخم لا يقل عن مليون وستمائة وخمسة وستين ألف دينار، غير ما يحتاج إليه هذا البناء من أثاث ورياش وخدم وحشم، وما إلى ذلك من أسباب البذخ وألوان الترف التي تثير عوامل الغيرة في نفوس أعدائهم وحسادهم وتهيىء لهم السبيل للإيقاع بهم عند الخليفة. بهذا تنبأ إبراهيم بن المهدي ووجد أن نكبة البرامكة آتية لا ريب فيها. وهو يقص علينا هذه العبارة التي ننقلها عن الطبري[1] قال: أتيت جعفر بن يحيى في داره التي ابتناها فقال لي: أما تعجب من منصور بن زياد؟ قلت؛ فبماذا؟ قال: سألته هل ترى في داري عيباً؟ قال: نعم ليس فيها لبنة ولا صنوبرة، قال إبراهيم: فقلت: الذي يعيبها أنك أنفقت عليها نحواً من عشرين ألف ألف درهم، وهو شيء لا آمنه عليك غداً بين يدي أمير المؤمنين. قال: هو يعلم أنه قد وصلني بأكثر من ذلك وضعف ذلك سوى ما عرضني له. قال: قلت: إن العدو إنما يأتيه في هذا من جهة أن يقول يا أمير المؤمنين! إذا أنفق على دار عشرين ألف ألف درهم، فأين نفقاته وأين صلاته وأين النوائب التي تنوبه؟ وما ظنك يا أمير المؤمنين بما وراء ذلك؟ وهذه جملة سريعة إلى القلب والموقف على الحاصل منها صعب. قال: إن سمع مني قلت إن لأمير المؤمنين نعماً على قوم قد كفروها بالستر لها أو بإظهار القليل من كثيرها، وأنا رجل نظرت إلى نعمته عندي فوضعتها في رأس جبل ثم قلت للناس تعالوا وانظروا».

ويتهم البغدادي[2] البرامكة، فيرميهم بالزندقة والميل إلى مذاهب المجوس، فيقول عند كلامه على الباطنية: «ولم يمكنهم (الباطنية) إظهار عبادة النيران، فاحتالوا بأن قالوا للمسلمين: ينبغي أن تجمر المساجد كلها، وأن تكون في كل مسجد مجمرة[3] يوضع عليها الند (الطيب) والعود في كل حال. وكان البرامكة قد زينوا للرشيد أن يتخذ في جوف الكعبة مجمرة يتبخر عليها العود أبداً. فعلم الرشيد أنهم أرادوا من ذلك عبادة النار في الكعبة وأن تصير الكعبة بيت نار، فكان ذلك أحد أسباب قبض الرشيد على البرامكة». وذكر ابن النديم[4] أن «البرامكة بأسرها - إلا محمد بن خالد بن برمك - كانت زنادقة».

وصفوة القول أن سقوط أسرة البرامكة كان نتيجة حوادث متتابعة، دفعت الرشيد، لا إلى الحد من نفوذ هذه الأسرة فحسب، بل إلى القضاء عليها وإعفاء آثارها. فانظر كيف قضى الرشيد على هذه الأسرة: «لما عاد الرشيد من الحج، سار من الحيرة إلى الأنبار في السفن،

---

(١) ج ١٠ ص ٨٢.
(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٧٠.
(٣) المجمرة: كالموقد عندنا اليوم يوضع فيها البخور.
(٤) الفهرست ص ٤٧٣.

وركب جعفر بن يحيى إلى الصيد، وجعل يشرب تارة ويلهو أخرى، وتحف الرشيد وهداياه تأتيه، وعنده بختيشوع الطبيب وأبو زكار الأعمى يغنيه، فلما ظل المساء دعا الرشيد مسرور الخادم؛ وكان مبغضاً لجعفر، وقال: اذهب فجئني برأس جعفر ولا تراجعني، فوافاه مسرور بغير إذن وهجم عليه وأبو زكار يغنيه:

فلا تبعد فكل فتى سيأتي عليه الموت يطرق أو ينادي

فلما دخل مسرور قال جعفر بن يحيى البرمكي: لقد سررتني بمجيئك وسؤتني بدخولك علي بغير إذن، فقال: الذي جئت له أعظم، أجب أمير المؤمنين إلى ما يريد بك، فوقع على رجليه فقبلهما وقال له: عاود أمير المؤمنين فإن الشراب قد حمله على ذلك. وقال: دعني أدخل داري فأوصي فقال: الدخول لا سبيل إليه، وأما الوصية فأوصي بما بدا لك، فأوصى، ثم حمله إلى منزل الرشيد وعدل به إلى قبة وضرب عنقه، وأتى برأسه على ترس إلى الرشيد، وببدنه في نطع، ووجه الرشيد فقبض على أبيه وإخوته وأهله وأصحابه بالرقة واستأصل شأفتهم».

وكان قتل جعفر البرمكي في ليلة السبت أول ليلة من شهر صفر سنة ١٧٧ هـ وهو في السابعة والثلاثين من عمره.

وهكذا عفى الدهر هذه الأسرة التي كان لها أكبر الأثر في تقدم الحضارة الإسلامية في العلوم والآداب وفي الزراعة والصناعة والتجارة وغيرها.

كذلك ذهب الفضل بن سهل وزير المأمون ضحية ميله إلى العلويين وعمله على تحويل الخلافة إليهم.

كان الفضل من أولاد ملوك الفرس، وكان أبوه مجوسياً من ذوي اليسار، أسلم في أيام هارون الرشيد، واتصل هو وابنه الفضل بيحيى بن خالد البرمكي الذي اتخذه الفضل قهرماناً له (أي رئيساً للخدم). ثم اتخذه الرشيد ليكون في خدمة ابنه المأمون. ويقول الجهشياري[1]: إن جعفر بن يحيى لما عزم على استخدام الفضل بن سهل المأمون، قرظه يحيى بن خالد بحضرة الرشيد فقال له الرشيد: أوصله إلي. فلما وصل إليه أدركته حيرة فسكت، فنظر إلى يحيى نظرة منكر لاختياره فقال له الفضل: يا أمير المؤمنين! إن أعدل الشواهد على فراهة المملوك، أن تملك قلبه هيبة سيده، فقال له الرشيد: لئن كنت سكت لتصوغ هذا الكلام، فقد أحسنت، ولئن كان بديهة لهو أحسن، ولم يسأله بعد ذلك عن شيء إلا أجابه بما يصدق تقريظ يحيى له.

(١) كتاب الوزراء والكتاب ص ٢٣١.

ويقال إن الفضل بن سهل لما رأى نجابة المأمون في صباه ونظر في طالعه، وكان خبيراً بعلم النجوم فدلته النجوم على أنه سيصير خليفة، لزم ناحيته وخدمه، ودبر أموره حتى أفضت الخلافة إليه فاستوزره.

استوزر المأمون الفضل بن سهل الذي سمي (ذا الرياستين) لجمعه بين السيف والقلم، كما كان يقال له (الوزير الأمير). وكان الفضل بن سهل ـ كما يقول ابن طباطبا[1] ـ سخياً كريماً، يجاري البرامكة في سخائه وكرمه. كما كان حليماً بليغاً، عالماً بآداب الملوك، بصيراً بالحيل، جيد الحدس، شديد العقوبة، وفيه يقول الشاعر:

لـلفـضـلِ بـنِ سـهـلٍ يـدٌ ... يَـقْصُرُ عـنهـا المـثـلْ
فـبـاطـنُـهـا لـلـنـدى ... وظـاهـرهـا لـلـقُـبَـل
وبَـسْـطَـتـهـا لـلغـنى ... وسـطوتهـا لـلأجـل

ولكن الفضل بن سهل كان ـ كغيره من الفرس ـ ينتصر للعنصر الفارسي، ويعتقد أن العلويين أحق بحمل التاج، لأنهم يجمعون بين أشرف دم عربي، وهو دم النبوة، وأشرف دم فارسي، وهو دم الأكاسرة، وعمل على أن تكون السيادة للعنصر الفارسي. وكان يتشبه بوزراء الأكاسرة ليعيد مجد الفرس القديم.

يقول الجهشياري[2]: «إن الفضل بن سهل بن زادا نفروخ كان يجلس على كرسي مجنح، ويحمل فيه إذا أراد الدخول على المأمون، فلا يزال يـحمل حتى تقع عينا المأمون عليه. فإذا وقعت وضع الكرسي ونزل عنه فمشى، وحمل الكرسي حتى يوضع بين يدي المأمون، ثم يسلم ذو الرياستين، فيعود ويقعد عليه وإنما ذهب ذو الرياستين إلى مذهب الأكاسرة».

وكان الفضل بن سهل وزير المأمون يمثل العنصر الفارسي في الفتنة التي قامت بين الأمين والمأمون، كما كان الفضل بن الربيع وزير الأمين يمثل العنصر العربي، حتى كان هذا النزاع في الواقع نزاعاً حزبياً بين الفرس من ناحية وبين العرب من ناحية أخرى. ولا غرو فقد أوغر الفضل بن سهل قلب المأمون على أخيه الأمين، وإليه يرجع الفضل في تولية المأمون عليا الرضا عهده، وتحويل الخلافة إلى آل علي الذين يؤثرهم الفرس على سائر بني هاشم. وكان المأمون قد جد في تجديد العهد لعلي بن موسى بن جعفر، وتقدم إلى الفضل بأخذ البيعة إلى الناس، وأرسل الكتب إلى عمال الأقاليم يأمرهم بإبطال لبس السواد ولبس الخضرة وجعل الأعلام والقلانس خضراً[3].

---

(١) كتاب الفخري ص ٢٠١ ـ ٢٠٢.
(٢) كتاب الوزراء والكتاب ص ٤٠١ ـ ٤٠٢.
(٣) المصدر نفسه ص ٣١٢.

على أن المأمون أدرك أن الفضل بن سهل آثار بعمله هذا أهل بغداد وأفراد البيت العباسي، حتى إنهم ولوا ابراهيم بن المهدي الخلافة وعولوا على الوقوف في وجه المأمون، فعمل على التخلص من علي الرضا والفضل بن سهل ليصفو الجو له، فلما دخل بغداد لم يقف أهلها في وجهه.

٤ - تطور موقف الحزبين العلوي والعباسي بعد نكبة البرامكة

(١) قوة الحزب العباسي بعد نكبة البرامكة

١ - تولية الرشيد أولاده العهد وتقويتها للحزب العلوي:

ذكرنا في كلامنا على أثر الوزراء العباسيين والبرامكة خاصة في النزاع الذي قام بين العلويين والعباسيين، أن العباسيين، وإن كانوا قد أشادوا بمساعدة الفرس لهم في تأسيس دولتهم، لم ينسوا عربيتهم وحبهم للملك؛ فلم يسمحوا لمواليهم وأنصارهم أن يزاحموهم في سلطانهم أو يعملوا على تحويل الأمر إلى أعدائهم العلويين. ومن ثم رأينا الخلفاء العباسيين ينكلون بوزرائهم الذين مالوا إلى العلويين: فينكل السفاح بأبي سلمة، والمهدي بيعقوب بن داود، والرشيد بالبرامكة، والمأمون بالفضل بن سهل. وقد وقعت نكبة البرامكة إثر وقوع حوادث جاءت متتابعة، ووجد أعداء البرامكة من بطانة الرشيد من العرب وخاصة الفضل بن الربيع، من استئثار البرامكة بالنفوذ واستمالتهم الناس إليهم، ما أوغر صدر الرشيد عليهم، وحمله على الإيقاع بهم، وقام الشعراء بدور هام في إثارة حقد الرشيد على البرامكة.

ولا غرو فإن نكبة البرامكة معناها ضعف نفوذ الفرس وانتصار الحزب العباسي، لولا وقوع هذه الحادثة التاريخية التي أضعفت من نفوذ هذا الحزب وزادت من نفوذ الحزب العلوي، وهي تولية الرشيد العهد أولاده الثلاثة: الأمين والمأمون والمؤتمن.

ذلك أن الفضل بن يحيى البرمكي حسن للرشيد تولية ابنه محمد العهد، وتعهد بأخذ البيعة له في خراسان، فبايعه وسماه الأمين، وكتب بذلك إلى الأمصار الإسلامية فبايعه الناس. وقد ولى الرشيد الأمين عهده في سنة ١٧٣ هـ، وضم إليه الشام والعراق في سنة ١٧٥ هـ واختلف العباسيون في هذه البيعة: فبعضهم كان يميل إليها لأن الأمين ابن السيدة زبيدة وهي عربية عباسية، وبعضهم لم يعجبه هذا العمل لأنه كان يتطلع إلى الخلافة بعد الرشيد لصغر سن الأمين، وبعضهم كان لا يميل إلى المأمون لأن أمه كانت أم ولد من خراسان.

ولكن الرشيد أحس أنه أخطأ بتولية ابنه الأمين عهده وهو أصغر من أخيه عبد الله

(المأمون)، وأنه فعل ذلك بتأثير زوجه زبيدة أم الأمين وميل بني هاشم إلى الأمين، لأن أمه هاشمية، مع أنه لم يكن يصلح للخلافة، لما عرف به من سوء التصرف والتبذير، ثم ميله إلى مشاركة النساء في الرأي، مع ما عرف عن أخيه المأمون من الاستقامة وحسن التدبير وبعد النظر، وما تحلى به «من عزم المنصور ونسك المهدي وعزة نفس الهادي»[1]. ويظهر أن الرشيد أحسّ أنه تعجل بتولية ابنه الأمين دون عبد الله، وأخذ يفكر في العدول عن هذا الرأي وتحويل هذه البيعة إلى عبد الله، فبايع له في سنة ١٧٣ هـ وسماه المأمون، وولاه من حد همذان إلى آخر الشرق.

روى المسعودي عن الأصمعي[2] أنه قال: «بينما أنا أسامر الرشيد ذات ليلة، إذ رأيته قد قلق قلقاً شديداً، فكان يقعد مرة، ويضطجع مرة ويبكي ثم أنشأ يقول:

قلدْ أمورَ الله ذا ثقةٍ ... مُوَحَّدَ الرأي لا نكس ولا برم
واترك مقالة أقوام ذوي خَطَلٍ ... لا يَفهمون إذا ما مَعْشرٌ فهموا

فلما سمعت ذلك علمت أنه يريد أمراً عظيماً، ثم قال لمروان الخادم: «عليَّ بيحيى، فما لبث أن قال: يا أبا الفضل! إن رسول الله ﷺ مات في غير وصية، والإسلام جذع، والإيمان جديد، وكلمة العرب مجتمعة، قد آمنها الله تعالى بعد الخوف وأعزها بعد الذل. فما لبث أن ارتد عامة العرب على أبي بكر، وكان من خبره ما قد علمت، وأن أبا بكر صير الأمر إلى عمر فسلمت الأمة له ورضيت بخلافته ثم صيرها عمر شورى، فكان بعده ما قد بلغك من الفتن حتى سارت إلى غير أهلها، وقد عنيت بتصحيح هذا العهد وتصييره إلى من أرضى سيرته، وأحمد طريقته، وأثق بحسن سياسته، وآمن ضعفه ووهنه، وهو عبد الله؛ وبنو هاشم مائلون إلى محمد بأهوائهم، وفيه ما فيه من الانقياد لهواه والتصرف مع طويته، والتبذير لما حوته يده، ومشاركة النساء والإماء في رأيه. وعبد الله، المرضي الطريقة الأصيل الرأي الموثوق به في الأمر العظيم: فإن ملت إلى عبد الله أسخطت بني هاشم، وإن أفردت محمداً بالأمر لم آمن تخليطه على الرعية. فأشر علي في هذا الأمر برأيك مشورة يعم فضلها ونفعها، فإنك بحمد الله مبارك الرأي لطيف النظر. فقال: يا أمير المؤمنين! إن كل زلة مستقالة، وكل رأي يتلافى خلا هذا العهد، فإن الخطأ فيه غير مأمون، والزلة فيه لا تستدرك، والنظر فيه مجلس غير هذا. فعلم الرشيد أنه يريد الخلوة، فأمرني بالتنحي، فقمت وقعدت ناحية بحيث أسمع كلامهما، فما زالا في مناجاة ومناظرة طويلة حتى مضى الليل. وافترقا على أن عقد الأمر لعبد الله بعد محمد».

---

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٧٢.
(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

هكذا ولى الرشيد عهده ابنيه الأمين والمأمون. وفي سنة ١٨٦ هـ حج الرشيد بيت الله مع ولي عهده وعلق الشرطين في الكعبة[١].

ولم يقتصر الرشيد على تولية ابنيه الأمين والمأمون العهد، بل تعدى الأمر إلى ابنه القاسم، الذي ولاه عهده بعد الأمين والمأمون، وسماه المؤتمن، وولاه الجزيرة والثغور والعواصم. وهكذا قسم الرشيد الدولة العباسية بين أبنائه الثلاثة، وهيأ بذلك عوامل المنافسة والحسد بينهم، وألقى بذور الفتنة التي قامت بين الأمين والمأمون، وأضعفت الحزب العباسي، وهيأت السبيل لتقوية الحزب العلوي في عهد المأمون كما سيأتي. وقد وصف الطبري شعور الناس على اختلافهم في تولية الرشيد عهده فقال: ولما قسم الرشيد دولته بين أولاده الثلاثة، قال بعض العامة: قد أحكم أمر الملك، وقال بعضهم ألق بأسهم بينهم وعاقبة ما صنع في ذلك مخوفة على الرعية.

٢ ـ الفتنة بين الأمين والمأمون: كيف كانت هذه الفتنة جهاداً حزبياً بين الفرس أنصار المأمون من ناحية، وبين العرب أنصار الأمين من ناحية أخرى:

قامت ببغداد في خلافة الأمين (١٩٣ ـ ١٩٨ هـ) فتنة جامحة، حين عزم على خلع أخيه المأمون من ولاية العهد، وشجعه على ذلك وزيره الفضل بن الربيع، لأنه كان يخاف المأمون لما فعله عند وفاة الرشيد من إحضاره جميع عسكره إلى الأمين، وكان الرشيد قد أوصى به للمأمون. لذلك حسن الفضل بن سهل للأمين خلع أخيه والبيعة لابنه موسى، ووافق الفضل في رأيه بعض الناس. فمال الأمين إلى أقوالهم، على حين نهاه أصحابه وذوو الرأي في بغداد عن ذلك، وحذروه عاقبة البغي ونكث العهود والمواثيق، وقالوا له: «لا تجرىء القواد على النكث للإيمان وعلى الخلع فيخلعوك»[٢]. فلم يلتفت الأمين إليهم ومال إلى رأي الفضل بن الربيع، وولى عهده ابنه موسى، وسماه الناطق بالحق. وبذلك نكث الأمين العهد والميثاق الذي أخذه على نفسه، فأغضب الخراسانيين وغيرهم من أهالي الأمصار الإسلامية، وبخاصة أهالي الحجاز، فقاموا في وجهه واشتعلت نيران الفتنة التي أودت بخلافته.

على أن الأمين لما شرع في خلع المأمون دعاه للحضور إلى بغداد ليقر على نفسه بالخلع. ولكن المأمون اعتذر عن الحضور، وكثرت الكتب بينهما. ورق الأمين في مراسلاته إلى أخيه حتى كاد ينخدع ويوافق على خلع نفسه من ولاية العهد ومبايعة موسى بن الأمين. إلا أن الفضل بن

---

(١) راجع نسخة الشرط الذي كتبه عبد الله ابن أمير المؤمنين بخط يده في الكعبة في الطبري ج ١٠ ص ٧٦ ـ ٧٧ الملحق الحادي عشر.

(٢) أنظر نصيحة خزيمة بن خازم للأمين في كتاب الخلفاء للسيوطي ص ١٩٨.

سهل وزير المأمون شجعه على الامتناع وضمن له الخلافة: فقد اشتهر المأمون في أثناء مقامه بخراسان بالورع والتقوى، فحسنت سيرته وتمدح الناس بذكره، على حين انصرف الأمين بعد اعتلائه عرش الخلافة إلى اللهو والمجون. فلما ظهرت بوادر الفتنة، استمال الفضل بن سهل الناس إلى المأمون، وضبط الثغور، وقام بتفتيش الكتب الواردة إلى خراسان، وقبض على أعوان الأمين، كما قطع الأمين خطبة المأمون من بغداد.

قامت الفتنة بين الأخوين، وهي في الواقع نزاع حزبي بين الفرس أنصار المأمون من ناحية، وبين العرب أنصار الأمين من ناحية أخرى، وقد قاد أمر هذا النزاع الفضل بن سهل وزير المأمون وكان فارسياً، والفضل بن الربيع وزير الأمين وكان عربياً. وسرعان ما تغلب طاهر بن الحسين قائد المأمون على جند علي بن عيسى بن ماهان قائد الأمين وقتله بظاهر الري. ومما زاد مركز الأمين حرجاً شغب الحسين بن علي بن عيسى عليه وخلعه وحبسه، وانتصر كثير من الجند له، مما أدى إلى قيام الحروب بين جند الأمين أنفسهم(١).

وقد وضع حصار بغداد وسقوطها على أيدي طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين وزهير بن المسيب، حداً لهذا النزاع الذي انتهى بقتل الأمين. فقد نزل زهير رقة كلواذي، وحفر الخنادق، ونصب المجانيق، ورمى جند الأمين بالعرادات، وأخذ عشر أموال التجار، وجبى الضرائب على السفن. ونزل هرثمة نهر «بين»، وجعل عليه حائطاً وخندقاً، وأعد المجانيق، ونزل طاهر البستان القريب من باب الأنبار. وكان من أثر هذا الحصار أن ضاق الأمين ذرعاً، ونفدت أمواله واضطر لبيع كل ما في الخزائن والأمتعة، وضرب ما في قصوره من آنية الذهب والفضة دنانير ودراهم لينفق منها على الجند. ثم استولى طاهر على بعض أرباض بغداد ومدينة المنصور الشرقية وأسواق الكرخ، وعلى قصر الخلد، عدا أهل السجون والأوباش(٢)

ويظهر أن الأمين لم يقدر الظروف السيئة التي أحاطت به وبدولته. فقد أقبل برغم ذلك على اللهو والشراب، واعتمد على قواده، وعاث اللصوص وقطاع الطرق في الأرض فساداً، فتطاولوا على الرجال والنساء والضعفاء، وفي الوقت الذي حكم طاهر بن الحسين خطته لفتح بغداد، وأمر جنده بحسن معاملة الضعفاء والنساء مما كان له أثر يذكر في تحول كثير من رعايا الأمين إلى جانب قائد المأمون، وعلى رأسهم محمد بن عيسى صاحب شرطة الأمين، وعبد الله بن حميد بن قَحْطبة، ويحيى بن علي بن ماهان.

انتصر جند الأمين على جند طاهر بن الحسين في موقعة «درب الحجارة» التي قتل فيها

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠٤.

(٢) الطبري ج ١٠ ص ١٧٤. أنظر ما ورد في الباب الثامن عن بناء مدينة بغداد.

خلق كثير، وهزم هرثمة في موقعة «باب الشماسية» على يد رجل من الغزاة لولا أن حمل بعض أصحاب هرثمة على هذا الرجل وقطع يده وخلصه، فمر منهزماً وبلغ خبره أهل عكسره. فدب إلى نفوسهم اليأس وفروا نحو حلوان لا يلوون على شيء، وقويت بذلك الغزاة واشتد خطرهم، وأصبح طاهر بين نارين: إما أن يفر فيلحق به عار الهزيمة، وإما أن يحارب حتى يكتب له النصر؛ ثم أمر طاهر بإحراق مدينة بغداد وهدمها.

يقول الطبري[1] إن طاهر بن الحسين هدم «دور من خالفه ما بين دجلة ودار الرقيق وباب الشام وباب الكوفة إلى الصراة، وأرحاء أبي جعفر وربض حميد ونهر كرخايا والكناسة، وجعل يبايت أصحاب محمد (الأمين) ويداجهم، ويحوي في كل يوم ناحية من بعد ناحية ويخندق عليها المراصد من المقاتلة. وجعل أصحاب محمد ينقصون ويزيدون، حتى لقد كان أصحاب طاهر يهدمون الدار وينصرفون، فيقلع أبوابها وسقوفها أصحاب محمد، ويكونون أضر على أصحابهم من أصحاب طاهر تعدياً»..

ولكن أهل هذه الجهات لم يحفلوا بما حل بهم من القتل وببلدهم من التخريب والإحراق؛ ولم ير طاهر بدأ من التضييق عليهم، فحال دون وصول متاجرهم، واحتكر الدقيق فغلت الأسعار واشتد البلاء.

ضعف أمر الأمين وتركه بعض قواده، وانحازوا مع بعض تجار الكرخ ووجوهها إلى طاهر بن الحسين، وطلب الجند أرزاقهم؛ فأمر الأمين ببيع ما بقي من التحف في خزائنه، وغدا مركزه من أحرج المراكز، حتى إنه لم يعد يثق بأشد الناس اتصالاً به، وعبر عن سخطه وسوء حاله في هذه الكلمات: «وددت أن الله عز وجل قتل الفريقين جميعاً وأراح الناس منهم: فما منهم إلا عدو ممن معنا وممن علينا: أما هؤلاء فيريدون مالي وأما أولئك فيريدون نفسي».

اشتد البلاء على بغداد، وأيقن قواد الأمين أنه لا قبل لهم بمقاومة الحصار، فخشوا سوء مصيرهم، وأشار عليه جماعة منهم بالهرب إلى الجزيرة والشام وطلب النجدة من أهلها، وصادف هذا الرأي قبولاً منه. ولكن طاهر بن الحسين كتب إلى سليمان بن جعفر، وإلى محمد بن عيسى، وإلى السندي بن شاهك: «والله لئن لم تقروه وتردوه عن هذا الرأي لا تركت لكم ضيعة إلا قبضتها، ولا تكون لي همة إلا أنفسكم؛ فدخلوا على محمد (الأمين) فقالوا: لقد بلغنا الذي عزمت عليه، فنحن نذكرك الله في نفسك: إن هؤلاء صعاليك، وقد بلغ الأمر إلى ما ترى من الحصار، وضاق عليهم المذهب، وهم يرون ألا أمان لهم على أنفسهم وأموالهم عند

---

(١) ج ١٠ ص ١٨٤.

أخيك وعند طاهر وهرثمة، لما انتشر عنهم من مباشرة الحرب والجد فيها. ولسنا نأمن إذا برزوا بك وحصلت في أيديهم، أن يأخذوك أسيراً، ويأخذوا رأسك، فيتقربوا بك ويجعلوك سبب أمانهم، وضربوا له فيه الأمثال»(١).

واختلف أصحاب الأمين في الرأي: فطلب من هرثمة أن يتوسط في إصلاح ذات البين بينه وبين أخيه المأمون على أن ينزل عن الخلافة، فكتب إليه كتاباً يقول فيه: «قد كان ينبغي لك أن تدعو إلى ذلك قبل أن يتفاقم الأمر، أما الآن فقد جاوز السيل الزبى، وشغل الحلي أهله أن يعار. ومع ذلك... فإني لا آلو جهداً في كل ما عاد بصلاح حالك وقربك إلى أمير المؤمنين». فلما سمع الأمين ذلك استشار أصحابه، فأشاروا عليه بالقبول طمعاً في الإبقاء عليه. فلما جُنّ الليل لبس لباس الخلافة، وسار في الحراقة إلى هرثمة، فخرج طاهر وأصحابه فرموا الحراقة بالسهام، فألقى الأمين بنفسه في الماء، وركض إلى الشاطىء فحمل عليه بعض رجال المأمون وقتلوه وأخذوا رأسه، فبعث به طاهر بن الحسين إلى المأمون مع البردة والقضيب والسيف(٢).

على أننا إذا دققناالنظر في هذه الفتنة رأينا أن الرشيد كان السبب في هذه النكبات كلها لأنه:

أولاً ـ ولى الأمين دون المأمون مع أنه أكبر سناً.

ثانياً ـ أعطى المأمون امتيازاً كبيراً فيما أقطعه إياه، فاستطاع أن يناوىء الأمين ويتغلب عليه. فقد تولى الأمين العراق والشام، وتولى المأمون بلاد الفرس، وتولى المؤتمن بلاد المغرب ومصر.

ثالثاً ـ أن الأمين مال إلى تولية ابنه دون أخيه.

أما الأمين فإن خلعه وقتله يرجع إلى نكثه العهد والميثاق، وإخراجه أخاه المأمون من ولاية العهد، ونقضه العهدين اللذين تركهما أبوه، وفي ذلك ما فيه من انتهاك حرمة البيت المقدس.أأضف إلى ذلك تولية عيسى بن علي بن عيسى الحرب في خراسان، مع ما عرف عنه من القسوة في معاملة الأهلين، مما ساعد على ثورة الناس عليه، وانصراف الأمين عن أمور الخلافة واشتغاله باللهو والغناء.

---

(١) الطبري ج ١٠ ص ١٩٠ ـ ١٩٦.

(٢) انظر الطبري (ج ١٠ ص ١٩٢ ـ ٢٠٨) للوقوف على ما ذكره عن الفتنة التي قامت بين الأمين والمأمون.

٣ ـ تولية المأمون عليا الرضا عهده:

إن العوامل التي حملت الخليفة المأمون على أن يولي عهده علياً الرضا بن موسى الكاظم، وهو الإمام الثامن عند طائفة الإمامية الاثني عشرية، ثم ما كان من موت ذلك العلوي بتدبير المأمون ـ على ما ورد في المصادر الشيعية ـ جديرة بالبحث، لما لها من العلاقة الوثيقة بتاريخ الشيعة مٰن ناحية، ثم بتاريخ الخليفة المأمون العباسي من ناحية أخرى.

اتفق جمهور المؤرخين ـ من الشيعيين والسنيين ـ على ثلاث نقط أساسية لا شك في صحتها، وهي أن المأمون ولى عهده علياً الرضا، وأنه لبس الخضرة شعار العلويين، وأنه زوجه ابنته أم حبيب سنة ٢٠٢ هـ.

ولد علي الرضا سنة ١٥٠ هـ؛ وكان على جانب عظيم من العلم والورع. وقد قيل لأبي نواس: «علام تركت مدح علي بن موسى والخصال التي تجمعن فيه؟»، فقال: لا أستطيع مدح إمام كان جبريل خادماً لأبيه؛ والله ما تركت ذلك إلا إعظاماً له، وليس قدر مثلي أن يقول في مثله:

قيل لي أنت أحسنُ الناس طُرّاً	في فنونٍ من الكلام النبيه
لك من جيد القريض مديحٌ	يُثْمر الدر في يَدَيْ مجتنيه
فعلامَ تركتَ مدح ابن موسى	والخصالَ التي تجمّعن فيه؟
قلتُ: لا أستطيع مدحَ إمامٍ	كان جبريلُ خادماً لأبيه[١]

ويجمل بنا أن نسأل أي الغرضين أرجح: أكان شعور المأمون نحو علي الرضا شعوراً دينياً بحتاً الباعث عليه اقتناعه بأن بيت علي أحق بالخلافة من بيت العباس؟ أم كان ذلك الشعور الديني يحمل بين ثناياه مشروعاً سياسياً يرمي إلى اكتساب المأمون ولاء الخراسانيين الذين أشربت قلوبهم حب العقائد الشيعية، متأثراً بميوله الفارسية، إذ كانت أمه وزوجه فارسيتين، فشب على التشيع متأثراً بالفرس؟.

أما الجواب عن السؤال الأول، فإن بعض المصادر تؤيد القول بأن المأمون كان مخلصاً في تودده للعلويين جاداً في تولية علي الرضا عهده، وأن الذي حمله على ذلك هو إفراطه في التشيع حتى قيل إنه همّ بخلع نفسه وتفويض الأمر إليه، وضرب الدراهم باسمه، وخطب له مع الخليفة على المنابر، وزوجه ابنته. من ذلك ما ذكره محمد بن النعمان من أن المأمون أرسل الجلودي إلى المدينة، وطلب إليه أن يحث أفراد البيت العلوي على الرحيل معه إلى مرو حاضرة

---

(١) ابن خلكان: كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ٣١١ ـ ٣٢٢.

خراسان، فلبى الجلودي أوامر الخليفة ونهض بالأمر. فلما قدموا مرو استقبلهم المأمون في قصره، واحتفل بهم، وخص علياً الرضا برعايته وعطفه وأفرد له منزلاً خاصاً به[١].

ثم بعث المأمون في طلب الحسن والفضل ابني سهل وأسرَّ إليهما عزمه على تولية الرضا عهده. وقد اختلف الأخوان في الرأي، فقاوم الحسن الفكرة أشد مقاومة، وحذر المأمون مغبة الأخذ بهذه السياسة لما فيها من تحويل الخلافة إلى بيت علي، فقال له المأمون: «إني عاهدت الله إن ظفرت بالمخلوع (يعني أخاه الأمين) أخرجت الخلافة إلى أفضل آل أبي طالب. وما أعلم أحداً أفضل من هذا الرجل على وجه الأرض»[٢].

وكان الفضل يطمح إلى الاستئثار بالنفوذ في دولة المأمون؛ غير أنه لما رأى أن هذا الأمر لا يتم له والعراق في أيدي طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين، عمل على إقصائهما عما كانا يليانه من البلاد حتى يضعف بذلك نفوذهما، وولى أخاه الحسن بن سهل بلاد العراق.

وقد عضد الفضل بن سهل فكرة تحويل الخلافة إلى بيت علي. يدل على ذلك ما كان من تدبير المأمون اغتياله بمرو قبل رحيله إلى بغداد، ثم ما كان من قتله الرضا بالسم وهو في طريقه إليها.

وقد ذكر الطبري[٣] أن علياً الرضا لما قدم مرو، أحسن المأمون وفادته، وجمع رجال دولته وأخبرهم أنه قلب نظره في أولاد العباس وأولاد علي بن أبي طالب، فلم يجد أحداً أفضل ولا أورع ولا أعلم منه. فولاه عهده ولقبه «الرضا من آل محمد»، وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين، وكتب بذلك إلى الآفاق (وذلك لليلتين خلتا من رمضان سنة ٢٠١ هـ).

فأحفظ ذلك بني العباس، ولا سيما منصور وإبراهيم ابني المهدي، وامتنع أهل بغداد عن البيعة للرضا؛ ثم خاض الناس في خلع المأمون وأخذ البيعة لإبراهيم بن المهدي. وكان في جانب المأمون رجال كرهوا تولية علي الرضا العهد، وخافوا خروج الخلافة من بيت العباس وعودها إلى بني فاطمة.

وفي مجمع حافل يضم الأشراف والأمراء ورجال الدولة، أعلن الفضل بن سهل بالنيابة عن الخليفة ولاية عهد علي بن موسى الكاظم بعد المأمون. وبعد أسبوع أقيم احتفال كبير أقر فيه المأمون وابنه العباس بيعة الرضا، ثم وزعت الجوائز والخلع على كبار رجال الدولة وعلى

---

(١) محمد بن النعمان: كتاب الإرشاد، مكتبة الجامعة بليدن، مخطوط رقم ١٦٤٧، ورقة رقم ٢٢٧ (أ).
(٢) النسيبي كتاب مطالب السول في غزوات الرسول، ليدن، مخطوط رقم ١٩٧٩ ورقة رقم ٢٢٢ (أ).
(٣) جـ ١٠ ص ٤٣.

الشعراء الذين أشادوا بفضائل الرضا وامتدحوا المأمون.

ومنح المأمون كبار عمال الدولة عطاء سنة، وأجاز دعبل بن علي الخزاعي الشاعر المتشيع المشهور بخمسين ألف درهم، وأجزل الوزير عطاءه. ومن هذه القصيدة التي أذاعت ذكر دعبل بين شعراء عصره:

ذكـرتُ محلَّ الـربـع من عـرفـات   فـأسبلتُ دمـع العـين بـالعـبرات

ويروي بعض المؤرخين أن علياً أفضل الخلفاء الراشدين، ويعزو بعض آخر ذلك إلى عوامل سياسية: ذلك أن الفرس كانوا يعتقدون أن العلويين هم وحدهم أحق بحمل التاج لصفتهم المشتركة من آل ساسان وآل علي، لأن أولاد الحسين بن علي من ابنة يزدجرد الثالث. وقد كتب المأمون بذلك إلى الأمصار الإسلامية، وأمر المسلمين بلبس الخضرة شعار العلويين بدل السواد شعار العباسيين.

وليس من عجب في ذلك، فقد كان المأمون نفسه متأثراً بالعقائد الفارسية، لأن أمه كانت خراسانية، ولأنه بعمله هذا يستطيع أن يكتسب رضاء الفرس وإخلاصهم؛ لذلك يمكن أن يعد عمله هذا سياسياً أكثر منه دينياً. يدل على ذلك أن الناس ببغداد هاجوا، وبايعوا إبراهيم بن المهدي بالخلافة، فبقي فيها سنتين تقريباً (٢٠٢ ـ ٢٠٤ هـ) حتى دخل المأمون بغداد.

أما عن السؤال الثاني. وهو: هل كان ذلك الشعور الديني يحمل بين ثناياه مشروعاً سياسياً يرمي إلى اكتساب ولاء الخراسانيين المتشيعين؟ فالجواب عنه أن بعض مؤلفي المصادر الشيعية والسنية يرى أن تولية المأمون علياً الرضا ولاية العهد لم تكن إلا سياسة منه لاستمالة قلوب الخراسانيين، فإن العلاقة التي بين المأمون وعلي الرضا، والتي كان ظاهرها الإخلاص والمحبة، لم تلبث أن تغيرت، لما كان يراه المأمون من التفاف الخراسانيين حول علي الرضا، وما كان يخشاه من تحول الخلافة عنه إلى العلويين إذا هو تورط في هذه السياسة. يدل على ذلك هذه العبارة[1] «ومما تلقته الأسماع ونقلته الألسن في بقاع الأصقاع، أن الخليفة المأمون وجد في يوم عيد انحراف مزاج أحدث عنه ثقلاً عن الخروج إلى الصلاة بالناس، فانتدب أبا الحسن علياً الرضا للصلاة بالناس، فخرج وعليه قميص قصير أبيض وعمامة بيضاء، وهي من قطن، وفي يده قضيب. فأقبل ماشياً يؤم المصلى وهو يقول: السلام على أبوي آدم ونوح! السلام على أبوي إسماعيل وإبراهيم! السلام على أبوي محمد وعلي! السلام على عباد الله الصالحين! فلما

(١) النسيبي: مطالب الرسول: ورقة ١٢٤ ب.

رآه الناس هرعوا إليه وانثالوا عليه لتقبيل يده، فأسرع بعض الحاشية إلى الخليفة المأمون وقال له: يا أمير المؤمنين! تدارك الناس وأخرج وصل بهم، وإلا خرجت الخلافة منك الآن[1]. فحمله هذا الأمر إلى الخروج بنفسه، وجاء مسرعاً والرضا لم يخلص إلى المصلى، لكثرة ازدحام الناس عليه، فتقدم المأمون وصلى بالناس».

وإذا رجعنا إلى بعض المصادر الشيعية، فإننا نقف منها على أن العلاقة بين المأمون وعلي الرضا لم تكن على شيء من الصفا. فقد كان الرضا يكثر من وعظ المأمون إذا خلا به ويخوفه غضب الله عز وجل ويقبح ما يرتكبه من خلافه، والمأمون يظهر قبول ذلك منه ويبطن كراهيته للرضا. على أننا لا نستطيع الجزم بأن ما ذكرناه مستمد من جميع المصادر الشيعية التي رجعنا إليها، لأن بعض المؤرخين لم يذكر شيئاً عن سوء العلاقة بين المأمون والرضا، وإنما اقتصروا على القول بأن المأمون هو الذي دبر موته.

قال ابن القفطي[2]: «قال عبد الله بن سهل بن نوبخت المنجم، وهو منجم مأموني كبير القدر في صناعته يعلم المأمون قدره في ذلك ـ وكان لا يقدم إلا عالماً مشهوداً له بعد الاختبار ـ وكان المأمون قد رأى آل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب متخشين متخفين من خوف المنصور ومن جاء بعده من بني العباس، ورأى العوام قد خفيت عنهم أمورهم بالاختفاء، فظنوا بهم ما يظنون من الأنبياء، ويتفوهون في صفتهم بما يخرجهم عن الشريعة من التغالي. فأراد معاقبة العامة على هذا الفعل، ثم فكر أنه إذا فعل هذا بالعوام زادهم إغراء به، فنظر في هذا الأمر نظراً دقيقاً وقال: لو ظهروا للناس ورأوا فسق الفاسق منهم وظلم الظالم، لسقطوا من أعينهم ولانقلب شكرهم لهم ذماً، ثم قال: إذا أمرناهم بالظهور خافوا واستتروا وظنوا بنا سوءاً. وإنما الرأي أن تقدم أحدهم وتظهر لهم إماماً. فإذا رأوا هذا أنسوا وظهروا وأظهروا ما عندهم من الحركات الموجودة في الآدميين، ويتحقق للعوام حالهم وما هم عليه مما خفي بالاختفاء. فإذا تحقق ذلك أزلت من أقمته ورددت الأمر إلى حالته الأولى. وقوي هذا الرأي عنده، وكتم باطنه عن خواصه، وأظهر للفضل بن سهل أنه يريد أن يقيم إماماً من آل أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب) صلوات الله عليه! وأفكر هو وهو فيمن يصلح، فوقع إجماعهما على الرضا، فإذا الفضل بن سهل في تقرير ذلك وترتيبه، وهو لا يعلم باطن الأمر. وأخذ في اختيار وقت لبيعة الرضا، فاختار طالع السرطان وفيه المشتري. قال عبد الله بن سهل نوبخت هذا: أردت أن

---

(١) وقد ذكر محمد بن النعمان (مخطوط رقم ١٦٤٧ ورقة ١٣٠ (أ) أن الفضل بن سهل الوزير هو الذي أسرع إلى المأمون وأخبره بخطورة المركز وما كان من شغب الناس.

(٢) اختبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٢١ ـ ٢٢٣.

أعلم نية المأمون في هذه البيعة، وأن باطنه كظاهره أم لا، لأن الأمر عظيم، فأنفذت إليه في هذه قبل العقد رقعة مع ثقة من خدمه ـ وكان يحيى في مهم أمره ـ وقلت له: إن هذه البيعة في الوقت الذي اختاره ذو الرياستين لا تتم بل تنقص، لأن المشتري، وإن كان في الطالع في بيت شرفه، فإن السرطان برج متقلب. وفي الرابع ـ وهو بيت العافية المريخ، وهو نحس، وقد أغفل ذو الرياستين هذا، فكتب المأمون إلي: قد وقفت على ذلك، أحسن الله جزاءك! فاحذر كل الحذر أن تنبه ذا الرياستين على هذا، فإنه إن زال عن رأيه علمت أنك أنت المنبه له. فهو ذو الرياستين بذلك، فما زلت أصوب رأيه الأول خوفاً من اتهام المأمون لي. وما أغفلت أمري حتى مضى أمر البيعة، فسلمت من المأمون».

وإذا صح ما قيل من أن شعور المأمون نحو آل علي كان شعوراً دينياً يحمل بين ثناياه مشروعاً سياسياً يرمي إلى اكتساب ولاء الخراسانيين الذين أشربت قلوبهم حب العلويين، إذا صح ذلك تبين لنا أن المأمون لم يرد بهذا العمل إلا اكتساب رضاء العنصر الخراساني وضم العلويين إلى صفه وتهدئة الخواطر، وأنه لم يكن مخلصاً في تحويل الخلافة إلى العلويين، وأن هذا لم يكن إلا سياسة دعت إليها الضرورة وسياسة الملك. ولا أدل على ذلك من نقضه كل ما أبرم من تولية الرضا عهده حينما أمكنته الفرصة.

وانتهى الأمر بتلك المأساة التاريخية، وهي اغتيال كل من الفضل بن سهل وعلي الرضا، فقد هاج الناس ببغداد وماجوا، وغرقت حاضرة العباسيين في لجج الفوضى، وخاض الناس في خلع المأمون، وفكروا في تولية إبراهيم بن المهدي ـ كما تقدم ـ ولقبوه المبارك. وكتب الحسن بن سهل إلى أخيه الفضل ـ وقد أحس بما أضمره المأمون له من شر ـ ينصح له بأن يحتاط لنفسه خشية الاغتيال وقال في كتابه: «إني نظرت في تحويل السنة، فوجدت فيه أنك تذوق في شهر كذا يوم الأربعاء حر الحديد وحر النار، وأرى أن تحجم أنت وأمير المؤمنين والرضا من دخول الحمام في هذا اليوم ليزول عنك نحسه». ودخل الفضل الحمام في يوم الأربعاء الذي حذره منه أخوه، فقبض عليه جماعة من الرجال واغتالوه[١].

ويظهر أن كتاب الحسن بن سهل لم يصل إلى أخيه الفضل قبل يوم الأربعاء المشؤوم، أو أنه أرغم على دخول الحمام بعد أن وصل إليه الكتاب. وإن صحت هذه الرواية، فقد لهج الحسن بن سهل بما كان سائداً بين أفراد البيت العباسي ببغداد، وبما كان من هياجهم على المأمون لتوليته رجلاً من العلويين، وعملهم على التخلص من المأمون والرضا والفضل.

وكان للفضل بن سهل شيعة قوية تؤيده وتنصره. فلما رأوا ما حل به، اتهموا المأمون

(١) محمد بن النعمان: كتاب الإرشاد ورقة ٢٣٠ ب.

ورموه بالاشتراك في المؤامرة، وشغب قواده خراسان وجنودهم وغيرهم من أنصار الفضل على الخليفة، وتجمعوا ببابه وهموا بإحراقه. ولما رأى المأمون أن حياته مهددة بالخطر، طلب إلى علي الرضا أن يركب إلى الثوار ويصرفهم. وكان الرضا هو الوسيلة الوحيدة لنجاة الخليفة وتهدئة الخواطر، لمحبة أهل خراسان له وصدقهم في الإخلاص لطاعته. ولا غرو، فإن إشارة واحدة منه كانت كفيلة بتهدئة خواطر الثائرين وعدولهم عن رأيهم.

هكذا مات الفضل بن سهل وتفرق أنصاره، ونجا الخليفة مما كان يتهدده من الخطر في ذلك الظرف العصيب. وبموت الفضل بن سهل لم يبق أمام المأمون إلا علي الرضا، فلننظر كيف تخلص منه.

اختلفت كلمة المؤرخين في كيفية قتل الرضا: فمنهم من ذكر أن المأمون دس له السم في عنقود من العنب أو في بعض الأشربة. وذكر محمد بن النعمان[1] أن المأمون أمر أحد رجاله أن يطيل أظفاره وألا يطلع أحداً على ذلك. ثم استدعاه فأخرج إليه شيئاً يشبه التمر هندي وقال له: «إعجن هذا بيديك جميعاً»، ففعل، ثم دخل علي الرضا، فكلم المأمون بما أغضبه، فصاح المأمون بأحد غلمانه، وأمره أن يقدم إلى الرضا ماء الرمان (أو عصير التمر هندي على الأصح) ثم قدمه المأمون للرضا، فمات بعد يومين. وقد ذكر ابن أبي الصلت، الذي روى محمد بن النعمان هذه الحكاية عنه، أنه دخل على الرضا وقد خرج المأمون من عنده فقال: يا أبا الصلت! لقد فعلوها والله، وجعل يوحد الله. وقد روى هذا المؤرخ نفسه رواية أخرى عن كيفية موت الرضا، فذكر أنه كان يحب العنب، فأخذ له شيء منه، فجعل في موضع اقماعه الإبر أياماً، ثم نزعت وجيء به إليه، فأكل منه وهو في علته التي ذكرناها فقتلته.

ومن الواضح أن هذه الروايات متهمة لأنها جاءت من مصدر شيعي، على حين سكت معظم المصادر الموثوق بها عن ذكرها.

وقد اتفق المؤرخون على أن المأمون أظهر عند وفاة الرضا أعمق مظاهر الحزن. وهكذا نجحت سياسة المأمون، فاغتيل الفضل بن سهل وقتل علي الرضا بالسم، ودفن في سناباذ من أعمال طوس التي دفن فيها الرشيد، وحرم ابنه محمد ولاية العهد بعد أبيه، وعاد المأمون ثانية إلى السواد شعار العباسيين.

كانت سياسة المأمون نحو العلويين تنطوي على كثير من العطف والتسامح. ويظهر ذلك مما رواه ابن طباطبا[2] عن خروج محمد بن جعفر الصادق على المأمون فقال: وفي أيامه خرج

---

(١) ورقة ٢٣١ ب ٢٣٢ أ.

(٢) الفخري ص ٢٠١.

محمد بن جعفر الصادق عليهما السلام بمكة، وبويع بالخلافة وسموه أمير المؤمنين. وكان بعض أهله قد حسن له ذلك، حين رأى كثرة الاختلاف ببغداد وما بها من الفتن وخروج الخوارج. وكان محمد بن جعفر شيخاً من شيوخ آل أبي طالب، يقرأ عليه العلم. وكان (قد) روى عن أبيه عليه السلام علماً جماً. فمكث بمكة مدة، وكان الغالب على أمره ابنه وبعض بني عمه، فلم تحمد سيرتها، وأرسل المأمون عسكراً فكانت الغلبة له، وظفر به المأمون وعفا عنه[١].

ومهما يكن من شيء، فقد أجمعت المصادر الشيعية والسنية على أن المأمون كان يعطف على العلويين ويرى أن الخلافة قد اغتصبت منهم، وكان يعترف بحسن معاملة العلويين لأبناء عمهم العباسيين. فقد روى السيوطي[٢] أن المأمون قال يوماً وقد سئل عن سبب بره بالعلويين: «وإنما فعلت ما فعلت لأن أبا بكر لما ولي لم يول أحداً من بني هاشم شيئاً، ثم عمر ثم عثمان كذلك. ثم ولي علي فولى عبد الله بن عباس البصرة، وعبيد الله اليمن، ومعبداً مكة، وقثم البحرين: وما ترك أحداً منهم حتى ولاه شيئاً، فكانت هذه في أعناقنا حتى كافأته في ولده بما فعلت».

وليس أدل على حب المأمون لأولاد علي بن أبي طالب من هذه الوصية التي أوصى بها أخاه المعتصم قبل وفاته: «وهؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئهم، وأقبل من محسنهم، وصلاتهم فلا تغفلها في كل سنة من محلها، فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى»[٣].

وقد ظل المأمون يعامل العلويين معاملة تتفق وما كان يعتقده في فضل علي بن أبي طالب، إلى أن خرج في سنة ٢٠٧ هـ ببلاد اليمن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب؛ فبعث إليه المأمون أحد رجاله في جيش كثيف فأمنه وعاد به إلى المأمون، فأمر المأمون بمنع العلويين من الدخول عليه وحتم عليهم لبس السواد.

٤ ـ ظهور العنصر التركي:

اعتمد الأمويون على العنصر العربي فأسندوا إليهم أهم مناصب الدولة، كما اعتمدوا عليهم في الشؤون الحربية، ولم يساووا بينهم وبين العجم وخاصة الموالي من الفرس الذين عملوا على التخلص من الأمويين وأخذوا ينضمون إلى الثائرين عليهم، وكانوا من أقوى

---

(١) انظر مقالة المؤلف «المأمون علي الرضا» بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة المجلد الأول الجزء الأول، مايو سنة ١٩٣٣.

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٠٥.

(٣) الطبري جـ ١٠ ص ٢٩٥.

العوامل في القضاء على الأمويين كما رأينا. ولما آل الأمر إلى العباسيين، اعتمدوا على هؤلاء الموالي الذين قامت دولتهم على أكتافهم، وأخذوا عنهم كثيراً من نظم الحكم التي كانت سائدة في العهد الساساني، وأهملوا العنصر العربي إهمالاً ظهر أثره في بعض الحركات التي كانت نتيجة سخط العنصر العربي على العنصر الفارسي. ومن أقوى الأمثلة على ذلك تآمر الفضل بن الربيع على البرامكة. ثم قامت الفتنة بين الأمين والمأمون، فكانت في الواقع انتصاراً للفرس على العرب، وذلك نتيجة للعداء القديم الذي قام بين العرب والفرس.

ولما ولي المعتصم الخلافة، وكانت أمه تركية، أهمل العنصر العربي والفارسي واعتمد على الأتراك الذين اتخذهم حرساً له، وأسند إليهم مناصب الدولة كما فعل أخوه المأمون مع الخراسانيين. وكان المعتصم بذلك أول خليفة عباسي استعان بالأتراك وأسند إليهم مناصب الدولة. وقد عني المعتصم باقتناء الترك، فبعث في شرائهم إلى سمرقند وفرغانة وغيرهما من النواحي، وبذل في سبيل ذلك الأموال وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب[١].

وكان المعتصم يرى أن دولته الواسعة لا بد أن يقوم بحراستها جيش قوي، فاستكثر من الأتراك لأن أمه كانت تركية كما تقدم. وكانوا يجلبون من أسواق الرقيق في بلاد ما وراء النهر، واتخذ من حسن هندامهم وجمال منظرهم وشجاعتهم وتمسكهم بأهداب الإسلام سبباً للاعتماد عليهم، فولاهم حراسة قصره، وأسند إليهم أعلى المناصب، وقلدهم الولايات الكبيرة، وأدر عليهم الهبات والأرزاق وآثرهم على الفرس والعرب في كل شيء[٢].

وما لبث أن تفاقم نفوذ هؤلاء الأتراك وزاد عددهم حتى أربى على الخمسين ألفاً كما يقول جبون[٣]. وكان هؤلاء الأتراك يرسلون إلى الخلفاء العباسيين مع الهدايا التي كان يبعث بها الولاة من بلاد ما وراء النهر. ومن هؤلاء الأتراك طولون أبو أحمد بن طولون الذي أهداه والي هذه البلاد إلى الخليفة المأمون. وكان هؤلاء الأتراك يتدفقون سنة بعد سنة على أسواق بغداد، حتى كثر عددهم، واستطاعوا أن يصلوا من هذه الأسواق إلى بلاط الخلفاء أولا ثم إلى الجيش أخيراً.

وكان الشاب التركي يحصل على حريته إذا ما أخلص في خدمة مولاه. وقد جرت العادة أن يصل إلى المناصب الكبيرة في البلاط العباسي. وأخذ هؤلاء الأتراك الذين كانوا بعيدين عن

---

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٢٣.

(٢) النظم الإسلامية للمؤلف الطبعة الثالثة ص ١٨٤.

(٣) Decline and Fall of the Roman Empire, vol. IV. p.47.

الحضارة والعلم يندمجون في طبقات الأمراء المثقفين، فاعتنقوا الإسلام وتأدبوا بآدابه، وتعلموا العربية ووقفوا على أحكام القرآن، ودرسوا العلوم الطبيعية والسياسية، حتى إذا ما أصبح أحدهم ذا كفاية تؤهله للاضطلاع بشؤون الدولة أو القيام بأعباء المناصب العالية في البلاط، تحرر من عبوديته وتولى المنصب الذي يتناسب مع كفاءته ومواهبه. ومن ثم رشحوا للمناصب على اختلافها ووصلوا إلى أعلى مراتبها، من الاندماج في سلك البلاط إلى تقلد أكبر الولايات.

وقد بلغ من نفوذ هؤلاء الأتراك أن أخذ الخلفاء يقطعونهم الولايات الإسلامية، على أن يؤدوا لدار الخلافة جزية معينة على نحو ما كان متبعاً في نظام الإقطاع الذي ذاع في أوروبا في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين.

وقد جرت العادة أن يستخلف هؤلاء الأتراك نواباً عنهم يحكمون هذه البلاد باسمهم، فكانوا يدعون لهم بعد الخليفة وينقشون اسمهم على السكة. وكان هؤلاء الأتراك من كبار رجال البلاط العباسي. ولم يكن من السهل أن يتركوا دار الخلافة في بغداد أو سامراء وما فيها من نعيم وترف، ثم يأتون إلى هذه الولايات للإقامة فيها. يقول لينبول[١]: «إن هذا الانقلاب من الحكم العربي إلى الحكم التركي كان مظهراً من مظاهر الثورة التي أحس بها معظم أجزاء الخلافة، وعاد إلى إضعاف سلطة الخليفة وزوالها في النهاية». ومن ذلك الوقت الذي التحم فيه العرب بالأتراك على ضفاف نهر سيحون، وأضحى هؤلاء تحت النفوذ العربي، صار لهؤلاء الأسرى مجال فسيح في الأسر الإسلامية: فقوة أبدانهم وجمال طلعتهم، وشجاعتهم وأمانتهم ـ كل هذه الصفات أكسبتهم ثقة كبار الأمراء من العرب وخاصة الخلفاء، الذين اعتقدوا أنهم باعتمادهم على أمانة هؤلاء الأجانب الذين اشتروهم بالمال، يكونون أكثر طمأنينة على أنفسهم من اعتمادهم على أبناء جلدتهم من العرب الذين عرفوا بالغيرة والحسد، أو على الفرس الذين تفاقم نفوذهم حتى عده الخلفاء العباسيون مهدداً لكيان دولتهم وسلامتها. وكان لهم إلى ذلك الوقت نصيب كبير في إدارة شؤون الدولة العربية.

ولم يلبث الأتراك أن أصبحوا آفة على أهل بغداد الذين عانوا من عنتهم وجورهم شيئاً كثيراً. وفي ذلك يقول المسعودي[٢] «إن الأتراك كانوا يؤذون العوام بمدينة السلام بجريهم بالخيول في الأسواق، وإلحاق الأذى بالضعفاء والصبيان فكان أهل بغداد يثورون على بعضهم

---

(١) History of Egypt in the Middle Ages, p. 29

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٤٩.

فيقتلونهم إذا صدموا امرأة أو شيخاً كبيراً أو صبياً أو ضريراً». وقد زاد الطبري[١] هذه المسألة بياناً فقال: «إن غلمانه الأتراك كانوا لا يزالون يجدون الواحد بعد الواحد منهم قتيلاً في أرباضها، وذلك أنهم كانوا عجماً جفاة، يركبون الدواب فيتراكضون في طرق بغداد وشوارعها فيصدمون الرجل والمرأة، ويطئون الصبي فيأخذهم الأبناء[٢]، فينكسونهم عن دوابهم ويجرحون بعضهم، فربما هلك من الجراح بعضهم، فشكت الأتراك ذلك إلى المعتصم وتأذت بهم العامة، فذكر أنه رأى المعتصم راكباً منصرفاً من المصلى في يوم عيد أضحى أو فطر. فلما صار في مربعة الحرشي، نظر إلى شيخ قد قام إليه فقال له: يا أبا إسحاق! فابتدره الجند ليضربوه، فأشار إليهم المعتصم فكفهم عنه؛ فقال الشيخ: ما لك؟ قال: «لا جزاك الله عن الجوار خيراً، جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج[٣] فأسكنتهم بين أظهرنا، فأيتمت بهم صبياننا وأرملت بهم نسواننا وقتلت بهم رجالنا، والمعتصم يسمع ذلك كله».

وكان من أثر ازدياد نفوذ الأتراك أن حقد عليهم العرب وتآمروا على المعتصم والأفشين وأشناس[٤] وغيرهم من قواد الأتراك، وأثار عُجيف بن عَنْبسة القائد العربي العباس بن المأمون على عمه المعتصم ولكن المعتصم، وإن كان قد قضى على العباس وعجيف، وأقصى العرب من مناصب الدولة المدنية والعسكرية ومن ديوان العطاء، أتاح بذلك الفرصة للأتراك فزاد من نفوذهم، حتى أصبحوا خطراً على الخلفاء العباسيين وعلى الدولة العباسية.

وقد استفحل خطر هؤلاء الأتراك حتى قيل إن المعتصم نفسه شكا من قوادهم في أواخر أيامه، ولو أنه استعان بقواد العرب لأتيح له استعادة سلطان الخلافة. وقد عبر المعتصم عن أسفه لاعتماده على هؤلاء الأتراك في هذه العبارة التي خاطب فيها أحد جلسائه فقال: «في قلبي أمر أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة: نظرت إلى أخي المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا، واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم، قلت: ومن الذين اصطنعهم أخوك؟ قال: طاهر بن الحسين فقد رأيت وسمعت، وعبد الله بن طاهر فهو الرجل الذي لم ير مثله، وأنت، فأنت

---

(١) جـ ١٠ ص ٣١١.

(٢) الأبناء هم البقية الباقية من الفرس الذين طردوا الأحباش من اليمن أيام سيف بن ذي يزن الذي استنجد بكسرى أنو شروان فأرسل معه قائده وهريز.

(٣) العلج حمار الوحش الغليظ، ورجل علج أي شديد.

(٤) ذكر الطبري (جـ ١٠ ص ٣٩٩) نفراً من هؤلاء الأتراك ورد ذكرهم في قصيدة أحد الزط نقل منها هذين البيتين:

فاستنصروا العبد من أبناء دولتكم	من يا زمان ومن بلج ومن توز
ومن شناس وأفشين ومن فرج	المعلمين بديباج وإبريز

والله الذي لا يعتاض السلطان منك أبداً، وأخوك محمد بن إبراهيم وأين مثل محمد؟ وأنا فاصطنعت الأفشين، فقد رأيت إلى ما صار أمره. وأشناس ففشل رأيه، وإيتاخ فلا شيء، ووصيف فلا مغنى فيه. فقلت: يا أمير المؤمنين أعزك الله! نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها، واستعمل أمير المؤمنين فروعاً لم تنجب إذ لا أصول لها. قال: يا إسحاق! لمقاساة ما مر بي في طول هذه المدة أسهل علي من هذا الجواب»[1].

على أن قوة شكيمة المعتصم قد حدت من نفوذ الأتراك. فلما مات وولي الخلافة بعده ابنه الواثق، أخذ هؤلاء يتدخلون في أمور الدولة، حتى أصبح مكتوف الأيدي مسلوب السلطة. ولما ولي المتوكل الخلافة حاول أن يكف أيديهم فقتلوه، وصار ابنه المنتصر الذي اشترك معهم في قتله، طوع بنانهم، وأصبحت الدولة العباسية ميداناً للفوضى والدسائس وغدا في أيدي هؤلاء الأتراك أمر تولية الخليفة وعزله أو حبسه وقتله.

على أن ظهور العنصر التركي قد أدى إلى إخماد نار الخصومة بين الفرس والعرب حيناً وبين العلويين والعباسيين حيناً آخر، لأنه استأثر بالأمر دون الفريقين، ولم يكن يحفل بأولئك أو هؤلاء. ومن هنا بدأ ظهور الدولة المستقلة وشبه المستقلة في أطراف الدولة العباسية: كالصفارية والسامانية والغزنوية، والعلوية بطبرستان والأغلبية بتونس، والفاطمية ببلاد المغرب، والطولونية والإخشيدية بمصر، وبني أمية بالأندلس، والزيدية باليمن.

---

(١) الطبري جـ ١١ ص ٨ ـ ٩.

الباب الرابع

العلاقات الخارجية

١ ـ مع مصر:

وضع الرسول ﷺ أساس السياسة الخارجية للعرب: فبعث في السنة السادسة للهجرة أصحابه إلى هرقل امبراطور الدولة البيزنطية، وإلى كسرى فارس، وإلى نجاشي الحبشة، وإلى المقوقس حاكم مصر من قبل هرقل، وإلى أمير اليمامة، وإلى أمير الغسانيين. فمنهم من تلطف في الرد ومنهم من أساء معاملة رسل النبي ﷺ.

وقد أعد الرسول قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى جيشاً لغزو أطراف الشام بقيادة أسامة بن زيد؛ غير أن وفاته حالت دون إرسال هذا الجيش. فلما ولي أبو بكر الخلافة أمر أسامة بغزو بلاد الروم. وما كاد ينتهي من حروب الردة، حتى دعا المقاتلين من أرجاء الجزيرة العربية للجهاد في سبيل الله، وأنفذهم لغزو دولتي الفرس والروم في وقت واحد، مع ما كان لكل من هاتين الدولتين من سعة الملك وبسطة السلطان ووفرة الثروة. وبذلك وضع المسلمون أساس السياسة الخارجية ثم توجهت همتهم في عهد الدولة الأموية نحو الشمال والغرب، حيث الدولة الرومانية الشرقية التي كانت تغير على البلاد الإسلامية المجاورة لها، وحاول العرب فتح القسطنطينية غير مرة. ولما تحول الحكم إلى العباسيين زادت علاقات المسلمين بغيرهم، ولا سيما بمصر والمغرب، والأندلس والفرنجة، وبالدولة البيزنطية وبلاد الهند.

وكان من أثر تحول الخلافة من الأمويين إلى العباسيين أن قامت في مصر حاضرة جديدة حلت محل الفسطاط، هي مدينة العسكر. فقد رأى صالح بن علي العباسي (المحرم سنة ١٣٢ ـ شعبان سنة ١٣٣، ١٣٧ ـ ١٣٧ هـ) أن مدينة الفسطاط تضيق بعسكره، فاختار الموضع الذي كان يعرف بالحمراء القصوى[1].

ولما خلف أبو عون صالح بن علي ولاية مصر، أمر أصحابه بالبناء ثم بنى الفضل بن صالح بن علي العباسي (١٦٩ ـ ١٦٩ هـ) في مدينة العسكر جامعاً عرف بجامع العسكر، وأخذ الناس في عمارة الدور حتى اتصلت هذه الحاضرة الجديدة بمدينة الفسطاط.

(١) تخربت هذه الحمراء قبل قدوم مروان بن محمد الأموي إلى مصر واستحالت صحراء.

وقد قام الجند العربي في مصر، كما قام القبط الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من أهالي هذه البلاد، بدور هام في السياسة في العصر العباسي الأول. فقد اشتركوا في فتنة محمد النفس الزكية بن عبد الله بن الحسن العلوي الذي ظهرت دعوته في هذه البلاد حيث نشر ابنه علي بن محمد الدعوة له فيها. غير أن والي أبي جعفر المنصور على مصر استطاع أن يحيط ثورة أنصار علي، وانطفأت جذوة هذه الثورة بعد أن اتصل بهم نبأ وفاة إبراهيم بن عبد الله(١).

وفي عهد الخليفة المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ) خرج في مصر دِحْية (بكسر الدال وسكون الحاء وفتح الياء) بن مصعب (بن الإصبع بن عبد العزيز بن مروان) في ولاية إبراهيم بن صالح بن علي العباسي (١٦٥ ـ ١٦٧ هـ). وتغلب على أكثر بلاد الصعيد، وكاد نفوذ العباسيين يذهب من هذه البلاد، فلما علم الخليفة المهدي بذلك نقم على هذا الولي وعزله(٢).

وقد حاول موسى بن مصعب بن الربيع الخثعمي (١٦٧ ـ ١٦٨ هـ) الذي ولي مصر بعد إبراهيم بن صالح، أن يقضي على فتنة دحية الأموي، ولكنه لم يلبث أن قتل. وشدد هذا الوالي في جمع الخراج، وزاد على كل فدان مثل ما كان يؤخذ عليه من قبل. وارتشى هذا الوالي، وجعل خراجاً على أهل الأسواق وعلى الدواب، فكرهه الجند والأهالي ونابذوه العداء. وقامت الفتن في البلاد واشتدت وطأتها في الصعيد وكورة الحوف؛ فأرسل موسى جيشاً لقتال الثائرين في الصعيد وسار هو على رأس جيش آخر لقتال أهل الحوف، فتخلى عنه الجند وأسلموه إلى الأهالي فقتلوه(٣).

بيد أن ثورة دحية في الصعيد لم تنته بقتل هذا الوالي، بل استمرت في عهد خلفه حسامة ابن عمرو المعافري، ولم تخمد جذوتها إلا في عهد الفضل بن صالح (١٦٩ ـ ١٦٩ هـ) الذي ولي مصر من قبل الخليفة الهادي؛ فهزم دحية زعيم الثائرين في الصعيد وأمر به فضربت عنقه وصلب. على أن الفضل لم يجن ثمار انتصاره، إذ عزل في نفس السنة التي ولي فيها هذه البلاد.

ومن ولاة العصر العباسي الأول في مصر موسى بن عيسى الذي ولي هذه البلاد ثلاث مرات (١٧١، ١٧٥، ١٧٩ هـ). وقد اشتهر بالعدل وحسن الإدارة، واكتسب محبة الأهلين، وتحبب إلى النصارى، فأذن لهم ببناء الكنائس التي هدمها سلفه، وأشار عليه بذلك قاضياه الليث بن سعد، وعبد الله بن لهيعة (بفتح اللام)، بحجة أن إعادة الكنائس المستحدثة من عمارة البلاد، كما زاد في جامع عمرو بن العاص.

---

(١) المقريزي: خطط ج ٢ ص ٣٣٨.
(٢) الكندي: كتاب الولاة ص ١٢٤ ـ ١٢٦.
(٣) الكندي ص ١٢٥ المقريزي ج ١ ص ٣٠٨.

كذلك كان للجند العربي في مصر نصيب كبير في الفتنة التي قامت بين الأمين وأخيه المأمون، شأنهم في الفتن الخارجية التي قامت بين الخلفاء والخارجين عليهم أو المنافسين لهم، وغدا اشتراك هؤلاء الجند في الثورات مألوفاً لديهم، حتى في الحالات التي لم يكن ثمة ما يدعو المصريين إلى الاشتراك فيها.

ولسنا ندري الباعث الحقيقي الذي دفع هؤلاء الجند إلى الزج بأنفسهم في غمار هذه الثورات التي لم يكن لها علاقة بالعصبية العربية التي جاء الإسلام معفياً لها، وإن كانت هذه الثورات قد ظهرت بعد وفاة الرسول من حين إلى حين. ويظهر أن الجند العربي كان لا يزال مرتبطاً بدار الخلافة برابطة الدم أكثر من ارتباطه بمصر نفسها، إذ لم تكن القومية المصرية قد شملت بعد المصريين جميعاً. غير أن الأمر الذي يسترعي النظر أن مصر كانت، على ما رواه الكندي[١]، حين قام النزاع بين الأمين والمأمون ـ في أمن ودعة، وكانت راضية عن واليها جابر بن الأشعث الطائي وعن حكمه، وأن هذا الوالي كان محبباً إلى الخاصة والعامة في هذه البلاد.

احتدم النزاع بين الأمين والمأمون بسبب خلع الأمين أخاه المأمون وترك الدعاء له على المنابر وتوليته ابنه موسى العهد بدلاً منه. فغضب العرب في مصر وفي غيرها من الولايات الإسلامية وعولوا على خلع الأمين، لنكثه العهد الذي تركه أبوه الرشيد وأودعه الكعبة. وهذا وحده كان كافياً لإثارة سخط الناس عليه. وظهر في مصر السَّري بن الحكم الذي استغل هذه الفرصة لمصلحته الشخصية لإعلاء شأنه ورفع ذكره، إذ كان منذ أتى إلى مصر في أيام الرشيد خملاً لا حيثية له، فدعا إلى المأمون، فبايعه نفر يسير. ولكنه ظل على نشاطه في نشر الدعوة حتى دعا المأمون أشراف مصر إلى بيعته، فأجابوه سراً. وأتى كتاب هرثمة بن أعين أحد قواد المأمون المعدودين إلى عباد بن حيان وكيله على ضياعه في مصر، فقرأ هذا الكتاب على الجند في المسجد ودعاهم إلى خلع الأمين؛ فأجابه أكثرهم وخلعوه (جمادى الآخر سنة ١٦٦ هـ)، وأخرجوا واليه من الفسطاط وبايعوا عباداً، فأقره المأمون على ولاية مصر.

ولما علم الأمين بما حدث في مصر من خلعه وإخراج عامله، كتب إلى ربيعة بن قيس، وكان زعيم قبيلة قيس بالحوف، بولايته على مصر، وطلب إلى اليمانية أن يقوموا بمساعدته؛ فأظهروا دعوة الأمين وخلعوا المأمون وخرجوا إلى الفسطاط، ودارت بين الفريقين مناوشات وحروب، عقد لواء النصر فيها لأنصار المأمون. ولما بلغ قيساً قتل الأمين (المحرم سنة ١٩٨ هـ) وبيعة المأمون تفرقوا[٢].

---

(١) كتاب الولاة ص ١٤٦.

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٨ ـ ١٥٠.

تطور الاضطراب بمصر في عهد المأمون إلى نزاع بين بعض القواد الذين عمل كل منهم على الاستئثار بالسلطة والاستقلال عن الخلافة. وليس أدل على ذلك من أن الشرطة قد تقلدها خمسة في بضعة أسابيع، كما أخذت سلطة الخليفة تضعف تدريجياً في هذا البلاد التي أصبحت في وسط هذه الفوضى غنيمة لمن غلب[١]. ويذكر «ساويرس» نقلا عن الوثائق المعاصرة أن الثوار استطالوا على مصر لاضطراب الأمور في بغداد، وقام الخارجون بجباية الضرائب لأنفسهم. ومن هؤلاء الخارجين، عبد العزيز الجروي الذي استولى على شرقي الدلتا من شطنوف إلى الفرما، والسري بن الحكم الذي استولى على الوجه القبلي في مصر إلى أسوان. أما غربي الدلتا، وفي ذلك الإسكندرية وأعمالها ومريوط والبحيرة جميعها، فقد ملكها قبيلتا لخم وجذام[٢].

ندب المأمون عبد الله بن طاهر بن الحسين، وكان في الشام، ليقضي على هذه الاضطرابات التي سادت في مصر نحواً من إحدى عشرة سنة كادت فيها تستقل عن الخلافة، حتى إنها لم تعد ترسل إليها الخراج، أو تذعن لأوامر الخليفة أو تعترف بسلطة الولاة الذين يوليهم، كما تغلب على كل ناحية قائد أو زعيم. وقد استولى طاهر على الفسطاط وأقر الأمن في نصابه[٣]، ثم تفرغ لإصلاح البلاد وزاد في جامع عمرو. ولكن ولايته لم يطل أمرها؛ فعاد إلى العراق، وعادت الثورات في مصر سيرتها الأولى. وانتقض القبط، وخرج فريق من عرب مصر الذين كانوا يناصرون الأمين؛ فندب المأمون قائده الأفشين، ثم جاء هو نفسه إلى هذه البلاد وأعاد الأمن إلى نصابه.

ولما ولي المعتصم الخلافة في سنة ٢١٨ هـ تحول النفوذ من العنصر العربي إلى الأتراك، واندمج العرب في المصريين بعد أن أسقط المعتصم أسماء العرب من ديوان العطاء. واعتمد على الأتراك، فانتشر العرب في الريف، واحترفوا الزراعة وغيرها. وبدأ ظل الولاة من العرب يزول بإحلال ولاة من الأتراك محلهم، ولم يحكم مصر وال من العرب بعد ذلك إلا عنْبَسة بن إسحاق (٢٣٨ ـ ٢٤٢ هـ).

كما كان لمحنة خلق القرآن التي ظهرت في أيام المأمون أثر بعيد في علاقة مصر بالخلافة: فإن المأمون لم يعاقب القضاة والفقهاء والمحدثين الذين لم يقروا بخلق القرآن قبل وفاته سنة ٢١٧ هـ بأربعة أشهر. ثم جاء أخوه المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ) فعذب الذين امتنعوا عن القول بخلق القرآن، وأرسل إلى واليه على مصر، كيدر بن نصر بن نصر بن عبد الله (٢١٧ ـ ٢١٩

(١) سيدة إسماعيل كاشف: مصر في فجر الإسلام ص ١٦٣ ـ ١٦٤.
(٢) المصدر نفسه ص ١٦٥ ـ ١٦٦، نقلا عن كتاب سير الآباء البطاركة ص ٤٢٨.
(٣) الكندي ص ١٨٠ ـ ١٨٢.

هـ)، كتاباً يأمره فيه أن يحمل الناس على القول بخلق القرآن، وأن يمتحن قاضي مصر هارون بن عبد الله الزهري، كما يمتحن الفقهاء والمحدثين والشهود، ويعزل القاضي إذا لم يقر بأن القرآن مخلوق، وأن لا يأذن لأحد في حديث أو فتوى أو شهادة إلا إذا أقر بخلق القرآن.

ولكن مصر لم تتعرض لما تعرضت له العراق. فقد أقر هذا القاضي بخلق القرآن كما أجاب أكثر الفقهاء، وهرب من هذه البلاد من لم يوافق الخليفة فيما ذهب إليه في هذه المسألة[1].

ولما ولي الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ)، بعث إلى قاضي مصر محمد بن أبي الليث يأمره بامتحان الناس في خلق القرآن، وتشدد في حمل الناس على قبول هذه الآراء، حتى إنه حبس كثيراً ممن عارضوه، وأمر أن يكتب على المساجد: لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق. كما منع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعي من الجلوس في المسجد، وأمرهم أن لا يقربوه. ولم يكن للمذاهب الأخرى أتباع في مصر إذ ذاك. فلما ولي المتوكل الخلافة ترك القول بخلق القرآن الذي أدى إلى تفريق كلمة المسلمين[2].

٢ ـ مع بلاد النوبة:

ذكرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب (ص٢١٣) أن مملكة النوبة المسيحية وقفت في طريق العرب فاتحين أو مهاجرين وأن ملكها عقد مع المسلمين صلحاً أشبه بمعاهدة اقتصادية. غير أن أهل النوبة لم يحافظوا على هذا الصلح ونقضوا ما كان بينهم وبين المسملين من عهد حتى غزا بلادهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة ٣١ هـ وتغلب عليهم وأرغم ملكهم على طلب الصلح، وكتب بينه وبين المسلمين عهداً يقوم على التسامح الديني وحسن الجوار وتبادل المنافع الاقتصادية: فمصر تمد النوبة بالحبوب والثياب والخيل، والنوبة تمد مصر بالماشية والرقيق لفلاحة الأرض لينصرف المسلمون للجهاد[3].

وفي أواخر القرن الأول للهجرة تجمع لعبيد الله بن الحبحاب (بفتح الحاء الأولى وسكون الباء) البجة (بضم الباء وفتح الجيم) أو البجاه (بضم الباء) وكانوا يقيمون على مقربة من عيذاب (بفتح العين وسكون الياء) على البحر الأحمر، وانتشروا في بلاد النوبة وغيرها، ولا سيما بين النيل النوبي والبحر الأحمر في الأراضي الممتدة بين دنقلة وأسوان تقريباً. ولكن ابن الحبحاب تركهم وهادنهم.

---

(١) الكندي: ص ٤٤٥ ـ ٤٤٧.

(٢) المقريزي: خطط ج ١ ص ٣١٢.

(٣) المقريزي ج ١ ص ٢٠٠.

وبهذا يكون العرب قد اتصلوا بالنوبة والبجة اتصال تعاهد ومرور وانتقال، وأن بلاد السودان قد عرفت اللاجئين السياسيين من العرب كبني أمية الذين فروا من وجه العباسيين إلى بلاد النوبة أو إلى شرقي السودان واستقروا في أرض الجزيرة، ويبدو أن العرب اتصلوا اتصالاً وثيقاً بالبجة في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) عن طريق البحر الأحمر وعن طريق وادي النيل، وخاصة من إقليم أسوان، فرحلوا إليهم تجاراً واجتازوا من مصر إلى بلادهم حاجين، وهاجروا إلى مفاوز الذهب والزمرد منقبين ومستخرجين. ويظهر أيضاً أن جماعة من العرب المسلمين كانوا أول من استقر هناك وبنوا مساجد لهم. فهذه كلها عوامل مهدت للعرب سبيل الاختلاط أول الأمر بالبجة في شرقي السودان وساعدت على تعريب هذه المنطقة.

غير أن البجة لم يحافظوا على العهد الذي قطعوه على أنفسهم مع عبيد الله بن الحبحاب، فكثرت غاراتهم على جهات أسوان، واشتد إيذاؤهم للمسلمين فيها؛ فرفع أمرهم إلى الخليفة المأمون العباسي (٢١٦/٨٣١)، فكانت له معهم وقائع انتهت بموادعتهم وإبرام عهد جديد بينه وبين كنون (بفتح الكاف وضم النون مع التشديد) بن عبد العزيز زعيم البجة. ومن أهم شروط هذا العهد التي تبين لنا مدى اتصال العرب بمنطقة شرق السودان:

١ ـ أن تكون بلاد البجة من حدود أسوان إلى البلاد التي تمتد بين دَهلك (بفتح الدال واللام وسكون الهاء) وباضع ملكاً للخليفة، وأن يكون كنون ملكاً على البجة. وهذه أول مرة تكون فيها منطقة السودان ملكاً للخليفة، فقد كانت المناطق المعروفة للعرب يومئذ مستقلة قائمة بذاتها يربطها عهد بأمير المؤمنين أو بولائه.

٢ ـ أن يؤدي ملك البجة كل عام الخراج أو «البقط»[١] (بفتح الباء وسكون القاف) على ما كان عليه أسلافه مائة من الإبل أو ثلثمائة دينار.

---

(١) قال المقريزي (خطط ج ١ ص ١٩٩ ـ ٢٠٠): «البقط ما يقبض من سبي النوبة في كل عام ضريبة عليهم. فإن كانت هذه الكلمة عربية فهي إما عن قولهم في الأرض بقط من بقل وعشب أي نبذة من مرعى، فيكون معناه على هذا نبذة من المال، أو يكون من قولهم إن في بني تميم بقطاً من ربيعة أي فرقة أو قطعة، فيكون معناه على هذا فرقة من المال أو قطعة منه. ومنه بقط الأرض فرقة منها، وبقط الشيء فرقه: والبقط أن تعطي الحبة على الثلث أو الربع، والبقط أيضاً ما سقط من التمر إذا قطع . . . فيكون معناه على هذا بعض ما في أيدي النوبة. وكان يؤخذ منهم في قرية يقال لها القصر، مسافتها من أسوان خمسة أميال . . . وأول ما تقرر هذا البقط على النوبة في إمارة عمرو بن العاص: ولعل معنى بقط عهد (Pact).
وقد أورد المقريزي (خطط ج ١ ص ٢٠٢) ما كان يدفعه أهل النوبة المسلمين، وهي ٣٦٠ رأساً من الغنم؛ لبيت المال، ولوالي مصر أربعون رأساً، ويدفع المسلمون ألف أردب من القمح وثلاث مئة إردب =

٣ ـ أن يحترم البجة الإسلام وألا يذكروه بسوء ولا يعينوا أحداً على أهله.

٤ ـ ألا يمنعوا أحداً من المسلمين من الدخول في بلادهم والتجارة فيها براً وبحراً.

٥ ـ ألا يمنعوا من المسلمين تاجراً أو مقيماً مجتازاً أو حاجاً، فهو آمن حتى ينزح من بلادهم. وهذا الشرط يدل على أن العرب المسلمين كانوا يذهبون إلى شرق السودان للتجارة أو للإقامة أو المرور، أو للحج، مما يدعو إلى الاستقرار أو البقاء في تلك المنطقة.

٦ ـ إذا نزل البجة صعيد مصر مجتازين أو تجاراً فلا يظهرون سلاحاً ولا يدخلون المدن والقرى بحال[١].

وتدل هذه الشروط على أن العرب المسلمين كانوا يترددون على شرقي السودان تجاراً ومقيمين ومجتازين وحجاجاً، وأن من البجة من أسلم، وأنه كان للمسلمين بها مساجد معمورة في أكثر من بلد، وأن عمال الخليفة كانوا يغشونها لقبض الجزية. فهذه المنطقة إذن أسبق مناطق السودان إلى الدخول في الإسلام.

وكان هناك اتصال بين ملك النوبة والخليفة العباسي المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ) بسبب العهد الذي أبرم بين ملك النوبة والمسلمين. فقد أرسل السفراء ليجددوا هذا العهد، وزار ملك النوبة قاعدة مصر حيث قوبل بمظاهر الاحترام والتكريم وعاد إلى بلاده يحمل الهدايا. وفي عهد الخليفة المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ) نقض البجة هذا العهد، وامتنعوا عن أداء الجزية التي كانت مقررة عليهم، وتعرضوا لمن كان في مناجم الذهب من العمال والحفارين، وامتدت غاراتهم على أعالي الصعيد، ونهبوا بعض المدن المصرية كإسنا وأسوان، مما أدى إلى قيام الحرب بينهم وبين المسلمين على ما سيأتي في الجزء الثالث من هذا الكتاب[٢].

٣ ـ مع بلاد المغرب:

كان تأسيس مدينة القيروان في إفريقية (بلاد تونس الآن)، على يد عقبة بن نافع سنة ٥١ هـ (٦٧٠م) تمكيناً للعرب بمركز حصين اتخذوه قاعدة لأعمالهم الحربية. وكان نجاح عقبة في تحويل البربر إلى الإسلام بطيئاً. ثم واصل ولاة العرب الذين تولوا هذه البلاد في القرن الثاني للهجرة جهودهم في سبيل تحويل هؤلاء البربر إلى الإسلام، كما عملوا على إدماجهم في

= أخرى لرسل ملك النوبة. وكذلك من الشعير، عدا فرسين ومائة ثوب وأربعة أثواب من القباطي عدا أنواع أخرى من الأثواب».

(١) المقريزي: (خطط جـ ١ ص ١٩٥ ـ ١٩٦).

(٢) أنظر كتاب انتشار الإسلام في القارة الإفريقية للمؤلف ص ١٤١ ـ ١٤٤.

جيوشهم وانضوائهم تحت لوائهم؛ وبذلك استطاعوا أن يجذبوهم إلى اعتناق الإسلام.

وقد كون البربر في شمالي إفريقية نواة الجيوش الإسلامية التي أتمت فتح بلاد المغرب بقيادة قواد من العرب بل من البربر كطارق بن زياد، وفي أقل من نصف قرن تم لهم فتح بلاد الأندلس.

على أن صلات الصداقة بين العرب والبربر لم تدم طويلاً، لأن البربر رأوا أنهم لم يكافأوا على ما قدموه من خدمات كما كانوا يؤملون. مع اعتناقهم الإسلام لم يعاملهم العرب معاملة النظير للنظير بل معاملة السيد للمسود. وكان من أثر هذه المعاملة أن انتحل البربر مذهب الخوارج لأنه كان يلائم نزعاتهم الديمقراطية، وأخذوا يثيرون الفتن والقلائل في وجه العرب، حتى إننا إذا تتبعنا حوادث سنة ١٣٠ هـ تبين لنا ضعف نفوذ الخليفة الأموي في هذه البلاد.

لهذا لا نعجب إذا غدت إفريقية مسرحاً للفتن والقلائل في العصر العباسي، وذلك لبعدها عن السلطة المركزية في بغداد، ولجهل البربر في ذلك العصر، وعدم استعدادهم لقبول الحضارة الإسلامية، وبغضهم ولاتهم من العرب لفرضهم الضرائب الفادحة عليهم.

أما بعد بلاد المغرب عن السلطة المركزية في بغداد، فقد ساعدت الأدارسة على تأسيس دولتهم بالمغرب الأقصى سنة ١٧٢ هـ. كما ساعدت الأغالبة في تونس على تأسيس دولتهم. وكان الرشيد قد أقطع إبراهيم بن الأغلب تونس في سنة ١٨٤ هـ وأما عن جهل البربر وعدم استعدادهم للحضارة الإسلامية، فكان من آثاره أن الإسلام لم يتوطد بين البربر وبين العرب النازلين في بلادهم منذ امتدت الفتوح الإسلامية إلى هذه البلاد. وهذا يفسر لنا انتشار مذهبي الخوارج والشيعة في بلاد المغرب وقيام البربر في وجه العباسيين بين حين وحين. وأما عن بغض البربر لولاتهم من العرب فيرجع إلى فداحة الضرائب التي أثقلت كاهل الأهلين. وفي الحق أن قيام الخوارج من البربر في وجه العباسيين لم يكن خروجاً على الدين، بل كل خروجاً على السلطة الحاكمة، لظلم الولاة لهم وفرضهم عليهم ضرائب فادحة[١].

وقد ذكر ابن الأثير [٢] أن محمد بن الأشعث والي إفريقية خرج على أبي جعفر المنصور، فولى هذه البلاد الأغلب بن سالم[٣] أبا إبراهيم بن الأغلب مؤسس دولة الأغالبة، فقدم

---

(١) تاريخ الدولة الفاطمية للمؤلف ص ٤٤ - ٤٥.

(٢) جـ ٥ ص ٢٣٦ - ٢٣٧.

(٣) ذكر ابن الأثير أن الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجه التميمي كان ممن قام مع أبي مسلم الخراساني ثم قدم إفريقية مع محمد بن الأشعث.

القيروان سنة ١٤٧ هـ. وسرعان ما ثار عليه البربر بزعامة قواد من العرب، وقتل الأغلب على أبواب مدينة القيروان سنة ١٥٠ هـ، وقبره هناك يعرف بقبر الشهيد. ويقول ميور[١]: إن إفريقية كادت تخرج عن طاعة العباسيين في معظم عهد المنصور، وإن البربر والعرب النازلين فيها مالوا إلى مبادىء الخوارج، وخلعوا طاعة العباسيين الذين أخذوا يرسلون إليهم الجيوش تلو الجيوش لإخضاعهم، ولكن بدون جدوى. واستمرت مدينة القيروان تسقط في أيدي الثوار حيناً وفي أيدي العباسيين حيناً آخر إلى قبيل نهاية خلافة المنصور.

ولما بلغ الخليفة المنصور نبأ مقتل الأغلب، ولى إفريقية أبا جعفر عمر بن حفص من ولد قبيصة أخي المهلب بن أبي صفرة، فوصل إلى القيروان ـ وكان جند الأغلب قد استولوا عليها بعد وفاته (صفر سنة ١٥١ هـ)، وأقر الأمن في هذه البلاد نحو ثلاث سنين. ثم ثار إلى ناحية الزاب لبناء مدينة طُبْنة، فانتهز البربر من الإباضية والصفرية وغيرهم فرصة تغيب عمر بن حفص عن إفريقية وانتقضوا على هذا الوالي وهاجموا مدينة القيروان، «وانتقضت إفريقية من كل ناحية، ومضوا إلى طبنة فأحاطوا بها في إثني عشر عسكراً، منهم أبو قرة الصفري في أربعين ألفاً، وعبد الرحمن بن رستم في خمسة عشر ألفاً، وأبو حاتم في عسكر كثير، وعاصم السدراني الإباضي في ستة آلاف فارس، والمسعود الزناني الإباضي في عشرة آلاف فارس، وغير من ذكرنا». واستطاع عمر بن حفص بما بذل من الأموال أن يفك حصار طبنة بإرشاد بعض المحاصرين من الخوارج: فترك هؤلاء حصار طبنة وحاصروا القيروان. فلما اشتد الضيق بأهلها قصدهم عمر بن حفص وأعمل الحيلة حتى دخلها.

ولما علم أبو جعفر المنصور بما حل بجند عمر بن حفص، بعث يزيد بن حاتم بن قبيصة بن أبي صفرة في ستين ألف فارس؛ فوصل إلى إفريقية سنة ١٥٤ هـ. فبادر أبو حاتم الخارجي إلى لقائه. ولكن الهزيمة حلت به، وقتل هو وجنده من البربر في شهر ربيع الأول ١٥٥هـ. وجعل آل المهلب يقتلون الخوارج ويقولون: «يا لثارات عمر بن حفص». وأقام شهراً يقتل الخوارج، ثم رحل إلى القيروان.

ويقول ميور (ص ٤٦١): إن أبا جعفر المنصور لما تخلص من خصومه الآخرين، أصبح من القوة بحيث استطاع أن يرسل إلى بلاد المغرب جيشاً جراراً أقر الأمن في جميع أرجاء هذه البلاد حيناً من الدهر. ولا غرو فقد اشتعلت نيران الثورة في بلاد المغرب وأقلقت بال العباسيين، حتى قيل إنه: «كان بين الخوارج والجنود (العباسيين) من لدن قاتلوا عمر بن

---

(١) Muir, The Caliphate, P. 461.

حفص إلى انقضاء أمرهم ثلثمائة وخمس وسبعون وقعة». وقد بذلت الدولة العباسية جهوداً متصلة وتضحيات عظيمة ونفقات طائلة.

استمرت قبائل البربر في إفريقية تناوىء سلطان العباسيين بين سنتي ١٧٨ و١٨١ هـ، وأخذت في الخروج على حكم العباسيين، وغدت كفة النصر ترجح في جانبهم حيناً وفي جانب العباسيين حيناً آخر، حتى بعث إليهم الرشيد هرثمة بن أعين على رأس جيش كثيف، فوصل إليها في شهر ربيع الأول سنة ١٧٩ هـ واستطاع أن يضعف قوتهم. على أن هرثمة رأى بثاقب نظره وطول خبرته تأصل العداء في نفوس البربر واستحالة فوز العباسيين عليهم، فعول على النزول عن القيادة وعاد إلى الشرق حيث البذخ والرفاهية. ولما رأى هرثمة الاختلاف الذي ساد إفريقية، بعث بكتبه إلى الرشيد يعتذر عن بقائه، فأمره بالقدوم إلى العراق، فسار عن إفريقية في رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة بعد أن ولي هذه البلاد سنتين ونصف سنة.

ثم ولى الرشيد محمد بن مقاتل بن حكيم العكي، فأساء معاملة الأهلين، فتجددت ثورات البربر والعرب ودخلوا القيروان. فجمع إبراهيم بن الأغلب، وكان يلي بعض نواحي الزاب، جيشاً طرد به هؤلاء الثوار وأعاد والي الرشيد إلى ولايته[1].

وكان من أثر هذا العداء الذي أضمره البربر للأمويين والعباسيين، وانضمام بعض العرب النازلين في هذه البلاد إليهم، وميل هؤلاء وأولئك إلى مذهب الخوراج، أن قامت الفتن والقلاقل في هذه البلاد. وعمل بعض زعمائهم على الاستقلال عن الدولة العباسية، فتأسست ولايات من البربر على يد زعماء من سلالة العرب استقلت استقلالاً يكاد يكون تاماً. ومن هذه الولايات تاهرت التي أسسها عبد الرحمن بن رستم بمساعدة الإباضية من الخوارج (تافيلالت الحالية) (١٣٧ - ٢٩٧ هـ)، وولاية سجلماسة (تافيلالت الحالية) التي أسسها بنو مدرار بمساعدة الصفرية الزناتيين (١٦٧ - ٢٥٧هـ) وولاية تلمسان التي أسسها بنو قرة الصنهاجيون، ودولة برغواطة (بضم الباء والعين وسكون الراء) في تامسنا (الشاوية الحالية) على ساحل المحيط الأطلسي، ودولة الأغالبة التي أسسها إبراهيم بن الأغلب في تونس (١٨٤ - ٢٩٦ هـ)، ودولة الأدارسة التي أسسها إدريس بن عبد الله بن الحسن في المغرب الأقصى (١٧٢ - ٣١٣ هـ).

---

(١) ابن الأثير جـ ٥ ص ٢٤١ - ٢٤٢، ج ٦ ص ٥٠، ٥٥.

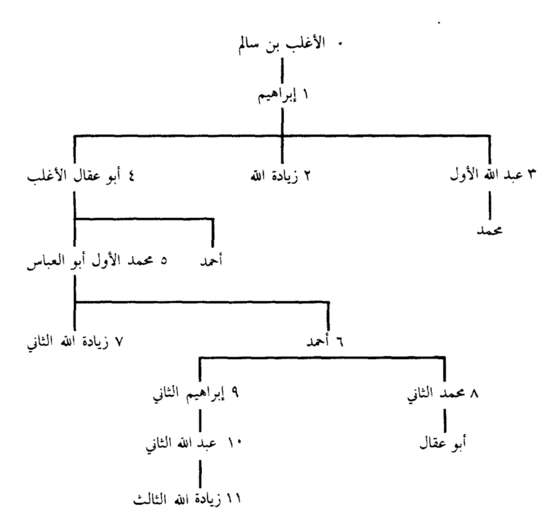
دولة الأغالبة[1]
في تونس وغيرها
١٨٤ - ٢٩٦/٨٠٠ - ٩٠٩

اسم الوالي	هجرية	ميلادية	اسم الوالي	هجرية	ميلادية
١ إبراهيم الأول	١٨٤	٨٠٠	٦ أحمد	٢٤٢	٨٥٦
٢ عبد الله الأول	١٩٦	٨١١	٧ زيادة الله الثاني	٢٤٩	٨٦٣
٣ زيادة الله الأول	٢٠١	٨١٦	٨ محمد الثاني	٢٥٠	٨٦٤
٤ أبو عقال الأغلب	٢٢٣	٨٣٧	٩ إبراهيم الثاني	٢٦١	٨٧٤
٥ محمد الأول أبو العباس	٢٢٦	٨٤٠	١٠ عبد الله الثاني	٢٨٩	٩٠٢
			١١ زيادة الله الثالث	٢٩٠	٩٠٣
				٢٩٦	٩٠٩

(الفاطميون)

(١) Lan-Poole: Muhammadan Dynasties pp. 37, 38.

جدول يمثل تسلسل نسبِ الأغالبة



إبراهيم بن الأغلب (١٨٤ - ١٩٦ هـ):

كان قيام دولة الأغالبة في تونس نتيجة هذه السياسة التي سار عليها الرشيد في تأديب البربر وغيرهم من الثوار والوقوف في وجه الأدارسة إذا أرادوا الإغارة على أراضي الدولة العباسية. وقد طلب إبراهيم، وكان يلي بعض نواحي الزاب على ما تقدم، إلى الرشيد أن يوليه إفريقية، على أن ينزل عن المطالبة بما كانت ترسله مصر من الأموال التي اعتادت أن ترسلها إليها في كل سنة، ومقدارها مائة ألف دينار، كما تعهد بأن يرسل إلى بيت المال في بغداد أربعين

ألف دينار. وأشار هرثمة بن أعين على الرشيد بتولية إبراهيم بن الأغلب هذه البلاد لما رآه من عقله وكفايته[١]؛ فولاه الرشيد إياها في شهر المحرم من سنة ١٨٤ هـ.

وكان إبراهيم بن الأغلب على جانب عظيم من الشجاعة ورجاحة العقل، وقد آنس فيه الذكاء أستاذه الليث بن سعد، وكان إمام أهل مصر في الفقه والحديث فقال: «ليكون لهذا الفتى شأن»[٢]، وقال الشافعي رضي الله عنه إنه أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به[٣]، أي أن تلاميذه لم ينشروا مذهبه كما فعل أهل العراق مثلا بمذهب أبي حنيفة. وقد صدقت نبوءة الليث، فإن إبراهيم لما آلت إليه مقاليد الحكم في إفريقية ضبط أمورها، وبنى في سنة ١٨٥ هـ مدينة على بعد ثلاثة أميال من القيروان[٤]، ونقل إليها أهله وعبيده وأهل ثقته. ويظهر أنه اتخذ هذه التسمية لإظهار ولائه للخليفة العباسي والاعتراف بسلطان الدولة العباسية عليه.

على أن الثورات في بلاد المغرب لم تلبث أن سارت سيرتها الأولى؛ فخرج على إبراهيم بن الأغلب في سنة ١٨٦ هـ حمديس، وكان من العرب النازلين بمدينة تونس، فبعث إليه ابن الأغلب عمران بن مخلد في جيش كبير، فأحل الهزيمة بِحَمْديس وجنده وقتل منهم عشرة آلاف رجل ودخل تونس[٥].

وفي سنة ١٨٩ هـ انتشرت الثورة في طرابلس وكانت تابعة لأمير إفريقية، لبغض أهلها لولائهم وعزمهم على إخراج واليهم سفيان بن المضاء، وكان قد ولي هذه البلاد للمرة الرابعة، وأخرجوه من داره وطاردوه إلى المسجد وقتلوا أصحابه فيه، وأرغموه على العودة إلى القيروان ولما يمض على ولايته سبعة وعشرين يوماً، وولوا عليهم إبراهيم بن سفيان التميمي. ولكنه لم يستطع أن يقر الأمور بسبب قيام النزاع بين العرب والأبناء[٦]. فأرسل إبراهيم إليهم جيشاً أحضرهم إلى القيروان، ولكنه عفا عنهم.

على أن الفتن والثورات لم تخمد في طرابلس، فيحدثنا ابن الأثير أن أبا عصام ثار على رأس جماعة كبيرة، وأن إبراهيم بن الأغلب ظفر بهم، وولى هذه البلاد ابنه عبد الله الذي لقي كثيراً من الشدائد من ناحية البربر أول الأمر، حتى أرغموه على الخروج من المدينة، ولكنه

---

(١) ابن الأثير جـ ٦ ص ٥٦.
(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار المغرب جـ ١ ص ٨٤.
(٣) ابن خلكان جـ ١ ص ٤٣٨.
(٤) سمى ابن عذارى (ج ١ ص ٨٤) هذه المدينة القصر القديم، وسماها ابن الأثير (جـ ٦ ص ٥) العباسية.
(٥) ابن الأثير (جـ ٦ ص ٥٦) ابن عذارى (البيان المغرب جـ ١ ص ٨٤).
(٦) يقصد بذلك الذين يجمعون بين الدم العربي والدم البربري.

استطاع أن يستميلهم إليه بما أغدق عليهم من الأموال والعطايا. وعلى الرغم من دخول عبد الله مدينة طرابلس لم يأمن أبوه بقاءه فيها، فولي سفيان بن المضاء هذه البلاد للمرة الخامسة، فثارت قبيلة هوارة (بفتح الهاء وتشديد الواو مع الفتح) عليه ودخلوا مدينة طرابلس وهدموا أسوارها، فأرسل إليهم إبراهيم بن الأغلب ابنه عبد الله على رأس ثلاثة عشر ألف فارس، فهزم البربر وقتل كثيراً منهم ودخل طرابلس وأعاد بناء سورها. ولكن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم جمع البربر وحرضهم على قتال الأغالبة، وحاربهم إلى أن توفي أبوه إبراهيم، وآلت إمارة الأغالبة إليه. فاضطر إلى مصالحتهم «على أن يكون البلد والبحر لعبد الله وما كان خارجاً عن ذلك يكون لعبد الوهاب»[١].

وكما كان إبراهيم بن الأغلب يخشى شر أهالي طرابلس الذين تألبوا عليه وثاروا في وجهه، كذلك عمل على القضاء على الأدارسة في بلاد المغرب ليأمن جانبهم. وقد بلغه أن إدريس بن إدريس قد كثر جمعه، فأراد قصده، ولكن أصحابه نصحوا له بالعدول عن رأيه وقالوا: اتركه ما تركك. وكتب إليه إدريس يستعطفه ويسأله أن يعدل عن مناصبته العداء وتفريق أنصاره ويذكر له قرابته من الرسول عليه الصلاة والسلام فكف عنه.

وقد ذكر الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب[٢] أن إبراهيم بن الأغلب استقبل سفراء شرلمان في العباسية حاضرة ولايته[٣]. ويظهر أن منزلته قد علت حتى إن شرلمان لجأ إليه مباشرة دون الرجوع إلى الخليفة العباسي.

كان إبراهيم بن أغلب ـ على ما وصفه ابن عذارى ـ «فقيهاً أديباً وشاعراً خطيباً، ذا رأي ونجدة وبأس وحزم، وعلم بالحروب ومكايدها، جريء الجنان طويل اللسان، لم يل أفريقية أحسن سيرة ولا سياسة، ولا أرأف بالرعية، ولا أوفى بعهد ولا أرعى لحرمة منه، فطاعت له قبائل البربر وتمهدت إفريقية في أيامه، واستقامت الأحوال بها».

عبد الله الأول (١٩٦ ـ ٢٠١هـ):

ولى إبراهيم بن الأغلب ابنه أبا العباس عبد الله العهد من بعده، فلما مات في سنة ١٩٦هـ كان عبد الله يحارب ابن رستم في طرابلس كما تقدم، فقام أخوه زيادة الله بالأمر،

---

(١) ابن الأثير جـ ٦ ص ٦٩، ٩٧ ـ ٩٨.

(٢) خلاصة تاريخ تونس (طبعة سنة ١٣٤٤هـ) ص ٥٩.

(٣) قيل إن سبب قدوم هؤلاء السفراء يرجع إلى طلب شرلمان نقل رفاة أحد القديسين من قرطاجنة إلى إكس لا شابل حاضرة الفرنجة وإن إبراهيم بن الأغلب أجابه إلى طلبه.

وأخذ له البيعة على نفسه وعلى أهل بيته وجمع رجاله وخدمه، وبعث إليه بذلك. ولكن عبد الله لم يعد إلى إفريقية إلا في سنة ١٩٧هـ حيث سلم إليه أخوه زيادة الله مقاليد الأمور. ولما قتل الخليفة الأمين في سنة ١٩٨هـ وولي الخلافة بعده المأمون أقر عبدالله بن إبراهيم على إفريقية[1].

وكان عبد الله سيىء السيرة حتى مع أهل بيته. يقول ابن عذارى إنه لما عاد من طرابلس تلقاه أخوه زيادة الله وسلم الأمر إليه. ولكنه أساء معاملته، وكان يأمر رجال بلاطه بإطلاق ألسنتهم فيه، وزيادة الله يظهر له التعظيم والإكبار ولا يظهر له تغيراً أو كراهة، كما اشتط في جمع الضرائب حتى قيل إنه فرض على كل فدان ثمانية عشر ديناراً في كل سنة. وكانت معاملته للأهلين تنطوي على كثير من العنت والجور. ولم يصغ إلى نصائح أهل الورع والدين، حتى قيل إنه لما قدم حفص بن حميد الصالح على إفريقية ومعه قوم صالحون من الجزيرة، قصدوا إليه فوعظوه في أمر الدين ومصالح المسلمين، فتهاون بهم، فخرجوا مغمومين[2] يريدون القيروان، وكان هو في القصر القديم (يعني العباسية). فلما وصلوا وادي القصارين قال لهم حفص بن حميد: قد يئسنا من المخلوق فلا نيأس من الخالق، فاسألوا المولى واضرعوا إليه في زوال ظلمه عن المسلمين، فإن فتح في الدعاء فقد أذن في الإجابة، فتوضأوا وساروا إلى كدية روح[3]، فصلى بهم حفص ركعتين، ودعوا الله أن يكف عن المسلمين جور أبي العباس (عبدالله) ويريحهم منه. وقد قيل إنه أصيب بقرحة تحت أذنه فقتلته في اليوم السادس من دعاء القوم. وقال من حضر غسله: إنه لما كشف عنه ثيابه «ظن أنه عبد أسود بعد جماله، وذلك بسوء فعاله»[4]. وكان ذلك في سنة ٢٠١هـ بعد أن حكم خمس سنين وشهرين.

يتبين من هذه القصة التي تكاد تكون قصة خيالية تنطوي على شيء كثير من المبالغة، أن سيرة هذا الوالي قد أثارت عليه حنق أهل بيته، فاتخذ المؤرخون من سوء سيرته مصدراً لتأليف القصص حول حياته.

زيادة الله الأول (٢٠١ ـ ٢٢٣):

كان زيادة الله من أطول الأغالبة عهداً بالحكم، وكان ـ كأخيه عبد الله ـ يميل إلى الظلم

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب جـ ١ ص ٨٣ ـ ٨٦.

(٢) مقصورين في الأصل ولعل الكلمة «مفقورين».

(٣) الكدية: الأرض الصلبة.

(٤) ابن عذارى جـ ١ ص ٨٧. ابن الأثير جـ ٦ ص ١٢١.

والجور ويمتاز عهده بقيام بعض الثورات ومحاولة فتح جزيرتي سردينية وصقلية في البحر الأبيض المتوسط.

وقد قضى زيادة الله الست سنوات الأولى من عهده آمناً مطمئناً، حتى خرج عليه (سنة ٢٠٧هـ) زياد بن سهل المعروف بابن الصقلية، لكن الهزيمة حلت به هو وأنصاره. وفي السنة التالية خرج بتونس منصور بن نصير الطنبذي، فسير إليه زيادة الله جيشاً بقيادة محمد بن حمزة، فهزمه منصور وقتل إسماعيل بن سالم بن سفيان بن عقال وابنه محمد، وكانا من أقارب زيادة الله. فلما سمع زيادة الله بذلك أرسل وزيره الأغلب بن عبدالله على رأس جيش كثيف، ثم شيع هذا الجيش، وهدد قائده وجنده بالقتل إذا حلت بهم الهزيمة، وأفلت المنصور من أيديهم. ولكن تهديد زيادة الله لم يحل دون إلحاق الهزيمة بجنده، الذين خشوا سوء العاقبة وعولوا على عدم العودة إلى العباسية، فتقلبت بهم الأحوال، وخلعوا طاعته وانضموا إلى المنصور، واستولوا على كثير من المدن مثل باجة وصطفورة والأربس.

وقد اضطربت أحوال إفريقية وكادت تخرج من يد زيادة الله الذي أثار كراهة أهلها بسوء سيرته وقسوته، وقد تفاقم خطر منصور، فسار إلى القيروان وحاصرها وحارب زيادة الله في كثير من المواقع التي انتهت بهزيمة منصور وهربه في (جمادى الآخر سنة ٢٠٨هـ). وعزم زيادة الله على إنزال العقاب بأهل القيروان فنصحه أهل العلم والدين فعدل عن رأيه، ولكنه هدم سور المدينة. ثم أرسل ابن أخيه محمد إلى مدينة سبيبة، فحلت به الهزيمة. وقد أثار هذا الانتصار شجاعة منصور، فحاصر القيروان من جديد وأقلق بال زيادة الله الذي ضعف أمره وتضاءلت ولايته، حتى إنه لم يبق بيده سنة ٢٠٩هـ غير قابس والساحل ونفزاوة وطرابلس[١]. وضرب منصور الطنبذي السكة باسمه.

ولم تنته هذه الثورة التي كادت تودي بدولة الأغالبة إلا في سنة ٢١١هـ، وذلك يرجع إلى قيام النزاع بين منصور الطنبذي وقائده عامر بن نافع الذي هاله ازدياد نفوذه واتساع رقعة البلاد التي دخلت في حوزته، وأرغمه على الهرب إلى المشرق، ولم يلبث أن قبض عليه وحبسه، ثم قتله واستولى على بلاده، على أن النزاع الذي قام بين أنصار منصور الطنبذي لم يقف عند هذا الحد، بل لقد ازداد سوءاً بعد مقتل منصور، حتى مات عامر بن نافع في سنة ٢١٣هـ واطمأن زيادة الله بن الأغلب من ناحية هؤلاء الثوار، وعبر عن اغتباطه حين علم بوفاة عامر بقوله: «اليوم وضعت الحرب أوزارها»[٢].

---

(١) ابن الأثير جـ ٦ ص ١٢٣. (٢) ابن عذارى: البيان المغرب: جـ ١ ص ٩٤ ـ ٩٥.

فتح جزيرة صقلية :

فتحت جزيرة صقلية على يد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب في سنة ٢١٢هـ. وذلك في عهد الخليفة المأمون. على أن اهتمام المسلمين بفتح هذه الجزيرة يرجع إلى عهد معاوية بن أبي سفيان حيث غزاها عبدالله بن قيس الفزاري من قبل معاوية بن حديج والي إفريقية، ولكن أقدام المسلمين لم تثبت في هذه الجزيرة[١]. ويقول النويري[٢] إن محمد بن إدريس الأنصاري فتحها في أيام يزيد بن عبدالملك وغنم منها غنائم كثيرة؛ ثم غزاها بشر بن صفوان الكلبي في أيام هشام بن عبدالملك (١٠٩) كما غزاها حبيب بن أبي عبيدة في سنة ١٢٢هـ واستولى على سرقوسة على الساحل الشرقي للجزيرة، ثم عاد إلى إفريقية محملاً بالغنائم. ثم غزاها عبد الرحمن في سنة ١٣٠هـ، غير أن أقدام المسلمين لم تكد تثبت إلا في عهد الأغالبة.

روى المؤرخون الذين تناولوا الكلام على فتح صقلية أن السبب المباشر لفتحها في عهد زيادة الله بن الأغلب على إفريقية، أن إمبراطور القسطنطينية ميخائيل الثاني ولى عليها قسطنطين البطريق، فأرسل يوفيميوس (Euphemius) في أسطول نهب ساحل إفريقية. ثم غضب عليه الإمبراطور إذ نمى إليه أنه اختطف راهبة من هناك، ففر إلى سرقوسة الواقعة على ساحل صقلية الشرقي وثار في وجه حاكم الجزيرة. ولما رأى أنه لا طاقة له بجيوش الإمبراطور وأساطيله، لجأ إلى زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية، واستغاث به وهون عليه فتحها؛ فجهز زيادة الله جيشاً وأسطولاً يتألف من مائة مركب بقيادة أسد بن الفرات قاضي القيروان[٣].

ولما وصل جيش زيادة الله إلى صقلية، قامت الحرب بين المسلمين ويوفيميوس من ناحية وبينهم وبين حاكم الجزيرة من ناحية أخرى، وانتهت هذه المعارك بهزيمة الروم. وعلى الرغم مما لحق المسلمين من الهزائم ووفاة أسد بن الفرات وهو على حصار مدينة سرقوسة في سنة ٢١٣هـ، ولى المحاربون عليهم محمد بن أبي الجواري، واستطاع المسلمون أن يستولوا على كثير من الحصون كحصنميناو وجربجند. أما يوفيميوس فقد سار إلى مدينة قصريانة وانقلب على المسلمين فيها، فثاروا عليه وقتلوه. ولكن المسلمين لم يستطيعوا التوغل في هذه الجزيرة حتى جاءتهم سفن من الأندلس كانت متجهة نحو بلاد الروم بقيادة فرغلوش، فطلب المسلمون منه المعونة. فأجابهم إلى طلبهم، واستولوا على مدينة ميناو، ولكنهم اضطروا إلى الرحيل عنها،

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٤٤.
(٢) المكتبة الصقلية جـ ١ ص ٤٢٦.
(٣) المكتبة الصقلية ص ٤٢٧ ـ ٤٢٩ عن كتاب نهاية الأرب للنويري.

وانتشر الوباء فيهم، ومات القائد الأندلسي وكثير من جند المسلمين، وعاد الأندلسيون إلى بلادهم (سنة ٢١٥هـ)(١).

وقد طال حصار المسلمين لمدينة بلرم، فبدأ في شهر جمادى الآخر سنة ٢١٥هـ وانتهى بفتحها سنة ٢١٦هـ، وفي سنة ٢١٩هـ سار المسلمون إلى قصريانة، ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها، وكانوا يعودون إليها مرة بعد أخرى، ثم يرتدون عنها فيحاولون الاستيلاء على غيرها من المدن مثل طبرمين وقسطياسة، وعلى بعض الحصون المحيطة بجبل النار وغيرها، وظلوا على ذلك إلى أن مات زيادة الله بن الأغلب سنة ٢٢٣هـ(٢) ولم يستطع المسلمون الاستيلاء على الجزيرة كلها برغم ما كان يصلهم من الأمداد من إفريقية. وكانت سرقومة آخر معقل وقع في أيديهم في عهد إبراهيم الثاني الأغلبي سنة ٢٦٤هـ.

محمد الأول (٢٢٦ ـ ٢٤٢هـ):

ولما مات زيادة الله الأول سنة ٢٢٣ خلفه أخوه أبو عقال، وكان ثالث أبناء إبراهيم بن الأغلب الذين ولوا إمارة الأغالبة بعده على التوالي. وكان أبو عقال أحسن سيرة من أخويه، لأنه «أجزل على العمال أرزاقاً واسعة وصلات جزلة، وقبض أيديهم عن الرعية، فقطع النبيذ عن القيروان، وعاقب على بيعه وشربه». ولم يحدث في عهده ما يستحق الذكر إلا هذه الثورة التي أذكت نيرانها قبائل لواتة ومكناسة وزواغة من البربر فقضى عليهم عيسى بن ريعان الأزدي قائد الأغالبة، وانتصر عليهم في موقعة حاسمة بين قفصة وقسطيلية. وتوفي أبو عقال في شهر ربيع الآخر سنة ٢٢٦هـ بعد أن حكم سنتين وتسعة أشهر وأياماً، وهو في الثالثة والخمسين من عمره، فخلفه ابنه أبو العباس محمد الأول.

وكان أبو العباس (٢٢٦ ـ ٢٤٢هـ) من أطول أمراء الأغالبة عهداً. وقد تخللت عهده حوادث كثيرة كان أشدها خطراً اغتصاب أخيه أحمد الإمارة منه، وذلك أن أحمد تواعد مع جملة من الموالي إلى موضع، فتوافوا هناك وقت الظهيرة فقصدوا إلى مدينة القصر القديم، وقد خلا الباب من الرجال، فدخلوا منه وأغلقوه ثم أغلقوا الأبواب الأخرى، وهجموا على أبي عبد الله ابن علي بن حميد الوزير فأمر أحمد بن الأغلب فضربت عنقه. ووقع القتال بين رجال محمد بن الأغلب ورجال أخيه أحمد، وجعل أصحاب أحمد يقولون لأصحاب محمد: ما لكم تقاتلوننا؟ نحن في طاعة محمد بن الأغلب، إنما قمنا عن أولاد علي بن حميد الذين أفقروكم واستولوا على

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب جـ ٢ ص ٩٦ ـ ٩٧.

(٢) ابن الأثير جـ ٦ ص ١٢٤ ـ ١٢٥، ١٢٧.

أموال مولاكم دونكم، وأما نحن ففي الطاعة. فلما سمعوا ذلك عدلوا عن القتال. ولما نظر محمد ما دهمه من غير استعداد، قعد في مجلسه الذي يعقد فيه للعامة، وأذن لأخيه أحمد ومن معه في الدخول عليه فدخلوا بسلاحهم فكانت بينهم معاتبة، ثم حلف كل منهما على ألا يغدر بصاحبه، واصطلحا، واستقامت الأمور لأحمد بن الأغلب إلا اسم الإمارة فقط.

وقبض أحمد على من شاء، واصطفى من أراد، وعذب من أحب، وأعطى الرجال وجبى الأموال، واستوزر نصر بن حمزة. وفي سنة ٢٣٢هـ ظفر محمد بن الأغلب بأخيه أحمد وحبسه، واسترد سلطانه بمساعدة جماعة من بني عمه ومواليه. ثم دخل المدينة، وحارب أخاه، وأطلق من كان في حبسه واستعان بهم، ووصل أهل القيروان بالأموال والكسي، ثم نفى أخاه أحمد[١] إلى المشرق، فمات بالعراق[٢].

من ذلك نرى أن قبض أحمد بن أبي عقال الأغلب على أخيه محمد الذي ولي الإمارة بعد أبيه، لم يكن مصدره سخطه على الوزير ابن حميد والحد من نفوذه وإنما كان ذلك راجعاً إلى طمع أحمد وميله إلى الانفراد بالسلطة دون أخيه. ولولا انتصار محمد عليه لتحولت السلطة إلى أخيه بعد أن اغتصبها منه أكثر من سنة (٢٣١ - ٢٣٢هـ).

وعلى أن محمداً الأول لم يكد ينتهي من ثورة أخيه أحمد عليه، حتى فوجىء في السنة التالية بثورة سالم بن غليون أمير الزاب، وكان قد عزله عن إمارتها، فأضمر له الخلاف، وقصد القيروان، وقامت الحرب بينه وبين محمد الأول، ودارت الدائرة على سالم وقتل. وفي سنة ٢٣٤هـ خرج على محمد الأول عمر بن سليم التجيبي الذي تفاقم شره، ولم يستطع ابن الأغلب القضاء عليه إلا في سنة ٢٣٦هـ، وقتله، ودخل مدينة تونس واستولى عليها من أنصار التجيبي[٣].

ولما فرغ محمد الأول من هذه الثورات تفرغ للاستيلاء على جزيرة صقلية، واهتم بهذه الحرب اهتماماً جعله في مرتبة الجهاد ضد الروم. فولى العباس بن الفضل الفزاري تتمة الفتح: ففتح بين سنتي ٢٣٧، ٢٤٧ هـ قصريانة[٤] وقطانية وسرقوسة. ويظهر أن المسلمين كانوا

---

(١) يلاحظ أن أحمد هذا الذي مات في العراق هو أحمد بن أبي عقال الأغلب، وهو غير أحمد بن محمد الأول الذي ولي بعد أبيه محمد الأول.

(٢) ابن عذارى جـ ١ ص ١٠١ - ١٠٢.

(٣) ابن الأثير جـ ٧ ص ١٥ - ١٦.

(٤) قال أبو الفدا (المختصر في أخبار البشر جـ ٢ ص ٣٨) إن قصريانة هي المدينة التي بها دار الملك بصقلية، وكان الملك قبلها يسكن مرقوسة «يقصد سرقوسة»؛ فلما أخذ المسلمون بعض الجزيرة انتقل الملك إلى =

يستولون على هذه المدن ثم لا يلبثون أن يتخلوا عنها تحت ضغط الروم، فكانت حرب المسلمين في هذه الجزيرة، كما يقولون، حرباً مائعة غير ثابتة(١).

وفي سنة ٢٤٢هـ توفي أبو العباس محمد بن الأغلب بعد أن حكم خمس عشرة سنة وثمانية أشهر واثني عشر يوماً، فخلفه ابنه إبراهيم (٢٤٢ - ٢٤٩هـ).

هكذا تأسست دولة الأغالبة في إفريقية على يد إبراهيم بن الأغلب الذي اتخذ مدينة القيروان حاضرة لدولته، وتمتعت هذه الدولة باستقلال اسمي، ولكنها ما لبثت أن استقلت على مر الزمن استقلالاً يكاد يكون تاماً، بحيث لم يبق للخليفة العباسي سوى ذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة، وظلت على ذلك إلى أن استولى الفاطميون عليها سنة ٢٩٦ هـ.

= قصريانة لحصانتها، ففتحها العباس في سنة ٢٣٧هـ... وبنى بها مسجداً في الحال ونصب فيها منبراً، وخطب وصلى فيها الجمعة.

(١) النويري: نهاية الأرب، المكتبة الصقلية جـ ٤٣١ - ٤٣٣.

دولة الأدارسة
في مراكش
١٧٢ - ٣٧٥/٧٨٨ - ٩٨٥
أمراء الأدارسة(١)

	هجرية	ميلادية
إدريس	١٧٢	٧٨٨
إدريس الثاني	١٧٧	٧٩٣
محمد بن إدريس	٢١٣	٨٢٨
علي بن محمد	٢٢١	٨٣٦
يحيى الأول بن محمد	٢٣٤	٨٤٩
يحيى الثاني بن محمد		
علي الثاني بن عمر بن إدريس الثاني		
يحيى الثالث بن القاسم بن إدريس الثاني		
يحيى الرابع بن إدريس بن عمر	٢٩٢	٩٠٤
الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس	٣١٠	٩٢٢

(بربر مكناسة)

(١) Lane- Poole, Muhammadan Dynasties, p. 35.

إدريس بن عبد الله (١٧٢ - ١٧٧هـ):

كانت موقعة فخ التي وقعت في عهد الخليفة العباسي الهادي سنة ١٦٩هـ بعيدة الأثر في تاريخ العلويين؛ فقد هرب منها رجلان كانا كالشجا في حلق العباسيين: أولهما يحيى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي الذي ثار في بلاد الديلم في عهد هارون الرشيد، وثانيهما أخوه إدريس بن عبد الله الذي نجح في إثارة أهالي المغرب الأقصى على العباسيين.

وفي سنة ١٧٢هـ قامت دولة الأدارسة على يد المولى إدريس بن عبدالله العلوي الذي سار إلى بلاد المغرب الأقصى مع مولاه راشد بعد أن بطش العباسيون بأهل البيت العلوي في موقعة فخ. وقد استقبلته قبيلة أوربة (بفتح الألف وسكون الواو وفتح الراء والباء) البربرية التي لقي منها العون والتأييد في تأسيس دولة الأدارسة التي كانت أول دولة مستقلة عملت جهدها على نشر الإسلام في ربوع هذه البلاد. ثم وفدت على إدريس قبائل زناتة وزراعة ومكناسة وغيرها ودخلوا في طاعته، فقويت شوكته، وامتدت رقعة بلاده حتى شملت الأراضي التي تقيم فيها قبائل زناتة وغيرها من القبائل المنتشرة من القيروان وتمتد إلى المحيط الأطلسي[١].

وقد خشي هارون الرشيد تفاقم خطر إدريس ومحبة الناس له، واتصل به أنه عزم على غزو إفريقية، فعمل على التخلص منه، وفكر في إنفاذ جيش كثيف للقضاء عليه. ولكنه عدل عن ذلك لبعد الشقة ووعورة الطريق، فأشار عليه يحيى البرمكي بأن يبعث إليه برجل معروف بالدهاء يحتال لاغتياله. فبعث الرشيد سليمان بن جرير، ويعرف بالشماخ[٢] وكان من موالي المهدي، وزوده بكتاب إلى واليه على إفريقية. فأذن له هذا الوالي باجتياز حدود ولايته والمسير إلى المغرب الأقصى حيث التقى بإدريس، وذكر له أنه متطبب، وتظاهر بالتشيع لآل البيت، فأكرمه وقربه إليه. ثم تحين الشماخ الفرصة لقتل إدريس. وقد قيل إنه دس له السم في قارورة ملأى بالطيب، وقيل إنه دسه في مسواك قدمه إليه وكان إدريس يشكو من ألم في أسنانه ولثته. وقيل إنه قدم له عنباً مسموماً. ولما تحقق الشماخ من الغرض الذي أتى من أجله، هرب وقدم على إبراهيم بن الأغلب، فأخبره بما فعل، وجاءته بعد مقدمه الأخبار بموت إدريس، فكتب ابن الأغلب إلى الرشيد بذلك، فولى الشماخ بريد مصر وأخبارها[٣].

---

(١) على جبل زرهون بقرب مكناس، وكانت مدينة حصينة كثيرة الأشجار والزيتون ولها سور عظيم (السلاوي جـ ١ ص ٦٨).

(٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ٦٧ - ٦٨.

(٣) الطبري جـ ١٠ ص ٢٩.

انظر ما ذكرناه في ص ١١٧ - ١١٨.

إدريس الثاني (١٧٧ ـ ٢١٣هـ):

وكان لإدريس أمة بربرية حامل تدعى كنزة؛ فانتظر أشياعه حتى وضعت بعد موته بشهرين ولداً ذكراً أسموه إدريساً. وهو إدريس الثاني مؤسس مدينة فاس ويعتبر المؤسس الحقيقي لدولة الأدارسة.

ولما بلغ إدريس الثاني الحادية عشرة من عمره، بايعه البربر في غرة ربيع الأول سنة ١٨٨هـ بمدينة ولبلي، فخطب الناس فقبلوا يده وبايعوه، ثم بايعته كافة قبائل المغرب، ومن بينها زناتة وأوربة وصنهاجة والمصامدة. ثم شرع في بناء مدينة فارس سنة ١٩٢هـ، فتم بناؤها في السنة التالية واتخذها إدريس حاضرته لدولته.

وقد وجه إدريس همه لمحاربة الصفرية من الخوارج، وأحل بهم الهزيمة[١] وضرب السكة باسمه. ويقول ابن الأثير (جـ ٦ ص ٥٦) إن إبراهيم بن الأغلب أراد قتال إدريس، فنهاه أصحابه وقالوا له: أتركه ما تركك، فكتب إليه إدريس يذكر له قرابته من رسول الله، فكف عنه.

توفي إدريس الثاني في شهر جمادى الآخر سنة ٢١٣هـ وهو في السادسة والثلاثين من عمره، فخلفه ابنه محمد بن إدريس. وفي عهده انقسم أمراء هذا البيت على أنفسهم، فخرج عليه عيسى بن إدريس بمدينة آزمور ونبذ طاعته ودعا لنفسه. فاستعان محمد بأخيه القاسم صاحب طنجة فأبى، فكتب إلى أخيه الثاني عمر صاحب مكناس، فامتثل أمره، وسار لقتال عيسى على رأس جيش من البربر، وأوقع به الهزيمة وطرده وأقره على عمل أخيه، وأمره بقتال أخيه القاسم، فزحف إلى ظاهر طنجة، وأحل به الهزيمة واستولى على ما بيده من البلاد الممتدة على ساحل البحر حتى مدينة طنجة.

ولم يلبث أن توفي محمد في شهر ربيع الثاني سنة ٢٢١هـ، فخلفه ابنه علي بن محمد (٢٢١ ـ ٢٣٤هـ)، وكان في التاسعة من عمره، ولقب حيدرة، وهو لقب علي بن أبي طالب. ولم يذكرلنا المؤرخون كثيراً عن دولة الأدارسة في عهد علي بن محمد الذي توفي في شهر رجب سنة ٢٣٤، وخلفه أخوه يحيى بن محمد الذي يذكر ابن خلدون[٢] أنه قام بالأمر، وامتد سلطانه، وعظمت دولته، وحسنت آثاره، واستبحر عمران فاس في عهده، وبنيت بها الحمامات والفنادق، وبنيت خارجها الأرباض، ورحل إليها الناس من البلاد المغربية. وسنوالي الكلام

(١) السلاوي: جـ ١ ص ٧٢ ـ ٧٤.
(٢) العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٤ ص ١٥.

على الأدارسة التي زالت دولتهم على أيدي الفاطميين في القرن الرابع الهجري في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

وقد قامت دولة الأدارسة بدور هام في نشر الإسلام في ربوع المغرب. وكان لانتسابهم إلى الرسول الكريم أثر كبير في توحيد القبائل المتعادية وتأييد الأهلين لهم بعد أن كادت فتن الخوارج تمزق شملهم، واستطاع المولى إدريس لأول مرة أن يوحد بين إقليم السهول الساحلية (المغرب الأقصى) وإقليم المراعي، أي بين إقليم الحضارات القديمة وإقليم البداوة، كما استطاع الأدارسة بفضل هذه الوحدة أن يوجهوا أنظارهم إلى حركة جهاد مقدس بقصد إتمام نشر الإسلام في البلاد ومحاربة العقائد الشاذة والقضاء على بقايا اليهودية والنصرانية بين قبائل المغرب. وقد جاوز نفوذ الأدارسة منطقة المغرب الأقصى إلى الصحراء الكبرى التي تفصل بلاد المغرب عن إقليم السودان[١].

---

(١) الجزنائي : زهرة الآس في بناء مدينة فاس (فاس ١٩٢٢) ص ٢٢.

٤ ـ مع بلاد الأندلس[١]:

(١٣٨ ـ ٤٢٢/ ٧٥٦ ـ ١٠٣١)

هجرية	ميلادية		هجرية	ميلادية	
١٣٨	٧٥٦	١ عبد الرحمن الأول	٤٠٠	١٠١٠	١٤ محمد الثاني (للمرة الثانية)
١٧٢	٧٨٨	٢ هشام الأول	٤٠٣	١٠١٣	١٥ سليمان (للمرة الثانية)
١٨٠	٧٩٦	٣ الحكم الأول	٤٠٧	١٠١٦	١٦ علي بن حمود[٢]
٢٠٦	٨٢٢	٤ عبد الرحمن الثاني	٤٠٨	١٠١٨	١٧ عبد الرحمن الرابع المرتضى
٢٣٨	٨٥٢	٥ محمد الأول	٤٠٨	١٠١٨	١٨ القاسم بن حمود
٢٧٣	٨٨٦	٦ المنذر	٤١٢	١٠٢١	١٩ يحيى بن علي
٢٧٥	٨٨٨	٧ عبد الله	٤١٣	١٠٢٢	٢٠ القاسم (للمرة الثانية)
٣٠٠	٩١٢	٨ عبد الرحمن الثالث	٤١٤	١٠٢٣	٢١ عبد الرحمن الخامس المستظهر
		(الخليفة الناصر)	٤١٤	١٠٢٤	٢٢ محمد الثالث المستكفي
٣٥٠	٩٦١	٩ الحكم الثاني المستنصر	٤١٦	١٠٢٥	٢٣ يحيى (للمرة الثانية)
٣٦٦	٩٧٦	١٠ هشام الثاني المؤيد	٤١٨	١٠٢٧	٢٤ هشام الثالث المعتمد
٣٩٩	١٠٠٩	١١ محمد الثاني المؤيد	٤٢٢	١٠٣١	
٤٠٠	١٠٠٩	١٢ سليمان المستعين			

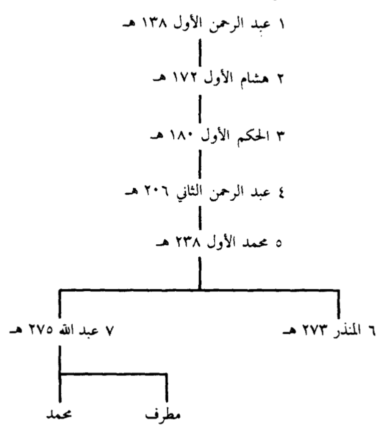
(دول صغيرة)[٢]

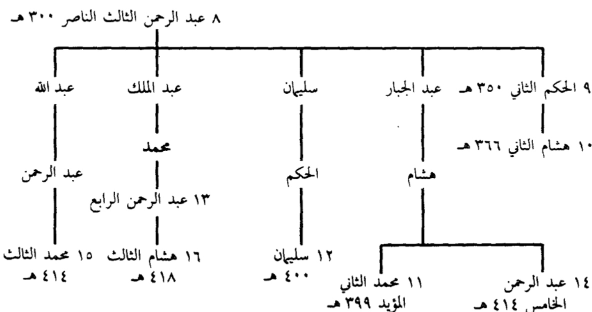
---

(١) lane - poole: muhammadan dynasties, pp. 21'22,23.

(٢) من أسرة الحموديين في سبتة، راجع المصدر نفسه ص ٢٣ .

جدول يمثل نسب الأمويين في قرطبة





عبد الرحمن الداخل (١٣٨ - ١٧٢هـ):

أخذ سلطان العباسيين يتقلص عن بلاد الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية في دمشق. وقد قام النزاع بين المضرية واليمنية في هذه البلاد، فتولى أبو الخطار عليها في سنة ١٢٥هـ. فقام في وجهه الصميل (بضم الصاد مع التشديد وفتح الميم وسكون الياء) بن حاتم، وكان مضرياً، وخلعه وأسره وولى عليهم واحداً منهم (سنة ١٢٧هـ). ولكن هذا الوالي الجديد، أو الثائر بعبارة أدق، توفي بعد سنتين، فأراد أهل اليمن إعادة أبي الخطار، وافترقت الكلمة: فأقامت الأندلس أربعة أشهر بغير أمير. فلما تفاقم الأمر، اتفق رأيهم على يوسف بن عبدالرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة الفهري، وكان مضرياً، فوليها سنة ١٣٩هـ. فاستقر بينهم الأمر على أن يلي سنة، ثم يرد إلى اليمن، فيولون من أحبوا من قومهم. فلما انقضت السنة أراد أهل اليمن أن يولوا رجلاً منهم، فهم الصميل فقتل منهم خلقاً كثيراً، واجتمع الناس على يوسف، ولم يعترض أحد. وظل يوسف على ولاية الأندلس إلى أن غلب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام.

ظلت الحال على ذلك حتى زالت الدولة الأموية، وتعقب العباسيون أفراد البيت الأموي ومثلوا بهم، فأتيحت الفرصة لأحد أمراء هذا البيت، وهو عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، الذي أفلت من أيدي العباسيين، وهرب إلى بلاد الأندلس حيث أسس فيها الدولة الأموية التي أصبحت حضارتها منبعاً لحضارة أوربا الحديثة.

وقد وصف عبد الرحمن كيفية نجاته من العباسيين وهربه إلى الأندلس فقال: «لما أعطينا الأمان، ثم نكس بنا بنهر أبي فطرس، وأبيحت دماؤنا، أتانا الخبر. وكنت منتبذاً من الناس، فرجعت إلى منزلي آيساً ونظرت فيما يصلحني وأهلي وخرجت خائفاً حتى صرت إلى قرية على الفرات ذات شجر وغياض. فبينا أنا ذات يوم بها، وولدي سليمان يلعب بين يدي، وهو يومئذ ابن أربع سنين، فخرج عني، ثم دخل الصبي من باب البيت باكياً فزعاً، وجعلت أدفعه وهو يتعلق بي، فخرجت لأنظر، وإذا بالخوف قد نزل بالقرية، وإذا بالرايات السود منحطة عليها، وأخ لي حدث السن يقول لي النجاء النجاء! فهذه رايات المسودة. فأخذت دنانير معي ونجوت بنفسي وأخي، وأعلمت إخوتي بمتوجهي فأمرتهم أن يلحقني مولاي بدر. وأحاطت الخيل بالقرية فلم يجدوالي أثراً. فأتيت رجلاً من معارفي، وأمرته فاشترى لي دواب وما يصلحني، فدل علي عبد الله العامل فأقبل في خيل له يطلبني، فخرجنا على أرجلنا هراباً. والخيل تبصرنا، فدخلنا في بساتين على الفرات، فسبقنا الخيل على الفرات فسبحنا. فأما أنا فنجوت. والخيل ينادوننا بالأمان ولا أرجع، وأما أخي فإنه عجز عن السباحة في نصف الفرات، فرجع إليهم

بالأمان وأخذوه فقتلوه، وأنا أنظر إليه، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فاحتملت فيه ثكلاً ومضيت لوجهي، فتواريت في غيضة أشبه، حتى انقطع الطلب عني، وخرجت فقصدت المغرب فبلغت إفريقية»[١].

لقي عبد الرحمن كثيراً من الصعاب في طريقه إلى الأندلس، فقد اشتد في طلبه عبد الرحمن بن حبيب الفهري والي إفريقية وأبو يوسف الفهري أمير بلاد الأندلس، فهرب إلى مكناسة إحدى قبائل البربر، فلقي منهم كثيراً من الشدائد، فتسلل إلى جماعة من زناتة فأحسنوا إليه؛ وقيل إنه قصد أخواله في نفزاوة فأكرموه، ثم أخذ يراسل الأمويين في الأندلس ويدعوهم إلى نفسه ويمنيهم الأماني الطيبة، واستعان في ذلك بغلامه بدر. واستغل عبد الرحمن سوء حال بلاد الأندلس التي مزقتها الانقسامات والقحط، فأوقع بين المضرية واليمنية فيها، واستطاع أن يدخل هذه البلاد في شهر ربيع الأول سنة ١٣٨هـ. كما استطاع بعد قليل أن يجذب إليه قبائل اليمن. وكانت تحنق على يوسف الفهري. وما زال يستولي على بلاد الأندلس مدينة تلو مدينة حتى دخل قرطبة وقضى على نفوذ واليها يوسف الفهري[٢].

ولكن أبا جعفر المنصور لم يهدأ باله من ناحية عبد الرحمن الداخل، فعمل على القضاء عليه. ويقول ابن الأثير[٣] عند كلامه على حوادث سنة ١٤٦هـ: إن العلاء بن مغيث اليحصبي (بفتح الياء الأولى وسكون الحاء وضم الصاد) صار من إفريقية إلى إحدى مدن الأندلس، ولبس السواد، واجتمع إليه خلق كثير. فخرج إليه عبد الرحمن الداخل الأموي، فالتقيا بنواحي إشبيلية، فانهزم العلاء وأصحابه، وقتل هو وسبعة آلاف، وأمر عبد الرحمن بعض التجار بحمل رأسه ورؤوس جماعة من مشاهير أصحابه إلى القيروان وإلى مكة، وكان بها أبو جعفر المنصور.

ولا شك أن انسلاخ بلاد الأندلس عن الدولة العباسية قد فت في عضدها ولم يتمكن أبو جعفر المنصور من إعادة سلطان العباسيين إلى هذه البلاد، فعمل على استمالة عبد الرحمن وأرسل إليه الرسل. وكثيراً ما كان يظهر إعجابه به وبمقدرته، وبعزيمته التي جعلته وهو شريد طريد يستطيع أن يؤسس هذا الملك الواسع في تلك البلاد البعيدة.

وقد ذكر المؤرخون أن أبا جعفر المنصور قال لأصحابه: «أخبروني عن صقر قريش من هو؟ قالوا: أمير المؤمنين الذي راض الملك وسكن الزلازل وحسم الأدواء وأباد الأعداء. قال: ما صنعتم شيئاً، قالوا: فمعاوية. قال: ولا هذا. قالوا: فعبد الملك بن مروان، قال: ولا

(١) ابن الأثير: جـ ٥ ص ١٩٨ - ١٩٩.
(٢) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٥ - ١٥٦. (٣) الكامل في التاريخ جـ ٥ ص ٢٣٢.

هذا، قالوا فمن يا أمير المؤمنين؟ قال: عبد الرحمن بن معاوية الذي عبر البحر، وقطع القفر، ودخل بلداً عجمياً مفرداً، فمصر الأمصار، وجند الأجناد، ودون الدواوين، وأقام ملكاً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته. إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذللا صعبه، وعبد الملك ببيعة تقوم لها عقدها، وأمير المؤمنين يطلب غيره واجتماع شيعته، وعبد الرحمن منفرد بنفسه، مؤيد برأيه، مستصحب لعزمه»[١].

وكثيراً ما كان أبو جعفر المنصور يشيد بذكر عبد الرحمن الداخل ويعدله بنفسه ويقول: «لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه: فالشأن في أمر فتى قريش الأحوذي الفذ في جميع شئونه، وعدمه لأهله ونسبه، وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرمى همته ومضاء عزيمته، حتى قذف نفسه في لجج المهالك لابتناء مجده؛ فاقتحم جزيرة شاسعة المحل، نائية المطمع، عصبية الجند. ضرب بين جندها بخصوصيته، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته، واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته، حتى انقاد له عصيهم وذل له أبيهم. فاستولى فيها على أريكته، ملكاً على قطيعته، قاهراً لأعدائه، حامياً لذماره، مانعاً لحوزته، خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه. إن ذلك لهو الفتى كل الفتى لا يكذب مادحه»[٢].

ولما لم يظفر المنصور بشيء من وراء هذه السياسة، طرق باب «ببين» ملك الفرنجة رغبة في مساعدته على عبد الرحمن الداخل؛ فأرسل إليه سفراء أقاموا في بلاطه عدة سنين، ثم عادوا إلى المنصور يصحبهم سفراء الفرنجة. ثم عاد هؤلاء إلى ببين محملين بهدايا الشرق النفيسة، دون أن تؤدي هذه المفاوضات إلى شيء سوى ما ولدته في نفس عبد الرحمن الداخل من خوف هجوم الفرنجة على بلاده[٣]. وبذلك لم يحاول إظهار عدائه الحربي للخليفة العباسي. لذلك نرى المنصور، وإن كان لم ينجح في القضاء على عبد الرحمن الداخل في الناحية الحربية، قد نجح إلى حد بعيد في الناحية السياسية، ووضع أساس هذه السياسة التي سار عليها أبناؤه من بعده.

وكانت الدول تهاب الدولة الإسلامية في عهد المهدي العباسي لعظمتها وقوة سلطانها، إلا ما كان بين العباسيين والأمويين في الأندلس. فقد كان المهدي يضمر العداء لعبد الرحمن الداخل كما كان أبوه المنصور من قبل ويود إزالة دولته. ولكنه كان يحجم عن تجريد الجيوش إلى بلاده، لبعد الشقة ووعورة الطريق، وإتعاب جنده بالمسير في صحراء إفريقية، وقوة عبد الرحمن الذي فكر في انتزاع بلاد الشام من العباسيين، لولا أن الحالة الداخلية في بلاده

(١) العقد الفريد جـ ٣ ص ٢٠١ ـ ٢٠٢.

(٢) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٧.

(٣) mair, the caliphate, pp. 460 ' 461.

تطلبت العدول عن تحقيق هذه السياسة، فاكتفى كل من الرجلين بمعاداة الآخر. وقد وجه الخليفة العباسي المهدي، عبد الرحمن بن حبيب الفهري إلى بلاد الأندلس، فسار من إفريقية، وعبر البحر، وكتب إلى سليمان بن يقظان ببرشلونة يحثه على الدخول في طاعة العباسيين، فلم يجب سليمان طلبه، فثارت ثائرة الفهري، وأغار على بلده بجند كثيف من البربر. ولكن سليمان هزم الفهري، وطرد عبد الرحمن الداخل الفالة من جنده، وأحرق سفنه ليحول بذلك دون هربه. على أن قائد المهدي تحصن بناحية بلنسية، وصمد للأمويين وأوقع الرعب في قلوبهم، وبذل عبد الرحمن الداخل ألف دينار لمن يأتيه برأسه، فاقتفى أثره رجل من البربر، وتتبع خطواته حتى عثر عليه وقتله غيلة، وحمل رأسه إلى أمير بلاد الأندلس. ولم تنجح سياسة المهدي في إعادة هذه البلاد إلى الدولة العباسية[١].

استقر عبد الرحمن بقرطبة، وبنى بها القصر والمسجد الجامع، وقطع الدعوة للعباسيين من منابر الأندلس، وأثل بها ذلك الملك العظيم، وجدد ما طمس لهم بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها. وكان عبد الرحمن ينظر في المظالم بنفسه وينصف الضعيف من القوي. وكان إذا جاء وقت الطعام دعا إلى مائدته أصحابه ومن قصده من أصحاب الحاجات[٢].

حكم عبد الرحمن بلاد الأندلس ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر، ومات في سنة ١٧٢هـ وخلف من الولد عشرين منهم أحد عشر ذكراً وتسع إناث، وعاصر من الخلفاء العباسيين: المنصور، والهادي، والرشيد.

هشام الأول ـ الحكم الأول:

خلف عبد الرحمن ابنه هشام الأول (١٧٢ ـ ١٨٠هـ)، وأمه أم ولد تسمى حلل. وكان أبوه قد عهد إليه بالإمارة من بعده، وولاه ماردة، وأعده للحكم. وكان يأنس فيه الحزم ويثق به.

وقد شبهه المقري[٣] بعمر بن عبد العزيز في عدله واهتمامه بشئون المسلمين، حتى إنه قرب إليه الفقهاء الذين تمتعوا في عهده بنفوذ عظيم وأصبحت لهم مكانة كبيرة في الدولة، ومن أشهر هؤلاء الفقهاء يحيى بن يحيى الليثي الذي ينتسب إلى قبيلة المصامدة من البربر. وقد رحل إلى المشرق، وأخذ العلم عن الإمام مالك بن أنس، وروى عنه كتابه الموطأ، وانتهت إليه الرياسة في الفقه والحديث[٤].

---

(١) ابن الأثير جـ ٦ ص ٢٢ ـ ٢٣.
(٢) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٦ ـ ١٥٧.
(٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٦٠.
(٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤.

كان هشام يبعث بثقاته إلى الكور يسألون الناس عن سير عماله؛ فإذا انتهى إليه أن أحدهم ظلم أحداً عزله عن عمله وأنصف المظلوم. كما عين في المدن عسساً لمنع الشجار وارتكاب الجرائم، ورأى أن تقسم الغرامات المفروضة على الأشرار بين الأتقياء الذين لا يمنعهم مطر أو برد من غشيان المساجد. وكان يعود المرضى، ويقود جيوشه بنفسه لمحاربة نصارى الشمال، ولقبه الناس بالشفيق والعادل[١].

وكان هشام تقياً صالحاً، صرف عهده فيما يعود على بلاده بالخير والرفاهية؛ فجمَّل مدينة قرطبة وزينها بالمباني الفخمة والبساتين النضرة، وجدد القنطرة التي بناها السمح بن مالك الخولاني عامل عمر بن عبد العزيز ببلاد الأندلس. وأحكم هشام بناءها حتى أصبحت مضرب المثل في إحكام البناء[٢]. كما أتم المسجد الذي أسسه أبوه، وشيد غيره من المساجد في أنحاء البلاد. وعني بنشر اللغة العربية حتى أصبحت تدرس في مدارس اليهود. وبلغ من تواضعه أنه كان يطوف في شوارع قرطبة، ويختلط برعيته، وينظر في المظالم بنفسه، ويشهد الجنائز[٣].

توفي هشام سنة ١٨٠هـ، بعد أن حكم سبع سنين وتسعة أشهر (وقيل ثماني سنين). «وكان ـ كما وصفه المقري[٤] ـ من أهل الخير والصلاح، كثير الغزو والجهاد».

ولي الحكم الأول (١٨٠ ـ ٢٠٦هـ) بعد أبيه هشام. وكان يختلف عن أبيه اختلافاً كبيراً؛ فقد كانت سياسته ترمي إلى إقصاء الفقهاء عن التدخل في شئون الدولة، وقصر عملهم على إقامة الشعائر الدينية والفصل في القضايا. فثارت ثائرتهم وأخذوا يسبونه، وحرضوا العامة على العصيان. وزاد في حنقهم اتخاذ الحكم المماليك المرتزقة حرساً له، فعاثوا في الطرقات، وثار المولدون والأسبان الذين اعتنقوا الإسلام في قرطبة وطليطلة. وقاد ثورة قرطبة الفقهاء، وعلى رأسهم يحيى بن يحيى الليثي، وطالوت الفقيه، فخلعوه وبايعوا أحد أفراد أسرته، وكانوا بالربض الغربي من قرطبة، فقاتلهم وأوقع بهم. ولذلك سمي «الحكم الربضي» وهدم الحكم دورهم ومساجدهم. فلحقوا بفاس من أرض العدوة، وبالاسكندرية حيث نزل جمع منهم، ثم ثاروا بها، فسار إليهم عبد الله بن طاهر والي مصر من قبل المأمون وغلبهم، وأجازهم إلى جزيرة إقريطش، فلم يزالوا بها إلى أن ملكها الفرنجة[٥].

ويقص علينا المقري[٦] هذه القصة الطريفة التي أدت إلى موقعة وادي الحجارة، فيقول إن العباس الشاعر نزل بوادي الحجارة، فسمع امرأة تقول: واغوثاه بك يا حكم! لقد أهملتنا

(١) راجع: لينبول ـ ترجمة علي الجارم ص ٦٧.
(٢) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٠.
(٣) dozy, histoire des musulmans d'espagne, I p. 242.
(٤) نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٩.
(٥) المصدر نفسه والجزء والصفحة.
(٦) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٨٢.

حتى كلب العدو علينا فأيمنا وأيتمنا، فسألها عن ظلامتها فقالت: كنت مقبلة من البادية في رفقة، فخرجت علينا خيل عدو فقتلت وأسرت، فنظم عباس بن ناصح الجزيري قصيدته التي قال في أولها:

تململتُ في وادي الحجارة مسئداً ... أراعي نجوماً ما يرون تغيرا
إليكَ أبا العاصي نضيتُ مطيتي ... تسير بهم سارياً ومهجرا
تداركْ نساءَ العالمين بنصرة ... فإنك أحْرى أن تُغيثَ وتنصرا

فلما دخل العباس على الحكم أنشده هذه القصيدة ووصف ما ساد هذه الأرجاء من خوف وهلع واستنجاد هذه المرأة به، فنادى بالجهاد، وخرج بعد ثلاثة أيام إلى وادي الحجارة ومعه العباس الشاعر، وسأل عن مكان العدو، وغزاه وفتح حصونه، وخرب بلاده، وقتل كثيراً من أهله، ثم عاد إلى وادي الحجارة وأمر بإحضار الأسرى فقطعت رءوسهم، ثم بعث في طلب المرأة التي استغاثت به، وقال للعباس الشاعر: سلها هل أغاثها الحكم؟ فقالت المرأة: والله لقد شفى الصدور وأنكى العدو، وأغاث الملهوف، فأغاثه الله، وأعز نصره. فارتاح إلى قولها وظهر على وجهه البشر والسرور وقال:

ألَمْ ترَ عباسُ أنِّي أجبتها ... على البُعْدِ أقتادُ الخميسَ المظفرا؟
فأدركتُ أوطاراً وبردت غُلة ... ونفست مكروباً وأغنيت مُعْسِرا

قال العباس: نعم! جزاك الله خيراً عن المسلمين وقبل يده.

وقد خرج على الحكم عماه واستوليا على طليطلة وبلنسية، واستعان أحدهما بشرلمان، فحاربهم الحكم واسترد البلاد التي استولوا عليها. واتخذ الأمراء المسيحيون في الشمال من هذه الحروب الأهلية التي وقعت بين المسلمين في بلاد الأندلس فرصة للإغارة على ولاية أرغونة. ولكن الحكم حاربهم وردهم على أعقابهم. كما ثار والي برشلونة أكبر معاقل المسلمين في هذه البلاد واستعان بشرلمان، فأرسل الحكم جيشاً استردها.

ذكر ابن خلدون[1] أن الحكم أول من جند بالأندلس الأجناد المرتزقة وجمع الأسلحة والعدد، واستكثر من الحشم والحواشي، وارتبط الخيول على بابه، واتخذ المماليك، وكان يسميهم الخرس لعجمتهم، وبلغت عدتهم خمسة آلاف وكان يباشر الأمور بنفسه. وكان له عيون يطالعونه بأحوال الناس. وكان يقرب الفقهاء والعلماء والصالحين، وهو الذي وطأ الملك لعقبه بالأندلس.

---

(١) العبر جـ ٤ ص ١٢٧.

وقد أفاد «شارل مارتل» ملك الفرنجة من الخلاف الذي ساد بين العباسيين في الشرق والأمويين في بلاد الأندلس، فتقرب إلى الخليفة المهدي العباسي ليكسب شيئاً من النفوذ في بلاده، ويهدد بذلك منافسه إمبراطور الدولة البيزنطية. وقد جنى شرلمان ثمار هذه السياسة فاكتسب محبة هارون الرشيد. وكانت العلاقة بينه وبين امبراطور الفرنجة تقوم على الود والصفاء، بخلاف ما كانت عليه مع امبراطور الدولة البيزنطية. فخطب شرلمان ود الرشيد. وأرسل إليه وفداً مؤلفاً من رجلين من النصارى ورجل من اليهود، لتسهيل سبيل الحج إلى بيت المقدس، ونشر التجارة بين البلدين، والحصول على علوم المشرق. كما رغب الرشيد في محالفة شرلمان على امبراطور القسطنطينية وأمير الأندلس الأموي.

على أن هؤلاء السفراء وتلك الكتب لم تؤد إلى غرض مادي يذكر، اللهم إلا ما كان من إرسال مفاتيح كنيسة بيت المقدس إلى شرلمان وتبادل الهدايا بينه وبين الرشيد. ولا غرو فقد أصبح شرلمان حامي المسيحيين الذين يفدون إلى هذه البلاد لأداء فريضة الحج. ومع أنه لم ينظر إلى هذا الأمر بعين الاعتبار، فقد أدى ذلك إلى نتائج خطيرة في المستقبل، لأنه أكسب ملك الفرنجة حق حماية الأماكن المقدسة في فلسطين.

كان من بين الهدايا التي أرسلها الرشيد إلى شرلمان وأثارت إعجاب الناس في بلاد الفرنجة، ذلك الفيل الذي وصل إلى إكس لاشابل حاضرة إمبراطورية شرلمان، وكان يسمى أبا العباس، وتلك الساعة المائية الدقاقة التي آمنوا أنها آلة سحرية، وغيرها من هدايا المشرق النادرة.

عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨هـ):

مات الحكم في سنة ٢٠٦هـ بعد أن حكم سبعاً وعشرين سنة، فخلفه ابنه عبد الرحمن الثاني. وقد ولد بطليطلة في شهر شعبان سنة ١٧٦هـ، وعني أبوه بتنشئته وتثقيفه، فحذق علوم الشريعة والفلسفة وسمي «الأوسط» لأن الأول هو عبد الرحمن الداخل، والثالث عبد الرحمن الناصر. وامتاز عهده بالهدوء والسكينة، وكثرت الأموال في خزائنه، واتخذ القصور والمتنزهات. وجلب إلى قرطبة المياه من الجبال، وأقام الجسور، ونظم شوارع قرطبة، وزاد في بناء جامعها. كما أنشأ المساجد في أكثر مدن الأندلس، وجعل إلى جانب كل مسجد مدرسة ومستشفى، وأصلح الطرق الرومانية القديمة، كما شجع العلوم والآداب والفلسفة، فظهر في بلاد الأندلس في أيامه نوابغ العلماء من كل فن.

ولما استتب لعبد الرحمن الأوسط الأمر بالأندلس تفرغ لإصلاح البلاد، فنمت ثروتها

حتى نافست الدولة العباسية في العظمة والنهضة العلمية. وقد انتقل كثير من التراث اليوناني والفارسي الذي استحوذ عليه العباسيون إلى قرطبة بفضل جهود عبد الرحمن الأوسط. وكان عبد الرحمن من أكثر أمراء الأندلس أبهة في بلاطه. وقد امتازت حاشيته بكثير من الصفات العربية الكريمة. ويرجع الفضل في ذلك إلى زرياب الذي قدم عليه من العراق في سنة ٢٠٦هـ وقد رحب به عبد الرحمن وبالغ في إكرامه وأغدق عليه وأنزله داراً فخمة.

منح عبد الرحمن ومن جاء قبله من الأمراء الأمويين أهل بلاد الأندلس الحرية لإقامة شعائرهم الدينية، وكثيراً ما حارب المسيحيون مع المسلمين جنباً إلى جنب، كما كانوا يعينون في أرقى المناصب الحربية والسياسية. ومن ثم اعتنق كثير منهم الإسلام. وعلى الرغم من هذا التسامح الديني الذي تمتع به أهل بلاد الأندلس، أثار بعض القسس الفتنة في أواخر عهد عبد الرحمن، فحرضوا المسيحيين على سب النبي ﷺ. ولما كان سب الدين جريمة يعاقب مرتكبيها بالقتل، أمر عبد الرحمن بقتل كثير من القسس وغيرهم. ومن هؤلاء يولوجيوس الذي أثار روح التضحية بين النصارى، وساعده شاب غني من أهل قرطبة يدعى ألفارو، وقسيس آخر يدعى برفتكوس، وغيره من متحمسي القسيسين والرهبان والنساء مثل فلورا (Flora) ، وكان أبوها مسلماً وأمها نصرانية[1].

يقول لينبول[2] «إن المسيحية لا تعلم دعاتها أن يطوحوا بحياتهم هدراً لمحض التمتع بالتعذيب والقتل. على أن نصارى الأندلس لم يضطهدوا، ولم يحل بينهم وبين شعائر دينهم حائل، ولم يكن المسلمون يجهلون المسيحية أو يحتاجون إلى من يلقنهم تعاليمها، فقد كانوا يعرفون من الكتاب المقدس أكثر من نصارى الأندلس أنفسهم. وكانوا لا يذكرون اسم عيسى من غير أن يتبعوه بالصلاة والتسليم، لأن قدسية المسيح وإحاطة اسمه بالإجلال والتبجيل من أظهر مبادىء الإسلام.

ولما خشي رجال الكنيسة أن تنقلب هذه الحركة إلى اضطهاد حقيقي، عقدوا مؤتمراً أصدروا قراراً يحرم المجاهرة بسب النبي ﷺ أو القرآن، فهدأت الأحوال.

وكان المسيحيون يتكلمون العربية ويصنفون بها الكتب وينظمون بها الشعر، كما تخلقوا بأخلاق العرب وعاداتهم. وقد ندد يولوجيوس نفسه بهذه الحال، فقال إن النصارى نسوا لغتهم حتى إنه لم يوجد واحد في كل ألف يكتب كلمة لاتينية صحيحة.

(١) راجع هذه الحوادث في: Dozy, the Moslems in Spain, pp. 278 - 281

(٢) ترجمة علي الجارم ص ٧٧.

وفي عهد عبد الرحمن الأوسط أغار الفونس أمير ليون[١]، كما أغار غيره من مسيحيي الشمال على البلاد الإسلامية الشمالية. فأرسل عبد الرحمن إليهم جيوشاً خربت بلادهم وأرغمتهم على دفع الجزية، وبلغ من قوة المسلمين في الأندلس في عهد عبد الرحمن أن وفدت عليه في سنة ٢٢٢هـ (٨٣٦م) رسل إمبراطور القسطنطينية بالهدايا وطلبوا إليه عقد معاهدة، ورغبوه في ملك آبائه بالمشرق، وكانت الدولة العباسية في حلف مع شرلمان ثم مع ابنه لويس التقي. ومما يدل على حسن سياسة عبد الرحمن تحالفه مع مقاطعة نافار الواقعة شمالي البرانس لتكون حاجزاً بين بلاده وبلاد الفرنجة.

وكان عبد الرحمن الأوسط ـ كما وصفه لينبول[٢] ـ نقي الذوق لين الخلق سهل القياد، ملك زمامه طول حياته أربعة نالوا عنده الحظوة الكاملة وهم: مغن، وفقيه، وامرأة، وعبد أسود. وكان أشد هؤلاء تسلطاً عليه الفقيه يحيى بن يحيى الليثي[٣]، وهو هو نفسه الذي أثار الفقهاء على أبيه الحكم، ولكنه أصبح اليوم صاحب التأثير المطلق والكلمة التي لا ترد لدى الأمير الجديد. وكانت للأميرة «طروب» وعبده «نصر» سلطة نافذة في شئون الملك. أما «زرياب» المغني فإنه استغل حظوته عند عبد الرحمن في إنهاض الفنون والثقافة، وأبى أن يزج بنفسه في أمور الدولة التي قد تكون سيئة المغبة.

ذكر الطبري[٤] في حوادث سنة ٢١٠هـ، «أن عبد الله بن طاهر طرد جماعة من الأندلس اتخذوا من وقوع الاضطرابات في مصر فرصة سانحة لهم، فنزلوا الإسكندرية واستقروا فيها. فلما دخل عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر، أرسل إلى من كان بها من الأندلسيين، وإلى من كان انضوى إليهم، يؤذنهم بالحرب إن هم لم يدخلوا في الطاعة، فأخبروه أنهم أجابوه إلى الطاعة وسألوه الأمان على أن يرتحلوا من الاسكندرية إلى بعض أطراف الروم التي ليست من بلاد الإسلام؛ فأعطاهم الأمان على ذلك، وأنهم رحلوا عنها، فنزلوا جزيرة من جزائر البحر يقال لها إقريطش، فاستوطنوها وأقاموا بها، بقايا أولادهم إلى اليوم».

ولكن فكرة فتح بلاد الأندلس وإعادتها إلى سلطان العباسيين قد شغلت خلفاءهم، حتى إن المعتصم عزم على المسير إلى أقصى المغرب، ليملك البلاد التي لم تدخل في ملك بني العباس لاستيلاء الأمويين عليها[٥].

وكان عبد الرحمن الأوسط نصيراً للعلوم والآداب والفنون، وكان مولعاً بالفلك

---

(١) أو أستوريش في شمال غربي الأندلس.
(٢) ترجمة علي الجارم ص ٧٢.
(٣) Dozy, The Mosllems in Spain, p. 260.
(٤) جـ ١٠ ص ٢٧٥.
(٥) السيوطي تاريخ الخلفاء ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

والتنجيم، وقد أحاط نفسه بنخبة من علماء الفلك، وأدر عليهم الأرزاق والمنح. وقد بعث في بداية عهده عباس بن نصيح (بضم النون وفتح الصاد وسكون الياء) إلى الشرق الإسلامي لينقل إليه الكتب التي استحوذ عليها المسلمون. وكان هذا الأمير مشغوفاً بمطالعة الطب والفلسفة القديمة.

وقد حرص الأمويون منذ عهده على إحياء الدولة الأموية في الأندلس، فأسس عبد الرحمن الداخل دولته وبنى مجتمعه وشجع التقاليد الإسلامية على غرار الدولة الأموية في سورية. وقد شجعه على بلوغ أمانيه، ذلك التشابه الجغرافي بين الدولة الأموية القديمة في طرف البحر الأبيض المتوسط الشرقي، والدولة الأموية الجديدة في الطرف الغربي لهذا البحر، كما وجد الشعراء ذلك التشابه العظيم بين سهول الأندلس اليانعة وغوطة دمشق النضرة.

واحتفظ مسلمو الشرق الذين استوطنوا الأندلس بتقاليد أجدادهم، ثم أخذت هذه التقاليد تتواءم مع عوامل البيئة الجديدة، بسبب اعتناق أهل الأندلس الإسلام واندماجهم مع العرب المسلمين عن طريق المصاهرة. وقد تكونت من الجماعات العربية التي جاءت لإحياء الخلافة الأموية، طبقة الشآميين ثم طبقة العرب الذين حضروا الفتح أو جاءوا بعده مباشرة وكونوا طبقة البلديين (القوميين).

وقد عاش هؤلاء المحاربون الذين ينتمون إلى أصل عربي في أراضيهم الشاسعة التي قام على زراعتها السكان الأصليون الذين اعتنقوا الإسلام بعد قليل. وكان السواد الأعظم من هؤلاء الجند سورياً. لذلك أطلقوا على أحيائهم وقصورهم أسماء سورية. فنجد مثلاً حي الرصافة الذي يذكرنا بقصر الرصافة في صحراء تدمر.

وكان عهد الحكم الأول بن عبد الرحمن الداخل فترة هدوء سياسي لم يقع فيها من الأحداث السياسية ما يستحق الذكر. وقد ساعد ذلك الهدوء على خلق نهضة علمية، ولا سيما في عهد عبد الرحمن الأوسط الذي يعتبر عهده عهد يسر ورخاء وازدهار ثقافي، وذلك لتأثير الشرق الإسلامي في العصر العباسي.

نعم إن العباسيين المعاصرين في الشرق لم ينسوا ضياع هذا الاقليم المزدهر من أيديهم؛ ولم يستطيعوا أن يؤثروا فيه سياسياً، ولكنهم مع ذلك استطاعوا أن يؤثروا فيه اقتصادياً وثقافياً: فنجد نظام الحكم في الأندلس يسير إلى حد كبير على وفق نظام الحكم الذي أخذه العباسيون عن الساسانيين في بلاد الفرس ونجد بلاط الأمير الأموي في الأندلس يتبع تقاليد البلاط العباسي الذي يتمشى مع تقاليد الأسرة الساسانية، كما نجد هذا الأمير يتخذ بيت المال وديوان الخاتم وديوان الطراز على غرار نظام المسلمين في الشرق. ونراه أيضاً يؤسس المصانع التي تنتج

المنسوجات التي أصبحت تحاكي منسوجات العباسيين، إلى غير ذلك من التقاليد التي سار عليها خلفاؤه من بعده، وأدخلوا عليها بعض التعديلات التي أكسبتها طابعها الاسباني.

ويصف المؤرخ الأندلسي أحمد الرازي في مخطوطة ليفي بروفينسال عصر الحكم الأول وعبد الرحمن الأوسط، فيذكر أن عبد الرحمن الأوسط قسم وقته بين رعاية تعمير قرطبة وتجميلها وبين الصيد بالباز في سهول الوادي الكبير، وبين المجتمعات الأدبية والموسيقية، مما يدل دلالة قاطعة على أنه وضع نظام الدولة الأموية في الأندلس قبل عبد الرحمن الثالث الناصر بنحو قرن، وكان يرسل رسله إلى الشرق الإسلامي فيصفون له نظام الحكم عند العباسيين، فلا يتردد في قبوله برغم ذلك العداء التقليدي الذي قام بين بني أمية وبني هاشم منذ أيام الجاهلية. ولم يزده الإسلام إلا تفاقماً وازدياداً[١].

٥ ـ مع البيزنطيين:

لم تنقطع الحرب بين العرب والروم منذ ظهور الإسلام. فقد حاول العرب الاستيلاء على القسطنطينية ثلاث مرات: المرة الأولى في عهد عثمان بن عفان، والثانية في عهد معاوية بن أبي سفيان، والثالثة في عهد سليمان بن عبد الملك.

وقد أضعفت الحروب الأهلية قوة العرب في أواخر الدولة الأموية؛ فاتخذ قسطنطين الرابع إمبراطور الدولة البيزنطية من هذه الاضطرابات فرصة سانحة لشن الغارة على البلاد الإسلامية المتاخمة لبلاده.

ولما انتقل الحكم إلى العباسيين تغيرت وجهة الحرب بين العرب والبيزنطيين، وأصبحت عبارة عن غارات الغرض منها الهدم والتخريب وإتلاف النفس والمال. وهذا يخالف ما كانت عليه الحال في أيام الأمويين الذين كانت لهم سياسة مرسومة لمحاربة البيزنطيين ابتغاء احتلال القسطنطينية، ولا شك أن السبب في ذلك يرجع إلى عاملين هامين:

أولهما: مناوأة أهالي بلاد الشام للعباسيين، لأنهم كانوا لا يزالون على ولائهم للأمويين؛ حتى إن عبد الرحمن الداخل فكر في إعادة هذه البلاد إلى سلطان الأمويين، واعتمد في تحقيق سياسته على ولاء أهالي الشام لبني أمية.

وثانيهما: عدم اهتمام العباسيين بإنشاء أسطول قوي في البحر الأبيض المتوسط يضارع أسطول الأمويين من قبل، واعتمادهم على الجيوش البرية دون القوات البحرية.

---

(١) بروفنسال: الشرق الإسلامي والحضارة العربية ص ١٨ ـ ١٩.

وقد بدأ البيزنطيون يشنون إغارتهم على أراضي الدولة العباسية في عهد أبي جعفر المنصور. فغزا قسطنطين الرابع بعض أراضي الشام سنة ١٣٧هـ، واستولى على ملطية وخرب حصونها. غير أن العرب تمكنوا من استردادها في السنة التالية ورمموا حصونها وأقاموا فيها حامية كبيرة. ويقول ابن الأثير[١] عند كلامه على حوادث سنة ١٣٩هـ: وغزا مع صالح بن علي (العباسي) أختاه أم عيسى ولبابة[٢] بنتا علي، وكانتا نذرتا إن زال ملك بني أمية أن تجاهدا في سبيل الله . . . وكان الفداء بين المنصور وملك الروم، فاستفدى المنصور أسرى قاليقلا وغيرهم من الروم، وبناها وعمرها، ورد إليها أهلها وندب إليها جنداً من أهل الجزيرة، فأقاموا بها وحموها. ولم يكن بعد ذلك صائفة[٣] فيما قيل إلا سنة ست وأربعين (ومائة) لاشتغال المنصور بابني عبد الله بن الحسن بن علي.

وكانت الحرب بين العباسيين والبيزنطيين تشتعل من حين إلى حين حتى سنة ١٥٥هـ، حين طلب الإمبراطور قسطنطين الرابع الصلح مع العباسيين على أن يؤدي لهم جزية سنة. ونقرأ في الطبري[٤] عن الصوائف في سني ١٥٦ و١٥٧ و١٥٨هـ وذلك في أواخر عهد الخليفة المنصور.

وفي سنة ١٥٩هـ خرج الخليفة المهدي على رأس جيش كثيف لغزو بلاد الروم، ووصل إلى البردان وعسكر به، وأرسل العباس بن محمد فبلغ أنقره[٥]. وفي سنة ١٦١هـ تولى قيادة الصائفة ثمامة بن الوليد الذي سار بجيشه حتى نزل دابق، والتقى بجيش الروم الذي بلغ عدده ثمانين ألفاً، فلم يحفل به ثمامة اعتزازاً بقوته وكثرة جنده، وهزم الروم على مقربة من مرعش التي حاصرها، ولكن الدائرة دارت عليه وقتل كثير من جنده.

وقد قوي الروم بهذا الانتصار، فأغاروا على «الحدث» في سنة ١٦٢هـ وهدموا سورها. فولى المهدي أمر الصائفة قائده الحسن بن قحطبة الذي لم يستطع إحراز النصر على الروم وعاد أدراجه. وفي سنة ١٦٣هـ أغار الروم على حدود الدولة العباسية واستولوا على مرعش وأحرقوها، فأرسل المهدي جيشاً بقيادة الحسن بن قحطبة. غير أن الروم عادوا إلى بلادهم، ثم

---

(١) كتاب الكامل في التاريخ جـ ٦ ص ٢٢.
(٢) بفتح اللام وتشديد الباء.
(٣) الصائفة غزوة الروم لأنهم كانوا يغزون صيفاً لمكان البرد والثلج (القاموس المحيط)، وجمعها صوائف، وهي تختلف عن الشواتي وهي الحروب مع الروم في الشتاء.
(٤) جـ ٩ ص ٢٨٦.
(٥) المصدر نفسه جـ ٩ ص ٢٨٨.

أغاروا على حدود العباسيين من جديد، فخرج المهدي على رأس جيش يبلغ مائة وخمسين ألفاً، واستخلف ابنه موسى (الهادي) على بغداد، واتخذ مدينة حلب مركزاً لأعماله الحربية، ووجه ابنه هارون على رأس جيش كثيف يضم نخبة من أشهر رجال الدولة العباسية، منهم يحيى بن خالد البرمكي، وعبد الملك بن صالح، وعيسى بن موسى، والحسن بن قحطبة، وخرج المهدي مشيعاً ابنه هارون حتى وصل إلى جيحان وارتاد بها مدينة تسمى المهدية[١].

زحف هارون إلى بلاد الروم حتى وصل إلى حصن سمالوا، ونصب عليه المنجنيق وخربه واستولى عليه. وقد تعهد الروم بدفع غرامة حربية فداء لأسرهم[٢].

وقد نقض الروم شروط الصلح وعادت إغاراتهم على أملاك الدولة العباسية سيرتها الأولى، فندب المهدي ابنه هارون لحربهم وغزو بلادهم من جديد، وولاه «الصائفة» وضم إليه مولاه الربيع بن يونس.

وفي سنة ١٦٥ هـ أعاد المهدي الكرة على بلاد الدولة البيزنطية، فجمع جيشاً يقرب من مائة ألف جندي وعبر الفرات، ثم أمر عليه ابنه هارون، فوصل هذا الجيش إلى سواحل البسفور، وأرغم الملكة أيريني أرملة ليو الرابع، وكانت وصية على ابنها قسطنطين السادس، على أن تدفع للمسلمين تسعين ألف دينار جزية سنوية تقضى على دفعتين، وأن تقيم لهم الأسواق والأدلاء في الطريق عند عودتهم إلى بلادهم، وأن تسلم أسرى المسلمين. وانتهت هذه الغزوة بعقد هدنة بين الفريقين أمدها ثلاث سنين. وبلغت هذه الحروب من الشدة بحيث ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن عدد قتلى البيزنطيين بلغ ٥٤،٠٠٠ والأسرى ٥،٠٠٠[٣].

وكان من أثر هذه الانتصارات التي أحرزها المهدي أن هابه الملوك. وقد أرسل إليهم رسلا يدعونهم إلى الطاعة، فدخل أكثرهم في طاعته: ومنهم ملك كابل، وملك طبرستان، وملك السند، وملك طخارستان، وملك فرغانة، وملك أشروسنة، وملك سجستان، وملك الترك، وملك التبت، وملك السند، وملك الصين، وملك الهند[٤].

وعلى الجملة فقد امتاز عهد المهدي بكثرة حروبه مع البيزنطيين، ومما يسترعي النظر في هذه الحروب أن النصر كان كثيراً في جانب المسلمين.

---

(١) الطبري جـ ٩ ص ٣٢٦، ٣٤٢.

(٢) ابن الأثير جـ ٦ ص ٢٢.

(٣) Finlay, History of the Byzantine Empire, pp. 104- 7. وقد أتى الطبري (٩: ٣٤٧) بنص شروط الصلح الذي أبرم بين المسلمين والروم.

(٤) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٢٩.

ولما ولي هارون الرشيد الخلافة وجه اهتمامه إلى توطيد دعائم السلام في أراضي الدولة العباسية المتاخمة لحدود الدولة البيزنطية، ثم سار بنفسه في سنة ١٨١ هـ على رأس جيش كبير إلى آسيا الصغرى، فانتصر على البيزنطيين في كثير من المعارك، وظل يتابع فتوحه حتى وصل إلى القسطنطينية.

وكان من أثر الانتصارات التي أحرزها المسلمون على البيزنطيين أن سارعت الامبراطورة أيريني إلى طلب الهدنة مقابل دفعها الجزية. غير أن نقفور الذي اعتلى العرش بعد أيريني أرسل إلى الرشيد في ١٨٧ هـ كتاباً نقض فيه الهدنة، وألح في طلب الجزية التي دفعتها إليه أيريني، وإليك نص هذا الكتاب: «من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب. أما بعد، فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليها. ولكن ذلك ضعف النساء وحمقهن. فإذا قرأت كتابي، فاردد ما حصل قبلك من أموالها، وافتد نفسك بما تقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك».

فلما قرأ الرشيد هذا الكتاب استفزه الغضب، وتفرق جلساؤه من الخوف، واستعجم الرأي على الوزير. ودعا الرشيد من فوره بدواة وورد على امبراطور الروم بهذه الكلمات: «بسم الله الرحمن الرحيم! من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام». ثم خرج لمحاربته، فسار إليه بجيوشه الجرارة مخترقاً آسيا الصغرى، وظل يتابع حروبه حتى استولى على هرقلة قبل أن يتمكن الامبراطور من رده لانشغاله بإخماد الفتنة التي قامت في بلاده. وانتهى بذلك كبرياء هذا الامبراطور وصلفه بعقد صلح أرغم فيه على دفع الجزية من جديد[1]. وقد اتخذ الشعراء من نقض نقفور شروط الصلح وما أبلاه هارون الرشيد في حروبه مع الروم موضوعاً لقصائدهم.

على أن البيزنطيين لم يلبثوا أن نقضوا هذه الهدنة من جديد وأخذوا يتقدمون نحو بلاد الدولة العباسية في السنة التالية، وأوقعوا بالمسلمين جنوبي آسيا الصغرى، وعلى الأخص في مرعش وطرسوس. وساعدهم على إحراز هذا النصر انشغال الرشيد بقمع الثورات الداخلية. ولكنه عاد إلى بلاد الروم على رأس جيش يبلغ مائة وخمسة وثلاثين ألف رجل، وأوقع بهم، واستولى على هرقلة وطوانة وغيرهما من أمهات مدن الروم، وأسر عشرة آلاف، كما أخذ جزية قدرها عشرون ألف قطعة من العملة الذهبية[2].

---

(١) الطبري جـ ١٠ ص ٩٢ - ٩٣.

(٢) Muir, The Caliphate, p. 488.

يقول الطبري[1]: «وكان نقفور اشترط ألا يخرب (الرشيد) ذا الكلام ولا سملة ولا حصن سنان، واشترط الرشيد عليه ألا يعمر هرقلة، وعلى أن يحمل نقفور ثلاثمائة ألف دينار».

ولم تقتصر حروب هارون الرشيد مع الروم على آسيا الصغرى، بل تعدتها إلى البحر الأبيض المتوسط. ففي سنة ١٩٠ هـ غزا العباسيون جزيرة قبرص وأسروا منها ستة عشر ألف نفس، ومن بينهم أسقف هذه الجزيرة.

وفي عهد الخليفة الأمين لم تقع حروب بين هاتين الدولتين، لانشغاله بالفتنة التي قامت بينه وبين أخيه المأمون. وفي عهد المأمون عاد الصراع بين الدولتين سيرته الأولى؛ فقد شجع المأمون توماس الصقلبي الذي ثار في آسيا الصغرى على الامبراطور تيوفيلس، وأمده بالمال والرجال، وعمل على تتويجه امبراطوراً على الدولة البيزنطية نفسها. ولكن سرعان ما انكشفت حيلته ولم يتم له ما أراد.

واتبع الامبراطور البيزنطي هذه السياسة نفسها نحو الخليفة العباسي، فجعل بلاد الروم موئلا للخرمية وأتباع بابك الخرمي الفارسي الذي ثار في سنة ٢٠١ هـ على المأمون، واعتصم بالأقاليم الجبلية الشمالية الشرقية في منطقة حرّان، واستقل عن الدولة العباسية اثنتين وعشرين سنة (٢٠١ ـ ٢٢٣ هـ)، نشر خلالها مذهبه في الإباحية إلا أن امبراطور الروم سئم في النهاية، وعرض الصلح على المأمون وكتب إليه: «أما بعد فإن اجتماع المختلفين على حظهما أولى بهما في الرأي مما عاد بالضرر عليهما. ولست حرياً أن تضع لحظ يصل إلى غيرك حظاً تجوزه إلى نفسك. وفي علمك كاف عن أخبارك، وقد كنت كتبت إليك داعياً إلى المسالمة راغباً في فضيلة المهادنة لتضع أوزار الحرب عنا، ولنكون كل واحد لكل واحد ولياً وحزباً، مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر وفك المستأسر وأمن الطرق والبيضة، فإن أبيت فلا أدب لك (في) الخمر ولا أزخرف لك في القول، فإني لخائض إليك غمارها، آخذ عليك أسدادها، شأن خيلها ورجالها، وإن أفعل فبعد أن قدمت المعذرة وأقمت بيني وبينك علم الحجة والسلام».

ولكن كتاب امبراطور الروم أثار غضب المأمون، لأنه كان يجمع بين اللين والشدة، ولأن المأمون كان يرغب في فتح القسطنطينية. لذلك رفض الصلح مع الروم، ورد على تيوفيلس بهذا الكتاب:

«أما بعد، فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوت إليه من الموادعة، وخلطت فيه بين اللين والشدة، مما استعطفت به من شرح المتاجر واتصال المرافق، وفك الأسارى ورفع

---

(١) جـ ١٠ ص ٩٩.

القتل والقتال. فلولا ما رجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالحظ في تقليب الفكرة، وألا أعتقد الرأي في مستقبله إلا في استصلاح ما أؤثره في معتقبه، لجعلت جواب كتابك خيلاً تحمل رجالاً من أهل البأس والنجدة والبصيرة، ينازعونكم عن ثكلكم ويتقربون إلى الله بدمائكم، ويستقلون في ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم. ثم أوصل إليهم من الأمداد، وأبلغ لهم كافياً من العدة والعتاد هم أظمأ إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من مخوف معرتهم عليكم، موعدهم إحدى الحسنيين: عاجل غلبة أو كريم منقلب. غير أني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك، إلى الوحدانية والشريعة الحنيفية. فإن أبيت ففدية توجب ذمة ويثبت نظرة، وإن تركت ذلك ففي يقين المعاينة لنعوتنا ما يغني عن الإبلاغ في القول والإغراق في الصفة، والسلام على من اتبع الهدى»[١].

وفي سنة ٢١٨ هـ خرج المأمون لقتال الروم، ولكن المنية وافته ودفن في طرسوس. وفي زمن المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ) أصبحت العلاقات بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية أسوأ مما كانت عليه. ولكن المعتصم كان بعيد النظر، فوجه كل همه للقضاء على فتنة بابك الخرمي أولاً. فانتهز الامبراطور البيزنطي تلك الفرصة وأغار على مدينة زبطرة وأحرقها وأسر من فيها من المسلمين. وكان الامبراطور يرمي من وراء ذلك إلى إنقاذ بابك؛ فخرج تيوفليس في مائة ألف.. وسبى المسلمات ومثل بمن صار في يده من المسلمين، وسمل أعينهم وقطع أنوفهم وآذانهم، فخرج إليهم أهل الثغور من الشام والجزيرة.

وقد ذكر ابن الأثير[٢] أن ملك الروم لما خرج وفعل في بلاد الإسلام ما فعل، بلغ الخبر المعتصم. فلما بلغه ذلك استعظمه، وكبر لديه. وبلغه أن امرأة هاشمية صاحت وهي أسيرة في أيدي الروم: وامعتصماه! فأجابها وهو جالس على سريره: لبيك! ونهض من ساعته، وصاح في قصره. النفير! النفير! ثم ركب دابته.

وكان المعتصم إذ ذاك قد قضى على بابك؛ فسار من فوره إلى أنقرة في جيش ضخم، وهزم الامبراطور البيزنطي واستولى على أنقرة. ثم عزم على تخريب عمورية التي نشأ فيها الامبراطور تيوفيلس. فعسكر غربي دجلة حيث التف حوله جنده، وعلى رأسهم نخبة من مشاهير قواده كالأفشين وأشناس وبغا الكبير، ومن العرب أمثال عجيف بن عنبسة ومحمد بن إبراهيم.

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن جند المعتصم بلغ خمسمائة ألف، وذكر بعض

---

(١) الطبري جـ ١٠ ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

(٢) كتاب الكامل في التاريخ جـ ٦ ص ١٧٦.


التبت
الأفغان
الدولة الغزنوية
الدولة الغورية
راجوتانا
خليج بنغاله
العرب
أربسه
سيلان
الدول الإسلامية في الهند
١٠٠١ - ١٧٥٧ م

آخر ممن لا يميلون إلى المبالغة أنه بلغ مائتي ألف. وخرج المعتصم على رأس هذا الجيش، وتابع المسير في أراضي آسيا الصغرى حتى وصل إلى عمورية، فحاصرها وأسرف في قتل الأهلين، حتى قيل إنه قتل ثلاثين ألفاً من سكانها، وتركها للنهب والتدمير والإحراق أربعة أيام كاملة، وافتدى أشرافها ونبلاؤها أنفسهم بأموال كثيرة.

ولما عاد المعتصم إلى سامرا بعد ذلك النصر المؤزر الذي أحرزه على البيزنطيين في عمورية الشهيرة (سنة ٢٢٣ هـ) التي انتصر فيها المعتصم على الروم انتصاراً حاسماً احتفل باستقباله احتفالاً باهراً يتمثل في قصيدة أبي تمام المعروفة التي سخر فيها بالمنجمين ومجد إقدام الخليفة المعتصم فقال في مطلع قصيدته:

السيفُ أصدق إنباءً من الكتب ... في حَدّه الحَدُّ بين الجدِّ واللَّعِب

يا يَومَ وقعةَ عمورية انصرفتْ ... عنكِ المُنَى حُفَّلاً معسولةَ الحَلَبِ

٦ ـ مع الهند:

ترجع حملات المسلمين على بلاد الهند إلى عهد بعيد؛ فقد أرسلوا أولى حملاتهم بعد أن انتقل الرسول إلى جوار ربه بخمس عشرة سنة. ومن ثم أخذ سيل العرب يتدفق على هذه البلاد إلى القرن الثامن عشر الميلادي، واستقر بعضهم فيها، وكونوا ممالك كان لها أثر يذكر في تقدم الحضارة الإسلامية.

وفي عهد معاوية بن أبي سفيان غزا المهلب بن أبي صفرة بلاد السند سنة ٤٤ هـ، وامتدت فتوحه إلى الأراضي الواقعة بين كابل والملتان. ثم امتدت فتوح المسلمين في هذه البلاد، فشملت البوقان والقيقان والديبل. ثم واصل محمد بن القاسم فتوحه في هذه البلاد حتى بلغ نهر السند، وكان يعرف إذ ذاك بنهر مهران وهناك التقى بداهر ملك السند، وكان هو وجنده يقاتلون على ظهور الفيلة، فاقتتلوا قتالاً شديداً انتهى بقتل داهر وهزيمة أصحابه[١].

لما قامت الدولة العباسية ولى أبو جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨ هـ) هشام بن عمرو التغلبي بلاد السند. وفي عهده فتحت بلاد كشمير، وكانت قد انتقضت، وهدم البد وهو مكان عبادتهم، ويشبه كنائس النصارى وبيع اليهود، وبنى في موضعه مسجداً؛ وقد تقدمت هذه البلاد في عهد ولايته واستقر بها الأمن وتوطدت أركانه[٢]. يقول البلاذري[٣]:

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص ٤٤٣ ـ ٤٤٥.

(٢) البلاذري: ص ٤٤٩ ـ ٤٥٠.

(٣) المصدر نفسه ص ٤٤٥.

«وكان بد الملتان بدأ تهدى إليه الأموال وتنذر له النذور، ويحج إليه أهل السند، فيطوفون به ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده، ويزعمون أن صنما فيه هو أيوب النبي ﷺ». والمولتان أو الملتان مركز مشهور للحجاج من الهنود في بلاد البنجاب. قال ياقوت(١): «وبها صنم يعظمه الهند وتحج إليه من أقصى بلدانها، ويتقرب إلى الصنم في كل عام بمال عظيم ينفق على بيت الصنم والمعتكفين عليه منهم، سمي المولتان بهذا الصنم. وقد ألبس جميع بدنه جلداً يشبه السختيان الأحمر لا يبين من جثته شيء إلا عيناه. وعيناه جوهرتان، وعلى رأسه إكليل ذهب، هو متربع على ذلك السرير، وقد مد ذراعيه على ركبتيه. ويسمي العرب المولتان فرج بيت الذهب، لأنها فتحت في أول الإسلام، وكان بها ضيق وقحط، فوجدوا فيها ذهباً كبيراً فاتسعوا به».

وفي عهد الخليفة المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ) غزا المسلمون بلاد الهند في سنة ١٥٩ هـ، وحاصروا مدينة باربد بالمنجنيق وفتحوها عنوة، وأشعلوا النار في تمثال بوذا. على أن هذه الغزوة كانت كارثة على جند العباسيين؛ فقد فشا الموت فيهم حتى مات منهم أكثر من ألف، ودمرت الزوابع سفنهم في الخليج الفارسي، وغرق كثير من الجند. وما زالت فتوح المسلمين تتسع في السند والهند في عهد الخليفة المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨ هـ). وفي عهد أخيه المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ) انتشر الإسلام في البلاد الواقعة بين كابل وكشمير والملتان.

ويقول البلاذري(٢): إن بلداً يدعى العيسفان بين قشمير والملتان وكابل كان له ملك عاقل، وكان أهل ذلك البلد يعبدون صنماً قد بني عليه بيت وأبدوه. فمرض ابن الملك فدعى سدنة ذلك البيت فقال لهم: ادعوا الصنم أن يبرىء ابني. فغابوا عنه ساعة، ثم أتوه فقالوا: قد دعوناه، وقد أجابنا إلى ما سألناه. فلم يلبث الغلام أن مات، فوثب الملك على البيت فهدمه وعلى الصنم فكسره، وعلى السدنة فقتلهم. ثم دعا قوماً من تجار المسلمين فعرضوا عليه التوحيد، فوحد وأسلم. وكان ذلك في خلافة أمير المؤمنين المعتصم بالله رحمه الله».

---

(١) أنظر لفظ المولتان في معجم البلدان لياقوت.

(٢) فتوح البلدان ص ٤٥١. ابن الأثير جـ٦ ص ١٧، انظر مقال المؤلف في مجلة كلية الآداب، المجلد السابع، يوليه سنة ١٩٤٤؛ انتشار الإسلام في الهند في صحيفة الجامعة المصرية (مايو ١٩٣٣) بقلم حسن إبراهيم حسن ص ٣، ٥ ـ ٧.

الباب الخامس

نظم الحكم

١ ـ النظام السياسي

(أ) الخلافة :

وضع أبو جعفر المنصور أساس النظام السياسي الذي سارت عليه الدولة العباسية في العصر العباسي الأول، وهو النظام الذي كان منتشراً في الشرق، وكان مألوفاً عند الفرس منذ أيام إكزرسيس Xerxes. وبذلك تمكن العباسيون من أن يحكموا البلاد على النحو الذي كان يحكم به آل ساسان من قبل.

وبقيام الدولة العباسية تطور نظام الخلافة: فإن تلك الدولة قد قامت على كواهل الفرس الذين سخطوا على الأمويين لعدم مساواتهم بالعرب في الحقوق السياسية والاجتماعية مع منافاة ذلك لحق المساواة الذي أقره القرآن والسنة بين البشر. وحذا العباسيون حذو الأمويين في تولية العهد أبناءهم. وكان الفرس يقولون بنظرية الحق الملكي المقدس، بمعنى أن كل رجل لا ينتسب إلى البيت المالك ويتولى الملك يعتبر مغتصباً لحق غيره. لذلك أصبح الخليفة العباسي في نظرهم يحكم بتفويض من الله لا من الشعب، كما يتجلى ذلك في قول أبي جعفر المنصور.

«إنما أنا سلطان الله في أرضه»، وذلك يخالف ما كانت عليه الخلافة في عهد الخلفاء الراشدين الذين استمدوا سلطانهم من الشعب. يدل على ذلك قول أبي بكر بعد توليته الخلافة: «فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني»، وقول عمر بن عبد العزيز: «لست بخير من أحدكم ولكنني أثقلكم حملاً».

وقد أقام العباسيون حقهم في الملك على أساس أنهم وارثو بيت الرسول، وعملوا على الاحتفاظ بالخلافة في دولة تيوقراطية أساس السيادة فيها لزعماء الدين ليظهروا بذلك الفرق بين السلطتين في عهدهم وفي عهد الأمويين من قبلهم[١]. وقد حرصوا على الاحتفاظ بهذا المظهر،

(١) Sanhoury, Le Califat, pp. 303 - 304.

لأن حقهم يقوم عليه. وعلى هذا لم يقبلوا أن يكونوا ملوكاً فحسب، بل أرادوا أولا أن ينظر إليهم على أنهم أمراء دينيون، وأن يدرك الناس أن حكومتهم حكومة دينية، فقد حل محل الأمويين، الذين حكم عليهم الأتقياء بأنهم أهل دنيا، والذين اهتموا في بلاطهم بدمشق وفي قصورهم في الصحراء بالتقاليد والنظم العربية القديمة، سلطة ربانية ذات مظاهر دينية(١).

وقد ظل نظام الحكم في الدولة العباسية استبدادياً إلى عهد الرشيد، على الرغم من أن أصحاب الدواوين أو البارزين من أصحاب البيت العباسي كانوا بمثابة مستشارين غير رسميين. أما الخليفة فكان مصدر كل قوة كما كان مرجعاً لكل الأوامر المتعلقة بإدارة الدولة(٢).

وكان من أثر ميل الخلفاء العباسيين إلى الفرس أن أصبح نظام الحكم في عهدهم مماثلاً لما كان عليه في بلاد الفرس أيام آل ساسان. يقول بالمر(٣): «لما كان العباسيون يدينون بقيام دولتهم للنفوذ الفارسي، كان طبيعياً أن تسيطر الآراء الفارسية. ولهذا نجد وزيراً من أصل فارسي على رأس الحكومة، كما نجد الخلافة تدار بنفس النظام الذي كانت تدار به امبراطورية آل ساسان. واحتجب الخليفة عن رعيته واتخذ الوزير والسياف، فأحيط شخصه بالقداسة والرهبة. وظهرت الأزياء الفارسية في البلاط العباسي واحتفل بالنيروز والمهرجان والروم(٤) وغيرها من الأعياد الفارسية القديمة. لهذا لا نعجب إذا أصبح الخليفة العباسي يعيش عيشة الأكاسرة، تحوطه الأبهة والعظمة، وينحني أمامه الداخل عليه، ويقبل الأرض بين يديه، وإذا قرب منه قبل رداءه، وهو شرف لا يناله إلا رجال الدولة البارزون».

وقد ظلت الحكومة الإسلامية ملكية وراثية استبدادية. فولاية العهد استمرت من الناحية العملية للاحتفاظ بالخلافة في البيت العباسي، وبمظاهر الأبهة التي أحاطت بالخلفاء العباسيين، والتي كانت تختلف عن البساطة العربية التي امتاز بها البيت الأموي، قد بعثنا من جديد بصورة واضحة، ذلك الطابع الاستبدادي للحكومة الذي تجلى في عهد خلفاء السفاح وثمة اختلاف آخر بين البيتين الأموي والعباسي: فإن العنصر العربي في عهد الأمويين كانت له السيادة، على حين ساد في عهد الخلفاء العباسيين (الأوائل) نفوذ العنصر العباسي. ويرجع قيام

(١) جولد تسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق وعلي حسن عبد القادر ص ٤٨ بتصرف.

(٢) Ameer Ali, A Short Hist. of the Saracens, pp. 405 -406

(٣) Palmer, Haroun al-Rachid, pp. 37-38

(٤) هو عيد لهم في اليوم الحادي والعشرين من كل شهر من شهور الفرس، ومعناه الراحة والفرح.

الدولة العباسية إلى مساندة الفرس، لذلك أصبح نفوذ هذا العنصر ظاهر الأثر منذ بداية حكم العباسيين، وإن سقوط البرامكة، تلك الأسـرة الفارسية القوية التي تمتعت منذ عهد المنصور بنفوذ كبير بلغ ذروته في عهد الرشيد، كان مفاجئاً وعلى غير انتظار. وكان المأمون الخليفة السابع من أم فارسية، كما تزوج هو بسيدة فارسية أيضاً. وبذلك يمكن القول إن ظهور العباسيين كان أشبه بثورة تمخضت عن بعث جديد لحكم الأكاسرة، وان بغداد قد أصبحت أشبه بحاضرة لهذه النهضة الفارسية.

وكذلك نجد الخلفاء العباسيين لا يؤمون الناس في الصلاة ولا يقيمون خطبة الجمعة كما كان يفعل الخلفاء الراشدون وبعض الخلفاء الأمويين. وإن ذلك المظهر الخارجي الذي أحاط بالخلفاء العباسيين ليختلف عن تلك البساطة الأولى التي امتاز بها الإسلام، ويعيد إلى الذاكرة مظاهر الأبهة التي تجلت في البلاط الساساني[١].

أضف إلى ذلك ارتداء الخليفة بردة النبي ﷺ عند توليته الخلافة أو حضوره الحفلات الدينية باعتباره نائباً عنه في حكم المسلمين. كذلك نجد الخليفة العباسي يتلقب بلقب «إمام»، توكيداً للمعنى الديني في خلافة العباسيين، أي أنهم أصبحوا أئمة الناس، بعد أن كان هذا اللقب يطلق في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين على من يؤم الناس في الصلاة، على حين كان الشيعيون يطلقونه على أفراد البيت العلوي الذين كانوا يعتقدون أنهم أحق بالخلافة من سواهم. وبعد أن صارت الخلافة العباسية تستند إلى نظرية التفويض الإلهي، قرب الخلفاء إليهم العلماء ورجال الدين لينشروا بين الناس هذه النظرية التي أصبح لها شأن في الحياة السياسية في الدولة العباسية[٢].

وقد سار العباسيون على نظام تولية العهد أكثر من واحد وغلوا في ذلك. وقد عهد السفاح (١٣٢ ـ ١٣٦ هـ) بالخلافة إلى أخيه أبي جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨ هـ) ثم الى ابن أخيه عيسى بن موسى بن علي بن عبد الله بن عباس. فلما آلت الخلافة إلى المنصور، خلع عيسى بن موسى، وبايع ابنه المهدي، وجعل عيسى من بعده. ولما ولي المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ) الخلافة خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد، وولى ولديه الهادي ثم هارون الرشيد، كذلك عول الهادي (١٦٩ ـ ١٧٠ هـ) على خلع أخيه هارون والبيعة لابنه جعفر، مقتدياً في ذلك بما فعله أبوه مع عيسى بن موسى، ولم يحترم العهد الذي أخذه على نفسه حين

---

(١) Sanhoury, Le Califat. pp. 301-302, 304

(٢) انظر كتاب النظم الإسلامية للمؤلف، الطبعة الثالثة ص ٥٠ ـ ٥١.

ولاه أبوه عهده، وضيق على أخيه هارون، وحط رجال بلاطه من شأنه حتى مال إلى النزول عن حقه لولا وفاة الهادي.

جاء هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ)، فولى عهده أولاده الثلاثة: الأمين والمأمون والمؤتمن، وقسم البلاد بينهم، وأعطى كلا منهم الفرصة للدفاع عن حقه[١]، مما أدى إلى قيام الفتن والحروب الداخلية. على أن الواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ) خرج على هذا النظام، فلم يعهد لابنه محمد. وقد سئل وهو في مرضه الأخير أن يوصي بالخلافة لولده، فقال كلمته المأثورة: «لا يراني الله أتقلدهما حياً وميتاً»، مقتفياً في ذلك أثر عمر بن الخطاب ومعاوية الثاني.

ولا يخفى ما جرته هذه السياسة من إثارة البغضاء والعداوة بين أفراد البيت المالك. فإنه لم يكد الأمر يتم لأحد المتنافسين، حتى يعمل على التنكيل بمن ساعد خصمه على إقصائه من ولاية العهد. وهكذا تطورت المنافسة بين أفراد البيت المالك تطوراً غريباً، وأصبحت خطراً على كيان الدولة العباسية.

(ب) الوزارة:

لما انتقلت الخلافة الى العباسيين، اتخذوا نظم الحكم عن الفرس ـ كما تقدم ـ ومنها الوزارة، وإن كانت سلطاتها لم تتحدد بصورة واضحة في عهد أبي سلمة الخلال أول وزراء العباسيين، ثم نمت وتدرجت حتى اتخذت شكلها النهائي في أواخر العصر العباسي الأول. وكان الوزير ساعد الخليفة الأيمن، ينوب عنه في حكم البلاد، وينصب العمال ويشرف على الضرائب، ويجمع في شخصه السلطتين المدنية والحربية بجانب الواجبات العادية من نصح الخليفة ومساعدته[٢].

وكان الوزراء في العصر العباسي الأول يخافون على أنفسهم من بطش الخلفاء بهم. فكان كل منهم يتجنب أن يسمى وزيراً بعد أن مات أبو الجهم على يد المنصور. وكان خالد بن برمك يعمل عمل الوزراء، ويأبى أن يسمى وزيراً، على الرغم من منزلته عند الخلفاء.

وهكذا كان حال الوزارة في أيام المنصور، بل في الصدر الأول من هذا العصر. استوزر الخليفة المنصور بعد خالد البرمكي أبا أيوب المورياني، وكان من أهل موريان[٣]. اشتراه المنصور صبياً قبل أن يلي الخلافة، فثقفه وعلمه. واتفق أن أرسله مرة إلى أخيه الخليفة السفاح

---

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٧٣.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٧.

(٣) قرية من نواحي خوزستان، أنظر معجم البلدان لياقوت.

ومعه هدية له، فلما رآه أعجب بهيئته وفصاحته؛ فأبقاه وأعتقه، وجعله من أخص رجاله المقربين إليه، وأدر عليه عطاءه وصلاته، وظل على ذلك حتى ولي المنصور الخلافة فقلده الوزارة، وكان نصيبه نصيب من سبقه من الوزراء إلا خالد بن برمك(١).

وبعد قتل هذا الوزير المنكود الطالع، استوزر أبو جعفر المنصور الربيع بن يونس الذي شارك سلفه في سوء طالعه أيام الهادي: «وكان نبيلاً حازماً، عاقلاً فطناً، خبيراً بالأمور الحسابية، ملماً بشؤون الدولة، محباً لفعل الخير، عارفاً بآداب الملوك». رأى المنصور يوماً في بستانه شجيرة من شجر يسمى الخلاف، فلم يدر ما هي؛ فقال: يا ربيع! ما هذه الشجيرة؟ فقال الربيع: إجماع ووفاق، وكره أن يقول خلاف».

لم يزل الربيع حائزاً ثقة المنصور إلى أن مات؛ فقام بأخذ البيعة لابنه المهدي، وظل على ذلك إلى أن قتله الهادي في خلافته.

وكانت أعمال الوزارة في عهد المهدي أوضح، ويد أصحابها أكثر عملاً مما كانت عليه أيام المنصور، لأن المهدي كان يعتمد على وزرائه بسبب كفايتهم وانشغاله هو باللهو، وكان أول هؤلاء الوزراء أبو عبيد الله معاوية بن يسار الذي تقلد الكتابة للمهدي قبل أن يلي الخلافة. وقد عرف له المنصور فضله، وعزم على أن يستوزره لنفسه، ولكنه آثر ابنه المهدي، ونصح له أن يعمل برأيه ويتبع مشورته. ولما ولي المهدي الخلافة، فوض إليه الأمور وسلمه الدواوين.

ولكن معاوية كان متكبراً، وكان الربيع بن يونس الحاجب يضمر له الكراهة والبغضاء لتكبره عليه وعدم اكتراثه به، وأخذ يدس له عند الخليفة(٢)، فأوغر صدره على ابنه الذي رمي بالزندقة، وقتل بسبب ذلك. ثم أمر المهدي بوزيره فحجب عنه، وزالت سلطته، واعتزل بداره حتى مات سنة ١٧٩ هـ(٣).

استوزر المهدي بعد أبي عبد الله معاوية بن يسار، أبا عبد الله يعقوب بن داود؛ ولكن هذا الخليفة نكبه وأودعه السجن، حيث قضى بقية عهد المهدي والهادي وردحاً من أيام هارون الرشيد. ويعزو المؤرخون سبب نكبته إلى تشيعه وميله إلى أولاد عبد الله بن الحسن العلوي على ما تقدم.

واستوزر المهدي بعده الفيض بن صالح، وكان من أهل نيسابور، وكان نصرانياً فأسلم في أوائل الدولة العباسية، وأخذ من الأدب وعلو الهمة والبراعة بأوفى نصيب. كما اشتهر

---

(١) انظر كتاب النظم الإسلامية للمؤلف ص ١١٧.
(٢) الفخري ص ١٣٤ - ١٣٥.
(٣) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٨٤.

بالسخاء والجود، حتى كان يحيى بن خالد بن برمك يقول إذا استعظم أحد كرمه وجوده: «لو رأيتم الفيض لصغر عندكم أمري». ومما يؤخذ عليه ما كان يظهره من الكبر والتيه، حتى نحا بعض الشعراء عليه باللائمة وحطوا من شأنه لزهوه وإعجابه. وظل الفيض متربعاً في دست الوزارة حتى مات المهدي وولي الهادي الخلافة، فلم يستوزره، ومات سنة ١٧٣ هـ.

استوزر الهادي في مبدأ خلافته الربيع بن يونس، واستوزر بعده ابراهيم بن ذكوان الحراني. وكان اتصاله به لأول مرة عن طريق معلمه الخاص، إذ كان يصحبه عند ذهابه إليه. فخف على قلب الأمير الصغير، وألفه حتى إنه لم يكن يصبر على فراقه. وقد اشتدت بابن ذكوان السعاية إلى المهدي، فنهى ابنه عن صحبته وهدده بالخلع، وهدد الحراني بالقتل. ولما أعيته الحيل في إبعاده عنه، أمر المهدي بإحضاره إليه. فحضر وهو على أهبة الركوب إلى الصيد، فلما رآه حلف بالله ثلاثاً ليقتلنه عند عودته وأمر بحبسه. فأقبل ابن ذكوان على الدعاء والتضرع ومات المهدي في أثناء غيابه، وولي الخلافة من بعده ابنه الهادي فاستوزره، فلم يعمر في الوزارة طويلاً لوفاة الهادي بعد قليل[1].

وقد ذكر الماوردي[2] الفرق بين وزارة التفويض ووزارة التنفيذ فقال: «ويكون الفرق بين هاتين الوزارتين بحسب الفرق بينهما في النظرين، وذلك من أربعة أوجه:

أحدها: أنه يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر في المظالم، وليس ذلك لوزير التنفيذ.

والثاني: أنه يجوز لوزير التفويض أن يستبد بتفويض الولاة، وليس ذلك لوزير التنفيذ.

والثالث: أنه يجوز لوزير التفويض أن ينفرد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب وليس ذلك لوزير التنفيذ.

والرابع: أنه يجوز لوزير التفويض أن يتصرف في أموال بيت المال بقبض ما يستحق له ويدفع ما يجب فيه، وليس ذلك لوزير التنفيذ.

وليس فيما عدا هذه الأربعة ما يمنع أهل الذمة منها... ولهذه الفروق الأربعة بين النظرين افترق في أربعة من شروط الوزارتين:

أحدها: أن الحرية معتبرة في وزارة التفويض وغير معتبرة في وزارة التنفيذ.

والثاني: أن الإسلام معتبر في وزارة التفويض وغير معتبر في وزارة التنفيذ.

---

(١) الفخري ص ١٤٢ ـ ١٤٣.
(٢) الأحكام السلطانية ص ٢٦.

والثالث: أن العالم بالأحكام الشرعية معتبر في وزارة التفويض وغير معتبر في وزارة التنفيذ.

والرابع: أن المعرفة بأمري الحرب والخراج معتبرة في وزارة التفويض وغير معتبرة في وزارة التنفيذ. فافترقا في شروط التقليد من أربعة أوجه، كما افترقا في حقوق النظر من أربعة أوجه، واستويا فيما عداها من حقوق وشروط.

ومن أشهر وزراء التفويض في العصر العباسي الأول «آل برمك»، فقد اتخذ الرشيد يحيى بن خالد البرمكي وزيراً له وقال له: «قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك. فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت، واعزل من رأيت. وامض الأمور على ما ترى». ودفع إليه خاتمه الخاص ثم سلمه خاتم الخلافة حتى صار بيده الحل والعقد في كل شؤون الدولة، وخلفه ابنه جعفر بن يحيى بن خالد، فقبض البرامكة على زمام أموال الدولة في أيديهم. فعظمت آثارهم وبعد صيتهم، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم، واحتازوها لأنفسهم عمن سواهم من وزارة وقيادة وكتابة».

استوزر المأمون الفضل بن سهل الذي سمي ذا الرياستين والوزير والأمير؛ ثم استوزر أخاه الحسن بن سهل، وتزوج ابنته بوران. «وكانت دولة بني فضل ـ على ما قاله صاحب الفخري[١] ـ في جهة الدهر غرة وفي مفرق العصر درة، وكانت مختصر الدولة البرمكية، وهم صنائع البرامكة. ثم استوزر أحمد بن أبي دؤاد، وكان من خيرة الكتاب وأجودهم خطاً. ثم جاء بعده وزراء اشتهر بعضهم بالتفقه في الدين والحديث ومنهم من برع في الخط. غير أن الوزراء الذين استوزرهم المأمون بعد بني سهل لم يكونوا وزراء تفويض، وإنما كانوا وزراء تنفيذ، بمعنى أنه لم يكن لهم استقلال بالأمور، إذ كان المأمون يدير أمر دولته بنفسه لئلا يستفحل نفوذ الوزراء، كما حدث في عهد أبيه الرشيد مع البرامكة، وفي عهد أخيه الأمين مع الفضل بن الربيع، وفي عهده مع بني سهل.

ومن أشهر وزراء التنفيذ في عهد المأمون ومن جاء بعده من خلفاء العصر العباسي الأول، أحمد بن أبي خالد. وكان من الموالي، على جانب كبير من رجاحة العقل، كما كان كاتباً فصيحاً بصيراً بالأمور. وقد استشاره المأمون في تولية طاهر بن الحسين على خراسان. فصوب هذا الرأي وضمن هذا التعيين. على أن طاهراً ما لبث أن قطع الخطبة للمأمون لأمور أنكرها عليه الخليفة، فهدد المأمون وزيره لأنه أشار عليه بتولية طاهر، وصمم على قطع رقبته إذا هو لم

---

(١) الفخري ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

يعمل على التخلص من هذا الخارج، فأرسل الوزير إلى طاهر هدية فيها كوامخ مسمومة، فأكل منها ومات لساعته. أما أحمد بن أبي خالد، فكانت وفاته سنة ٢١٠ هـ في أيام المأمون.

ومنهم أحمد بن يوسف، وكان من الموالي كذلك، كما كان كاتباً أديباً، شاعراً، عالماً بأمور الدولة وآداب الملوك. استشاره المأمون في رجل كان يكرهه أحمد، فوصفه وذكر محاسنه، فقال له المأمون: يا أحمد! لقد مدحته على سوء رأيك فيه ومعاداته لك، فقال لأني لك كما قال الشاعر:

كفى ثمناً بما أديت أني   صدقتك في الصديق وفي عدائي
وأني حين تندبني لأمر   يكون هواك أغلب من هوائي

وقد اتخذ الواثق محمد بن عبد الملك الزيات وزير أبيه، وكان منحرفاً عنه قبل توليته الخلافة، لكنه لما استخلف لم يجد بين رجاله من يقوم مقام هذا الوزير، فاعتمد عليه في إدارة شؤون دولته. وقد ذكر صاحب كتاب الفخري[1]، السبب الذي من أجله انحرف الواثق قبل خلافته على ابن الزيات، وكيف اضطر هذا الخليفة إلى اتخاذه كاتباً له ووزيراً فقال: «كان المعتصم قد أمر لابنه الواثق بمال وأحال به على ابن الزيات، فمنعه وأشار على المعتصم ألا يعطيه شيئاً. فقبل المعتصم قوله، ورجع فيما كان أمر به للواثق من ذلك، فكتب بخطه كتاباً بالحج والعتق والصدقة أنه إن ولي الخلافة ليقتلن ابن الزيات شر قتلة. فلما مات المعتصم وجلس الواثق على سرير الخلافة، ذكر حديث ابن الزيات فأراد أن يعاجله، فخاف ألا يجد مثله، فقال للحاجب: أدخل إلي عشرة من الكتاب. فلما دخلوا عليه اختبرهم، فما كان فيهم من أرضاه، فقال للحاجب: أدخل من الملك محتاج إليه محمد بن الزيات، فأدخله، فوقف بين يديه خائفاً، فقال للخادم: أحضر إلي المكتوب الفلاني، فأحضر له الكتاب الذي كان كتبه، وحلف فيه ليقتلن ابن الزيات، فدفعه إلى ابن الزيات وقال: اقرأه! فلما قرأه قال: يا أمير المؤمنين! أنا عبد إن عاقبته فأنت حاكم فيه، وإن كفرت عن يمينك واستبقيته كان أشبه بك، فقال الواثق: والله ما أبقيتك إلا خوفاً من خلو الدولة من مثلك. وسأكفر عن يميني، فإني أجد من المال عوضاً ولا أجد عن مثلك عوضاً، ثم كفر عن يمينه واستوزره»، وما لبث ابن الزيات حتى أصبح صاحب الأمر والنهي أكثر مما كان في عهد المعتصم.

ولم يكن إطلاق لفظ الوزارة في الدولة الأموية بالأندلس شائعاً كما كان في الدولة العباسية في المشرق والدولة الفاطمية في مصر. فكان يطلق على من يضطلع بأعباء الوزارة في الأندلس

---

(١) الفخري ص ١٧٥ - ١٧٦.

اسم الحاجب تارة واسم الوزير أو ذي الوزارتين تارة أخرى. ولهذا نرى أن الحاجب في الدولة الأموية بالأندلس لم يقصد به ذلك الموظف الذي يحجب السلطان عن الخاصة والعامة كما كانت الحال عند الخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطميين، وإنما قصد به هنا من يتولى الوزارة بمعناها المعروف[١].

وقد ألقى ابن خلدون[٢] ضوءاً على نظام الوزارة في الدولة الأموية بالأندلس، فبين أن الحاجب كان يقوم بعمل الوزير في الدولتين العباسية والفاطمية ويشرف على أعمال أصحاب الدواوين الذين يطلق على كل منهم اسم الوزير. فكان الحاجب يقوم بعمل رئيس الوزراء اليوم، ويتولى رئاسة مجلس الوزراء الذي يشرف على شؤون الدولة.

ولم يكن مجلس الحاجب، أو بالأحرى مجلس الوزراء، هو وحده الذي يدير شؤون الدولة، بل كان إلى جانبه مجلس آخر يسمى «مجلس الشورى» يرأسه الأمير أو الخليفة، ويضم كبار رجال الدولة وبعض الأمراء من أفراد البيت الأموي.

(جـ) الكتابة:

لما كثرت أعمال الوزراء في العصر العباسي الأول، أصبح من الضروري تعيين موظفين يعاونون الوزير للاشراف على الدواوين المختلفة وإدارة شؤونها. ومن أشهر الكتاب في هذا العصر كاتب الرسائل، وكاتب الخراج، وكاتب الجند، وكاتب الشرطة، وكاتب القاضي.

ومهنة كاتب الرسائل إذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة بعد اعتمادها من الخليفة، ومراجعة الرسائل الرسمية ووضعها في الصيغة النهائية وختمها بخاتمه؛ كما كان يجلس مع الخليفة في مجلس القضاء للنظر في المظالم وختم الأحكام بخاتم الخليفة[٣]. وكان كاتب الرسائل يتولى مكاتبة الملوك والأمراء عن الخليفة. وكثيراً ما كان الخليفة يتولى ذلك بنفسه؛ فقد أثر عن أبي جعفر المنصور أنه لما جاءه كتاب محمد النفس الزكية هم كاتبه أن يجيبه، فقال له المنصور: «لا! بل أنا أجيبه إذ تقارعنا على الأحساب فدعني وإياه».

وقد زخر العصر العباسي الأول بطائفة من الكتاب لم يسمح الدهر بمثلهم؛ فقد اشتهر يحيى بن خالد البرمكي والفضل بن الربيع في عهد هارون الرشيد، واشتهر الفضل والحسن

---

(١) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٢.
(٢) مقدمة ص ٢٠٨.
(٣) مقدمة ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

ابنا سهل وأحمد بن يوسف في عهد المأمون، واشتهر محمد بن عبد الملك الزيات والحسن بن وهب وأحمد بن المدبر في عهد المعتصم والواثق.

وقد حرص الخلفاء على أن تدون الرسائل بأسلوب شائق بليغ، كما حرصوا على اختيار كتابهم من رجال الأدب من أعرق الأسر، وممن عرفوا بسعة العلم ورصانة الأسلوب[١].

(د) الحجابة:

كان الخلفاء الراشدون لا يمنعون أحداً من الدخول عليهم، بل كانوا يخاطبون الناس على اختلاف مراتبهم بلا حجاب. فلما انتقل الحكم إلى بني أمية اتخذ معاوية بن أبي سفيان ومن جاء بعده من الخلفاء الحجاب بعد حادثة الخوارج مع علي ومعاوية وعمرو بن العاص، وذلك خوفاً على أنفسهم من شر الناس، وتلافياً لازدحامهم على أبوابهم، وشغلهم عن النظر في مهام الدولة.

والحاجب موظف كبير يشبه كبير الأمناء في أيامنا؛ وكان يشغل منصباً سامياً في القصر. ومهنته إدخال الناس على الخليفة مراعياً في ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم.

وقد اقتدى الخلفاء العباسيون ببني أمية، فاتخذوا الحجاب، وزادوا في منع الناس عن ملاقاتهم إلا في الأمور الهامة، وهذا ما يسميه ابن خلدون بالحجاب الثاني. فصار بين الناس وبين الخليفة داران: دار الخاصة ودار العامة، يقابل كل طائفة في كل مكان معين على ما يراه الحجاب، ثم تطرقوا عند انحطاط الدولة إلى حجاب ثالث أشد من الأولين.

وقد علت مرتبة الحاجب بارتقاء الحضارة الإسلامية في أيام العباسيين. فأصبح يستشار في كثير من أمور الدولة، ويستبد بالنفوذ دون الوزير، ويلزم أصحاب الدواوين بالرجوع إليه في كل أمور الدولة، ويحتم عليهم ألا يفصلوا في الأعمال إلا بعد موافقته[٢].

ومن أبرز الحجاب في العصر العباسي الأول الفضل بن الربيع الذي أوقع بالبرامكة عند الرشيد وأشعل نار الفتنة بين الأمين وأخيه المأمون، وإيتاخ حاجب الخليفة الواثق. ويقول البيهقي[٣]: «قال الواثق لابن أبي دؤاد: من أولى الناس بالحجبة؟ فقال: مولى شفيق يصون بطلاقة وجهه من ولاه، ويستعبد الناس لمولاه، فنظر الواثق إلى إيتاخ - وكان واقفاً على رأسه - فقال: قد ولاه أبو عبد الله الحجبة، فكان إيتاخ يعرف ذلك ويتقدم بين يديه إلى أن يبلغ رتبته».

---

(١) الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب ص ٣.

(٢) Metz, The Renaissance of Islam, p. 15. (٣) كتاب المحاسن والمساوىء جـ ١ ص ١٢٤

٢ ـ النظام الإداري

(أ) الإمارة على البلدان:

كان النظام الإداري في العصر العباسي الأول نظاماً مركزياً، وأصبح العمال على الأقاليم مجرد عمال لا ولاة مطلقي السلطة، بعكس ولاة الأمويين، كالحجاج بن يوسف الثقفي وزياد بن أبيه، كما أنهم لم يكونوا من الشخصيات البارزة. لذلك استحال النظام اللامركزي إلى نظام مركزي مما يشعر بتقلص نفوذ العمال: ومن أهم الموظفين في الولايات الإسلامية في العصر العباسي الأول: صاحب بيت المال، وصاحب البريد، والقاضي، واقتصر عمل الوالي على الصلاة وقيادة الجند.

ويقول سيد أمير علي(١): أما الإدارة فكانت قائمة على قواعد محددة مماثلة للنظم الحديثة في الأمم المتحضرة، بل قد يمكن القول إنها كانت متقدمة من بعض الوجوه عما هي عليه في أيامنا هذه، فكانت كل مناصب الدولة، كما كانت الحال في الدولة العثمانية، مفتوحة أمام كل من المسلمين واليهود والنصارى على السواء.

وكان الخليفة العباسي في هذا العصر يختار عمال الأقاليم بنفسه لإدارة شؤونها. بيد أن سلطتهم المدنية والقضائية لم تكن خالصة من كل قيد، فلم يترك العامل في ولايته زمناً طويلاً، وإذا عزل عن منصبه طلب منه أن يقدم بياناً مفصلاً عن شؤون ولايته. وكان أقل شك في صدقه كافياً لمصادرة أملاكه جميعها. وفي أيام المنصور لم تكن مهمة الوالي بأي حال أكثر من وظيفة صورية.

وقد ذكر الماوردي(٢) أن الإمارة على الأقاليم كانت ثلاثة أنواع:

١ ـ **إمارة استكفاء**: وفيها يفوض الخليفة إلى الوالي إمارة بلد أو إقليم فيشمل نظره على سبعة أمور: أحدها النظر في تدبير الجيوش وترتيبهم في النواحي وتقدير أرزاقهم، إلا أن يكون الخليفة قدرها فيذرها عليهم، الثاني النظر في الأحكام وتقليد القضاة والحكام، والثالث جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيهما وتفريق ما استحق منهما، والرابع حماية الدين والذب عن الحريم ومراعاة الدين من تغيير أو تبديل، والخامس إقامة الحدود في حق الله وحقوق الآدميين، والسادس الإمامة في الجمع والجماعات حتى يؤم بها أو تستخلف عليها، والسابع تسيير الحجيج من عمله ومن سلكه من غير أهله حتى يتوجهوا معانين عليه. فإن كان هذا

(١) A Short History of the Saracens, pp. 408- 409.

(٢) الأحكام السلطانية ص ٢٨ ـ ٣٤.

الإقليم ثغراً متاخماً للعدو، اقترن بها ثامن، وهو جهاد من يليه من الأعداء وقسم غنائمهم في المقاتلة وأخذ خمسها لأهل الخمس.

٢ ـ **إمارة استيلاء**: وهي أن يستولي أحد الأمراء قسراً على ولاية من الولايات، فيضطر الخليفة إلى إقراره عليها ويفوض إليه تدبيرها وسياستها.

٣ ـ **إمارة خاصة**: بمعنى أن يقصر الخليفة عمل الوالي على تدبير الجيش وسياسة الرعية، وحماية البيضة، والذب عن الحريم، دون التعرض للقضاء والأحكام أو لجباية الخراج والصدقات: وكانت الدولة العباسية في عهد السفاح تنقسم سياسياً إلى عدة ولايات هي:

(١) الكوفة والسواد (٢) البصرة وإقليم دجلة والبحرين وعمان (٣) الحجاز واليمامة (٤) اليمن (٥) الأهواز ويشمل خوزستان وستان (٦) فارس (٧) خراسان (٨) الموصل (٩) الجزيرة وأرمينية وأذربيجان (١٠) سورية (١١) مصر وإفريقية (١٢) السند.

وقد فصل السفاح فيما بعد فلسطين عن الشام، كما فصل أرمينية وأذربيجان عن الجزيرة وجعل منهما ولايتين. وأصبحت صقلية تابعة لولاية إفريقية، واستمرت إفريقية تحت إشراف والي مصر إلى أن استقل إبراهيم بن الأغلب بحكم هذه الولاية استقلالاً داخلياً في عهد هارون الرشيد[١].

وقد جرت العادة أن يولي الخلفاء العباسيون الولايات الإسلامية البعيدة بعض أفراد البيت العباسي وأكابر القواد. غير أن هؤلاء وأولئك آثروا البقاء في بغداد أو في سامرا، وأنابوا عنهم نواباً يحكمون هذه الولايات باسمهم. ولم يكن هذا التقليد الجديد شديد الخطر على سلامة الدولة العباسية وهي في قوتها. على أنه لما ضعفت السلطة المركزية، ساءت الحالة في هذه الولايات، وجنح بعض نواب الولاة إلى الاستقلال، فظهرت في مصر الدولتان الطولونية والإخشيدية، وظهرت في المشرق الدول الطاهرية والصفارية والسامانية وغيرها.

وقد أورد اليعقوبي أسماء الولاة في عهد أبي العباس السفاح:

أبو جعفر	الجزيرة وأرمينية وأذربيجان
داود بن علي	الحجاز واليمن واليمامة
عبد الله بن علي	بلاد الشام
سليمان بن علي	البصرة وما يليها من البحرين وعمان

(١) Von Kremer, PP. 218 - 219.

إسماعيل بن علي　　كور الأهواز

أبو مسلم الخراساني　　خراسان

أبو عون　　مصر وشمالي إفريقية(١).

ويلاحظ أن معظم هؤلاء الولاة، كما يقول الدكتور الدوري، من أفراد البيت العباسي أو من كبار أنصار الدعوة العباسية(٢).

ظل نظام الحكم في الدولة العباسية كما وضعه المنصور إلى عهد الرشيد، على الرغم من أن أصحاب الدواوين وأفراد البيت العباسي كانوا بمثابة مستشارين غير رسميين. أما الخليفة فكان مصدر كل قوة، كما أنه مرجع كل الأوامر المتعلقة بإدارة الدولة. ولكن بتوالي الأيام ظهر أن هذه الأعباء كانت مرهقة لا يستطيع القيام بها رجل واحد، ومن ثم أصبح من الضروري تعيين موظفين يعاونون الوزير في الإشراف على الدواوين المختلفة وإدارة شؤونها.

(ب) الدواوين:

وكان النظام الإداري في العصر العباسي الأول من حيث توزيع العمل يعادل أحسن النظم الحديثة. وهاك أهم دواوين الدولة التي كانت تشبه الوزارات في العهد الحاضر:

ديوان الخراج. وديوان الدية، وديوان الزمام، وديوان الجند وديوان الموالي والغلمان (وتسجل فيه أسماء موالي الخليفة وعبيده)، وديوان البريد، وديوان زمام النفقات، وديوان الرسائل، وكانت مهنة صاحبه إذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة، وديوان الحوائج، وديوان الأحشام، وديوان المنح أو المقاضاة، وديوان الأكرة للإشراف على الترع والجسور وشؤون الري.

وكان ديوان الأزمة أو الزمام (ويشبه ديوان المحاسبة اليوم) الذي أنشأه الخليفة المهدي من أهم دواوين الدولة. وكانت مهنة صاحب هذا الديوان جمع ضرائب بلاد العراق أغنى أقاليم الدولة العباسية وتقديم حساب الضرائب في الأقاليم الأخرى. ومن اختصاص صاحب هذا الديوان جمع الضرائب النوعية المسماة بالمعادن، وكانت تجمع لرجل يضبطها بزمام يكون له على كل ديوان، فيتخذ دواوين الأزمة ويولي على كل منها رجلاً. وقد أنشأ العباسيون ديواناً سموه ديوان النظر أو المكاتبات والمراجعات، وينقسم أربعة أقسام: ديوان الجيش وفيه الإثبات

---

(١) تاريخ اليعقوبي، طبعة النجف (١٩٣٩ م) جـ ٣ ص ٨٨ - ٨٩.

(٢) الدروي: العصر العباسي الأول ص ٦٣.

والعطاء، وديوان الأعمال ويتولى الرسوم والحقوق، وديوان العمال ويختص بالتقليد والعزل، وديوان بيت المال وينظر في الدخل والخرج(١).

وكانت هناك إدارة خاصة تنظر في مصالح غير المسلمين يدعى رئيسها كاتب الجهباز.

ولم تكن الحكومة العباسية تتدخل في شؤون الجماعات إلا بمقدار، بل كانت كل بلدة أو قرية تدير شؤونها الخاصة بنفسها، ولا تتدخل الحكومة إلا في حالة نشوب الفتن أو الامتناع عن دفع الضرائب. غير أنها ـ مع ذلك ـ كانت تقوم بالرقابة الفعالة على جميع الشؤون التي تتصل بالزراعة من بناء القنوات وترميمها(٢).

(جـ) البريد:

كان للبريد ديوان كبير في بغداد له محطات على طول الطريق. وقد ظل حمام الزاجل مستخدماً في نقل الرسائل حتى عهد الخليفة المعتصم. وساعدت معالم الطرق التي أقامتها الدولة للتجار في أسفارهم، كما كانت أساساً للبحوث الجغرافية. إلا أن البريد كان خاصاً بأعمال الدولة لا لنقل رسائل الجمهور؛ ومن ثم كان مصلحة من مصالح الدولة الخاصة. فكان صاحب البريد يراقب العمال، ويتجسس على الأعداء، ويقوم بالأعمال التي يقوم بها رئيس قلم المخابرات في وزارة الدفاع الآن وكانت مهنة صاحب البريد أول الأمر توصيل الأخبار إلى الخليفة من عماله في الأقاليم، ثم توسعوا فيه حتى جعلوا صاحبه عينا للخليفة، ينقل أوامره إلى ولاته كما ينقل أخبار ولاته إليه(٣).

وقد اهتم الخلفاء العباسيون بهذا النظام واعتمدوا عليه اعتماداً كبيراً في إدارة شؤون دولتهم. وكان أبو جعفر المنصور يقول: «ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر، لا يكون على بابي أعف منهم، فقيل له: يا أمير المؤمنين من هم؟ قال: هم أركان الملك، لا يصلح الملك إلا بهم، كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم إن نقصت واحدة تداعى وهي: أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية فإن من ظلمها غي، والرابع ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة آه آه. قيل له: ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب إلي بخبر هؤلاء على الصحة»(٤).

(١) Ameer Aly, P. 415. Von Kremer. P. 234 - 8.

(٢) النظم الإسلامية للؤلف ص ١٥٦ ـ ١٥٨.

(٣) Von Kremer, P. 233 Seq.

(٤) الطبري جـ ٩ ص ٢٩٧.

كانت عين المنصور ساهرة لا تنام عن عماله وما يأتونه في أعمالهم من خير أو شر؛ فقد كتب إليه عامل البريد عن واليه في حضرموت أنه يكثر الخروج في طلب الصيد، فكتب إلى هذا الوالي: «ثكلتك أمك وعدمتك عشيرتك، ما هذه العدة التي أعددتها للنكاية في الوحش؟ إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحش، سلم ما كنت تلي من عملنا إلى فلان بن فلان، والحق بأهلك مذموماً مدحوراً»[(١)].

وقد استخدم المنصور عمال البريد الذين كانوا عيوناً له وعوناً على الإشراف على أمور دولته، وبواسطتهم كان يقف على أعمال الولاة، وعلى ما يصدره القضاة من الأحكام، وما يرد بيت المال من الأموال وما إلى ذلك. كما كان ولاة البريد يوافونه بأسعار الحاجيات من قمح وحبوب وأدم ومأكولات وغيرها. وبلغ من انتظام إدارة البريد في عهده أن عماله كانوا يوافونه بذلك مرتين في كل يوم فإذا صلى المغرب وافوه بما حدث طول النهار، وإذا صلى الصبح كتبوا إليه بما جرى في الليل من أمور. وبهذا كان يقف على كل ما يحدث في الولايات الإسلامية. لذا كان شديد الاتصال بولاته، فيوقف القاضي عند حده إذا ظلم، ويرجع السعر إلى حالته الأولى إذا غلا، وإن رأى من أحدهم تقصيراً وبخه ولامه أو عزله من عمله مهاناً.

وكان على رأس كل مصلحة في الولايات الكبيرة عامل بريد، مهمته موافاة الخليفة بجميع الشؤون الهامة، والإشراف على أعمال الوالي، كما كان بعبارة أخرى. مندوباً أولته الحكومة المركزية ثقتها. وعلى الرغم من ذلك كله، بدأ الولاة يستقلون بولاياتهم شيئاً فشيئاً، حتى أصبحت ولاية هذه الأقاليم وراثية. ولا غرو فقد كان ولاة الأقاليم الكبيرة يولون من قبلهم الولاة وسرعان ما خرجت مقاليد الأمور في حاضرة الدولة نفسها من أيدي الخلفاء[(٢)].

(د) الشرطة:

ومن النظم الإدارية الهامة في العصر العباسي الأول نظام الشرطة: «وكان أصل وضعها في الدولة العباسية ـ كما يقول ابن خلدون[(٣)] ـ لمن يقيم أحكام الجرائم في حال استبدائها أولاً، ثم الحدود بعد استيفائها، فإن التهم التي تعرض في الجرائم لا نظر للشرع إلا في استيفاء حدودها. وللسياسة النظر في استيفاء موجباتها بإقرار يكرهه عليه الحاكم إذا احتفت به القرائن، لما توجبه المصلحة العامة في ذلك. فكان الذي يقوم بهذا الاستبداء وباستيفاء الحدود

---

(١) الطبري: جـ ص ٣١٤. المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٣٢.
(٢) Orient Under The Caliphs, P, 232 Seq.
(٣) مقدمة ص ٢١٨ ـ ٢١٩.

بعده إذا تنزه عنه القاضي يسمى صاحب الشرطة. وربما جعلوا إليه النظر في الحدود والدماء بإطلاق. وأفرادها من نظر القاضي، ونزَّهوا هذه المرتبة، وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم. ولم تكن عامة التنفيذ من طبقات الناس، وإنما كان حكمهم على الدهماء وأهل الرتب والضرب على أيدي الرعاع والغجر. ثم عظمت نباهتهم في دولة بني أمية بالأندلس، ونوعت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى، وكانت ولايتها للأكابر من رجالات الدولة ترشيحاً للوزارة والحجابة».

وكان صاحب الشرطة يختار من علية القوم ومن أهل العصبية والقوة. وهو أشبه بالمحافظ في هذا العصر، لأنه عبارة عن رئيس الجند الذين يساعدون الوالي على استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين.

ولما فتح العرب مصر كانت الشرطة في مدينة الفسطاط. ولما تأسست مدينة العسكر في سنة ١٣٢هـ، أنشئت فيها دار أخرى للشرطة أطلق عليها دار الشرطة العليا، كما أطلق على دار الشرطة في الفسطاط دار الشرطة السفلى، وانقسمت الشرطة بذلك إلى قسمين:

١ ـ الشرطة السفلى ومقرها الفسطاط.

٢ ـ الشرطة العليا ومقرها العسكر. وربما سميت بهذا الاسم لأن مكان العسكر (جبل يشكر وطولون) يقع شمال الفسطاط. ومن ثم سميت الشرطة العليا[١]. ولما فتح جوهر الصقلي مصر نقل الشرطة العليا من العسكر إلى القاهرة. وذكر ابن دقاق[٢] أن صاحب الشرطة توفي في نفس اليوم الذي وصل فيه جوهر إلى مصر، فأسند عمله إلى جبر. وبقيت دار الشرطة السفلى في الفسطاط، وتقلدها عروة بن إبراهيم وشبل المَعْرِضي[٣].

وكانت الشرطة في بلاد الأندلس على نوعين: شرطة كبرى، وشرطة صغرى. ويقول ابن خلدون[٤] في بيان اختصاص كل من الشرطتين:

«ثم عظمت نباهتها في دولة بني أمية بالأندلس، ونوعت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى. وجعل حكم الكبرى على الخاصة والدهماء وجعل له[٥] الحكم على أهل المراتب

---

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٤٥.

(٢) الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ١١.

(٣) المقريزي. اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا ص ٩٥.

(٤) انظر ص ٢٤٩ من مقدمة ابن خلدون المخطوط بالمكتبة الزكية المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ١٠١٦ وعليها خط المؤلف.

(٥) كذا في النسخ المطبوعة في بيروت ومصر ومخطوطة المكتبة الزكية التي سبقت الإشارة إليها. وليس في الكلام =

السلطانية، والضرب على أيديهم في الظلامات، وعلى أيدي أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه. وجعل صاحب الصغرى مخصوصاً بالعامة، ونصب لصاحب الكبرى كراسي بباب دار السلطان، رجل[١] يتبوءون المقاعد بين يديه، فلا يبرحون عنها إلا في تصريفه».

ولما اعتلى عبد الرحمن الناصر العرش ابتدع نوعاً ثالثاً للشرطة، أطلق عليه الشرطة الوسطى. ويظهر أن صاحبها اختص بالنظر في جرائم الطبقة الوسطى، وهم أعيان التجار وأصحاب المصانع وأصحاب المهن الراقية كالأساتذة والأطباء ومن في طبقتهم. وأسند هذا المنصب إلى سعيد بن سعيد بن جدير[٢]. ويقول المقري[٣] عن الشرطة في الأندلس: «وأما خطة الشرطة بالأندلس فإنها مضبوطة إلى الآن معروفة بهذه السمة: ويعرف صاحبها في ألسن العامة بصاحب المدينة وصاحب الليل وإذا كان عظيم القدر عند السلطان كان له القتل لمن وجب عليه دون استئذان السلطان، وذلك قليل، ولا يكون إلا في حضرة السلطان الأعظم، وهو الذي يحد على الزنا وشرب الخمر، وكثير من الأمور الشرعية راجع إليه، قد صارت تلك عادة تقرر عليها رضا القاضي، وكانت خطة القاضي أوقر وأتقى عندهم من ذلك»[٤].

ولا يختلف نظام العسس في الأندلس عنه في المشرق إلا في التسمية، حيث عرف العسس في الأندلس بالداربين لأن بلاد الأندلس لها دروب بأغلاق تغلق بعد العتمة[٥]، ولكل زقاق باتت فيه[٦] له سراج معلق، وكلب يسهر، وسلاح معد، وذلك لشطارة[٧] عامتها وكثرة شرهم[٨].

= مرجع الضمير (له). ويظهر أنه يعود على صاحب الشرطة الكبرى وهو مفهوم من السياق. ومن هذا أو ما بعده يظهر أن صاحب الشرطة الكبرى أوسع اختصاصاً من صاحب الشرطة الصغرى، فللأول (أ) الحكم على الخاصة والدهماء. (ب) الحكم على أهل المراتب السلطانية وأقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه، أما صاحب الشرطة الصغرى فليس له حكم إلا على العامة، وهم الدهماء.

(١) كذا في المخطوطات الثلاث المحفوظة بدار الكتب المصرية من مقدمة ابن خلدون، والرجل اسم جمع لراجل، وهم الرجالة أيضاً، وفي النسخ المطبوعة: «رجال».

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار المغرب جـ ٢ ص ٢١٢.

(٣) نفح الطيب: جـ ١ ص ١٠٣.

(٤) كان صاحب الشرطة في الدولة العباسية وفي الأندلس وفي عهد الفاطميين في المغرب ومصر ينظر في الجرائم ويقيم الحدود. راجع مقدمة ابن خلدون ص ١٩٣:

(٥) أي بعد صلاة العشاء.

(٦) بواب يعرف أهل الزقاق ويفتح لهم الباب.

(٧) الشاطر: الخبيث.

(٨) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣.

٣ ـ النظام الحربي

بلغ عدد الجيش في عهد الخلفاء العباسيين مئات الألوف من الجند الذين كانوا يكونون الجيش النظامي للدولة. وكانت رواتبهم تدفع لهم بانتظام. ثم قلت أرزاقهم تبعاً لقلة عددهم. ولما بلغت قوة العباسيين أشدها في بغداد أصبح الجندي يتقاضى راتباً شهرياً قدره عشرون درهماً (والدرهم يساوي أربعة قروش تقريباً). وبجانب الجنود النظامية طائفة أخرى من الجنود المتطوعة من البدو وطبقة الزراع وسكان المدن الذين اشتركوا في الحروب، مدفوعين بعوامل دينية أو مادية.

وكان تقسيم الجند تابعاً لجنسية أفراده. فمنهم الحربية، وهم الفرسان الذين كانوا يتسلحون بالرماح وهم من جند العرب، والمشاة وكانوا من الفرس ولا سيما الخراسانيين. وكان الجند العربي حتى آخر عهد الدولة الأموية من العرب. ولما جاءت الدولة العباسية بمساعدة الفرس، دخل في الجيش العربي العنصر الفارسي الذي تغلغل نفوذه في جسم الدولة.

ولم يكن اعتماد الخلفاء العباسيين على الفرس راجعاً إلى مساعدة هؤلاء لهم في تأسيس دولتهم، بل كان راجعاً أيضاً إلى العصبية التي كانت تشتعل نارها بين الجند العربي من حين إلى حين، حتى إن جعفر المنصور فكر في تأسيس الكرخ جنوبي بغداد، ليبعد عنه خطر جنده من اليمنية والمضرية[1]. فقد تعرض عربي من عرب الشمال للخليفة المأمون مراراً وقال له: انظر لعرب الشام كما نظرت إلى عجم خراسان، قال؛ أكثرت علي يا أخا الشام، والله ما أنزلت قيساً عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد، وأما اليمن فوالله ما أحببتها وما أحبتني قط. وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفياني وخروجه فتكون من أشياعه وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث الله عز وجل نبيه ﷺ من مضر، ولم يخرج إثنان إلا خرج أحدهما شارياً أعزب فعل الله بك».

ولما ولي المعتصم الخلافة سنة ٢١٨ هـ، رأى أن دولته الواسعة لا بد أن يقوم بحراستها جيش قوي، فاستكثر من الأتراك لأن أمه كانت تركية، فولاهم حراسة قصره، وأسند إليهم أعلى المناصب، وقلدهم الولايات الكبيرة، وآثرهم على الفرس والعرب في كل شيء، فدبت الغيرة والحسد في نفوس القواد، وبخاصة العرب، فعملوا على التخلص منهم، وأغروا العباس ابن المأمون بالمطالبة بالخلافة، ودبروا المكايد للتخلص من المعتصم، ولكنه قضى على هذه المؤامرة وقتل العباس كما تقدم.

وكان من أثر هذه المؤامرة أن أقصى المعتصم القواد من العرب والفرس تدريجياً، ومحا

---

(١) الطبري جـ ٩ ص ٢٨١ ـ ٢٨٢.

أسماءهم من ديوان العطاء، وزاد اعتماده على الأتراك حتى أربى عددهم على السبعين ألفاً.

ومن هذا نرى أن العصبية في الجيش لم تقتصر على العصبية العربية القبلية بين اليمنية والمضرية، بل تعدت ذلك إلى العصبية القومية التي قامت بين الترك والعرب، تلك العصبية التي ظهرت في عهد المعتصم وكادت تودي بحياته حين سار لمحاربة الإمبراطور البيزنطي تيوفيل. إلا أن المجال لم يتسع لها. لأن الأتراك أقصوا العرب نهائياً، وأصبح لهم الأمر والنهي، فاندمجوا في الأهلين واشتغلوا بالزراعة والصناعة والتجارة. كما استعان المعتصم بفرق من المصريين أطلق عليهم المغاربة، ومن الخزر، كما استعان بالمتطوعة الذين كانوا ينضمون إلى الجيش مدفوعين بالرغبة في الجهاد أو سعياً وراء الكسب. وكان لهؤلاء أثر يذكر في حرب بابك الخرمي وفي محاربة البيزنطيين.

ونتبين وصف الآلات الحربية التي استعملها العباسيون مما ذكره المسعودي[١] عن حصار جند المأمون بغداد.

«ونصب له (هرثمة بن أعين) على بغداد المنجنيقات، ونزل في رقة كلواذي والجزيرة، فتأذى الناس به، وصعد نحوه خلق من العيارين[٢] وأهل السجون ـ وكانوا يقاتلون عراة في أوساطهم التبابين[٣] والمآزر[٤]. وقد اتخذوا لرؤوسهم دواخل من الخوص سموها الخوذ، ورقا[٥] من الخوف والبواري[٦] قد قيرت[٧] وحشيت بالحصى والرمل، على كل عشرة عريف، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب، وعلى كل عشرة نقباء قائد، وعلى كل عشرة قواد أمير، ولكل ذي مرتبة من الركوب على مقدار ما تحت يده. فالعريف، له أناس مركبهم غير من ذكرناه من المقاتلة. كذلك النقيب والقائد والأمير يركبون أناساً عراة قد جعل في أعناقهم الجلاجل والصوف الأحمر والأصفر ومقاود قد اتخذ لهم ولجم من مكانس ومذاب، فيأتي العريف وقد أركب واحداً، وقدامه عشرة من المقاتلة. ويأتي النقيب والقائد والأمير كذلك. فتقف النظارة ينظرون إلى

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨.

(٢) قوم يختفون نهاراً ويظهرون ليلاً، وهم لصوص.

(٣) التبابين: جمع تبان (بالضم والتشديد) وهي سراويل صغيرة مقدار شبر تستر العورة المغلظة فقط، تكون للملاحات والمصارعين.

(٤) المآزر: جمع مئزر وهو الملحفة، وكل ما سترك.

(٥) الدرق: جمع درقة، الجحفة: هي ترس من جلود ليس فيه خشب ولا عقب.

(٦) جمع بوري أو بورية، وهو الحصير المنسوج من القنب، فارسي معرب.

(٧) قير الشيء: طلاه بالقار وهو الزفت.

حربهم أصحاب الخيول الفره[1] والجواشن[2] والدروع والتجافيف[3] والرماح والدرق التبتية»[4].

وكان عرض الجيش جزءاً من تدريب الجند في أوائل عهد الدولة العباسية، وخاصة في عهد أبي جعفر المنصور الذي اهتم بالشؤون الحربية اهتماماً كثيراً. وكان يلذ له أن يعرض جنده وهو جالس على عرشه، لابساً خوذته. وكانت الجنود تصف أمامه في ثلاثة أقسام: عرب الشمال (مصر)، وعرب الجنوب اليمن، والخراسانيون. ولكي يحمي العرب أنفسهم من غارات الروم أقاموا الحصون على تخوم دولتهم وهي الثغور، مثل طرسوس وأدنة والمصيصة ومرعش وملطية، وكانت هذه الثغور تقع طوراً في أيدي العرب وطوراً في أيدي الروم. ولما ولي هارون الرشيد الخلافة حصن هذه المدن الحصينة وأطلق عليها اسم الثغور[5].

٤ ـ النظام المالي

تعمل السياسةالمالية لكل دولة على تحقيق التوازن بين مواردها ومصارفها. وقد سارت الدولة الإسلامية على هذه السياسية منذ ظهورها، فأنشأت بيتاً للمال يقوم على صيانته وحفظه والتصرف فيه لصالح الجماعة الإسلامية، وهو يشبه وزارة المالية، وصاحبه يقوم مقام وزير المالية في الوقت الحاضر.

وأهم موارد بيت المال: الخراج، والجزية، والزكاة، والفيء، والغنيمة، والعشور. وقد زادت الضرائب في عهد بني أمية على ما كانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين، إذ لم يراع الخلفاء الأمويون القواعد التي قررها أسلافهم، بل تجاوزوا حدود الضرائب التي فرضوها. وسن الأمويون نظاماً دقيقاً للإشراف على جباية الأموال. ففي عهد عبد الملك بن مروان كان يعمل تحقيق دقيق مع الجباة وموظفي الخراج عند اعتزالهم أعمالهم الإدارية. وكان للتحقيق مع هؤلاء أماكن خاصة تسمى «دار الاستخراج». وفي العصر العباسي الأول كانت هناك ثلاث طرق لجباية الخراج:

---

(١) الفره: جمع فاره وهو النشيط.

(٢) الجشن: مثل الزرد يلبس على الظهر، والفرق بينه وبين الزرد أن الزرد يكون من حلقة واحدة فقط، والجوشن حلقة تتداخل فيها رقيقة من التنك.

(٣) جمع تجفاف، وهو ما جلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح.

(٤) هذه النسبة إلى «تبت» بأرض الترك.

(٥) حسن إبراهيم حسن: النظم الإسلامية ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

١ ـ المحاسبة، وهي إما أن تكون نقداً أو نوعاً أو هما معاً.

٢ ـ المقاسمة، وهي ضريبة نوعية تؤخذ عن المحصول.

٣ ـ المقاطعة، وهي ضريبة تجبى بمقتضى اتفاقات معينة بين الحكومة والخاصة. وتدخل في هذا النظام معظم أراضي التاج. كثيراً ما كان يعفى البعض من دفع الضرائب حتى في العهود التي ساد فيها العسر والجدب. مثال ذلك أن الخليفة المعتضد العباسي (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ) تجاوز عن ربع الضريبة بإرجائه السنة المالية من منتصف مارس إلى ١٧ يونيه «ربيع الأول» ثم بإرجائها مرة أخرى إلى ٢١ يولية.

وإذا ذكرنا رخاء الدولة وحسن حالة الزراع ونفاق التجارة، فإننا لا نعجب إذا علمنا أن دخل الدولة العباسية في عهد هارون الرشيد بلغ ٢٧٢,٠٠٠,٠٠٠ درهم وأربعة ملايين ونصف من الدنانير في السنة[١].

وقد اهتم العباسيون بالخراج اهتماماً عظيماً، وعلى الأخص في عهد هارون الرشيد، الذي أمر أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري صاحب الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت ومن أشهر فقهاء عصره، أن يكتب في الخراج كتاباً جامعاً «يعمل به في جباية الخراج والعشور والصدقات والجوالي[٢]، وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به، وإنما أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته والصلاح لأمرهم»[٣]. وقد بين أبو يوسف في هذا الكتاب الطريقة المثلى لتنظيم جباية الخراج وغيره من موارد بيت المال، فسمى كتابه «كتاب الخراج»، وقد تناول المؤلف الكلام على ثلاثة أمور:

الأول: موارد بيت المال، وتنقسم ثلاثة أقسام:

١ ـ خمس الغنائم.

٢ ـ الخراج ويدخل تحته ما يسمى وظيفة الأرض الخراجية، ثم جزية أهل الذمة، ثم العشور. وقد أدخلت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومن ثم لم يرد لها ذكر في القرآن الكريم. وحد أرض الخراج: كل أرض من أراضي الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فلم يقسمها الإمام، وأبقاها بأيدي أهلها، أو صالحهم عليها وصيرهم ذمة. ويخرج من ذلك أنواع

---

(١) Sayed Ameer Ali, P. 426 et seq.

(٢) الجوالي هي اختيار الأحسن من كل شيء سواء أكان من الممتلكات أو من الشاء، الهزيل منها والصغير. وربما كانت هذه وظيفة العامل في الزكاة.

(٣) أبو سيف: كتاب الخراج (القاهرة في سنة ١٣٤٦ هـ) ص ٣.

من الأرض لا يوضع عليها الخراج، وإنما تكون أرضاً عشرية، وهي كل أرض العرب غير بني تغلب وكل أراضي الأعاجم أسلم عليها أهلها طوعاً، وكذلك كل أرض من أراضي الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فقسمها الإمام بين الفاتحين.

٣ ـ الصدقات.

الثاني: بيان الطريقة المثلى لجباية تلك الأموال.

الثالث: بيان الواجبات التي يقوم بها بيت المال.

وقد عمل الخلفاء العباسيون على عدم إرهاق المزارعين، وعني البعض بوضع قواعد ثابتة لمقدار الخراج على حسب نوع المحصول وجودة الأرض؛ وراعوا خفض الضرائب في بعض الأحيان إذا قل المحصول لسبب من الأسباب.

وصفوة القول ان خزائن العباسيين كانت تفيض بالأموال التي كانت تجبى من الضرائب حتى بلغت في أيام هارون الرشيد ما يقرب من إثنين وأربعين مليون دينار، عدا الضريبة العينية التي كانت تؤخذ مما تنتجه الأرض من الحبوب(١). ويرجع الفضل في ذلك إلى الإصلاحات التي أدخلها أبو جعفر المنصور على ضريبة الأرض في السواد. وذلك أن الخراج كان يؤخذ نقداً على مساحة الأرض سواء زرعت أم لم تزرع؛ فوضع نظام المقاسمة الذي تقدمت الإشارة إليه، والذي يقضي بأن يدفع الزارع جزءاً من غلة الأرض ويبقى له ما يكفيه. كما شدد الرقابة على جباة الضرائب حتى لا يظلموا الناس أو يستأثروا بأموال الدولة. وليس أدل على دقة المنصور وحرصه ما كان من محاسبته البنائين وغيرهم عند بناء مدينة بغداد حتى رماه بعض المؤرخين بالبخل ولقبوه الدوانيقي.

وقد بلغ ما حمل إلى الرشيد من المال في كل سنة نحو خمسمائة ألف ألف درهم من الفضة وعشرة آلاف ألف دينار من الذهب. ويقول الجهشياري(٢) إن أبا الوزير عمر بن مطرف الكاتب «عمل في أيام الرشيد تقديراً عرضه على يحيى بن خالد (البرمكي) لما يحمل إلى بيت المال بالحضرة من جميع النواحي من المال والأمتعة» جاء فيه:

أثمان غلات السواد: ثمانون ألف ألف، وسبع مائة ألف، وثمانون ألف درهم.

أبواب المال بالسواد: أربعة عشر ألف ألف، وثماني مائة ألف درهم، الحلل النجرانية مائتا حلة، الطين المختم: مائتان وأربعون رطلاً.

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٧٠.

(٢) كتاب الوزراء والكتاب ص ٢٨١ ـ ٢٨٢.

كسكر: أحد عشر ألف ألف، وست مائة ألف درهم.
كور دجلة: عشرون ألف ألف، وثماني مائة ألف درهم.
حلوان: أربعة آلاف ألف، وثماني مائة ألف درهم.
الأهواز: خمسة وعشرون ألف ألف درهم. السكر: ثلاثون ألف رطل.

فارس: سبعة وعشرون ألف ألف درهم. ماء الزبيب الأسود؛ عشرون ألف رطل. الرمان والسفرجل: مائتا ألف وخمسون ألفاً، ماء الورد: ثلاثون ألف قارورة، الأنبجات[١]: خمسة عشر ألف رطل، الطين السيرافي، خمسون ألف رطل، الزبيب ـ بالكر الهاشمي ـ ثلاثة أكوار.

كرمان: أربعة آلاف ألف ومائتا ألف درهم، المتاع اليمني والخبيصي[٢]: خمس مائة ثوب، التمر: عشرون ألف رطل، الكمون: مائة رطل.
مكران: أربع مائة ألف درهم.

السند وما يليها: أحد عشر ألف ألف، وخمس مائة ألف درهم، الطعام بالقفيز الكيرخ: ألف ألف قفيز، الفيلة: ثلاثة فيلة، الثياب الحبشية: ألفا ثوب، الفوط: أربعة آلاف فوطة، العود الهندي: مائة وخمسون مناً، ومن سائر أصناف العود: مائة وخمسون مناً، النعال: ألفا زوج، وذلك سوى القرنفل والجوزبوا.
سجستان: أربعة آلاف ألف وست مائة ألف درهم، الثياب المعينة: ثلاث مائة ثوب، الفانيذ[٣]: عشرون ألف رطل.

خراسان: ثمانية وعشرون ألف ألف درهم، نقر الفضة الأمناء: ألفا نقرة البراذين أربعة آلاف برذون، الرقيق: ألف رأس، المتاع: سبعة وعشرون ألف ثوب، الإهليج: ثلاث مائة رطل.

جرجان: اثنا عشر ألف ألف درهم، الإبريسم: ألف مناً.

قومس ألف ألف، وخمس مائة ألف درهم، نقر الفضة الأمناء ألف نقرة الأكسية: سبعون كساء، الرمان: أربعون ألف رمانة.

---

(١) هي ما نسميه الآن (المانجو) وكانوا يتخذون منه مربى.
(٢) خبيص: بلدة بكرمان.
(٣) في القاموس: الفانيذ ضرب من الحلواء معرب (بانيد).

طبرستان والرويان ودنباوند: ستة آلاف ألف، وثلاثة مائة ألف درهم. الفرش الطبري: ست مائة قطعة، الأكسية: مائتا كساء، الثياب: خمسمائة ثوب، المناديل: ثلاثمائة منديل، الجامات: ستمائة جام.

الري: اثنا عشر ألف درهم، الرمان: مائة ألف ألف رمانة، الخوخ: ألف رطل.

أصفهان: سوى خمتش ورساتيق عيسى راديس: أحد عشر ألف ألف درهم، العسل عشرون ألف رطل، الشمع عشرون ألف رطل.

همذان ودستي: أحد عشر ألف ألف رطل، وثماني مائة ألف درهم، الرب والرمانين[1]: ألف منا، العسل الأروندي: عشرون ألف رطل.

مـاهي البصرة والكوفة: عشرون ألف ألف درهم.
شهر زور وما يليها: أربعة وعشرون ألف ألف درهم.

المَوْصِل وما يليها: أربعة وعشرون ألف ألف درهم، العسل الأبيض: عشرون ألف رطل.

الجزيرة، والديارات، والفرات، أربعة وثلاثون ألف ألف درهم.
أذربيجان: أربعة آلاف ألف درهم.
موقان وكرج: ثلاثة مائة ألف درهم.

جيلان: من الرقيق: مائة رأس، البز والطيلسان[2] من العسل، اثنا عشر زقاً، من البزاة: عشر بزاة. ومن الأكسية: عشرون كساء.

أرمينية: ثلاثة عشر ألف ألف درهم، البسط: عشرون بساطاً، والرقم: خمس مائة وثمانون قطعة، المالح المنبوذ ما هي: عشر آلاف رطل، الطريخ: عشرة آلاف رطل، البزاة ثلاثون بازياً، البغال مائتا بغل.

قنسرين والعواصم: أربع مائة ألف وتسعون ألف دينار.
حمص: ثلاث مائة ألف وعشرون ألف دينار، الزبيب: ألف راحلة.
دمشق: أربع مائة ألف وعشرون ألف دينار.
الأردن: ستة وتسعون ألف دينار.

---

(١) كذا في تاريخ ابن خلدون وفي الأصل (رب والريباس).
(٢) لم يذكر أمامها تقدير في الأصل.

فلسطين: ثلاث مائة ألف وعشرون ألف دينار، ومن جميع أجناد الشام من الزبيب ثلاث مائة ألف رطل.

مصر: سوى تنيس ودمياط والأشمونين، فإن هذه وقفت للنفقات، ألف ألف وتسع مائة وعشرون ألف دينار.

برقة: ألف ألف درهم.

إفريقية: ثلاثة عشر ألف ألف درهم، ومن البسط: مائة وعشرون بساطاً.

اليمن: سوى الثياب، ثماني مائة ألف، وسبعون ألف دينار.

مكة والمدينة: ثلاث مائة ألف دينار.

جملة التقدير: فذلك العين، خمسة آلاف دينار، قيمتها حساب اثنين وعشرين درهماً بدينار: مائة ألف ألف، وخمسة وعشرون ألف ألف وخمس مائة واثنان وثلاثون ألف درهم، الورق أربع مائة ألف ألف، وأربعة آلاف ألف، وسبع مائة ألف، وثمانية آلاف درهم، يكون الورق مع قيمة العين ـ خمس مائة ألف ألف وثلاثين ألف ألف، واثني عشر ألف درهم.

كذلك أورد ابن خلدون[١] بياناً مفصلاً بجباية الخراج في عهد الخليفة المأمون وقد نقله عنه جرجي زيدان[٢]. وإليك خراج الدولة في هذا العهد:

---

(١) مقدمة ص ١٥٦ ـ ١٥٨.

(٢) كتاب التمدن الإسلامي جـ ٢ ص ٥٣ ـ ٥٥.

أسماء الأقاليم	مقدار الجباية بالدرهم	الأموال والغلال
السواد	٢٧,٨٠٠,٠٠٠	ومن الحلل النجرانية ٢٠٠ حلة، ومن طين الختم ٢٤٠ رطلاً
كسكر	١١,٩٠٠,٠٠٠	
كور دجلة	٢٠,٨٠٠,٠٠٠	
حلوان	٤,٨٠٠,٠٠٠	
الأهواز	٢٥,٠٠٠,٠٠٠	وسكر ٣٠,٠٠٠ رطل
فارس	٢٧,٠٠٠,٠٠٠	ومن ماء الورد ٣٠,٠٠٠ قارورة، ومن الزيت الأسود ٢٠,٠٠٠
كرمان	٤,٢٠٠,٠٠٠	ومتاع يماني ٥٠٠ ثوب، وتمر ٢٠,٠٠٠ رطل
مكران	٤٠٠,٠٠٠	
السند وما يليه	١١,٥٠٠,٠٠٠	وعود هندي ١٥٠ رطل
سجستان	٤,٠٠٠,٠٠٠	ومن الثياب المعينة ٣٠٠ ثوب ومن الفانيذ ٢٠ رطلا
خراسان	٢٨,٠٠٠,٠٠٠	ومن نقر الفضة ٢,٠٠٠ نقرة و٤,٠٠٠ برذون و١,٠٠٠ رأس رقيق و٢٠,٠٠٠ ثوب متاع و٣٠,٠٠٠ إهليج
جرجان	٢,٠٠٠,٠٠٠	و١,٠٠٠ شقة إبريسم
قومس	١,٥٠٠,٠٠٠	ومن نقر الفضة ١,٠٠٠ نقرة
طبرستان والرويان ودماوند	٦,٣٠٠,٠٠٠	و٦٠٠ قطعة من الفرش الطبري و٢٠٠ أكسية و٥٠٠ ثوب و٣٠٠ منديل و٣٠٠ جام
الري	١٢,٠٠٠,٠٠٠	و٢٠,٠٠٠ رطل عسل
همذان	١١,٣٠٠,٠٠٠	و١,٠٠٠ رطل رب الرمانين و١٢٠٠٠ رطل عسل
ماهـا البصرة والكوفة	١٠,٧٠٠,٠٠٠	
ماسبذان والريان	٤,٠٠٠,٠٠٠	
شهرزور	٩,٧٠٠,٠٠٠	
الموصل وما يليها	٢٤,٠٠٠,٠٠٠	و٢٠,٠٠٠ رطل عسل
أذربيجان	٤,٠٠٠,٠٠٠	
الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات	٣٤,٠٠٠,٠٠٠	و١,٠٠٠ رأس رقيق و١٢,٠٠٠ زق عسل، وعشر بزاة و٣٠ كساء

أسماء الأقاليم	مقدار الجباية بالدرهم	الأموال والغلات
أرمينية	١٣,٠٠٠,٠٠٠	و٢٠ درهم من القسط المحفور، ٥٣٠ رطلاً من الرقم، و١٠,٠٠٠ رطل من المسايح السورماهي، و١٠,٠٠٠ رطل من الصونج، ٢٠٠ بغل، ٣٠ مهراً
برقة	١,٠٠٠,٠٠٠	
إفريقية	١٣,٠٠٠,٠٠٠	و١٢٠ بساطاً
المجموع الكلي	٣١٨,٦٠٠,٠٠٠	درهم
	من الدنانير	
قنسرين	٤٠٠,٠٠٠	و١,٠٠٠ حمل زيت
دمشق	٤٢٠,٠٠٠	
الأردن	٩٧,٠٠٠	
فلسطين	٣١٠,٠٠٠	و٣٠٠,٠٠٠ رطل زيت
مصر	٢,٩٢٠,٠٠٠	
اليمن	٣٧٠,٠٠٠	سور المتاع لم يذكر
الحجاز	٣٠٠,٠٠٠	
المجموع الكلي	٤,٨١٧,٠٠٠	دينار، تساوي ٧٢,٢٥٥,٠٠٠ درهم باعتبار
فيكون المجموع		الدينار ١٥ درهماً وهو تقديره في ذلك العصر
بالدرهم	٧٢,٢٥٥,٠٠٠	
يضاف إليه جباية		
الأقاليم المذكورة	٣١٨,٦٠٠,٠٠٠	
أعلاه		
فتكون الجملة	٣٩٠,٨٥٥,٠٠٠	درهم

من هذه القائمة نرى أن خراج أقاليم المشرق كان يقدر بالدراهم وخراج أقاليم المغرب بالدنانير (إلا برقة وإفريقية). وسنرى نحو ذلك أيضاً في القائمتين الأخريين والسبب في ذلك ـ على ما يظهر ـ يرجع إلى أن مناجم الفضة كانت أكثر في أقاليم المشرق منها في المغرب، وبعكس ذلك مناجم الذهب.

فمجموع جباية أقاليم المشرق (مع برقة وإفريقية) ٣١٨,٦٠٠,٠٠٠ درهم ومجموع أقاليم المغرب ٤,٨١٧,٠٠٠ دينار. وبتحويل هذه الدنانير إلى دراهم يكون مجموعها ٧٢,٢٥٥,٠٠٠ درهم. وبإضافة مقدار جباية المغرب إلى مقدار جباية المشرق، يبلغ مجموع الجباية ٣٩٠،٨٥٥٥،٠٠٠ درهم. هذا عدا خراج الكرخ ويبلغ ٣٠٠,٠٠٠ درهم، وجيلان ويبلغ خراجها ٥,٠٠٠,٠٠٠ درهم. وعلى هذا يكون مجموع جباية الدولة العباسية في عهد المأمون نحو ٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم عدا الأموال والغلات الأخرى. وقد جرت العادة أن تقدر الغلات بما تساويه نقداً، كما فعل صاحب جراب الدولة في غلات السواد ومعظمها في الأصل من الحنطة، كما سنرى في تفصيل طساسيج (أي نواحي) السواد من قائمتي قدامة بن جعفر وابن خرداذبه. وكان يصل إلى بيت المال ببغداد صافي ما يتحصل من الجباية في الأقاليم بعد دفع أموال الجند وما تتطلبه الجباية من نفقات، وإصلاح الترع وما ينفق على الدواوين، وما يتطلبه الخليفة ووزراؤه وكتابه ورجال بلاطه[١].

وإليك بيان خراج الدولة العباسية في عهد المعتصم على ما أورده قدامه بن جعفر[٢]. وقد ذكر مقـدار كل من الحنطة والشعير مفصلاً باعتبار طساسيج السواد، أي نواحيه في الشرق والغرب.

١ ـ طساسيج السواد في الجانب الغربي:

اسم الناحية	الحنطة بالسكر	الشعير بالسكر	الدراهم
الأنبار ونهر عيسى	١١,٨٠٠	٦,٤٠٠	٤٠٠,٠٠٠
طسوج مسكن	٣,٠٠٠	١,٠٠٠	١٥٠,٠٠٠
طسوج قطربل	٢,٠٠٠	١,٠٠٠	٣٠٠,٠٠٠
طسوج بادوريا (بادرايا)	٣,٥٠٠	١,٠٠٠	١,٠٠٠,٠٠٠
نهر سير	١,٧٠٠	١,٧٠٠	١٥٠,٠٠٠
الرومقان	١٣,٣٠٠	٣,٣٠٠	٢٥٠,٠٠٠

(١) جرجي زيدان: كتاب التمدن الإسلامي جـ ٢ ص ٥٥ ـ ٥٦.

(٢) كتاب الخراج (طبعة ليدن سنة ١٣٠٦ هـ) ص ٢٣٧ ـ ٢٤٠. انظر جرجي زيدان: كتاب التمدن الإسلامي جـ ٢ ص ٥٧ ـ ٥٩.

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالسكر	مقدار الشعير بالسكر	الدراهم
كوثي	٣,٠٠٠	٢,٠٠٠	٣٥٠,٠٠٠
نهر درقيط	٢,٠٠٠	٢,٠٠٠	٢٠٠,٠٠٠
نهر جوير	١,٥٠٠	٦,٠٠٠	١٥٠,٠٠٠
باروسما ونهر الملك	٣,٥٠٠	٤,٠٠٠	١٢٢,٠٠٠
الزوابي الثلاثة	١,٥٠٠	٧,٢٠٠	٣٥٠,٠٠٠
بابل وخطرنية	٣,٠٠٠	٥,٠٠٠	٣٥٠,٠٠٠
الفلوجة العليا	٥٠٠	٥٠٠	٧٠,٠٠٠
الفلوجة السفلى	٢,٠٠٠	٣,٠٠٠	٢٨٠,٠٠٠
طسوج النهرين	٣٠٠	٤٠٠	٤٥,٠٠٠
طسوج عين النمر	٣٠٠	٤٠٠	٤٥,٠٠٠
طسوج الحية والبداة	١,٥٠٠	١,٦٠٠	١٥٠,٠٠٠
سورا وبربسيما	١,٥٠٠	٤,٥٠٠	٢٥٠,٠٠٠
البرس الأعلى والأسفل	٥٠٠	٥,٥٠٠	١٥٠,٠٠٠
فرات بادقلي	٢,٠٠٠	٢,٥٠٠	٦٢,٠٠٠
طسوج السيلحين	١,٠٠٠	١,٥٠٠	١٤٠,٠٠٠
روذمستان وهزمزجرد	٥٠٠	٥٠٠	٢٠,٠٠٠
تستر	٢,٢٠٠	٢,٠٠٠	٣٠٠,٠٠٠
إيغار يقتين	١,٢٠٠	٢,٠٠٠	٢٠٤,٨٠٠
كسكر	٣٠,٠٠٠	٢,٠٠٠	٢٧٠,٠٠٠

٢ ـ طساسيج السواد في الجانب الشرقي:

طسوج بزر جسابور	٢,٥٠٠	٢,٢٠٠	٣٠٠,٠٠٠
طسوج الواذنين	٤,٨٠٠	٤,٨٠٠	١٢٠,٠٠٠
طسوج بوق	٢٠٠	١,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠
كلواذي ونهر بين	١,٦٠٠	١,٥٠٠	٣٣٠,٠٠٠
جازر والمدينة العتيقة	١,٠٠٠	١,٥٠٠	٣٤٠,٠٠٠
روستقباذ	١,٠٠٠	١,٤٠٠	٢٤٦,٠٠٠

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
سلسل ومهروذ	٢,٠٠٠	١,٥٠٠	١٥٠,٠٠٠
جلولا وجللتا	١,٠٠٠	١,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠
الذيبين	١,٩٠٠	١,٣٠٠	٤٠,٠٠٠
الدسكرة	١,٨٠٠	١,٤٠٠	٦٠,٠٠٠
البندنيجين	٦٠٠	٥٠٠	٣٥,٠٠٠
طسوج براز الروذ	٣,٠٠٠	٥,١٠٠	١٢٠,٠٠٠
النهروان الأعلى	١,٧٠٠	١,٨٠٠	٣٥٠,٠٠٠
النهروان الأوسط	٢,٠٠٠	٥٠٠	١٠٠,٠٠٠
بادرايا وباكسايا	٤,٧٠٠	٥,٥٠٠	٣٣٠,٠٠٠
كور دجلة	٩٠٠	٤,٠٠٠	٤٣٠,٠٠٠
نهر الصلة على تلك العبرة	١,٠٠٠	٣,١٢١	٥٩,٠٠٠
النهروان الأسفل	١,٧٠٠	١,٣٠٠	٥٣,٠٠٠
مجموع خراج السواد	١١٥,٦٠٠	١٢٣,٩٢١	٨,٨٢١,٨٠٠

فمجموع جباية السواد باعتبار نواحيه ١١٥,٦٠٠ كر حنطة، ١٢٣,٩٢١ كر شعير ٨,٨٢١,٨٠٠٠ درهم. على أن هذا المجموع يختلف عما ذكره قدامة بعد أن أورد خراج كل ناحية بالتفصيل كما تقدم. فقد ذكر في إيراد المجموع: «فذلك ارتفاع السواد سوى صدقات البصرة من الحنطة ١٧٧,٢٠٠ كر ومن الشعير ٩٩,٧٢١ كراً، ومن الورق ٨,٠٩٥,٨٠٠ درهم». ولعل السبب في هذا الفرق خطأ قراءة بعض الأعداد. على أن الفرق على كثرته لا يعتد به. بقي علينا أن نحول الحنطة والشعير إلى دراهم. وقد فعل قدامة ذلك فحولهما باعتبار ثمن الكرين المقرونين من الحنطة والشعير ستين ديناراً. والدينار على صرف خمسة عشر درهماً بدينار، فبلغ ذلك ١٠٠,٣٦١,٨٥٠ درهماً، وقال إن صدقات البصرة ترتفع في السنة ٦,٠٠٠,٠٠٠ درهم، فإذا جمعت ذلك كله بلغ ١١٤,٤٤٧,٦٥٠ درهماً على هذه الصورة.

٨,٠٩٦,٨٠٠	الدراهم المجموعة ورقاً
١٠٠,٣٦١,٨٥٠	قيمة الحنطة والشعير بالدراهم
٦,٠٠٠,٠٠٠	صدقات البصرة
١١٤,٤٥٧,٦٥٠	درهم

موارد الجباية من أقاليم المشرق والمغرب مع السواد:

١ - أقاليم المشرق

أقاليم المشرق	دراهم	أقاليم المشرق	دراهم
السواد	١٤,٤٥٧,٦٥٠	الري ودماوند	٢٠,٠٨٠,٠٠٠
الأهواز	٢٣,٠٠٠,٠٠٠	قزوين وزنجان وأبهر	١,٨٢٨,٠٠٠
فارس	٢٤,٠٠٠,٠٠٠	قومس	١,١٥٠,٠٠٠
كرمان	٦,٠٠٠,٠٠٠	جرجان	٤٠٠,٠٠٠,٧٠٠
مكران	١,٠٠٠,٠٠٠	طبرستان	٤,٢٨٠,٠٠٠
أصبهان	١٠,٥٠٠,٠٠٠	تكريت والطيرهان	٩٠٠,٠٠٠
سجستان	١,٠٠٠,٠٠٠	شهرزور والصامغان	٢,٧٥٠,٠٠٠
خراسان	٣٧,٠٠٠,٠٠٠	الموصل وما يليها	٦,٣٠٠,٠٠٠
حلوان	٩٠٠,٠٠٠	قردى وبديدى	٣,٢٠٠,٠٠٠
ماء الكوفة	٥,٠٠٠,٠٠٠	ديار ربيعة	٩,٦٣٥,٠٠٠
ماء البصرة	٤,٨٠٠,٠٠٠	آرزن وميافارقين	٤,٢٠٠,٠٠٠
همذان	١,٧٠٠,٠٠٠	طرون	١٠٠,٠٠٠
ماسبذان	١,٢٠٠,٠٠٠	آمد	٢,٠٠٠,٠٠٠
مهرجان قذق	١,١٠٠,٠٠٠	ديار مضر	٦,٠٠٠,٠٠٠
الإيفارين	٣,٨٠٠,٠٠٠	أعمال طريق الفرات	٢,٩٠٠,٠٠٠
قم وقاشان	٣,٠٠٠,٠٠٠		
أذربيجان	٣,٥٠٠,٠٠٠	المجموع الكلي	٣١١,٥٨١,٣٥٠

٢ ـ أقاليم المغرب

أقاليم المغرب	دينار	أقاليم المغرب	دينار
قنسرين والعواصم	٣٦٠,٠٠٠	الحرمين	١٠٠,٠٠٠
جند حمص	٢١٨,٠٠٠	اليمن	٦٠٠,٠٠٠
جند دمشق	١١٠,٠٠٠	اليمامة والبحرين	٥١٠,٠٠٠
جند الأردن	١٠٩,٠٠٠	عمان	٣٠٠,٠٠٠
جند فلسطين	٢٩٥,٠٠٠		
مصر والإسكندرية	٢,٥٠٠,٠٠٠	المجموع	٥,١٠٢,٠٠٠
		وبتحويلها إلى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهماً تساوي ٧٦,٧١٠,٠٠٠ درهماً	

وبإضافتها إلى مجموع جباية أقاليم المشرق والجزيرة يكون مجموع ذلك كله ٣٣٨,٢٩١,٣٥٠ درهماً، وهو ارتفاع الخراج حسب تقدير قدامة.

من ذلك يتضح أن جباية الخراج في عهد المأمون ٣٩٦,١٥٥,٠٠٠ درهم وفي عهد المعتصم ٣٨٨,٢٩١,٣٥٠ درهم[1].

وكان المال الذي يأتي من الموارد المتقدمة ينفق على مصالح الدولة، فتدفع منه أرزاق القضاة والولاة والعمال وصاحب بيت المال وغيرهم من الموظفين، كما تدفع منه أعطيات الجند، أي رواتبهم التي يستولون عليها في أوقات معينة من السنة، كما ينفق منه على كرى الأنهار وإصلاح مجاريها، وكرى الترع التي تأخذ من الأنهار الكبيرة كدجلة والفرات لتوصيل الماء إلى الأراضي البعيدة، والنفقة على المسجونين وأسرى المشركين من مأكل ومشرب وملبس، ودفن من يموت منهم. وشراء المعدات الحربية، ومنح العطايا للعلماء والأدباء وغيرهم.

وكان النظام المالي في الأندلس يدور حول هذه الأمور الثلاثة وهي: الخزانة العامة، وإدارة بيت المال، وإدارة خاصة الأمير أو الخليفة.

وأما الخزانة العامة فكان يشرف عليها أحد كبار الموظفين ويسمى «خازن المال»، ومقر هذه الخزانة القصر، وفيها تودع الأموال التي تجبى من المدن والقرى. ومن أهمها: أموال التركات التي يموت عنها أصحابها دون أن يتركوا وارثاً، والضرائب المفروضة على الأسواق،

---

(١) قدامة بن جعفر: كتاب الخراج ص ٢٤٩ ـ ٢٥١.

والرسوم الجمركية التي تضرب على السفن، والخراج، والجزية، والأعشار. وقد قيل إن عبد الرحمن الناصر خلف في بيوت الأموال خمسة آلاف ألف ألف. ولا ندري إذا كان هذا الرقم بالدينار أو بالدراهم. ويغلب على الظن أنه بالدراهم، لأنه إذا حسب دنانير تجاوز ٣٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠، وفي هذا شيء كثير من المبالغة.

وقد ذكر المقري[1] الذي عزا ذلك إلى ابن خلدون، أن الناصر «كان يقسم الجباية أثلاثاً: ثلثاً للجند، ثلثاً للبناء، وثلثاً مدخراً. وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار، ومن السوق المستخلص[2] سبعمائة ألف وخمس وستين ألف دينار. وأما أخماس الأموال العظيمة فلا يحصيها ديوان».

وذكر ابن حوقل[3] أن عبد الرحمن الناصر استطاع أن يوفر حتى سنة ٣٤٠ ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار، وأنه لم يكن في زمانه سلطان استطاع أن يتوفر عنده مثل هذا المبلغ الضخم، إلا أبا تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة الحسن بن عبد الله الحمداني (٣٥٨ - ٣٦٩ هـ). أما ما يطلق عليه اسم بيت المال في الأندلس فكان يقتصر على ما يرد من الأوقاف، وكان مقره المسجد الكبير بقرطبة. ويقوم هذا الديوان على حفظ المنشآت الدينية، ودفع رواتب موظفي المساجد، وتوزيع الصدقات في أماكن خاصة. ويقوم بالإشراف عليها قاضي القضاة، ومن ينوبون عنه تحت إشراف الخليفة. ويشبه من هذه الناحية بعض دواوين وزارة الأوقاف ووزارة الشؤون الاجتماعية الآن.

وأما موارد الخليفة الخاصة، فكان يشرف عليها موظف يعرف «بصاحب الدية»، كما يشرف هذا الموظف على أراضي الأمير أو الخليفة، ويقوم بزراعتها جماعة من المزارعين على أن يأخذوا جزءاً قليلاً من المحاصيل لأنفسهم.

٥ - النظام القضائي

(أ) القضاء:

تطور النظام القضائي في العصر العباسي الأول تطوراً كبيراً، لأن روح الاجتهاد في الأحكام ضعفت بسبب ظهور المذاهب الأربعة، فأصبح القاضي يصدر أحكامه وفق أحد هذه المذاهب. فكان القاضي في العراق يحكم وفق مذهب أبي حنيفة، والشام والمغرب وفق مذهب

---

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ١٧١.

(٢) أي من الضرائب التي تجبى على التجارة.

(٣) المسالك والممالك ص ٧٧.

مالك، وفي مصر وفق المذهب الشافعي[١]. وإذا تقدم متخاصمان على غير المذهب الشائع في بلد من البلاد أناب عنه قاضياً يحكم بمذهب المتخاصمين.

وقد عمد بعض الخلفاء العباسيين إلى حمل القضاة على السير وفق رغباتهم ليكسبوا أعمالهم صيغة شرعية، حتى امتنع كثير من الفقهاء عن تولي القضاء خشية أن يحملهم الخليفة على الإفتاء بما يخالف الشريعة الإسلامية. لذلك نرى أبا حنيفة النعمان يعتذر عن تولي هذا المنصب في عهد أبي جعفر المنصور، ويقول له: «اتق الله، ولا ترع في أمانتك إلا من يخاف الله. والله ما أنا مأمون الرضا، فكيف أكون مأمون الغضب؟». وكان بين أبي حنيفة ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى القاضي وحشة، لاعتراض أبي حنيفة عليه في أحكامه ـ وكان أصغر منه سناً ـ فشكاه إلى المنصور، فمنعه من الفتيا[٢].

وهناك كثير من الأمثلة تدل على أن الخلفاء العباسيين نقضوا العهد مع كثير من القواد العلويين وغيرهم بعد أن أعطوهم الأمان، وذلك عن طريق فتاوى القضاة، كما فعل أبو العباس السفاح مع ابن هبيرة، وأبو جعفر المنصور مع أبي مسلم الخراساني وعمه عبد الله بن علي، وهارون الرشيد مع يحيى بن عبد الله بن الحسن العلوي[٣].

ذلك أن ابن هبيرة تسلم من أبي جعفر المنصور كتاباً يحمل إمضاء الخليفة السفاح يعطيه فيه الأمان. ولكن لم تمض أيام حتى قتل ابن هبيرة. كذلك غدر المنصور بعمه عبد الله بن علي وبأبي مسلم الخراساني. وإلى ذلك يشير محمد النفس الزكية في رده على كتاب أبي جعفر. وأما يحيى بن عبد الله أخو محمد النفس الزكية، فقد ثار في بلاد الديلم وأقلق بال الرشيد، فندب الفضل بن يحيى البرمكي لمحاربته، فاستماله إلى الصلح على أن يكتب له الرشيد أماناً بخطه يشهد فيه القضاة والفقهاء وكبار بني هاشم. فأجابه الرشيد إلى ما طلب وأرسل إليه الأمان. ثم قدم يحيى مع الفضل. فتلقاه الرشيد بالحفاوة والإكرام. ولكنه لم يلبث أن حبسه في داره، واستفتى الفقهاء في نقض الأمان، فمنهم من أفتى بصحته، ومنهم من أفتى ببطلانه فأبطله.

وقد اتخذ الخلفاء العباسيون نظام «قاضي القضاة»[٤]. وكان يقيم في حاضرة الدولة ويولي من قبله قضاة ينوبون عنه في الأقاليم والأمصار، وأول من تلقب بهذا اللقب أبو يوسف صاحب كتاب الخراج في عهد هارون الرشيد.

---

(١) المقريزي: خطط جـ٢ ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤.

(٢) جرجي زيدان: التمدن الإسلامي جـ٢ ص ١٨٥ ـ ١٨٦.

(٣) النظم الإسلامية للمؤلف ص ٢٨٠.

(٤) كان قاضي القضاة يسمى أيضاً «أقضى القضاة».

وفي العصر العباسي الأول اتسعت سلطة القاضي، فبعد أن كان عمله مقصوراً على الفصل بين الخصوم، أصبح يفصل في الدعاوى والأوقاف وتنصيب الأولياء. وممن نبغ من القضاة في هذا العصر يحيى بن أكثم الذي قاد الجنود في عهد المأمون لمحاربة الروم، وأحمد بن أبي دؤاد قاضي القضاة في عهد الواثق الذي أخذ الفقه عن يحيى بن أكثم.

على أن أهم ما امتاز به العصر العباسي أنه أصبح في كل ولاية قضاة يمثلون المذاهب الأربعة ينظر كل منهم في النزاع الذي يقوم بين من يدينون بعقائد مذهبه[١].

ومما هو جدير بالملاحظة اتخاذ جماعة الشهود الدائمين أمام القاضي، فيحدثنا الكندي[٢] أن القاضي إذا شهد عنده أحد كان معروفاً بالسلامة، قبله القاضي، وإذا كان غير معروف بها أوقف، وإذا كان الشاهد مجهولاً لا يعرف سئل عنه جيرانه، فإنه ذكروه به من خير أو شر عمل به. وكان غوث بن سليمان في خلافة أبي جعفر المنصور، أول من سئل عن الشهود بمصر في السر، ويرجع ذلك إلى كثرة شهادة الزور في زمنه. وقد عين القاضي مفضل بن فضالة رجلاً يسمى «صاحب المسائل» مهنته الوقوف على حالة الشهود. كما أن القاضي العمري الذي ولي قضاء مصر من قبل الرشيد سنة ١٨٥ هـ دون أسماء الشهود في كتابه، وحذا القضاة حذوه في هذا العمل. وبلغ من اهتمام القاضي عيسى بن المنكدر الذي ولي قضاء مصر سنة ٢١٢ هـ بأمر الشهود، أن كان يتنكر بالليل ويغطي رأسه، ويمشي في الطرقات ليسأل عنهم. ونجد في عهد بولاية القضاء في كتاب الخراج لقدامة بن جعفر أن التثبت في شهادة الشهود والمبالغة في السؤال عنهم والفحص عن وجوه عدالتهم والبحث عن حالاتهم من أهم واجبات القاضي في ذلك العصر.

وقد أدخل بعض قضاة العصر العباسي في مصر ضروباً من الإصلاح؛ فقد طهر القاضي غوث (١٣٥ - ١٤٠ هـ) القضاء من العيوب التي كانت فاشية فيه، وأخصها شهادة الزور، فكان يسأل عن الشهود سراً، فإذا تحقق من استقامتهم وحسن سيرتهم قبل شهادتهم. وكان - كما وصفه الكندي - «أعلم الناس بمعاني القضاء وسياسته». واشتهر بالعدل والاعتدال في أحكامه، وبلغ من عدله أنه جعل الخليفة المهدي وامرأته شكته إليه على قدم المساواة في الحكم، إذ ساوى بين الرجل الذي وكله الخليفة عنه وبين الخصم في مجلس القضاء.

وبلغ من نزاهة القاضي أبي خزيمة (١٤٤ - ١٥٤ هـ)، أنه كان لا يأخذ عطاءه عن اليوم الذي يقضيه بعيداً عن مجلس الحكم لغسل ثيابه أو حضور جنازة. وكان قضاة هذا العهد

(١) النظم الإسلامية للمؤلف ص ٢٨١.
(٢) كتاب القضاة ص ٤٢٣ - ٤٢٤.

يقتدون بالرسول في بعده عن مظاهر الكبرياء. فقد أثر عنه أنه كان يقضي كثيراً من حاجاته بنفسه(١). وكان أبوه عبد الله بن لَهيعة (١٥٤ ـ ١٦٤ هـ) أول قاض بمصر حضر في الاحتفال لإثبات رؤية الهلال.

وقد أدخل المفضل بن فضالة (١٦٨ ـ ١٦٩، ١٧٤ ـ ١٧٧ هـ) كثيراً من ضروب الإصلاح على نظام القضاء؛ فقد عني بالسجلات وجعلها تامة وافية، فدون فيها الوصايا والديوان. كذلك كان أول من اتخذ «صاحب المسائل»، ومهنته الوقوف على حقيقة الشهود. ويظهر أن هذا الإصلاح كان ظاهرياً. فقد قيل إن هذا الموظف كان يرتشي من بعض الناس ليقرر عدالتهم لدى القاضي، على أن المفضل فطن إلى ضرر الاستعانة بهذا الموظف، فعين عشرة رجال للشهادة، ولكن هذا العمل لم يرق في نظر الجمهور، لاتخاذه الشهود بهذه القلة، ولأنه عمل جديد لم يسبق إليه أحد من القضاة، فقال رجل يسمى إسحاق بن معاذ يقبح رأي القاضي:

سننتَ لنا في الجور حكمنا ... وصيرت قوماً لصوصاً عدولا
ولم يسمع الناس فيما مضى ... بأن العدولَ عَدِيداً قليلا(٢)

وقد نظم لهيعة بن عيسى (١٩٦ ـ ١٩٨، ١٩٩ ـ ٢٠٤ هـ) الأحباس، وكانت في أيامه على ما قاله هو لأصحابه: «سألت الله أن يبلغني الحكم فيها، فلم أترك شيئاً منها حتى حكمت فيه. وجددت الشهادة به». ولا غرو فقد جمع أموال الأحباس، وخصص نصيباً منها لأهل مصر، كما أدخل فيها المطوعة الذين كانوا يعمرون المواحيز(٣) وأجرى عليهم العطاء من الأحباس. فكان ذلك أول ما فرضت فروض القضاة. ثم سن الناس هذه السنة بعد لهيعة؛ فسميت هذه الأحباس فروض لهيعة، ثم سميت بعد ذلك فروض القاضي. على أن لهيعة أغضب أهل مصر، لأنه اتخذ ثلاثين رجلاً جعلهم بطانة له.

ولم يكن النظام القضائي خالياً من العيوب التي جعلته متمشياً مع الحالة السيئة التي سادت مصر في ذلك العصر. فقد بلغت الرشوة درجة انحطت معها نفوس القضاة، ومنهم

(١) روى البخاري أن السيدة عائشة سئلت: ما كان النبي ﷺ يصنع في البيت؟ قالت: كان في مهنة أهله، فإذا سمع الأذان خرج.

(٢) أن تنصب الإسم وترفع الخبر، وقد نصب الجزئين كما هو في هذا البيت، كما في قولهم إن حراسنا أسداً كما وردت في كلام العرب.

(٣) جمع ماحوز، وهو المكان الذي يكون بين القوم وبين عدوهم، وفيه أساميهم ومكاتبهم، وهو من استعمال أهل الشام.

عبد الرحمن بن عبد الله العمري الذي قيل إنه أصاب من الرشوة مائة ألف دينار. بل لقد شرب الخمر وأم الدور لسماع المغنيات، مما أساء إلى سمعته ونال من كرامة منصبه. وعلى الرغم مما وصل إليه هذا القاضي من الضعف اتخذ الشهود، ودون أسماءهم في سجل خاص، وحذا حذوه في ذلك من جاء بعده من القضاة.

ومن أشهر قضاة هذا العصر ابن مسروق الكندي (١٧٧ - ١٨٤ هـ)، الذي عمل على رفع شأن القضاء، وأبى أن يخضع لسلطة الوالي، ولم يحضر مجلسه كما جرت العادة إلى وقته. وكان من أثر ذلك أن القضاة لم يحضروا مجالس الحكم بعد ذلك. كما أصلح هذا القاضي ديوان القضاء، باتخاذه قمطراً تودع فيه القضايا ويختم، ثم يفض إذا جلس للقضاء.

وقد وصف لينبول[١] القاضي في مصر في عهد الأمويين وفي العصر العباسي الأول فقال: إنه كان على خبرة اكتسبها من اشتغاله بالفقه الإسلامي. وقد اشتهر لدى العامة بالاستقامة وحسن الأخلاق. وكان لمركزه أهمية ولشخصه نفوذ كبير؛ لذلك لم يكن يجري عليه ما يجري على غيره من العمال، بل ظل القاضي في كثير من الأحيان يشغل منصبه في عهد عدة ولاة. ولم تكن أسرع إلى القاضي من تقديم استقالته إذا تدخل في أحكامه الشرعية متدخل. وبلغ من محبة الناس للقضاة، أن أصبح الولاة يفكرون طويلاً إذا حدثتهم أنفسهم بالإقدام على عزلهم حتى لا يتعرضوا لكراهية الجمهور، كما لم يعد للوالي في العصر العباسي سلطة عزل القضاة، بل صارت المراسيم تصدر بتعيينهم من بغداد عادة، وأصبحت مسألة تحديد رواتبهم ودفعها موكولة إلى الخليفة نفسه».

كان للقضاء مركز ممتاز في الأندلس شأنه في سائر البلاد الإسلامية. فكان الأمير أو الخليفة الرئيس الأعلى للقضاء، لتعليق هذه الوظيفة بالدين. وكان قاضي القضاة يسمى «قاضي الجماعة» أيضاً، لأنه يكون في حضرة الدولة وحكمه نافذ في جميع أرجائها. ويشترط في القاضي أن يكون متعمقاً في الفقه مشهوداً له بالنزاهة والاستقامة، ولا يشترط أن يكون عربياً خالصاً، فكثيراً ما أسند هذا المنصب إلى بعض الموالي والمولدين والبربر. وكان يحيى بن يحيى الليثي كبير قضاة الأندلس من أصل بربري. ويختار القاضي غالباً من قضاة الأقاليم المشهود لهم بالتفوق في القضاء، أو ممن تولوا بعض مناصب الدولة الهامة[٢].

---

(١) Hist. of Egypt in the Middle Ages, pp. 39 - 40.

راجع كتاب النظم الإسلامية للمؤلف ص ٢٨٦ - ٢٨٧.

(٢) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣.

وكان قاضي الجماعة يقيم بقرطبة، ويعين من قبل الأمير أو الخليفة، وينوب عنه في الأقاليم قضاة يسمى كل منهم «مسدد خاصة». وكان القرآن والسنة مصدر التشريع في الأندلس، ويسير القضاة في أحكامهم على وفق مذهب الإمام مالك، ويقوم الحكام والولاة بتنفيذ هذه الأحكام.

وقد سار الأمويون في الأندلس على نهج الخلفاء الأمويين والعباسيين في الشرق في تولية قضاتهم قيادة الجيوش نيابة عنهم. ويقول ابن خلدون(١): إنهم كانوا يجعلون للقاضي قيادة الجهاد في عساكر الصوائف. وكان يحيى بن أكثم يخرج أيام المأمون بالصائفة إلى أرض الروم، وكذا منذر بن سعيد قاضي عبد الرحمن الناصر من بني أمية بالأندلس.

ومن اختصاصات القاضي أيضاً الإشراف على موارد الأحباس، وسجلات الفتاوى الفقهية(٢)، والإشراف على الصلاة في أيام الجمع والأعياد بالمسجد الكبير بقرطبة أو بمسجد الزهراء الذي أسسه عبد الرحمن الناصر بمدينة الزهراء والدعاء في صلاة الاستسقاء(٣). وكان القضاة في الأندلس يعرفون الإسبانية القديمة ويناقشون المتقاضين بها في مجلس الحكم(٤).

(ب) النظر في المظالم:

وإلى جانب القضاء «النظر في المظالم» وكان صاحب المظالم ينظر في كل «حكم يعجز عنه القاضي، فينظر فيه من هو أقوى منه يداً». وكان الوزير يعين أصحاب المظالم في البلاد. وقد حرص بعض الخلفاء العباسيين على الجلوس للنظر في المظالم، وقد بين الماوردي الفروق بين نظر المظالم ونظر القضاء. ومن أهمها أن لناظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ما ليس للقضاة ما يكف الخصوم عن التجاحد ومنع الظلمة من التغالب، وأنه يستعمل من الإرهاب ومعرفة الإمارات والشواهد ما يصل به إلى معرفة الحق من المبطل، وأنه يستطيع رد الخصوم إذا أعضلوا(٥)، إلى وساطة الأمناء ليفصلوا التنازع بينهم صلحاً عن تراض: وليس للقاضي ذلك إلا عند رضا الخصمين بالرد، وأنه يجوز له إحلاف الشهود عند ارتيابه فيهم والاستكثار من

---

(١) مقدمة ص ١٩٣.

(٢) أنشيء هذا السجل في سنة ٢٩١ هـ. وكان قاضي القضاة يستفتي الفقهاء في بعض القضايا المعروضة عليه، وجعل من هذه القضايا سجلاً عاماً أصبح مرجعاً هاماً لقضاة الأندلس.

(٣) كان قاضي القضاة يشرف على الصلاة أيضاً، ولذلك كان يسمى «صاحب الصلاة». واستمرت الحال على ذلك حتى أفرد الناصر للصلاة شخصاً معيناً، ولمنصب قاضي القضاة شخصاً آخر.

(٤) الخشني: القضاة بقرطبة ص ٩٦، ١٣٨.

(٥) استعصى التوفيق بينهم.

عددهم ليزول عنه الشك، وأنه يجوز أن يبتدىء باستدعاء الشهود وسؤالهم عما عندهم، وعادة القضاة تكليف المدعي إحضار بينة، ولا يسمعون البينة إلا بعد سؤاله[١].

وكانت محكمة المظالم تعقد برئاسة الخليفة أو الوالي أو من ينوب عن أحدهما. ويعين صاحب المظالم يوماً يقصده فيه المتظلمون إذا كان من الموظفين ليتفرغ لأعماله الأخرى. أما إذا انفرد بالمظالم نظر فيها طوال الأسبوع. وتنعقد محكمة المظالم في المسجد، ويحاط صاحب المظالم بخمس جماعات لا ينتظم عقد جلساته إلا بحضورهم.

١ ـ الحماة والأعوان، وكانوا من القوة بحيث يستطيعون التغلب على من يلجأ إلى العنف أو يحاول الفرار من وجه القضاء.

٢ ـ الحكام، ومهمتهم الإحاطة بما يصدر من الأحكام لرد الحقوق إلى أصحابها، والعلم بما يجري بين الخصوم، فيلمون بشتات الأمور الخاصة بالمتقاضين. وكان القضاة يستفيدون من وراء حضورهم هذه الجلسات، إذا كانوا يستطيعون تطبيق الأحكام على ما يعرض أمامهم من القضايا في جلساتهم.

٣ ـ الفقهاء، وكان صاحب المظالم يرجع إليهم فيما أشكل عليه من المسائل الشرعية.

٤ ـ الكتاب، ويقومون بتدوين أقوال الخصوم، وإثبات ما لهم وما عليهم من الحقوق.

٥ ـ الشهود، ومهمتهم إثبات ما يعرفونه عن الخصوم والشهادة على أن ما أصدره القاضي من الأحكام لا ينافي الحق والعدل. ومن اختصاصات قاضي المظالم:

١ ـ النظر في القضايا التي يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة إذا انحرفوا عن طريق العدل والإنصاف، وعلى عمال الخراج إذا اشتطوا في جمع الضرائب وكتاب الدواوين إذا حادوا عن إثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة.

٢ ـ النظر في تظلم المرتزقة إذا نقصت أرزاقهم أو تأخر ميعاد دفعها لهم.

٣ ـ تنفيذ ما يعجز القاضي والمحتسب عن تنفيذه من الأحكام.

٤ ـ مراعاة إقامة العبادات كالحج والأعياد والجمع والجهاد[٢].

(حـ) الحسبة:

وكانت سلطة القاضي موزعة بينه وبين المحتسب وقاضي المظالم. فوظيفة القاضي فض المنازعات المرتبطة بالدين بوجه عام؛ ووظيفة المحتسب النظر فيما يتعلق بالنظام العام والجنايات

---

(١) الأحكام السلطانية ص ٦١ ـ ٧٢. (٢) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٧٣ ـ ٨١ بتصرف.

أحياناً مما يستدعي الفصل فيها إلى السرعة؛ ووظيفة قاضي المظالم الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضي والمحتسب. وكان القضاء والحسبة يسندان في بعض الأحيان إلى رجل واحد مع ما بين العملين من التباين: فعمل القاضي مبني على التحقيق والأناة في الحكم. أما عمل المحتسب فمبني على الشدة والسرعة في العمل[١].

وكان عمر بن الخطاب أول من وضع نظام الحسبة، وكان يقوم بعمل المحتسب ولو أن هذا اللفظ لم يستعمل إلا في عهد الخليفة المهدي العباسي (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ). وقد رؤي عمر يضرب جمالاً ويقول له: «حملت جملك ما لا يطيق». فالمحتسب إذاً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحافظ على الآداب والفضيلة والأمانة، وينظر في مراعاة أحكام الشرع، ويشرف على نظام الأسواق، ويحول دون بروز الحوانيت حتى لا يعوق ذلك نظام المرور، ويستوفي الديون، ويكشف على الموازين والمكاييل تجنباً للتطفيف[٢]، ويعاقب من يعبث بالشريعة أو يرفع الأثمان، ويمنع التعدي على حدود الجيران، وارتفاع مباني أهل الذمة على مباني المسلمين. وقد أجمل ابن خلدون[٣] أعمال المحتسب في هذه العبارة فقال:

«ويبحث عن المنكرات، ويعزر (يزجر) ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة، مثل المنع من المضايقة في الطرقات، ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل، والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة، والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين. ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء[٤]، بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه. وليس له إمضاء الحكم في الدعاوى مطلقاً فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش وغيرها، وفي المكاييل والموازين. وله أيضاً حمل المماطلين على الإنصاف، وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا إنفاذ حكم، وكأنها أحكام ينزه القاضي عنها لعمومها وسهولة أغراضها، فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها، فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء: وقد كان في كثير من الدول الإسلامية، مثل العبيديين بمصر والمغرب والأمويين بالأندلس، داخلة في عموم ولاية القاضي يولي فيها باختياره».

---

(١) المصدر نفسه ص ٦١ ـ ٧٢.

(٢) وكان لها دار خاصة، فيطلب المحتسب الباعة إلى هذه الدار في أوقات معينة، ومعهم موازينهم وسنجهم ومكاييلهم فيعايرها، فإن وجد فيها خللا صادرها، وألزم صاحبها بشراء غيرها أو أمر بإصلاحها، وقد بقيت هذه الدار طوال عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية ـ المقريزي: خطط جـ ١ ص ٤٦٣ ـ ٤٦٤.

(٣) مقدمة ص ١٩٦.

(٤) أي طلب رد عدوان الغير.

أما في الأندلس فكان يتولى الحسبة في كل مدينة موظف يسمى المحتسب أو صاحب السوق، لأن معظم عمله متعلق بالإشراف على أهل الأسواق. وكان يشترط فيمن يتولى هذه الوظيفة أن يكون من المشهود لهم بالعلم والمعرفة والفطنة، ويختار من القضاة لأن عمله مرتبط بالقضاء. وقد حدد المقري[١] سلطة المحتسب في الأندلس، ومما ذكره يتبين أن هذا النظام بلغ شأواً بعيداً من الدقة، حتى إن أثمان الحاجيات كانت محددة، والإشراف على الباعة بلغ مبلغاً كبيراً، كما يتبين أن المحتسبين كان «لهم في أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما تتدارس أحكام الفقه، لأنها عندهم تدخل في جميع البياعات»[٢].

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣.
(٢) ورد في الأصل المبتاعات ولعلها محرفة عما أثبتناه.

الباب السادس

الحالة الاقتصادية

تمهيد:

حث الإسلام المسلمين على طلب الكسب. وهذا الدين الحنيف ينظم الحياة الدنيوية والأخروية ويدعو إلى الاهتمام بهما معاً. وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى في سورة القصص (٢٨ : ٧٧) ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين﴾.

لذلك نرى أن العبادة في الإسلام لا تقتصر على أعمال الخشوع كالصلاة والصيام وغيرها من الأمور الروحية، بل تتناول كل حياة الإنسان العملية أيضاً. فهذا الإمام أبو حنيفة مؤسس المذهب الحنفي في القرن الثاني للهجرة يقول: «طلب الكسب فضيلة كما أن طلب العلم فريضة». وها هو الإمام محمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة ٢٣٤هـ وصاحب الإمام أبي حنيفة يضع «كتاب الاكتساب في الرزق المستطاب» يبين فيه أن طلب الكسب واجب على كل مسلم ومسلمة، كما يبين أنواع المكاسب، وحصرها في التجارة والإجارة والزراعة والصناعة.

وهذا حجة الإسلام الإمام الغزالي يفرد في كتاب «إحياء علوم الدين» باباً في آداب الكسب والمعاش، ويستشهد بالآيات القرآنية التي تحث على الكسب والعمل، إذ يقول الله سبحانه وتعالى في سورة المزمل (٧٣ : ٢٠) ﴿وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله﴾. وبذلك وضع الدين الحنيف السعي في الأرض ابتغاء الكسب عن طريق التجارة أو غيرها في مرتبة الجهاد. ويقول الله جل شأنه في هذا المعنى ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً [أي خيراً] كثيراً وسعة﴾ [النساء ٤ : ١٠٠]. وهذا هو العلامة ابن خلدون يخصص الباب الخامس من الكتاب الأول ويشتمل على ثلاثة وثلاثين باباً[١] في مقدمة تاريخه «في المعاش ووجوبه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك من

---

(١) مقدمة ص ٤٠٠ ـ ٤٢٩.

الأحوال»، مما لا يدع مجالاً للشك في أن الإسلام عني عناية شديدة بهذه الحياة الدنيا التي هي مزرعة الآخرة كما جاء في الأثر الشريف. وبذلك وضع الإسلام السعي في الأرض ابتغاء الكسب عن طريق التجارة أو غيرها في مرتبة الجهاد على ما تقدم.

وكانت خزائن العباسيين تفيض بالأموال التي كانت تجبى من الضرائب، وقد بلغت في أيام الرشيد ما يقرب من اثنين وأربعين مليون دينار. عدا الضريبة العينية التي كانت تؤخذ مما تنتجه الأرض من الحبوب، حتى قيل إن الرشيد كان يستلقي على ظهره وينظر إلى السحابة المارة ويقول: «إذهبي حيث شئت يأتني خراجك»[١].

على أن دخل الدولة العباسية أخذ ينقص شيئاً فشيئاً. حتى أصبح في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أقل من جزء واحد وعشرين جزءاً مما كان عليه في عهد هارون الرشيد، وأصبحت الحروب عبئاً ثقيلاً لا يحتمل مما نهك قوة هذه الدولة.

وإذا ذكرنا رخاء الدولة وحسن حالة الزراع ونفاق التجارة، فإننا لا نعجب إذا علمنا أن دخل الدولة العباسية في عهد هارون الرشيد بلغ ٢٧٢ مليون درهم وأربعة ملايين ونصف من الدنانير في السنة، وأن نفقة الخليفة المأمون بلغت ستة آلاف دينار كل يوم أي ٢,١٩٠,٠٠٠ دينار في السنة[٢].

وقد بلغ ما حمل إلى الرشيد من المال في كل سنة نحواً من خمسمائة ألف درهم من الفضة وعشرة آلاف دينار من الذهب. وكان المال الذي يأتي من الموارد المتقدمة ينفق على صالح الدولة، فتدفع منه أرزاق القضاة والولاة والعمال وصاحب بيت المال وغيرهم من الموظفين، وتدفع منه أعطيات الجند، أي رواتبهم التي تصرف لهم في أوقات معينة من العام، كما ينفق منه على كري الأنهار وإصلاح مجاريها وكري الترع التي تأخذ من الأنهار الكبيرة لتوصيل الماء إلى الأراضي البعيدة، وحفر الترع للزراعة وغيرها، وكذا النفقة على المسجونين وأسرى المشركين من مأكل ومشرب وملبس ودفن من يموت منهم، وعلى المعدات الحربية والعطايا والمنح التي يمنحها العلماء والأدباء كما تقدم.

ومع توافر موارد الدولة في العصر العباسي، كانت خزائن الخلفاء تفيض بما كانوا يجبونه من الضرائب حتى عم الرخاء ورخصت أسعار الحاجيات. يقول الخطيب البغدادي[٣]: «سمعت داود بن صغير بن شبيب بن رستم البخاري يقول: رأيت في زمن أبي جعفر كبشاً

(١) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٧٠.

(٢) Ameer Aly, p. 426 et seq.

(٣) تاريخ بغداد جـ ١ ص ٧٠.

بدرهم، وحملاً بأربعة دوانق (والدانق سدس درهم)، والتمر ستين رطلاً بدرهم، والزيت ستة عشر رطلاً بدرهم، والسمن ثمانية أرطال بدرهم... وكان ينادى على لحم البقر تسعين رطلاً بدرهم، ولحم الغنم ستين رطلاً بدرهم، ثم ذكر العسل فقال عشرة أرطال، والسمن اثني عشر رطلاً».

ويرجع الفضل في ازدياد موارد الدولة في العصر العباسي الأول إلى اهتمام الخلفاء بشئون البلاد الاقتصادية، والعمل على تنمية مواردها، وعنايتهم بالزراعة والتجارة وغيرها من شئون الاقتصاد والمال، كما تفعل الدول في العصر الحديث.

١ ـ الزراعة:

وجه خلفاء العصر العباسي الأول عنايتهم إلى تشجيع الزراعة، فنشطوا في حفر الترع والمصارف وإقامة الجسور والقناطر. وكانت الأراضي الواقعة بين نهري دجلة والفرات من أخصب بقاع الدولة العباسية. وكانت الحكومة تشرف على إدارتها إشرافاً مباشراً. وتعمل على تحسين زراعتها وتنمية مواردها. وامتدت في هذه الأراضي شبكة من الترع والمصارف، حتى أصبحت قوية الخصب، تكثر بها المزارع والبساتين، وكانت تعرف بأرض السواد[١]، ولكثرة ما بها من الشجر والزرع والخضرة. ويحد السواد من حديه: الموصل إلى عبادان طولاً، ومن العذيب بالقادسية إلى حلوان غرباً، وتبلغ مساحته، على ما ذكره الخطيب البغدادي[٢] ٣٦,٠٠٠,٠٠٠ جريب، والجريب عشرة آلاف ذراع[٣].

ولما كان ماء الفرات لا يكفي لري أراضي السواد أو يساعد على خصبها، عمل أبو جعفر المنصور على تنظيم وسائل الإرواء بشق كثير من الجداول والترع، على حين أمكن الاحتفاظ بماء دجلة لإرواء الأراضي الواقعة على شاطئه الغربي وعلى ساحل الخليج الفارسي، وأمكن بذلك إرواء جميع الأراضي الممتدة بين الصحراء العربية وجبال كردستان وتحويلها إلى أرض نضرة تدر على أهلها الخير والماء. كذلك مد المنصور قناة من دجيل الذي يأخذ ماءه من دجلة وقناة أخرى من كرخايا الذي يأخذ ماءه من الفرات، ووصلهما بمدينة بغداد في عقود محكمة

---

(١) يلحق العرب لون الخضرة بالسواد فتضع أحدهما محل الآخر، من ذلك قوله تعالى حين ذكر الجنتين «مدهامتان» (سورة الرحمن ٥٥: ٦٤) أي خضراوان، فوصفت الخضرة بالدهمة وهي من سواد الليل. وقال الخطيب البغدادي (تاريخ بغداد جـ ١ ص ٢٤) في موضع آخر: إنما سمي السواد سواداً لأنهم قدموا يفتحون الكوفة، فلما نظروا سواد النخل قالوا: ما هذا السواد؟

(٢) تاريخ بغداد جـ ١ ص ١١.

(٣) انظر لفظ السودان في معجم البلدان لياقوت، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي جـ ١ ص ١١، ١٢، ٢٤.

بالصاروج (وهو حجر الكلس) والآجر. فكان ماء كل قناة منها يدخل المدينة وينفذ في الشوارع والدروب والأرباض، ولا ينقطع صيفاً ولا شتاء[1]. كما ساق هذا الخليفة الماء إلى الكرخ، فجرى فيها نهر القلائين، نسبة إلى محلة كبيرة واقعة شرقي الكرخ كان يقلى فيها السمك، ونهر البزازين، ونهر الدجاج، وقد سمي بهذا الاسم لأن بائعي الدجاج كانوا يقفون عنده لبيع ما معهم من الدجاج.

ويجري ببغداد نهر عيسى الأعظم الذي يأخذ ماءه من الفرات، ويمر بسطوح فيروز سابور، حتى يصل المحول التي تبعد عن بغداد بفرسخ واحد. ويتفرع منه أنهار تخترق بغداد، ويصب في دجلة عند قصر عيسى بن علي العباسي. وعلى كل قنطرة من القناطر المقامة عليه سوق تحيط بجانبه البساتين والمتنزهات. وقد امتدت القنوات إلى جميع أرباض بغداد. فغرس أهلها النخيل الذي كانت زراعته مقصورة على البصرة والكوفة والسواد، كما غرسوا الأشجار ونسقوا البساتين والحدائق. ويأخذ الصراة من نهر عيسى عند المحول ويسقي أرض بادرايا، ويستمر في سيره إلى أن يصل إلى بغداد ويصب في دجلة، ومن أنهار بغداد نهر كرخايا الذي يأخذ ماءه من نهر عيسى جنوبي المحول، وتتفرع منه جداول تجري في سوق الكرخ. ومنها رفيل، ويأخذ ماءه من نهر عيسى ويصب في دجلة.

وقد عني خلفاء العصر العباسي الأول بالزراعة وفلاحة البساتين التي قامت على دراسة علمية، بفضل انتشار المدارس الزراعية التي كان لها أثر كبير في إنارة عقول المسلمين، فتوسعوا في البحث النظري ودرسوا أنواع النباتات وصلاحية التربة لزراعتها، واستعملوا الأسمدة المختلفة لأنواع النبات.

وسار الخلفاء العباسيون على سياسة حكيمة ترمي إلى عدم إرهاق المزارعين بالضرائب، وعني بعض هؤلاء الخلفاء بوضع قواعد ثابتة لأنواع الخراج بحسب نوع المحصول وجودة الأرض، وراعوا خفض الضرائب إذا قل المحصول لسبب من الأسباب.

وكذلك عني الخلفاء العباسيون بشئون الزراع وعملوا على تخفيض الضرائب عليهم؛ فألغى أبو جعفر المنصور الضريبة النقدية التي كانت تفرض على الحنطة والشوفان، وأحل محلها نظام «المقاسمة»، وهو دفع الضرائب نوعاً بنسبة خاصة من المحصول. على أن النظام النقدي القديم ظل على النخيل والفواكه وأشباهها. ولما أدى ذلك النظام الجديد إلى اشتطاط الحياة في جمع الضرائب، توسع الخليفة المهدي (١٥٨ - ١٦٩هـ) في تطبيق النظام الذي أدخله أبوه

(١) اليعقوبي. كتاب البلدان ص ٢٥٠.

المنصور فعممه، وجعل الضرائب تجبى دائماً بالنسبة للمحصول وإذا كانت الأرض ممتازة الخصب ولا تحتاج إلى عمل كثير، ألزم المزارع بأن يقدم إلى الحكومة نصف غلة أرضه، وإذا صعب عليه إرواؤها، دفع الثلث أو الربع أو الخمس تبعاً لحالة الأرض.

أما الكروم والبساتين والنخيل فكانت غلتها تقوَّم بالمال ويدفع عنها النصف أو الثلث، ويسمى هذا النظام المقاسمة، تمييزاً له عن النظام القديم الذي كان يعرف بالمحاسبة، والذي كان يقضي بأن تجبى الضريبة بالنسبة لمساحة الأرض.

وفي سنة ٢٠٤هـ خفض الخليفة المأمون العباسي (١٩٨ ـ ٢١٨هـ) ضريبة الأرض مرة أخرى. فأصبح يجبى الخمسان بدلاً من النصف، حتى على أكثر الأرض إنتاجاً. أما في بابل والعراق والجزيرة وفارس، حيث نجد كثيراً من كبار الملاك والمزارعين. فقد كانت هناك ضرائب مختلفة وفق شروط الصلح التي عقدت أيام الفتح، وكان أهالي شمالي فارس وخراسان يتمتعون بنفس هذا الامتياز.

وقد أقطع أبو جعفر المنصور بعض أعيان دولته قطائع من الأرض ببغداد يعمرونها ويسكنونها ويحصلون على غلتها مكافأة لهم على ما قدموه من الخدمات الجليلة وسرعان ما عمرت هذه القطائع واتسع نطاقها وازدحمت بالسكان، وأصبحت كل قطيعة منها تعرف باسم الرجل أو الطائفة التي تسكنها: فنَرى من بينها قطيعة العباس بن محمد بن عبدالله بن العباس، وقطيعة الربيع بن يونس، وكان بها تجار خراسان من البزازين أي بائعي الثياب، وقاطعة صالح بن المنصور[١].

وقد ساد هذا النظام في العصر العباسي حين تولى الأتراك حكم الدولة العباسية فكانوا يقطعون الولايات على أن يؤدوا لدار الخلافة مبلغاً من المال، عدا الهدايا والطرف، كما كان متبعاً في نظام الإقطاع الذي شمل أوربا في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، وسار عليه الخلفاء العباسيون قبل المعتصم. فولى الرشيد عبد الملك بن صالح مصر صلاتها وخراجها، وولى المأمون عبدالله بن طاهر بن الحسين هذه البلاد (٢١١ ـ ٢١٣هـ) على هذا النحو الإقطاعي. وحذا المعتصم حذو الرشيد والمأمون وتلك السياسة، فولى أشناس التركي مصر (٢١٩ ـ ٢٢٩هـ)، وقلد الواثق إيتاخ ولاية هذه البلاد (٢٣٠ ـ ٢٣٥هـ)[٢].

---

(١) راجع كتاب البلدان لليعقوبي، ص ٢٤٢ ـ ٢٥٤. انظر ما ذكرناه عن قطائع بغداد في الباب السابع من هذا الجزء.

(٢) الكندي: كتاب الولاة والقضاة ص ١٦٣ و١٧٣ و١٨٠ و١٨٤ و١٩٥ ـ ١٩٧، ١٩٨ ـ ٢٠٢.
Corbert, J.R.A.S. (1891). p. 528.

وكانت الحنطة تزرع في كافة بلاد الدولة العباسية حيث يتوافر الماء، أما الذرة فقد بقيت زراعته مقصورة على جنوبي جزيرة العرب، وكان الأهلون يزرعون كذلك الشعير والأرز والنخيل وأشجار الفاكهة.

وكان الكرم يغرس بكثرة في جميع أنحاء الدولة العباسية. وتمتاز كروم اليمن بطول عناقيدها. يحكى أن بعض عمال هارون الرشيد حمل إليه وهو يؤدي فريضة الحج عنقودين من العنب محملين على بعير. وذكر ابن حوقل في كتابه «المسالك والممالك» أن أهل مدينة زُغر القريبة من البحر الميت كانوا يلقحون كرومهم وكروم فلسطين كما يلقح النخل بالطلح.

ومن الفواكه التي أدخلت زراعتها في أراضي الدولة العباسية النارنج، وقد ذكر المسعودي أنه جلب من الهند، ثم زرع بعمان والبصرة والعراق والشام. وذكر المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» أن ثمار النارنج في فلسطين كانت أحسن منها في غيرها من البلاد.

وكانت بلاد الشام تشتهر بتفاحها الذي أصبح مضرب المثل في الحسن، كما كثرت بفلسطين أشجار الزيتون وخاصة في بلدة نابلس التي كان أهلها يستخرجون منه الزيت.

وكان قصب السكر يزرع في البصرة وصور. وبلغ من شهرة صور بزراعته أن اتخذ بعض أهالي البندقية بها مزرعة قصب في أيام الحروب الصليبية، كما بلغت زراعة القصب شأواً كبيراً في العصر العباسي الأول.

وجلب العرب الجاموس من الهند ـ وهي موطنه الأصلي ـ ثم نقل إلى العراق في عهد الأمويين. وروي أن أهل الشام في ذلك العهد لما شكوا من كثرة هجوم السباع عليهم، أمرت الحكومة بوضع أربعة آلاف جاموسة على حدود بلادهم من ناحية الشمال، لأن الجاموس كان يعتبر أكبر عدو للأسود.

وكان أهالي فلسطين يعنون بتربية الجاموس ويعتمدون في غذائهم على لبنه ولحمه. أما البقر فلم يكن لحمه مستساغاً، وإنما كان يربى للانتفاع بلبنه. وكان أبو بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب يوصي بلبن الغنم ولحم الضأن.

وقد حاول مسلمو المغرب وصقلية زراعة بعض النباتات التي لا تنمو إلا في البلاد الحارة كالتوابل والقطن وقصب السكر والتوت؛ ولكن زراعة التوابل لم يقدر لها النجاح، على حين نجحت زراعة القطن وقصب السكر والتوت في بعض جهات الأندلس وصقلية[1].

---

(١) Heyd: History du Commerce, tome I.p.50.

واشتهرت الأندلس بزراعة القمح والشعير والذرة والفواكه كالبرتقال والكمثري والتفاح والتين والعنب والرمان والخوخ الذي كانت تكثر زراعته في السهول، والموز الذي تكثر زراعته في وديان البحر الأبيض المتوسط، كما اشتهرت بزراعة الأرز وقصب السكر والزيتون. وعني أهل الأندلس بزراعة الكتان والقطن لصناعة الملابس، والتوت لتربية دود القز. وانتفع الأمويون بمياه الأنهار الكبيرة كتاجة والوادي الكبير والوادي اليانع وإبرو، وأقاموا عليها السدود وشقوا الجداول، واستخدموا هذه المياه في الزراعة التي أحرزوا قصب السبق فيها. ووضع الأمويون تقويماً للزراعة عرف بالتقويم القرطبي الذي أصبح دليلاً ودستوراً لزراعة النباتات المختلفة في مواعيدها، وقد أخذه عنهم غيرهم من الأمم.

٢ ـ الصناعة:

كذلك كان للصناعة نصيب كبير من عناية خلفاء العصر العباسي الأول الذين عنوا باستعمال موارد الثروة المعدنية، فاستخرجوا الفضة والنحاس والرصاص والحديد من مناجم فارس وخراسان. وكان بالقرب من بيروت مناجم للحديد ساعد وجودها على نمو بعض الصناعات المعدنية. كما استخرجوا الخزف والمرمر من تبريز، والملح والكبريت من شمالي فارس، والقار والنفط من بلاد الكرج.

واشتهرت البصرة بصناعة الصابون والزجاج، ولا سيما في عهد الخليفة المعتصم الذي شيد مصانع جديدة لها في بغداد وسامرا وغيرها من المدن؛ كما أنشأ مصانع للورق في عدة مدن وجلب لها الأساتذة، والصناع من مصر التي اشتهرت بصنع الورق منذ عهد بعيد، كما أنشأ العباسيون دوراً للطراز في أهم مدن فارس. وكذلك تفوق المسلمون في صناعة الحرير والأطلس والمنسوجات الحريرية المشجرة والسجاجيد. ومما يدل على تفوق المسلمين في الصناعة، هذه المنسوجات النفيسة التي أخرجتها أنوال فارس والعراق والشام، فامتازت الكوفة بكوفياتها الحريرية وغيرها، وتفوقت خوزستان بمنسوجاتها. وكان للمنسوجات الحريرية المشجرة الجميلة التي تصنع في تستر ولسجاجيد قرقب وحراير سوس شهرة عظيمة في أسواق العالم في ذلك الحين. وامتازت دمشق بصناعة الأقمشة الحريرية التي لا تزال تسمى «الدمقس» واشتهرت مدن خراسان بصناعة البسط والستور والمنسوجات الصوفية على اختلاف أنواعها.

كما اشتهرت مصر في ذلك العصر بصناعة المنسوجات، فكان يصنع في مدينة تنيس الثياب الملونة والفرش، ويعمل بها للخليفة ثوب يقال له البدنة بلغت قيمته ألف دينار، ليس فيه من الغزل سدى ولا لحمة سوى أوقيتين، أما بقيته فمن الذهب الخالص المحكم الصنعة،

ولم يحفظ لنا التاريخ أن قطعة النسيج من الكتان بلغت قيمتها مائة دينار إلا في مدينتي تنيس ودمياط، مما يدل على مدى تقدم صناعة المنسوجات المصرية ودقتها في ذلك العصر كما كانت تصنع الثياب الصوفية في مدينة القيس.

واشتهرت بلاد الشام بصناعة الزجاج والخزف، واتخذ أهلها سمة (طرازاً) خاصة بهم في زخرفة الزجاج. وفي مستهل القرن الثاني للهجرة كان الزجاج الملون المطلى بالميناء يصدر إلى كثير من جهات العالم. وبلغت هذه البلاد في نقش الزجاج بالذهب والألوان الأخرى درجة كبيرة من الإتقان(١).

وكان ببغداد عدد كبير من دور الصناعة، وقد قيل إنه كان بها أربعمائة رحى مائية، وأربعة آلاف معمل لصنع الزجاج، وثلاثون ألف معمل لصنع الخزف(٢). ويلوح لنا أن في هذا القول شيئاً كبيراً من المبالغة. وكان لكل حرفة سوق خاصة، كسوق الحدادين وسوق النجارين وسوق البزازين(٣). وقد أسس الخليفة المنصور أسواق الكرخ في الجهة الجنوبية بين الصراة ونهر عيسى لتكون مركزاً للصناعة والتجارة.

واشتهرت بغداد بالصياغة التي نبغ فيها الفرس، وبلغت صناعتهم شأواً بعيداً في الدقة والجمال، حتى إنهم كانوا يرصعون الزجاج بالجواهر، ويكتبون عليه بالذهب المجسم، ويصنعون للملوك أقداحاً تبهر الأبصار، وكانوا يتخذون على الجامات (الكؤوس) صوراً، صوروا عليها طيوراً تطير، ومن فوقها العقبان تنقض عليها، وهي تحاول الإفلات من مخالبها، مما يأخذ بالألباب ويستوقف الأنظار(٤).

واشتهرت مصر من عهد الفراعنة بصناعة المعادن، ولا سيما صياغة الذهب والفضة، وضربوا بسهم وافر في صناعة الأدوية والعقاقير.

واشتهرت مصر في العصر العباسي الأول بصناعة المراكب النيلية التي كانت تسير في النيل تحمل حاصلات البلاد بين جهات الوجهين البحري والقبلي، كما اشتهرت بصناعة السفن التي تشحن بالأسلحة والمقاتلة لغزو بلاد الدولة الرومانية الشرقية عن طريق الاسكندرية ودمياط وتنيس والفرما.

---

(١) أمير علي: مختصر تاريخ العرب، ترجمة ص ٣٦٤ - ٣٦٥.

(٢) أمين زكي: كتاب عمران بغداد ص ٥٠.

(٣) المصدر نفسه ص ١٠٨.

(٤) نخلة المدور: حضارة الإسلام في دار السلام ص ٢٥.

وكذا اشتهرت بلاد الأندلس باستخراج المعادن من مناجمها المختلفة، وعلى الأخص الذهب من المناجم الواقعة على نهر تاجة، والفضة ببعض جهات قرطبة، والحديد من جبال طليطلة. والرصاص من غربي قرطبة، والنحاس بنواحي طليطلة وشمالي الأندلس. وقال المقري[١] إنه كان بالأندلس عدة مقاطع للرخام الأبيض والخمري والأحمر والمجزع، ووصفها وصفاً شائقاً وذكرأماكنها. وكانت قرطبة مركزاً هاماً لصناعة الجلود. كما اشتهرت بلاد الأندلس بصناعة السفن وآلات الحرب من التراس والرماح والسروج واللجم والدروع.

كما اشتهرت الأندلس باستخراج الزيت من الزيتون، والنبيذ من الكروم، ومهر أهلها في استخراج العقاقير من النباتات المختلفة التي أخذها عنهم الأوربيون فيما بعد[٢].

أسس محمد بن علي بمدينة غرناطة حديقة للنباتات أبيح دخولها للأطباء لدراسة النباتات النادرة، وقد قام ابن البيطار النباتي المشهور الذي عاش في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) بغرس نباتات الشام وآسيا الصغرى ومصر وفارس. ثم ضمه الملك الكامل الأيوبي إلى حاشيته وأصبح رئيس النباتيين؛ وألف كتابه المشهور في النباتات ومات سنة ٦٤٦هـ (١٢٤٨م).

٣ ـ التجارة:

ولم تقتصر عناية الخلفاء على الزراعة والصناعة وحدهما، بل اهتموا كذلك بتسهيل سبل التجارة، فأقاموا الآبار والمحاط في طرق القوافل، وأنشأوا المنائر في الثغور، وبنوا الأساطيل لحماية السواحل من إغارات لصوص البحار، وكان لذلك أثر بعيد في نشاط التجارة الخارجية والداخلية، وأصبحت قوافل المسلمين تجوب البلاد وسفنهم تبخر عباب البحار.

وقد شجع خلفاء العصر العباسي الأول التجارة تشجيعاً غير مباشر بما أدخلوا من مظاهر الترف إلى بلاطهم، وذلك بتمهيد الطرق وتأسيس مدينة بغداد التي ساعد موقعها على أن تصبح سوقاً تجارياً من الطراز الأول. وكانت دمشق مركزاً هاماً للقوافل الآتية من آسيا الصغرى أو من أقاليم الفرات إلى بلاد العرب ومصر، وأصبح الفرات ودجلة شريانين تجاريين هامين في داخل بلاد الدولة العباسية[٣].

---

(١) نفخ الطيب جـ ١ ص ٩٥.

(٢) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ٩٥ ـ ٩٦.

(٣) Heyd, Tome. I,p. 26

وبعد أن أسس العباسيون مدينة بغداد على شاطىء دجلة، حفروا قناة للملاحة تأخذ ماءها من الفرات عبر العراق، ووصلوها بحاضرة دولتهم، وأصبحت هذه القناة تربط هذه الحاضرة بآسيا الصغرى وسورية وبلاد العرب ومصر، وكانت تأتي إليها القوافل من آسيا الوسطى مارة ببخارى وفارس(١).

وقد ذكر الخطيب البغدادي(٢) وياقوت عند كلامهما على سبب اختيار المنصور موقع بغداد، أن أحد الدهاقين، وهم كبار ملاك الأراضي، حسن له النزول ببغداد فقال له: إنك تصير بين أربعة طساسيج (جمع طسوج وهو الناحية): طسوجان في الجانب الغربي، وطسوجان في الجانب الشرقي. فاللذان في الغربي قطربل وبادريا واللذان في الشرقي نهر بوق وكلواذي، فإن أجدب طسوج وتأخرت عمارته كان الآخر عامراً. وأنت يا أمير المؤمنين على الصراة ودجلة تجيئك الميرة من الغرب، وفي الفرات من الشام والجزيرة ومصر، وتحمل إليك طرائف الهند والبصرة وواسط في دجلة وتجيئك ميرة أرمينية وأذربيجان وما يتصل بها في تامُرا، وتجيئك ميرة الموصل وديار بكر وربيعة. وأنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة، فإذا قطعت الجسر أو القنطرة لم يصل إليك عدوك، وأنت قريب من البر والبحر والجبل».

وبعد أن بنى المنصور مدينة بغداد، وضع أساس الكرخ في الجهة الجنوبية منها بين الصراة ونهر عيسى، ونقل إليها أسواق بغداد، وأفرد لكل حرفة سوقاً خاصة. ومن هذه الأسواق، سوق العطارين، وسوق الحدادين، وسوق النجارين، وسوق البزازين، وسوق الرياحين (حيث تباع الزهور)، وسوق القصابين. وقد قيل إن المنصور أمر بجعل هذه السوق في آخر الأسواق وقال: اجعلوا سوق القصابين في آخر الأسواق، فإنهم سفهاء وفي أيديهم الحديد القاطع(٣).

ويقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في مقدمة كتاب التبصر بالتجارة لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ص ٣) عن مدينة البصرة التي أصبحت في العصر العباسي الأول من أهم مراكز التجارة: «وهي باب بغداد الكبير، ومدخل دجلها المتدفق بضروب المتاع وأنواع السلع المجلوبة من أطراف الدنيا. . . إذ كانت مقصد القوافل الواردة من كل حدب وصوب ومحط رجال الشرق والغرب من مجاهل الصين إلى مفاوز الصحراء الكبرى. ولذلك استفحل بها العمران، وكثرت فيها المصانع والصنائع، وصارت واسطة العرب والعجم، وحق لها أن تتلقب بقبة السلام، كما سماها عمر بن الخطاب رضي الله عنه».

---

(١) Heyd, Tome I, p. 27

(٢) تاريخ بغداد جـ ١ ص ١ ـ ٢٣.

(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ جـ ١ ص ٨٠.

وكان طريق القوافل الكبرى التي يجتازها الحجاج السوريون يبعد عن البحر بعض الشيء لأنه كان يمر شرقي نهر الأردن خارج فلسطين. ولكن زيارة المسجد الأقصى بيت المقدس وقبر إبراهيم الخليل كانت من الأمور المقدسة عند المسلمين. وكان كثير من الحجاج يحجون بيت المقدس بعد أداء فريضة الحج في مكة، فيتقابلون مع حجاج الغرب المسيحيين. وبذلك أتيحت للتجار الفرصة لتبادل السلع. وفي ١٥ من سبتمبر من كل عام يقام في بيت المقدس سوق كبيرة يفد إليها تجار الأمم المختلفة. وكان أكثر الحجاج يجتمعون في دمشق التي كانت ملتقى عدة طرق هامة، ثم يسيرون في جماعات كبيرة إلى مكة، ومنها يتفرقون بعد أداء فريضة الحج.

وقد أدت هذه الحركة المستمرة إلى انتشار السلع في أسواق دمشق. ولما كانت المدن البحرية مثل طرابلس وبيروت وصور وعكة لا تبعد عن سوق دمشق الكبيرة إلا بضعة أيام، فلا يبعد أنها كانت تحصل على ما تحتاج إليه من السلع التي كانوا يبتاعونها في سوق دمشق الكبير. وهناك طريق آخر مهم يوصل إلى سورية، وهو مجرى الفرات الذي يبدأ من الخليج الفارسي وينتهي عند نقطة لا تبعد كثيراً عن البحر الأبيض المتوسط.

وكان ببلاد الشام كثير من الأسواق التي امتدت بها الحوانيت على جانبي الشوارع؛ وكان لكل طائفة من التجار قسم خاص بها؛ وللتجار الغرباء فنادق قريبة الشبه بالأسواق الكبيرة يضعون بضائعهم في أسفلها وينامون في أعلاها. وقد أقام العرب غربي مصر وفي بلاد الأندلس وصقلية دويلات تقوم بدور الوسيط في تبادل التجارة بين الشرق والغرب، وكانت قصور القيروان وقرطبة وبلرم في حاجة إلى منتجات آسيا.

وكانت سفن العرب تقطع البحر الأبيض المتوسط من ميناء أنطاكية شرقاً إلى جبل طارق في ستة وثلاثين يوماً. وتعد أنطاكية التي حصنها الخليفة المعتصم من أهم مرافق بلاد الشام التجارية، كما كانت صور ميناء حربياً أنشئت به دار للصناعة تخرج منه السفن لمحاربة البيزنطيين.

ويتضح من رحلات السندباد البحري التي وردت في كتاب ألف ليلة وليلة والتي ترجع إلى عهد هارون الرشيد، أن العرب قاموا في العصر العباسي برحلات بحرية تبدأ من بغداد وتسير في الخليج الفارسي حتى تصل إلى شبه جزيرة ملقا (وتعرف الآن بشبه جزيرة الملايو). وكان التجار يشجعون هذه الرحلات التي تجلب لهم توابل الهند وعطورها وحرير الصين.

ولا يبعد أن يكون العرب قد وصلوا إلى بلاد الصين في القرن الثاني الهجري، وأنهم كانوا من بين الأجانب الذين فتح لهم ميناء كانتون وسوقها في سنة ٨٢ هـ (٧٠٠ م). وقد أثبتت

بعض الفتن التي وقعت بهذه المدينة في سنة ١٤١هـ (٧٥٨م) وجودهم هناك[١]. كما جاوز العرب جزيرة سيلان في العصر العباسي الأول. وبعد أن كان العرب حتى أوائل هذا العصر يجوبون البحار الواقعة على ساحل الهند، أصبح من النادر أن يجوبوا الخليج الفارسي، لأنهم أخذوا يقومون برحلات طويلة إلى بلاد الصين. وقد اتخذ العرب ميناء سيراف مرسى لهذه السفن التي كانت تعود محملة بالسلع الواردة من البصرة وعمان وغيرها من هذه الجهات، وتنقل تجارة العرب والفرس إلى بلاد الصين[٢].

وفي القرن الثالث الهجري وضع أبو القاسم بن خرداذبه[٣] دليلاً للمسافرين، وصف فيه الطريق البحري الذي يبدأ مصب دجلة عند الأبلة ويصل إلى بلاد الهند والصين.

ويذكر ابن خرداذبه أن السفن العربية كانت تسير بمحاذاة الشاطىء الفارسي وساحل الهند حتى ملبار. وكان اختيار هذه الطريق يرجع إلى الرغبة في شحن البضائع وتفريغها في الموانىء المختلفة، لا إلى الخوف من التوغل في البحر. وفي الحق أن هذه السفن كانت إذا غادرت ساحل كروماندل تعبر خليج بنغالة في خط مستقيم كما كانت تفعل السفن الصينية تماماً.

وقد استطاع العرب منذ أواخر القرن الثاني للهجرة أن يستقروا في ميناء خانفو (بضم النون) إلى الجنوب من مدينة شنغاي الحالية، وكان لهم بسبب تساهل إمبراطور هذه البلاد وكرمه قاض مسلم يحكم بينهم وفق أحكام الشريعة الإسلامية، ويؤمهم في الصلاة، كما كانوا يتبادلون التجارة مع الصينيين، ويحصلون على جوازات تسمح لهم بالتنقل في داخل هذه البلاد ابتغاء التجارة مع أهلها. وظل حال تجار العرب على ذلك حتى قامت في هذه البلاد فتن وثورات كان من أثرها أن ساءت حال هؤلاء التجار، فقطعوا علاقتهم مع الصين، وانتقلوا إلى شبه جزيرة ملقا. واتخذوا مركزهم في مدينة كله kalah ، وهي فرضة في الهند في منتصف الطريق بين عمان والصين، وتقع في طرف خط الاستواء[٤].

وقد أصبحت كله مرسى للسفن التي تحمل متاجر آسيا الغربية والشرقية، وفتحت أمام تجار العرب سوق جديدة للتجارة في سلع الهند الصينية، وهي الكافور والقرنفل وخشب العود

---

(١) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة المؤلف ص ٣٣١.

(٢) Heyd, Tome i. p. 72

(٣) كتاب المسالك (ليدن سنة ١٣٠٦هـ).

(٤) انظر هذا اللفظ في معجم البلدان لياقوت.

والصندل وجوز الهند وجوز الطيب والقصدير، وقد تقدمت هذه التجارة تقدماً عظيماً، حتى أصبحت الرحلة إلى شبه جزيرة ملقا في القرن العاشر الميلادي من أسهل الرحلات العالمية في نظر بحارة سيراف الذين عرفوا أيضاً جزيرة جاوه.

وقد وصل العرب إلى الهند الصينية والصين في كثير من الأحيان، ولا يبعد أن يكون بعضهم قد وصل إلى كوريا[١].

وكانت الرحلة من الساحل العربي إلى ساحل الهند الغربي تستغرق مدة تتراوح بين شهرين وثلاثة أشهر، وقد تستغرق شهراً واحداً إذا ساعدتها الريح. ولا ريب أن تجار العرب كانوا يقيمون في سيلان قبل سنة ٨٠هـ.

وقد ذكر الرحالة العرب الذين قاموا برحلاتهم في القرنين الثالث والرابع، أنهم كانوا يلاقون شيئاً كثيراً من العطف والرعاية من بعض ملوك الهند، وأن جماعة من أمراء ملبار قد اعتنقوا الإسلام وسمحوا للعرب بإقامة المساجد في هذه البلاد، وبينما أنشأ العرب على سواحل الهند وفي بعض مدنها جاليات عربية، كانت جيوشهم منذ أوائل القرن الثامن الميلادي قد تجاوزت حدود فارس فاستولت على بلاد السند. وكان من أثر ذلك أن نشطت الحركة التجارية ونمت في الملتان والديبل. وكانت سفن فارس وبلاد العرب تعرج على تلك البلاد في ذهابها إلى بلاد الهند والصين وفي عودتها حاملة حاصلات تلك البلاد[٢].

كذلك وجدت بين بلاد اليمن والحجاز والحبشة ومصر وبين آسيا الشرقية علاقات تجارية. وبينما كان زمرد ساحل الهند الشرقي ينقل إلى الغرب عن طريق عدن ومكة، كان أمراء الشرق الأقصى يطلبون زمرد مصر العليا وناب الفيل الكثيرة في الحبشة. وكانت ميناء عدن سوقاً نافقة لتلك السلع ومرسى للسفن الآتية من كل أنحاء آسيا وساحل إفريقية الشرقي[٣].

وكانت جدة ميناء مكة كما كانت القلزم ميناء مصر وسورية، وقد فكر هارون الرشيد في حفر قناة تصل بين البحرين الأبيض والأحمر. ولكنه أهمل هذه الفكرة عندما قيل له إن الإغريق يجدون عن طريق هذه القناة منفذاً إلى البحر الأحمر، وإنهم يستخدمون هذا المنفذ لإرسال حملات ضد مكة والمدينة وقطع طريق الحج. لذلك عدل الرشيد عن حفر قناة السويس[٤]

---

(١) Hyed, tome.I. pp. 30-32.

(٢) Ibid, pp. 32-33. أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة ص ٣٣١ وما يليها.

(٣) Heyd, tome.I, p. 53

(٤) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٨٩.

وأصبح من المستحيل تحاشي عبور الصحراء إذا أريد نقل السلع الواردة عن طريق البحر الأحمر إلى الغرب، فكانت هذه السلع تحمل على ظهور الجمال ثم تنقل في النيل، أو ترسل في البر عبر برزخ السويس[١].

وكان الطريق الأول يوصل إلى الإسكندرية مباشرة. وإذا كانت شهرة الإسكندرية قد تضاءلت أمام شهرة بغداد، فإن حالة الغنى التي تمتعت بها مصر في عهد الطولونيين قد أعادت إليها بعض الانتعاش. وكان بعض السلع التي ترد عن طريق البحر الأحمر يرسل عبر برزخ السويس إلى ميناء الفرما التي احتفظت بغناها وأهميتها. ومما جعل لهذا الطريق قيمة ظاهرة بين الطرق الأخرى أنه كان لا يستغرق أكثر من أربعة أو خمسة أيام.

أما السلع التي كانت تجلب من الشرق إلى جدة ومنها ترسل إلى مكة في موسم الحج، فإنها كانت تصل إلى الغرب على أيدي التجار المصريين الذين كانوا يفدون إلى بلادهم براً مع الحجاج، أو مع التجار السوريين الذين كانوا يحملونها إلى دمشق.

وفي الوقت الذي كان فيه العرب أصحاب السيادة على المنطقة الواقعة عند مصب نهر السند، كان هناك طريق تجاري يسير من تلك المنطقة إلى داخل فارس ماراً بولاية سجستان. وإلى الشمال من ذلك الطريق كانت قوافل البنجاب تنقل مقادير كبيرة من البضائع عبر هضاب أفغانستان، وتوصلها إلى كابل وغزنة وغيرهما من المدن التي صارت فيها بعد مراكز تجارية كبيرة. ومن هنا تسير القوافل نحو خراسان غرباً وبخارى شمالاً، حتى إن توابل الهند كانت تنتشر في تلك الأقاليم وتتلاقى في بخارى مع السلع الآتية من الصين عبر آسيا الوسطى.

وكانت هناك علاقات تجارية بين أهالي بخارى والصين. وبعد أن وصل نفوذ العرب إلى نهر سيحون كان التاجر يستطيع الذهاب إلى الصين دون أن يجد عقبات من السلطات الرسمية. وبعد أن يعبر نهر سيحون شرقاً يمر بقبيلة التغزغز أهم قبائل الترك التي كانت تقيم على سفوح جبال تيان شان. وكان هناك طريقان مطروقان: أحدهما طويل يستغرق أربعة أسابيع، ويصلح لسير دواب الحمل، والآخر قصير جداً، ولكنه متشعب، ولذلك يستغرق أربعين يوماً. وهناك طريق يمر بالتبت ولكنه كان محفوفاً بالمصاعب[٢].

وكانت تجارة الحرير هي السبب الأساسي في ذهاب القوافل إلى الصين. فلما انتشر هذا النوع في شمالي فارس واشتهرت بصناعته، قل مسير القوافل إلى بلاد الصين[٣].

---

(١) Hyed, tome I, p. 41

(٢) Ibid, tome I, pp. 836-38.

(٣) Ibid, I. pp. 37-38.

ويقول صاحب «كتاب حضارة الإسلام في دار السلام»[١] إنه لما توافرت الأموال في أيدي العباسيين وأمن هارون الرشيد طرق القوافل والسفن. حملت السلع من جميع أرجاء العالم إلى العراق. فحملت الآنية من الهند، والحديد من خراسان، والرصاص من كرمان، والنسيج الملون من قشمير، والعود والمسك والسروج والدار صيني من الصين، والعطر وأنواع الطيب من اليمن، والسلاح والمصوغات من فارس، واللآلىء من عيذاب والخيزران والكافور والعود والقرنفل والنارجيل والثياب القطنية والفيلة من الهند والسند، والياقوت والماس من سرنديب، والجلود والرقيق من بلاد الروم، والفاكهة والسلاح والحديد من بلاد الشام. وجلود الثعالب من الروسيا.

وقد عني هارون الرشيد بتنظيم التجارة، فعهد إلى المحتسب في مراقبة الأسواق والإشراف على الموازين والمكاييل. ومراعاة أثمان الحاجيات منعاً للغش أو ابتزاز أموال الأهلين[٢].

وكان المسلمون في العصر العباسي الأول يصدرون الشعير والحنطة، والأرز والفاكهة وزهور مازندران المشهورة، والسكر والزجاج والحرير، والأقمشة الصوفية والكتانية والحريرية، والزيت والعطور. كماء الورد والزعفران وماء السوسن وشراب العنف وزيت البنفسج وغيرها[٣].

وصفوة القول ان عناية الخلفاء العباسيين بالتجارة وحرصهم على تبادلها وتيسير طرقها البرية والبحرية، كان له أثر بعيد في ترقية التجارة التي تقوم على تبادل المحاصيل، كما مهد السبيل أمام الكاشفين والرحالة، فكثرت رحلاتهم في هذا العصر كثرة تدعو إلى الإعجاب. فوصفوا البلاد المختلفة وصفاً دقيقاً مبنياً على المشاهدة.

---

(١) جميل نخلة المدور ص ١١٦ ـ ١١٧.

(٢) المصدر نفسه ص ١١٨.

(٣) سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب، ترجمة ص ٢٦٦.

الباب السابع

الثقافة

(ا) اشتغال الموالي بالعلم:

مما يسترعي نظر الباحث في تاريخ الثقافة الإسلامية، أن السواد الأعظم من الذين اشتغلوا بالعلم كانوا من الموالي، وخاصة الفرس. وكانت اللغة العربية هي الوسيلة الوجيدة للتفاهم بين المسلمين إلى أن أزال المغول الخلافة العباسية من بغداد في القرن السابع الهجري. وفي ذلك يقول ابن خلدون[١] عند كلامه على «أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم»:

«من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم، لا من العلوم الشرعية، ولا من العلوم العقلية إلا في القليل النادر. وإن كان منهم العربي في نسبته، فهو أعجمي في لغته ومرباه ومشيخته، مع أن الملة عربية، وصاحب شريعتها عربي. والسبب في ذلك أن الملة في أولها لم يكن علم فيها ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة، وإنما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها في صدورهم. وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه. والقوم يومئذ عزب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين، ولا دفعوا إليه ولا دعتهم إليه حاجة. وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين. وكانوا يسمون المختصين بحمل ذلك ونقله القراء، أي الذين يقرأون الكتاب، وليسوا أميين لما أن الأمية يومئذ صفة عامة في الصحابة، بما كانوا عزباً. فقيل لحملة القرآن يومئذ قراء، إشارة إلى هذا، فهم قراء لكتاب الله والسنة والمأثورة عن الله، لأنهم لم يعرفوا الأحكام الشرعية إلا منه ومن الحديث الذي هو في غالب موارده تفسير له وشرح. قال صلى الله عليه وسلم: تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي. فلما بعد النقل من لدن دولة الرشيد فيما بعد، احتيج إلى وضع التفاسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه. ثم احتيج إلى معرفة الأسانيد وتعديل الرواة للتمييز بين الصحيح من الإسناد وما دونه، ثم كثر استخراج أحكام الوقائع من الكتاب والسنة. وفسد مع ذلك اللسان، فاحتيج إلى

(١) (مقدمة طبعة كترمير Quatremère) ص ٢٧٠ ـ ٢٧٤.

وضع القوانين النحوية وصارت العلوم حضرية.. وبعد الحرب عنها وعن سوقها. والحضر لذلك العهد هم العجم أو من في معناهم من الموالي وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف، لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس. فكان صاحب صناعة النحو سيبويه [والزجاج] والفارسي (٣٧٧هـ) من بعده والزجاج[١] (٣١١هـ) من بعدهما. وكلهم عجم في أنسابهم. وإنما ربوا في اللسان العربي فاكتسبوه بالمربى (النشأة والتربية) ومخالطة العرب، وصيروه قوانين وفناً لمن بعدهم. وكذلك حملة الحديث الذين حفظوه على أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربى، لاتساع الفن بالعراق وما بعده. وكان علماء أصول الفقه كلهم عجم كما نعرف، وكذا جملة علماء الكلام! وكذا أكثر المفسرين. ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم. فظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم: «لو تعلق العلم بأعناق السماء لناله قوم من فارس». وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا إليها عن البداوة، فشغلتهم الرياسة في الدولة العباسية، وما دفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم والنظر فيه، فإنهم كانوا أهل الدولة وحاميتها وأولي سياستها، مع ما يلحقهم من الأنفة في انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع. والرؤساء أبداً يستنكفون عن الصنائع والمهن وما يجر إليها، ودفعوا ذلك إلى من قام به من المعجم والمولدين، وما زالوا يرون لهم حق القيام به فإنه دينهم وعلومهم، ولا يحتقرون حامليها كل الاحتقار. حتى إذا خرج الأمر من العرب جملة وصار للعجم، صارت العلوم الشرعية غريبة النسب عند أهل الملك بما هم عليه من البعد عن نسبها، وامتهن حملتها بما يرون أنهم بعداء عنهم، مشغولون بما لا يجدي عليهم في الملك والسياسة».

ويقول الأستاذ نيكلسون[٢] «وكان لانبساط رقعة الدولة العباسية، ووفرة ثروتها، ورواج تجارتها، أثر كبير في إنشاء نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل، حتى لقد بدا أن الناس جميعاً من الخليفة إلى أقل أفراد العامة شأناً غدوا فجأة طلاباً للعلم أو على الأقل أنصاراً للأدب. وفي عهد الدولة العباسية كان الناس يجوبون ثلاث قارات سعياً إلى موارد العلم والعرفان ليعودوا إلى بلادهم كالنحل يحملون الشهد إلى جموع التلاميذ المتلهفين، ثم يصنفون بفضل ما بذلوه من جهد متصل هذه المصنفات التي هي أشبه شيء بدوائر للمعارف، والتي كان لها أكبر الفضل في إيصال هذه العلوم الحديثة إلينا بصورة لم تكن متوقعة من قبل».

---

(١) كذا بالأصل ولعله يريد أن يقول: والزجاج من بعدها والفارسي من بعدهما، لأن الزجاج متقدم على أبي علي الفارسي.

(٢) Lit. Hist. of The Arabs p. 281.

هذا في الشرق الإسلامي في العصر العباسي الأول، أما في الغرب فقد نافست قرطبة بغداد والبصرة والكوفة ودمشق والفسطاط، فأصبحت حاضرة الأندلس سوقاً نافقة للعلم وكعبة لرجال الأدب، حتى جذبت مساجدها الأوربيين الذين وفدوا إليها لارتشاف العلم من مناهله والتزود من الثقافة الإسلامية. ومن ثم ظهرت فيها طائفة من العلماء والشعراء والأدباء والفلاسفة والمترجمين والفقهاء وغيرهم.

كان عهد الحكم الأول (١٨٠ ـ ٢٠٦هـ) وعبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ ـ ٢٣٨هـ) فترة هدوء سياسي لم يقع فيها من الأحداث السياسية ما يستحق الذكر. وقد ساعد ذلك الهدوء على بدء نهضة علمية، ولا سيما في عهد عبد الرحمن الأوسط الذي يعتبر عهده عهد يسر ورخاء وازدهار ثقافي، وذلك عن طريق تأثير الشرق الإسلامي في العصر العباسي.

وكان عبد الرحمن الأوسط نصيراً للعلوم والفنون، أولع بالفلك والتنجيم وأحاط نفسه بنخبة من علماء الفلك وأدر عليهم الأرزاق والمنح.

وقد بعث في بداية عهده عباس بن نصيح إلى الشرق الإسلامي لينقل إليه الكتب التي استحوذ عليها العباسيون. وكان هذا الأمير الأموي مولعاً بمطالعة كتب الطب والفلسفة القديمة[1]. وانتقل كثير من التراث اليوناني والفارسي إلى قرطبة بفضل جهود عبد الرحمن الأوسط. وبذل الحكم المستنصر، حتى قبل أن يجعل على عرش الخلافة الأموية سنة ٣٥٠ هـ، جهوداً بعيدة الأثر في توجيه الدراسة الأندلسية في ميدان العلوم والطب.

تقسيم العلوم:

وقد ميز كتاب المسلمين بين العلوم التي تتصل بالقرآن الكريم وبين العلوم التي أخذها العرب عن غيرهم من الأمم. ويطلق على الأولى العلوم النقلية أو الشرعية، وعلى الثانية العلوم العقلية أو الحكمية، ويطلق عليها أحياناً علوم العجم أو العلوم القديمة.

وتشمل العلوم النقلية؛ علم التفسير، وعلم القراءات، وعلم الحديث، والفقه، وعلم الكلام، والنحو، واللغة والبيان، والأدب.

وتشمل العلوم العقلية: الفلسفة، والهندسة وعلم النجوم، والموسيقى، والطب، والسحر، والكيمياء، والتاريخ، والجغرافيا.

وفي العصر العباسي الأول اشتغل الناس بالعلوم الدينية، وظهر المتكلمون، وتكلم

---

(١) بروفنسال؛ الشرق الإسلامي والحضارة العربية (تطوان ١٩٥٩) ص ١٨ ـ ١٩.

الناس في مسألة خلق القرآن. وتدخل المأمون في ذلك، فأوجد مجالس للمناظرة بين العلماء في حضرته. ولهذا عاب الناس عليه تدخله في الأمور الدينية كما عابوا عليه تفضيله علي بن أبي طالب على سائر الخلفاء الراشدين والأمويين، وذهب بعض إلى أن المأمون أراد بعقد هذه المجالس إزالة الخلف بين المتناظرين في المسائل الدينية، وتثبيت عقائد من زاغوا عن الدين. وبذلك تتفق كلمة الأمة في المسائل الدينية التي كانت مصدر ضعفهم. وكان المأمون يميل إلى الأخذ بمذهب المعتزلة، لأنه أكثر حرية واعتماداً على العقل؛ فقرب أتباع هذا المذهب إليه، ومن ثم أصبحوا ذوي نفوذ كبير في قصر الخلافة.

وفي هذا العصر ظهر نوعان من العلماء: الأول هم الذين يغلب على ثقافتهم النقل والاستيعاب ويسمون أهل علم، والثاني هم الذين يغلب على ثقافتهم الابتداع والاستنباط ويسمون أهل عقل. وقد ذكر ابن خلكان[1] أن الخليل بن أحمد اجتمع بابن المقفع وتحدثا في شتى المسائل، فلما افترقا قيل للخليل: كيف رأيت ابن المقفَّع؟ فقال: رأيت رجلاً علمه أكثر من عقله، وقيل لابن المقفع: كيف رأيت الخليل؟ قال: رأيت رجلاً عقله أكثر من علمه.

وليس من شك في أن ابن المقفع قد غلب على ثقافته النقل والترجمة والتأثر بآراء غيره من العلما، على حين قد غلب على ثقافة الخليل الابتكار الذي يتجلى من هذه الحقيقة، وهي أنه أول من فرع قواعد النحو، وأول من صنف المعاجم، وأول من تكلم في علم العروض، فالأول إذن ذو علم، والثاني ذو عقل.

(أ) العلوم النقلية

١ ـ علم القراءات:

ومن العلوم التي اشتغل بها العباسيون علم القراءات، ويعتبر المرحلة الأولى لتفسير القرآن. وتتركز النواة التي بدأ بها هذا العلم في القرآن نفسه وفي نصوصه نفسها، وبعبارة أخرى في قراءته. ففي هذه الأشكال المختلفة نستطيع أن نرى أول محاولة للتفسير. ويرجع السبب في ظهور بعض هذه القراءات إلى خاصية الخط العربي، إذ أن الرسم الواحد للكلمة الواحدة يقرأ بأشكال مختلفة تبعاً للنقط فوق الحروف أو تحتها.

وقد وجدت على مر الزمن سبع طرق في القراءات، تمثل كل طريقة منها مدرسة معترف بها ترجع قراءتها إلى إمام،ترتبط باسمه وتستند إلى أحاديث موثوق بها، وعليها يقتصر في قراءة

(١) كتاب وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٧٣.

المصحف. ويعتبر هارون بن موسى البصري اليهودي الأصل (المتوفى بين سنتي ١٧٠ و ١٨٠ هـ، وكان مولى للأزد، أول من حاول نقد القراءات المختلفة، وبحث وجوه النظر التي تقوم عليها، ونقد الأسانيد التي تسند إليها نقداً قوياً. وعلى الرغم من أنه كان قدرياً معتزلياً، قدره البخاري ومسلم ووثقه يحيى بن معين. ويرجع أغلب الاختلافات في القراءات إلى رجال موثوق بهم ممن عاشوا في القرن الأول كابن عباس وعائشة، وعثمان صاحب القراءة، وابنه أبان، وإلى قراء معترف بهم، كعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، وهؤلاء قد أثنى عليهم التابعون وغيرهم[١].

ومن أشهر أصحاب القراءات في العصر العباسي الأول يحيى بن الحارث الذماري[٢] المتوفى سنة ١٤٥ هـ، وحمزة بن حبيب الزيات المتوفى سنة ١٥٦ هـ في خلافة أبي جعفر المنصور، وأبو عبد الرحمن المقرىء المتوفى سنة ٢١٣ هـ، وخلف بن هشام البزاز المتوفى سنة ٢٢٩ هـ[٣].

٢ ـ التفسير:

اتجه المفسرون في تفسير القرآن اتجاهين: يعرف أولهما باسم التفسير بالمأثور، وهو ما أثر عن الرسول وكبار الصحابة، ويعرف ثانيهما باسم التفسير بالرأي، وهو ما كان يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على النقل: ومن أشهر مفسري هذا النوع المعتزلة والباطنية.

على أن النوع الأول من التفسير، وهو التفسير بالمأثور، وقد اتسع على مر الزمن بما أدخل عليه من آراء أهل الكتاب الذين دخلوا في الإسلام، والذين كانت لهم آراء أخذوها عن التوراة والإنجيل، مثل كعب الأحبار اليهودي وعبد الله بن سلام وابن جُريج. «ولقد كان إسلام هؤلاء فوق التهمة والكذب ورفعوا إلى درجة أهل العلم الموثوق بهم»[٤]، كما كانوا يتخذون الشعر مرجعاً للتفسير في استعمالاته اللغوية. وقد أثر عن ابن عباس أنه قال: إذا تعاجم شيء من القرآن فانظروا في الشعر، فإن الشعر عربي، حتى لقد كان يفسر كثيراً من الآيات بألفاظ وردت في الشعر الجاهلي[٥].

---

(١) جولد تسيهر: المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ـ ترجمة الدكتور على حسن عبد القادر ص ٣٦ ـ ٣٧.
(٢) نسبة إلى ذمار من مخاليف اليمن.
(٣) ابن قتيبة: كتاب المعارف ص ٢٣٠ ـ ٢٣١. ابن النديم: كتاب الفهرست ص ٤٢ ـ ٤٥.
(٤) المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ٦٦.
(٥) المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ٦٨ ـ ٦٩.

ولما كان الحديث يشغل كل عناية المسلمين في صدر الإسلام، اعتبر التفسير جزءاً من الحديث أو فرعاً من فروعه، حتى ان التفسير في ذلك العهد كان تفسيراً لآيات مبعثرة غير مرتبة حسب ترتيب السور والآيات، إلا تفسير ابن عباس، ولو أن كثيرين يشكون في نسبته إليه.

أما الطريقة المنظمة في تفسير القرآن فإنها لم تحدث إلا في العصر العباسي. روى ابن النديم[1] «أن عمر بن بكير كان من أصحاب الفرّاء صاحب كتاب معاني القرآن المتوفى سنة ٢٠٧ هـ، وكان منقطعاً إلى الحسن بن سهل، فكتب إلى الفراء أن الأمير الحسن بن سهل ربما سألني عن الشيء بعد الشيء من القرآن فلا يحضرني فيه جواب؛ فإن رأيت أن تجمع لي أصولاً أو تجعل في ذلك كتاباً أرجع إليه فعلت. فقال الفراء لأصحابه: اجتمعوا حتى أملي عليكم كتاباً في القرآن، وجعل لهم يوماً. فلما خرج إليهم، وكان في المسجد رجل يؤذن ويقرأ بالناس في الصلاة، فالتفت إليه الفراء فقال له: اقرأ! وبدأ بفاتحة الكتاب ففسرها، ثم استوفى الكتاب كله، فقرأ الرجل، ويفسر الفراء، فقال أبو العباس: لم يعمل أحد قبله مثله، ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه». ولا شك أن الفراء قد فسر القرآن حسب ترتيب الآيات، وأنه فسره بهذه الطريقة التي رسمها لنفسه في أربعة أجزاء[2].

ومن أشهر المفسرين بعد عبد الله بن عباس، ابن جريج الذي كان يجمع كل ما وصل إليه دون تحري الدقة في التفسير، والسُّدي المتوفى سنة ١٢٧ هـ، وقد اعتمد في تفسيره على ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة، ومقاتل بن سليمان الأزدي، المتوفى سنة ١٥٠ هـ، وقد تأثر بتفسير التوراة الذي أخذه عن اليهود، حتى إن الإمام أبا حنيفة قد اتهمه بالكذب، وقال الشافعي: «الناس كلهم عيال على ثلاثة: على مقاتل في التفسير، وعلى زهير بن أبي سلمى في الشعر، وعلى أبي حنيفة في الكلام». ويروى عنه أيضاً أنه قال: «من أحب التفسير فعليه بمقاتل». ومن أشهر كتب التفسير: تفسير محمد بن إسحاق الذي أخذ كثيراً من آرائه عن اليهودية والنصرانية عن وهب بن منبه وكعب الأحبار.

على أن هذه التفاسير قد ضاعت، ولم يصل إلينا شيء منها إلا عن ابن جرير الطبري (٣١٠ هـ) في تفسيره المشهور الذي يقع في ثلاثين مجلداً (القاهرة سنة ١٩٠٤)، وقد وصفه أبو حامد الأسفراييني بقوله: «لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل كتاب تفسير محمد بن جرير الطبري لم يكن ذلك كثيراً». يقول جولد تسيهر إنه دائرة معارف غنية في التفسير بالمأثور[3].

---

(١) كتاب الفهرست ص ٩٩.

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٠.

(٣) المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ٨٥ ـ ٨٦.

ويمتاز الطبري في تفسيره بتحري الدقة في النقل عن الرسول والصحابة والتابعين، ومعارضته أصحاب الرأي المستقلين في التفكير، لأنهم كثيراً ما يتبعون هواهم. «وقد أعطى - كذلك - في تفسيره لإجماع الأمة سلطاناً كبيراً. وعلى هذا النحو انتظم في تفسيره، آية بعد آية، التفسير بالروايات المروية عن العلماء المعتبرين وحدهم، وأيد ذلك بالأسانيد المختلفة بالرجال الذين وصلت إليه المعرفة عن طريقهم، ولم يسلك هذا الطريق على نحو آلي، وإنما فعل ذلك على مثال ما كان يسير عليه العلماء المسلمون من وقت طويل من نقد الرجال جرحاً وتعديلاً. فعندما يظهر له أن الحديث غير موثوق به، فإنه يصرح فيه بما يناسبه، حتى آراء ابن عباس وقف حيالها موقفاً حراً صريحاً. وقال مرة عن مجاهد الذي كان يجب أتباعه، إن رأيه يخالف إجماع الحجة الذي لا يمكن نسبته إلى الكذب، وفي مرة أخرى «وما ذكر هنا عن مجاهد لا معنى له وفساد رأيه لا شك فيه».

وعلى هذا النحو كان الطبري يعالج أيضاً آراء الضحاك وغيره من الرواة عن ابن عباس. ويمتاز ابن جرير عمن سبقه من المفسرين، بأنه كان يأتي بأخبار مأخوذة من القصص الإسرائيلية من مراجع يهودية الأصل (مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه) ولكنه لا يتمسك في ذلك بإعجاب المتقدمين بلا قيد ولا شرط[١].

امتاز العصر العباسي الأول بوجود جماعة من المعتزلة (أحرار الرأي) الذين لم يتقيدوا بالتفسير بالمأثور، وإنما كانوا يعتمدون في دعم آرائهم على العقل. وقد بذلوا جهداً عظيماً لدحض آراء معارضيهم بتفسير بعض الآيات القرآنية تفسيراً يتفق مع مبادئهم العقلية. ويقول جولد تسيهر[٢]: «وقد جر سلوك هؤلاء المعتزلة المخالف لبعض النظريات الدينية السائدة عند المحدثين، إلى التباعد بين هؤلاء المتطرفين الذين يعتمدون على العقل، وهم أولئك الأتقياء المبالغون في الدقة. وكان ذلك في العصر العباس الأول، وما لبثوا بعد ذلك أن أصبحوا فرقة خالفت (وإن تكن للمخالفة أيضاً بواعث أخرى) النظريات المروية على خط مستقيم بكل حرية واستقلال».

وفي سبيل مكافحة خصوم هذه الفرقة (المعتزلة)، كان من الضروري أن تؤسس تعاليمها على أسس دينية من القرآن، وأن تردد من جهة أخرى حجج هؤلاء الخصوم وتضعف من قوتها، من القرآن أيضاً، بطريق التفسير الماهر واستخدامه في سبيل ذلك.

---

(١) المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ٨٦ - ٨٧.

(٢) المصدر نفسه ص ٩٩ - ١٠٠.

وقد حبذ جولد تسيهر طريقة المعتزلة في تفسير القرآن وجعلهم العقل مقياساً للحقائق الدينية، لأنهم كافحوا الخرافات والتصورات المخالفة لطبيعة الأشياء التي وجدت طريقها إلى الدين[١].

ومن أشهر تفاسير المعتزلة تفسير أبي بكر الأصم (٢٤٠ هـ)، وتفسير ابن جرو الأسدي (٣٨٧ هـ). وقد قيل إنه كتب في تفسير البسملة نحو ١٢٠ وجهاً.

ومن ذلك نرى أن القرآن الكريم قد أصبح منبعاً لكثير من العلوم التي اشتغل بها المسلمون في العصر العباسي؛ فعلماء النحو اتخذوا منه مادة خصبة يعتمدون عليها في استنباط قواعد اللغة العربية، كما ساعد «الإعراب» على تفسير القرآن وكشف غوامض بعض الآيات القرآنية، حتى لقد وضع علماؤهم، كالكسائي والمبرد والفراء وخلف النحوي، كتباً أطلقوا عليها «معاني القرآن»[٢]. كما اعتمد الفقهاء في آرائهم الفقهية على القرآن، وألفوا في المذاهب المختلفة كتباً سموها «أحكام القرآن». ومن هؤلاء الشافعي وأبو بكر الرازي أساساً للتدليل على صحة ما ذهبوا إليه. أضف إلى ذلك ما كتبه المؤرخون من تفسير الآيات القرآنية التاريخية من حيث صلتها بتاريخ الأمم الأخرى. وغير خاف أن القرآن الكريم من أهم المصادر التاريخية بلا نزاع، لأنه أقدمها وأصدقها وأوسعها مجالاً، ولا سيما في الكلام على النبي ﷺ. فمن القرآن نستطيع أن ننظر إلى النبي من حيث هو نبي أو سياسي أو مشرع، أو من حيث هو مصلح اجتماعي، أو من حيث كونه رجلاً عادياً. وبهذا كله نجد صورة واضحة للنبي من جميع هذه الوجوه كما نجد في القرآن مصدراً لتاريخ الأمم الأخرى كدولة سبأ في اليمن (سورة النمل وسورة سبأ)، وتاريخ اليهود (سورة البقرة) وصراعهم مع الرسول (سورة الأحزاب). وعلاقتهم بموسى (سورة البقرة والنمل والقصص وغيرها).

كما أخذ علماء الكلام يفسرون القرآن الكريم بما يتفق ومبادئهم. فأولوا القرآن لنفي الصفات عن الله سبحانه وتعالى، وإبعاد الخرافات التي وجدت سبيلاً إلى الدين الإسلامي عن طريق التفسير[٣].

٣ ـ الحديث:

ومن أهم مصادر التشريع الإسلامي «الحديث» وهو ما أثر عن النبي من قول أو فعل أو تقرير لشيء رآه، ويأتي في الأهمية بعد القرآن. وقد جمع البخاري، على ما نعلم، نحو ٧٢٥٧ حديثاً بما فيها الأحاديث المكررة. فإذا حذفنا المكرر منها أصبح عددها نحو أربعة آلاف. وقد اختارها البخاري ـ

(١) المصدر نفسه ص ١٣٧. (٢) ابن النديم ص ٥١ ـ ٥٢. (٣) المصدر نفسه ص ٥٧.

على ما قيل ـ من ثلاثمائة ألف حديث. ومع ذلك فإن الإمام أبا حنيفة لم يثق إلا بستة عشر حديثاً ومن ذلك يتبين لنا ما وصل إليه التحريف في الحديث.

وكانت هذه الأحاديث التي وصلت إلى أيدينا موضعاً للجدل العنيف بين فقهاء المسلمين: ذلك أنه عند وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، لم يكن السواد الأعظم من العرب يستطيعون القراءة والكتابة، حتى إن تاريخ هذه الأمة لم يدون إلا بعد زمن طويل. وقد روى العرب الأحاديث النبوية بعضهم عن بعض، فتأثرت بشيء غير قليل من التبديل والتحريف، مما أدى بها إلى الغموض والإبهام، فشوهت معانيها والظروف التي أحاطت بوقوعها وقولها.

حتى إذا جاء القرن الثاني للهجرة، أخذ العرب يدونون الأحاديث النبوية. وأتاحوا الفرصة لظهور طائفة من أئمة الحديث الذين ظهروا في العصر العباسي واشتهر منهم الإمام مالك. والإمامان محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ)، ومسلم بن الحجاج القشيري (٢٦١هـ) صاحبي الصحيحين المشهورين الذائعين في بلاد الإسلام. ثم ظهر بعدهما أبو داود السجستاني (٢٧٥هـ) صاحب السنن. وأبو عيسى محمد الترمذي (٢٧٨هـ) صاحب الجامع، والنسائي (٣٠٣هـ)، وابن ماجة (٢٧٥هـ) صاحبا السنن، وكلهم ممن ألف في السنن كتاباً نسب إليه. ولا تزال كتبهم باقية. وهي أشهر الكتب الستة، ولكن أشهرها جميعاً صحيحا البخاري ومسلم. وهذه «الكتبَ الستة» كما تسمى، تحتل المكانة السامية بين مصادر التشريع الإسلامي[١].

ومن رواة الحديث محمد بن إسحاق صاحب المغازي المشهور. روى ابن خلكان[٢] أن أصحاب الزهري كانوا يلجأون إلى محمد بن إسحاق فيما شكوا فيه من حديث الزهري ثقة منهم بحفظه. وحكي عن يحيى بن سعيد القطان وأحمد بن حنبل أنهم وثقوا محمد بن إسحاق واحتجوا بحديثه.

٤ ـ الفقه:

نشأ عن دراسة القرآن والحديث وتعرف معانيهما الخاصة الحاجة إلى تعلم النحو واللغة، وتطلب ذلك فهم الشعر الجاهلي الذي أمد الباحثين بأحسن ما تمثله اللغة العربية من الأدب القديم الخالص. كما تطلب فهم اللغة العربية دراسة الأنساب والتاريخ التي ما لبثت أن أصبحت على مر الزمن علوماً مستقلة. كذلك عكف المسلمون على تفسير القرآن، وحذا

---

(١) Nicholson, p. 337

(٢) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٨٣.

حذوهم في ذلك بعض التابعين. ولم يكن تدوين الحديث شائعاً في القرن الأول الهجري، غير أن الناس أقبلوا منذ مستهل القرن الثاني على جمعه وتدوينه، حتى أصبح المحور الذي تدور عليه الحركات العلمية في الأمصار الإسلامية.

على أن اختلاف أئمة الفقه في فهم بعض النصوص الفقهية واستنباط الأحكام منها قد أدى إلى تعدد المذاهب. واشتهر من هذه المذاهب أربعة هي: مذهب مالك إمام أهل الحجاز وزعيم الفقهاء الذين يأخذون بطريقة أهل الحديث، ومذهب أبي حنيفة إمام أهل العراق وزعيم الفقهاء الذين يأخذون بطريقة الرأي والقياس، ومذهب الشافعي، وكان يسير أولاً على طريقة أهل الحجاز، ثم جعل مذهبه وسطاً بين الطريقتين، ومذهب أحمد بن حنبل، وكان من كبار المحدثين. واختص هو وأصحابه بالمذهب الحنبلي الذي يبعد عن الاجتهاد مما أدى إلى قلة عدد المتمسكين بمذهبه[1].

ومن ثم ظهرت في ميدان الفقه مدرستان: مدرسة أهل الحديث في المدينة، وعلى رأسها الإمام مالك الذي كان يأخذ بمبدأ التوسع في النقل عن السنة، ومدرسة أهل الرأي في العراق، وعلى رأسها الإمام أبو حنيفة الذي كان يدين بالرأي.

ولد أبو حنيفة النعمان بن ثابت بالكوفة سنة ٨٠هـ، ومات ببغداد سنة ١٥٠هـ. وقيل إنه حج وهو في السادسة عشرة من عمره مع أبيه، وشهد عبدالله بن الحارث أحد الصحابة يحدث بما سمع عن رسول الله، كما روي أيضاً أنه سمع مالك بن أنس. وكان أبو حنيفة بجانب اشتغاله بالعلم يحترف التجارة ببيع الخز، ويجلس في الأسواق، مما أكسبه خبرة عظيمة، وجعله يعرف حقيقة ما يجري في الأسواق من معاملات الناس في البيع والشراء.

وقد تعلم أبو حنيفة الفقه في مدرسة الكوفة، وأخذ عن عطاء بن أبي رباح، وهشام بن عروة، ونافع مولى عبدالله بن عمر، ولكنه أخذ أكثر علمه عن أستاذه حماد بن أبي سليمان الأشعري. وكان أبو حنيفة يتشدد في قبول الحديث ويتحرى عنه وعن رجاله، فلا يقبل الخبر عن رسول الله إلا إذا رواه جماعة عن جماعة، أو إذا أنفق فقهاء الأمصار على العمل به.

ولم يصل إلينا أي كتاب في الفقه لأبي حنيفة. إلا أن ابن النديم[2] ذكر من بين كتبه كتاب الفقه الأكبر، وهو في العقائد، ورسالته إلى البُسْتي. وكتاب العالم والمتعلم، وكتاب الرد على القدرية، والعلم براً وبحراً شرقاً وغرباً بعداً وقرباً.

ومن تلاميذ أبي حنيفة الليث بن سعد الذي تقلد قضاء مصر. وقد قيل إن أبا جعفر

---

(١) مقدمة ابن خلدون. ص ٣٩١ - ٣٩٣. (٢) كتاب الفهرست ص ٢٨٥.

المنصور اجتمع به في بيت المقدس، وأنه قال لما خرج لوداعه: أعجبني ما رأيت من شدة عقلك؛ والحمد لله الذي جعل في رعيتي مثلك. وقد ذكر ابن خلكان[1] أن دخل الليث بلغ خمسة آلاف دينار في السنة، وأنه كان يوزعها على أهل العلم استغناء منه وتورعاً.

ومن فقهاء ذلك العصر مالك بن أنس الذي ولد سنة ٩٣هـ (أو سنة ٩٧هـ)، وتوفي سنة ١٧٩هـ. وقضى حياته بالمدينة المنورة. وروي أنه أخذ قراءة القرآن عن نافع بن أبي نعيم، وأخذ العلم عن ربيعة الراي، وسمع الحديث من كثير من شيوخ المدينة كابن شهاب الزهري، ونافع مولى عبدالله بن عمر، وروى عنه الأوزاعي.

وكان مالك أول من كتب في العلوم الدينية في العصر العباسي، وكتابه «الموطأ» أول كتاب ظهر في الفقه الإسلامي. ومن كتبه «المدونة»، وهي مجموعة رسائل من فقه مالك، جمعها تلميذه أسد بن الفرات النيسابوري. وتشتمل على نحو ست وثلاثين ألف مسألة. وكان مالك يعتمد على الحديث كثيراً، لأن بيئته الحجازية كانت تزخر بالعلماء والمحدثين الذين تلقوا الحديث عن الصحابة رضوان الله عليهم، وورثوا من السنة ما لم يتح لغيرهم من أهل الأمصار الإسلامية الأخرى.

وقد دخل مذهب مالك الأندلس في عهد الحكم الأول (١٨٠ ـ ٢٠٦هـ). وحل محل مذهب الأوزاعي الذي ظهر في المدينة ومات في الشام سنة ١٨١هـ. وقد قبل الأمير الأموي هذا المذهب لأنه يحرر بلاده من تأثير العباسيين الأدبي[2] وانتشر هذا المذهب في المغرب في الوقت نفسه. وبذلك اتجهت الدراسات الفقهية شطر مذهب مالك. وقد نشأ عن دخول مذهب مالك في المغرب والأندلس مدرسة دينية طبقت شهرتها العالم الإسلامي الغربي. وظهر من بين علمائها: عبد الملك بن حبيب صاحب «الواضحة» وعيسى بن دينار، وزياد بن عبد الرحمن.

وممن اشتهر بالفقه من تلاميذ مالك محمد بن الحسن في العراق، ويحيى بن يحيى الليثي (ت ٢٣٤هـ) في الأندلس، وكان من قبيلة المصامدة من البربر. وقد أخذ العلم عن مالك، وروى عنه كتابه «الموطأ»، وبروايته انتشر في المغرب والأندلس، وانتهت إليه الرياسة في الفقه والحديث في بلاد الأندلس. كما سمع عن الليث بن سعد في مصر وسفيان بن عيينة بمكة.

---

(١) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٣٨.

(٢) ويرجع السبب في ذلك إلى أن العباسيين كانوا يسيرون على وفق مذهب أبي حنيفة. لذلك مال الأمويون بالأندلس إلى مذهب الأوزاعي ليتجنبوا المذهب الحنفي الذي اتخذه العباسيون.

وكان قاضي القضاة في بلاد الأندلس لا يلي إلا بمشورة يحيى واختياره[١]. ومن تلاميذ مالك أيضاً عبدالله بن وهب. وعبد الرحمن بن القاسم، وعبد الله بن الحكم في مصر، وأسد بن الفرات في القيروان.

ومن أشهر أئمة هذا العصر أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي الذي جمع بين مدرستي النقل والعقل بما أوتيه من سعة العقول والقدرة على الابتكار. وهو أول من تكلم في أصول الفقه وأول من أخذ في وضع مبادئه. وكان شديداً في التشيع حتى إنه حضر ذات يوم مجلساً فيه بعض الطالبيين فقال: «لا أتكلم في مجلس يحضره أحدهم، هم أحق بالكلام ولهم الرياسة والفضل». «وكان الشافعي إذا أراد أن يحدث، توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته، وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة. فقيل له في ذلك، قال: أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ لا أحدث إلا متمكناً على طهارة». وقد ترك بلاد العراق سنة ٢٠٠ هـ وقصد مصر حيث مات بها سنة ٢٠٤هـ. وله كتب كثيرة في الفقه، منها كتاب المبسوط في الفقه، وكتاب الأم، وقد أملاه على تلاميذه في مصر. وروى عنه كثير من الفقهاء كأبي ثور وابن الجنيد والبويطي وابن سريح وغيرهم[٢].

كان الشافعي ـ كما وصفه ابن خلكان[٣] كثير المناقب جم المفاخر منقطع القرين: اجتمعت فيه من العلوم بكتاب الله وسنة الرسول ﷺ وكلام الصحابة رضي الله عنهم وآثارهم واختلاف أقاويل العلماء وغير ذلك من معرفة كلام العرب واللغة العربية والشعر، حتى إن الأصمعي، مع جلالة قدره في هذا الشأن، قرأ عليه أشعار الهذليين ما لم يجتمع في غيره، حتى قال أحمد بن حنبل رضي الله عنه: ما عرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالست الشافعي. . قال عبدالله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي: أي رجل كان الشافعي؟ فإني سمعتك تكثر من الدعاء له، فقال: يا بني! كان الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن، هل لهذين من خلف أو عنهما من عوض؟

ومن هؤلاء الأئمة أحمد بن حنبل، الذي قال فيه الإمام الشافعي حينما خرج من بغداد إلى مصر. «خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل». إلا أن مذهبه قليل الأتباع، وأكثرهم بالشام ونجد والبحرين. وقد شهد له أئمة عصره بالانفراد بالزهد والورع والتقوى: وموقفه من مشكلة خلق القرآن يدل على قوة عزيمته وشدة تمسكه بالدين.

(١) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ٣٣٢ ـ ٣٣٤.
(٢) ابن النديم: الفهرست ص ٢٩٤ ـ ٣٠٠.
(٣) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٤٧.

ومن فقهاء ذلك العصر أبو يوسف الذي ولد سنة ١١٤هـ، وتوفي سنة ١٨٢هـ. وقد ذكر المترجمون له أنه نشأ فقيراً، وأن أستاذه أبا حنيفة كان يمده بالمال. وقد تولى أبو يوسف القضاء للمهدي والهادي والرشيد. وكان في أيام الرشيد يتقلد منصب قاضي القضاة.

وكان أبو يوسف أكبر تلاميذ أبي حنيفة، وقد أخذ عنه الفقه، وعمل على نشر مذهبه ومبادئه بعد أن تقلد قضاء بغداد. ومن مؤلفات أبي يوسف «كتاب الخراج» الذي ألفه للرشيد. وتعرض فيه لأهم أمور الدولة المالية التي لا يستطيع الإلمام بها إلا من كان في مثل منصبه وقربه من الخلفاء وتضلعه في الفقه الإسلامي.

ومن أشهر فقهاء هذا العصر الليث بن سعد. ولد ببلدة قلقشندة بمصر (في محافظة القليوبية)، واشتهر بالكرم والثراء، وبلغ دخله خمسة آلاف دينار في السنة كان يفرقها على أهل العلم من أصحابه كما تقدم، وقد أطنب العلماء في الإشادة بعلمه. روي عن الشافعي أنه قال: إن الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به. وقال ابن وهب: ما رأينا أحداً قط أفقه من الليث، وكان الشافعي يتأسف على فوات لقائه. وتوفي الليث سنة ١٥٧هـ.

٥ ـ علم الكلام:

ومن العلوم التي اشتغل بها العباسيون علم الكلام. ويقصد به الأقوال التي كانت تصاغ على نمط منطقي أو جدلي، وعلى الأخص المعتقدات، كما يسمى المشتغلون بهذا العلم «المتكلمين». وكان يطلق هذا اللفظ أول الأمر على من يشتغلون بالعقائد الدينية، غير أنه أصبح يطلق على من يخالفون المعتزلة ويتبعون أهل السنة والجماعة. يقول الغزالي(٢): «وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة».

وكان من أثر ذلك أن أخذت كل فرقة تدافع عن عقيدتها وتعمل على دحض الأدلة التي وردت في عقائد مخالفيها. وكانت المناظرات تعقد بين المتكلمين في قصور الخلفاء وفي المعاهد الدينية كالمساجد وغير الدينية كبيوت الحكمة.

ومن أشهر المتكلمين: واصل بن عطاء، وأبو الهذيل العلاف، والنظام، وأبو الحسن الأشعري، وحجة الإسلام الغزالي.

---

(١) ابن خلكان جـ ١ ص ٤٣٨.
انظر علي حسن عبد القادر: نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي، الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٥٦).
(٢) المنقذ من الضلال (طبعة دمشق ١٣٥٢/١٩٣٤) ص ٧١.

يقول دي بور[١]: وعلى أن ظهور الكلام في الإسلام كان بدعة من أكبر البدع. وقد شدد في التكبر على هذا العلم أهل الحديث الذين كانوا يرون أن ما جاز البحث في الأحكام الفقهية العلمية ابتداع، لأن الإيمان عندهم هو الطاعة لا كما يذهب إليه المرجئة والمعتزلة من أنه هو العلم، بل إن هؤلاء الأخيرين كانوا يعتبرون النظر العقلي من الواجبات المفروضة على المسلمين. وقد صادف هذا الرأي قبولاً في ذلك العهد. وفي الحديث أن النبي قال: «أول ما خلق الله تعالى العلم أو العقل».

على أن بعض أهل الحديث كانوا يعيبون المتكلمين ردهم على أهل البدع، بحجة أن في ذلك ترويجاً لعقائد هؤلاء المبتدعين[٢].

على أننا نرى أن المتكلمين باستخدامهم أسلحة خصومهم قد نجحوا في الرد عليهم، كما نجحوا في دعم الكلام وتقويته. ويقول نيبرج[٣]: «فحلت المعتزلة (وهم من المتكلمين) من تاريخ الإسلام محل المدافعين عن حوزة المسيحية في أول أمرها من تاريخ المسيحية. فكما أنه لا ريب في أن أولئك المدافعين هم الذين أسسوا علم اللاهوت بمناظراتهم فلاسفة الوثنيين واختلاسهم أسلحتهم من أيديهم عند ذلك، كذلك أوجدت المعتزلة كلام الإسلام وأسسته».

وقد غلا خصوم المتكلمين فرموهم بالزندقة، وقالوا: «علماء الكلام زنادقة» ويقول الشهرستاني[٤]: «فالمعتزلة غالوا في التوحيد بزعمهم حتى وصلوا إلى التعطيل بنفي الصفات».

وكان لتعاليم المعتزلة أثر كبير في النهضة الثقافية في العصر العباسي الأول، ولا سيما في مسألة القرآن، وهل هو مخلوق أو قديم، وفي المناظرات التي عمل المأمون على ترويجها لنشر العلم وإزالة الخلاف بين العلماء. وقد ظهر في عهده جماعة من كبار العلماء والمتكلمين الذين تناولوا أصول الدين والعقائد، وحكموا عقولهم في البحث، ونشأت بسبب ذلك اعتقادات تخالف اعتقادات عامة المسلمين وجمهور علمائهم المعروفين بأهل الحديث. وكان اعتماد المتكلمين في مباحثهم على العقل دون النقل. ومال المأمون إلى الأخذ بمذهب المعتزلة، لأنه أكثر حرية واعتماداً على العقل، فقرب أتباع هذا المذهب إليه. ومن ثم أصبحوا ذوي نفوذ في قصر الخلافة ببغداد؛ ووافقهم فيما ذهبوا إليه من أن القرآن مخلوق، وعمد إلى تسخير قوة الدولة لحمل الناس على القول بخلق القرآن كما تقدم.

---

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة أبي بريدة، ص ٥١.

(٢) الغزالي: المنقذ من الضلال ص ٧٩ ـ ٨٠.

(٣) مقدمة كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي ص ٥٨ ـ ٥٩.

(٤) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٠.

وصفوة القول أن بعض خلفاء العصر العباسي الأول، كالمأمون والمعتصم والواثق، شجع بعض الآراء الفلسفية والبحث العقلي في المسائل الدينية، وأن هؤلاء الخلفاء وقع فيما وقع فيه الروم من قبل، فأخذوا ببعض هذه الآراء واضطهدوا المعارضين لها، وعضدوا علماء الكلام فيما ذهبوا إليه من المسائل الدينية وبخاصة مسألة خلق القرآن، التي شغلت عقول الخلفاء وعلماء الكلام نحو خمس عشرة سنة (٢١٨ ـ ٢٣٢هـ).

ومن أبرز متكلمي المعتزلة أبو الهذيل العلاف الذي ولد سنة ١٣٥هـ ومات سنة ٢٣٥. وكان من أقوى الشخصيات في مدرسة البصرة كما كان رئيس طائفة المعتزلة في أيامه؛ واشتهر بالجدل. وقد وصفه الخياط المعتزلي[١] بقوله: إنه نسيج وحده ووحيد دهره في البيان ومعرفة جيد الكلام، وكان أبو الهذيل واسع الاطلاع فصيحاً. يدل على ذلك قول أحمد بن المرتضى المتوفى سنة ٣٢٥هـ، وكان من أئمة الزيدية الذين يميلون إلى مذهب المعتزلة: «ما رأيت أفصح من أبي الهذيل والجاحظ. وكان أبو الهذيل أحسن مناظرة، شهدته في مجلس وقد استشهد في جملة كلامه بثلثمائة بيت[٢]». واشتهر أبو الهذيل بقوة الجدل والإقناع، حتى قيل إنه أسلم على يديه ثلاثة آلاف رجل، وقد شغل كل حياته بالجدل مع الزنادقة والمجوس والثنوية وغيرهم. وقد ناظر مرة صالح بن عبد القدوس، وكان زنديقاً، فغلبه، فأنشد صالح هذا البيت:

أبا الهُذَيْلِ جزاكَ الله من رجلٍ   فأنت حقاً لعمري مُعْضِلٌ جدل

وبالإضافة إلى ما امتاز به أبو الهذيل من سعة الاطلاع والفصاحة وقوة الحجة، أفاد كثيراً من وراء اشتغاله بالفلسفة اليونانية. وقد شهد له بذلك النظام المعتزلي الذي قال عنه حين ناظره في الفلسفة: «فلما ناظرته خيل إلي أنه لم يكن متشاغلاً إلا بها»[٣]. ويقول دي بور[٤]: «وكان متكلماً مشهوراً، وهو أول المفكرين الذين فسحوا للفلسفة المجال لتؤثر في مذاهبهم الكلامية».

٦ ـ النحو:

نشأ علم النحو في البصرة والكوفة اللتين صارتا من أهم مراكز الثقافة في القرن الأول

(١) الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد ص ٦٧.
(٢) أحمد بن يحيى بن المرتضى: كتاب المنية والأمل ص ٢٦.
(٣) المصدر نفسه والصفحة.
(٤) تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٥٧.

الهجري، وفيهما وضعت العقائد والفقه، ونشأت مدرسة النحويين واللغويين. وكان يقيم في هاتين المدينتين جالية تنسب إلى قبائل عربية مختلفة ذات لهجات متعددة، وآلاف من الصناع والموالي الذين كانوا يتكلمون الفارسية. ومن ثم تعرضت العبارات العربية السليمة إلى شيء غير قليل من الفساد، ودعت الضرورة إلى تقويم اللسان العربي، حتى لا يتعرض القرآن الكريم للتحريف. وكان أبو الأسود الدؤلي أول من اشتغل بالنحو في عهد الأمويين، وقد قيل إنه تلقى أصول هذا العلم عن علي بن أبي طالب[١].

وكان أبو الأسود أول من وضع أساس مدرسة البصرة التي تعتبر أقدم من مدرسة الكوفة وأشهر منها. ولا غرو فقد تأثرت هذه المدرسة بالمنطق أكثر من منافستها مدرسة الكوفة، حتى سمي نحاة البصرة «أهل المنطق» تميزاً لهم عن نحاة الكوفة. «وكانت مصطلحاتهم النحوية مباينة بعض المباينة لنظائرها عند الكوفيين؛ وسبق أهل البصرة إلى الانتفاع بالمنطق لم يكن محض اتفاق، لأن تأثير المذاهب الفلسفية قد ظهر في البصرة قبل ظهوره في غيرها. وكان بين نحاة البصرة كثير من الشيعة والمعتزلة الذين فسحوا السبيل للحكمة الأجنبية كي تؤثر في مذاهبهم الكلامية»[٢].

ومن علماء البصرة المبرزين أبو عمرو بن العلاء (١٥٣ / ٧٧٠) الذي اشتغل بالتفسير، والخليل بن أحمد واضع علم العروض، وصاحب كتاب «العين» الذي يعتبر أول معجم وضع في اللغة العربية، وسيبويه الفارسي، ويعرف كتابه باسم «كتاب سيبويه»، وفيه يقول دي بور[٣]: فلو نظرنا إلى كتاب سيبويه لوجدناه عملاً ناضجاً ومجهوداً عظيماً، حتى إن المتأخرين قالوا. إنه لا بد أن يكون ثمرة جهود متضافرة لكثير من العلماء، مثله مثل قانون ابن سينا في الطب. ومن هؤلاء العلماء الأصمعي وأبو عبيدة، وقد تألق نجمهما في عهد هارون الرشيد، والمبرد صاحب كتاب الكامل الذي توفي بعد ذلك بقرن. ومن أشهر علماء الكوفة الكسائي العالم الفارسي الذي عهد إليه هارون الرشيد بتهذيب ابنيه الأمين والمأمون، وتلميذه الفراء المتوفى سنة ٢٠٧هـ (٨٢٢م)، والمُفَضَّل الضبي الذي صنف كتابه المفضليات وأهداه إلى الخليفة المهدي[٤].

---

(١) ابن النديم: كتاب الفهرست ص ٦٠ ـ ٦١.

(٢) دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٣٨ ـ ٣٩.

(٣) تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٣٩.

(٤) Nicholson, p. 286.

الأدب

(أ) الشعر :

وكانت نزعة الأمويين عربية جاهلية لا تميل إلى الفلسفة، بل كان يؤثر عليها الشعر الجيد والخطبة البليغة، فأجاد بعض خلفائهم نظم الشعر: كيزيد بن معاوية حتى قالوا: بدىء الشعر بملك وختم بملك، يعنون امرأ القيس ويزيد. وكان عبد الملك بن مروان شاعراً فصيحاً، وقد نبغ في عهده من الشعراء جرير والأخطل والفرزدق.

أما في العصر العباسي فقد ظهر كثير من الشعراء الذين نهجوا بالشعر مناهج جديدة في المعاني والموضوعات والأساليب، حتى فاقوا في كل ذلك من سبقهم من الشعراء الإسلاميين والمخضرمين والجاهليين. ومن أشهر هؤلاء الشعراء أبو نواس، وهو ممن أذاع القول في الخمر والغزل والصيد، وغير ذلك من فنون الشعر التي تناسب ما انتشر في العصر العباسي من حضارة وترف، وسخر من الأطلال التي جرى الشعراء على الإشادة بذكرها في مطلع قصائدهم، كما أنحى على كل قديم يدل على صحة هذا الرأي قول أبي نواس:

دعِ الأطلال تَسفيها الجَنُوبُ ... وتبْلَى عهدَ جِدَّتها الخطوبُ
وخَلِّ لراكب الوجناء أرضاً ... تخبُّ بها النجيبة والنجيب
بلادٌ نبتها عُشْرٌ وطَلْح ... وأكثرُ صَيْدها ضبعٌ وذيب
ولا تأخذْ عن الأعراب لهواً ... ولا عيشاً فعيشُهُم جَديب
دع الألبانَ يشربُها رجالٌ ... رقيقُ العيش بينهم غريب[1]

وقد حذا ابن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦هـ) حذو أبي نواس في القول بالتجديد وكان أول من اشتهر بالنقد، وأعلن أن الحكم على القدامى والمحدثين يجب أن يبنى على المواهب دون سواها، بغض النظر عن الزمن الذي عاشوا فيه. وحذا حذو ابن قتيبة من جاء بعده من الكتاب كالثعالبي، وابن خلدون، الذي نادى بأن الشعراء يجب أن يتغنوا بذكر الطبيعة، وأن ينشدوا الحقيقة، لا أن يصفوا أسفاراً على ظهور جمال لم يركبوها، ويقطعوا صحراوات لم يشاهدوها، بدلاً من أن ينظموا قصائدهم في أحد أنصار الأدب، ممن يقيمون في نفس المدينة التي يقيمون فيها.

ويتبين ذلك من عبارات ابن قتيبة في مقدمة كتابه «الشعر والشعراء»: «ولم أقصد فيما

(١) Divan des Abu Nowas, Die Weinlieder .ed. by Ahlwart., No. 10 dd. 1-5.

ذكرته من شعر كل شاعر، مختار له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كلا حقه، ووفرت عليه حظه. فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه موضع متخيره، ويرذل الشعر الرصين، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه»[١].

ومن هؤلاء الشعراء أبو تمام الطائي الأكبر المشهور بنزعته العقلية والفلسفية في الشعر، وتلميذه أبو عبادة البحتري صاحب الأوصاف البديعة والمدائح الخالدة، وابن الرومي المعروف بطول نفسه وغزارة شعره وغوصه على نادر المعاني وعجيب التصورات، وأبو العتاهية الذي برع في فنون الشعر، فاشتهر بالغزل الرقيق، وعلى الأخص في عتبة جارية المهدي التي قال فيها:

يا عُتْبُ ما لي ولكِ ... يا ليتني لم أركِ
ملكِتني فانتهكي ... ما شئت أن تنتهكي
أبيتُ ليلي ساهراً ... أرعى نجومَ الفلك
مفترشاً جمر الغضى ... ملتحفاً بالحَسَك[٢]

كما امتاز شعره بالحكمة والموعظة، وهو القائل:

إن أخاك الصدقَ من كان معك ... ومن يضر نفسه لينفعك
ومَنْ إذا رَيْبُ الزمان صدعك ... شتَّت شملَ نفسه كي يجمعك[٣]

قال الثعالبي في كتابه «يتيمة الدهر»: إن الشعراء المحدثين فاقوا شعراء الجاهلية في رقة اللفظ وعذوبة المعنى.

ومن العوامل التي ساعدت في العصر العباسي على ظهور المناهج الجديدة في الشعر ومعانيه وأخيلته وأساليبه وفي الأدب عامة:

١ ـ اختلاف صور الحياة وقيم الأشياء في الدولة العباسية عن نظائرها في الحياة الجاهلية، ففضائل العرب في الجاهلية لم تعد في نظر الذين عاشوا في العصر العباسي الأول مما يتغنى به.

---

(١) ابن سلام. كتاب طبقات الشعراء (طبعة القاهرة) ص ٢.
راجع .Nicholson, pp. 285-7

(٢) يعني حسك السعدان، والحسك أيضاً ما يعمل من الحديد على مثاله وهو من آلات العسكر. المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٣١.

(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢٥٢.

٢ ـ تطور الحياة المادية التي كانت في أيام الجاهلية تقوم على السذاجة، وذلك بسبب تعدد أعمال الناس وزيادة تجارتهم في العصر العباسي.

٣ ـ انتشار الشعوبية التي قامت على حط شأن العرب ونقد أشعارهم ومعانيهم.

٤ ـ أثر الثقافة الأجنبية، والفارسية خاصة، وفي الشعر والأدب العباسي. إلا أنه على الرغم من هذا كله، لا زلنا نجد في اللغة العربية بعض بقايا من قيود الشعر القديم كالقوافي والأوزان.

٥ ـ اعتماد الشعراء طوال أيام العباسيين ـ عدا فترات قليلة ـ على تشجيع الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة. ويرجع السبب في ذلك إلى أنه لم تكن هناك تجارة كتب منظمة، كما لم يكن هناك أحد من الناشرين الذين يستطيعون نشر الكتب على نفقتهم. فكان كل اعتماد الشعراء في كسب عيشهم على التقرب من الخلفاء والمقربين إليهم من العظماء، بالقصائد الرنانة ابتغاء المنح والعطايا. ولهذا كان الإغراق في المدح من أهم مميزات الشعر في أيام العباسيين. أضف إلى ذلك دخول غير العرب وخاصة الفرس في حلبة الشعراء. ولما كان الحكم في الدولة العباسية استبدادياً، كان الإفراط في المدح هو السبيل الوحيد إلى التقرب من الخلفاء ورجال دولتهم.

وكان للفرق الدينية، كالشيعية والمعتزلة، التي نشأت في القرن الأول الهجري ونمت في العصر العباسي الأول، شعراء يدافعون عن مبدئهم ويحفزون أتباعهم لمقاومة كل اعتداء يحيق بهم من خلفاء ذلك العصر. ومن هؤلاء السيد الحميري (١٧٣هـ). وكان كيسانياً، فأبان عن عقيدته في محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب، وأشاد بمآثره على ما تقدم.

وكان للمعتزلة الذين نشطت دعوتهم في بداية العصر العباسي ونمت نمواً سريعاً في عصر المأمون، شعراء يشيدون بمبادئهم وأعمالهم. من ذلك ما قاله بعضهم:

له خَلْف شِعب الصين في كل ثغرة ... إلى سوسها الأقصى وخلف البرابِر
رجالٌ دعاةٌ لا يَفُلُّ عزيمَهُم ... تهكُمُ جبَّار ولا كيدُ ماكر

وقد حفزت الانتصارات المتوالية التي ظفر بها الخلفاء العباسيون على الروم، كثيراً من الشعراء إلى إنشاد القصائد الرائعة للإشادة ببطولتهم وما أحرزوه من نصر وظفر في سبيل دفع خطر الأعداء عن المسلمين. من ذلك ما قاله أبو العتاهية في مطلع قصيدته التي نظمها على أثر انتصار الرشيد على الروم في هرقلة:

ألا نــادتْ هِـرقـلةُ بـالخـراب مــن المـلك المـوفـق بـالـصـواب

ومدح أبو تمام الخليفة المعتصم على أثر انتصاره في عمورية بقصيدته التي قال فيها:

فَتْـحُ الفتـوح تـعـالى أن يحيط بـه نـظمٌ من الشعـر أو نـثر من الخـطب
فـتـح تـفـتـح أبـواب السـماء لـه وتـبرز الأرض في أثـوابهـا الـقـشـب
يـا يـومَ وقـعـة عمـوريـة انصرفـت عنـك المنى حفـلاً معسـولـة الحلب

(ب) النثر:

ويمثل الأدب وتاريخه في العصر العباسي الأول طائفة من الأدباء، نخص بالذكر منهم عبد الله بن المقفع الذي يرجع إليه الفضل في نقل كثير من الكتب عن الفهلوية، وهي الفارسية القديمة. ومن هذه الكتب كتاب كليلة ودمنة الذي ترجمه عن أقاصيص بيدبا التي كتبت بالسنسكريتية، وهي اللغة الهندية القديمة. ويعد هذا الكتاب من أقدم كتب النثر في الأدب العربي، كما يعد مثلاً أعلى في سلامة الأسلوب وسلاسة العبارة.

ومن أدباء هذا العصر عبد الحميد الكاتب الذي يعتبر شيخ صناعة الكتابة، والذي قيل فيه: «بدئت الكتابة بعبد الحميد»، لأنه أحدث فيها أموراً فنية لم تكن من قبل، كالتحميدات في صدور الرسائل وتقسيم الفقر والفصول، وختم الرسائل بما يناسب المكتوب إليه، وإطالتها في شئون الملك والسياسة إطالة لم تعهد من قبل. وليس لعبد الحميد كتب، وإنما خلف رسائل مشهودة مبثوثة في كتب الأدب والتاريخ، من أشهرها رسالته إلى الكتاب، ورسالته التي كتبها إلى ولي عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية. ويجمع أسلوبه بين الجزالة العربية وسهولة الحضريين، ومع غزارة المعاني ودقتها وحسن تقسيمها[١].

ومن هؤلاء ابن قتيبة الذي ينسب إلى مدينة مرو حاضرة خراسان؛ وقد تقلد منصب القضاء في مدينة دينور، وعاش في بغداد في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري. ومن كتبه كتاب المعارف، وكتاب الشعر والشعراء الذي نادى فيه بالتجديد وأنحى على كل قديم لوما، وكتاب «أدب الكاتب» وكتاب عيون الأخبار[٢] الذي قسمه إلى عشرة كتب: كتاب الحرب، وكتاب السؤدد، وكتاب الطبائع والأخلاق المذمومة، وكتاب العلم والبيان، وكتاب

---

(١) راجع ما كتبه الجهشياري في كتاب الوزراء والكتاب - نشره الأستاذ مصطفى السقا (١٢٥٧/١٩٢٨) ص ٧٦ - ٨٣.

(٢) طبعة دار الكتب المصرية في أربعة مجلدات (١٢٤٢ - ١٢٤٨هـ).

الزاهد، وكتاب الإخوان، وكتاب الحوائج، وكتاب الطعام، وكتاب النساء[١].

ومن أدباء ذلك العصر عمرو بن بحر الجاحظ البصري (٢٥٥ هـ) الذي عرف بحرية الفكر والميل إلى عقائد المعتزلة، حتى لقد نشأت فرقة تسمى الجاحظية نسبة إليه. ومن أشهر كتبه كتاب «الحيوان» وكتاب «البيان والتبيين».

(جـ) العلوم العقلية:

١ ـ الترجمة:

أما عن اشتغال المسلمين بالعلوم العقلية، فيرى الأستاذ نيكلسون[٢] أنهم استمدوا آراءهم وعلومهم من الثقافة اليونانية، التي كانت منذ فتوحات الإسكندر منتشرة في مصر وسورية وغربي آسيا، فإنه لما اضمحلت مدرسة الرها في أواخر القرن الخامس الميلادي بسبب قيام الخلافات المذهبية، لجأ علماؤها الذين طردوا إلى بلاد الفرس، واحتموا ببلاط كسرى أنوشروان (٥٣١ ـ ٥٧٨ م)، وكان قد رحب بفلاسفة مدرسة الأفلاطونية الحديثة، الذين نفاهم الإمبراطور جستنيان من أثينا لوثنيتهم، وأسس في جُنْد يسابور من أعمال خوزستان داراً للعلم قام فيها هؤلاء العلماء بتدريس الطب والفلسفة، وبقي أثرها في تلك البلاد حتى ظهرت الدولة العباسية. كما غدت حران مركزاً آخر من مراكز الثقافة اليونانية ببلاد العراق. وقد تكلم أهل حران، وهم الصابئة، اللغة العربية في سهولة ويسر، وساعدوا إلى حد كبير على نشر الثقافة اليونانية بين المسلمين. وإليهم يرجع الفضل في ترجمة كثير من الكتب عن اللغات الأجنبية.

ولم يكن لترجمة الكتب إلى العربية حظ كبير في عهد بني أمية. وكان خالد بن يزيد بن معاوية أول من عني بنقل علوم الطب والكيمياء إلى العربية: فدعا جماعة من اليونانيين المقيمين في مصر وطلب إليهم أن ينقلوا له كثيراً من الكتب اليونانية والقبطية التي تناولت البحث في صناعة الكيمياء العملية، وعمل على الحصول على الذهب عن طريق الكيمياء. وكذلك عربت الدواوين منذ عهد عبد الملك بن مروان، بعد أن كانت بالفارسية واليونانية، ونقل ديوان مصر من اليونانية والقبطية إلى العربية في عهد الوليد بن عبد الملك[٣].

---

(١) Lit. Hist. of the Arabs, pp. 346-7.

(٢) Ibid, p. 258.

(٣) انظر كتاب أوراق البردى العربية، ترجمة المؤلف جـ ١ ص ٢٨ وما يليها.

فلما جاءت الدولة العباسية التي قامت بمساعدة الفرس، ونشأ من ذلك اختلاط العنصرين العربي والفارسي، اتجهت ميول الخلفاء العباسيين إلى معرفة علوم الفرس واليونان، فعني أبو جعفر المنصور بترجمة الكتب، ونقل له حنين بن إسحاق بعض كتب أبقراط وجالينوس في الطب. كما نقل ابن المقفع[١] كتاب كليلة ودمنة من الفهلوية، وترجم كتاب «السند هند» وكتاب إقليدس في الهندسة إلى العربية. واشتهر في الترجمة من الفارسية إلى العربية غير ابن المقفع كثيرون، كآل نوبخت، والحسن بن سهل الذي استوزره المأمون، وأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري في فتوح البلدان، وعمر بن الفرخان.

وقد زادت العناية بترجمة الكتب في عهد هارون الرشيد بعد أن وقع في حوزته بعض المدن الرومية الكبرى، فأمر بترجمة ما عثر عليه المسلمون من كتب اليونان. كما نشطت حركة الترجمة بفضل تشجيع البرامكة للمترجمين وإدرار الأرزاق عليهم.

وفي عهد المأمون قويت حركة النقل والترجمة من اللغات الأجنبية، وخاصة من اليونانية والفارسية، إلى العربية؛ فأرسل البعوث إلى القسطنطينية لإحضار المصنفات الفريدة في الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب. وروى ابن النديم[٢]. أن «المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات، وقد استظهر عليه المأمون، فكتب إليه يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع. فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر، وابن البطريق، وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا. فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل». ولم تكد تلك الذخائر النفيسة تصل إلى بغداد حتى عهد إليهم المأمون في ترجمتها. وكان قسطا بن لوقا يشرف على الترجمة من الفارسية القديمة.

ولم تكن العناية بالترجمة مقصورة على المأمون، بل عني جماعة من ذوي اليسار في عهده بنقل كثير من الكتب إلى العربية. ومن هؤلاء محمد وأحمد والحسن أبناء موسى بن شاكر المنجم، الذين أنفقوا الأموال الضخمة في الحصول على كتب الرياضيات وكانت لهم آثار قيمة في الهندسة والموسيقى، والنجوم وقد أنفذوا حنين بن إسحاق إلى بلاد الروم، فجاءهم بطرائف الكتب وفرائد المصنفات[٣]. وقد ظهرت في عهد المأمون طائفة من جهابذة الرياضيين من أمثال محمد بن موسى الخوارزمي الذي يعد أول من درس الجبر دراسة منظمة وجعله علماً منفصلاً عن الحساب.

---

(١) ابن النديم: كتاب الفهرست ص ٣٤٢.

(٢) كتاب الفهرست ص ٣٣٩.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٤٠.

وكان من أثر نشاط حركة النقل والترجمة في عهد المأمون العباسي، أن اشتغل كثير من المسلمين بدراسة الكتب التي ترجمت إلى العربية، وعملوا على تفسيرها والتعليق عليها وإصلاح أغلاطها. نخص بالذكر من هؤلاء يعقوب بن إسحاق الكندي، الذي نبغ في الطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق والهندسة وعلم النجوم. وقد حذا في تأليفه حذو أرسطو، وترجم كثيراً من كتب الفلسفة وشرح غوامضها.

وقصارى القول أنه كان هناك أربعة من مشاهير المترجمين في الإسلام هم: حنين بن إسحاق، ويعقوب الكندي، وثابت بن قرة الحراني، وعمر بن الفرّحان الطبري وأن العباسيين ترجموا ما وصل إليه اليونان والفرس وغيرهم من العلوم، كالفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والموسيقى والمنطق والفلك والجغرافية والتاريخ والحكم والآداب والسير. وقد ذكر ابن النديم[1] «أن بني المنجم كانوا يرزقون جماعة من النقلة، منهم حنين بن إسحاق، وحبيش بن الحسن، وثابت بن قرة وغيرهم، في الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة».

٢ ـ معاهد الدرس والثقافة:

كانت المساجد تعد من أكبر معاهد الثقافة لدراسة القرآن والحديث والفقه واللغة، وقد تنوعت العلوم التي كانت تدرس في العصر العباسي، وأصبح كثير من هذه المساجد مراكز هامة للحركات العلمية. وأحسن مثل لذلك مسجد البصرة الذي كان فيه حلقة قوم من أهل الجدل يتصايحون في المقالات، وبجانبهم حلقة للشعر والأدب. وكان الذين يحضرون هذه الحلقات من شعوب وديانات مختلفة. وهكذا صارت الثقافات التي كان للإسلام أثر في مزجها، تلتقي في تلك المراكز على مر السنين، حتى امتزج بعضها ببعض. فإن من اعتنق هذا الدين من غير العرب كان يرى لزاماً عليه أن يتعلم العربية وآدابها حتى يتيسر له قراءة القرآن ودراسته، وبذلك يجمع بين ثقافته القومية والثقافة العربية.

ولم يكن للمكتبات شأن كبير في العصر الأموي، ولما نشطت حركة الترجمة والتأليف في العصر العباسي، وتقدمت صناعة الورق، وتبع ذلك ظهور كثير من الوراقين واتخاذ أمكنة فسيحة يجتمع فيها العلماء والأدباء للتزود من العلم، كثرت المكتبات التي كانت تزخر بالكتب الدينية والعلمية والأدبية. وصارت هذه المكتبات فيما بعد أهم مراكز الثقافة الإسلامية.

وكان بيت الحكمة، الذي يرجح أن الرشيد هو الذي وضع أساسه، وعمل المأمون من بعده على إمداده بمختلف الكتب والمصنفات، من أكبر خزائن الكتب في العصر العباسي. وقد

---

(١) كتاب الفهرست ص ٣٤٠.

ظلت هذه الخزانة قائمة حتى استولى المغول على بغداد سنة ٦٥٦ هـ وكانت تحوي كل الكتب في العلوم التي اشتغل بها العرب، كما كان للعلماء والأدباء الذين يختلفون إليها، أكبر الأثر في تقدم الحركة العلمية في عهد العباسيين ونشر الثقافة بين جمهور المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى. ولم يقتصر تشجيع العلم على الخلفاء بل تعداهم إلى الوزراء وسائر كبار رجال الدولة. فقد ذكر المسعودي[1] أن يحيى بن خالد البرمكي كان يميل إلى البحث والمناظرة، وكان «له مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل النحل».

ومن أهم معاهد الثقافة أيضاً: الزاوية، والرباط، والكتاب، والمدرسة وديوان الإنشاء، والمارستان. كما أصبحت بعض المدن مراكز للدراسات على اختلافها كما سيأتي الكلام على ذلك بشيء من الإسهاب في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

٣ ـ التاريخ:

يقول دي بور[2]: يمتاز مؤرخو العرب الأقدمون بالقدرة على إدراك الجزئيات إدراكاً دقيقاً، غير أنهم لم يقدروا على ربط الحوادث برباط جامع. وقد وجدوا من اتساع دولتهم مادة غزيرة في التاريخ والجغرافية.

ولم يكن السواد الأعظم في صدر الإسلام يستطيعون القراءة والكتابة، فلم يدون تاريخ الأمة العربية إلا بعد زمن غير قصير. وقد روى العرب الحوادث التاريخية المشهورة والأحاديث النبوية بشيء غير قليل من التبديل والتحريف، مما أدى بها إلى الغموض والإبهام، فشوهت معانيها والظروف التي أحاطت بوقوعها وقولها. حتى إذا جاء القرن الثاني للهجرة، أخذ العرب يبحثون تاريخهم، ولم يكن أكثره إلا شذرات مبهمة غير متصل بعضها ببعض، أو أنه دون بحيث يتمشى مع ميول الفرق الدينية المختلفة التي عمل كل منها على إكبار مذهبهم ولعن أعدائه.

والحق أن مصادر التاريخ الإسلامي كثيرة متنوعة. فمن أهم المصادر التاريخية مصادر التاريخ النبوي. وهي القرآن الكريم؛ والأحاديث النبوية، والشعر الذي أثر عن العصر النبوي، مثل شعر حسان بن ثابت الذي نظم القصائد الكثيرة في مدح الرسول وهجاء أعدائه، إلا أن كثيراً من الشعر المنسوب إليه قد دس عليه.

ويعزى إلى ابن المقفع أنه نقل كتاب خداي نامه Khuday Name'h. أو كتاب الملوك، من الفهلوية إلى العربية، وقد سماه سير ملوك العجم، ويعد نموذجاً لكتابة التاريخ عند

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٨٣.

(٢) تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٨٠.

العرب. ويعتبر هشام بن محمد الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ، وأبوه محمد. أول من كتب من العرب في علم التاريخ، كما اشتهر كل منهما بتحري الدقة في روايته.

وقد تأثرت كتابة التاريخ في صدر الإسلام بحياة الرسول، لأن المؤرخين اتخذوا من الحديث ولاسيما ما يتصل منها بالغزوات مادة لما دونوه، ومن ثم ظهرت كتب السير والمغازي.

ومن أقدم مصادر السيرة النبوية سيرة ابن هشام المتوفى بمصر سنة ٢١٨ هـ، وتعرف باسم سيرة رسول الله: وقد استمد فيها معلوماته التاريخية عن أستاذه ابن إسحاق المتوفى سنة ١٥١ هـ[١]. وهي تعطينا صورة صحيحة لحياة النبي ﷺ وما قام به في تبليغ الرسالة وبث الدين. ويؤخذ على ابن هشام اختصاره في مواضع أطال فيها ابن إسحاق وإطالته في مواضع اختصرها. ومن كتب ابن هشام كتاب في أنساب حمير وملوكها، وكتاب في شرح ما وقع في أشعار السير من الغريب[٢] ومن كتب المغازي كتاب الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ هـ.

وفي القرن الثالث الهجري تطور علم التاريخ واتسعت مصادره، وأخذ المؤرخون يوفقون بين المواد المستمدة من السيرة وغيرها من المصادر ابتغاء إدماجها في رواية تاريخية متماسكة. ولعل البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هـ أول من أخذ بهذا المنهج في كتابه فتوح البلدان.

ومن مصادر السيرة النبوية أيضاً كتاب الطبقات الكبير [٣] لمحمد بن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٥ م)، وكان كاتب الواقدي المتوفى سنة ٢١٨ هـ. ويعد هذا الكتاب من المصادر الموثوق بصحتها، على الرغم من أن مؤلفه عرف بالميل إلى الشيعة.

٤ ـ الجغرافية:

كان لاتساع نطاق التجارة في العصر العباسي الأول، واتصال مدينة بغداد حاضرة العباسيين براً وبحراً بالبلدان القاصية، ثم لتعبيد الطرق وجعلها آمنة، أثر كبير في تسهيل الأسفار وتمهيد السبل أمام الكاشفين والرحالين؛ فظهر كثير منهم قاموا برحلات مهمة ووضعوا في وصفها الكتب والأسفار، ووصفوا ما شهدوه في البلدان التي اختلفوا إليها وصفاً دقيقاً مبنياً على المشاهدة. وبذلك خلف لنا جغرافيو المسلمين ثروة كبيرة، هي خلاصة مشاهداتهم

---

(١) روى الشافعي أنه قال؛ من أراد أن يبحر في المغازي فهو عيال على ابن إسحاق (ابن خلكان جـ ٩ ص ٤٨٣).

(٢) ابن خلكان جـ ١ ص ٢٩٠.

(٣) يقع هذا الكتاب في ثمانية مجلدات، وطبع في مدينة ليدن سنة ١٣٢٥ هـ، وقام بطبعه المستشرق إدوارد سخاو Edward Sachau مدير مدرسة اللغات الشرقية ببرلين سابقاً، وقد أفرد ابن سعد للسيرة مجلدين.

وتجاريبهم التي اكتسبوها من أسفارهم في كثير من الأقاليم والممالك والبلدان.

وقد تقدم الكلام في الباب السادس أن رحلات المسلمين وصلت في عهد هارون الرشيد إلى الهند وسيلان وشبه جزيرة ملقا والصين. ويقال إنهم وصلوا بحراً إلى كوبا. كما كان للفتوح الإسلامية في أواسط آسيا وفي بلاد الهند شرقاً، وغرباً في شمال إفريقية وأوربا، أثر كبير في اتساع أفق التفكير الإسلامي عن أحوال هذه البلاد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وفي تنشيط التجارة والصناعة.

ولكن مما يسترعي النظر أن هذه الثروة الجغرافية العظيمة، لم تظهر ظهوراً جلياً إلا في العصر العباسي الثاني. أما في العصر العباسي الأول فقد ظهر ابن خرداذبه، الجغرافي الفارسي الأصل، الذي عاش في النصف الأول من القرن الثالث الهجري، وخلف لنا كتابه «المسالك والممالك»[١]. ويعتبر بحق من أقدم الكتب الجغرافية التي ظهرت في اللغة العربية. وهو عبارة عن دليل يستعين به المسافرون في الاهتداء إلى الطريق البحري الذي يبدأ من مصب نهر دجلة عند الأبلة، ويصل إلى الهند والصين[٢].

٥ ـ علم النجوم والرياضيات والكيمياء:

ولم يكن لبعض علوم العجم كالنجوم والكيمياء والرياضيات الفلسفة والطب، مكان ملحوظ بين العلوم التي اشتغل بها المسلمون في العصر العباسي الأول ولكنها ازدهرت بعد ذلك، لأن همتهم كانت مقصورة في الغالب على نقل الكتب. على أن هذا لا يمنعنا عن القول إنه كانت هناك طائفة من المسلمين أخذوا يشتغلون بهذه العلوم، كجابر بن حيان الذي اشتهر في الكيمياء. وكان من أهل طرسوس، ويعرفه الأوروبيون باسم Geber، وتوفي في عهد الخليفة المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ). وقد ألف جابر كتباً كثيرة في الكيمياء والمعادن والأحجار انتفع بها الأوروبيون.

واشتهر بالصيدلة كوهين العطار اليهودي الذي وضع كثيراً من المؤلفات، نخص بالذكر منها كتابه «صناعة الصيدلة»، شرح فيه العقاقير شرحاً ضافياً، وأوضح طريقة عمل المشروبات والجرعات والمساحيق والحبوب وغيرها.

ويقول دي بور[٣] إن فيثاغورس يعتبر معلم العرب في الرياضيات، حتى إنه كان يقال

---

(١) طبع في مدينة لندن سنة ١٨٨٦ ونشره دي غويه.

(٢) Nicholson, P. 356.

(٣) تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٨٠.

إن الإنسان لا يكون فيلسوفاً ولا طبيباً حاذقاً إلا بدراسة فروع الرياضيات، كالحساب والهندسة والفلك والموسيقى. واشتهر في علم الحساب عمران بن الوضاح وشهاب بن كثير، ومهر في الهندسة الحجاج بن أرطأة الذي خط المسجد الجامع ببغداد في عهد المنصور. وكانت هناك علاقة كبيرة بين الرياضيات والتنجيم الذي اشتغل به العرب في عهد بني أمية، ثم تقدمت ممارسته في العصر العباسي الأول، حتى إن أبا جعفر المنصور لما اتصل به خروج محمد النفس الزكية «أشفق منه، فجعل الحارث المنجم يقول له: يا أمير المؤمنين! ما يجزعك منه؟ فوالله لو ملك الأرض ما لبث إلا تسعين يوماً».

وما يدلنا على اعتماد العباسيين على التنجيم في كثير من الأحيان، ما ذكره ياقوت الحموي عند كلامه على تأسيس مدينة بغداد، من أن أبا جعفر المنصور اعتمد على الوقت الذي اختاره له المنجمون، حتى إنه لم يبدأ بوضع الحجر الأساسي للبناء إلا بعد أن أشار عليه أبو سهل بن نوبخت المنجم، وأخبره بما تدل عليه النجوم من طول بقاء هذه المدينة وكثرة عمارتها.

وقد رأينا عند كلامنا على أثر الوزراء في النزاع الذي قام بين العباسيين والعلويين، أن الفضل بن سهل كان خبيراً بعلم النجوم، وأن هذا العلم قد دله على أن المأمون سيصير خليفة. ولذلك تقرب إليه وأخلص له إلى أن أفضت الخلافة إليه فاستوزره. كما كان الحسن بن سهل أخو الفضل خبيراً في علم النجوم؛ فقد رأيناه ينصح لأخيه الفضل ألا يدخل الحمام في اليوم الذي اغتيل فيه، معتمداً في ذلك على معرفته بالتنجيم. وممن اشتهر بالتنجيم في العصر العباسي الأول عبد الله بن نوبخت. وقد ذكر ابن القفطي[1] أن المأمون استعان به في اختيار وقت لبيعة علي الرضا.

وممن نبغ في علم النجوم في العصر العباسي الأول جعفر بن عمر البلخي، ويعرف بأبي معشر الفلكي. وكان في بدء حياته من أصحاب الحديث. ثم اشتغل بعلم النجوم، ونبغ فيه بعد أن بلغ السابعة والأربعين عن عمره، وعمر طويلاً حتى جاوز المائة، ومات بواسط سنة ٢٧٢ هـ. ولأبي معشر كتب كثيرة، منها إثبات العلوم، وهيئة الفلك.

٦ ـ الطب:

وكان لاختلاط المسلمين بغيرهم من الأمم، وخاصة الفرس والروم، أثر كبير في العلوم العقلية كالطب والرياضيات وعلم النجوم. فقد رأينا أبا جعفر المنصور يستشير أطباء العراق ويعتمد على إرشاداتهم، وأنه استقدم طبيباً من مشاهير أطباء الهند؛ كما ذكرنا عند كلامنا على

---

(١) إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٢١ ـ ٢٢٣.

وفاة المنصور كيف تنبأ أطباؤه بموته بسبب إكثاره من الطعام وإسرافه في تعاطي الأفاوية والأدوية الحارة التي تهضم طعامه، ولكنها تضر بمعدته وأمعائه، وكيف ذهب المنصور ضحية عدم إصغائه لنصائح هؤلاء الأطباء مما يدل على مبلغ تقدم الطب في ذلك العصر.

واشتهر في عهد هارون الرشيد من الأطباء ابن بختيشوع الذي نبغ في علم النفس ومهر في تشخيص الأمراض العصبية وعلاجها، وعينه هذا الخليفة رئيساً للأطباء في حاشيته. واشتهر في عهد المعتصم يحيى بن ماسويه. ويذكر المسعودي أن المعتصم كان يعتمد على مشورته، وأنه كان لذلك يحتفظ ببنية قوية، وأنه لما خالف مشورة طبيبه اعتلت صحته وتغير لونه. يقول ابن ماسويه عن المعتصم لما اعتراه المرض: «كان قبل ذلك إذا أكل السمك اتخذ له صباغاً من الخل والكراويا والكمون والسذاب والكرفس والخردل، فأكله بذلك الصباغ فدفع أذى السمك وإضراره بالعصب؛ وإذا أكل الرؤوس اتخذت له أصباغ تدفع أذاها وتلطفها. وكان في أكثر أموره يلطف غذاءه ويكثر مشورتي، فصار اليوم إذا أنكرت شيئاً خالفني وقال: آكل هذا على رغم ابن ماسويه».

وكما أن العباسيين اعتمدوا على أطباء العراق والهند، كذلك اعتمدوا على الطب الذي خلفه اليونان. وقد نبغ في عهد الواثق من الأطباء ابن بختيشوع، وابن ماسويه، وميخائيل، وحنين بن إسحاق، وقد حذق هؤلاء وغيرهم صناعة الطب ومرنوا عليها، واعتمدوا في علاج مرضاهم على ما كسبوه من تجارب. كما أفاد المسلمون من كتب اليونان ونظرياتهم في تشخيص الأمراض[١]. ونبغ حنين بن إسحاق في علم المواد السامة. وقد قيل إن الخليفة المتوكل أمره بدس السم لأحد أعدائه، فأبى قائلاً إن القرآن يأمر بعمل الخير حتى لأعدائنا، وصناعتنا الشريفة تمنعنا من أذى الغير.

كذلك وصف الأطباء في هذا العصر الفم والأسنان وأنواعها وعددها ووظيفة كل منها، حتى لقد أعجب الخليفة الواثق بوصف حنين بن إسحاق، وطلب منه أن يصنف له كتاباً يذكر فيه جميع ما يحتاج إلى معرفته، «فصنف له كتاباً جعله ثلاث مقالات، يذكر فيه الفرق بين الغذاء والدواء والمسهل وآلات الجسد»[٢].

وقد أورد المسعودي وصفاً دقيقاً للأسنان يعتبر في الواقع وثيقة طبية هامة لا بأس من ذكرها هنا. قال الواثق لحنين من بين الجماعة: «ما أول آلات الغذاء من الأسنان؟ قال: أول آلات الغذاء الفم وفيه الأسنان والأسنان إثنتان وثلاثون سناً، منها في اللحي الأعلى ستة عشر

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ٢ ص ٣٦٦. (٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٣٦٤ - ٣٦٦.

سناً، وفي اللحي الأسفل كذلك؛ ومن أربعة في كل واحد من اللحيين، عراض محددة الأطراف، تسميها الأطباء من اليونانيين القواطع، وذلك أن بها يقطع ما يحتاج إلى قطعه من الأطعمة اللينة. كما يقطع هذا النوع من المأكل بالسكين، وهي الثنايا والرباعيات. وعن جنبي هذه الأربعة في كل واحد من اللحيين سنان رؤوسهما حادة وأصولهما عريضة، وهي الأنياب، وبها يكسر كل ما يحتاج إلى تكسيره من الأشياء الصلبة مما يؤكل. وعن جنبي النابين في كل واحد من اللحيين، خمس أسنان أخر عوارض خشن، وهي الأضراس، ويسميها اليونانيون الطواحن، لأنها تطحن ما يحتاج إلى طحنه مما يؤكل. وكل واحد من الثنايا والرباعيات والأنياب له أصل واحد. وأما الأضراس فما كان منها في اللحي الأعلى، فله ثلاثة أصول خلا الضرسين الأنصبين، فإنه ربما كان لكل واحد منهما أصول أربعة. وما كان من الأضراس في اللحي الأسفل، فلكل واحد منها أصلان، خلا الضرسين الأقصيين، فإنما ربما كان لكل واحد منهما أصول ثلاثة. وإنما احتيج إلى كثرة أصول الأضراس دون سائر الأسنان، لشدة قوة العمل بها، وخصت العليا منها بالزيادة في الأصول لتعلقها بأعلى الفم».

وفي هذا العصر اهتم العباسيون بنشر العلوم الطبية وتقدمها، فشجعوا الأطباء وأسسوا المدارس الطبية والمستشفيات، ودعوا إلى عقد المؤتمرات الطبية التي كان يجتمع فيها الأطباء من كافة البلاد في موسم الحج، حيث يعرض الأطباء نتائج أبحاثهم، ويعرضون نباتات البلاد الإسلامية ويصفون خواصها الطبية. وأصبحت بغداد في الشرق وقرطبة في الغرب من أهم مراكز الثقافة الطبية الإسلامية. وقد أمر أبو جعفر المنصور الذي يعتبر المؤسس الثاني للدولة العباسية ببناء مستشفى للعميان ومأوى للمجاذيب وملجأ للعجائز في بغداد، وشيد هارون الرشيد مستشفى كبيراً لتعليم الطب وزوده بالمؤلفات العلمية.

الباب الثامن
الفن

اتسعت فتوح العرب واختلطوا بغيرهم من الأمم الأخرى، واتسع أفق الفن في أعينهم، واستطاعوا أن يخرجوا صوراً فنية جديدة لا تخرج عن مبادىء الدين الإسلامي. على أن الأمر الذي يسترعي النظر أن العرب لم يعنوا بفن النحت والتصوير عنايتهم بالبناء والزخرفة، لأنهم رأوا في ذلك تشبهاً بعبدة الأوثان، لهذا كان العنصر الأساسي في زخرفتهم الرسوم النباتية والهندسية[١].

وقد اتخذ العرب بعد استيلائهم على بلاد الشام وفارس طرازاً خاصاً للعمارة يتناسب وحالة معيشتهم، فامتازت مبانيهم بطرز خاصة من الأعمدة والأقواس أو العقود والقباب والمقرنصات أو الدلايات، وهي زخارف معمارية تشبه خلايا النحل، وتجدها بارزة ومدلاة في طبقات، مصفوفاً بعضها فوق بعض في واجهات المساجد وفي المآذن، لإقامة الشرفات التي يدور فيها المؤذن، أو في تيجان بعض الأعمدة الإسلامية أو في القباب التي بين القاعدة المربعة والسطح الدائر. وقد استخدمت المقرنصات للزخرفة في السقوف الخشبية فضلاً عن استخدامها في العمائر نفسها[٢].

وعلى الرغم من أن العرب استعانوا بمهرة الصناع في البلاد التي دخلت تحت سلطانهم، احتفظت العمارة العربية أول الأمر في المساجد. وكان مسجد قباء الذي أنشأه الرسول عليه الصلاة والسلام، النموذج الأول لسائر المساجد الإسلامية ومما لا شك فيه أن اختلاف الحجاج إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة في كل عام، وأداءهم الصلاة في المدن والقرى التي كانوا يمرون بها، قد ساعد على محاكاة مساجد بلاد الحجاز.

وقد أدخلت المقصورة في عمارة المساجد لتحجب الإمام عن سائر المصلين. وكان أول

---

(١) زكي محمد حسن: في الفنون الإسلامية ص ٨ و ٢٥ ـ ٤٣.

Zaky M. Hassan: The Attitude of Islam Towards Pounting Bulletin Of The Faculty Of Arts, Fouad I. University, Vol VII July, 1944 PP, 1- 15.

(٢) المصدر نفسه ص ٤٨.

من اتخذها معاوية بن أبي سفيان، حين خشي على نفسه أن يحل به ما حل بعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب، واقتدى به الخلفاء من بعده. وكذلك دخلت في عمارة المساجد زيادات، منها المآذن والمحراب الذي يدل على جهة القبلة[١]، والإيوانات، وهي أروقة تحيط بالصحن ذات أقواس مرفوعة على أعمدة أو دعائم. واستمر ذلك إلى العصر العباسي الأول.

وقد تقدم فن الزخرفة الإسلامية في عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين. ومن مميزاته الظاهرة استعمال النقوش الخطية العربية، فكثيراً ما نرى آية من آيات القرآن الكريم أو بيتاً من الشعر أو عبارة من عبارات التحية والتهنئة، تدور حول حافة التحف الأثرية أو تكون شريطاً زخرفياً على أثر من الآثار.

وفي عهد الأمويين ازدهر فن النقوش الحائطية التي لا يزال بعضها باقياً في «قصير عمرة»، وهو بيت للصيد شرقي البحر الميت. ويتجلى في طرازها مزيج من الأساليب الشرقية والهلينية. ويذهب علماء الآثار إلى أن هذا البناء شيد في عهد الوليد بن عبد الملك الأموي[٢].

ولما انتقل مركز الخلافة من دمشق إلى بغداد أثر الفن الفارسي في الفن الإسلامي تأثيراً كبيراً. وكان للخلفاء العباسيين والأمراء والوزراء وغيرهم من كبار رجال الدولة، ولوع شديد ببناء القصور الفخمة. فقد بنى أبو جعفر المنصور قصر الذهب في وسط مدينة بغداد. وفي صدر هذا القصر إيوان طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون، يعلوه قبة عليها مجلس. وفوق هذا المجلس القبة الخضراء. وبلغ ارتفاع القصر ثمانين ذراعاً، وقد بني بالجص والآجر، ورفعت حجراته على أساطين الساج، وسقف بالخشب وحلي باللازورد. وبقي على ذلك حتى هدمه هارون الرشيد وأعاد بناءه، وكان على رأس القبة تمثال على صورة فارس في يده رمح. وكان هذا التمثال يدور مع الريح؛ فإذا استقبل الصنم جهة من الجهات ومد الرمح نحوها، كان ذلك إيذانا بظهور الخوارج من هذه الجهة. على أننا نرى أن فيما ذكره الخطيب البغدادي[٣] شيئاً كثيراً من المبالغة.

ومن قصور بغداد «قصر الخلد» على شاطىء دجلة الغربي تجاه باب خراسان. وقد تأنق أبو جعفر المنصور في بنائه وتجميله حتى سمي الخلد تشبيهاً له بجنة الخلد. وبنى المهدي بن المنصور قصر الوضاح على مقربة من قصر الرصافة. ومن قصور بغداد قصر عيسى الذي بناه

(١) Creswell: Early Moslim Architecture. Vol. I. PP. 98 - 99.

(٢) كتاب التصوير عند العرب، تأليف أحمد تيمور باشا، أخرجه وزاد عليه الدراسة الفنية والتعليقات الدكتور زكي محمد حسن، ص ١٥٠ - ١٥١، ٢٤٧ - ٢٥٠.

(٣) كتاب تاريخ بغداد جـ ١ ص ٧٣.

عيسى بن علي العباسي عند مصب الرفيل في دجلة. وكانت بعض عمائر بغداد مؤلفة من عدة طبقات يظهر في زخرفها الذوق الفارسي.

وفي العصر العباسي الأول تقدم فن الزخرفة تقدماً عظيماً، يدل على ذلك هذه القباب الأربع التي بناها المنصور على أبواب مدينة بغداد الأربعة، وكان قطر كل واحدة منها خمسين ذراعاً. وقد زخرفت هذه القباب بالذهب، وكان يصعد إليها على الخيل، وعليها تماثيل تديرها الريح. وكان المنصور يجلس في هذه القباب طلباً للراحة؛ فإذا أحب النظر إلى الماء جلس في قبة باب خراسان، وإذا أحب النظر إلى الأرباض وما والاها جلس في قبة باب الشام، وإذا أحب النظر إلى الكرخ جلس في قبة باب البصرة، وإذا أحب النظر إلى البساتين والضياع جلس في قبة باب الكوفة. وتشبه هذه القباب المناظر التي بناها الخلفاء الفاطميون في الفسطاط والقاهرة فيما بعد.

وقد أصبحت القصور في العصر العباسي الأول محلاة بالرسوم والزخارف من الداخل والخارج، وعليها صور من الجص المجسم، كما كانت طبقاتها مغطاة بستور من الديباج مزينة بالرسوم التي كانت من مميزات الفن الفارسي.

ومن آيات فن الزخرفة في العصر العباسي تلك الزخارف الجصية التي كانت تغطي الأجزاء السفلية من الجدران، والتي كشفت الحفائر في أطلال مدينة سامرا عن نماذج كثيرة منها[١]. كما أن من آياته الصور الحائطية التي عثر عليها في أنقاض بعض القصور في هذه المدينة. وقوام هذه الصور رسوم حيوانات وطيور وصور آدمية لأشخاص في الصيد[٢] أو لنساء يرقصن[٣]. وقد انتشرت أساليب العباسيين في زخرفة المنسوجات والتحف المعدنية والخزفية والخشبية في الدولة الإسلامية في ذلك العصر، فوصلت إلى مصر وإفريقية وإيران[٤].

ولم تقتصر عناية الخلفاء العباسيين على عمارة المدن الكبرى كبغداد وسامرا، بل إنهم اهتموا ببناء القصور في طريق مكة. يقول الطبري[٥]: «أمر المهدي ببناء القصور في طريق مكة، وأوسع من القصور التي كان أبو العباس بناها من القادسية إلى زبالة، وأمر بالزيادة في

(١) زكي محمد حسن: الفن الإسلامي في مصر جـ ١ ص ٢٨، ٣١.

(٢) Zaky M. Hassan: Hunting As Practised In Arab Countreis Of The Middle Ages.

(٣) زكي محمد حسن: الفن الإسلامي في مصر جـ ١ ص ٣٢ ـ ٣٣. راجع أيضاً. تعليقات زكي محمد حسن في كتاب التصوير عند العرب لأحمد تيمور باشا ص ١٤١ ـ ١٤٥، ٢٥٠ ـ ٢٥٣.

(٤) زكي محمد حسن: الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي ص ١٧، ٢١١ ـ ٢١٦، ٢٣٧ ـ ٢٤١.

(٥) ٩ ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩.

قصور أبي العباس، وترك منازل أبي جعفر التي كان بناها على حالها، وأمر باتخاذ المصانع في كل منها. وبتجديد الأميال والبرك وحفر الركايا مع المصانع... وأمر المهدي بالزيادة في المسجد الجامع بالبصرة، فزيد فيه من مقدمة مما يلي القبلة، وعلى يمينه مما يلي رحبة بني سليم. وأمر المهدي بنزع المقاصير من مساجد الجماعات وتقصير المنابر، وتصييرها إلى المقدار الذي عليه منبر رسول الله ﷺ، وكتب بذلك إلى الآفاق فعمل به» كما أمر المهدي بالزيادة في المسجد الحرام[١].

وقد وصف المسعودي[٢] قصر محمد بن سليمان الذي ولي البصرة في عهد المهدي فقال:

«ولما بنى محمد بن سليمان قصره بالبصرة على بعض الأنهار، دخل عليه عبد الصمد بن شبة فقال له محمد: كيف ترى بنائي؟ قال: بنيت أجل بناء بأطيب فناء وأوسع بناء وأرق هواء على أحسن ماء بين صواري وحسان وظباء».

وقد أولع الخلفاء العباسيون عامة بالعمارة. ويقول المسعودي[٣] عن المعتصم: «كان المعتصم يحب العمارة ويقول إن فيها أموراً محمودة: فأولها عمران الأرض التي يحيا بها العالم، وعليها يزكو الخراج، وتكثر الأموال، وتعيش البهائم، وترخص الأسعار، ويكثر المكسب ويتسع المعاش. وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك: إذا وجدت موضعاً، متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءني بعد سنة أحد عشر درهماً، فلا تؤامرني فيه.

والآن نأخذ في الكلام على بناء المدن في العصر العباسي الأول، فنشرع في الكلام على بناء مدينتي بغداد وسامرا.

(١) بغداد:

الحواضر الإسلامية التي سبقت بغداد:

إن تاريخ بغداد، باعتبارها قاعدة من القواعد الإسلامية، يسير جنباً لجنب مع قيام الدولة العباسية وسقوطها. وقد جرت العادة في البلاد الإسلامية أن تتخذ كل أسرة تلي الحكم قاعدة جديدة لها[٤]، فاتخذ الرسول عليه الصلاة والسلام يثرب مدينة له على أثر هجرته إليها، فلم

---

(١) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٩

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٦٤.

(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٣٤٥.

(٤) وهذه ظاهرة لاحظها العلماء في تاريخ الشرق القديم بوجه عام.
راجع الفصل الذي كتبه الأستاذ كريزولCreswell عن تأسيس بغداد، الجزء الثاني من كتابه
Early Muslim Architecture

تلبث أن أصبحت حاضرة الإسلام وأصبحت تسمى المدينة أو مدينة الرسول أو المدينة المنورة، وظلت حاضرة للدولة العربية حتى ولي علي بن أبي طالب الخلافة، فتركها واتخذ الكوفة بعد موقعة الجمل المشهورة حاضرة لخلافته.

وقد برهنت الأيام على أن علياً لم يوفق في اختيار تلك الحاضرة الجديدة، فإن تركه «المدينة» قد هـز التوازن الذي كان بين القبائل العربية في عهد الخلفاء قبله. وقد تبين له بعد فوات الفرصة أن اعتماده على أهل الكوفة لم يكن إلا سراباً، فإنه لم يستطع أن يقر النظام في حاضرة ملكه الجديدة، لأن السواد الأعظم منهم كانوا يناوئون حكومته الناشئة.

ولما انتقلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان اتخذ دمشق حاضرة لخلافته. ولا غرو فقد عمل منذ وليها في عهد عمر على توطيد نفوذه في بلاد الشام، مستعيناً بأتباعه وذوي قرباه وجذب الأنصار حوله بالعطايا والمنح. ومن ثم أصبحت دمشق صالحة لأن تكون حاضرة للأمويين. أضف إلى ذلك خصب بلاد الشام وكثرة النماء فيها، وقربها من بلاد الحجاز التي كانت لا تزال مركز القوة الدينية في الإسلام، ومن سائر مواطن القبائل العربية مما يساعد على تجنيد الجنود إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

ولا عجب فإن الدولة الأموية كانت تحتفظ بالدم العربي والعصبية العربية. هذا إلى أن دمشق كانت قريبة من حدود الإمبراطورية البيزنطية، تلك الحدود التي كان النزاع يقوم فيها بين العرب الروم، الذين لم تكد الحرب تخبـو نارها بينهم في وقت من الأوقات. كما أن قرب حاضرة المسلمين في العصر الأموي من هذه الحدود من شأنه أن يسهل حشد الجيوش في أقرب وقت.

ولما قامت الدولة العباسية لم تعد دمشق صالحة لأن تكون حاضرة لخلافتهم.

أولاً ـ لأن بني أمية وأنصارهم كانوا يقيمون فيها.

ثانياً ـ لبعدها عن بلاد الفرس مصدر قوة العباسيين. فقد كانت الدولة الأموية في وسط عنصر عربي يتعصب للعروبة ويناصر الأمويين على الروم إذا دهموا بلادهم. أما العباسيون فلم تكن لهم عصبية بين العرب، وإنما قامت قوتهم على الموالي من الفرس الذين كانوا بعيدين عن دمشق.

ثالثاً ـ ولقربها من حدود الدولة البيزنطية لم تعد آمنة من غارات جيوشهم عليها.

فكان من المناسب إذاً أن يعدل العباسيون عن اتخاذ دمشق حاضرة لخلافتهم وأن يستبدلوا بها حاضرة جديدة على مقربة من بلاد فارس.

وفي غضون الفتوح الإسلامية تأسست ببلاد العراق مدينتان اتخذهما المسلمون مركزين حربيين للجند هما؛ البصرة القريبة من مصب دجلة، والكوفة الواقعة على نهر الفرات، حيث يدخل طريق القوافل الصحراوية من الحجاز إلى فارس في أراضي بلاد العراق الزراعية. وقد أقام أبو العباس السفاح في القصر الذي بناه بجانب الأنبار، المدينة الفارسية القديمة الواقعة على الشاطىء الشرقي من نهر الفرات، حيث يتفرع النهر الكبير الذي اطلق عليه فيما بعد نهر عيسى، ويجري نحو دجلة. وسمى السفاح قصره «الهاشمية» نسبة إلى جده هاشم بن عبد مناف[١].

ولما توفي السفاح سنة ١٣٦ هـ (٧٥٤ م) وولي أخوه المنصور الخلافة، شرع بعد قليل في بناء قصر آخر سماه الهاشمية أيضاً. وكانت الهاشمية الثانية، أو هاشمية الكوفة، بين الكوفة والحيرة، وهي المدينة الفارسية القديمة الواقعة على نهرالفرات[٢]. وقد أدرك المنصور أن هذه المدينة لا تصلح حاضرة لخلافته، لقربها من الكوفة مقر الشيعة ومركز دعايتهم، ولأنها كانت معسكر القبائل العربية التي لم تفتر عن إثارة الفتن والقلاقل، حتى أصبح المنصور لا يأمن على نفسه لمجاورته أهل هذه المدينة الذين أفسدوا عليه جنده، ولما كان أيضاً من كراهته المقام فيها بعد حادث الراوندية. أضف إلى ذلك أن أهل الكوفة وما يجاورها من المدن تقع على حد الصحراء العربية التي تهب رمالها على الشاطىء الغربي للفرات[٣].

(٢) ـ اختيار موقع بغداد:

وقد رأى المنصور ضرورة اتخاذ حاضرته الجديدة وسط أراض خصبة يرويها ماء دجلة والجداول التي تأخذ ماءها من الفرات، وفي مكان تسهل فيه المواصلات بين أجزاء دولته، وتتوافر فيه سبل المعيشة؛ فبعث رواداً يختارون له مكاناً يبني فيه حاضرته الجديدة، فدلوه على موضع قريب من بارما الواقعة جنوبي الموصل، فخرج إليه في جماعة من رجال بلاطه وبات فيه. ولما أصبح سأل رجاله عن رأيهم في هذا المكان، فذكروا له طيب هوائه وجودة غذائه، فقال: «ولكن لا مرفق فيه للرعية». وذكر لهم أنه قد مر في طريقه إلى هذا المكان بموضع تجلب إليه المؤن في البر والنهر، وأنه يصلح مكاناً لحاضرة ملكه إذا استطاب هواءه ثم رجع المنصور

---

(١) اليعقوبي؛ كتاب البلدان ص ١٣٧. الطبري ج ٩ ص ١٧٤.

(٢) وفي رواية أخرى أن هاشمية المنصور كانت على مقربة من المدينة المسماة بمدينة هبيرة وكانت تقع على الفرات شمالي الكوفة. وينبغي أن نميز بينها وبين قصر ابن هبيرة، الذي عمر ما حوله، حتى أصبح مدينة عرفت بقصر ابن هبيرة، وكانت تقع على الفرات شمالي الكوفة.

(٣) راجع، Le Strange: Baghdad During The Abbasid Caliphate, PP. 11 - 14.

إلى هذا المكان وأقام فيه يوماً وليلة؛ وكان ذلك في فصل الصيف، فأعجبه هواؤه ووجد فيه المكان الذي يفي بأغراضه[١].

ثم دعا المنصور أهل هذه النواحي[٢] وسألهم عنها، وكيف هي في الحر والبرد والأمطار وغيرها، فأخبره كل واحد بما عنده من العلم، فبعث رجالاً من عنده فباتوا في هذه النواحي وأتوه بأخبارها، فأعجب المنصور موضع بغداد. وكان فيه، كما ذكر الخطيب البغدادي[٣]، مزرعة يقال لها المباركة، فدعا المنصور صاحبها ـ وكان أحد الدهاقين ـ وسأله عنها، فحسن له النزول بها لوقوعها بين أربعة نواحي (طساسيج)، وورود المؤن إليها من الشام والجزيرة ومصر والهند والسند والبصرة وواسط وأرمينية وأذربيجان عن طريق دجلة والفرات وفروعها[٤].

وقد روعي في اختيار موقع بغداد ما قاله ابن خلدون[٥] في أوضاع الحواضر: ويشترط في اختيار موضع المدينة أن تقع «إما على هضبة متوعرة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور، وطيب الهواء للسلامة من الأمراض، وقرب الزرع منها ليحصل الناس على الأقوات». وختم ابن خلدون كلامه بقوله إن العرب لم يراعوا هذه الشروط في اختيار مواقع المدن التي أسسوها كالبصرة والكوفة والقيروان وأنها كانت أقرب إلى الخراب لما لم تراع فيها الأمور الطبيعية.

وقد ذكر المؤرخون حكاية تظهر عليها مسحة الاختلاق. ذلك أن راهباً من رهبان الدير القريب من بغداد سأل أصحاب المنصور عن الرجل الذي يريد أن يبني المدينة، فقيل له أمير المؤمنين الخليفة المنصور. فسأل الراهب عن اسمه، فقيل عبد الله. فسأل عما إذا كان للخليفة اسم غير هذا، فقيل: اللهم لا إلا أن كنيته أبو جعفر ولقبه المنصور. فقال الراهب للرجل: «إذهب إليه وقل له لا يتعب نفسه في بناء هذه المدينة، فإنا نجد في كتبنا أن رجلاً اسمه مقلاص يبني ههنا مدينة ويكون لها شأن من الشأن، وأن غيره لا يتمكن من ذلك. فجاء الرجل إلى المنصور، فقص على الحاضرين قصته وهو صغير: «أما والله كان اسمي مقلاصاً، وكانت تضرب به الأمثال. وكان لنا عجوز تربيني، فاتفق أن صبيان المكتب جاءوا يوماً إلي وقالوا لي

(١) الطبري جـ ٩ ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩. ياقوت؛ معجم البلدان ـ انظر لفظ بغداد.

(٢) ذكر الطبري (جـ ص ٢٣٩) هذه النواحي وهي. الدير وبغداد والمخرم والدير المعروف ببستان القس والعتيقة.

(٣) كتاب تاريخ بغداد جـ ١ ص ٢١.

(٤) انظر الباب السادس من هذا الكتاب.

(٥) مقدمة ص ٢٩١.

نحن اليوم أضيافك، ولم يكن معي ما أنفقه عليهم، وكان للعجوز غزل، فأخذته وبعته بما أنفقه عليهم. فلما علمت أني سرقت غزلها، سمتني مقلاصاً، وغلب علي هذا اللقب، ثم ذهب عني، والآن عرفت أني أبني المدينة[1]:

وكانت بغداد قبل تمصيرها قرية قديمة بناها بعض ملوك الفرس، وتقع على الشاطىء الغربي لنهر دجلة في أعلى المكان الذي يلتقي فيه نهر الصراة بدجلة.

وقد بقيت قباب بغداد القديمة إلى أيام الطبري المتوفى سنة ٣١٠[2] هـ كما كانت سوقاً يقصده تجار الفرس والصين بتجارتهم، وأغار عليها المسلمون سنة ٢٣ هـ بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني وغنموا منها مغانم كثيرة[3].

ويؤيد البحث الحديث وجود بغداد القديمة. وقد ذكر لي سترينج[4] أن المنقب الإنكليزي سير هنري رولينسون عثر في سنة ١٨٤٨ م في وقت انخفاض نهر دجلة على سور من الآجر يحف بشاطىء هذا النهر الغربي، ومنه يظهر أن مدينة قديمة كانت تقوم في هذا المكان. وقد وجد اسم بختنصر وألقابه وغزواته منقوشة على قطع الآجر، كما ظهر في الثبت الجغرافي الأشوري لحكم سردانا بالوس لفظ يقارب تماماً لفظ بغداد.

(٣) ـ اشتقاق لفظ بغداد:

ويروي بعض المؤرخين أن كلمة بغداد فارسية الأصل. فقد ذكر ياقوت وغيره عدة اشتقاقات طريفة لهذا الاسم منها:

١ ـ أن بغداد مكونة من كلمتين؛ بـغ ومعناها بالفارسية بستان وداد اسم لرجل كان يملك هذا البستان.

٢ ـ وقيل أن بغ اسم صنم، وداد بمعنى أعطى أو منح. قيل إن كسرى أقطع هذه الناحية عبداً من المشرق من عباد الأصنام. فقال العبد: «بغ دادي» أي الصنم أعطاني. وروى النسائي أن رجلاً قدم على عبد العزيز بن أبي رواد، فقال له: من أين أنت؟ فقال من بغداد، فقال: لا تقل بغداد، فإن بغ صنم وداد أعطى ولكن قل مدينة السلام.

٣ ـ وقيل إن بغداد كانت سوقاً يقصده تجار أهل فلسطين بتجارتهم فيربحون الربح

---

(١) الطبري جـ ٩ ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠: ابن الجوزي. مناقب بغداد ص ١٩. الفخري ص ١١٣ ـ ١١٧.

(٢) الطبري جـ ٩ ص ٢٤٠.

(٣) الخطيب البغدادي تاريخ بغداد جـ ١ ص ٢٦.

(٤) Baghdad During the Abbasid Caliphate p.p. 9 - 10.

الواسع . وكان اسم ملك الصين «بَغْ» فكانوا إذا انصرفوا إلى بلادهم قالوا : «بغ داد» أي أن هذا الربح الذي ربحناه من عطية الملك ، لأن داد بمعنى أعطى أي أعطانا الملك .

٤ ـ وقيل إن بغداد أصلها بغداذ ، وهو فارسي معرب عن باغ ومعناه بستان ، وداذويه اسم رجل من الفرس . وذلك أن بعض نواحي بغداد كان بستاناً لرجل من الفرس اسمه داذويه . وهذا قريب الشبه بما ورد في التسمية الأولى . ومما يدل على فارسية هذا الاسم وجود الدال مع الذال ؛ وهو مألوف عند الفرس وليس له نظير في كلام العرب . ويقول لي سترينج إن الاشتقاق الصحيح لهذا اللفظ هو من الكلمتين الفارسيتين القديمتين بغ وهو الله ، وداذ ومعناها مؤسسة أو أساس ؛ ومن ذلك يكون معنى بغداد المدينة التي بناها الله .

٥ ـ وقد سماها المنصور مدينة السلام . وهذه التسمية مأخوذة عن الفارسية أيضاً ؛ فقد ذكر ياقوت أن بعض هذه المدينة كان أثراً لمدينة دارسة اختطها أحد ملوك الفرس ، فمرض ، فقالوا له : «ما الذي يأمر الملك أن تسمى به هذه المدينة؟» فقال «هليدوه وروز» أي أدخلوها بسلام . فلما علم المنصور بذلك قال : «سميتها مدينة السلام» . وقيل إنها سميت مدينة السلام لأن السلام هو الله ، أو لأن نهر دجلة يقال له وادي السلام . وكان أبو الفرج الببغا يقول هي مدينة السلام بل مدينة الإسلام .

٦ ـ وكان الجانب الغربي لبغداد في العصور الإسلامية يسمى الزوراء ، لازورار في قبلتها . وقيل لأن المنصور لما عمرها جعل الأبواب الداخلية مزورة عن الأبواب الخارجية (أي ليست على سمتها) ، وقيل لازورار نهر دجلة عند مروره بها . ويقول المسعودي إن أهل هذه المدينة كانوا يسمونها الزوراء والرحاء في أيامه . بينما يسمى جانبها الشرقي الروحاء لانبساط مجرى نهر دجلة عنده .

وقد أطلق لفظ الزوراء على بغداد في بدء إنشائها للانحراف الذي شوهد في محاريب مساجدها ، وسميت «المدينة المدورة» لأنها على شكل دائرة ، ويقال لها دار السلام تشبيهاً لها بالجنة[١] . وقد ورد في تسمية بغداد أيضاً مغداذ ومغداد ومغدان[٢] .

(٤) ـ تخطيط بغداد :

شرع المنصور في بناء حاضرته الجديدة في موضع بغداد القديمة ، وأمر بإحضار المهندسين

(١) البغدادي تاريخ بغداد جـ ١ ص ٧٧ ـ ٧٨ .

(٢) الطبري جـ ٩ ص ٢٣٠ ـ ٢٣٢ . تاريخ بغداد جـ١ ص ٥٨ ـ ٥٩ . انظر لفظ بغداد في معجم البلدان لياقوت ولسان العرب .

والبنائين والفعلة والصناع من النجارين والحدادين والحفارين من الشام والموصل والبصرة والكوفة وواسط وبلاد الديلم، حتى بلغ عددهم مائة ألف على ما ذكره المؤرخون، وإن كنا نشك في هذا العدد ونرى فيه مبالغة ظاهرة. كما اختار جماعة ممن يثق بفضلهم وعدالتهم وعلمهم وأمانتهم ومعرفتهم بالهندسة والحساب، من أمثال الحجاج بن أرطاة، وعمران بن الوضاح، وأجرى عليهم الأرزاق، ثم أمر بضرب اللبن وطبخ الآجر.

وقيل إن المنصور أراد أن يولي القضاء أبا حنيفة النعمان مؤسس المذهب الحنفي، فامتنع فحلف ألا يتركه حتى يوليه عملاً من الأعمال، وحلف أبو حنيفة ألا يفعل. ومما حدا المنصور على معاملة أبي حنيفة هذه المعاملة، رغبته في التحلل من يمينه والخروج منها[1]. وذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن المنصور عامل أبا حنيفة هذه المعاملة، لما رُمي به من الانحياز إلى دعوة محمد بن عبد الله العلوي؛ فحفظ له ذلك. فلما شرع في بناء بغداد، عهد إلى أبي حنيفة في عد اللبن والإشراف على البناء، فابتكر طريقة لعد الطوب بالقصب. وهي طريقة سهلة، فإن كان طول الطوبة ٣٠ سنتيمتراً مثلاً، أتى أبو حنيفة بقصبة قاس بها صف الطوب، وأمكنه بذلك معرفة عدد الطوب بالضبط في زمن قصير وبدون عناء.

أحضر أبو حنيفة قصبة يعد بها اللبن والآجر، ثم وضع أبو جعفر المنصور أول لبنة بيده وقال: بسم الله! والحمد لله. والأرض لله يورثها من عباده والعاقبة للمتقين ثم قال: «ابنوا على بركة الله»[2].

ويحدثنا ياقوت أن المنصور وضع أساس بغداد في الوقت الذي اختاره المنجمون. قال أبو سهل بن نوبخت: «أمرني المنصور لما أراد بناء بغداد بأخذ الطالع ففعلت، فإذا الطالع في الشمس وهي في القوس، فخبرته بما تدل النجوم عليه من طول بقائها وكثرة عمارتها وفقر الناس إلى ما فيها، ثم قلت: وأخبرك خلة أخرى أسرك بها يا أمير المؤمنين. قال: وما هي؟ قلت: نجد في أدلة النجوم أنه لا يموت بها خليفة أبداً حتف أنفه؛ فتبسم وقال: الحمد لله على ذلك ﴿هذا فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾.

وكان من أعجب العجب أن المنصور مات وهو حاج، والمهدي ابنه خرج إلى نواحي الجبل فمات بماسبذان بموضع يقال له الروذ، والهادي ابنه مات بعيساباذ قرية أو محلة بالجانب الشرقي من بغداد، والرشيد مات بطوس، والأمين أخذ في شبارته وقتل بالجانب الشرقي،

---

(١) الطبري جـ ٩ ص ٢٤١.

(٢) اليعقوبي: كتاب البلدان ص ٢٤٨ ـ ٢٥٠. الطبري جـ ٩ ص ٢٤١.

والمأمون مات بالبذندون من نواحي المصيصة بالشام، والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر وباقي الخلفاء ماتوا بسامرا، ثم انتقل الخلفاء إلى التاج من شرقي بغداد»[١].

احتفل المنصور بوضع الحجر الأساسي لبناء بغداد احتفالاً شائقاً شهده رجال الدولة العباسية من الأمراء والوزراء والعلماء والقواد والأعيان.

وقد روى الطبري وغيره أن المنصور لما عزم على بناء بغداد أحب أن يعرف رسمها، فأمر أن تخط طرق المدينة بالرماد، ثم دخل من موضع كل باب، ومر في طرقات المدينة ورحابها وهي مخطوطة بالرماد، ثم أمر أن يوضع على تلك الخطوط حب القطن، ويصب عليه النقط وتوقد فيه النار، فنظر إليه والنار تشتعل. وبذلك أمكنه الوقوف على رسم مدينته الجديدة. ثم حفر الأساس مكان هذه الخطوط، وكان ذلك سنة ١٤٥ هـ[٢]. وجعل المنصور مدينته مدورة، وجعل داره وجامعه في وسطها حتى لا يكون أحد أقرب إليه من الآخر؛ وهو نوع جديد في بناء المدن عند المسلمين يظهر أنهم أخذوه عن الفرس[٣].

ولم يجعل المنصور حول القصر والجامع بناء إلا الدار التي بناها للحرس من ناحية باب الشام، وسقيفة كبيرة ممتدة على عمد مبنية بالآجر والجص، خص إحداها بصاحب الشرطة والأخرى بصاحب الحرس، وجعل حول ذلك منازل أولاده الأصاغر ومن يقوم بشؤونهم من الخدم والعبيد، واتخذ حول ذلك قصور الأمراء ورجال الدولة ودواوين الحكومة ومطبخ العامة. وأخذ البناءون يبنون حول الدواوين دور الأهالي تتخللها الأسواق، وجعل للمدينة شوارع رئيسية أربعة تمتد من شوارع المدينة الأربعة يتفرع منها شوارع أخرى[٤].

ولما وقف المنصور على رسم مدينته الجديدة شرع في بناء سورها. ثم أخذ العمال في العمل حتى بلغ ارتفاع السور قامة، ولكن البناء ما لبث أن وقف بسبب خروج محمد النفس الزكية في المدينة المنورة سنة ١٤٥ هـ.

٥ ـ إتمام البناء:

ولما قضى المنصور على ثورة العلويين عزم على إتمام بناء بغداد في أقرب وقت[٥]، وأمر

---

(١) راجع لفظ بغداد في معجم البلدان لياقوت.
(٢) الطبري جـ ٩ ص ٢٤١.
(٣) Le Strange, p. 18.
(٤) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد جـ ١ ص ٧٦.
(٥) أجمع المؤرخون على أن بناء بغداد تم في سنة ٦ (٦) ـ وأصبحت مقر الدولة العباسية وأن بناء سور المدينة وخندقها لم يتم قبل سنة ١٤٩ هـ (الطبري جـ ٩ ص ٢٤١).

بأن يبنى للمدينة سوران: سور داخلي عرضه من أسفله خمسون ذراعاً ومن أعلاه عشرون ذراعاً، وسور خارجي ارتفاعه ثلاثون ذراعاً وعرضه كعرض السور الداخلي وليس عليه أبراج[١]، وحوله من الخارج خندق عميق أجرى فيه الماء من القناة التي تأخذ من نهر كرخايا. وبنيت حافتاه بالجص والآجر وفوقه ١٦٣ برجاً، سمك كل منها خمسة أذرع[٢]. وكان بالسور الخارجي أربعة أبواب، بابان دون باب وهي: باب الكوفة ويقع في الجنوب الغربي، وباب البصرة ويقع في الجنوب الشرقيّ ويشرفان على قناة الصراة، وباب خراسان يقع في الشمال الشرقي وكان على نهر دجلة ويوصل إلى قنطرة السفن الرئيسية، وكان يسمى باب الدولة لإقبال قوة الدولة العباسية من خراسان، وباب الشام ويقع في الشمال الغربي ويوصل إلى طريق الأنبار[٣].

وكان قطر مدينة بغداد من باب خراسان إلى باب الكوفة ٢٢٠٠ ذراع، ومن باب البصرة إلى باب الشام كذلك. وعلى السور أبراج، سمك كل منها خمسة أذرع، وبنيت عليه شرافات[٤]، وبين السورين ستون ذراعاً، ويسمى «الفَصيل»، ويسمى السور الخارجي «سور الفصل»، وحوله الخندق ويسمى السور الداخلي سور المدينة.

وكان وزن كل لبنة جعفرية (نسبة إلى أبي جعفر المنصور) ١١٧ رطلاً. وقد ذكر اليعقوبي أن وزن اللبنة التامة المربعة التي يبلغ طولها ذراعاً وعرضها ذراعاً، مائتا رطل، واللبنة المنصفة التي يبلغ طولها ذراعاً وعرضها نصف ذراع مائة رطل. وذكر صاحب «كتاب مناقب بغداد» أن الطوب المستعمل هو اللبن والآجر المطبوخ.

وكان بين البابين دهليز ورحبة توصل إلى الفصيل الدائر بين السورين، ويسمى الأول باب الفصيل والثاني باب المدينة. فإذا دخل من باب خراسان مثلاً عطف على يساره في دهليز أزج[٥] مبني بالآجر والجص، طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً، ويوصله بالباب الثاني رحبة طولها ستون ذراعاً وعرضها أربعون ذراعاً. وعن يمين الداخل ويساره بابان: الأيمن ويوصل إلى فصيل باب الشام والأيسر ويوصل إلى فصيل باب البصرة. ومن باب

---

(١) الطبري جـ ٩ ص ٢٤٠.

(٢) اليعقوبي. كتاب البلدان ص ٢٣٩.

(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد جـ ١ ص ٧٤ ـ ٧٥.

(٤) هي الحلي التي توضع في أعلى البناء على هيئة عرائس أو نحوها ونلاحظ في أعلى المباني الأثرية كالمساجد والحصون.

(٥) ضرب من الأبنية.

البصرة يدور الشخص إلى باب الكوفة، ويدور الذي انتهى إلى باب الشام إلى باب الكوفة، والأبواب الأربعة على مثال واحد من حيث الفصلان والرحاب والطاقات. أما الباب الداخلي أو باب المدينة، فيدخل منه إلى دهليز طوله عشرون ذراعاً وعرضه اثنا عشر ذراعاً.

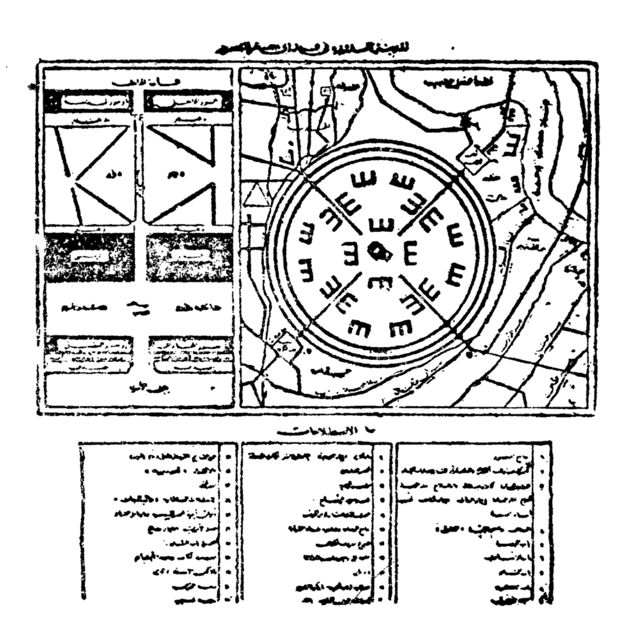
وقد ذكر الطبري أن أبا جعفر المنصور نقل خمسة من هذه الأبواب من مدينة واسط. ويقال إن الحجاج بن يوسف الثقفي وجدها على باب مدينة بناها النبي سليمان بن داود تعرف باسم زندورد، وهو اسم دير من أديار النسطوريين كان يقع شرقي مدينة بغداد. وقد شاهد الطبري هذه الأبواب حول سنة ٣٠٠ هـ. وأقام المنصور على باب خراسان باباً جيء به من بلاد الشام، ويقال إنه من عمل الفراعنة. وأقام على باب الكوفة باباً جيء به من الكوفة من عمل خالد بن عبد الله القسري، وعمل لباب الشام باباً صنع في بغداد، وكان أضعف أبواب بغداد، وعلى كل أزج من أزج هذه الأبواب مجلس تتصل درجاته بهذا السور، وعلى هذا المجلس قبة عالية يجلس فيها المنصور طلباً للراحة، فيشاهد الوافدين من خراسان والشام والبصرة والكوفة.

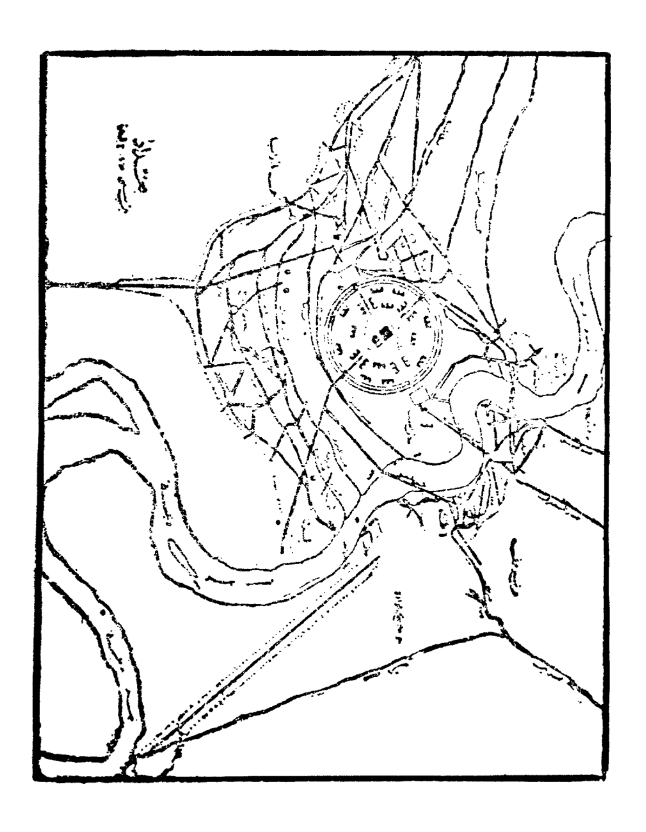
وقد بنى المنصور قصره الذي كان يطلق عليه اسم قصر الذهب، وبنى جامعه قبالته في وسط المدينة. وبلغت مساحة القصر ١٦٠,٠٠٠ ذراعاً مربعاً، وبلغت مساحة الجامع ٤٠,٠٠٠ ذراعاً مربعاً. ويعتبر قصر الذهب والجامع مركز الدائرة، حيث تفرعت من أبواب السور الداخلي الذي يحيط بمركز المدينة أربعة شوارع رئيسية منظمة متجهة خارج المدينة على شكل محاور الدائرة حتى تنتهي إلى الخندق. وقد أقيمت على جانبي هذه الشوارع الأبنية العالية التي نسقت تنسيقاً بديعاً، والتي كانت متشابهة في الشكل وأسلوب البناء.

وكانت أبواب القواد تشرف على رحبة الجامع. فشكا الناس ذلك إلى الخليفة المنصور، فأمرهم بتحويل أبوابهم حتى لا تطل على الجامع، وجعلت في طرف المدينة وطاقاتها التي بلغ عددها خمسة وثلاثين، عرض كل منها خمسة عشر ذراعاً، وطولها مائتا ذراع. وبين كل طاقين بنيت غرف للمرابطة. وكان على كل باب من أبواب المدينة قائد في ألف جندي[١]. وإذا وقف الإنسان في نهاية أحد هذه الشوارع رأى قصر الخليفة[٢]، كما هو الحال في حي السكاكيني بالقاهرة حيث ترى السراي ماثلاً أمام الأعين من كل الشوارع المتفرعة عن السراي الذي هو بمثابة مركز الدائرة.

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد جـ ١ ص ٧٦.
(٢) ابن رستة. الأعلاق النفيسة ص ١٠٨.





وسرعان ما ازدحمت بغداد بالعلماء والتجار والصناع الذين أقبلوا عليها، فلم ير المنصور بدأ من الإقامة خارج المدينة في مكان طيب الهواء، فبنى قصر الخلد في سنة ١٥٧ هـ[١].

ولا شك أن هذه الأعمال الجليلة كلفت الخليفة المنصور كثيراً من النفقات، حتى إنه فكر في استعمال أنقاض «المدائن» حاضرة الفرس القديمة في تعمير حاضرة ملكه الجديدة، فاستشار وزيره خالد بن برمك في هدم إيوان كسرى ونقل أنقاضه لبناء بغداد وتعميرها، فنهاه خالد عن ذلك.

(٦) ـ القطائع والأرباض:

ولما فرغ أبو جعفر المنصور من عمارة بغداد، أقطع أعيان دولته قطائع من الأرض رغبة في تخفيف الضغط على بغداد من جهة، ومكافأة لهم على ما قدموه من الخدمات الجليلة من جهة أخرى. وقد حذا ابن طولون في مصر حذو المنصور، فأسس مدينة القطائع بعد أن ضاقت الفسطاط والعسكر بخدمه ومماليكه وجنده، وأعطى كل طائفة قطيعة خاصة بها.

وسرعان ما عمرت هذه القطائع وازدحمت بالسكان، وأصبحت كل قطيعة منها تعرف باسم الرجل أو الطائفة التي تسكنها. فنرى من بينها قطيعة العباس بن محمد بن عبد الله بن العباس على البصرة، وقطيعة الصحابة وهم من سائر قبائل العرب من قريش والأنصار وربيعة ومضر، وكانت على الصراة أيضاً، وقطيعة الربيع بن يونس مولى المنصور، وكان بها تجار خراسان من البزازين[٢]، وقطيعة صالح بن المنصور. وسرعان ما اتسعت قطائع بغداد وزاد إقبال الناس على سكناها، حتى إن نقل حاضرة الدولة العباسية إلى سامرا في أيام المعتصم لم يؤثر على نمو الحركة التجارية والعلمية في بغداد[٣].

وقد أسهب اليعقوبي في الكلام على سكك[٤] بغداد ودروبها[٥]. فنجد سكة الشرطة، وسكة المطبق وفيها سجن المطبق، وسكة الربيع، وسكة المؤذنين. وقد بلغ عدد هذه السكك والدروب ستة آلاف، وبلغ عدد الحمامات عشرة آلاف. وبالغ اليعقوبي وابن رسته في عدد المساجد، فذكر كل منهما أنها بلغت الثلاثين ألف! وزاد ابن رسته أن الجانب الغربي لمدينة

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد جـ ١ ص ٧٥. انظر لفظ بغداد في معجم البلدان لياقوت.

(٢) أي بائعي الثياب.

(٣) اليعقوبي: كتاب البلدان ص ٢٤٢ ـ ٢٥٤.

(٤) جمع سكة وهي الزقاق.

(٥) الدرب: المدخل بين جبلين، والعرب تستعمله في معنى الباب لأنه كالباب لما يفضي إليه، والدرب باب السكة الواسع والباب الأكبر.

بغداد (الكرخ) كان ضعف الجانب الشرقي (الرصافة أو بغداد الشرقية) سعة وكثرة عمارة.

قسم الخليفة المنصور أرباض[١] بغداد أربعة أقسام جعل على كل منها رئيساً، وعهد إلى كل رئيس منهم إقامة سوق في القسم الذي يشرف عليه، كما أمر أن تخط الشوارع والدروب بحيث تكون المباني منتظمة، وأن يسمى الشارع أو الدرب باسم القائد أو الرجل النابه الذكر الذي يقيم فيه، كما تفعل المجالس البلدية الآن. وسرعان ما عمرت الأرباض وكثرت فيها المساجد والحمامات[٢].

ولننتقل إلى الكلام على بناء الرصافة في الجهة الشرقية من نهر دجلة المقابلة لمدينة بغداد، وعلى الكرخ التي بناها أبو جعفر المنصور في الجزء الغربي من بغداد.

(٧) ـ الرصافة ـ الكرخ:

إن بناء بغداد، وإن كان قد حقق الغرض الذي رمى إليه المنصور من منع وصول العدو إليه، لم يحل دون ما قد يحدث إذا شغب عليه الجند، ولقد برهنت الأيام على أنه لم يكن آمناً كل الأمن على نفسه بإقامته في بغداد، إذ قد وقع هذا الشغب فعلاً حين قام عليه جنده وحاربوه على أحد أبواب بغداد، وهو باب الذهب فأشار عليه أحد رجال دولته ببناء الرصافة وقال له: «اعبر بابنك المهدي، فأنزله في الجانب (الشرقي من بغداد) قصراً، وحوله، وحول من جيشك معه قوماً، فيصير ذلك بلداً، وهذا بلداً. فإن فسد عليك أهل هذا الجانب ضربتهم بأهل ذلك الجانب، وإن فسد عليك أهل ذلك الجانب ضربتهم بأهل هذا الجانب، وإن فسدت عليك مضر ضربتها باليمن وربيعة والخراسانية، وإن فسدت عليك اليمن ضربتها بمن أطاعك من مضر وغيرها. فقبل (المنصور) رأيه فاستوى له ملكه».

وقد اتخذت الرصافة في الأصل ثكنات للجيش، وسميت «رصافة بغداد»، وبغداد الشرقية لأنها تقع في الجهة الشرقية من دجلة المقابلة لمدينة بغداد، وبنى لها المنصور سوراً، وحفر حولها خندقاً، وجعل فيها ميداناً فسيحاً ومسجداً وبستاناً، وأجرى الماء فيها، فتم ذلك في خلافة ابنه المهدي سنة ١٥٩ هـ[٣].

وسرعان ما عمرت الرصافة حتى قاربت بغداد في الاتساع، فظهرت فيها الحدائق والمتنزهات، والميادين الواسعة، والمباني الضخمة، كما تجلت فيها مظاهر الخلاعة والملاهي. وفي ذلك يقول علي بن الجهم الشاعر:

---

(١) الربض (بفتحتين) للمدينة ما حولها وجمعها أرباض أي نواحي.

(٢) اليعقوبي: كتاب البلدان ص ٢٤٠ ـ ٢٤٩.

(٣) الطبري جـ ٩ ص ٢٨٢.

عيونُ المها بين الرُّصافة والجسر ... جلبن الهوى من حيثُ أدري ولا أدري

وقد أحصى اليعقوبي[1] طرق الرصافة ودروبها، ووصف أسواقها وتجارتها، وقال إنه كان بها أربعة آلاف درب وسكة، وخمسة عشرة ألف مسجد، وخمسة آلاف حمام، إلى غير ذلك من الأقوال التي لا تخلو من المبالغة.

وقال نخلة المدور[2] إن أهالي بغداد توسعوا في تعمير الجانب الشرقي لمدينة بغداد المعروف بالرصافة، فبنوا فيه القصور الرفيعة والمنازل المزخرفة، واتخذوا الأسواق والجوامع والحمامات، وتوجهت عناية الرشيد والبرامكة إلى تزيينها بالبنايات العامة، حتى أصبحت الزوراء (يعني بغداد) بجانبها كأنها البلد العتيق تجمع محاسنه في جزء من محاسن المدينة التي أحدثت في جواره.

وقد بلغ اتساع بغداد والرصافة اتساعاً عظيماً حتى أصبحتا أشبه بمدن صغيرة متلاصقة[3]، وأصبحت بغداد أم مدائن الشرق في ذلك العصر، وبلغ عدد سكانها مليوني نسمة، وازدهرت فيها الفنون المختلفة وانتشرت منها إلى سائر أنحاء العالم الإسلامي حتى ما كان منها مناهضاً للخلافة العباسية[4].

ولم تزل الأسواق داخل مدينة بغداد حتى وفد على المنصور أحد بطارقة الروم، فأمر حاجبه الربيع بن يونس أن يطيف به في المدينة، ويصعد به إلى السور، ويريه قباب الأبواب والطاقات ليرى ما عليه حاضرة خلافته من الأبهة والعمران: فلما مثل البطريق[5] بين يدي المنصور، سأله: كيف رأيت مدينتي؟ فقال: «يا أمير المؤمنين! إنك بنيت بناء لم يبنه أحد كان قبلك، وفيه ثلاثة عيوب.

«أما أول عيب فيه فبعده عن الماء، ولا بد للناس من الماء لشفاههم؛ وأما العيب الثاني

(١) كتاب البلدان ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤.

(٢) حضارة الإسلام في دار السلام ص ٩٢ ـ ٩٣.

(٣) ذكر ياقوت في معجمه المدن التي تسمى الرصافة: فمنها رصافة البصرة ورصافة الشام وهي أكثر من مدينة، منها رصافة نيسابور التي أقطعها سليمان بن عبد الملك ابنه عبد العزيز لما ولد، ورصافة هشام بن عبد الملك غربي الرقة، وقيل لها الزوراء، وكان يسكنها في الصيف، ورصافة واسط وهي قرية بالعراق من أعمال واسط، ورصافة أبي العباس السفاح بالأنبار، ورصافة قرطبة التي بناها عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، ورصافة بغداد. وقال ياقوت باحتمال اشتقاق لفظ الرصافة من الرصف، وهو ضم الشيء إلى الشيء كما يرصف البناء والشارع.

(٤) زكي محمد حسن: كنوز الفاطميين ص ٨٢، ١٤٠، ١٦٨.

(٥) البطريق: القائد من قواد الروم.

فإن العين خضرة وتشتاق إلى الخضرة وليس في بنائك هذا بستان؛ وأما العيب الثالث فإن رعيتك معك في بنائك، وإذا كانت الرعية مع الملك في بنائه فشا سره».

من ذلك وقف المنصور على أوجه النقص في مدينته، لكنه لم يرد أن يعترف للبطريق بما فاته من أخطاء في بنائها فقال له: «أما قولك في الماء فحسبنا من الماء ما بل شفاهنا، وأما العيب الثاني فإنا لم نخلق للهو واللعب، وأما قولك في سري فما لي سر دون رعيتي». ولكن البطريق لما خرج/بعث أبو جعفر المنصور في طلب شميس وخلاد وقال لهما: مدا إلي قناتين من دجلة وأغرسا لي العباسية وانقلا الناس إلى الكرخ[١].

وفي سنة ١٥٧ هـ قام الربيع بن يونس ببناء الكرخ غربي المدينة المدورة (بغداد) من مال المنصور الخاص، وحولت إليها أسواق المدينة[٢]. وأوسع المنصور طرق بغداد حتى غدا اتساع كل منها أربعين ذراعاً، ووضع تصميم بناء الكرخ على قطعة من القماش عين عليها مواضع الأسواق، كما عين موضع بناء جامع يصلي فيه أهل هذه الأسواق حتى لا يدخلوا المدينة، وعهد بالعمل إلى مولاه الوضاح، وأفرد لكل حرفة سوقاً خاصة كما هو الحال في المدن الكبيرة. وقد بنيت أسواق الكرخ في الجهة الجنوبية من بغداد بين الصراة ونهر عيسى[٣] لتكون مركزاً للصناعة والتجارة، حتى إذا أخذت بغداد في الاتساع صارت الكرخ في وسطها[٤]/ وأصبحت كما قال أبو عبد الله إبراهيم بن عرفة نفطويه:

سقى أربع الكرخ الغوادي بديمةٍ	وكل ملث دائم الهطل مسبل
منازل فيها كل حسن وبهجة	وتلك لها فضل على كل منزل[٥]

وقد عني المنصور عناية كبيرة بتنظيم مدينته ونظافة شوارعها وطرقها؛ فكانت الرحاب تكنس كل يوم ويحمل التراب خارج المدينة. وكانت الروايا تدخل على ظهور البغال، فرأى الخليفة أن ذلك لا يتفق وأبهة حاضرة خلافته وروائها، فأمر بتوصيل الماء إلى قصره.

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ جـ ١ ص ٧٨ - ٧٩.
(٢) أورد الطبري (جـ ٩ ص ٢٦٢ - ٢٦٣) في نقل الأسواق إلى الكرخ سبباً آخر هو ارتفاع الدخان منها واسوداد حيطان بغداد مما ضايق الخليفة.
(٣) أمين زكي: عمران بغداد ص ١٠٨.
(٤) اليعقوبي: كتاب البلدان ص ٢٥٤.
(٥) الخطيب البغدادي. تاريخ بغداد جـ ١ ص ٧٩ - ٨٢.

٨ ـ نفقات بناء بغداد ـ ما قيل في وصفها:

وقد تطلب بناء بغداد كثيراً من النفقات، لأن المنصور عمل على تحصينها تحصيناً منيعاً لتحاكي الحواضر الكبيرة، وخاصة القسطنطينية حاضرة الروم، في العظمة والأبهة. فقد بلغت نفقات المدينة وما إليها من الأسوار والأبواب والقصر والجامع والأسواق والقباب والفصلان والخنادق وغيرها ٤,٨٣٣,٠٠٠ درهم على رواية الطبري (جـ ٩ ص ٢٦٣)، وهو يعادل ٤٠٠,٠٠٠ دينار أو ٢٠٠,٠٠٠ جنيه وفي رواية أخرى للطبري أن نفقات المدينة بلغت ١٨,٠٠٠,٠٠٠ دينار من الذهب، وهو يعادل ٩,٠٠٠,٠٠٠ جنيه تقريباً، وعن الطبري أخذ الخطيب البغدادي مع تعديل طفيف. ويرجح لي سترينج الرواية الثانية، ويستبعد أن تكون النفقات قد بلغت ١٦٠,٠٠٠ جنيه إذا لاحظنا مقدار ما بذل من النفقات في بناء المدينة وتنسيق بساتينها وحفر خلجانها وتشييد حصونها وغير ذلك مما يتطلب أكثر من ٤٠٠,٠٠٠ دينار أو ٢٠٠,٠٠٠ جنيه.

ونرى أن في الرواية الثانية مبالغة ظاهرة، إذا علمنا أن أبا جعفر المنصور كان حريصاً على جمع المال كما كان أشد حرصاً في إنفاقه. أضف إلى هذا رخص المعيشة في ذلك العصر. وكان المنصور يحرص في الإنفاق على البناء لأنه كان يغلب عليه الشح، حتى ضرب المثل بشحه وحرصه، فسمي «أبا الدوانيق» و «المنصور الدوانيقي»، لتشدده في محاسبة العمال والصناع على الحبة والدانق، وهو مقدار لا يزيد على سدس درهم أي سبعة مليمات تقريباً.

هكذا تأسست مدينة بغداد في عهد أبي جعفر المنصور، وقد بقيت إلى سنة ٦٥٦ هـ حين خربها التتار بقيادة هولاكو، ولحق بها الخراب قبل القرن السابع الهجري مرتين: مرة في أثناء الفتنة التي قامت بين الأمين والمأمون في أواخر القرن الثاني للهجرة، ومرة ثانية حين أغار بنو بويه على بلاد العراق واستولوا على بغداد سنة ٣٣٤ هـ.

وفي العصر العباسي الأول أصبحت مدينة بغداد أم المدائن ومركز التجارة، وكعبة العلوم والآداب ومعين الثروة والرخاء؛ كما أصبحت مبانيها الفخمة ومتنزهاتها الجميلة آية من آيات الفن. يقول الجاحظ: قد رأيت المدن العظام، والمذكورة بالإتقان والإحكام، بالشامات وبلاد الروم، وفي غيرهما من البلدان فلم أر مدينة قط أرفع سمكاً، ولا أجود استدارة، ولا أنبل نبلاً، ولا أوسع أبواباً ولا أجود فصيلاً من الزوراء، وهي مدينة أبي جعفر المنصور، كأنما صبت في قالب، وكأنما أفرغت إفراغاً[1].

---

(١) الخطيب البغدادي جـ ١ ص ٢٧.

ومما جاء في مدح بغداد: «بغداد جنة الأرض، ومدينة السلام، وقبة الإسلام، ومجمع الرافدين، وغرة البلاد، وعين العراق، ودار الخلافة، ومجمع المحاسن والطيبات، ومعدن الطرائف واللطائف. وبها أرباب الغايات في كل فن وآحاد الدهر في كل نوع». وكان أبو إسحاق الزجاج يقول: بغداد حاضرة الدنيا وما عداها بادية[1]:

وقد وصف طاهر بن المظفر بن طاهر الخازن بغداد في هذه الأبيات فقال:

هي البلدةُ الحسناءُ خُصَّتْ لأهلها ... بأشياء لم يجمعن مُذْ كنَّ في مصر
هواءٌ رقيق في اعتدالٍ وصحة ... وماءٌ له طعمٌ ألذ من الخمر
ودجلتها شطان قد نظما لنا ... بتاج إلى تاج وقصر إلى قصر
تراها كمسكٍ والمياهُ كفضة ... وحَصْباؤها مثل اليواقيت والدر

(ب) سامرًّا:

لما شكا أهل بغداد من عنت الأتراك وعسفهم، ندب المعتصم أحد رجاله لاختيار موضع كان السفاح قد شرع في بناء مدينة جديدة فيه، ثم بنى الرشيد بجوارها قصراً وحفر عندها نهراً سماه «القاطول»؛ ثم بنى المعتصم في ذلك المكان قصراً وهبه لمولاه آشناس القائد التركي المشهور. وقد فكر المعتصم في هذا المكان الذي فيه قصره، فبنى عنده مدينة «سامرا» حاضرة خلافته الجديدة، وتقع شرقي دجلة على مسيرة ثلاثة أيام من بغداد، وتبعد منها ستين ميلاً من ناحية الشمال.

وقد ذكر ياقوت في سبب اختيار موضع سامرا، أن المعتصم أعطى وزيره أحمد بن خالد الكاتب (سنة ٢١٩ هـ) خمسة آلاف دينار، وأن هذا الوزير قصد ذلك الموضع، وابتاع ديراً للنصارى بخمسة آلاف درهم، وبستاناً بجواره بخمسة آلاف درهم، كما ابتاع بعض الأراضي والدور المجاورة لذلك الموضع. ثم أطلع الوزير الخليفة المعتصم على عقود البيع، فخرج إلى هذا المكان في أواخر سنة ٢٢٠ هـ، ونزل في المضارب التي أقيمت على شاطىء نهر القاطول، ثم قصد موضع سامرا، وأقام فيه ثلاثة أيام طلباً للصيد، فأعجبه موقعه، لأنه يسهل منه الوصول إلى بغداد براً وبحراً إذا خرج أهلها عن طاعته.

شرع المعتصم في تخطيط حاضرته الجديدة في سنة ٢٢١ هـ فوضع أساس قصره، وأحضر العمال والصناع وأرباب المهن من سائر الأمصار الإسلامية، وجعل للأتراك قطائع خاصة بهم ولغلمانه من أهل خراسان ـ وكانوا يسمون الأشروسية ـ قطائع، ولأهل الحرف في

(١) ياقوت ـ معجم البلدان: انظر لفظ بغداد.

مصر، وكان يطلق عليهم «المغاربة» قطائع، وأفرد للتجارة وأرباب الحرف والصناعات أسواقاً خاصة، ونقل إلى هذه المدينة الأشجار والثمار وشيد في طرفها مسجداً جامعاً. ونزل أشناس وغيره من القواد كرخ سامرا.

هكذا تم بناء سامرا التي قصدها الناس من كل صوب وحدب، وشيدوا فيها المباني الشاهقة، حتى أصبحت من أحسن مدن ذلك العصر.

وقد سمى ياقوت سبعة عشر قصراً بناها المعتصم والمتوكل في مدينة سامرا. وكانت هذه القصور نموذجاً للقصور التي بنيت فيما بعد في البلاد الواقعة بين بخارى شرقاً وقرطبة غرباً[1]، وذكر أن هذه المدينة لما عمرت، أطلق عليها اسم «سرور من رأى»، ثم اختصر الاسم فقيل «سر من رأى». ولما خربت واستوحشت سميت «ساء من رأى»، ثم اختصرت فقيل «سامرا».

وذكر المسعودي[2] في سبب تسمية سامرا بهذا الاسم، أنها مدينة سام بن نوح، وقال ياقوت في أن سام بنى هذه المدينة فنسبت إليه وسميت «سام راه» بالفارسية، وأنه دعا أن لا يصيب أهلها سوء، فأراد السفاح أن يبنيها، فبنى مدينة الأنبار بحذائها. ولما تم بناؤها سميت «سرور من رأى»، وقال كارل[3] إن أميان Ammian ذكر هذه المدينة في عبارته التي وردت عن تقهقر جوفيان باسم Castellum Sumers. ويظهر أن لهذه التسمية الطويلة التي أطلقت على مدينة المعتصم صلة اشتقاقية بهذا الاسم القديم.

قال ابن المعتز في وصف سامرا: «إنها وإن جفت معشوقة السكنى وحبيبة المثوى: كوكبها يقظان، وجوها عريان، وحصاها جوهر، ونسيمها معطر، وترابها مسك أذفر، ويومها غداة، وليلها سحر، وطعامها هنيء، وشرابها مريء، وتاجرها مالك، وفقيرها فاتك».

وقد احتفظت سامرا بروائها وبهائها منذ بنيت في عهد المعتصم إلى نهاية خلافة المعتضد العباسي سنة ٢٨٩ هـ. ثم سارع إليها الخراب، ولم يبق فيها إلا قبر علي الهادي الإمام العاشر والسرداب الذي اختفى فيه محمد المنتظر، وهو الإمام الثاني عشر عند طائفة الإمامية الإثني عشرية، وقبور الخلفاء العباسيين الواثق والمتوكل والمنتصر والمعتز والمهدي والمعتمد.

وقد وصف ياقوت المتوفى أوائل القرن السابع الهجري أطلال سامرا كما شاهدها، فقال:

---

(١) بارنولد: تاريخ الحضارة الإسلامية (ترجمة حمزة طاهر) ص ٥٣.

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٥٠.

(٣) Geschichte Der Chalifen, Vol. II. P. 382 n.

«وسائر ذلك خراب يستوحش الناظر إليها، بعد أن لم يكن في الأرض كلها أحسن منها، ولا أجمل ولا أعظم، ولا آنس ولا أوسع ملكاً منها فسبحان من لا يزول ولا يحول».

(جـ) قرطبة:

لما دخل عبد الرحمن الأول بلاد الأندلس ووطد دعائم الإمارة الأموية فيها، اتخذ مدينة قرطبة حاضرة لإمارته، وبنى فيها القصر والمسجد والجامع.

وقد ذكر المقري[١] العوامل التي حدت عبد الرحمن على اختيار قرطبة مقراً لإمارته فقال: إن ملوك بني أمية حين اتخذوها حاضرة ملكهم لعلى بصيرة: الديار الكثيرة المنفسحة، والشوارع المتسعة، والمباني الفخمة، والنهر الجاري، والهواء المعتدل، والخارج النضر، والمحرث العظيم، والشّعراء[٢] الكافية، والتوسط بين شرقي الأندلس وغربها».

فلما ولي هشام بن عبد الرحمن بلاد الأندلس، جمل قرطبة وزينها بالمباني الفخمة والبساتيِن النضرة، وجدد القنطرة التي بناها السمح بن مالك الخولاني عامل عمرو بن عبد العزيز بالأندلس على نهر الوادي الكبير، وأحكم هشام بناءها حتى أصبحت مضرب المثل في إحكام البناء. وكان طولها ثمانمائة ذراع وعرضها عشرين باعاً[٣]، وارتفاعها ستين ذراعاً، وعدد حناياها ثمانية عشر حنية، وعدد أبراجها تسعة عشر برجا[٤].

اتخذ عبد الرحمن الداخل من قصر قرطبة القديم مقراً لإمارته، ثم جمله وأنشأ فيه الرياض الفيحاء، وأجرى من الجبال القريبة من هذه المدينة، المياه العذبة في كل ساحة من ساحاته في قنوات الرصاص «تؤدنها منها إلى المصانع صور (تماثيل) مختلفة الأشكال من الذهب الإبريز والفضة الخالصة والنحاس المموه إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة، والصهاريج الغريبة في أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة».

وقد ألحقت بهذا القصر القصور الفخمة والبساتين النضرة، كالكامل والمجدد والحائر والروضة والزاهر والمعشوق والمبارك والرستق، وقصر السرور والتاج والبديع[٥].

---

(١) نفح الطيب جـ ١ - ٢١٧ - ٢١٨.

(٢) الشعراء: الأرض الكثيرة الشجر، وقيل، هي الروضة.

(٣) الباع مسافة ما بين الكفين إذا بسطتهما يميناً وشمالاً.

(٤) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ٢٢٦.

(٥) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢١٩.

وبنى عبد الرحمن بقرطبة كثيراً من القصور، كقصر الرصافة الذي كان يختلف إليه للنزهة، وكانت تحيط به البساتين الواسعة التي نقل إليها غرائب النبات والأشجار من مختلف البلاد، كما جلب إلى هذا البستان شجر الرمان واستنبته حتى أينع وأثمر[١]. وقد قيل إن أخته أم الأصبغ كانت ترسل إليه شجرة الرمان من الشام[٢].

ومن قصور قرطبة قصر الدمشق الذي احتفظ باسم حاضرة الأمويين في الشرق، وكان يقوم على أعمدة من الرخام. وقد نمقت ساحاته وفناؤه، واتخذ أمراء بني أمية في الأندلس وخلفاؤها مكاناً للتسلية، وحاكوا به قصرهم بدمشق.

ومن أشهر أثار عبد الرحمن الأول: المسجد الجامع بقرطبة الذي بناه في سنة ١٨٦ هـ وأنفق في بنائه ٨٠,٠٠٠ دينار حصل عليها من غنائم القوط. ثم أتم هذا المسجد ابنه التقي هشام سنة ١٧٧ هـ، وتعهده الأمراء من بعده بالتجميل والزيادة حتى أصبح من أجمل مساجد الإسلام. فمن الأمراء من صفح السواري والحيطان بالذهب، ومنهم من أضاف إليه مئذنة، ومنهم من زاد في رقعته ليتسع للعدد الضخم من المصلين.

وقد بلغ عدد بوائكه[٣] تسع عشرة من الشرق إلى الغرب وإحدى وثلاثين من الشمال إلى الجنوب. وللمسجد واحد وعشرون باباً طليت بالنحاس الأصفر اللماع، وثلاث وتسعون ومائتا وألف سارية. وقد أجريت الفضة في حيطان محرابه المزين بالفسيفساء وصب في سواريه الذهب الإبريز واللازورد. أما المنبر فقد صنع من العاج ونفيس الخشب، ويتألف من ستة وثلاثين ألف وصل (قطعة منفصلة) سمرت بمسامير الذهب والفضة وزين بعضها الأحجار النفيسة. وكان للجامع أربع ميضآت يصل إليها الماء من الجبال. وبنيت الدور إلى الجانب الغربي من المسجد لنزول فقراء المسافرين وأبناء السبيل.

وبهذا المسجد أيضاً مئات من الثريات التي صنعت من نحاس أجراس الكنائس للإضاءة ليلاً. وكان به شموع ضخمة زنة الواحدة منها خمسون رطلاً كانت تشتعل ليلاً ونهاراً إلى جانبي الخطيب أو الواعظ في شهر رمضان. وكان يقوم بخدمة المسجد ثلثمائة رجل يوقدون البخور من العنبر والعود ويعدون الزيت العطر لإضاءة عشرة آلاف فتيل للقناديل. وبهذا المسجد تنور من

---

(١) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ٢٢٠.

(٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٥٩.

(٣) من معاني البوائك النخل الثوابت في مكانها. قال شارح القاموس ومنه أيضاً تسمية بوائك البيت لأعمدتها الضخمة، وهي وإن كانت عامية مولدة غير أن لها وجها في الإشتقاق صحيحاً.

نحاس أصفر يحمل ألف مصباح. «وفيه أشياء غريبة من الصنائع العجيبة يعجز عن وصفها الواصفون»[١].

عني عبد الرحمن الأوسط بتعمير قرطبة وتجميلها، وشيد أمراء الأمويين في الأندلس، كالحكم الأول وعبد الرحمن الأوسط ومحمد الأول (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) قصوراً فخمة، كالمجلس الزاهر، والبهو الكامل، والقصر المنيف، وقصر الدمشق، وقصر قرطبة الذي وصفه المقري فقال إنه يمتاز بالرياض اليانعة، والبحيرات الهائلة، والبرك البديعة، والصهاريج الغريبة، والقباب العالية المنيفة الذي لم ير الراءون مثلها في مشارق الأرض ومغاربها.

اتسع عمران قرطبة حتى بلغ عدد سكانها في القرن الرابع الهجري ٥٠٠,٠٠٠ نسمة، وعدد دورها ١٣,١٠٠، غير قصورها الفخمة، وضواحيها الثمانية والعشرين، وحماماتها الثلثمائة، ومساجدها التي بلغت ثلاثة آلاف على ما قيل. ولم يتفوق عليها في الاتساع سوى مدينة بغداد، وقد أولع أهل قرطبة بمقارنتها بحاضرة العباسيين، فقال بعضهم:

دع عنك حضرَة بغداد وبهجتَها ... ولا تعظِّم بلادَ الفرس والصين
فما على الأرض قط مثل قرطبة ... وما مشى فوقَها مثلُ ابن حَمْدين[٢]

(د) فاس:

١ - إرتياد موضع فاس:

في سنة ١٨٩ هـ وفد على إدريس الثاني نحو خمسمائة فارس من العرب من الأزد وبني يحصب وغيرهم من إفريقية والأندلس. وقد ذكر ابن القاضي أن إدريس سر بقدومهم وأكرم وفادتهم، ورفع منزلتهم واتخذهم بطانة له، لأنه شعر بشيء من الوحشة بين البربر، وقد قلد إدريس عمير بن مصعب الأزدي الوزارة، وكان من فرسان العرب وسادتهم، وكان لأبيه مصعب مآثر عظيمة في إفريقية والأندلسْ ومواقف مشهورة في غزو بلاد الروم. كما قلد إدريس الثاني محمد بن سعيد القيسي القضاء. وكان صالحاً ورعاً، أخذ العلم عن الإمام مالك وسفيان الثوري وروى عنهما، ثم خرج إلى الأندلس للجهاد في سبيل الله، ثم وفد على إدريس فيمن

---

(١) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤٦.
Lane - Poole: The Moors In Spain, PP. 136 - 9.

(٢) المقري نفح الطيب جـ ٢ ص ٢١٦، ٢١٩، ٢٥٦، ٢٥٧.
Dozy. The Moslems In Spain, P. 449.

وفد عليه من العرب والبربر من جميع الآفاق، فكثر الناس وضاقت بهم مدينة وليلي (بفتح الواو وكسر اللامين)، وهي على مقربة من جبل زرهون (بفتح الزاي وسكون الراء) شمالي مدينة فاس حيث أقام إدريس الأول.

ولما رأى إدريس الثاني أن الأمر قد استتب له، وأن مدينة وليلي قد ضاقت بجيشه وحشمه ووجوه أهل دولته، أراد أن يرتاد موضعاً يبني فيه حاضرة ملكه، فسار في سنة ١٩٠ هـ بصحبة بعض خاصته ورؤساء دولته. فوصل إلى جبل زالغ (أوزلاخ)، وهو جبل شامخ يشرف على مدينة فاس من ناحية الشرق، ولا يزال يعرف بهذا الاسم إلى الآن. وهنا شرع إدريس الثاني في البناء وأقام جزءاً من السور. ولكن السيل قد انهال من أعلى الجبل في بعض الليالي وحمل معه كل ما بني. فلم ير إدريس بدأ من العدول عن الاستمرار في البناء[1].

ولما أهلت سنة ١٩١ هـ خرج إدريس الثاني يرتاد موضعاً آخر يبني فيه مدينته.

ولما وصل إلى وادي (أو نهر) «سِبُو» (بكسر السين) رأى حمة (بفتح الحاء وتشديد الميم مع الفتح) خولان، وهي حمة سيدي حرازم الآن، وتبعد عن فاس بنحو عشرة كيلو مترات وتشتهر بمياهها المعدنية وقد أعجبه هذا المكان لقربه من الماء ووجود هذه الحمة فيه، فشرع في وضع الأساس وقطعت الأخشاب وصنع الجير وغيره من أدوات البناء، وبدىء في العمل. ولكن «إدريس» عدل عن البناء مرة أخرى لأنه خشي أن تتعرض مدينته لفيضان وادي «سبو» في فصل الشتاء، وقفل راجعاً إلى مدينة وليلي، وبعث وزيره عميراً يرتاد له موضعاً يفي بأغراضه.

سار هذا الوزير في جماعة من قومه حتى بلغ «فحص سايس»، وهو سهل فسيح يمتد بين جبل زرهون والحاجب وتقع في وسطه مدينة فاس الآن. فوجد اتساع رقعة المكان واعتدال هوائه وكثرة مائه، فنزل ودعا الله أن يستجيب لدعائه، ثم امتطى صهوة جواده وأمر قومه أن ينتظروه عند تلك العين حتى يعود إليهم. ومن ثم نسبت إليه هذه العين فسميت «عين عمير» ثم واصل الوزير سيره حتى وصل إلى العين التي ينبع منها وادي فاس، فرأى أكثر من ستين عيناً تنساب مياهها في أرض فسيحة تحيط بها المزارع والأشجار. ولما شرب من ماء هذه العين استطابه وقال: «ماء عذب وهواء معتدل». ثم سار عمير في الوادي حتى وصل إلى موضع مدينة فاس الحالي، فنظر إلى الجبلين، فوجد غيطة[2] كثيفة الأشجار عامرة بالعيون والأنهار، وشاهد

(١) ابن القاضي: جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس، الخزانة العامة بالرباط، مخطوط جـ ١٢٤٢ ورقة ٣٩٠ وما يليها.

(٢) الغيطة هي جزء من الأرض غني بمائه وأشجاره وجمال خضرته. ومن هذا التعبير أخذ لفظ الغيط في الاصطلاح المصري بمعنى الحقل.

في بعض مواضعها خياماً من شعر يسكنها قوم من زناته. واطمأن الوزير إلى ما رأى، فعاد إلى وليلي ووصف لمولاه إدريس الثاني هذا المكان وذكر له ما يمتاز به من وفرة مائه وجودة تربته واعتدال هوائه. فسار إليه إدريس وسأل عن ملاك هذه الأرض، فقيل قوم من زواغة يعرفون ببني الخير فقال: هذا فأل حسن، وبعث في طلبهم واشترى هذه الأرض منهم بستة آلاف درهم وأدى لهم الثمن وأشهد عليهم بذلك[1].

وقد ذكر المؤرخون حكاية تظهر عليها مسحة الاختلاق التي ظهرت عند بناء مدينة بغداد. ذلك أن إدريس الثاني لما عزم على بناء مدينة فاس وبلغ موضعها مر به أحد الرهبان، وكان شيخاً كبيراً، قيل إنه ناهز المائة والخمسين. وكان يترهب في صومعة قريبة من تلك النواحي، فسلم على إدريس وقال له: أيها الأمير! ما تريد أن تصنع بين هذين الجبلين؟ قال؛ أريد أن أختط بينهما مدينة لسكناي وسكنى ولدي من بعدي، يعبد الله تعالى بها ويتلى بها كتابه وتقام بها حدوده، قال: أيها الأمير! إن لـك عندي بشرى. قال: وما هي أيها الراهب؟ قال: أخبرني راهب كان قبلي في هذا الدير منذ مائة سنة أنه وجد في كتاب علمه أنه كان بهذا الموضع مدينة تسمى «ساف» خربت منذ ألف سنة وسبعمائة، وأنه سيجددها ويحيي آثارها ويقيم درسها (وصحتها دارسها أي ما درس منها) رجل من آل بيت النبوة يسمى إدريس. فيكون له بها شأن عظيم لا يزال دين الإسلام قائماً بها إلى يوم القيامة. فقال إدريس: الحمد لله! أنا إدريس وأنا من آل بيت رسول الله ﷺ، وأنا بانيها إن شاء الله. لذلك عقد إدريس العزم على بناء مدينته، فوضع أساسها.

ويدلل ابن أبي زرع[2]وابن القاضي[3] على صحة الحكاية بأن أحد اليهود حفر أساس دار له بقنطرة عديلة من هذه المدينة فوجد في هذا الأساس دمية (بضم الدال) من رخام على صورة جارية نقشت على ظهرها هذه العبارة: هذا موضع حمام عمر ألف عام ثم خرب فأقيم بموضعه بيعة للعبادة.

٢ ـ اشتقاق لفظ فاس:

اختلف المؤرخون في تسمية مدينة فاس:

١ ـ فقد قيل إن إدريس الثاني لما شرع في بنائها كان يعمل مع الصناع والفعلة، فصنع له بعض الناس فأساً من ذهب، أو فضة، يستعمله إدريس في البناء، فكان يقال: هات الفأس

---

(١) ابن القاضي: جذوة الإقتباس المصدر نفسه.

(٢) روض القرطاس جـ١ ص ٤٨ ـ ٤٩.

(٣) جذوة الإقتباس ورقة ٣٩١ وما يليها.

أحمل الفأس، أحفروا بالفأس، فسميت المدينة «فأس» ثم سهلت إلى فاس للتخفيف.

٢ ـ وقيل إنه لما شرع في حفر أساس المدينة من جهة القبلة وجد في الحفيرة فأس طوله أربعة أمتار وسعته شبر واحد ووزنه ستون رطلاً من عمل الأوائل. فسميت المدينة «فأساً».

ويرجح الحسن الوزان أو ليون الإفريقي[١] أن هذه التسمية جاءت نتيجة عثور المولى إدريس على فأس عند حفر أساس المدينة، فسمى مدينته «فاس».

٣ ـ وقيل إنه لما تم بناء المدينة طلب رجال الحاشية من المولى إدريس أن يسميها فقال: أسميها باسم المدينة التي كانت قبلها على ما أخبرنا به الراهب، وكانت تسمى «ساف»[٢]، ولكني أقلب اسمها، فأصبحت فاس بدل ساف.

ويرى بعض أن المواضع الذي بنيت فيه المدينة كان يحمل اسم فاس. وأن هذه التسمية كانت راجعة إلى النهر الذي يخترق المدينة، وكان يسمى «ساف» Sef باللغة الإفريقية، فقلب لفظ ساف إلى فاس[٣].

ويرى «إيبولار» عند تعليقه على ما ذكره الحسن الوزان عن مدينة فاس، أن كلمة «أسيف» Asef معناها بالبربرية النهر، وأنها تصبح عند قلبها فاس، وذلك بشيء من التصرف[٤].

ولا تبعد صحة هذا الرأي الذي يرتكز على أصل من اللغة البربرية.

٣ ـ تخطيط فاس:

وضع إدريس الثاني أساس مدينة فاس في يوم الخميس غرة ربيع الأول سنة ١٩٢ هـ فأسس عدوة[٥] الأندلس وأدارها بالسور من ناحية القبلة. وقد أقام بها ثلثمائة أسرة جاءت من قرطبة بعد أن ثاروا على الحكم الأول الأموي (١٨٠ ـ ٢٠٦ هـ) بربض هذه المدينة الغربي

---

(١) Loin l"Africain. Tom I, PP. 179 - 180.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس جـ ١ ص ٦٠ ـ ٦١.

(٣) الحسن الوزان tom I, P. 180

(٤) Tome I, P. 179, Note 106

(٥) بضم العين وسكون الدال وفتح الواو. ومعناها شاطىء النهر أو البحر. وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم (سورة الأنفال ٨: ٤٢): ﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حيي عن بينة وإن الله لسميع عليم﴾.

بزعامة الفقيه يحيى بن يحيى الليثي، فأحل بهم الأمير الأموي الهزيمة وهدم دورهم ومساجدهم ووضع حداً لتدخل رجال الدين.

وقد أرغم هؤلاء الثوار على الهجرة إلى فاس (والإسكندرية) وأقاموا بها، حيث لحقت بهم قبائل البربر من أوربة (بفتح الألف مع الهمزة وسكون الواو وفتح الباء) وغمارة (بضم الغين) ولواتة (بفتح اللام والتاء الأولى).

ثم وضع إدريس الثاني أساس عدوة القرويين في غرة ربيع الثاني من سنة ١٩٣ هـ[١]، فوفد عليها ثلثمائة أسرة جاءت من القيروان (بتونس الحالية) تاركين بلادهم لنفس الأسباب التي أدت إلى هجرة الأندلسيين.

وقد امتاز هذا المكان بكثرة أشجاره ووفرة عيونه وتدفق أنهاره. ولذلك رأى إدريس الثاني أن ينتقل من عدوة الأندلس إلى عدوة القرويين في الموضع المعروف بدار القيطون (بفتح القاف وسكون الياء) اليوم القريب من ضريح مولاي إدريس.

ثم أخذ إدريس الثاني في بناء المسجد الذي يعرف الآن بمسجد الشرفا. وهو مسجد مولاي إدريس اليوم، وأقام فيه الخطبة. ثم أخذ في بناء داره المعروفة بدار القيطون التي يسكنها الشرفاء الجوطيون من أولاده. ثم بنى القيسارية إلى جانب المسجد الجامع، وأدار حوله الأسواق من كل جانب، وأمر الناس بالبناء وقال لهم: من بنى موضعاً أو اغترسه قبل تمام السور فهو له هبة ابتغاء وجه الله. فبنى الناس الدور وغرسوا الأشجار وكثرت العمارات. وفي ذلك الوقت وفد على إدريس الثاني جماعة من الفرس من بلاد العراق، فأنزلهم بناحية «عين علو» (بفتح العين وضم اللام مع التشديد) التي بنيت عليها دار الجزاء ودار أخرى بإزائها. أما

---

(١) هذان التاريخان (١٩٢ و١٩٣ هـ) هما المتداولان عند جمهرة مؤرخي المغرب. على أن الأستاذ «أندري آدم» أتى بنظرية جديدة عن تأسيس مدينة فاس، فذكر أن عدوة الأندلس بناها إدريس الأول بين سنتي ١٧٢ و١٧٤ هـ (ولعله يقصد سنة ١٧٧ هـ، وهي السنة التي توفي فيها إدريس الأول). وقد دلل «آدم» على صحة نظريته بما أورده من نصوص متعددة استمدها من مصادر أصيلة، مثل كتاب أبي بكر الرازي المتوفى سنة ٣٤٥ هـ الذي ينسب تأسيس مدينة فاس إلى إدريس الأول، والنوفلي المؤرخ الذي ذكر أن إدريس الثاني أتى إلى مدينة فاس سنة ١٩٢ هـ واستقر بعدوة الأندلسيين، أي أن مدينة كانت قائمة قبل مجيء إدريس الثاني. ومن المصادر التي اعتمد عليها الأستاذ «آدم»، كتاب «الزهرة المنشورة في الأخبار المأثورة»، وهو ديوان تاريخي أي منظومة تاريخية نظمت في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) في عهد بني نصر (بني الأحمر) ملوك غرناطة، وقد ذكر صاحب هذا الديوان أن الأندلسيين بعد خروجهم من قرطبة في سنة ٢٠٢ هـ في عهد الحكم بن هشام جاءوا إلى فاس،فسميت إحدى العدوتين «عدوة الأندلسين»، وقد أضاف صاحب هذا الديوان أن مدينة فاس بنيت سنة ١٧٨هـ، حين دخل إدريس بن عبد الله بلاد المغرب =

دار الجزاء فهي المكان الذي تشرف عليه وزارة الأوقاف المغربية ولها سهم في الدور التابعة له[١].

وقد أدار إدريس سور عدوة القرويين مبتدئاً برأس عقبة علو وصنع برأس العقبة باباً سماه باب إفريقية (يقصدُ باب القيروان). ثم هبط بالسور إلى عقبة الزعتر حيث صنع باباً سماه باب حصن سعدون، ويليه باب القوس. واستمر في البناء حتى وصل إلى المكان الذي يفصّل بين العدوتين وصنع باباً سماه باب الفصيل لأنه يفصل بين عدوة الأندلس وعدوة القرويين. ثم جاوز هذا الباب وصنع باباً سماه باب الفرج.

ثم ابتدأ إدريس الثاني بعدوة الأندلس من جهة القبلة، واستمر في بناء السور وصنع قبالة باب الفرج وباب الفصيل من عدوة القرويين باباً سماه باب أبي سفيان، ومنه يخرج الناس إلى بلاد غمارة (بضم الغين) والريف شمالاً. ثم سار بالسور شرقاً فصنع باباً يعرف بباب الكنيسة، ومنه يخرج المسافر إلى تلمسان. ولم يزل هذا الباب على حاله كما بناه إدريس حتى هدمه عبد المؤمن بن علي الموحدي سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م)، ثم بناه الناصر بن المنصور الموحدي حين جدد سور المدينة سنة ٦٠١ هـ (١٢٠٤ ـ ١٢٠٥ م). كذلك بنى إدريس بسور عدوة الأندلسَ القبلي باباً سماه باب القبلة لم يزل على حاله حتى هدمه «دوناس» اليفراني حين دخل الأندلس عنوة، فبناها الفتوح بن عطية الزناتي اليفراني في عهد ولايته على هذه المدينة[٢]. كما بنى بسور عدوة القرويين الغربي باب الحديد الذي يؤدي إلى الأطلس المتوسط، وباب

= (والمعروف أنه دخل سنة ١٧٢ هـ). ويقول «أندري آدم»: «هكذا نستخرج تاريخاً جديداً ذا ثلاثة فصول:

١ ـ مدينة بربرية الأسلوب بناها إدريس الأول سنة ١٧٨ هـ (٧٨٩ م) كانت تسمى إذ ذاك مدينة فاس، ضربت بها السكة إلى سنة ١٨٩ هـ.

٢ ـ مدينة جديدة على أسلوب شرقي، أو إن شئت فقل، على أسلوب إفريقي تونسي. فسميت هذه المدينة أولاً «العالية»، ثم سميت بعد ذلك مدينة القرويين.

٣ ـ إن وفود القرطبيين الأندلسيين سنة ٢٠٢ هـ سمحت لإدريس الثاني بأن يزيل الصبغة البربرية للمدينة التي أسسها أبوه، وبأن يقيم هؤلاء الأندلسيين الذين زادوا مساحتها بالبناء بأسلوب أندلسي. ومن هنا سميت مدينة الأندلسيين.

ويرى الأستاذ بروفنسال أن القارىء يلتبس عليه قراءة سبعين وتسعين بالعربية، ولاسيما إذا ذكرنا أن النقط لم يكن شائعاً في العصور الأولى، فكتب بعض الناسخين إثنتين وسبعين ومائة بدلاً من إثنتين وتسعين ومائة. انظر مجلة الثقافة المغربية العدد الأول ص ٢٦٤ ـ ٢٦٦.

(١) ابن القاضي: جذوة الإقتباس، المصدر نفسه.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس جـ ١ ص ٥٢ ـ ٥٤.

سليمان الذي يؤدي إلى مدينة مراكش وبلاد المصامدة وباب الجوف الذي يؤدي إلى الرابطة القديمة وسد في أثناء المجاعة التي حلت بمدينة فاس سنة ٦٢٧ هـ (١٢٢٩ ـ ١٢٣٠ م)، وباب حصن سعدون ويقع جنوبي السور، وهو الذي بناه إدريس.

٤ ـ اتساع مدينة فاس:

وسرعان ما اتسعت مدينة فاس وكثر سكانها وزاد عدد أبوابها، وغرست الأشجار والكروم والزيتون على جانبي نهر سبر، وعمرت الأرض وقصدها الناس من كافة البلاد وازدحمت بالسكان، وأقام بها التجار وأرباب الحرف وغيرهم.

ولما فرغ إدريس من بناء فاس انتقل إليها واتخذها حاضرة لدولته. وفي سنة ١٩٧ هـ خرج لغزو من بقي من الكفار بنفيس (نهر يقرب من مدينة مراكش) وبلاد المصامدة، ففتحها وعاد سنة ١٩٩ هـ ثم خرج لغزو قبائل نفزاوة ودخل مدينة تلمسار[١].

ولما فرغ إدريس من بناء مدينته أقام خطبة الجمعة وختمها بقوله: «اللهم إنك تعلم أني ما أردت بناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا سمعة ولا مكابرة، وإنما أردت أن تعبد بها ويتلى كتابك، وتقام بها حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك ﷺ ما بقيت الدنيا. اللهم وفق ساكنها وقاطنها للخير وأعنهم عليه، وأكفهم مؤونة أعدائهم، ووسع عليهم الأرزاق، وأغمد عنهم سيف الفتنة والنفاق، إنك على كل شيء قدير» وقد أدار عليه الأمير عجيسة في عهد ولايته سورا وصنع فوق باب حصن سعدون بابا أطلق عليه باب عجيسة كما فعل أخوه الفتح بباب عدوة الأندلس. ولم يزل باب عجيسة على حاله بقية أيام زناتة وصنهاجة إلى عهد الناصر الموحدي (٥٩٥ ـ ٦١١/١١٩٩ ـ ١٢١٤) الذي أمر ببناء سور المدينة. وكان جده عبد المؤمن قد هدمه سنة ٥٤٠ هـ كما ذكرنا، وبنى على مقربة من باب الجيسة وفوقه باباً كبيراً سماه باب عجيسة[٢].

ولم تزل الخطبة تقام في عدوة القرويين حتى سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٣ م). حتى تقلد أمورها دوناس الزناتي. فلما مات بايع أهل عدوة الأندلسيين ابنه الفتوح (وهو الأكبر) وحكم ابنه الأصغر وعجيسة بعدوة القرويين. وكان لكل من العدوتين جيش وبلاط. ثم قامت العداوة بين الأخوين وتنافسا على الرياسة، واشتعلت نار الحروب بين المدينتين ودارت رحى القتال على

---

(١) ابن القاضي: جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس، ص ٣٩٠ وما يليها.

(٢) وقد أسقط الناس حرف العين وأدخلوا بدله الألف واللام فقالوا باب الجيسة، ولا يزال يعرف بهذا الاسم إلى الآن.

ضفة النهر الكبير بالمكان الذي يعرف بكهف الوقادين بين العدوتين، وقد دخل الفتوح صاحب عدوة الأندلس على أخيه عجيسة فقتله واستولى على السلطة في العدوتين ثلاث سنين[١].

وكان أهل عدوة الأندلس أهل نجدة وشدة وأكثرهم يشتغل بالزراعة، وأهل عدوة القرويين أهل رفاهية ونخوة في البناء واللباس، وأكثرهم صناع وتجار، ورجال عدوة القرويين أوسم وجوها من رجال عدوة الأندلس كما كانوا أجمل نساء.

وكانت أسواق فاس تحيط بجامع القرويين، وكانت محلاتهم ملاصقة لسور الجامع وبعضها الآخر يقابل هذا السور.

وقد أشاد ابن أبي زرع[٢] بمزايا مدينة فاس على سائر مدن المغرب فقال: «وقد جمعت مدينة فاس بين عذوبة الماء، واعتدال الهواء، وطيب التربة، وحسن الثمرة، وسعة المحرث[٣] وعظيم بركته، وقرب المحطب، وكثرة عدده وشجره. وبها منازل مؤنقة، وبساتين مشرقة، ورياض مورقة، وأسواق مرتبة منسقة، وعيون منهمرة، وأنهار متدفقة منحدرة، وأشجار ملتفة، وجنات دائرة بها محتفة».

وقد توافرت في مدينة فاس المزايا التي يجب أن تتوافر في المدن الجميلة فقال: «وقالت الحكماء: أحسن مواضع المدن أن تجمع خمسة أشياء وهي: النهر الجاري والحرث الطيب، والمحطب (بفتح الطاء) القريب، والسور الحصين، والسلطان، إذ به صلاح حالها وأمن سبلها وكف جبابرتها. وقد جمعت مدينة فاس هذه الخصال التي هي كمال المدن وشرفها وزادت عليها بمحاسن كثيرة»[٤].

---

(١) ابن القاضي؛ نفس المصدر. ابن أبي زرع: روض القرطاس جـ ١ ص ٥٦ ـ ٥٧.
(٢) روض القرطاس جـ ١ ص ٤٢.
(٣) أي الأرض الصالحة للحراثة. ومحرث كمجلس اسم مكان الحرث.
(٤) ابن أبي زرع: جـ ١ ص ٤٢.

الباب التاسع

الحالة الاجتماعية

١ ـ طبقات الشعب

(أ) عند العباسيين:

يقصد بالحالة الاجتماعية في بلد من البلاد، ذكر طبقات المجتمع في هذا البلد من حيث الجنس والدين، وعلاقة كل من هذه الطبقات بعضها ببعض، ثم بحث نظام الأسرة وحياة أفرادها وما يتمتع به كل منهم من الحرية، ثم وصف البلاط ومجالس الخلفاء، والأعياد والمواسم والولائم والحفلات، وأماكن النزهة، ووصف المنازل وما فيها من أثاث وطعام وشراب ولباس، وما إلى ذلك من مظاهر المجتمع.

كان الخلفاء الأمويون يعتمدون على العنصر العربي الذي كان يكون السواد الأعظم من أفراد الشعب في بلاد الشام. فلما ظهرت الدولة العباسية بمساعدة الفرس وتحول مركز هذه الدولة إلى بلاد العراق، ساد العنصر الفارسي، واعتمد الخلفاء العباسيون على الفرس دون العرب وأسندوا إليهم المناصب المدنية والعسكرية. ومن ثم قامت المنافسة بين العرب والفرس، حتى جاء المعتصم ـ وكانت أمه تركية ـ فاعتمد على العنصر التركي واتخذهم حرساً له، وأسند إليهم مناصب الدولة، وقلدهم ولاية الأقاليم البعيدة عن مركز الخلافة، بل أخرج العرب من ديوان العطاء وأحل محلهم الترك، فحقد عليهم العرب والفرس جميعاً.

ولم يقتصر الصراع على ما كان بين العرب والفرس والترك، بل تعداه إلى قيام المنافسة بين العنصر العربي نفسه: فاشتعلت نيران العصبية بين عرب الشمال المضريين، وعرب الجنوب اليمنيين، حتى إن نقل المنصور جنده إلى الكرخ جنوبي بغداد، كان نتيجة قيام روح العصبية بين بعض العرب وبعض.

ذكر الطبري[1] أن قُثَم بن عباس دخل على المنصور، وكان شيخاً ذا رأي وحزم، فقال

---

(١) جـ ٩ ص ٢٨١ ـ ٢٨٢.

له المنصور: أما ترى يا قثم ما نحن فيه من التياث الجند علينا؟ قد خفت أن تجتمع كلمتهم، فيخرج هذا الأمر من أيدينا فما ترى؟ قال: يا أمير المؤمنين عندي رأي لو أظهرته لك فسد، وإن تركتني أمضيته، صلحت لك خلافتك، وهابك جندك، فقال له: أفتمضي في خلافتي أمراً لا تعلمني ما هو؟ فقال له: إن كنت عندك متهماً على دولتك فلا تشاورني، وإن كنت مأموناً عليها فدعني أمضي رأيي فقال: فأمضه. فانصرف قثم إلى منزله، فدعا غلاماً له فقال: إذا كان غدا، فتقدمني، فاجلس في دار أمير المؤمنين. فإذا رأيتني قد دخلت وتوسطت أصحاب المراتب فخذ بعنان بغلتي، فاستوقفني، واستحلفني بحق رسول الله، وحق العباس، وحق أمير المؤمنين، لما وقفت لك وسمعت مسألتك وأجبتك عنها. فإني سأنتهرك، وأغلظ لك القول، فلا يهولنك ذلك مني، وعاودني بالمسألة، فإني سأشتمك، فلا يردعك ذلك، وعاودني بالقول والمسألة، فإني سأضربك بسوطي، فلا يشق ذلك عليك، فقل لي: أي الحيين أشرف اليمن أم مضر؟ فإذا أجبتك فخل عنان بلغني وأنت حر». فغدا الغلام فجلس حيث أمره، فلما جاء الشيخ، فعل الغلام ما أمره به مولاه، وفعل المولى ما كان قد قال له ثم قال له. قل! فقال: أي الحيين أشرف. اليمن أم مضر؟ فقال قثم: مضر كان منها رسول الله ﷺ، وفيها كتاب الله عز وجل، وفيها بيت الله، ومنها خليفة الله، فامتعضت اليمن، إذ لم يذكر لها شيء من شرفها، فقال له قائد من قواد اليمن. ليس الأمر كذلك مطلقاً بغير شرف ولا فضيلة لليمن، ثم قال لغلامه: قم فخذ بعنان بغلة الشيخ، فاكبحها كبحاً عنيفاً تطأ من به منه. ففعل الغلام ما أمره به مولاه حتى كاد أن يقيمها على عراقيبها، فاستعضت من ذلك مضر فقالت: أيفعل هذا بشيخنا؟ فأمر رجل منهم غلامه فقال: أقطع يده، فنفر الحيان، وصرف قثم بغلته، فدخل على أبي جعفر، وافترق الجند، فصارت مضر فرقة، واليمن، والخراسانية فرقة، وربيعة فرقة.

من ذلك نرى أن الشعب كان يتكون في العصر العباسي الأول من العرب، وعلى الأخص المضريين واليمنيين. ثم من الفرس، وخاصة الخراسانيين الذين ساعدوا على قيام الدولة العباسية، والترك. وعلى الأخص منذ أيام المعتصم، والمغاربة وغيرهم. وكان المسلمون ينقسمون إلى سنيين وشيعيين. ولم يخمد النزاع بينهم طوال العصر العباسي الأول، بل تطور أطواراً مختلفة، نراها في الثورات التي أذكى نيرانها محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم في عهد أبي جعفر المنصور، والحسين بن علي في عهد الهادي، ويحيى وإدريس ابنا عبد الله بن الحسن في عهد هارون الرشيد.

ومن طبقات الشعب في ذلك العصر أهل الذمة، وهم النصارى واليهود، وكانوا يتمتعون بكثير من ضروب التسامح الديني، حتى إننا نرى ببغداد كثيراً من الأديار نخص

بالذكر منها دير العذارى، وكان في قطيعة النصارى على نهر الدجاج، ودير درمايس الذي وصفه الشابشتي في كتابه «الديارات»، وكان به البساتين الكثيفة الأشجار. ويقصده الناس للنزهة وانتشار الهواء، ودير الروم شرقي بغداد، الذي أشار أحد رهبانه على أبي جعفر المنصور ببناء مدينته في هذا الموضع، وكان خاصاً بالنسطوريين. وكان النصارى واليهود يقيمون شعائرهم الدينية في أديارهم وبيعهم خارج مدينة بغداد في أمن ودعة، مما يدل على أن الخلفاء العباسيين كانوا على جانب عظيم من التسامح الديني مع أهل الذمة.

وقد أوجدت الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغي أن يكون فيها من وفاق بين المسلمين واليهود والنصارى نوعاً من التسامح، ولم تتدخل الحكومة الإسلامية كذلك في شعائر أهل الذمة، بل كان يبلغ من تسامح بعض الخلفاء أن يحضر مواكبهم وأعيادهم ويأمر بصيانتهم.

وكانت الطوائف الدينية منفصلاً بعضها عن بعض تمام الانفصال، وكان لا يجوز للمسيحي أن يتهود ولا لليهودي أن يتنصر؛ واقتصر تغيير الدين على الدخول في الإسلام. ولم يكن النصراني يرث اليهودي ولا اليهودي يرث النصراني، كما لم يكن اليهودي أو النصراني يرث المسلم، ولا المسلم يرث غير المسلم، يهودياً كان أو نصرانياً. ولم يكن في المدن الإسلامية أحياء مخصصة لليهود والنصارى بحيث لا يتعدونها وإن كان أهل كل دين قد آثروا أن يعيشوا متقاربين.

وكان الشعب يتألف في العصر العباسي الأول من أربعة عناصر رئيسية هي: العرب والفرس والأتراك والمغاربة. فلما قامت الدولة العباسية بمساعدة الفرس، اعتمد الخلفاء عليهم، وأهملوا العرب الذين نقموا على الفرس وأشعلوا نيران الثورات حتى قامت بين الأمين والمأمون هذه الفتنة التي كانت في حقيقة الأمر انتصاراً للفرس على العرب. ولما ولي المعتصم الخلافة ظهر العنصر التركي على مسرح السياسة واتخذهم هذا الخليفة حرساً له، وأسند إليهم مناصب الدولة، وأقصى العرب من ديوان العطاء وأدى ظهور العنصر التركي إلى إخماد نار الخصومة بين الفرس والعرب حيناً وبين العلويين والعباسيين حيناً آخر، لأن ذلك العنصر استأثر بالنفوذ دون الفريقين.

وإن الثورات التي أشعل نارها بابك الخرمي والمازيار والأفشين في أواخر العصر العباسي الأول، لتبين لنا مبلغ سخط الفرس على العرب والأتراك والمغاربة، كما يظهر ذلك من قول الأفشين للمازيار يستحثه على مساعدته في ثورته التي كانت ترمي إلى إعادة السلطان إلى الفرس. «فإن خالفت لم يكن للقوم من يرمونك به غيري، ومعي الفرسان وأهل النجدة والبأس. فإن وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة: العرب والمغاربة والأتراك، والعربي

بمنزلة الكلب، اطرح له كسرة واضرب رأسه بالدبوس؛ وهؤلاء الذئاب، يعني المغاربة، إنما هم أكلة رأس، وأولاد الشياطين، يعني الأتراك، فإنما هي ساعة حتى تنفذ سهامهم، ثم تجول الخيل عليهم جولة فتأتي على آخرهم، ويعود الدين إلى ما لم يزل عليه أيام العجم».

وكان الرقيق يكونون طبقة كبيرة من طبقات المجتمع الإسلامي في العصر العباسي الأول، إذ كان اتخاذ الرقيق منتشراً انتشاراً كبيراً. وكانت سمرقند التي كانت تعد من أكبر أسواق الرقيق بيئة صالحة جداً لتربية الرقيق المجلوب من بلاد ما وراء النهر، إذ كان أهلها يتخذون ذلك صناعة لهم يعيشون منها[١]. ولم ينظر الخلفاء العباسيون إلى الرقيق نظرة امتهان وازدراء، بدليل أن كثيرين منهم كانت أمهاتهم من الرقيق. وقد أولع الخلفاء وكبار رجال الدولة باتخاذ الإماء من غير العرب، حتى إنهم كانوا يفضلونهن أحياناً على العربيات الحرائر.

وقد أشاد الخطيب البغدادي[٢] بوصف أهل العراق مركز الخلافة العباسية وقلبها النابض في العصر العباسي الأول في هذه العبارة الشائقة، وأطنب في ذكائهم ومحاسنهم وأدبهم وخلقهم فقال: «إن العراق الذي بنيت فيه بغداد، وهي صفوة الأرض ووسطها، يحيط به ستة أقاليم هي بلاد الترك، والهند، والصين، والشام، والحجاز، ومصر. لذلك اعتدلت ألوان أهله، وامتدت أجسامهم، وسلموا من شقرة الروم والصقالبة، ومن سواد الحبش وسائر أجناس السودان، ومن غلظة الترك، ومن جفاء أهل الجبال وخراسان، ومن دمامة أهل الصين ومن جانسهم وشاكل خلقهم، فسلموا من ذلك كله، واجتمع في أهل هذا القسم من الأرض محاسن جميع أهل الأقطار، بلطف من العزيز القهار، وكما اعتدلوا في الخلقة، كذلك لطفوا في الفطنة والتمسك بالعلم والأدب ومحاسن الأمور».

(ب) في مصر والأندلس:

ولما فتح العرب مصر أصبح فيها ثلاثة عناصر من السكان: القبط، وهم أهل البلاد الأصليون، وكانوا يكونون السواد الأعظم من السكان. والروم، وهم بقايا الحكم الروماني الذي قضى عليه العرب. وكان الروم واليهود يكونون أقلية ضئيلة من السكان. أما العنصر الثالث، وهو العنصر العربي، فكان بعد الفتح يتألف من الجند العربي ومن القبائل العربية التي سحرتها هذه البلاد.

وقد بلغ جند العرب في عهد معاوية بن أبي سفيان أربعين ألفاً، ثم أخذ هذا العدد يزداد بسبب وفود نساء هؤلاء الجند وأولادهم، واتخاذهم مصر وطناً ثانياً لهم. أضف إلى ذلك

(١) متز: الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٢٦٨.
(٢) تاريخ بغداد جـ١ ص ٢٢ ـ ٢٣.

اندماج هؤلاء العرب في أهالي البلاد الأصليين بالمصاهرة. على أنه برغم هذه الزيادة المطردة في العرب النازحين إلى مصر، طلب عبد الله بن الحبحاب عامل الخراج من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك الأموي أن يأذن له في إسكان العرب من قبيلة قيس في أرض الحوف الشرقي جهة بلبيس، حيث يقيم نفر من جديلة. وسرعان ما بلغ عدد هؤلاء النزلاء خمسة آلاف.

كما وفد إلى مصر أولاد الكيز الذين يرجع نسبهم إلى ربيعة بن معد بن عدنان من عرب الشمال، ونزلت طائفة منهم بإقليم أسوان وغيره من أهالي الصعيد. كما نزل بهذا الإقليم كثير من العرب من قبائل اليمن كخزاعة والجعافرة والعبابدة والبشارية. واستطاع بنو ربيعة الذين كانوا يقيمون في إقليم أسوان خاصة أن يصدوا غارات البجة أو البجاة، كما انتشروا في بلاد النوبة وغيرها، ولا سيما بين النيل النوبي والبحر الأحمر، في الأراضي الممتدة بين أسوان ودنقلة تقريباً.

وقد اشتغل العرب باستثمار الأرض وتاجروا في الإبل والخيل، وحملوا عليها غلات أرضهم إلى القلزم[1] حيث كانت تنقل إلى بلاد العرب. على أن اندماج العرب في المصريين اندماجاً فعلياً زاد زيادة واضحة بعد أن أسقط المعتصم أسماء العرب من ديوان العطاء، واعتمد على الأتراك، فانتشر العرب في الريف، واحترفوا الزراعة وغيرها طلباً للرزق، وأخذ العنصر العربي في الدولة العباسية يضعف شيئاً فشيئاً.

وفي بلاد الأندلس كان الشعب يتألف من عدة عناصر، من بينها المسلمون من العرب والبربر الذين ساهموا في فتح هذه البلاد بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير، ومن مسيحي الأندلس من الإسبان الذين دخلوا في الإسلام بعد الفتح، ومن اليهود الذين رزحوا تحت الحكم القوطي.

أما العرب فقد نزل كثير من القبائل الجنوبية أو اليمنين والقبائل الشمالية أو المضريين وسكنوا في أماكن كثيرة، ونزل كثير من المضريين في طُليطلة وسَرَقُسْطة واشْبيلية وبَلنسية وغيرها، كما نزل اليمنيون في غرناطة وقرطبة وإشبيلية ومرسية وبطليوس. وقام العرب في الأندلس بدور هام في تاريخ هذه البلاد وتدخلوا في شؤونها السياسية. وكان للنزاع بين هذه القبائل أثر كبير في إضعاف الحكم الإسلامي في هذه البلاد. وكان لاعتماد عبد الرحمن الداخل على البربر واتخاذ جنوده منهم لعدم ثقته بالعرب، أثر بعيد في إضعاف الدولة الأموية في هذه البلاد، واستغل المسيحيون هذه الفرصة لشن غاراتهم على المسلمين والعمل على استرداد بلادهم.

---

(١) هي مدينة السويس الآن.

وعلى الرغم من أن البربر بقيادة طارق بن زياد أبلوا البلاء الحسن في فتح بلاد الأندلس وتحملوا أكثر أعباء هذا الفتح، نرى العرب يحرمونهم ثمار فتوحهم وينزلونهم الأقاليم الجبلية الوعرة المجدبة في الشمال، حيث استهدفوا لخطر حملات المسيحيين الذين أقاموا في الأماكن الحصينة، على حين نعم العرب بالوديان الخصبة البعيدة عن خطر عصابات المسيحيين. ولهذا ثارت ثائرة البربر واستعرت حفائظهم على العرب[1] وأخذوا يناصبونهم العداء كما كانوا يناصبون العرب والروم في بلاد المغرب من قبل.

وفي الحق أن البربر كانوا إذا أنسوا من أمراء الأمويين وحلفائهم في الأندلس قوة، استكانوا وآثروا العافية، وعاشوا عيشة الهدوء والسكينة؛ وإذا أنسوا من هؤلاء ضعفاً اتخذوا من ذلك فرصة لشق عصا الطاعة، فتراهم ينتهزون فرصة الاضطرابات في عهد المنذر وعبد الله ابني محمد الأول بن عبد الرحمن الأوسط، ويستقلون في أواخر القرن الثالث الهجري بالولايات الغربية وجنوبي بلاد البرتغال، ويحتلون بعض الأماكن الهامة في الأندلس[2]. ومن أشد هؤلاء البربر خطراً أسرة ذي النون التي دهمت الأندلس كلها ـ كما يقول ستانلي لينبول[3] ـ بالسيف والنار وعاثت في جميع أرجائها.

ومن أهم طبقات المجتمع في الأندلس: الصقالبة، وكانوا من المماليك الذين كان تجار الإغريق والبنادقة يجلبونهم إلى بلاد الأندلس ويبيعونهم صغاراً، فينشؤون نشأة إسلامية كانوا يسمون الخرس أيضاً لعجمتهم. وقد بلغت عدتهم خمسة آلاف. كما كانوا يجلبون من أسرى الحروب، أو من هؤلاء الذين استولى عليهم القراصنة من السواحل الأوروبية أو سواحل البحر الأبيض الغربية ويسمون «الحشم». ويشبه هؤلاء الصقالبة الأتراك في الدولة العباسية منذ عهد المعتصم.

وقد ذكر المقدسي[4] عند كلامه على الخدم السود والبيض، أن البيض جنسان: «الصقالبة، وبلدهم خلف خوارزم، إلا أنهم يحملون إلى الأندلس فيخصون. ثم يخرجون إلى مصر والروم يقعون إلى الشام وأقور، وقد انقطعوا بخراب الثغور». وكان الصقالبة يكونون عنصراً هاماً من عناصر الجيش ويقيمون عادة بقرطبة. وقد اتخذهم الحكم الأول (١٨٠ ـ ٢٠٦ هـ) حرساً له، ولم يلبث أن زاد نفوذهم وتفاقم شرهم.

---

(١) Lane - Poole, The Moors in Spain, pp. 53 - 55.

(٢) ابن خلدون. العبر جـ ٤ ص ١٣٣.

(٣) The Moors in Spain, pp. 100 - 101.

(٤) أحسن التقاسيم ص ٢٤٢.

٢ ـ مجالس الغناء والطرب

(أ) في عهد العباسيين:

انغمس العباسيون في الترف والبذخ بزيادة العمران وتدفق الثروة. وكانت قصور الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة مضرب المثل في حسن رونقها وبهائها، كما امتازت بفخامة بنائها واتساعها وما يكتنفها من حدائق غناء وأشجار متكاثفة. كما ازدانت بالمناضد الثمينة والزهريات الخزفية والتربيعات المرصعة والمذهبة. وكان العباسيون ينفقون عن سعة في سبيل رفاهيتهم، ويعيشون عيشة قوامها البذخ والإسراف وحب الظهور. وحفلت قصور الخلفاء والأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة بالمغنين والموسيقيين، كما كانت مجالس الخلفاء من آيات الروعة والجمال.

وقد أخذ العباسيون نظام مجالسهم عن الفرس. وقد وصف الجاحظ في كتابه «التاج في أخلاق الملوك» في باب المنادمة، هذه المجالس في عهد أردشير بن بابك، فقال إنه كان أول «من رتب الندماء، وأخذ بزمام سياستهم وأنه جعلهم ثلاث طبقات[١]».

«ولما قامت الدولة العباسية كان أبو العباس السفاح يظهر للندماء، في مجلسه، ثم احتجب عنهم، كما كان يظهر سروره وابتهاجه لندمائه ومغنيه ويمنحهم العطايا والصلات ويقول: العجب ممن يفرح إنساناً فيتعجل السرور، ويجعل ثواب من سره تسويفاً وعدة. فكان في كل يوم وليلة يقعد فيه لشغله لا ينصرف أحد ممن حضره إلا مسروراً»[٢]. ولم يظهر أبو جعفر المنصور لنديم قط، ولم يره أحد يشرب غير الماء، كما كان لا يثيب أحداً من ندمائه. وكان المهدي يسمع الغناء، وكان أصحابه يشربون عنده النبيذ على الرغم من أنه لم يكن يشربه[٣].

وقد احتجب المهدي في أول خلافته عن الندماء عاماً كاملاً تشبهاً بأبيه المنصور، ثم ظهر لندمائه وأجزل لهم العطايا والمنح. وكان الهادي يحب الغناء ويطرب له. وقد قرب إليه من المغنين ابن جامع الذي حذق فن الغناء، وإبراهيم الموصلي الذي ضرب في الغناء بسهم وافر، والزبير بن دحمان والغنوي. وذكر الطبري[٤] أن الهادي كان «يشتهي من الغناء الوسط الذي

---

(١) انظر ما ذكرناه في الجزء الأول من هذا الكتاب نقلاً عن كتاب التاج في أخلاق الملوك للجاحظ ص ٢٥ ـ ٢٦.

(٢) الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك ص ٣٣.

(٣) الفخري ص ١٦٧.

(٤) جـ ١٠ ص ٤٦.

يقل ترجيعه ولا يبلغ أن يستخف به جداً». وكان إذا أعجبه الغناء وطرب قال لمغنيه: «أحسنت أحسنت»، ويكثر له العطاء حتى يبلغ أحياناً ألف ألف درهم.

وقد فاق هارون الرشيد الخلفاء العباسيين في ولوعه بالغناء والموسيقى وإجزاله العطاء للمغنين والموسيقيين. وقد جعل للمغنين مراتب وطبقات على نحو ما وضعهم أردشير بن بابك وأنوشروان؛ «فكان إبراهيم الموصلي و[إسماعيل أبو القاسم] بن جامع وزلزل [منصور الضارب] في الطبقة الأولى. وكان زلزل يضرب، ويغني هذان عليه».

وفي عهد الرشيد نبغ من المغنين والموسيقيين: «وكان منصور زلزل من أحسن وأحذق من برأ الله بالجس. فكان إذا جس العود، فلو سمعه الأحنف ومن تحالم في دهره كله لم يملك نفسه حتى يطرب(١). وكان يضرب المثل بزلزل في حسن الضرب بالعود. واشتهر في أيام المهدي والهادي والرشيد. وقد أنشأ في بغداد بركة وقفها على المسلمين، فاشتهرت باسمه، وأكثر الشعراء من ذكرها».

وإذا أجاد أحد المغنين أو الموسيقيين، أمر الخليفة بترقيته إلى الرتبة التي تعلو رتبته. ذكر الجاحظ(٢) أن برصوما الزامر أعجب الرشيد مرة، وكان في الطبقة الثانية، «فطرب الرشيد يوماً لزمره، فقال له صاحب الستارة: يا إسحاق! أزمر على غناء ابن جامع، قال: لا أفعل، قال: يقول لك أمير المؤمنين ولا تفعل؟ قال: إن كنت أزمر على الطبقة العالية رفعت إليها، فإما أن أكون في الطبقة الثانية وأزمر على الأولى، فلا أفعل! فقال الرشيد لصاحب الستارة: ارفعه إلى الطبقة الأولى، فإذا قمت فادفع البساط الذي في مجلسهم إليه، فرفع إسحاق إلى الطبقة العالية وأخذ البساط، وكان يساوي ألفي دينار. فلما حمله إلى منزله استبشرت به أمه وأخواته. وكانت أمه نبطية لكناء، فخرج برصوما عن منزله لبعض حوائجه، وجاء نساء جيرانه يهنئن أمه بما خص به دون أصحابه ويدعون لها. فأخذت سكيناً وجعلت تقطع لكل من دخل عليها قطعة من البساط، حتى أتت على أكثره. فجاء برصوما فإذا البساط قد تقسم بالسكاكين فقال: ويلك ما صنعت؟ قالت: لم أدر، ظننت أنه كذا يقسم؛ فحدث الرشيد بذلك فضحك ووهب له آخر».

وممن نبغ في الغناء في عهد الرشيد مسكين المدني، ويعرف بأبي صدقة. روى المسعودي(٣) قصة هذا المغني الذي وصف فيها حياته، وكيف تبدلت حاله من حائك رقيق

(١) الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك ص ٣٧ ـ ٣٨، ٩٣.

(٢) المصدر نفسه ص ٤١.

(٣) مروج الذهب جـ٢ ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

الحال إلى مغن رفيع القدر وكيف أخذ الغناء عن إحدى الجواري، وكيف كان لفن الغناء مكان ملحوظ بين الفنون في العصر العباسي، فقال:

وجمع الرشيد ذات يوم المغنين فلم يبق أحد من الرؤساء إلا حضر، وكنت فيهم. وحضر منا مسكين المدني، ويعرف بأبي صدقة، وكان يوقع بالقضيب مطبوعاً حاذقاً، طيب العشرة مليح البادرة. فاقترح الرشيد وقد عمل فيه النبيذ صوتاً، فأمر صاحب الستارة ابن جامع أن يغنيه ففعل، فلم يطرب عليه. ثم فعل مثل ذلك بحماقة ممن حضر فلم يحرك منه أحد. فقال صاحب الستارة لمسكين المدني: يأمرك أمير المؤمنين إن كنت تحسن هذا الصوت فغنه، قال إبراهيم: فاندفع فغناه فأمسكنا جميعاً متعجبين من جراءة مثله على الغناء بحضرتنا في صوت قد قصرنا فيه عن مراد الخليفة. فلما فرغ منه سمعت الرشيد يقول: يا مسكين أعده! فأعاده بقوة ونشاط، فقال: أحسنت وأجملت، ورفعت الستارة بيننا وبينه. قال مسكين: يا أمير المؤمنين! إن لهذا الصوت خبراً، قال: وما هو؟ قال: كنت عبداً خياطاً لبعض آل الزبير، وكان لمولاي عليّ ضريبة أدفع إليه كل يوم درهمين، فإذا دفعت ضريبتي تصرفت في حوائجي، فخطت يوماً قميصاً لبعض الطالبين فدفع إلي درهمين وتغديت وسقاني أقداحاً، فخرجت وأنا جذلان، فلقيتني سوداء على رقبتها جرة وهي تغني هذا الصوت، فأذهلني عن كل مهم وأنساني كل حاجة، فقلت: بصاحب هذا القبر والمنبر ألا ألقيت علي هذا الصوت؟ فقالت: وحق صاحب هذا القبر والمنبر لا ألقيته عليك إلا بدرهمين، فأخرجت الدرهمين فدفعتهما إليها، فأنزلت الجرة عن عاتقها واندفعت، فما زالت تردد حتى كأنه مكتوب في صدري. ثم انصرفت إلى مولاي فقال لي: هلم خراجك، فقلت: كان وكان، فقال: يا ابن اللخناء، وبطحني وضربني وحلق لحيتي ورأسي. فبت يا أمير المؤمنين من أسوأ خلق الله حالاً وأنسيت الصوت مما نالني. فلما أصبحت غدوت نحو الموضع الذي لقيتها فيه، وبقيت متحيراً لا أعرف اسمها ولا منزلها، إذ نظرت بها مقبلة فأنسيت كل ما نالني، وملت إليها فقلت: أنسيت الصوت ورب الكعبة؟ فقلت الأمر كما ذكرت! وعرفتها ما مر بي من حلق الرأس واللحية فقالت: وحق القبر ومن فيه لا فعلت إلا بدرهمين. فأخرجت جلمي (مقصي) ورهنته على درهمين، فدفعتهما إليها. فأنزلت الجرة عن رأسها واندفعت فمرت فيه ثم قالت كأني بك مكان الأربعة دراهم أربعة آلاف دينار ثم انصرفت إلى مولاي وجلا فقال: هلم خراجك، فلويت لساني، فقال: يا ابن اللخناء! ألم يكفك ما مر عليك بالأمس؟ فقلت: إني أعرفك أني اشتريت بخراجي أمس واليوم هذا الصوت، واندفعت أغنيه! فقال لي: ويحك! معك مثل هذا الصوت ولم تعلمني؛ امرأته طالق لو كنت قلته أمس لأعتقتك. فضحك الرشيد وقال: ويلك! ما أدري أيما أحسن حديثك أم غناؤك؟ وقد أمرت لك بما ذكرته السوداء، فقبضه وانصرف، والشعر:

قفْ بالمنازل ساعةً فتأمّلِ   فلسوف أُحمل للبِلى في محمل

وكان الرشيد يقدر الندماء والمغنين والموسيقيين، حتى إنه «لم يجتمع ـ كما يقول ابن طباطبا[١] على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب والندماء والمغنين، ما اجتمع على باب الرشيد. وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة ويرفعه إلى أعلى درجة».

ولا غرو فقد ازدهرت الموسيقى في العصر العباسي، بفضل اهتمام الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة الذين عملوا على رفع شأنها. وكثيراً ما كانت الأميرات وسيدات الطبقة الراقية في بغداد يشتركن في حفلات موسيقية خاصة[٢].

ومن أشهر المغنين الذين حظوا برضاء بعض الخلفاء العباسيين: إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق، وكانا من رجال الأدب، إلا أن الغناء قد غلب عليهما بما وضعاه من الألحان. وقد أبدع إبراهيم الموصلي في تنسيق الألحان حتى توهم أن الأرواح هي التي تعلمه الأصوات. ولم يكن إبراهيم الموصلي وحده متأثراً بهذا الشعور، بل ورثه عنه ابنه إسحاق[٣].

تعلم إبراهيم فن الغناء على رجل أخذ أصوات الغناء عن أهل الحجاز. وكان أول صوت أخذه عن أستاذه:

أرسلي بالسلام يا سَلم إني   مُذْ علقتكم غني فقير

فالغنى إن ملكت أمرك والفقـ   ـر بأني أزور من لا يزور

ويْحَ نفسي! تسلو النفوس ونفسي   في هوى الريم ذكرها ما يجوز

من لنفسٍ تتوق أنتِ هواها   وفؤادٍ يكاد فيك يطير؟[٤]

وقد نبغ إبراهيم الموصلي في فن الغناء، وإليه يرجع الفضل في تعليم الجواري الغناء في عصره. فقد روى صاحب الأغاني[٥] عن إسحاق بن ابراهيم قال: لم يكن الناس يعلمون الجارية الحسناء الغناء وإنما كانوا يعلمونه الصفر والعود. وأول من علم الجواري المثمنات أبي، فإنه بلغ بالقيان كل مبلغ، ورفع من أقدارهن. وفيه يقول أبو عيينة بن أبي عيينة المهلبي، وقد

---

(١) الفخري ص ١٧٧ ـ ١٧٨.
(٢) سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب ص ٣٩١ ـ ٣٩٢.
(٣) انظر المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨.
(٤) الأغاني جـ ٥ ص ٢٠٢.
(٥) المصدر نفسه جـ ٥ ص ١٧٠.

كان هوى جارية يقال لها أمان، فأغلى بها مولاها السوم (القيمة)، وجعل يرددها إلى إبراهيم وابنه إسحاق فتأخذ عنهما، فكلما زادت في الغناء زاد في سومه.

وقد وصف ابراهيم الموصلي كيف يصوغ ألحانه في هذه العبارة: أخرج الهم من فكري، وأمثل الطرب بين عيني فتسرع لي مسالك الألحان [التي أريد] فأسلكها بدليل الإيقاع، فأرجع مصيباً ظافراً بما أريد». ومن أغانيه:

إلا يا صبا نجد متى هجت من نجد	لقد زادني مسراك وجدا على وجد
أإن هتفتْ ورقاءُ في رونق الضحى	على فَنَنٍ غضِّ النبات من الرند[1]
بكيت كما يبكي الحزين صبابة	وذبت من الحزن المبرح والجهد
وقد زعموا أن المحب إذا دنا	يمل وأن النأي يشفي من الوجد
بكلٍّ تداوينا فلم يشف ما بنا	على أنَّ قرب الدار خيرٌ من البعد[2]

وكان البرامكة وآل الربيع يتمسكون بالغناء القديم، على حين ترفع جماعة من العباسيين كإبراهيم بن المهدي وأخيه يعقوب وأختهما علية، وعبد الله بن الهادي، وعيسى بن الرشيد وغيرهم من تقييد غنائهم بما حفظ من أصوات المتقدمين.

وكانت مجالس الخلفاء العباسيين تزدان بمظاهر البذخ والروعة والبهاء، فيتخذ الخليفة مكانه في صدر الإيوان في القصر، وبين يديه مائة من صفوة الحرس في أثواب زاهية، ويقف حوله يمنة ويسرة كبار رجال الدولة والأعيان[3].

ولم تقتصر مجالس المنادمة والطرب على الخلفاء وحدهم، بل جاراهم في ذلك الأمراء والوزراء وسائر رجالات الدولة. فقد وصف ابن طباطبا[4] مجلس جعفر بن يحيى البرمكي حين كان يجلس للشراب، ومعه ندماؤه الذين يأنس إليهم، وكانوا يلبسون «الثياب المصبغة، وإذا جلسوا في مجلس الشراب واللهو، لبسوا الثياب الحمر والصفر والخضر... ثم جلسوا يشربون، ودارت الكاسات وخفقت العيدان».

ولم تكن هذه المجالس تخلو من النوادر والطرائف، التي تملؤها بهجة وسروراً. فقد روى صاحب الأغاني[5] أن الرشيد قال يوماً لجعفر بن يحيى: قد طال سماعنا هذه العصابة على

(١) الرند: بتشديد الراء وسكون النون شجر طيب الرائحة من شجر البادية.
(٢) الأغاني جـ ٥ ص ٢٣٣ - ٢٣٤.
(٣) سيد أمير علي: كتاب مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٧.
(٤) الفخر ص ١٨٧.
(٥) جـ ٥ ص ١٠٦.

اختلاط الأمر فيها فهلم أقاسمك إياها، وأخايرك، فاقتسما المغنين، على أن جعلا بإزاء كل رجل نظيره. وكان ابن جامع في حيز الرشيد وإبراهيم في حيز جعفر بن يحيى. وجعل الندماء لمحنة المغنين[1]، وأمر الرشيد ابن جامع فغنى صوتاً أحسن فيه كل الإحسان، وطرب الرشيد غاية الطرب. فلما قطعه قال الرشيد لإبراهيم: هات يا إبراهيم هذا الصوت فغنه، فقال: لا والله يا أمير المؤمنين ما أعرفه؛ وظهر الانكسار فيه، فقال الرشيد لجعفر: هذا واحد، ثم قال لإسماعيل بن جامع: غنِّ يا إسماعيل! فغنى صوتاً ثانياً أحسن من الأول، وأرضى في كل حال. فلما استوفاه قال الرشيد لإبراهيم: هاته يا إبراهيم قال: ولا أعرف هذا، فقال: هذان إثنان عـنِّ يا إسماعيل، فغنى ثالثاً يتقدم الصوتين الأولين ويفضلهما. فلما أتى على آخره قال: هاته يا إبراهيم؛ قال: ولا أعرف هذا أيضاً، فقال له جعفر: أخزيتنا أخزاك الله!

وأتم ابن جامع يومه والرشيد مسرور به وأجازه بجوائز كثيرة، وخلع عليه خلعاً فاخرة. ولم يزل إبراهيم منكسراً حتى انصرف. ولكن إبراهيم الموصلي تمكن من سرقة هذه الألحان التي لحنها ابن جامع عن طريق أحد أصدقائه، ونال بذلك رضاء الرشيد، مما يدل على حرص المغنين على الاحتفاظ بألحانهم، حتى لا يتداولها سائر المغنين[2].

وكان الأمين يجتمع مع ندمائه في مكان واحد، وكان كثير الهبات والعطايا، حتى فاق الخلفاء العباسيين قاطبة في جوده وعطاياه لندمائه ومغنيه. ويقول إسحاق بن إبراهيم الموصلي: «لو كان بينه وبين ندمائه حجاب، خرقها كلها وألقاها عن وجهه حتى يقعد حيث قعدوا». وكان من أعطى الخلق لذهب وفضة، وأنهبهم للأموال إذا طرب لها. وقد رأيته وقد أمر بعض أهل بيته بوقر زورق ذهباً، فانصرف به، وأمر لي ذات ليلة بأربعين ألف دينار، فحملت أمامي. ولقد غناه إبراهيم بن المهدي غناء لم أرتضه، فقام عن مجلسه، فأكب عليه فقبل رأسه، فقام إبراهيم ما وطئت رجلاه من بساطه، فأمر له بمائتي ألف دينار. ولقد رأيته يوماً وعلى رأسه بعض غلمانه، فنظر إليه فقال: ثيابك هذه تحتاج إلى أن تغسل؛ انطلق فخذ ثلاثين بدرة فاغسل بها ثيابك.

وقد وصف إبراهيم بن المهدي مجلس الأمين وما كان يحويه من أثاث ورياش وصفاً شائقاً، وكيف حاول أن يتخذ من هذا المجلس سبيلاً إلى السلوى حين كان محاصراً ببغداد، وفي ذلك يقول المسعودي[3]: «وحدث إبراهيم بن المهدي قال: بعث إلي الأمين وهو محاصر،

---

(١) المحنة: الاختبار، يقال: محنه إذا اختبره وجربه.

(٢) الأغاني جـ١ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٨.

(٣) مروج الذهب جـ٢ ص ٣٠٠ ـ ٣٠١.

فصرت إليه وهو جالس في طارمة[١]، خشبها من عود وصندل عشرة في عشرة. وإذا سليمان بن أبي جعفر المنصور معه في الطارمة، وهي قبة كان اتخذ لها فراشاً مبطناً بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب الأحمر، وغير ذلك من أنواع الإبريسم فسلمت، فإذا قدامه قدح بلور مخروز، فيه شراب ينفذ مقداره خمسة أرطال. وبين يدي سليمان قدح مثله، فجلست بإزاء سليمان، فأتيت بقدح كالأول والثاني. فقال: إنما بعثت إليكما لما بلغني قدوم طاهر بن الحسين إلى النهروان، وما قد صنع في أمرنا من المكروه وقابلنا به من الإساءة، فدعوتكما لأفرج بكما وبحديثكما فأقبلنا نحدثه ونؤنسه؛ حتى سلا عما كان يجد، وفرح ودعا بجارية من خواص جواريه تسمى ضعفاً، قال: فتطيرت من اسمها ونحن على تلك الحال فقال لها: غنينا! فوضعت العود في حجرها وغنت.

كُلَيبٌ لعمري أكثرَ ناصراً ... وأكثرَ جرماً منك ضُرِّج بالدم

فتطير من قولها ثم قال لها: اسكتي قبحك الله! ثم عاد إلى ما كان عليه من الإقطاب، فأقبلنا نحدثه ونبسطه إلى أن سلا وضحك، ثم أقبل عليها وقال: هات ما عندك، فغنت.

هم قتلوه كي يكونوا مكانه ... كما غَدَرَتْ يوماً بكسرى مرازِبُه

فأسكتها وزأرها، وعاد إلى الحالة الأولى، فسليناه حتى عاد إلى الضحك، فأقبل عليها الثالثة فقال: غني فغنت:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بل نحن كنا أهلها فأبادنا ... صروف الليالي والجدود العوائر

وقيل بل أنها غنت:

أما وربِّ الكون والحرَكِ ... إنَّ المنايا كثيرةُ الشرك

فقال لها: قومي عني، فعل الله بك وصنع بك! فقامت فعثرت بالقدح الذي كان بين يديه فكسرته، فانهرق الشراب. وكانت ليلة قمراء، ونحن على شاطىء دجلة في قصره المعروف بالخلد، فسمعنا قائلاً يقول: ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾، قال ابن المهدي: فقمت وقد وثب فسمعت منشداً من ناحية القصر ينشد هذين البيتين:

لا تعجبَنَّ من العَجَبْ ... قد جاءَ مَا يقضي العجبْ
قد جاء أمرٌ فادحٌ ... فيه لذي عَجبٍ عجب

---

(١) الطارمة: مجلس يتخذ من الخشب وسط بستان للجلوس فيه والنزهة.

قال: فما قمنا معه بعدها إلى أن قتل.

أما المأمون فقد امتنع عن سماع الغناء بعد قدومه بغداد سبع سنين، ثم أخذ يسمعه من وراء حجاب كما كان يفعل أبوه الرشيد في أول عهده بالخلافة. وظهر للندماء والمغنين، ولم ينل إسحاق بن إبراهيم الموصلي تقدير المأمون أول الأمر، حتى سأل عنه فأوقع به بعض خاصة الخليفة ورماه بالكبر والتيه، فلم يحفل به المأمون، ثم تمكن إسحاق الموصلي من إرسال بيتين غناهما زرزر أحد تلاميذه في حضرة المأمون وهما:

يا سَرْحَة الماء[١] قد سُدَّتْ موارِدُه ... أما إليكِ طريقٌ غيرُ مسدود؟
لحائم حام حتى لا حراك به ... محلأ عن سبيل الماء مطرود[٢]

فلما غناه زرزر أطربه وأبهجه وحرك له جوارحه وقال: ويلك من هذا؟ قال: عبدك المجفو المطرح يا سيدي إسحاق. قال: يحضر الساعة، فجاء رسوله، وإسحاق مستعد قد علم أنه إن سمع الغناء من مجيد مؤد أنه سيبعث إليه، فجاءه الرسول، فحدثت أنه لما دخل عليه ودنا منه، مد يده إليه ثم قال: أدن مني! فأكب عليه واحتضنه المأمون وأدناه، وأقبل عليه بوجهه مصغياً إليه ومسروراً به»[٣].

وفي الحق أن إسحاق بن إبراهيم الموصلي قد أجاد في وضع الألحان، وكتب رسالة مطولة في الغناء صحح فيها أنغامه وطرائقه، واحتفظ بالغناء القديم، وخالف بذلك أباه ومن ذهب مذهبه في تغيير أصوات المتقدمين. ويقول صاحب الأغاني[٤]: وهو الذي صحح أجناس الغناء وطرائقه، وميزه تمييزاً لم يقدر عليه أحد قبله ولا تعلق به أحد بعده».

نبغ إسحاق في العلم والأدب والرواية والشعر والغناء. قال صاحب الأغاني[٥] ولم يكن له في هذا (أي الغناء) نظير، فإنه لحق بمن مضى فيه، وسبق من بقي، ولحب[٦] الناس جميعاً

---

(١) الشجرة النابتة على الماء، كناية عن المرأة. وأصل الكناية عن المرأة بالسرحة أن عمر بن الخطاب لما أنذر الشعراء بالجلد إذا ما تشيئوا بالنساء، قال أحد الشعراء في قصيدة له:

تراني إن عللت نفسي بسرحة ... من السرح موجود على طريق
أبى الله إلا أن سرحة مالك ... على كل سرحات العضاء تروق

(٢) الجاحظ: كتاب التاج ص ٤٤ ـ ٤٥.

(٣) الجاحظ ص ٤٤ ـ ٤٥.

(٤) جـ ٥ ص ٢٦٩.

(٥) جـ ٥ ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩.

(٦) لحب الطريق سلكه وأوضحه.

طريقه، فأوضحها، وسهل عليه سبيله وأثارها. فهو إمام أهل صناعته جميعاً، ورأسهم ومعلمهم. وكان المأمون يقول: لولا ما سبق على ألسنة الناس وشهر به عندهم من الغناء، لوليته القضاء بحضرتي، فإنه أولى به وأعف وأصدق، وأكثر ديناً وأمانة من هؤلاء القضاة.

وكان إسحاق يقدر العلم ويشجع العلماء، وقد قيل إنه كان يعطي ابن الأعرابي في كل سنة ثلاثمائة دينار، فأهدى له شيئاً من كتاب النوادر. ومر يوماً على دار إسحاق فقال: هذه دار الذي نأخذ من ماله ومن أدبه. كما أشاد بفضله المدائني المؤرخ المشهور صاحب كتاب المغازي فقال: إلى أين يا أبا عبد الله؟ فقال: أمضي إلى رجل هو كما قال الشاعر:

تحمِلُ أشباحنا إلى ملكٍ ... تأخذُ من ماله ومن أدبه[1]

ويقول ابن النديم[2] إن المدائني مات في دار إسحاق بن إبراهيم الموصلي ـ منقطعاً إليه ـ سنة ٢٥٥ هـ.

وقد غنى إسحاق الموصلي لهارون الرشيد وأبنائه الأمين والمأمون والمعتصم. ولما ولي المعتصم الخلافة، كان إسحاق الموصلي قد ناهز الستين من عمره، فغناه قصيدة جاء فيها:

أنتم أهلُ الخلافة فينا ... ولكمْ مِنبرُها والسَّريرُ

وقد أمر المعتصم لإسحاق الموصلي بجائزة سنية فضله بها على سائر الشعراء الذين هنأوه بالخلافة، كما نال إعجابه بعد أن غناه قصيدة أخرى على أثر عودته من إحدى غزواته. وإليك بعض أبيات من هذه القصيدة التي يشيد فيها الموصلي بأبي إسحاق المعتصم، وما أحرزه من نصر وظفر:

إلى ابن الرشيد إمام الهدى ... بَعثنا المطِيَّ تجوبُ الفَلا
إلى ملكٍ حلَّ مِنْ هاشم ... ذؤابة مجد مُنيف الذرى
كساه الإلهُ رداءَ الجمال ... ونورَ الجلال وهدْيَ التقى[3]

وكان الخليفة الواثق يتقن الغناء إتقاناً لم يسبق إليه خليفة ولا ابن خليفة. وقد وضع بعض الأصوات والأنغام الجديدة. يقول السيوطي[4]: وكان (الواثق) أعلم الخلفاء بالغناء، وله أصوات وألحان عملها نحو مائة صوت، وكان حاذقاً بضرب العود وراوية الأشعار والأخبار.

---

(١) الأغاني جـ ٥ ص ٢٧٤.
(٢) الفهرست ص ١٤٧.
(٣) الأغاني جـ ٥ ص ٣٢ ـ ٣٣، ٣٠٤.
(٤) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

وكان الواثق يقدر غناء إسحاق الموصلي ويعجب به، روى صاحب الأغاني أن الواثق لحن هذين البيتين وأمر الموصلي فغناهما، فأعجب به وقال: «ما كان أغنانا أن نأمر إسحاق بالصنعة في هذا الشعر لأنه قد أفسد علينا لحننا». وهاك هذين البيتين:

أيا مُنشر الموق أفدني من التي ... بها نهلت نفسي سقاماً وعلت
لقد بخلت حتى لو أني سألتها ... قذى العين من سافي التراب لضنت[1]

وكان إسحاق يصحب الخليفة الواثق في أسفاره. قصد مرة النجف[2] والصالحية، فحن الموصلي إلى بغداد وإلى أولاده الصغار، فوصف ذلك وصفاً شائقاً وغناه في أبيات تدل على علو كعبه في الشعر والغناء منها قوله:

يا راكبَ العيس لا تعجلْ بنا وقفْ ... نحيِّ داراً لسُعدى ثم ننصرف
لم ينزل الناس في سهلٍ ولا جبل ... أصفى هواء ولا أعذى[3] من النجف
حفت ببر وبحر من جوانبها ... فالبر في طرف والبحر في طرف[4]

ومنها قوله:

إذا ذَكرتْ بغداد نفسي تقطّعت ... من الشوق أو كادت تموت بها وَجْدا[4]

(ب) في الأندلس:

وقد أولع أمويو الأندلس بالغناء والموسيقى وأجزلوا العطاء للمغنين والموسيقيين وقد قيل إن علون (بفتح العين وبضم اللام مع التشديد) وزرقون (بضم الزاي وسكون الراء) أول من دخل هذه البلاد من المغنين في عهد الحكم بن هشام (١٨٠ ـ ٢٠٦ هـ) الذي اشتهر منصور اليهودي بالغناء في زمانه. وفي عهد عبد الرحمن الأوسط بن هشام (٢٠٦ ـ ٢٣٨ هـ)، وفد على الأندلس أبو الحسن علي بن رافع الملقب بزرياب. وقد أطلق عليه هذا اللقب لسواد لون بشرته وفصاحة لسانه تشبيهاً له بطائر أسود الريش حسن الصوت. وقد روى المقري قصة هذا المغني والموسيقي المشهور، وكيف تفوق على أستاذه اسحاق بن ابراهيم الموصلي المغني والموسيقي المشهور في بلاط بغداد.

وقد دون أحمد بن محمد الرازي الذي كشف «پروفنسال»[5] أخيراً مخطوطة عن عهد

---

(١) الأغاني جـ ٥ ص ٣٥٨.
(٢) موضع بظهر الكوفة، وبالقرب منه قبر علي بن أبي طالب.
(٣) أطيب هواء، يقال: هذا المكان يعذو إذا طاب هواؤه.
(٤) الأغاني جـ ٥ ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧.
(٥) الشرق الإسلامي والحضارة العربية ص ٢٠ ـ ٢٤.

الحكم الأول وعبد الرحمن الأوسط (والمقري)[1] قصة هذا المغني، وكيف أبدع في فنه أيام الرشيد، وكيف أثار حسد أستاذه اسحاق، واضطر أن يرحل عن بغداد خوفاً على حياته، وكيف رحل إلى قرطبة، فقربه عبد الرحمن الأوسط إليه وأجزل له العطاء وأصبح لفن الغناء على يديه مكان ملحوظ بين الفنون في هذه البلاد.

كان زرياب مولى الخليفة المهدي العباسي، فارسي الأصل، وكان شاعراً مطبوعاً وأديباً ملماً بعلم النجوم وأخلاق الشعوب وطبائعها وسير الملوك، حافظاً لكثير من الحكم والأمثال، كما كان فصيحاً حسن الصوت حلو الحديث. وقد امتاز منذ طفولته وتتلمذ على اسحاق الموصلي وتفوق عليه دون أن يشعر بذلك. وقد طلب هارون الرشيد من اسحاق أن يأتي له بمغن غريب حذق الغناء، وإن لم يكن قد اشتهر في هذا الفن، فذكر له تلميذه زرياب، فلما مثل بين يدي الرشيد سأله عن معرفته بالغناء فقال: «نعم! أحسن منه ما يحسنه الناس، وأكثر ما أحسنه لا يحسنونه مما لا يحسن إلا عندك ولا يدخر إلا لك، فإن أذنت غنيتك ما لم تسمعه أذن قبلك، فأمر بإحضار عود أستاذه إسحاق. فلما أدني إليه وقف عن تناوله وقال: لي عود نحته بيدي وأرهفته إحكامي لا أرتضي غيره، وهو بالبابِ. فليأذن لي أمير المؤمنين في استدعائه. فأمر بإدخاله إليه. فلما تأمله الرشيد وكان شبيهاً بالعود الذي دفعه، قال له: ما منعك أن تستعمل عود أستاذك؟ فقال: إن كان مولاي يرغب في غناء أستاذي غنيته بعوده، وإن كان يرغب في غنائي فلا بد لي من عودي، .فقال له: ما أراهما إلا واحداً، فقال: صدقت يا مولاي! لا يؤدي النظر غير ذلك. ولكن عودي، وإن كان في قدر جسم عوده ومن جنس خشبه، فهو يقع من وزنه في الثالث أو نحوه، وأوتاري من حرير لم يغزل بماء سخن يكسبها أنائه ورخاوة وبهاء، ومثلها اتخذتها من مصران شبل أسد، فلها في الترنم والصفاء والجهارة والحدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان» ثم غنى:

يا أيها الملكُ الميمونُ طائره ... هارون راح إليك الناس وابتكروا

وطار الرشيد طرباً و ـ ـ لإسحاق: والله لولا أني أعلم من صدقك لي على كتمانه إياك لما عنده وتصديقه لك من أنك لم تسمعه قبل، لأنزلت بك العقوبة لتركك إعلامي بشأنه، فخذه إليك واعتن بشأنه حتى أفرغ فإن لي فيه نظراً، فسقط في يد إسحاق وهاج به من داء الحسد ما غلب على صبره، فخلا بزرياب وقال: يا علي! إن الحسد أقدم الأدواء وأدواها، والدنيا فتانة والشركة في الصناعة عداوة... فخذ الآن حذرك، والله لا أبقي عليك ولا أدع اغتيالك، باذلاً في ذلك بدني ومالي... فخرج زرياب لوقته فرحل عنه يبغي مغرب الشمس واستراح

(١) نفع الطيب جـ ٢ ص ٧٥٠ ـ ٧٥١.

قلب إسحاق منه. وتذكره الرشيد بعد فراغه من شغل كان منغمساً فيه، فأمر إسحاق بحضوره فقال: ومن لي به يا أمير المؤمنين؟ ذاك غلام مجنون يزعم أن الجن تكلمه وتطارحه ما يزهى به عن غنائه، فما يرى في الدنيا من يعدله، وما هو إلا أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين وترك استعادته، فقدر التقصير به والتهوين بصناعته، فرحل مغاضباً ذاهباً على وجهه مستخفياً عني. وقد صنع الله تعالى في ذلك لأمير المؤمنين، فإنه كان به لمم يغشاه . . . فسكن الرشيد إلى قول إسحاق وقال: على ما كان به فقد فاتنا منه سرور كثير».

اختار زرياب الرحيل إلى المغرب وقضى وقتاً قصيراً في بلاط زيادة الله الأول الأغلبي أمير القيروان، حتى دعاه الحكم الأول بعد أن اتصل به خبر مهارته. سار زرياب وأولاده ونزلوا من البحر في ميناء الجزيرة. لكنه علم بوفاة الحكم وتولية ابنه عبد الرحمن الأوسط (سنة ٢٠٦هـ) الذي أسرع فأرسل إلى زرياب ينبئه بأنه منفذ وعد أبيه إليه، وكتب إلى عماله أن يحسنوا استقباله ويسهلوا له طريق الوصول إلى قرطبة، وأنزله في دار فخمة. ثم استقبله بعد أن استراح من عناء السفر، وبالغ في إكرامه وقرر له راتباً شهرياً قدره مائة دينار، ولكل من أولاده الأربعة عشرون ديناراً وأغدق عليه وعلى أولاده الأرزاق، فأجرى عليه ثلاثة آلاف دينار في كل سنة: ألف لكل من عيدي الفطر والأضحى، وخمسمائة لكل من عيدي النوروز والمهرجان؛ عدا ما خصص له من الشعير والقمح، وما وهب من الضياع والدور والبساتين التي قدرت بأربعين ألف دينار.

ولما سمع عبد الرحمن غناء زرياب أعجب بمواهبه، وقدّمه على جميع المغنين. وزاد إعجاب هذا الأمير به، حتى إنه كان يجلسه إلى جانبه، ويستمع إلى غنائه، وإلى ما يقص عليه من أحوال الملوك وسير الخلفاء ونوادر العلماء. ولم يلبث أن ملك زرياب قلب عبد الرحمن، حتى إنه أمر بأن يفتح له باب خاص يستدعيه منه متى أراد[1].

وسرعان ما فرض زرياب نفسه على المجتمع القرطبي بفضل فنه وثرائه الذي أثار دوياً في العالم الإسلامي الشرقي، حتى إن أحد الموسيقيين في بغداد أعرب عن خيبة أمله بقوله، إنه بينما يسير زرياب في قرطبة في كوكبة من الفرسان ويملك ثلاثين ألف دينار من الذهب، صار يؤدي سوء حظه إلى أن يموت من الجوع. أبدع زرياب في تنسيق الألحان، حتى توهم أن الجن هي التي تعلمه الأصوات، ولا غرو فقد ورث هذا الشعور عن أستاذه إسحاق الموصلي الذي ورثه عن أبيه. وكان زرياب «يهب من نومه سريعاً فيدعو بجاريتيه غزلان وهنيدة، فيأخذان عوديهما، ويأخذ هو عوده فيطارحهما ليلته، ثم يكتب الشعر، ثم يعود عجلان إلى مضجعه»[2].

(١) المقري. نفح الطيب جـ ٢ ص ٧٥٠ ـ ٧٥١.

(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٧٥١.

كما زاد زرياب على العود وتراً خاصاً، واتخذ مضرب العود من قوادم النسر بدل الخشب[١]. وقد أثر عنه أنه كان يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الأغاني بألحانها، مقتدياً في ذلك ببطليموس الذي ابتدع هذه العلوم.

وقد ازدهرت الموسيقى والغناء في بلاد الأندلس في عهد عبد الرحمن الأوسط الذي كان - كما يقول المقري[٢] - مولعاً بالغناء مؤثراً له على جميع لذته. وقد أورث زرياب صناعة الغناء بالأندلس كما يقول ابن خلدون[٣]. وكانت له طريقة غريبة مع المبتدئين من تلاميذه؛ «فيبدأ بالنشيد أول شدوه بأي نقر كان، ويأتي إثره بالبسيط، ويختم بالمحركات والإهزاج تبعاً لمراسم زرياب».

وكان زرياب إذا أراد أن يعلم تلميذاً أمره بالقعود على الوسادة المدورة المعروفة بالمسورة، وأن يشد صوته إذا كان قوي الصوت. فإن كان لينه أمره أن يشد على بطنه عمامة، لأن ذلك يقوي الصوت فلا يجد متسعاً في الجوف عند الخروج على الفم. فإن كان ألصَّ الأضراس لا يقدر على أن يفتح فاه، أو كانت عادته أن يزم أسنانه عند النطق، راضه بأن يدخل في فيه قطعة خشب عرضها ثلاث أصابع يبيتها في فمه ليالي حتى ينفرج فكاه. وإذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت المراد تعليمه من غير المطبوع أمره أن يصيح بأقوى صوته: يا حجام. أو يصيح: آه، ويمد صوته، فإن سمع صوته صافياً ندياً قوياً، لا تعتريه غُنة ولا حبسة ولا ضيق نفس، أشار بتعليمه، وإن وجده غير ذلك أبعده[٤].

ورث زرياب في الأدب والغناء أولاده، وكانوا ثمانية ذكور وبنتان هما علية وحمدونة. وقد تعلموا الغناء ومارسوا صناعته. وكان عبيد الله أعلاهم قدرًا، ثم يليه عبد الرحمن، لكنه كان شديد الزهو بنفسه والعجب بغنائه والاستخفاف بالعظماء حتى أثار سخطهم عليه وكراهتهم له. وكذلك تفوقت حمدونة في فن الغناء على أختها علية التي تزوجت من الوزير هشام بن عبد العزيز، وتقدمت بها السن حتى لم يبق من بيت زرياب غيرها وأخذ عنها فن الغناء.

وإلى زرياب يرجع الفضل في تعليم الجواري الغناء في عصره. وكانت له جواري أدبهن وعلمهن الغناء والعزف على العود. ومن هؤلاء غزلان وهنيدة، ومنفعة التي اشتهرت بفرط جمالها. وقد أعجب بها عبد الرحمن الأوسط، فأهداها زرياب إليه، فحظيت عنده[٥].

---

(١) المقري جـ ٢ ص ٧٥٠.
(٢) نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٥.
(٣) العبر جـ ٣ ص ١٢٧.
(٤) المقري. نفخ الطيب جـ ٢ ص ٧٥٢.
(٥) نفح الطيب جـ ٢ ص ٧٥٣ - ٧٥٤.

ولم يكن زرياب مغنياً وموسيقياً فحسب، بل كان شاعراً مطبوعاً وأديباً ظريفاً وعالماً بالنجوم. وكان في زيه مثالاً يحتذيه أهل بلاد الأندلس في ملابس الفصول المختلفة، كما أدخل في الطعام ألواناً جديدة. وقد بلغ الذروة في الجاه والثروة، ونال الحظوة التامة عند عبد الرحمن الثاني، وبـذ الناس في تهذيبه وفكاهته، وأصبح أشهر رجال الأندلس، «وتحكم في الأزياء والعادات كما كان يتحكم فيها بيترونيس Petronius وبروميل الوسيم Brummel Beau»[١].

وكان بيترونيس كاتباً قصصياً رومانياً، اشتهرت كتابته بالتنكيت والسخرية المستوردة، وأعجب به نيرون ووصله بحاشيته. واشتهر جورج برومل بابتداع الأزياء ومات في سنة ١٨٤٠م.

وصفوة القول أن زرياب بلغ من الشهرة درجة عظيمة حتى إنه كان يركب في مائة غلام[٢].

٣ ـ قصور الخلفاء والأمراء والوزراء:

يعتبر المنزل وما فيه من سكان وما يقدم من طعام وشراب وما تقام فيه من حفلات، وما يرتديه سكانها من ملابس، من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية، وقد تأثر العباسيون في منازلهم بالأساليب الفارسية خاصة. ولا عجب فإنهم مالوا إلى الفرس، فأسندوا إليهم مناصب الدولة واقتبسوا عنهم نظم الحكم، واقتدوا بهم في مظاهر البلاط، وفي الاحتفال بالأعياد والمواسم وغير ذلك.

وقد اتخذت دور بغداد على مثال دور الفرس ودور الروم التي بنوها في بلاد الشام، وكانت مبنية بالآجر ومغطاة بالكلس. وتنقسم دور الأغنياء ثلاثة أقسام هي: مقاصير الحرم، وحجرات الخدم، ومجالس السلام الخاصة بالضيافة، ويحيط بها حدائق غناء تزرع فيها الفاكهة والرياحين. وحليت جدرانها وسقوفها بالفسيفساء المذهبة والرسوم الملونة، كما كانوا يزينون أسطح دورهم بالقباب المرفوعة على عمد دقيقة تظهر للعين كأنها معلقة في الفضاء، ويحيط بكل دار سور واحد، أما دور العامة فلم يكن لها أسوار تحيط بها، وإنما كانت نوافذها تطل على الشوارع، حتى إن المار ليستطيع أن يرى من بداخلها[٣].

---

(١) L. Poole, The Moors in Spain, p. 82.

(٢) الأغاني جـ ٤ ص ٣٥٤. انظر ما ذكره بروفنسال عن أحمد بن محمد الرازي في مخطوطة عن عهد الحكم بن هشام وعبد الرحمن الأوسط في الأندلس. منشورات معهد الجنرال فرانكو للأبحاث العربية الاسبانية (تطوان) ١٩٥١ ص ٢٠ ـ ٢٤.

(٣) حضارة الإسلام في دار السلام ص ٢٥ ـ ٢٦.

وقد سار الترف العباسيين بازدياد العمران. فكانت العمائر ببغداد وغيرها من أمهات المدن مؤلفة من عدة طبقات، كما كانت غرفها تزدان بالمناضد الثمينة والزهريات الخزفية، والمرصعات والمذهبات التي بلغت حد الإتقان. ويقول نخلة المدور[١] إن أهل بغداد كانوا يزينون مجالسهم بالفرش الفاخر والمتاع الثمين، ويلبسون حيطانها بالوشي والديباج، ويعنون بغرس الأزهار في جناتهم، حتى إنهم كانوا يجلبون لها الرياحين من بلاد الهند، فيصير من هذه الجنان ما يقوم ثمن البستان الواحد منها بعشرة آلاف دينار، ويتخذون غلمانهم من أظرف الناس وأخفهم نشاطاً، ويميلون إلى اللهو والطرب نتيجة إقبالهم على اقتناء القيان، ويتفنون في ملاذ الطعام إلى حد أنهم كانوا يشترون الصيد في غير أوانه، والثمار في غير إبانها بما يزن مثله فضة، ويتخذون مقاعدهم في أوان الحر بين الماء المتدفق من صور السباع وأشكال الطيور وأشكال التفاحات وغيرها مما ينقشون في الرخام فإذا ما أصابت الأجساد منها الرطوبة الواقية بترويح النفس، واتخذوا في السقوف مراوح يعملون لها مراوح تجرها فيجذبونها فيهف عليهم النسيم البارد، ويستجيدون في اللباس والزينة، وركوب الخيل بالديباج والحلية الثقيلة من الفضة إلى الغاية التي لم تبلغها الأمم المترفة من قبلهم.

وكانت قصور الخلفاء تشتمل على دور واسعة وقباب وأروقة وبساتين ومسطحات مظللة بالأشجار، وكانت الأروقة تسمى بالاربعيني أو الستيني، على قدر الغلمان، أو يجتمعون في كل منها، ومن هذه القصور: قصر الذهب الذي بناه أبو جعفر المنصور في وسط بغداد، وقصر الخلد الذي بناه على شاطىء دجلة الغربي تجاه باب خراسان، وتأنق في بنائه وتجميله حتى سمي «الخلد» تشبيهاً له بجنة الخلد. وبنيت حوله المنازل فأصبح القصر وما حواليه يعرف بالخلد[٢].

وكان بهذا القصر قباب بديعة الشكل وبأبوابه مسامير من الذهب والفضة؛ كما تخلله العمد الكثيرة الضخمة التي عني المنصور بتزيينها بالصور والرسوم. وفي هذا القصر العرش - ويسمى «مجلس الأمير» - وقد فرش بالرخام المجزع يتوسطه قضبان من الذهب، وفرش بالديباج والبسط التي نقشت عليها أبيات من الشعر في مدح الخليفة، وفيه كراسي مرصعة باللؤلؤ يجلس عليها كبار رجال الدولة؛ وفي صدر هذا المجلس يجلس الخليفة في قبة مفروشة بأفخر أنواع الحرير المنسوج بالذهب.

وقد بنى الرشيد على دجلة قصراً تأنق في تجميله وزينه بأفخر أنواع الزينة وأقام فيه

---

(١) حضارة الإسلام في دار السلام ص ٩٩.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد جـ ١ ص ٧٥.

أساطين الرخام. وكان أشبه بإحدى المناظر التي كان يجلس فيها الخلفاء الفاطميون للنزهة وتبديل الهواء، فكان يجلس إلى الشباك يستمع إلى غناء الملاحين.

وبنى الخليفة الواثق في مدينة سامرا عدة قصور منها قصر الهاروني. وقد وصف الطبري[1] أحد أروقته ويسمى الرواق الأوسط، فقال: «كان في أحد شقي ذلك الرواق قبة مرتفعة في السماء كأنها بيضة قدر ذراع فيما ترى العين حولها وفي وسطها ساج منقوش مغشى باللازورد والذهب. وكانت تسمى قبة المنطقة، وكان ذلك الرواق يسمى رواق قبة المنطقة».

كذلك كانت قصور الأمراء ورجال الدولة تكتنفها الحدائق الغناء؛ كما امتازت أيضاً بفخامة بنائها واتساعها، ومن أحسن الأمثلة على ذلك قصر عيسى بن عبد الله بن العباس عند مصب نهر الرُّفيل المتفرع من دجلة. فقد ذكر ياقوت أن أبا جعفر المنصور زار عمه عيسى بن علي بن عبدالله في أربعة آلاف رجل. فوسعهم هذا القصر. ولما أراد المنصور الانصراف قال لمضيفه: «يا أبا العباس! لي حاجة! قال: ما هي يا أمير المؤمنين؟ فأمرك طاعة؟ قال تهب لي هذا القصر، قال: ما بي ضن عنك به، لكني أكره أن يقول الناس إن أمير المؤمنين زار عمه فأخرجه من قصره وشرد عياله. وبعد: فإن فيه من حرم أمير المؤمنين ومواليه أربعة آلاف نفس. فإن لم يكن بد من أخذه، فليأمر لي أمير المؤمنين بفضاء يسعني ويسعهم أضرب فيه مضارب وخيماً أنقلهم إليها إلى أن أبني لهم ما يواريهم. فقال له المنصور: عمر الله بك منزلك يا عم وبارك لك فيه، ثم نهض وانصرف.

وكان البرامكة يعنون ببناء قصورهم ويتأنقون بتجميلها وتأثيثها حتى تبقى على مر الزمن شاهدة بمآثرهم ناطقة بذكراهم. فقد روى الجهشياري أن يحيى بن خالد البرمكي قال لولديه الفضل وجعفر: «لا شيء أبقى ذكراً من البناء، فاتخذوا منه ما يبقى لكم ذكراً. فاتخذ جعفر قصره وكذلك الفضل». قال جعفر يصف قصره لأبي الفضل عمرو بن مسعدة، وقد سار بحذائه: «يا أبا الفضل! والله إني لأعلم أنه من بناء مثلي، ولكن قلت: إن بقي لي فهو قصر جعفر، وإن شره السلطان في وقت من الأوقات فهو قصر جعفر، وإن مضت عليه الأيام فهو قصر جعفر، ويبقى اسمه وذكره، ولعله أن يمر به من لنا عنده إحسان فيترحم علينا».

عاش البرامكة عيشة قوامها البذخ والإسراف وحب الظهور، وأغدقوا الأموال على الشعراء والعلماء، ولم يردوا قاصداً. قيل إن جعفراً البرمكي أنفق على بناء داره عشرين ألف ألف درهم، وهو - كما يبدو - مبلغ لا يقل عن مليون وثلثمائة ألف دينار غير ما يحتاج إليه هذا البناء من أثاث ورياش وخدم وحشم، وما إلى ذلك من أسباب البذخ وألوان الترف.

(١) جـ ١١ ص ١٠.

وبنى محمد بن سليمان قصره بالبصرة، وقد وصفه أحد زواره فقال: بنيت أجل بناء بأطيب فناء وأوسع فضاء، وأرق هواء، على أحسن ماء، بين صواري وحسان وظباء. فقال محمد: بناء كلامك أحسن من بنائنا»[١].

وقد خلف محمد بن سليمان كثيراً من الفرش الرقيق، والدواب من الخيل والإبل، والطيب والجوهر، كما ترك ستين ألف ألف درهم، غير ما خلفه من الضياع، كما أخرج من خزائنه ما كان يهدى إليه من طرائف السند ومكران وكرمان وفارس والأهواز واليمامة والري وعمان[٢].

وكان العباسيون يقلدون الفرس في تخفيف حرارة الشمس في الصيف؛ فيعملون لبيوتهم سقفاً من الطين يجددونها في كل يوم يقضي الخليفة القيلولة فيه. «وكان يؤتى بأطنان القصب والخلاف طوالاً غلاظاً فترصف حول البيت، ويؤتى بقطع الثلج العظام فتجعل ما بين أضعافها. وكانت بنو أمية تفعل ذلك (أيضاً)... وذكر بعضهم أن المنصور كان يطين له في أول خلافته ببيت في الصيف يقيل فيه فاتخذ له أيوب الخوزي ثياباً كثيفة تبل وتوضع على سبائك، فيجد بردها فاستطابها، وقال: ما أحسب هذه الثياب إن اتخذت أكثف من هذه إلا حملت من الماء أكثر مما تحمل. وكانت أبرد، فاتخذ له الخيش، فكان ينصب على قبة، اتخذ الخلفاء بعده الشرائح واتخذها الناس[٣].

وقد عني الخلفاء العباسيون عناية كبيرة بتنظيم بغداد ونظافة شوارعها وطرقها فكانت الرحاب تكنس كل يوم ويحمل التراب خارج المدينة. وقد رأى المنصور أن وصول الروايا على ظهور البغال إلى قصره لا يتفق وأبهة مدينته، لذلك أمر بتوصيل الماء إليه من نهر دجلة.

ولم تكن قصور الأمويين بالأندلس بأقل روعة وبهاء من قصور العباسيين، فقد اشتهرت قرطبة وغيرها من مدن الأندلس بقصورها الفخمة، وقد ذكرنا من قبل أن أمراء الأمويين في الأندلس بعد عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الأوسط، شيدوا قصوراً فخمة كالمجلس الزاهر، والبهو الكامل، والقصر المنيف، وقصر الدمشق.

٤ ـ الطعام:

عني العباسيون بتنويع الطعام، وكان أبو جعفر المنصور يكثر منه ولا يعمل بنصح الأطباء، حتى كان ذلك من أسباب ضعف صحته ووفاته. وقد حفلت مائدة الرشيد بألوان

---

(١) المسعودي مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٦٤.
(٢) الطبري: جـ ٢ ص ٥١ ـ ٥٢.
(٣) المصدر نفسه جـ ٩ ص ٣٠٦.

الطعام، حتى قيل إن الطهاة كانوا يطهون ثلاثين لوناً في اليوم، وإنه كان ينفق على طعامه عشرة آلاف درهم في اليوم. ولما تزوج من زبيدة بنت جعفر، أقيمت في قصره وليمة أنفق عليها خمسة وخمسين ألف ألف درهم.

ولم يقتصر إسراف العباسيين في الطعام على الخلفاء وحدهم، بل تعداهم إلى الأمراء وكبار رجال الدولة. فقد ذكر ياقوت[١] أن أبا جعفر المنصور لما زار عمه عيسى بن علي في أربعة آلاف قدم لهم من ألوان الطعام: الخبز ولحم الجدي والدجاج والبيض واللحم البارد والحلوى على نحو ما نراه في ولائمنا اليوم وقد بلغ من تفننهم في الطهي وإسرافهم في الإنفاق عليه، أن بعضهم كان يشتري مقادير كبيرة من السمك لتقديم ألسنته على المائدة، كلون من ألوان الطعام الشهية الكثيرة التي كانت تزخر بها موائدهم.

روى المسعودي[٢]، أن إبراهيم بن المهدي قال: استزرت الرشيد بالرقة فزارني، وكان يأكل الطعام الحار قبل البارد. فلما وضعت البوارد، رأى فيها قرب إليه منها جام قريض سمك، فاستصغر القطع وقال لم صغر طباخك تقطيع السمك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين! هذه ألسنة السمك، قال فيشبه أن يكون في هذا الجام مائة لسان، فقال مراقب خادمه: يا أمير المؤمنين! فيها أكثر من مائة وخمسين، فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك، فأخبره أنه قام بأكثر من ألف درهم فرفع الرشيد يده وحلف أن لا يطعم شيئاً دون أن تحضره مراقب. فلما حضر المال أمر أن يتصدق به وقال: أرجو أن يكون كفارة لسرفك في إنفاقك على جام سمك ألف درهم.

وقد بلغت نفقة المأمون في اليوم ستة آلاف دينار، كان ينفق منها مبلغاً كبيراً على مطابخه[٣].

وكان أهل بغداد يتفننون في الطعام ويسرفون في اجتلاب ألوانه في غير مواعيدها، من صيد وفاكهة وخضراوات، حتى كانوا يزينون هذه الأطعمة أحياناً بما يعادلها في الوزن من الفضة كما تقدم. كما كانوا يجلبون ألوان الطعام مثل السمك والحبوب والجبن وما إلى ذلك من البلاد الأخرى كفارس وعمان والهند[٤].

---

(١) انظر قصر عيسى بن علي في معجم البلدان لياقوت، والمسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠.
(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠.
(٣) كتاب الفخري ص ٢٠٧.
(٤) الطبري جـ ١٠ ص ٥٢

وعلى الرغم من أن الخلفاء العباسيين قد يشربون النبيذ، لم يسمح كثير منهم بتناوله على موائدهم. فقد ذكر الطبري أن بختيشوع الطبيب لما قدم على أبي جعفر المنصور «من السوس ودخل عليه في عصره بباب الذهب ببغداد، أمر له بطعام يتغذى به فلما وضعت المائدة بين يديه قال: شراب، فأخبر المنصور بذلك فقال: دعوه. فلما حضر العشاء فعل به مثل ذلك، فطلب الشراب فقيل له: لا يشرب على مائدة أمير المؤمنين الشراب، فتعشى وشرب ماء دجلة. فلما كان من الغد نظر إلى مائه وقال: ما كنت أحسب أن شيئاً يجزي من الشراب (يغني عنه)، فهذا ماء دجلة يجزي من الشراب».

ومما ذكره المقريزي عن حلول المأمون وبعض أفراد أسرته وكبار رجال دولته في ضيعة إحدى نساء القبط عندما قدم مصر في سنة ٢١٧هـ، وما قدم إليهم من طعام وشراب، وما يذكر في سبيل إكرامهم وتوفير أسباب الراحة لهم، نستطيع أن نقف على مدى ثروة مصر في ذلك العصر.

قال المقريزي[١] إن المأمون لما سار في قرى مصر، كان يبنى له بكل قرية دكة يضرب عليها سرادقه والعساكر من حوله. وكان يقيم في القرية يوماً وليلة، فمر بقرية يقال لها طاه النمل، فلم يدخلها لحقارتها. فلما تجاوزها خرجت إليه عجوز تعرف بمارية القبطية صاحبة القرية وهي تصيح، فظنها المأمون مستغيثة متظلمة، فوقف لها. وكان لا يمشي أبداً إلا والتراجمة بين يديه من كل جنس. فذكروا له أن القبطية قالت: يا أمير المؤمنين! نزلت في كل ضيعة، وتجاوزت ضيعتي، والقبط تعيرني بذلك. وأنا أسأل أمير المؤمنين أن يشرفني بحلوله في ضيعتي ليكون لي الشرف ولعقبي، ولا تشمت الأعداء بي، وبكت بكاء كثيراً، فرق لها المأمون، وثنى عنان فرسه إليها ونزل. فجاء ولدها إلى صاحب المطبخ[٢] وسأله: كم تحتاج من الغنم والدجاج والفراخ والسمك والتوابل والسكر والعسل والطيب والشمع والفاكهة والعلوفة وغير ذلك مما جرت به عادته. فأحضر جميع ذلك إليه بزيادة.

وكان بصحبة المأمون أخوه المعتصم وابنه العباس وأولاد أخيه الواثق والمتوكل، ويحيى بن أكثم، والقاضي أحمد بن أبي دؤاد: فأحضرت لكل واحد منهم ما يخصه على انفراد، ولم تكل أحداً منهم ولا من القواد إلى غيره. ثم أحضرت للمأمون الكثير من فاخر الطعام.

فلما أصبح الصباح وعزم الخليفة على الرحيل، حضرت ومعها عشر وصائف، مع كل وصيفة طبق، فلما شاهدها المأمون من بعد قال لمن معه: قد جاءتكم القبطية بهدية الريف.

(١) خطط جـ ١ ص ٨١.

(٢) يعني مطبخ المأمون.

الكامخ والصحباء والصبر. فلما وضعت ذلك بين يدي المأمون، رأى في كل طبق كيساً من ذهب، فأعجبه ذلك وأمرها بإعادته فقالت: لا والله لا أفعل. فتأمل المأمون الذهب، فإذا به ضرب عام واحد، فقال: هذا والله أعجب، ربما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك، فقالت: يا أمير المؤمنين! لا تكسر قلوبنا، فقال: إن لي في بعض ما صنعت لكفاية، ولا نحب التثقيل عليك. فردي مالك، بارك الله فيك، فأخذت قطعة من الأرض وقالت: يا أمير المؤمنين! هذا (وأشارت إلى الذهب) من هذا، وأشارت إلى الطينة التي تناولتها من الأرض وقالت: ثم من عدلك يا أمير المؤمنين، وعندي من هذا شيء كثير، فأمر به الخليفة فأخذ منها، وأقطعها عدة ضياع، وأعطاها من قريتها طاه النمل مائتي فدان بغير خراج.

وقد ابتدع زرياب في بلاد الأندلس أرقى أنواع الطهي البغدادي، فأدخل بقلة الهليون المسماة عندهم الأفراح Aspirage ، كما زاد في الأطعمة لوناً أطلقوا عليه «النقايا»، يصنع بماء الكزبرة الرطبة المحلاة بالستيوسق والكباب، ولوناً من التقلية أطلقوا عليها تقلية زرياب، يطبخ فيه الدجاج أو الأرانب في مرق كثير الأفاوية والتوابل، وقد أذاع زرياب أنماطاً جديدة في تنظيم المائدة، فكانوا يبدأون بالحساء، ثم يقدمون اللحوم والطيور، وينتهون بالحلوى. كما أخذوا عنه تفضيل الأكواب الزجاجية الرفيعة المصنوعة من الزجاج الثمين لأنها أكثر انسجاماً مع نظر المائدة من الأكواب الذهبية والفضية. وابتكر أسمطة الطعام من الجلد الرقيق بدل الكتان، واتخذ أمراء الأندلس وخلفاؤها وخواصهم زرياب قدوة فيما سنه لهم من آداب المائدة واستحسنه من الأطعمة التي نسبت إليه[1].

٥ ـ الملابس:

وكان لانتشار النفوذ الفارسي في الدولة العباسية أثر كبير على ظهور الأزياء الفارسية في البلاط العباسي. ويؤيد ذلك ما ذكره فون كريمر[2] من أن النفوذ الفارسي في بلاط الخلفاء قد بلغ الذروة في عهد الهادي وهارون الرشيد والمأمون وإن أغلب وزراء الأخير من هؤلاء كانوا فرساً أو من أصل فارسي، كما ذكر أن الميل للأزياء الفارسية في بغداد أخذ ينمو ويطرد.

وكان اللباس الفارسي لباس البلاط الرسمي. فقد قرر أبو جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين لبس القلانس، وهي القبعات السود الطويلة المخروطية الشكل، بصفة رسمية. كما

---

(١) المقري: نفح الطيب جـ ٢ ص ٧٥١ ـ ٧٥٢. بروفنسال: الشرق الإسلامي والحضارة العربية ـ الأندلسية ص ٣٠ ـ ٣٤.

(٢) Streifsuge, pp. 32-3.

أدخل استعمال الملابس المحلاة بالذهب، وغدا خلعها على الناس من حق الخليفة، كما يتضح من العملة التي ضربت في عهد الخليفة المتوكل التي تظهر عليها صورته مرتدياً ملابس فارسية حقيقية.

وفي العصر العباسي كان اللباس العادي للطبقة الراقية يشمل على «سروالة» فضفاضة وقميص ودراعة وسترة وقفطان وقباء وقلنسوة. أما لباس العامة فيشمل على إزار وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام. وكانوا ينتعلون الأحذية والنعال.

وكان من المستحسن لبس الثياب البيض. فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «خلق الله الجنة بيضاء، وخير ثيابكم البيض تلبسونها في حياتكم وتكفنون بها موتاكم».

وكان لباس الخليفة العباسي في المواكب القباء الأسود أو البنفسجي الذي يصل إلى الركبة. وكان مفتوحاً عند الرقبة، فيظهر القفطان زاهياً من تحته وكانت أكمامه ضيقة حتى عهد المعتصم الذي أمر بجعلها فضفاضة. ويقال إن عرض الأكمام بلغ ثلاثة أذرع. ويتمنطق الخليفة بمنطقة مرصعة بالجواهر. ويتشح بعباءة سوداء، ويلبس قلنسوة طويلة مزينة بجوهرة غالية[١]. وكان الخلفاء والقضاة يلبسون العمامة والطيلسان، مقتدين في ذلك بالنبي ﷺ كما كانوا يلبسون قلنسوة طويلة، حولها عمامة ذات لون أسود وهو شعار العباسيين. وكان الأمراء والنبلاء يقلدون الخلفاء في ملابسهم.

وقد ذكر ابن خلكان[٢] عن أبي يوسف قاضي هارون الرشيد «أنه أول من غير لباس العلماء إلى هذه الهيئة التي هم عليها في هذا الزمان. وكان ملبوس الناس قبل ذلك شيئاً واحداً لا يتميز أحد عن أحد بلباسه»، وكان الكتاب يلبسون الدراعات، وهي ثياب مشقوقة من الصدر؛ ويلبس القواد الأقبية الفارسية القصيرة[٣]. وأما غير العلماء فقد كانوا يلبسون داخل بيوتهم القلنسوة وحدها فوق كلوتة من الحرير الأبيض، ثم استعاضوا عنها بكلوتة خفيفة بنفسجية اللون. وكان اللباس العادي للطبقة الراقية في العصر العباسي يتألف من سروال فضفاض وقميص ودراعة وسترة وقفطان وقباء وقلنسوة وعباءة أو جبة.

وكان الأغنياء من الرجال والنساء يلبسون الجوارب المصنوعة من الحرير أو الصوف أو الجلد ويسمونها «موازج». وكانت ثمة فروق ملحوظة في ملابس أصحاب المهن المختلفة. أما لباس العامة فكان يشتمل على إزار وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام يسمى «قمر بند».

---

(١) أمير علي: مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٧.
(٢) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٣.
(٣) متز. الحضارة الإسلامية ص ١٧٩.

وكانوا ينتعلون الأحذية والنعال. أما الجنود فكانوا يلبسون الأحذية، على حين كان بعض الأعيان ينتعل كليهما في وقت واحد، غير أنهم كانوا يخلعون الحذاء الخارجي المسمى «الجرموق» عند دخول المساجد أو القصور[1].

وكان لباس المرأة يتكون من ملاءة فضفاضة وقميص مشقوق عند الرقبة. عليه رداء قصير ضيق يلبس عادة في البرد. وإذا خرجت المرأة العربية من بيتها فإنها ترتدي ملاءة طويلة تغطي جسمها، وتقي ملابسها من التراب، وتلف رأسها بمنديل يربط فوق الرقبة.

وقد تطورت ملابس النساء في العصر العباسي تطوراً ظاهراً عما كانت عليه في العصر الأموي، إذا اتخذت سيدات الطبقة الراقية غطاء الرأس (البرنس) مرصعاً بالجواهر، محلى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة. ويعزى ابتكار هذا الغطاء إلى «علية» بنت المهدي وأخت الرشيد. وكانت نساء تلك الطبقة يعلقن الحجب بزنار البرنس للزينة. أما نساء الطبقة الوسطى فكن يزين رءوسهن بحلية مسطحة من الذهب، ويلففن حولها عصابة منضدة باللؤلؤ والزمرد، ويلبسن الخلاخل في أرجلهن والأساور في معاصمهن وأزنادهن. ولم يجهلن فن التجميل الذي أخذنه عن الفارسيات. وكان «طابع الحسن» الصناعي مما يتحلى به الأعربيات[2].

وكان للسيدة زبيدة أثر كبير في تطور الزي وإدخال تغييرات على ملابس السيدات في عصرها: فيعزى إليها اتخاذ المناطق والنعال المرصعة بالجواهر. وكانت فوق ذلك تسرف في شراء ملابسها وتزيينها، حتى إنها اتخذت ثوباً من الوشي الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار[3].

وفي بلاد الأندلس تحكم زرياب في ابتداع الأزياء، وحث الناس على تغيير الملابس لتكون مناسبة للفصول، وعلمهم أن يلبسوا ملابس بيضاء من أول يونيه حتى نهاية سبتمبر، كما علمهم أن الربيع هو فصل الملابس الحريرية الخفيفة والقمصان ذات الألوان الزاهية، وأن الشتاء فصل الفراء والملابس الثقيلة. ومن مآثر زرياب أنه فتح في قرطبة معهد جمال كان يدرس فيه فن التجميل، واستعمل معجون الأسنان، وعلم أهل الأندلس أن يفرقوا شعرهم في وسط الرأس، بدلاً من أن يتركوا خصلات الشعر فوق جبينهم تغطي أصداغهم ويعقصونه حول رأسهم، وأن يظهروا الحاجبين والأذن.

---

(١) أمير علي. مختصر تاريخ العرب ٣٨٨ ـ ٣٨٩.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠.
(٣) المدور: حضارة الإسلام في دار السلام ص ٥٥.

وبتأثير زرياب تغير البلاط الأموي والمجتمع القرطبي، بسبب ما نقله إليهم من نظام البلاط العباسي، حتى في أزيائهم وأثاث منازلهم وطرق طهيهم. وربما كان تأثير زرياب على المجتمع الارستقراطي أكثر عمقاً من تأثيره كموسيقي، بما أدخله من التجديدات التي ينسبها إليه المؤرخون في هذه البيئة الإسلامية التي لم تغير طريقة حياتها زهاء قرن منذ تأسيس الدولة الأموية في الأندلس سنة ١٣٨هـ[١].

٦ ـ المرأة:

كانت المرأة في العصر العباسي الأول تتمتع بقسط وافر من الحرية فقد تدخل بعضهن في شئون الدولة، كالخيزران زوج الخليفة المهدي وأم الهادي والرشيد. وكانت كثيراً ما يسأل ابنها الهادي قضاء حاجات المترددين على بيتها. غير أن شدة غيرته على النساء حملته على أن يضع حداً لتدخلها في أمور دولته.

وقد تمتعت السيدة زبيدة زوجة الرشيد وأم الأمين بنفوذ كبير في الدولة، فإنها حين حجت بيت الله سنة ١٨٦هـ وأدركت ما يعانيه أهل مكة من المشاق في الحصول على ماء الشرب، دعت خازن أموالها وأمرته أن يدعو المهندسين والعمال من أنحاء البلاد وقالت له: «اعمل ولو كلفتك ضربة الفأس ديناراً». ووفد على مكة أكفأ المهندسين والعمال، ووصلوا بين منابع الماء في الجبال، واعتمدوا على عين حنين فأرسلوا منها الماء تحت الصخور حتى تغلغل من الحل إلى الحرم. وبذلك وصل الماء إلى مكة، قبلة المسلمين التي يجتمع فيها حجاج بيت الله. ولا يزال هذا الماء يجري إلى مكة حتى اليوم.

وكذلك ساهمت المرأة في هذا العصر في الحروب، فاشتركت فيها أم عيسى ولبابة بنتا علي بن عبدالله بن عباس عم الخليفة المنصور. وكن في عهد الرشيد يمتطين الجياد ويقدن الجند إلى ميدان القتال[٢]. ولما سبى الروم نساء المسلمين ومثلوا بهن في عهد المعتصم وصاحت امرأة هاشمية وقعت أسيرة في أيديهم «وامعتصماه»! لبى الخليفة نداءها وثارت ثائرته، وقاد جيشه الجرار وانتصر على الروم في وقعة عمورية المشهورة كما تقدم.

وقد بلغت المرأة في هذا العصر مبلغاً عظيماً من الثقافة حتى كانت تنظم الشعر وتناظر

---

(١) المقري: نفح الطيب جـ ٢ ص ٧٥١ ـ ٧٥٢. ليفي بروفنسال: الشرق الإسلامي والحضارة العربية الأندلسية، عن مخطوط المؤرخ الأندلسي أحمد بن محمد الرازي. منشورات معهد الجنرال فرانكو للأبحاث العربية الأسبانية (تطوان ١٦٥١) ص ٢٠ ـ ٢٤.

(٢) أمير علي: مختصر تاريخ العرب ص ١٩٠.

الرجل في عهد الرشيد والمأمون. وكانت السيدة زبيدة شاعرة مثقفة. وكثيراً ما كانت تبعث برسائلها الفياضة أبياتاً شعرية إلى زوجها الرشيد، وإن القصيدة التي بعثت بها إلى الخليفة المأمون على أثر مقتل ابنها الأمير لتدل دلالة واضحة على علو كعبها في الأدب والشعر والسياسة وهاك بعض أبيات منها:

لخير إمام قام من خير عنصر ... وأفضل راقٍ فوق أعواد منبر
ووارثِ علم الأولين وفخرهم ... وللملك المأمون من أم جعفر
كتبتُ وعيني تستهل دموعها ... إليك ابن عمي مع جفوني ومحجري
أصبتُ بأدنى الناس منك قرابةً ... ومَنْ زال عن كبدي فقل تصبري[1]

ويقول نخلة المدور[2]: «إن السيدة زبيدة زوج الرشيد كانت تصنع أعمالاً تفوق مقدرة الملوك، كمثل اصطناعها بساطاً من الديباج جمع صورة كل حيوان من جميع الأجناس، وصورة كل طائر من الذهب، وأعينها من يواقيت وجواهر، يقال إنها أنفقت عليه نحواً من ألف ألف دينار؛ وكمثل اتخاذها الآلة من الذهب المرصع بالجوهر. والثوب من الوشي الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار، والقباب من الفضة والأبنوس والصندل، عليها الكلاليبَ من الذهب الملبس بالوشي والديباج والسمور وأنواع الحرير، وكمثل اتخاذها شمع العنبر، واصطناعها الخلف مرصعاً بالجوهر، واتخاذها الشاكرية من الخدم يختلفون على الدواب ويذهبون في حاجاتها ورسائلها».

وقد أولع الناس، وخاصة الخلفاء باتخاذ الإماء من غير العرب، لأنهن كن في الغالب أوفر جمالاً. أضف إلى ذلك أن العادة قد جرت ألا يرى الرجل من يريد التزوج بها رؤية تامة إذا كانت من الحرائر إلا في حدود ما يسمح به الشرع الإسلامي لمريد الخطبة، بخلاف الأمة فقد كان يستطيع أن يراها ويتعرف طباعها وأخلاقها بحكم مخالطتها قبل أن يقدم على الاقتران بها. وكثيراً ما كان أبناء الجواري أحب إلى آبائهم من أبناء الحرائر. كذلك لم يكن ثمة فرق في التوريث بين أبناء الحرائر والإماء.

وكان كثير من الخلفاء العباسيين من أمهات إماء: فكانت أم المأمون أمة فارسية، وأم المعتصم تركية، كما كانت «شجاع» أم المتوكل خوارزمية، والسيدة أم المقتدر رومية، وكذلك كانت أم الخليفة المستكفي، وكانت أم المطيع صقلبية[3].

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص ٣١٦.
(٢) حضارة الإسلام في دار السلام ص ٩٥.
(٣) النظم الإسلامية للمؤلف.

وكانت الإماء يجلبن من أسواق النخاسة من جميع البلاد إلى بغداد[١]. ومنهن الحبشيات والروميات والجرجيات والشركسيات والعربيات من مولدات المدينة والطائف واليمامة ومصر. واشتهرت كثيرات منهن بالجمال وعذوبة اللفظ وجمال الصوت. ولم يكن بيع الرقيقات مظهراً من مظاهر العبودية والاسترقاق بالمعنى المعروف، بل إن كثيراً من الاماء كن يأتين سوق النخاسة مختارات ليتمتعن بحياة الترف والنعيم في بيوت الخلفاء والأمراء.

وقد أمدنا الجاحظ[٢] بوثيقة أخرى تبين محاسن ومساوىء التزوج من الإماء فقال عند كلامه على محاسن الجواري: «قيل... كان يقال: من أراد قلة المؤونة وخفة وحسن الخدمة وارتفاع الحشمة، فعليه بالإماء دون الحرائر. وكان مسلمة بن مسلمة يقول: عجبت لمن استمتع بالسراري كيف يتزوج المهائر، وقال: السرور باتخاد السراري.

وكان أهل المدينة يكرهون اتخاذ الإماء أمهات أولادهم. حتى نشأ فيهم علي بن الحسن بن علي رضي الله عنهم، وفاق أهل المدينة فقهاً وعلماً وورعاً، فرغب الناس في اتخاذ السراري، قال: وليس من خلفاء بني العباس من أبناء الحرائر إلا ثلاثة: السفاح والمنصور (؟) والأمين، والباقون كلهم أبناء الجواري، وقد علقت الجواري لأنهن يجمعن بين عز العرب ودهاء العجم. وقال عند كلامه على مساوىء الجواري:

إذا لم يكنْ في منزل المرء حُرةٌ ... رأى خللاً فيها تولى الولائد
فلا يتخذ منهن حر قعيدةً ... فهنّ لعمر الله شر القعائد

وكان يقال: الجواري كخبز السوق والحرائر كخبز الدور، ومن أمثال العرب: لا تمازح أمة ولا تبك على أكمة.

ولم يظهر بين طبقة العامة في ذلك العصر نساء كان لهن أثر في الحياة السياسية أو في ترقية المجتمع، بل كان النشاط في هذه النواحي مقصوراً على نساء الخلفاء والأمراء وغيرهن من نساء الطبقة الحاكمة.

وكان للمرأة شأن كبير في بلاد الأندلس، وقامت الجواري بدور هام في قصور الخلفاء والأمراء ورجالات الدولة. وليس أدل على ذلك من قصة «طروب» جارية عبد الرحمن الأوسط، ذلك أنه لما أغضبها، هجرته، وصدت عنه، وأبت أن تأتيه ولزمت مقصورتها، فاشتد قلقه لهجرها، وضاق ذرعه من شوقها، وجهد أن يترضاها بكل وجه فأعياه ذلك. فأرسل من خاصة خصيانه من يكرهها على الوصول إليها، فأغلقت باب مجلسها في وجوههم،

---

(١) حضارة الإسلام في دار السلام ص ٩٨.

(٢) المحاسن والأضداد (طبعة مصر سنة ١٣٢٤ هـ) ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

وآلت أن لا تخرج إليهم طائفة، ولو انتهى الأمر إلى القتل فانصرفوا إليه وأعلموه بقولها، واستأذنوه في كسر الباب عليها، فنهاهم، وأمرهم بسد الباب عليها من خارجه ببدر الدراهم. ففعلوا، وبنوا عليها بالبدر. وأقبل حتى وقف بالباب وكلمها مسترضياً، راغباً في المراجعة، على أن لها جميع ما سد به الباب. فأجابت وفتحت الباب. فانهالت البدر في بيتها. فأكبت على رجله تقبلها. وحازت المال(١).

وذكر المقري أن هذه الجارية كانت تبرم الأمور مع نصر الخصي. وأن عبد الرحمن لم يرد لها شيئاً مما أبرمته. وكذلك أولع عبد الرحمن بجارية أخرى تسمى مدثرة. فأعتقها وتزوجها. كما أولع بجواري أخر منهن شفاء. وقلم. وكانت أديبة راوية للشعر حافظة للأخبار. كما كانت حسنة الخط(٢).

٧ ـ الأعياد والمواسم:

(ا) الاحتفال بالعيدين:

زاد النفوذ الفارسي في الدولة العباسية ـ كما رأينا ـ حتى شمل كل مظاهر الحياة في العصر العباسي، وبلغ الذروة في عهد هارون الرشيد. وفي بغداد أخذ الميل للأزياء الفارسية ينمو ويطرد، واحتفل بالأعياد الفارسية القديمة. وخاصة بالنيروز والمهرجان والرام، واتخذ رجال البلاط العباسي العادات الفارسية القديمة.

وكان الخلفاء يحتفلون بالعيدين احتفالاً دينياً، فيؤمون الناس في الصلاة، ويلقون عليهم خطبة في فضائل العيد وما يجب على المسلمين اتباعه للمحافظة على شعائر الإسلام، ولا غرو فقد كانت مظاهر الإسلام تتحلى في الاحتفال بهذين العيدين في الأمصار الإسلامية وعلى الأخص في بغداد وبيت المقدس ودمشق. أما المسلمون الذين يفدون على مكة من كافة أنحاء العالم لأداء فريضة الحج، فكان الخطيب يخطب في المسجد الحرام في اليوم السابع من شهر ذي الحجة بعد صلاة الظهر خطبة بليغة يشرح لهم فيها مناسك الحج، ثم يأخذون في أداء شعائره، ويضحون أضحيات العيد بعد رميهم الجمار بمنى.

وكان الاحتفال بعيدي الفطر والأضحى يبلغ منتهى الروعة والأبهة في البلاد التي يكون فيها الشعور الإسلامي قوياً، مثل طرسوس حيث كان يتوافد إليها غزاة المسلمين من أنحاء الدولة الإسلامية، وترد إليها صلات أهل البر من المسلمين الذين لا يستطيعون الخروج للجهاد

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٤ ـ ١٦٥.
(٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٦٥.

بأنفسهم. ويقول ابن حوقل: ليس من مدينة عظيمة من حد سجستان وكرمان إلى مصر والمغرب إلا بطرسوس. لأهلها دار ينزل بها غزاة تلك البلدة ويرابطون بها إذا وردوها، وتكثر لديهم الصلات، وترد عليهم الأموال والصدقات العظيمة. ولا شك أنه كان لذلك أكبر الأثر في ظهور الأبهة الإسلامية بأجلى معانيها في الاحتفال بالأعياد بطرسوس، حتى أصبح عيدا الفطر والأضحى في هذه المدينة من محاسن الإسلام.

وكانت الأنوار تسطع في أرجاء المدن الإسلامية في ليالي العيد، وتتجاوب أصوات المسلمين بالتهليل والتكبير، وتزدحم الأنهار بالزوارق المزينة بأبهى الزينات، وتسطع من جوانبها أنوار القناديل، وتتلألأ الأنوار الساطعة من قصور الخلافة. وقد لبست الجماهير الطيالسة السود تشبهاً بالخلفاء العباسيين الذين اتخذوا السواد شعاراً لهم. وكان بعضهم يتخذ بدل العمائم قلانس طويلة مصنوعة من القصب والورق مجللة بالسواد كذلك، ويلبسون بدل الدروع دراعات كتب عليها ﴿فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾[١].

(ب) الاحتفال بالنوروز والمهرجان والرام:

وكان النوروز من المواسم القديمة، اتخذه الفرس لإحياء العام الجديد، وهو أول أيام السنة عندهم، ويقع عند الاعتدال الربيعي ودخول الشمس في برج الحمل أي عند ابتداء فصل الربيع. وقد سن ملوك خراسان سنة جديدة، فاتخذوا هذا اليوم موسماً يلبس فيه جنودهم ملابس الربيع والصيف، وفيه يحتفلون بعيد النوروز. وأول من اتخذ هذا اليوم ـ على ما ذكره البيروني[٢] ـ هو جم شيد وهو ـ كما يقول براون[٣] نقلا عن بعض المصادر العربية ـ سليمان داود[٤]. وقد أبطل المسلمون الاحتفال بهذا العيد في بلاد الفرس، غير أنه عاد في العصر العباسي الأول. وقد أضر نظام النوروز القديم بالمزارعين ضرراً بليغاً، لأن التقويم الجديد قدم يوم النوروز، فكان يجيء والزرع أخضر في الوقت الذي يجب أن تدفع فيه الضرائب.

ويستطرد البيروني في الكلام حتى يذكر أن الملاك اجتمعوا في عهد هشام بن عبد الملك الأموي (١٠٥ ـ ١٢٥ هـ)، وشكوا إلى عامله خالد بن عبد الله القسري، وشرحوا له ما يجدونه من الصعاب، وسألوه أن يؤخر النوروز شهراً فأبى، وكتب إلى هشام بذلك فأجاب: إني

---

(١) المدور: حضارة الإسلام في دار السلام ص ٢٢.

(٢) الآثار الباقية (طبعة سخار Sacbau) ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

(٣) lit. Hist Of Persia, Vol I, 114, 259.

(٤) البيروني الآثار الباقية ص ٢١٥.

أخاف أن يكون هذا من قوله تعالى ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين﴾[١]. واستمرت الحال كذلك إلى أن ولي هارون الرشيد الخلافة، فاجتمع الملاك ثانية وشكوا إلى يحيى بن خالد البرمكي، وسألوه أن يؤخر النوروز نحواً من شهرين؛ فهم يحيى بإجابة طلبهم، ولكن أعداءه أخذوا يرمونه بالتعصب للمجوسية، فعدل عن ذلك، واستمر الحال على ما كان عليه من قبل.

أما أصل النوروز فيقول البيروني[١] إنه يرجع إلى أن سليمان بن داود لما فقد خاتمه ذهب عنه ملكه ثم رد إليه بعد أربعين يوماً، فعاد إليه ملكه، وأتته الملوك وعكفت عليه الطيور، فقالت الفرس: «نوروز آمذ» أي جاء اليوم الجديد، فسمي هذا اليوم «النوروز». وأمر سليمان الريح فحملته، ورآه خطاف فقال: «أيها الملك إن لي عشاً فيه بيضات، فاعدل لا تحملها». فعدل سليمان. ولما نزل على الأرض ثانية حمل الخطاف في منقاره ماء، فرشه بين يدي الملك، وأهداه رجل جرادة، فذلك أصل رش الماء والهدايا في النوروز.

وكان الفرس يتهادون في عيد النوروز بالهدايا، ومنها السكر والملابس. ويقول البيروني[٢]: «إن قصب السكر إنما ظهر في مملكة جم يوم النوروز، ولم يكن يعرف قبل ذلك الوقت، وهو أنه رأى قصبة كثيرة الماء قد مجت شيئاً من عصارتها فذاقها، فوجد فيها حلاوة لذيذة، فأمر باستخراج مائها وعمل منها السكر فارتفع في اليوم وتهادوه الخامس تبركاً به... فجرى الرسم لملوك خراسان فيه أن يخلعوا أساورتهم الخلع الربيعية والصيفية. كما اعتادوا الاغتسال بالماء، وأن يرشوا بعضهم بعضاً به في ذلك اليوم تبركاً ودفعاً للأمراض».

ومما يدل على اهتمام أكاسرة الفرس بالنوروز ما ذكره البيروني حيث قال: «وكان من آيين الأكاسرة في هذه الأيام الخمسة أن يبدأ الملك يوم النوروز، فيعلم الناس بالجلوس له والإحسان إليه، وفي اليوم الثاني يجلس لمن هو أرفع مرتبة وهم الدهاقين وأهل البيوتات، وفي اليوم الثالث يجلس لأساورته وعظماء موابذته، وفي اليوم الرابع لأهل بيته وقرابته وخاصته، وفي الخامس لولده وصنائعه، فيصل إلى كل واحد منهم ما استحقه من الرتبة والإكرام، ويستوفي ما استوجبه من الميرة والإنعام. فإذا كان اليوم السادس كان قد فرغ من قضاء حقوقهم، فنورز لنفسه، ولم يصل إليه إلا أهل أنسه ومن يصلح لخلوته، وأمر بإحضار ما حصل من الهدايا على مراتب المهدين، فيتأملها ويفرق منها ما شاء ويودع الخزائن ما شاء الله».

---

(١) سورة التوبة: ٣٧.

(٢) البيروني: الآثار الباقية ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

(٣) المصدر نفسه ص ٢١٨ ـ ٢١٩.

وكان أكاسرة الفرس والخلفاء العباسيون من بعدهم يحتفلون بالنورور في أول العام على ما رأينا، وفي آخره بالمهرجان، ويسمونه (روز مهر)، ومعناه محبة الروح، وكان من أكبر أعيادهم. فقد أثر عن سلمان الفارسي أنه قال: «كنا على عهد الفرس نقول إن الله أخرج زينة لعباده من الياقوت في النوروز، ومن الزبرجد في المهرجان، ففضلهما على غيرهما من الأيام كفضل الياقوت والزبرجد على سائر الجواهر»[1]. وكان الفرس يتخذون المهرجان دليلاً على نهاية العام والنوروز دليلاً على بدايته. ويوافق أول عيد المهرجان أول الشتاء.

وكان ملوك الفرس يلبسون تاجاً مرصعاً بالجواهر عليه صورة الشمس ويقيمون سوقا عظيمة. وقد قيل إن تعظيم الفرس ليوم المهرجان يرجع إلى استبشار الناس حين سمعوا بانتصار أفريدون على الضحاك. ويعتقدون أن الملائكة نزلت لمساعدة أفريدون في ذلك اليوم. «وجرى الرسم بذلك في دور الملوك أن يقف في صحن الدار رجل شجاع وقت إسفار الصبح، ويقول بأعلى صوته: يا أيها الملائكة! انزلوا إلى الدنيا وأقمعوا الشياطين الأشرار وادفعوهم عن الدنيا». «وكان الفرس يتهادون في المهرجان بالهدايا الكثيرة كهدايا النوروز ومنها السكر، ويقدم فيه الأكاسرة إلى الفرسان كسوة الخريف والشتاء»[2]. وقد اعتاد ملوك الفرس الجلوس للعامة يوماً في المهرجان ويوماً في النوروز. ويقول الجاحظ[3]: «ولا يحجب عنه أحد في هذين اليومين من صغير ولا كبير ولا جاهل ولا شريف».

وكان اليوم الخامس من المهرجان من أعظم أيام الفرس، ويسمونه «رام روز»، وهو المهرجان العظيم، وفيه ظفر أفريدون بالضحاك. وقد اهتم الفرس بعيد المهرجان، ويقع في اليوم السادس عشر، وبعيد الرام ويقع في اليوم الحادي والعشرين. «وقد أمر زرادشت أن يكون سبيل المهرجان ورام روز واحداً في التعظيم، فعيدوهما، حتى وصل بينهما هرمز بن شابور البطل وعيد ما بينهما من الأيام جعل الملوك إيرانشهـو من لدن المهرجان إلى تمام ثلاثين أعياداً بين طبقات الناس»[4].

ولا غرو فقد كان من أثر ميل العباسيين إلى الفرس وإيثارهم على العرب، أن أخذوا عنهم نظم الحكم، وقلدوهم في الأزياء وفي الطعام، واحتفلوا بأعيادهم، وخاصة بالنوروز والمهرجان والرام، التي أصبحت من أهم أعيادهم الرسمية في العصر العباسي الأول.

---

(١) البيروني: كتاب الآثار الباقية ص ٢٢٢.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٢ ـ ٢٣٣.
(٣) التاج في أخلاق الملوك ص ١٥٥.
(٤) البيروني: المصدر نفسه ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

(جـ) موكب الخلفاء:

وقد فاقت مواكب الخلفاء العباسيين مواكب الأمويين في الروعة والبهاء. ففي أيام الجمع يسير الحراس على اختلاف طبقاتهم في مقدمة موكب الخليفة حاملين الأعلام، ثم يليهم أمراء البيت العباسي على الخيول المطهمة، ثم الخليفة ممتطياً جواداً شديد البياض، وبين يديه كبار رجال الدولة. وكان الخليفة يلبس في تلك المواكب القباء الأسود ويتمنطق بمنطقة مرصعة بالجواهر، ويتشح بعباءة سوداء ويلبس قلنسوة طويلة مزينة بجوهرة غالية، وبيده قضيب النبي ﷺ وخاتمه، ويتدلى على صدره سلسلة ذهبية مرصعة بالجواهر النفيسة[١]. وكان الخليفة الهادي أول من أدخل هذا النظام، ولكن الرشيد والمأمون كثيراً ما كانا يميلان إلى البساطة، فلم يكن يصحبهما غير حارس واحد أو حارسين. ومن مظاهر سيادة الخليفة في بغداد أن يضرب على باب قصره بالطبول والدبادب والأبواق في أوقات الصلاة.

ومن أعظم مواكب الخلفاء العباسيين موكب الحج، حيث يجتمع ببغداد الحجاج من مختلف الأمصار الإسلامية الشرقية، وخاصة أهل العراق وفارس وخراسان، وقد أعدوا عدتهم من الإبل والكسي والطعام الذي كان يتكون من الأقراص المعجونة باللبن والسكر والكعك والفواكه اليابسة وغيرها من طعام الحاج. ومعهم شرذمة من الجند لحراستهم. ويسير في مقدمة هذا الموكب هوادج يعلوها قباب مزينة بالديباج المطرز بالذهب يقيم في أحدها أمير الحاج[٢].

ذكر الماوردي أن أمير الحاج ينظر في عشرة أشياء: **أحدها** جمع الناس في مسيرهم ونزولهم حتى لا يتفرقوا، **والثاني** ترتيبهم في المسير والنزول وإعطاء كل طائفة منهم مقاداً حتى يعرف كل فريق منهم مقاده إذا سار، ويألف مكانه إذا نزل، فلا يتنازعون فيه ولا يضلون عنه، **والثالث** أن يرفق بهم في المسير حتى لا يعجز عنه ضعيفهم ولا يضل عنه منقطعهم. **والرابع** أن يسلك بهم أوضح الطرق وأخصبها ويتجنب أجدبها وأوعرها. **والخامس** أن يرتاد لهم المياه إذا انقطعت والمراعي إذا قلت. **والسادس** أن يحرسهم إذا نزلوا ويحوطهم إذا رحلوا حتى لا يختلطهم ذاعر ولا يطمح فيهم متلصص. **والسابع** أن يمنع عنهم من يصدهم عن المسير ويدفع عنهم من يحصرهم عن الحج، بقتال إن قدر عليه أو ببذل مال إن أجاب الحجيج إليه. **والثامن** أن يصلح بين المتشاجرين ويتوسط بين المتنازعين، ولا يتعرض للحكم بينهم إجباراً، إلا أن يفوض الحكم إليه فيعتبر فيه أن يكون من أهله فيجوز له حينئذ الحكم بينهم. فإن دخلوا بلداً فيه حاكم جاز لـه، ولحاكم البلد أن يحكم، فأيهما حكم نفذ حكمه ولو كان التنازع بين الحجيج وأهل البلد لم

(١) سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧.
(٢) الأحكام السلطانية ص ١٠٣ ـ ١٠٥.

يحكم بينهم إلا حاكم البلد. **والتاسع** أن يقوم زائغهم ويؤدب خائنهم ولا يتجاوز التعزير إلى الحد. **والعاشر** أن يراعي اتساع الوقت حتى يؤمن القوات ولا تلجئهم ضيقة إلى الحث في المسير. فإذا وصل إلى الميقات أمهلهم للإحرام وإقامة سننه، فإذا كان الوقت متسعاً عدل بهم إلى مكة ليخرجوا مع أهلها إلى المواقف، وإن كان الوقت ضيقاً عدل بهم عن مكة إلى عرفة خوفاً من فواتها فيفوت الحج بها، فإن زمان الوقوف بعرفة ما بين زوال الشمس من يوم عرفة إلى طلوع الفجر من يوم النحر فمن أدرك الوقوف بها في شيء من هذا الزمان من ليل أو نهار فقد أدرك الحج، وإن فاته الوقوف بها حتى طلع الفجر من يوم النحر، فقد فاته الحج، وعليه إتمام ما بقي من أركانه وجبرانه بدم، وقضاؤه في العام المقبل إن أمكنه وفيما بعده إن قدر عليه، ولا يصير حجه عمرة بالفوات، ولا يتحلل بعد الفوات إلا بإحلال الحج. فإذا قضى الناس حجهم أمهلهم الأيام التي جرت بها العادة في إنجاز علائقهم ولا يرهقهم في الخروج فيضر بهم، فإذا عاد بهم سار على طريق المدينة لزيارة قبر رسول الله ﷺ ليجمع لهم بين حج بيت الله سبحانه وزيارة قبر رسول الله ﷺ، رعاية لحرمته وقياماً بحقوق طاعته، ثم يكون في عوده بهم ملتزماً فيهم من الحقوق ما التزمه في صدرهم، حتى يصل بهم إلى البلد الذي سار بهم منه فتقطع ولايته عنهم بالعود إليهم.

ويقول نخلة المدور[1]: «ولما صارت الشمس على ارتفاع قامة، وقد غصت بالناس المواقف، وضاقت بهم المساحات، ضرب البوق إيذاناً بركوب الخليفة. ثم لم يلبث أن أقبل مرتفعاً على فيل أبيض، قد استرسل عليه الفضة في الحلية الثقيلة، وهو جالس في هودج مزين بالأصداف اللامعة، وعلى القبة أستار من الديباج يتخللها رسوم من الذهب، وفي يده قضيب الخلافة. وفي الأخرى الخاتم، وعليه جبة وشي من فوقها بردة خضراء للنبي ﷺ، وهي غير البردة التي كانت لملوك بني أمية، يلقونها على أكتافهم في جلوسهم وركوبهم، لأنها فقدت بفقدان الخلافة منهم، وكان قد اشتراها معاوية من آل زهير بن سلمى بأربعين ألف درهم. وإنما هذه البردة هي التي أعطاها النبي ﷺ أهل الأبلة لتبقى عندهم بركة فاشتراها أبو جعفر بثلثمائة دينار، واتخذها في شعار الخلافة موضع البردة التي كانت عند الأمويين. وأما الفيلة فإنه لم يسبق أحد من ملوك العرب إلى اتخاذها في المواكب. . . وإنه إنما اتخذها موكباً له لما كان من تعظيم الملوك السالفة إياها واقتنائهم لها، وإعدادها للحروب والزينة في الأعياد وغيرها، إذ كانت أوطأ مراكب الملوك وأمهدها. وكان يصحب أبا جعفر جماعة من الأمراء ورجال بيت الخلافة، وراءهم الإبل التي يطعنها حريمه وأهل بيته، وفيهم موسى بن المهدي حاجاً ومعهم

---

(١) حضارة الإسلام في دار السلام ص ٥٤ ـ ٥٥.

حرس خاص بهم يحملون الرايات السود».

قد سن الخليفة المهدي سنة كسوة الكعبة في كل عام. فإنه لما قدم مكة، نزع كسوة الكعبة وطلى جدرانها بالمسك والعنبر، وألبسها كسوة جديدة من الحرير، إذ خاف أن تتهدم لكثرة ما عليها من الكسى التي ألبسها هشام بن عبد الملك الأموي. فأصبح ذلك سنة اتبعها الخلفاء الذين جاءوا بعد المهدي، هي سنة إلباس الكعبة كسوة جديدة كل عام، اختصت مصر بصناعة هذه الكسوة منذ ذلك الوقت.

وكان بعض وزراء العصر العباسي الأول يعيش عيشة قوامها البذخ والإسراف: فهذا يحيى بن خالد البرمكي قد بلغ من كرمه وجوده، أنه كان إذا ركب أعد بدراً (صرراً) في كل منها مائتا درهم، يدفعها إلى من يقفون في طريقه ويلتمسون سؤاله. وقد كثر الوافدون على دار خالد بن برمك، وكانوا قبل ذلك يسمون سؤالاً، فقال خالد: إني أستقبح هذا الإسم لمثل هؤلاء وفيهم الأشراف والأكابر، فسماهم الزوار. وكان خالد أول من سماهم بذلك فقال له بعضهم: والله لا أدري أي أياديك عندنا أجل، أصلتنا أم تسميتنا[١]؟

(د) حفلات الزواج:

وكان العباسيون يعنون عناية بحفلات الزواج. ويتجلى إسراف خلفاء العصر العباسي الأول وبذخهم مما فعله الخليفة المهدي عند زواج ابنه هارون (الرشيد) بالسيدة زبيدة. فقد أقام يوم زفافها وليمة لم يسبقه إليها أحد في الإسلام، ووهب الناس في هذا اليوم أواني الذهب مملوءة بالفضة وأواني الفضة مملوءة بالذهب والمسك والعنبر، وزينها بكثير من الحلي والجواهر، حتى إنها لم تقدر على المشي لكثرة ما عليها من هذه الحلي والجواهر.

ويقول الشابشتي[٢] إن المأمون أمهر بوران ١٠٠,٠٠٠ دينار، ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم، أي أكثر من نصف مليون دينار، وأنه أوقد بين يديه في تلك الليلة ثلاث شمعات عنبر وكثر دخانها فقالت زبيدة: إن فيما ظهر من السرف الكفاية، ارفعوا هذا الشمع العنبر وهاتوا الشمع. ولما جليت بوران على المأمون نثر عليها حباراً[٣] كان في كمه، فوقع على حصير منسوج من الذهب، فقال: لله درُّ الحسن بن هانىء، حيث يقول:

كأن صغرى وكبرى من فواقعها ... حصباء در على أرض من الذهب

(١) الفخري في الآداب السلطانية ص ١٤٠.

(٢) الديارات: مخطوط فيينا رقم ١١٠ برلين، ودار الكتب المصرية ورقة ٦٧ (أ).

(٣) ذكر ابن خلكان (جـ ١ ص ٤٩٤) أنه نثر اللؤلؤ من فمه.

وامتنع من كان حاضراً أن يلتقط شيئاً، فقال المأمون: أكرمنها، فمدت زبيدة يدها فأخذت حبة، فالتقط الباقي من كان حاضراً، كما ذكر الشابشتي أن نفقات الزواج بلغت من مال الخليفة المهدي ١٣٨٨,٠٠٠ ديناراً، عدا مبلغ كبير أنفقه الرشيد نفسه.

وقد أكدت السيدة زبيدة لأبي عبد الله المأمون، وكان أخا الأمين ابن السيدة زبيدة من أبيه الرشيد كما نعلم، أن نفقات هذا الزواج كانت تتراوح بين خمسة وثلاثين مليون درهم وسبعة وثلاثين مليون درهم.

وقد فاق المأمون أباه الرشيد في كرمه وإسرافه. يدلنا على ذلك ما أنفقه على زواجه من بوران بنت الحسن بن سهل. ويقول الطبري[١] إن المأمون أمر للحسن بن سهل وهو في طريقه إلى بوران بعشرة ملايين من الدراهم، ومنحه خراج إقليم فم الصلح. ويقول ابن خلكان[٢] إنه أعطاه خراج إقليم فارس والأهواز سنة واحدة.

وقد وصف المسعودي[٤] إسراف الحسن بن سهل وبذخه في هذا الزواج فقال: ونثر الحسن في ذلك من الأموال ما لم ينثره ولم يفعله ملك قط في جاهلية ولا في إسلام، وذلك أنه نثر على الهاشميين والقواد والكتاب بنادق مسك، فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك، فكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل، فتحها فقرأ ما فيها فيجد على قدر إقباله وسعوده فيها، فيمضي إلى الوكيل الذي نصب لذلك، فيقول له ضيعة يقال لها فلانة الفلانية، من طسوج كذا، من رستاق كذا وجارية يقال لها فلانة الفلانية ودابة صفاتها كذا. ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافح المسك وبيض العنبر، وأنفق على المأمون وقواده، وعلى جميع أصحابه ومن كان معه من جنوده أيام مقامه عنده، وعلى المكارين والحمالين والملاحين، وكل من ضمه العسكر من تابع ومتبوع مرتزق وغيره، فلم يكن أحد من الناس يشتري شيئاً في عسكر المأمون، ولا مما يطعم تعلفته البهائم. فلما أراد المأمون إن يصعد في دجلة إلى مدينة السلام قال للحسن: حوائجك يا أبا محمد! قال: نعم يا أمير المؤمنين، أسألك أن تحفظ علي مكاني من قلبك فإنه لا يتهيأ لي حفظه إلا بك، فقالت في ذلك الشعراء فأكثرت وأطنبت الخطباء في ذلك وتكلمت، فمما استظرف مما قيل في ذلك الشعر قول ابن حازم الباهلي:

بارك الله للحسنْ ولبورانَ في الخَتَنْ
يا بنَ هارون قد ظفر ت ولكن ببنت مَنْ

---

(١) (طبعة دي غويه) ٢: ١٠٨٣ - ١٠٨٤.

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٦.

(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٣٤.

فلما نمي هذا الشعر إلى المأمون قال: والله ما ندري خير أراد أم شر[١].

٨ ـ أنواع التسلية:

كان الناس في العصر العباسي الأول يقضون أوقات فراغهم في سماع الحكايات القصيرة من النوادر الهزلية والأحاديث التي تتجلى فيها الزكانة والفطنة. أما الحكايات الطوال فكانوا يتنكبون عنها، لأنها بمجالس القصاص أولى منها بمجالس الخاصة.

كما كانوا يتلهون في داخل المنازل بلعبة الشطرنج التي أدخلها الرشيد، ثم انتشرت بين العرب وحلت محل الورق والزهر، وكانوا يلعبون بها على رقعة مربعة حمراء من أدم وظهر في قصر الخليفة العباسي المعتضد في أواخر القرن الثالث الهجري نوع من الشطرنج يسمى «الجوارحية» أو اللعب بالجوارح، تعمل فيه كل حاسة من حواس الإنسان تنافس غيرها من الحواس[٢].

وقد قيل إن الخليفة المأمون مال إلى لعب الشطرنج بعد قدومه من خراسان إلى بغداد، ودعا كبار لاعبيه الذين كانوا يتوقرون بين يديه، فضاق بذلك وقال: إن الشطرنج لا يلعب مع الهيبة، قولوا ما تقولون إذا خلوتم[٣].

وكان النرد من الألعاب التي اعتاد الناس أن يتلهوا بها في العصر العباسي الأول، ويستعمل في لعبة ثلاثون حجراً وفصان على رقعة رسم عليها إثنا عشر منزلاً أو أربعة وعشرون منزلاً. وقد شبه بعض الحكماء رقعة النرد بالأرض الممهدة لساكنها، ومنازل الرقعة بساعات الليل والنهار، واختلاف ألوانها باختلاف بياض النهار وسواد الليل، وما يخرج من الفصين إذا رمي بهما بالقضاء الجاري على العباد.

ومن أنواع التسلية في ذلك العصر الرمي بالنشاب والصيد بالبندق، ولعبة الجوكان والصولجان والجريد.

وكان سباق الخيل من أجمل أنواع التسلية عند الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة في العصر العباسي الأول. وقد أباح الفقهاء هذا اللون من الرياضة على أن لا تكون وسيلة للحصول على المال. وبلغ من شغف الناس بسباق الخيل واهتمامهم به، أن كان السابق يستولي

---

(١) كتاب شذرات الذهب جـ ٢ ص ٢٣.

انظر الملحق الثاني عشر عن «بناء ببوران بنت الحسن بن سهل».

(٢) متز: الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢١٣ ـ ٢١٤.

(٣) المسعودي. مروج الذهب جـ ١ ص ٥٢٢.

على الحصان المسبوق في بعض الأحيان[١]، وتنافس الخلفاء والوزراء في تربية خيل السباق.

روى الجهشياري[٢] أن هارون الرشيد أمر جعفر بن يحيى البرمكي «أن يتخذ خيلاً يجريها في الحلبة، فأجرى جعفر يوماً خيله بالرقة، فسبقت خيل الرشيد، فغضب الرشيد، فقال العباس بن محمد الهاشمي لجعفر: يا أبا الفضل! ما أحسن الشكر وأدعاه للمزيد! من أين لك هذا الفرس السابق؟ فقال له: أمه من خيلك، فقال: والله لأرضينك. ثم أقبل على الرشيد فقال: كنت يا أمير المؤمنين مع أمير المؤمنين أبي العباس. ونحن في المدائن وقد أرسلت الخيل، فبينا نحن ننظر طلع آخر سابق، وقد حصل في الغبار فما ترى علامته، فقال عيسى بن علي: لي، وقال غيره لي. ثم طلع آخر على تلك الصفة، فنظروا فإذا هي لخالد بن برمك، وقد أخذ قصبات السبق، فقال خالد؛ يا أمير المؤمنين! من يقبضها؟ فقال: هي لنا عندك فإنك عدة من عددنا؛ فسرى عن الرشيد وزال الغضب عنه».

وروى المسعودي[٣] حكاية تبين لنا مبلغ اهتمام الرشيد بسباق الخيل قال: وأجرى الرشيد الخيل يوماً بالرقة. فلما أرسلت، صار إلى مجلسه في صدر الميدان حيث توافى عليه الخيل، لا يتقدم أحدهما صاحبه فتأملها فقال: فرسي والله. ثم تأمل الآخرة فقال: فرس ابني المأمون. فجاءا يحنكان أمام الخيل. وكان فرسه السابق، وفرس المأمون ثانية فسر بذلك، ثم جاء الخيل بعد ذلك.

ومن أنواع التسلية في العصر العباسي الأول لعبة الكريكيت والتنس، ويسمونها لعبة «القراح». وكان النساء يمارسن الرمي بالسهام. ولم يكن الرقص في بادىء الأمر مقصوراً على الطبقات المحترفة فحسب، بل كثيراً ما كانت فتيات الطبقة الراقية يشتركن فيه أيضاً.

وكان بعض الخلفاء كلفاً بالصيد. فقد حرص المهدي على القيام برحلات منظمة، بصحبة فرسان يتقلدون السيوف، ويتبعهم طائفة الجند والغلمان، وكان الخليفة يسير محاذياً لنهر دجلة ارتياداً للخضرة التي تجنح إليها الطيور وتسرح فيها الغزلان.

وقد كلف هؤلاء الخلفاء بالصيد وتأنقوا في إعداد العدة له؛ وقلدهم في ذلك الأمراء حتى إنهم أخذوا يصنعون نصال سهامهم من الذهب. كما عنوا باستخدام الصقر والباز في الصيد، وعنوا بتربية الكلاب السريعة العدو، ووكلوا بكل كلب شخصاً يقوم بتربيته.

---

(١) متز: الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢١٥

(٢) كتاب الوزراء والكتاب ص ٢٠٧.

(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٧٩.

ملاحق الكتاب

الملحق الأول

خطبة أبي العباس السفاح في مسجد الكوفة[١]

يقول الطبري: «لما صعد (أبو العباس) المنبر حين بويع له بالخلافة قام في أعلاها، وصعد داود بن علي فقام دونه، فتكلم أبو العباس فقال: الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تكرمة، وشرفه وعظمه، واختاره لنا، وأيده بنا، وجعلنا أهله، وكهفه وحصنه، والقوام به والذابين عنه، والناصرين له، وألزمنا كلمة التقوى، وجعلنا أحق بها وأهلها، وخصنا برحم رسول الله وقرابته، وأنشأنا من آبائه وأنبتنا من شجرته واشتقنا من نبعته، جعله من أنفسنا، عزيزاً عليه ما عنتنا[٢]، حريصاً علينا بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً؛ ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى عليهم فقال عز من قائل، فيما أنزل من محكم القرآن: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس[٣] أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾[٤]. وقال: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾[٥]. وقال: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾[٦] وقال: ﴿وما أفاء[٧] الله على رسوله من أهل القرى، فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى﴾[٨] وقال: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء، فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى﴾[٩] فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزل من الفيء والغنيمة نصيبنا، تكرمة لنا، وفضلاً علينا، والله ذو الفضل العظيم. وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا أحق

---

(١) الطبري جـ ٩ ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

(٢) يعني يعز عليه أن نقع في أمر شاق.

(٣) الغدر أو العقاب أو الغضب.

(٤) الأحزاب ٣٣ : ٣٣.

(٥) الشورى ٤٢ : ٢٣.

(٦) الشعراء ٢٦ : ٢١٤.

(٧) من الفيء وهو كل ما غنمه المسلمون من المشركين عفواً من غير قتال.

(٨) الحشر ٥٩ : ٧.

(٩) الأنفال ٨ : ٤١.

بالرياسة والسياسة والخلافة منا، فشاهت (قبحت) وجوههم، بما ولم أيها الناس؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم، وبصرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم، وأظهر بنا الحق، ودحض بنا الباطل، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً، ورفع بنا الخسيسة الدنيئة، وتم بنا النقيصة وجمع الفرقة، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة في دينهم ودنياهم، وإخواناً على سرر متقابلين في آخرتهم، فتح الله ذلك منة ومنحة لمحمد ﷺ. فلما قبضه الله إليه، قام بذلك الأمر من بعده أصحابه، وأمرهم شورى بينهم، فحووا مواريث الأمم، فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها، وأعطوها أهلها وخرجوا خماصاً[1] منها ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها وتداولوها بينهم، فجاروا فيها، واستأثروا بها، وظلموا أهلها، فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه[2]. فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، ورد علينا حقنا، وتدارك بنا أمتنا، وولي نصرنا، والقيام بأمرنا، ليمن بنا على الذين استضعفوا في الأرض، وختم بنا كما افتتح بنا. وإني لأجور أن لا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح. وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله. يا أهل الكوفة! أنتم محل محبتنا، ومنزل مودتنا. أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك، ولم يثنكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم، حتى أدركتم زمامنا، وأتاكم الله بدولتنا، فأنتم أسعد الناس بنا، وأكرمهم علينا وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم، فاستعدوا، فأنا السفاح المبيح، والثأر المبير».

وكان موعوكا: فاشتد به الوعك، فجلس على المنبر.

---

(١) أي جياعاً من المخمصة وهي الجوع.

(٢) أغضبوه.

الملحق الثاني

خطبة داود بن علي العباسي في مسجد الكوفة[١]

«وصعد داود بن علي، فقام دونه على مراقي المنبر فقال: الحمد لله شكراً شكراً شكراً، الذي أهلك عدونا، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد ﷺ، أيها الناس! الآن أقشعت (أذهبت) حنادس[٢] الدنيا؛ وانكشف غطاؤها، وأشرقت أرضها وسماؤها وطلعت الشمس من مطلعها، وبزغ القمر من مبزغه، وأخذ القوس باريها، وعاد السهم إلى منزعه، ورجع الحق إلى نصابه في أهل بيت نبيكم، أهل الرأفة والرحمة بكم، والعطف عليكم. أيها الناس! إنا والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر لنكثر لجيناً (فضة) ولا عقياناً (ذهباً). ولا نحفر نهراً، ولا نبني قصراً، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا، والغضب لبني عمنا، وماكرثنا[٣] من أموركم، وبهظنا[٤] من شئونكم. ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا، ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم، وخرقهم بكم، واستذلالهم لكم، واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم. لكم ذمة الله تبارك وتعالى، وذمة رسوله ﷺ، وذمة العباس رحمه الله، أن نحكم فيكم بما أنزل الله. ونعمل فيكم بكتاب الله، ونسير في العامة والخاصة منكم بسيرة رسول الله ﷺ. تباً تباً لبني حرب بن أمية وبني مروان، آثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة، والدار الفانية على الدار الباقية، فركبوا الآثام، وظلموا الأنام وانتهكوا المحارم وغشوا الجرائم وجاروا في سيرتهم في العباد وسننهم في البلاد التي استلذوا تسربل الأوزان وتجليب الآصار[٥]؛ ومرحوا في أغنة المعاصي وركضوا في ميادين الغي جهلاً باستدراج الله وأمناً لمكر الله، فأتاهم بأس الله بياناً وهم نائمون، فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق، فبعداً للقوم الظالمين، وأدالنا الله من مروان وقد غره بالله الغرور، وأرسل لعدو الله في عنانه حتى عثر في فضل خطامه (زمامه). فظن عدو الله أن لن نقدر عليه. فنادى حزبه وجمع مكايده ورمى بكتائبه، فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه

---

(١) الطبري جـ ٩ ص ١٢٦ - ١٢٧.

(٢) جمع حندس وهو الليل المظلم والظلمة.

(٣) اشتد علينا.

(٤) غلبنا وثقل علينا.

(٥) جمع إصر وهو الذنب.

وشماله من مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله ومحق ضلالته وجعل دائرة السوء به، وأحيا شرفنا وعزنا ورد إلينا حقنا وإرثنا. أيها الناس! إن أمير المؤمنين نصره الله نصراً عزيزاً إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة؛ إنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره، وإنما قطعه عن استتمام الكلام بعد أن اسحنفر[١] فيه شدة الوعك. وادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية؛ فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن وخليفة الشيطان المتبع للسفلة الذين أفسدوا في الأرض بعد صلاحها بإبدال الدين وانتهاك حريم المسلمين، الشاب المتكهل المتمهل المقتدي بسلفه الأبرار والأخيار الـذين أصلحوا الأرض بعد فسادها بمعالم الهدى ومناهج التقوى. فعج[٢] الناس له بالدعاء.

ثم قال: يا أهل الكوفة! إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا، حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان، فأحيا بهم حقنا وأفلج بهم حجتنا وأظهر بهم دولتنا، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون وإليه تتشوفون، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم وبيض به وجوهكم، وأدالكم على أهل الشام، ونقل إليكم السلطان وعز الإسلام، ومن عليكم بإمام منحه العدالة وأعطاه حسن الإيالة. فخذوا ما آتاكم الله بشكر، والزموا طاعتنا ولا تخدعوا عن أنفسكم فإن الأمر أمركم، فإن لكل أهل بيت مصراً، وإنكم مصرنا. ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأمير المؤمنين عبدالله بن محمد، وأشار بيده إلى أبي العباس. فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم ﷺ. الحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا.

---

(١) اتسع في كلامه.

(٢) رفع صوته بالدعاء.

الملحق الثالث

وصية أبي جعفر ابنه محمد المهدي[١]

«هذا ما عهد به عبد الله أمير المؤمنين إلى المهدي محمد بن أمير المؤمنين، ولي عهد المسلمين، حين أسند وصيته إليه بعده واستخلفه على الرعية، من المسلمين وأهل الذمة، وحرم الله وخزائنه وأرضه التي يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين. إن أمير المؤمنين يوصيك بتقوى الله في البلاد، والعمل بطاعته في العباد، ويحذرك الحسرة والندامة، والفضيحة في القيامة، قبل حلول الموت، وعاقبة الفوت حين يقول: ﴿رب لولا أخرتني إلى أجل قريب﴾[٢]. هيهات أين منك المهل وقد انقضى عنك الأجل... وتقول ﴿رب أرجعون لعلي أعمل صالحاً﴾[٣]، فيومئذ ينقطع أهلك ويحل بك عملك، فترى ما قدمته يداك وسعت فيه قدماك، ونطق به لسانك، واستركبت عليه جوارحك، ولحظت له عينك، وانطوى عليه غيبك، فنجزي عليه الجزاء الأوفى، إن شراً فشراً وإن خيراً فخيراً.

فليكن تقوى الله من شأنك، وطاعته من بالك، استعن بالله على دينك، وتقرب به إلى ربك ونفسك فخذ منها، ولا تجعلها للهوى. ولن تعمل الشر قامعاً، فليس أحد أكثر وزراً، ولا أعظم مصيبة، ولا أجل رزية منك، لتكاتف منك أجمعون، وتكافىء على أفعال ولاتك الظالمين، فإن الله يقول: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾[٤]. فكأني بك وقد أوثقت بين يدي الجبار، وخذلك الأنصار، وأسلمك الأعوان، وطوقت الخطايا، وقرنت بك الذنوب، حل بك الوجل وقعد بك الفشل، كلت حجتك، وقلت حيلتك، وأخذت منك الحقوق، واقتاد منك المخلوق في يوم شديد هوله، عظيم كربه، تشخص فيه الأبصار لدى الحناجر كاظمين، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع، فما عسيت أن يكون حالك يومئذ إذا خاصمك الخلق، واستقضى عليك الحق، إذ لا خصمة تنجيك ولا قرابة تحميك، تطلب فيه التباعة، ولا تقبل فيه الشفاعة ويعمل فيه بالعدل ويقضي فيه

(١) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٧٢ - ٤٧٤.

(٢) المنافقون ٦٣: ١٠.

(٣) المؤمنون ٢٣: ٩٩-١٠٠.

(٤) الزمر ٣٩: ٣٠.

بالفصل، قال الله: ﴿لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾[1]، فعليك بالتشمير لدينك والاجتهاد لنفسك. ففكك عنك، وبادر يومك، واحذر غدك، واتق دنياك فإنها دنيا غادرة موبقة، ولتصدق الله نيتك، وتعظم إليه فاقتك.

«وارغب إلى الله عز وجل في الجهاد والمحاماة عن دينه، وإهلاك عدوه بما يفتح الله على المسلمين ويمكن لهم في الدين. وابذل في ذلك بهجتك ونجدتك ومالك وتفقد جيوشك ليلك ونهارك. واعرف مراكز خيلك ومواطن رحلك، وبالله فليكن عصمتك وحولك وقوتك، وعليه فليكن ثقتك واقتدارك وتوكلك، فإنه يكفيك ويغنيك وينصرك وكفى به مؤيداً ونصيراً».

---

(١) غافر ٤٠ : ١٧.

الملحق الرابع

قتل مروان بن محمد[1]

ولما قتل عامر بن إسماعيل مروان، وأراد الكنيسة التي فيها بنات مروان ونساؤه، إذا بخادم لمروان شاهر السيف، يحاول الدخول عليهن؛ فأخذوا الخادم، فسئل عن أمره فقال: أمرني مروان إذا هو قتل أن أضرب رقاب بناته ونسائه، فلا تقتلوني، فإنكم والله إن قتلتموني ليفقدن ميراث رسول الله ﷺ، فقالوا له: أنظر ما تقول، قال: إن كذبت فاقتلوني، هلموا فاتبعوني، ففعلوا فأخرجهم من القرية إلى موضع رمل، فقال: اكشفوا هنا، فكشفوا، فإذا البرد والقضيب ومخصر قد دفنها مروان لئلا تصير إلى بني هاشم، فوجه بها عامر بن إسماعيل إلى عبد الله بن علي، فوجه بها عبد الله إلى أبي العباس السفاح، فتداولت ذلك خلفاء بني العباس إلى أيام المقتدر (٢٩٥ ـ٣٢٠ هـ).

ولما احتز عامر رأس مروان واحتوى على عسكره. دخل الكنيسة التي كان فيها مروان، فقعد على فرشه وأكل من طعامه، فخرجت إليه ابنة مروان الكبرى، وتعرف بأم مروان، فقالت: يا عامر! أن دهراً أنزل مروان عن فرشه حتى أقعدك عليها فأكلت من طعامه واحتويت على أمره وحكمت في مملكته، لقادر أن يغير ما بك.

ثم وجه عامر بنات مروان وجواريه والأسارى إلى صالح بن علي. فلما دخلن عليه تكلمت ابنة مروان الكبرى فقال: يا عم أمير المؤمنين! حفظ الله لك في الدنيا والآخرة! نحن بناتك وبنات أخيك فليسعنا من عفوكم ما وسعكم من جورنا، قال: إذاً لا نستبقي منكم أحداً رجلاً ولا امرأة. ألم يقتل أبوك بالأمس ابن أخي إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الإمام في محبسه بحران؟ ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيد بن علي بن الحسين بن علي وصلبه في كناسة الكوفة، وقتل امرأة زيد بالحيرة على يد يوسف بن عمر الثقفي؟ ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد وصلبه بخراسان؟ ألم يقتل عبيد الله بن زياد المدعو مسلمة بن عقيل بن أبي طالب بالكوفة؟ ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن علي، على يد عمر بن سعد

---

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ٢ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

مع من قتل بين يديه من أهل بيته؟ ألم يخرج بحرم رسول الله ﷺ سبايا حتى ورد بهن على يزيد بن معاوية، وقبل مقدمهم بعث إليه برأس الحسين بن علي قد نصب دماغه على رأس رمح يطاف به كور الشام ومدائنها، حتى قدموا به على يزيد بدمشق، كأنما بعث إليه برأس رجل من أهل الشرك؟ ثم أوقف حرم رسول الله ﷺ موقف السبي يتصفحهن جنود أهل الشام الجفاة الطعام، ويطلبون منه أن يهب لهم حرم رسول الله ﷺ، استخفافاً بحقه ﷺ وجرأة على الله عز وجل وكفراً لأنعمه. فما الذي استبقيتم منا أهل البيت لو عدلتم فيه علينا؟ قالت: يا عم أمير المؤمنين! وليسعنا عفوكم إذاً، قال: أما العفو فنعم، قد وسعكم، فإن أحببت زوجتك من الفضل بن صالح بن علي، وزوجت أختك من أخيه عبد الله بن صالح. فقالت: يا عم أمير المؤمنين! أي أوان عرس هذا؟ بل تلحقنا بحران. قال: إذن أفعل ذلك بكن إن شاء الله. فألحقن بحران، فعلت أصواتهن عند دخولهن بالبكاء على مروان، وشققن جيوبهن، وأعولن بالصياح حتى ارتج العسكر بالبكاء منهن على مروان.

الملحق الخامس

نهاية بابَك الخرمي[1]

وقد وصف المسعودي نهاية بابك الخرمي وصفاً مسهباً فقال: «فلما استشعر بابك ما نزل به وأشرف عليه، هرب من موضعه وزال عن مكانه، فتنكر هو وأخوه وولده وأهله ومن تبعه من خواصه، وقد تزيا بزي السفر وأهل التجارة والقوافل، فنزل موضعاً من بلاد أرمينية على بعض المياه؛ وبالقرب منهم راعي غنم، فابتاعوا منه شاة وشاءوا شراء شيء من الزاد لهم، فمضى من فوره إلى سهل بن سنباط، فأخبره الخبر وقال: وهو بابك لا شك فيه.

وقد كان الأفشين لما هرب بابك من موضعه وزال عن حبله خشي أن يعتصم ببعض الجبال المنيعة أو يتحصن ببعض القلاع، أو ينضاف إلى بعض الأمم القاطنة ببعض تلك الديار، فيكثر جمعه وينضاف إليه فلال عسكره فيرجع إلى ما كان من أمره. فأخذ الطرق، وكاتب البطارقة في الحصون والمواضع من بلاد أرمينية وأذربيجان والران والبيلقان وضمن في ذلك الرغائب. فلما سمع سهل بن سنباط من الراعي ما أخبره به، سار من فوره فيمن حضر من عدده وأصحابه؛ حتى أتى الموضع الذي به بابك. فترجل له ودنا منه وسلم عليه بالملك وقال له: أيها الملك! قم إلى قصرك الذي فيه وليك وموضع يمنعك فيه الله من عدوك؛ فسار معه إلى أن أتى قلعته، وأجلسه على سريره، ورفع منزلته ووطأ له منزلته ومن معه، وقدمت المائدة وقعد يأكل معه، فقال له بابك بجهله وقلة معرفته بما هو فيه وما دفع إليه: أمثلك يأكل معي؟ فقام سهل عن المائدة وقال أخطأت أيها الملك، وأنت أحق من احتمل عبده إذ كانت منزلتي ليست بمنزلة من يأكل مع الملوك، وجاءه بحداد وقال له: مد رجليك أيها الملك، وأوثقه بالحديد، فقال له بابك: أغدروا يا سهل؟ قال: يابن الخبيثة؟ إنما أنت راعي غنم وبقر، ما أنت والتدبير للملك ونظم السياسات؟ وقيد من كان معه، وأرسل إلى الأفشين يخبره الخبر وأن الرجل عنده، فسرح إليه الأفشين أربعة آلاف فارس عليهم الحديد وعليهم خليفة، يقال له بوغادة، فتسلمه ومن معه، وأتي به إلى الأفشين، ومعه ابن سنباط، فرفع الأفشين منزلة سهل، وخلع عليه، وحمله وتوجه، وقاد بين يديه وأسقط عنه الخراج، فأطلقه، وأطلق الطيور إلى

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ٢ ص ٣٥٠ ـ ٣٥١.

المعتصم، وكتب إليه بالفتح. فلما وصل إليه ذلك ضج الناس بالتكبير، وعمهم الفرح وأظهروا السرور، وبث الكتب إلى الأمصار بالفتح. وقد كان أفنى عساكر السلطان، فسار الأفشين ببابك وتنقل بالعساكر حتى أتى سر من رأى، وذلك سنة ثلاث وعشرين ومائتين، وتلقى الأفشين هارون بن المعتصم وأهل بيت الخلافة ورجال الدولة، ونزل بالموضع المعروف بالقاطول على خمسة فراسخ من سامرا، وبعث إليه بالفيل الأشهب، وكان قد حمله بعض ملوك الهند إلى المأمون وكان فيلاً عظيماً، وقد جلل بالديباج الأحمر والأخضر وأنواع الحرير الملون، ومعه ناقة عظيمة نجيبة قد جللت بما وصفناه. وحمل إلى الأفشين دراعة من الديباج الأحمر، منسوجة بالذهب، وقد رصع صدرها بأنواع الياقوت والجوهر، ودراعة دونها وقلنسوة عظيمة كالبرنس ذات سفاسك بألوان مختلفة، وقد نظم على القلنسوة كثيراً من اللؤلؤ والجواهر وألبس بابك الدراعة، وألبس أخوه الأخرى، وجعلت القلنسوة على رأس بابك، وعلى رأس أخيه نحوها. وقدم إليك الفيل وإلى أخيه الناقة. فلما رأى صورة الفيل استعظمه، وقال: ما هذه الدابة العظيمة! واستحسن الدراعة وقال: هذه كرامة ملك عظيم جليل إلى أسير، فقد العز ذليل، أخطأته الأقدار، وزالت عنه الجدود وتورطته المحن، إنها الفرحة تقتضي ترحة. وضرب له المصاف صفين، في الخيل والرجل والسلاح والحديد والرايات والبنود، من القاطول إلى سامرا، مدد واحد متصل غير منفصل، وبابك على الفيل، وأخوه وراءه على الناقة والفيل يخطر بين الصفين به، وبابك يخطر ذات اليمين وذات الشمال ويميز الرجال والعدد، ويظهر الأسف والحنين على ما فاته من سفك دمائهم، غير مستعظم لما يرى من كثرتهم، وذلك يوم الخميس لليلتين خلتا من صفر سنة ثلاث وعشرين ومائتين. ولم ير الناس مثل ذلك اليوم ولا مثل تلك الزينة، ودخل الأفشين على المعتصم، فرفع منزلته وأعلى مكانه، وأتى ببابك فطوف به بين يديه، فقال له المعتصم: أنت بابك؟ فلم يجب وكررها عليه مراراً، وبابك ساكت، فمال إليه الأفشين وقال له: الويل لك! أمير المؤمنين يخاطبك وأنت ساكت؟ فقال: نعم أنا بابك، فسجد المعتصم عند ذلك ثم قال: جردوه، فسلبه الخدام ما عليه من الزينة، وقطعت يمينه وضرب به وجهه، وفعل مثل ذلك بيساره، وثلث برجليه، وهو يتمرغ بالنطع في دمه.

وقد كان تكلم بكلام كثير يرغب في أموال عظيمة قبله، فلم يلتفت إلى قوله وأقبل يضرب بما بقي من زنديه وجهه، وأمر المعتصم السياف أن يدخل السيف بين ضلعين من أضلاعه أسفل القلب ليكون أطول لعذابه ففعل.

ثم أمر بجز لسانه وصلب أطرافه مع جسده. ثم حمل الرأس إلى مدينة السلام ونصب على الجسر، وحمل إلى خراسان بعد ذلك يطاف به كل مدينة من مدنها وكورها، لما كان في

نفوس الناس من استفحال أمره وعظم شأنه وكثرة جنوده، وإشرافه على إزالة ملك وقلب ملة وتبديلها.

وحمل أخوه عبد الله مع الرأس إلى مدينة السلام، ففعل به إسحاق بن إبراهيم ما فعل بأخيه بابك بسامرا، وصلب جثة بابك على خشبة طويلة في أقاصي سامرا».

الملحق السادس

محاكمة الأفشين(١)

«وذكر عن هارون بن عيسى بن منصور أنه قال: شهدت دار المعتصم وفيها أحمد بن أبي دؤاد وإسحاق بن مصعب ومحمد بن عبد الملك الزيات. فأتي بالأفشين، ولم يكن بعد في الحبس الشديد. فأحضر قوم من الوجوه لتبكيت الأفشين بما هو عليه. ولم يترك في الدار أحد من أصحاب المراتب إلا ولد المنصور، وصرف الناس.

وكان المناظر له محمد بن عبد الملك الزيات. وكان الذين أحضروا المازيار صاحب طبرستان والموبذ والمرزبان بن تركش، وهو أحد ملوك السغد، ورجلان من أهل السغد. فدعا محمد بن عبد الملك بالرجلين، وعليهما ثياب رثة، فقال لهما محمد بن عبد الملك، ما شأنكما؟ فكشفا عن ظهرهما وهي عارية من اللحم فقال له محمد: تعرف هذين؟ قال نعم! هذا مؤذن، وهذا إمام بنيا مسجداً بأشروسنة، فضربت كل واحد منهما ألف سوط، وذلك أن بيني وبين ملوك السغد عهداً أو شرطاً أن أترك كل قوم على دينهم وما هم عليه. فوثب هذان على بيت كان فيه أصنامهم ـ يعني أهل أشروسنة ـ فأخرجا الأصنام واتخذاه مسجداً. فضربتهما على هذا ألفاً ألفاً، لتعديهما القوم من بيعتهم. فقال له محمد: ما كتاب عندك قد زينته بالذهب والجوهر والديباج فيه الكفر بالله؟ قال: هذا كتاب ورثته عن أبي. فيه أدب من العجم، وما ذكر من الكفر، فكنت أستمتع منه بالأدب وأترك ما سوى ذلك. ووجدته محلى، فلم يضطرني الحاجة إلى أخذ الحلية منه، فتركته على حاله ككتاب كليلة ودمنة وكتاب مزدك في منزلك فما ظننت أن هذا يخرج من الإسلام. ثم تقدم الموبذ فقال: إن هذا كان يأكل المخنوقة ويحملني على أكلها ويزعم أنها أرطب لحماً من المذبوحة. وكان يقتل شاة سوداء كل يوم أربعاء يضرب وسطها بالسيف، ثم يمشي بين نصفيها ويأكل لحمها وقال لي يوماً: إني قد دخلت لهؤلاء القوم في كل شيء أكرهه حتى أكلت لهم الزيت وركبت الجمل ولبست النعل، غير أني إلى هذه الغاية لم تسقط عني شعرة، يعني لم يطل ولم يختتن، فقال الأفشين: خبروني عن هذا الذي يتكلم بهذا

---

(١) الطبري جـ ١٠ ص ٣٦٥ ـ ٣٦٧.

الكلام ثقة هو في دينه؟ وكان الموبذ مجوسياً، أسلم بعد على يد المتوكل ونادمه، قالوا لا، قال فما معنى قبولكم شهادة من لا تثقون به ولا تعدلونه؟ ثم أقبل على الموبذ فقال: هل كان بين منزلي ومنزلك باب أو كوة تطلع علي منها وتعرف أخباري منها؟ قال: لا! قال: أفليس كنت أدخلك إلي وابثك سري، وأخبرك بالأعجمية وميلي إليها وإلى أهلها؟ قال: نعم! قال: فلست بالثقة في دينك ولا بالكريم في عهدك، إذا أفشيت علي سراً أسررته إليك. ثم تنحى الموبذ وتقدم له المرزبان بن تركش فقالوا للأفشين: هل تعرف هذا؟ قال: لا فقيل للمرزبان: هل تعرف هذا؟ قال: نعم، هذا الأفشين، قالوا له: هذا المرزبان، فقال له المرزبان: يا ممخرق كم تدافع وتموه؟ قال له الأفشين: يا طويل اللحية ما تقول؟ قال: كيف يكتب إليك أهل مملكتك؟ قال: كما كانوا يكتبون إلى أبي وجدي، قال: فقل قال لا أقول، فقال المرزبان: أليس يكتبون إليك بكذا وكذا بالأشروسنية؟ قال: بلى، قال: أفليس تفسيره بالعربية إلى إله الآلهة من عبده فلان بن فلان؟ قال: بلى! قال محمد بن عبد الملك: والمسلمون يحتملون أن يقال لهم هذا؟ فما أبقيت لفرعون حين قال لقومه أنا ربكم الأعلى؟ قال: كانت هذه عادة القوم لأبي وجدي ولي قبل أن أدخل في الإسلام، فكرهت أن أضع نفسي دونهم فتفسد علي طاعتهم، فقال له إسحاق بن إبراهيم بن مصعب: ويحك يا خيذر؟ كيف تحلف بالله لنا، فنصدقك ونصدق يمينك، ونجريك مجرى المسلمين وأنت تدعي ما ادعى فرعون؟ قال: يا أبا الحسين! هذه سورة قرأها عجيف على عليّ بن هشام، وأنت تقرأها علي، فانظر غداً من يقرؤها عليك.

ثم قدم مازيار صاحب طبرستان فقالوا للأفشين. تعرف هذا، قال لا، قالوا للمازيار تعرف هذا؟ قال: نعم قد عرفته الآن، قالوا: هل كاتبته؟ قال لا، قالوا للمازيار: هل كتب إليك؟ قال نعم، كتب أخوه خاش إلى أخي قوهيار أنه لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض غيري وغيرك وغير بابك، فإنه بحمقه قتل نفسه، ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت، فأبى حمقه إلا أن دلاه فيما وقع فيه، فإن خالفت لم يكن للقوم من يرمونك به غيري، ومعي الفرسان وأهل النجدة والبأس.

فإن وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة: العرب والمغاربة والأتراك: والعربي بمنزلة الكلب، اطرح له كسرة واضرب رأسه بالدبوس، وهؤلاء الذئاب يعني المغاربة، إنما هم أكلة رأس وأولاد الشياطين، يعني الأتراك، فإنما هي ساعة حتى تنفد سهامهم ثم تجول الخيل عليهم جولة فتأتي على آخرهم، ويعود الدين إلى ما لم يزل عليه أيام العجم، فقال الأفشين. هذا يدعي على أخيه وأخي دعوى لا يجب علي، ولو كنت كتبت بهذا الكتاب إليه لأستميله إلي ويثق بناحيتي، كان غير مستنكر، لأني إذا نصرت الخليفة بيدي كنت بالحيلة أحرى أن أنصره لآخذ

بقفاء وآتي به الخليفة لأحظى به عنده كما حظي به عبد الله بن طاهر عند الخليفة: ثم نحى للمازيار. ولما قال للمرزبان التركشي ما قال، وقال لإسحاق بن إبراهيم ما قال، زجر ابن أبي دؤاد الأفشين فقال: أنت يا أبا عبد الله ترفع طيلسانك بيدك فلا تدعه على عاتقك حتى تقتل به جماعة. فقال له ابن أبي دؤاد:

أمطهر أنت؟ قال لا، قال فما منعك من ذلك وبه تمام الإسلام، والطهور من النجاسة قال: أنت في دين الإسلام استعمال التقية؟ قال بلى، قال خفت أن أقطع ذلك العضو من جسدي فأموت، قال أنت تطعن بالرمح وتضرب بالسيف، فلا يمنعك ذلك من أن تكون في الحرب، وتجزع من قتل قلفة؟ قال: تلك ضرورة تعنيني، فأصبر عليها إذا وقعت، وهذا شيء أستجلبه. فلا آمن معه خروج نفسي، ولم أعلم أن في تركها الخروج من الإسلام. فقال ابن أبي دؤاد: قد بان لكم أمره يا بغا (يوجه كلامه إلى بغا الكبير أبي موسى التركي)، عليك به. فضرب بغا بيده على منطقته فجذبها فقال: قد كنت أتوقع هذا منكم قبل اليوم، فقلب بغا ذيل البقاء على رأسه، ثم أخذ بمجامع القباء من عند عنقه. ثم أخرجه من باب الوزيري إلى محبسه».

الملحق السابع

كتاب أبي جعفر المنصور إلى محمد النفس الزكية(١)

«بسم الله الرحمن الرحيم! من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم، إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾(٢). ولك عليّ عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله ﷺ، إن تبت ورجعت من قبل أن أؤمنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم، على دمائكم وأموالكم، وأسوغك ما أصبت من دم أو مال. وأعطيك ألف ألف درهم، وما سألت من الحوائج، وأنزلك من البلاد حيث شئت، وأن أطلق من في حبسي من أهل بيتك، وأن أؤمن كل من جاءك وبايعك واتبعك، أو دخل معك في شيء من أمرك، ثم لا أتبع أحداً منهم بشيء كان منه أبداً. فإن أردت أن تتوثق لنفسك فوجه إليّ من أحببت يأخذ لك من الأمان والعهد والميثاق ما تثق به».

---

(١) الطبري جـ ٩ ص ٢١٠.

(٢) سورة المائدة ٥: ٣٣ ـ ٣٤.

الملحق الثامن

رد محمد النفس الزكية على أبي جعفر المنصور(١)

«بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله المهدي محمد بن عبد الله، إلى عبد الله بن محمد ﴿طسم، تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً، يستضعف طائفة منهم، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾(٢). وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي عرضت علي.

فإن الحق حقنا؛ وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا، وخرجتم له بشيعتنا، وحظيتم بفضلنا، وإن أبانا عليا كان الوصي وكان الإمام، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء؟ ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا. لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء. وليس يمت أحد من بني هاشم مثل الذي يمت من القرابة والسابقة والفضل، وإنا بنو أم رسول الله ﷺ، فاطمة بنت عمرو في الجاهلية، وبنو بنته فاطمة في الإسلام دونكم. إن الله اختار لنا، فوالدنا من النبيين محمد ﷺ، ومن السلف أولهم إسلاماً علي، ومن الأزواج أفضلهم خديجة الطاهرة وأول من صلى القبلة.

ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، ومن المولودين في الإسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة. وإن هاشماً ولد علياً مرتين، وإن عبد المطلب ولد حسناً مرتين، وإن رسول الله ﷺ ولدني مرتين من قبل حسن وحسين، وإني أوسط بني هاشم نسباً وأصرحهم أبا، لم تعرق في العجم، ولم تنازع في أمهات الأولاد. فما زال الله يختار لي الآباء والأمهات في الجاهلية والإسلام، حتى اختار لي في النار. فأنا ابن أرفع الناس درجة في الجنة، وأهونهم عذاباً في النار، وأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشرار، وابن خير أهل الجنة وابن خير

---

(١) الطبري جـ ٩ ص ٢١٠ ـ ٢١١.

(٢) سورة القصص ٢٨: ١ ـ ٦.

أهل النار. ولك الله على أن دخلت في طاعتي، وأجبت دعوتي، أن أؤمنك على نفسك ومالك، وعلى كل أمر أحدثته إلا حداً من حدود الله، أو حقاً لمسلم أو معاهد فقد علمت ما يلزمك من ذلك، وأنا أولى بالأمر منك وأدنى بالعهد لأنك أعطيتني من العهد والأمان ما أعطيته رجالاً قبلي. فأي الأمان تعطيني؟ أمان ابن هبيرةٍ؟ أم أمان عمك عبد الله بن علي؟ أم أمان أبي مسلم؟».

الملحق التاسع

رد أبي جعفر المنصور على محمد النفس الزكية[١]

«بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد! فقد بلغني كلامك، وقرأت كتابك، فإذا جل فخرك بقرابة النساء لتضل به الجفاة والغوغاء. ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء، ولا كالعصبة والأولياء، لأن الله جعل العم أبا، وبدأ به في كتابه على الوالدة الدنيا. ولو كان اختيار الله لهن على قدر قرابتهن، كانت آمنة أقربهن رحماً، وأعظمهن حقاً، وأول من يدخل الجنة غداً.

ولكن اختيار الله لخلقه على علمه لما مضى منهم، واصطفائه لهم. وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب وولادتها، فإن الله لم يرزق أحداً من ولدها الإسلام لا بنتاً ولا إبناً. ولو أحداً رزق الإسلام بالقرابة، رزقه عبد الله، أولاهم بكل خير في الدنيا والآخرة؛ ولكن الأمر لله يختار لدينه من يشاء. قال الله عز وجل: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾[٢].

ولقد بعث الله محمداً عليه السلام وله عمومة أربعة، فأنزل الله عز وجل: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾[٣]، فأنذرهم ودعاهم، فأجاب اثنان أحدهما أبي وأبى اثنان أحدهما أبوك، فقطع الله ولايتهما منه، ولم يجعل بينه وبينهما إلاً ولا ذمة ولا ميراثاً. وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذاباً، وابن خير الأشرار. وليس في الكفر بالله صغير، ولا في عذاب الله خفيف ولا يسير، وليس في الشر خيار، ولا ينبغي لمؤمن يؤمن بالله أن يفخر بالنار، وسترد لتعلم ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾[٤].

وأما ما فخرت به من فاطمة أم علي، وأن هاشماً ولده مرتين، ومن فاطمة أم حسن، وأن عبد المطلب ولده مرتين، وأن النبي ﷺ ولدك مرتين، فخير الأولين والآخرين رسول الله ﷺ؛

---

(١) الطبري جـ ٩ ص ٢١١ - ٢١٣.

(٢) سورة القصص ٢٨: ٥٦.

(٣) سورة الشعراء ٢٦: ٢١٤.

(٤) سورة الشعراء ٢٦: ٢٢٧.

لم يلده هاشم إلا مرة، ولا عبد المطلب إلا مرة وزعمت أنك أوسط بني هاشم نسباً وأصرحهم أماً وأباً، وأنه لم يلدك العجم، ولم تعرق فيك أمهات الأولاد، فقد رأيتك فخرت على بني هاشم طراً، فانظر ويحك أين أنت من الله غداً، فإنك قد تعديت طورك، وفخرت على من هو خير من نفسك نفساً وأباً وأولاً وآخراً، إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وعلى والد والده، وما خيار بني أبيك خاصة، وأهل الفضل منهم إلا بنو أمهات أولاد.

وما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله ﷺ أفضل من علي بن حسين، وهو لأم ولد، ولهو خير من جدك حسن بن حسن، وما كان فيكم بعده مثل ابنه محمد بن علي وجدته أم ولد، ولهو خير من أبيك، ولا مثل أبيه جعفر، وجدته أم ولد، ولهو خير منك. وأما قولك إنكم بنو رسول الله ﷺ، فإن الله تعالى يقول في كتابه ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾[1].

ولكنكم بنو ابنته وإنها لقرابة قريبة ، ولكنها لا تحوز الميراث، ولا ترث الولاية، ولا يجوز لها الإمامة؛ فكيف تورث بها، ولقد طلبها أبوك بكل وجه فأخرجها نهاراً، ومرضها سراً، ودفنها ليلاً، فأبى الناس إلا الشيخين وتفضليهما، ولقد جاء السنة التي لا اختلاف فيها بين المسلمين، أن الجد أبا الأم والخال والخالة لا يرثون.

وأما ما فخرت به من علي وسابقته، فقد حضرت رسول الله ﷺ الوفاة، فأمر غيره بالصلاة، ثم أخذ الناس رجلاً بعد رجل فلم يأخذوه، وكان في الستة فتركوه كلهم دفعاً له عنها، ولم يروا له حقاً فيها. أما عبد الرحمن فقدم عليه عثمان، وقتل عثمان وهو له متهم، وقاتله طلحة والزبير، وأبى سعد بيعته، وأغلق دونه بابه، ثم بايع معاوية بعده: ثم طلبها بكل وجه وقاتل عليها، وتفرق عنه أصحابه، وشك فيه شيعته قبل الحكومة، ثم حكم حكمين رضي بهما وأعطاهما عهده وميثاقه، فاجتمعا على خلعه.

ثم كان حسن فباعها من معاوية بخرق ودراهم، ولحق بالحجاز، وأسلم شيعته بيد معاوية ودفع الأمر إلى غير أهله، وأخذ مالاً من غير ولائه ولا حله، فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه، ثم خرج عمك حسين بن علي على ابن مرجانة، فكان الناس معه عليه حتى قتلوه وأتوا برأسه إليه. ثم خرجتم على بني أمية، فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل، وأحرقوكم بالنيران، ونفوكم من البلدان، حتى قتل يحيى بن زيد بخراسان. وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء، وحملوهم بلا وطاء في المحامل كالسبي المجلوب إلى الشام، حتى خرجنا عليهم، فطلبنا بثأركم وأدركنا بدمائكم، وأورثناكم أرضهم وديارهم وسنينا سلفكم

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣: ٤٠.

وفضلناه. فاتخذت ذلك علينا حجة، وظننت أنا إنما ذكرنا أباك وفضلناه للتقدمة منا له على حمزة والعباس وجعفر. وليس ذلك كما ظننت، ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين، متسلماً منهم، مجتمعاً عليهم بالفضل، وابتلي أبوك بالقتال والحرب، وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة في الصلاة المكتوبة، فاحتججنا له وذكرناهم فضله، وعنفناهم وظلمناهم بما نالوا منه.

ولقد علمت أن مكرمتنا في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم، فصارت للعباس من بين إخوته، فنازعنا فيها أبوك، فقضى لنا عليه عمر، فلم نزل نليها في الجاهلية والإسلام. ولقد قحط أهل المدينة، فلم يتوسل عمر إلى ربه، ولم يتقرب إليه إلا بأبينا، حتى نعشهم الله وسقاهم الغيث، وأبوك حاضر لم يتوسل به.

ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد النبي ﷺ غيره، فكان وارثه من عمومته. ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بني هاشم، فلم ينله إلا ولده: فالسقاية سقايته، وميراث النبي له والخلافة في ولده، فلم يبق شرف ولا فضل في جاهلية ولا إسلام في دنيا ولا آخرة، إلا والعباس وارثه ومورثه.

أما ما ذكرت من بدر، فإن الإسلام جاء والعباس يمون أبي طالب وعياله، وينفق عليهم للأزمة التي أصابته. ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرهاً، لمات طالب وعقيل جوعاً وللحسا جفان عتبة وشيبة، ولكنه كان من المطعمين، فأذهب عنكم العار والسبة، وكفاكم النفقة والمؤونة؛ ثم فدى عقيلاً يوم بدر. فكيف تفخر علينا، وقد أعناكم في الكفر، وفديناكم من الأسر، وحزنا عليكم مكارم الآباء، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء، وطلبنا بثأركم فأدركنا منه ما عجزتم عنه؛ ولم تدركوا لأنفسكم؟ والسلام عليكم ورحمة الله!»

الملحق العاشر

أصناف أهل السنة كما ذكرهم البغدادي:

وقد ذهب البغدادي صاحب كتاب الفرق بين الفرق إلى القول «إن أهل السنة والجماعة ثمانية أصناف من الناس: صنف منهم أحاطوا العلم بأبواب التوحيد والنبوة وأحكام الوعد والوعيد والثواب والعقاب، وشروط الاجتهاد والإمامة والزعامة. وسلكوا في هذا النوع من العلم طرق الصفاتية[٢] من المتكلمين الذين تبرأوا من التشبيه والتعطيل، ومن بدع الرافضة والخوارج والجهمية والنجارية وسائر أهل الأهواء الضالة.

والصنف الثاني منهم أئمة الفقه من فريقي الرأي والحديث من الذين اعتقدوا في أصول الدين مذهب الصفاتية في الله وفي صفاته الأزلية وتبرأوا من القدر والاعتزال، وأثبتوا رؤية الله بالأبصار من غير تشبيه ولا تعطيل، وأثبتوا الحشر من القبور مع إثبات السؤال في القبر، ومع إثبات الحوض والصراط والشفاعة وغفران الذنوب التي دون الشرك، وقالوا بدوام نعيم الجنة على أهليها ودوام عذاب النار على الكفرة، وقالوا بإمامة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وأحسنوا الثناء على السلف الصالح من الأمة، ورأوا وجوب الجمعة خلف الأئمة، الذين تبرأوا من أهل الأهواء الضالة، ورأوا وجوب استنباط أحكام الشريعة من القرآن والسنة ومن إجماع الصحابة، ورأوا جواز المسح على الخفين ووقوع الطلاق الثلاث ورأوا تحريم المتعة، ورأوا وجوب طاعة السلطان فيما ليس بمعصية. ويدخل في هذه الجماعة أصحاب مالك والشافعي والأوزاعي والثوري وأبي حنيفة وابن أبي ليلى وأصحاب أبي ثور وأصحاب أحمد بن حنبل، وأهل الظاهر وسائر الفقهاء الذين اعتقدوا في أبواب العقلية أصول الصفاتية، ولم يخلطوا فقهه بشيء من بدع أهل الأهواء الضالة.

والصنف الثالث منهم هم الذين أحاطوا علماً بطرق الأخبار والسنن المأثورة عن النبي عليه السلام، وميزوا بين الصحيح والسقيم منها، وعرفوا أسباب الجرح والتعديل[٣]، ولم

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٣٠٠ ـ ٣٠٣.

(٢) الصفاتية. هم يثبتون صفات الله.

(٣) الجرح: الذنب الذي يجعل صاحبه غير أهل لرواية الحديث، والتعديل هو إثبات الصفات التي تجعله غير عرضة للتجريح.

يخلطوا علمهم بذلك بشيء من بدع أهل الأهواء الضالة.

والصنف الرابع منهم قوم أحاطوا علماً بأكثر أبواب الأدب والنحو والتصريف، وجروا على سمت[١] أئمة اللغة كالخيل وأبي عمرو بن العلاء وسيبويه والفراء والأخفش والأصمعي والمازني وأبي عبيد، وسائر أئمة النحو من الكوفيين والبصريين الذين لم يخلطوا علمهم بذلك بشيء من بدع القدرية أو الرافضة أو الخوارج.

ومن مال منهم إلى شيء من الأهواء الضالة لم يكن من أهل السنة، ولا كان قوله حجة في اللغة والنحو. والصنف الخامس منهم هم الذين أحاطوا علماً بوجود قراءات القرآن، وبوجود تفسير آيات القرآن وتأويلها على وفق مذاهب أهل السنة دون تأويلات أهل الأهواء الضالة. والصنف السادس منهم الزهاد الصوفية الذين أبصروا فأقصروا واختبروا فاعتبروا. ورضوا بالقدر وقنعوا بالميسور، وعلموا أن السمع والبصر والفؤاد، كل مسؤول عن الخير والشر ومحاسب على مثاقيل الذر، فأعدوا خير الاعتداد ليوم المعاد، وجرى كلامهم في طريق العبارة والإشارة على سمت أهل الحديث دون من يشتري لهو الحديث، لا يعملون الخير رياء ولا يتركونه حياء. دينهم التوحيد ونفي التشبيه، ومذهبهم التفويض إلى الله تعالى والتوكل عليه والتسليم لأمره والقناعة بما رزقوا، والإعراض عن الاعتراض عليه ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾[٢].

والصنف السابع منهم قوم مرابطون في ثغور المسلمين في وجوه الكفرة، يجاهدون أعداء المسلمين، ويحمون حمى المسلمين ويذبون عن حريمهم وديارهم. ويظهرون في ثغورهم مذاهب أهل السنة والجماعة. وهم الذين أنزل الله تعالى فيهم قوله ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾[٣].

والصنف الثامن منهم عامة البلدان التي غلب فيها شعائر أهل السنة دون عامة البقاع التي ظهر فيها شعار أهل الأهواء الضالة. وإنما أردنا بهذا الصنف من العامة عامة واعتقدوا تصويب علماء السنة والجماعة في أبواب العدل والتوحيد والوعد والوعيد، ورجعوا إليهم في معالم دينهم، وقلدوهم في فروع الحلال والحرام، ولم يفتقدوا شيئاً من بدع أهل الأهواء الضالة. وهؤلاء الذين سمتهم الصوفية حشو الجنة، فهؤلاء أصناف أهل السنة والجماعة ومجموعهم أصحاب الدين القويم والصراط المستقيم».

---

(١) السمت: الطريق.

(٢) سورة الحديد: ٢١، سورة الجمعة ٤.

(٣) سورة العنكبوت: ٦٩.

الملحق الحادي عشر

نسخة الشرط الذي كتبه عبد الله بن هارون أمير المؤمنين بخط يده في الكعبة(١)

«هذا كتابٌ لعبد الله هارون أمير المؤمنين، كتبه له عبد الله بن هارون أمير المؤمنين، في صحة من عقله وجواز أمره، وصدق نية فيما كتب في كتابه هذا، ومعرفة بما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعة المسلمين، أن أمير المؤمنين هارون ولاني العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين في سلطانه بعد أخي على محمد بن هارون الوفاء بما عقد لي من الخِلافة وولاية أمور العبادات والبلاد بعده، وولاية خراسان وجميع أعمالها، ولا يعرض لي في شيء مما أقطعني أمير المؤمنين، وابتاع لي من الضياع والعقد والرباع، وابتعت منه من ذلك، وما أعطاني أمير المؤمنين من الأموال والجواهر والكساء والمتاع والدواب والرقيق وغير ذلك ولا يعرض لي ولا لأحد من عمالي وكتابي بسبب محاسبة، ولا يتبع لي في ذلك ولا لأحد منهم أبداً، ولا يدخل علي ولا عليهم ولا على من كان معي ومن استعنت به من جميع الناس، مكروهاً في نفس ولا دم ولا شعر ولا بشر ولا مال، ولا صغير من الأمور ولا كبير. فأجابه إلى ذلك وأقربه، وكتب له كتاباً أكد فيه على نفسه ورضي به أمير المؤمنين هارون، وقبله وعرف صدق نيته فيه. فشرطت لأمير المؤمنين وجعلت له على نفسي أن أسمع لمحمد وأطيع ولا أعصيه، وأنصحه ولا أغشه، وأوفي ببيعته، وولايته، ولا أغدره ولا أنكث وأنفذ كتبه وأموره، وأحسن مؤازرته وجهاد عدوه في ناحيتي ما وفَّى لي بما شرط لأمير المؤمنين في أمري، وسمي في الكتاب الذي كتبه لأمير المؤمنين ورضي به أمير المؤمنين، ولم يتبعني بشيء من ذلك، ولم ينقض أمراً من الأمور التي شرطها أمير المؤمنين لي عليه. فإن احتاج محمد ابن أمير المؤمنين إلى جند وكتب إلي يأمرني بإشخاصه إليه، أو إلى ناحية من النواحي، أو إلى عدو من أعدائه خالفه أو أراد نقض شيء من سلطانه أو سلطاني الذي أسنده أمير المؤمنين إلينا وولانا إياه، فعلي أن أنفذ أمره، ولا أخالفه ولا أقصر في شيء كتب به إلي. وإن أراد محمد أن يولي رجلاً من ولده العهد والخلافة من بعدي، فذلك له ما وفى لي بما جعله أمير المؤمنين إليّ واشترطه لي عليه وشرط على نفسه في أمري، وعلى إنفاذ ذلك والوفاء له به، ولا أنقض من ذلك ولا أغيره ولا أبدله ولا أقدم قبله أحداً من ولدي ولا قريباً

---

(١) الطبري جـ ١٠ ص ٧٦ - ٧٧.

ولا بعيداً من الناس أجمعين إلا أن يولي أمير المؤمنين هارون أحداً من ولده العهد من بعدي، فليلزمني ومحمداً الوفاء له وجعلت لأمير المؤمنين ومحمد على الوفاء بما شرطت وسميت في كتابي هذا، ما وفَّى لي محمد بجميع ما اشترط لي أمير المؤمنين عليه في نفسي وما أعطاني أمير المؤمنين من الأسماء المسماة في هذا الكتاب الذي كتبه لي. وعلى عهد الله وميثاقه وذمة أمير المؤمنين وذمتي وذمم آبائي وذمم المؤمنين وأشد ما أخذ الله النبيين والمرسلين من خلقه أجمعين، من عهوده ومواثيقه والإيمان المؤكدة التي أمر الله بالوفاء بها ونهى عن نقضها وتبديلها. فإن أنا نقضت شيئاً مما شرطت وسميت في كتابي هذا، أو غيرت أو بدلت أو نكثت أو غدرت، فبرئت من الله عزّ وجل، ومن ولايته ودينه ومحمد رسول الله ﷺ؛ ولقيت الله يوم القيامة كافراً مشركاً. وكل امرأة هي لي اليوم أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة، طالقاً ثلاثاً البتة طلاق الحرج. وكل مملوك لي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله، وعلى المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة ثلاثين حجة نذراً واجباً عليَّ في عنقي حافياً راجلاً، لا يقبل الله مني إلا الوفاء بذلك، وكل مال لي أو أملكه إلى ثلاثين سنة هدي بالغ الكعبة. وكل ما جعلت لأمير المؤمنين وشرطت في كتابي هذا، لازم لي، لا أضمره غيره، ولا أنوي غيره. شهد سليمان بن أمير المؤمنين وفلان، وكتب في ذي الحجة سنة ست وثمانين ومائة».

الملحق الثاني عشر

ذكر بناء المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل[١]

«قال أحمد بن أبي طاهر: ذكر أصحاب التاريخ أن بناء المأمون ببوران بنت الحسن كان في شهر رمضان في سنة عشر ومائتين هـ، وأنه لما مضى إلى فم الصلح إلى معسكر الحسن بن سهل حمل معه إبراهيم بن المهدي، ومر بالمصلين الذين كانوا مع إبراهيم بن عائشة في المطبق، فأمر بإنزالهم، وكانوا مصلبين على الجسر الأسفل. وكان إنزالهم في جمادى الأولى ليلة الثلاثاء لأربع ليال بقين منه ولما كان من غد يوم الأربعاء أمر بإنزال إبراهيم بن عائشة، فكفن وصلي عليه، ودفن في مقابر قريش كما ذكرنا في خبر ابن عائشة آنفاً.

حدثني الحارث بن نصر المنجم، وكان من أصحاب الحسن بن سهل قال. لما زار المأمون الحسن بن سهل للبناء ببوران، ركب من بغداد زورقاً حتى أرقى على بـاب الحسن بن سهل. وكان العباس بن المأمون قد تقدم على الظهر، فتلقاه الحسن خارج عسكره في موضع كان اتخذ له على شاطىء دجلة بني له فيه جوسق. فلما عاينه العباس ثنى رجله لينزل. فحلف عليه ألا يفعل. فلما ساواه ثنى رجله الحسن لينزل، فقال له العباس: بحق أمير المؤمنين لا تنزل فاعتنقه الحسن وهو راكب.

ثم أمر له أن يقدم إليه دابته ودخلها جميعاً إلى منزل الحسن، ووافى المأمون في وقت العشاء، وذلك في شهر رمضان من سنة عشر ومائتين، فأفطر هو والحسن والعباس ودينار بن عبد الله قائم على رجله، حتى فرغوا من الإفطار وغسلوا أيديهم، فدعا المأمون بشراب، فأتى بجام ذهب فصب فيه وشرب، فمد يده بجام فيه شراب إلى الحسن فتبطأ عنه الحسن لأنه لم يكن يشرب قبل ذلك، فغمز دينار بن عبد الله الحسن فقال الحسن. يا أمير المؤمنين! أشربه بإذنك وأمرك. فقال له المأمون: لولا أمري لم أمد يدي إليك فأخذ الجام فشربه.

فلما كان في الليلة الثانية. جمع بين محمد بن الحسن بن سهل والعباسة بنت الفضل ذي الرياستين، فلما كان في الليلة الثالثة دخل على بوران وعندها حمدونة وأم جعفر وجدتها. فلما

---

(١) أحمد بن طاهر طيفور: كتاب تاريخ بغداد ص ٢٠٦ ـ ٢١١.

جلس المأمون معها نثرت عليها جدتها ألف درة كانت في صينية ذهب، فأمر المأمون بأن تجمع. وسألها عن عدد الدر كم هو، فقالت: ألف حبة، فأمر المأمون بعدها فنقصت عشرة، فقال: من أخذها منكم؟ ردوها فقالوا حسين زجلة (بحسب الطبري في النسخة رخلة)، فأمر بردها فقال: يا أمير المؤمنين! إنما نثر لنأخذه، قال فإني أخلفها عليك فردها. وجمع المأمون ذلك الدر في الآنية ووضع في حجرها وقال: هذه نحتلك فاسألي حوائجك، فأمسكت فقالت لها جدتها: كلمي سيدك وأسأليه حوائجك فقد أمرك، فسألته الرضى عن إبراهيم بن المهدي، فقال قد فعلت، وسألته الإذن لأم جعفر في الحج فأذن لها. ولبستها أم جعفر البدنة الأموية، وابتنى بها في ليلته، وأوقد في تلك الليلة شمعة عنبر فيها أربعون منا في تنور ذهب، فأنكر المأمون ذلك عليهم وقال: هذا سرف.

فلما كان من غد، دعا بإبراهيم بن المهدي فجاء يمشي من شاطىء دجلة عليه مبطنة ملحم وهو متعصم بعمامة حتى دخل. فلما رفع الستر عن المأمون رمى بنفسه فصاح المأمون: يا عم! لا بأس عليك، فدخل فسلم عليه تسليم الخلافة وقبل يده وأنشده شعراً، ودعا بالخلع فخلع عليه خلعة ثانية ودعا له بمركب، وقلده سيفا وخرج، فسلم على الناس ورد إلى موضعه. قال الحارث: وأقام المأمون سبعة عشر يوماً يعد له في كل يوم ولجميع من معه ما يحتاج إليه. قال: وخلع الحسن بن سهل على القواد على مراتبهم وحملهم ووصلهم.

وكان مبلغ النفقة عليه خمسين ألف ألف درهم قال: وأمر المأمون غسان بن عباد عند منصرفه أن يدفع إلى الحسن عشرة آلاف ألف من مال فارس وأقطعه فم الصلح، فحملت إليه على المكان، وكانت معدة عند غسان بن عباد قال: فجلس الحسن ففرقها في قواده وأصحابه وحشمه وخدمه. قال: ولما انصرف المأمون شيعه الحسن ثم رجع إلى فم الصلح.

فحدثني الفضل بن حعفر بن الفضل قال: حدثني أحمد بن الحسن بن سهل قال: كان أهلنا يتحدثون أن الحسن بن سهل كتب رقاعاً فيها أسماء ضياعه ونثرها على القواد وعلى بني هاشم، فمن وقعت في يده رقعة منها فيها اسم الغنيمة بعث فتسلمها.

وقال أبو الحسن علي بن الحسن بن عبد الأعلى الكاتب قال: حدثني الحسن بن سهل يوماً بأشياء كانت في أم جعفر. ووصف رجاحة عقلها وفهمها، ثم قال: سألها يوماً المأمون بفم الصلح حين خرج للبناء على بوران وسأل حمدونة بنت غضيض عن مقدار أنفقت في ذلك الأمر، فقالت حمدونة: أنفق خمسة وعشرين ألف ألف، فقالت أم جعفر: ما صنعت شيئاً، قد أنفق ما بين خمسة وثلاثين ألف ألف، إلى سبعة وثلاثين ألف ألف درهم. قال: وأعددنا له شمعتين عنبر. قال: فدخل بها ليلاً فأوقدتا بين يديه، فكثر دخانهما فقال: ارفعوها فقد آذانا

الدخان وهاتوا الشمع . قال : ونحلتها أم جعفر في ذلك اليوم فم الصلح قال : فكان سبب عود فم الصلح إلى ملكي ، وكانت قبل ذلك لي .

فدخل علي يوماً حميد الطوسي فأقراني أربعة أبيات امتدح بها ذا الرياستين، فقلت له نفذها لك إلى ذي الرياستين واقطعك الصلح في العاجل إلى أن تأتي مكافأتك من قبله، فأقطعته إياها. ثم ردها المأمون على أم جعفر فنحلتها بوران، وحدثني علي بن الحسين قال: كان الحسن بن سهل لا يرفع الستور عنه، ولا يرفع الشمع من بين يديه حتى تطلع الشمس ويتبينها إذا نظر إليها، وكان متطيراً يحب أن يقال له إذا دخل عليه: انصرفنا من فرح وسرور، ويكره أن يذكر له جنازة أو موت واحد».

مصادر الكتاب

نورد في الثبت الآتي أهم مصادر الكتاب
وقد رتبت أسماء المؤلفين حسب أحرف الهجاء
مع بيان سنة وفاة بعض المؤلفين

ابن الأثير: (١٢٣٨/٦٣٠). علي بن أحمد بن أبي الكرم.

١ ـ «الكامل في التاريخ» ١٢ جزءاً (بولاق ١٢٧٤ هـ).

أرنولد: سير توماس و. Arnold: Sir Thomas W.

٢ ـ The Preaching of Islam, 3 rd. ed. by Reynold A. Nicholson (Lond. 1935).

وترجمه إلى العربية حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوي.

(الطبعة الثانية)، (القاهرة ١٩٥٧).

The Caliphate (Oxford, 1941).

٣ ـ أربري: أ ج. Arbeerry: A. J.

٤ ـ (The Legay of Persia), Oxford, 1953.

الأصفهاني: (٩٦٧/٣٥٦): أبو الفرج.

٥ ـ «كتاب الأغاني» ٢١ جزءاً [القاهرة ١٢٨٥ هـ]، [القاهرة ١٩٢٧ ـ ١٩٣٦]

أماري: ميشيل Amari: Michel

٦ ـ «مكتبة صقلية العربية» Biblioteca Arabo-Sieula, 2 vols.

أمير علي: سيد Ameer Ali: Sayed

٧ ـ (A Short History of the Saracens (Lond., 1921-1953)

٨ ـ «مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي»، (القاهرة ١٩٣٨) نقله إلى العربية رياض رأفت.

أوتيخا (٩٢٩/٣١١): سعيد بن البطريق.

٩ ـ «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» (بيروت ١٩٠٩).

أوليري دي ليسي. O'Leary De Lacy

١٠ - A Short History of the Fatimid Khalifate (Lond., 1923)

بارتولد: ف. Bartold: F.

١١ - «تاريخ الحضارة الإسلامية». نقله إلى العربية حمزة طاهر (القاهرة ١٩٤٢)

بالمر: Palmer ·

١٢ - Haroun el-Raschid (Lond., 1881).

براون: إدوارد ج. Browne: Edward G.

١٢ - A Literary History of Persia (From the Earliest Times until (Firdawsi) Vol. 1. (Lond,. 1919).

بروكلمان: كارل Brocklmann: Carl

١٤ - Geschichte Arabischer Litteratur. 2 Vols. (Weimar. 1898 - 1902).

البغدادي: (٤٢٩/ ١٠٣٧): أبو منصور عبد القادر بن طاهر.

١٥ - «الفرق بين الفرق» (القاهرة ١٣٢٨/ ١٩١٠).

البكري (٤٨٧/١٠٩٧) أبو عبيد الله بن عبد العزيز.

١٦- «كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب» (طبعة دي سلان De Slane باريس ١٩١١).

البلاذري: (٢٧٩/٨٩٢): أحمد بن يحيى بن جابر.

١٧ - «فتوح البلدان» (القاهرة ١٣١٨ هـ).

البلخي: (٣٢٢/٩٣٣ - ٩٣٤): أبو زيد بن سهل.

١٨ - «كتاب البدء والتاريخ»، وينسب إلى مطهر بن طاهر المقدسي ٦ أجزاء (باريس ١٨٩٩ - ١٩٠٧).

دي بور: ت. ج. De Boer T. G.

١٩ - «تاريخ الفلسفة في الإسلام» نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، جزءان (القاهرة ١٣٥٧/١٩٣٨).

البيروني: (٤٤٠/١٠٤٨) أبو الريحان محمد بن أحمد.

٢٠ - «الآثار الباقية عن القرون الخالية» طبعة إدوارد سخاو (ليبزج ١٨٧٨، ١٨٧٩)

بيمونت ومونود Bemont et Monod

٢١ - Histoire de l'Europe au Moyen Age (Paris. 1921).

تيمور: أحمد (باشا).

٢٢ ـ «التصوير عند العرب»: نشره وعلق عليه الدكتور زكي محمد حسن (القاهرة ١٩٤٢)
الجزنائي: أبو الحسن علي.
٢٣ ـ «زهرة الآس في بناء مدينة فاس» (فاس ١٩٢٢).
٢٤ ـ «نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة وانتشارها» (القاهرة ١٣٥١ هـ).
الجاحظ
٢٥ ـ «كتاب التاج في أخلاق الملوك».
حققه المرحوم أحمد زكي باشا (القاهرة ١٣٣٢/١٩١٤).
٢٦ ـ «كتاب البيان والتبيين» ٤ أجزاء (القاهرة ١٩٢٨).
٢٧ ـ «كتاب التبصر بالتجارة» الطبعة الثانية (القاهرة ١٣٥٤/١٩٣٥) نشره وصححه وعلق عليه السيد حسن حسني عبد الوهاب التونسي.
٢٨ ـ ثلاث رسائل نشرت في كتاب (القاهرة ١٣٤٤ هـ).
٢٩ ـ المحاسن والأضداد (القاهرة ١٣٢٤ هـ).
جرونيباوم: ج. أ. فون Grunebaum G. A. von
٣٠ ـ Islam Essaye in the Nature and Grouth of a Cultural Tradition. (Lond,. 1955).
جيبون: إدوارد Gibon, Edward
٣١ ـ The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, 7 vols. ed. by. B. B. Bury.
جروهمان: أدولف Grohmann: adolf.
٣٢ ـ أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية، الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٥) الجزء الثاني (القاهرة ١٩٥٦) الجزء الثالث (القاهرة ١٩٦٢) ـ ترجمه الدكتور حسن إبراهيم حسن، والجزء الرابع تحت الطبع.
الجهشياري: (٣٣١/٩٣٣): أبو عبد الله محمد بن عبدوس.
٣٣ ـ «كتاب الوزراء والكتاب» (القاهرة ١٩٣٨)، حققه ونشره الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي.
دي جوبينو De Gobineau
٣٤ ـ "Religion et philosophie dans L'Asie Centrale". (Paris. 1865).
جولدتسيهر: إجنتس Goldziher: Ignaz
٣٥ ـ «المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن»، ترجمه الدكتور علي حسن عبد القادر (القاهرة ١٣٦٣/١٩٤٤).

٣٦ - Vorlesnngen uder den Islams (2 nd ed. Heidelberg. 1919). trans. Into Frensh by Fe´lix Arin under title (Le Dogme et la Roi de L'Islamı) (Paris. 1920).

ترجمه إلى العربية بعنوان: «العقيدة والشريعة الإسلامية» محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق، وعلي حسن عبد القادر (القاهرة ١٩٤٦).

ابن أبي الحديد: (٤٠٤/١٣٠٣): الشريف الرضي محمد بن أحمد الحسيني.

٣٧ - «كتاب نهج البلاغة» أربع مجلدات (القاهرة ١٣٢٩ هـ).

حتي، فيليب ك. Hitti: Philp K.

٣٨ - History of the Arabs (London. 1953).

حسن إبراهيم حسن:

٣٩ - «الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص» (المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٣٢).

٤٠ - «الدولة الفاطمية» الطبعة الثالثة (القاهرة ١٩٦٤).

٤١ - «السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية» تأليف فان فلوتن (Van Vloten)، ترجمه وعلق عليه المؤلف بالاشتراك مع الشيخ محمد زكي إبراهيم (القاهرة ١٩٣٣).

٤٢ - «أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية» تأليف أدولف جروهمان. ترجمه إلى العربية وعلق عليه المؤلف، الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٤): الجزء الثاني (القاهرة ١٩٥٦)، الجزء الثالث (القاهرة ١٩٦٢).

٤٣ - «تاريخ الإسلام السياسي» الجزء الأول (الطبعة السابعة) (القاهرة ١٩٦٤) الجزء الثالث الطبعة السادسة (القاهرة ١٩٦٢).

٤٤ - «النظم الإسلامية» بالاشتراك مع الدكتور علي إبراهيم حسن (الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٦٢).

٤٥ - «مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى الفتح العثماني»؛ بحث مستخرج من «كتاب المجمل في التاريخ المصري» (القاهرة ١٩٤٢ ص ١٢٧ - ٢٢٩).

٤٦ - انتشار الإسلام في شرقي القارة الإفريقية (الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٦٤).

٤٧ - اليمن: البلاد السعيدة (القاهرة ١٩٥٨).

ابن حزم (٤٥٦/١٠٦٤) أبو محمد علي بن أحمد.

٤٨ ـ «الفصل في الملل والأهواء والنحل»، ٥ أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ).

ابن خرداذبة: أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله.

٤٩ ـ «كتاب المسالك والممالك» (طبعة دي غويه ـ ليدن ١٨٨٩).

الخضري: محمد.

٥٠ ـ «تاريخ الدولة العباسية» (القاهرة ١٩١٦).

الخطيب البغدادي (١٠٧٣/٤٦٣): الحافظ أبو بكر أحمد بن علي.

٥١ ـ «تاريخ بغداد أو مدينة السلام» ١٤ جزءاً (القاهرة ١٩٣١/١٣٤٩).

ابن خلدون: (١٤٠٥/٨٠٨ ـ ١٤٠٦): عبد الرحمن بن محمد.

٥٢ ـ مقدمة ابن خلدون (بيروت ١٨٨٦) ونسخة مخطوطة بالمكتبة الزكية بدار الكتب المصرية رقم ١٥.

٥٣ ـ «العبر وديوان المبتدأ والخبر» ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٨٤ هـ).

ابن خلكان (١٢٧١/٦٨١) شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي.

٥٤ ـ «وفيات الأعيان» جزءان (بولاق ١٢٨٢ هـ)، (المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٠ هـ) ٦ أجزاء (القاهرة ١٩٤٨) ترجمه إلى الإنكليزية دي سلان De Slane (باريس ١٨٤٢ ـ ١٨٤٨).

الخياط: أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان المعتزلي.

٥٥ ـ «كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد»، مع مقدمة وتحقيق وتعليقات للدكتور نيبرج (القاهرة ١٩٢٥/١٣٤٤).

حاجي خليفة (١٦٥٧/١٠٦٧): مصطفى كاتب شلبي.

٥٦ ـ «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون»، نشر النسخة العربية وترجمها إلى الألمانية ج. فلوجل Flugel (ليبسك لندن ١٨٣٥ ـ ١٨٥٨).

ابن دقماق (١٤٠٦/٨٠٩ ـ ١٤٠٧): إبراهيم بن محمد المصري.

«الانتصار لواسطة عقد الأمصار» الجزءان الرابع والخامس (القاهرة ١٨٣/١٣٠٩).

الدوري، عبد العزيز.

٥٨ ـ العصر العباسي الأول (بغداد ١٩٤٥).

دوزي: ر. ب. أ. Dosy; R. P. A.

٥٨ ـ Histoire des Musulmans d'Espagne (Leyden, 1861), trans. into English by. F. G. Stokes (The Moslems in Spain) (London 1913).

٥٩ - Essai sur L'Histoire de L'Islamisme, trans. par Victor Chauvin (Leyden - Paris, 1841).

٦٠ - Dictionnaire des Vêtements chez les Arabes (Amsterdam, 1845).

٦١ - Supplément au Dictionaires Arabes, 2 vols. (Leyden, 1801).

تميودمين: م. ج. Demombynes, M. G.

٦٢ - Muslim Institutions, trans. from French (London, 1950).

«النظم الإسلامية» ترجمه إلى اللغة العربية صالح الشماع وفيصل السامر (بغداد ١٩٥٢).

ابن أبي دينار (١٦٩٨/١١١٠) محمد بن أبي القاسم بن عمر القيرواني.

٦٣ - «كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس» (تونس ١٢٨٦ هـ).

الدينوري: (٨٩٥/٢٨٢): حمد بن داود أبو حنيفة.

٦٤ - «الأخبار الطوال» جزءان (ليدن ١٨٨٨).

ابن أبي زرع: أبو الحسن علي بن عبد الله.

٦٥ - «الأنيس المطرب يروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس»، (أمسألا ١٨٤٤) (الرباط ١٩٣٦).

زكي محمد حسن.

٦٦ - «الفن الإسلامي في مصر» الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٥).

٦٧ - «كنوز الفاطميين» (القاهرة ١٩٣٧).

٦٨ - «الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي» (القاهرة ١٩٤٠).

زيدان: جرجي.

٦٩ - «تاريخ الإسلام» خمسة أجزاء (القاهرة ١٩٠٢ - ١٩٠٦).

ابن زيدان: عبد الرحمن.

٧٠ - «إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس» ٥ أجزاء (الرباط ١٩٢٩).

العز والصولة في معالم الدولة (الرباط ١٣٨١/١٩٦١).

لي سترينج: جاي Le Strange: Guy

٧١ - Baghdad During the Abbasid Caliphate. (Oxford, 1924).

ابن سعيد (١٢٨٥/٥٨٣): علي بن موسى المغربي.

٧٢ - «كتاب المغرب في حلى المغرب والمشرق في حلى المشرق» (ليدن ١٨٩٨ - ١٨٩٩).

السلاوي: الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري.

٧٣ ـ «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى» ١٠ أجزاء (الدار البيضاء ١٩٥٤).
السيوطي (١٦٠٥/٩١١): عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين.
٧٤ ـ «تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة» (القاهرة ١٣٥١ هـ).
٧٥ ـ «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة» جزءان (القاهرة ١٣٢٧ هـ).
شاخت: يوسف .Schacht, Joseph
٧٦ ـ The Origins of Muhammadan Jurisdruence, (Oxford, 1950).
الشابشتي (٩٩٦/٣٨٨): أبو الحسن علي بن محمد.
٧٧ ـ «كتاب الديارات» مخطوط (Berlin, We. 1100)
الشهرستاني (١١٥٣/٦٥٨): أبو الفتح محمد بن عبد الكريم.
٧٨ ـ «الملل والنحل» ٥ أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ).
ابن طباطبا: محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى.
٧٩ ـ «الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية» (القاهرة ١٩٢٣).
الطبري: (٩٢٢/٣١٠): أبو جعفر محمد بن جرير.
٨٠ ـ «تاريخ الأمم والملوك» (طبعة دي غويه ـ ليدن ١٨٨١) (القاهرة ١٣٢٦ هـ).
٨١ ـ «تفسير محمد بن جرير الطبري» في ثلاثين مجلداً.
٨٢ ـ «اختلاف الفقهاء» نشر يوسف شاخت بعض أجزاء من هذا الكتاب تحت عنوان «كتاب الجهاد وكتاب الجزية وأحكام المحاربين من كتاب اختلاف الفقهاء لمحمد بن جرير الطبري» (ليدن ١٩٣٣).
طه حسين
٨٣ ـ «حديث الأربعاء» (القاهرة ١٩٢٥).
الطوسي (٤٦٠/١٠٦٧ ـ ١٠٦٨): محمد بن الحسن.
٨٤ ـ «فهرست كتب الشيعة» (كلكتا ١٨٥٥ م).
طيفور (٢٨٠/٨٩٣ ـ ٨٩٤): أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر.
٨٥ ـ «تاريخ بغداد» الجزء السادس. طبعة هـ. كلر H. Keller (لايبسك ١٩٠٨).
ابن عبد ربه (٣٤٩/ ٩٤٠) شهاب الدين أحمد.
٨٦ ـ «العقد الفريد» ٣ أجزاء القاهرة (١٣٤٦/١٩٢٨).
ابن عذارى (توفي في أواخر القرن السابع الهجري): أبو محمد عبد الله بن محمد المراكشي.
٨٧ ـ «البيان المغرب في أخبار المغرب» نشره دوزي في ثلاثة أجزاء (١٨٤٨ ـ ١٨٥١)
علي إبراهيم حسن: دكتور.

٨٨ ـ «تاريخ مصر في العصور الوسطى» (القاهرة ١٩٥٤).
«النظم الإسلامية» بالاشتراك مع الدكتور حسن إبراهيم حسن ـ القاهرة (١٩٣٩، ١٩٥٩، ١٩٦٠).
علي حسن عبد القادر: دكتور.
٨٩ ـ «نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي» الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٥٦).
الغزالي (٥٠٥/١١١١) الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد.
٩٠ ـ «المنقذ من الضلال» (دمشق ١٣٥٣/ ١٩٣٤).
٩١ ـ «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة» (القاهرة ١٣١٩/١٩٠١).
فان فلوتن: ج. Van Vloten, J.
٩٢ ـ Recherches sur la Domination Arabe, Le Chiitisme et les Croyances Messiques Sous le Khilifat des Omayades (Amesterdam, 1894).
ترجمه إلى العربية وعلق عليه الدكتور حسن إبراهيم حسن، والشيخ محمد زكي إبراهيم (القاهرة ١٩٣٤).
أبو الفدا: (٧٣٣/١٣٣١): إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماه.
٩٣ ـ «المختصر في أخبار البشر» ٤ أجزاء (القسطنطينية ١٢٨٦ هـ)، (القاهرة ١٣١٥ هـ).
فنلي: جورج Finlay: George
٩٤ ـ "History of the Byzantine Empire" (716-1507 A. D.) (London, 1859).
ابن القاضي: أحمد بن محمد المكناسي.
٩٥ ـ «جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس». مخطوط رقم ج ١٢٤٢. (الرباط).
ابن قتيبة: (٢٧٦/ ٨٨٩) أبو مسلم محمد عبد الله بن مسلم.
٩٦ ـ «كتاب المعارف» (١٣٥٣/١٣٤٨ هـ).
٩٧ ـ «عيون الأخبار» أربعة أجزاء (القاهرة ١٣٤٣/ ١٣٤٨ هـ).
قدامة: (٣٢٧/٩٤٨). أبو الفرج بن جعفر الكاتب البغدادي.
٩٨ ـ «نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة» (طبعة دي غوية ـ ليدن ١٨٨٩).
القفطي: (٦٤٦/١٢٤٨) جمال الدين علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الوهاب.
٩٩ ـ «إخبار العلماء بأخبار الحكماء»، (ليبسك ١٣٢٢/١٩٠٣).
القلقشندي: (٨٢١/٤١٨): أبو العباس أحمد.
١٠٠ ـ «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» ١٤ جزءاً (القاهرة ١٧١٣ ـ ١٧١٧)
كاشف: دكتورة سيدة إسماعيل.

١٠١ ـ «مصر في فجر الإسلام» (القاهرة ١٩٤٧ م).
الكتبي (١٣٦٢/٧٦٤ ـ ١٣٦٣): محمد بن شاكر بن أحمد الحي.
١٠٢ ـ «فوات الوفيات» جزءان (القاهرة ١٢٩٩، ١٩٥١).
كريزويل. ك. أ. ك. Greswell: K. A. C.
١٠٣ ـ "Early Muslim Architecture" 2 vols. (Oxford, 1930 and 1938).
١٠٤ ـ "Culturgeschischte des Orients unter den Chalifen" 2 vols. (Vienna, 1875) Trans by. S. Khuda Bukhsh (the Orient under the Caliphs) (Calcutta, 1290).
الكندي (٩٦١/٣٥٠): أبو عمر محمد بن يوسف.
١٠٥ ـ «كتاب الولاة وكتاب القضاة» طبعه روفن جست Rhuvon Cuest
١٠٦ ـ كيرك: جورج أ. Kirk, George E.
"A Short History of the Middle East" (Lond., 1952).
لويس: برنارد Lewis, Bernard
١٠٧ ـ "The Arabs in Histoy" (London, 1950).
E. G. W. Gibb Memorial Series (London, 1871).
١٠٨ ـ ليفي بروفنسال:
الشرق الإسلامي والحضارة العربية الأندلسية، معهد الجنرال فرانكو للأبحاث العربية الإسبانية (تطوان ١٩٥١).
لينبول: ستانلي Lane-Poole, Stanley
١٠٩ ـ "The Mohammadan Dynasties" (Paris, 1625).
١١٠ ـ "The Moors in Spain" (London, 1887) ترجمه إلى العربية علي الجارم (القاهرة ١٩٤٤).
١١١ ـ "A History of Egypt in the Middle Ages" (Lond., 1924).
ليون الإفريقي (الحسن الوزان) Jean Lion L'Africain
١١٢ ـ Description de l'Afrique (trad, de L'Italien) par A. Epaulard, 2 tomes (Paris, 1966).
الماوردي: (١٥٠٧/٤٥٠): أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البغدادي البصري.
١١٣ ـ «الأحكام السلطانية» (القاهرة ١٢٩٨).
متز: آدم Mez: Adam

١١٤ ـ "The Renaissance of Islam" trans, into English by S. Khuda Bukhsh and D. S. Margoliouth (Lond., 1930).
وترجمه الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة إلى العربية بعنوان: «الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري»، جزءان (القاهرة: ١٩٤٠ ـ ١٩٤١).
أبو المحاسن (١٤٦٩/٨٧٤). جمال الدين بن يوسف بن تغري بردى.
١١٥ ـ «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» جـ ١، ٢ (القاهرة ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠).
المدور: جميل نحله.
١١٦ ـ «حضارة الإسلام في دار السلام» (القاهرة ١٣٥١/١٩٣٣).
المراكشي (٦٦٩/١٢٧٠ ـ ١٢٧١): محي الدين أبو محمد عبد الواحد بن علي التميمي.
١١٧ ـ «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» طبعة دوزي (ليدن ١٨٨١) (القاهرة) وترجمه وشرحه أ. فانيان E. Eagnan (الجزائر ١٨٩٣).
ابن المرتضى (٢٢٥/٩٣٦ ـ ٩٣٧): المهدي لدين الله أحمد بن يحيى.
١١٨ ـ «باب ذكر المعتزلة» من كتاب المنية والأمل (طبعة الهند).
المسعودي (٣٤٦/٩٥٦) أبو الحسن علي.
١١٩ ـ «كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر» جزءان (القاهرة ١٣٤٦ هـ) وترجمه إلى الفرنسية باربييه دي مينار Barbier de Meynard تحت عنوان Prairies d'Or (باريس ١٨٦١ ـ ١٨٧٧).
١٢٠ ـ «كتاب التنبيه والإشراف» (طبعة دي غويه ـ ليدن ١٨٩٣، القاهرة ١٣٥٧/١٨٣٨).
المقدسي: (٣٨٨/٩٧٧ م) شمس الدين أبو عبد الله محمد.
١٢١ ـ «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» طبعة دي غويه (ليدن ١٩٠٦).
المقري (١٠٤١/١٦٣٣): أحمد بن محمد.
١٢٢ ـ «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» ٤ أجزاء (بولاق ١٢٧٩/١٨٦٢)، ١٠ أجزاء (القاهرة ١٩٤٩).
١٢٣ ـ «أزهار الرياض في أخبار عياض» ٣ أجزاء، ضبطه وحققه وعلق عليه الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي (القاهرة ١٩٣٩ ـ ١٩٤١).
المقريزي: (٨٤٥/١٤٤١) تقي الدين أحمد بن علي.
١٢٤ ـ «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار» جزءان (القاهرة ١٢٧٠ هـ).
ميور: وليام تمبل Muir: William temple

١٢٥ ـ "The Caliphate, Its Rise, Decline and Fall", (Edinburgh, 1924).

نظام الملك: (١٠٩٢/٥٨٥ م).

١٢٦ ـ «كتاب سياسة نامة» Siasset Name'h, trsite de Gouvernement, Compose` Pour Le Sultan Malik-Chah par Le Nizam oul-moulk, (texte Persan ed. by Charles Schefer) 3 vols. (Paris, 1891 - 1897).

ابن النديم: (٩٩٣/٣٨٣) محمد بن إسحاق.

١٢٧ ـ «كتاب الفهرست» جزءان (لايبسك ١٨٧١ م)، (القاهرة ١٣٤٨ هـ).

النسيبي.

١٢٨ ـ «كتاب مطالب السول في غزوات الرسول» مكتبة الجامعة بليدن، مخطوط رقم ١٩٧٩.

ابن النعمان: محمد.

١٢٩ ـ «كتاب الإرشاد» مكتبة الجامعة بليدن، مخطوط رقم ١٦٤٧.

٨١٧/٢٠) أبو محمد الحسن بن موسى.

١٣٠ ـ «كتاب فرق الشيعة» (استامبول ١٩٣١).

نيكلسون: أ رينولد Nicholson: A. Reynold

١٣١ ـ "Literary History of the Arabs" (Cambridge, 1930)

هيد: و. Heyd" W.

١٣٢ ـ "Histoire du Commerce du Levant au moyen age" 2 vols (Leipzig 1925).

هل يوسف: Hell: Joseph.

١٣٣ ـ "The Arab Civilisation" trans. from German by Khuda Bukhsh (Cambridge, 1926).

وستنفلد: ف. فون Wustenfeld: Von

١٣٤ ـ "Die Geshichtschreiber der Araber und ihre Werke" (Gottingen, 1882).

ياقوت: (١٢٢٩/٦٢٦): شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي.

١٣٥ ـ «معجم البلدان» ١٠ أجزاء (القاهرة ١٩٠٨/١٢٣٥).

اليعقوبي: (٨٩٥/٢٧٢): أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح.

١٣٦ ـ «تاريخ اليعقوبي» جزءان (طبعة M. Th. Houtsma ليدن ١٨٩٢).

١٣٧ ـ «كتاب البلدان» (طبعة دي غويه ـ ليدن ١٨٩٢).

أبو يوسف: (١٩٢/٨٠٧ ـ ٨٠٨) يعقوب بن إبراهيم.

١٣٨ ـ «كتاب الخراج» (بولاق ١٣٠٢ هـ) و[المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٦].




الفهارس العامة

* فهرس الأعلام والقبائل والمذاهب والشعوب
* فهرس الأماكن والمواقع الجغرافية
* فهرس الموضوعات




فهرس الأعلام والقبائل والمذاهب

ـ أ ـ

- ر -

- ز -

- س -

- غ -

- ف -

- ق -

ـ ك ـ

ـ ل ـ

ـ م ـ

ـ ن ـ

فهرس الأماكن

ـ ت ـ

- غ -

- ف -

- ق -

ـ ك ـ

ـ ل ـ

ـ م ـ

ـ ن ـ

- هـ -

- و -

- ي -

محتويات الكتاب

الباب الأول

حالة الأحزاب في آخر العصر الأموي

١ ـ الجماعية ـ الشيعة ـ الخوارج ـ المرجئة ـ المعتزلة

٢ ـ حزب بني أمية وانقسامه على نفسه

٣ ـ حزب بني هاشم واتحاد كلمته للقضاء على بني أمية

٤ ـ قيام الدولة العباسية

الباب الثاني

خلفاء العصر العباسي الأول

الباب الثالث

الحركات السياسية والدينية

١ ـ حالة الأحزاب السياسية عقب قيام الدولة العباسية

الباب الرابع

العلاقات الخارجية

الباب الخامس

نظم الحكم

١ ـ النظام السياسي

٢ ـ النظام الإداري

الباب السادس

الحالة الاقتصادية

الباب السابع

الثقافة

الباب الثامن

الفن

الباب التاسع

الحالة الاجتماعية

ملاحق الكتاب

